رواية

مايا الطرابلسي

قسمة الروح

الرواق للنشر والتوزيع

قسمة الروح

قسمة الروح (رواية)

مايا الطرابيلي

■ الطبعة الأولى.......... يناير 2015

الغلاف: أحمد مراد

التصحيح اللغوي: سارة صلاح

رقم الإيداع: 2014/22135

الترقيم الدولي: 1 - 53 - 5153 - 977 - 978

جميع حقوق الطبع محفوظة

للنشر والتوزيع

3 شارع إدريس - أول شارع الوحدة - إمبابة - الجيزة

هاتف وفاكس: 33100951 (202)

محمول: 01147379183

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaq Publishing

قسمة الروح

رواية

مايا الطرابيلي

الرواق للنشر والتوزيع

إهداء إلى..

والدي.. مشكِّل وجداني..
والدتي.. قبس النور بحياتي..
حبيبي وزوجي.. السند والدعم..
شقيقاتي وصديقاتي.. برحلتي الطويلة نحو تحقيق الحُلم..
الصديقة والكاتبة هدى عبد المنعم.. لروعة عطائها الدائم..
الصديق الكاتب أحمد عبد المجيد.. كريم الخُلُق..
أرواح الأحبة الغائبين.. تمنيت أن تكونوا إلى جانبي الآن..
لولا دعمكم ومساندتكم جميعًا ما خرَجَتْ الرواية إلى النور..

"أي اختلاف بين الواقع وتسلْسُل الأحداث هو للضرورة الدرامية"

(١)

"لا تقفي كالتمثال!"

صرخ بالممرضة التي تبعته فور انتهاء العملية، محاوِلا عبثًا حل الرباط المعقود خلف ظهره، مخلِفًا وراءه عبقرية أنامله الجراحية بغرفة العمليات، فور ما تجاوزَتْ خطوات قدميه بابها، عائدًا تحت رحمة طيفها الذي اتخذ مقلتيه مستقرًّا! سارعَتْ المسكينة بحلِّه معتذرة بوجل. "سأكون بمكتبي ألقى تصريحه نافذ الصبر كورقة مجعَّدة بسلَّةِ المهملات دون النظر وراءه. تتسع فتحتا أنفه انفعالًا متخلِّصا من القفازات المطاطية بالمخلفات؛ توجَّب عليه التخلُّص منها قبل مغادرة الغرفة.. "خطأ لا يُغتفَر!" سائرًا في الرواق المضاء بمصباحٍ أبيضٍ باهتٍ، متنفِّسًا الصعداء، تصدر دقات قدميه دويًا خافتًا فوق أرضها الرخامية، وابتسامة هي مزيجٌ من الاستنكار والضيق ترتسم فوق شفتيه.. وآخرَتِها يا قسمت! عبَّ الهواءَ لرئتيه فامتزجت بأنفاسه رائحة مطهِّر جعلته يقلب شفتيه بقرف؛ لم تكن سببًا في التوتر الذي اعتراه، بل الإرهاق ونفاذ الصبر للعودة للمنزل، للعودة إليها!

نجح أخيرًا في التخلُّص من الرداء وقذفه بالجارور الألومنيوم، دافعًا باب مكتبه، مرتميًا فوق الأريكة البُنِّيَّة بإعياء، وانحنى ممسِّدًا رأسه عَبْر خصلاته السوداء التي غزتها جيوش شعيرات فضية؛ منحته هيبة من الوقار خدمته بمجال عمله، مُذكِّرة إياه أنه خليفة والده رغم أنفه! وقد تعدت عوامل الوراثة الجينات والشيب المبكر.. للوظيفة! أعاد رأسه للوراء مغمضا، وسرعان ما ارتسمت صورتها أكثر وضوحًا مستغلة لحظة الضعف والإنهاك، ففتح عينيه متخذًا الجانب الآمن بعيدًا عن خيالاته!

يوم مرهق لأقصى الحدود، مستشفاه الصغير يعمل بأقصى طاقته في العديد من التخصصات؛ واستثناءات هذه الأيام بلا حصر، العمل لا يتوقف ليل نهار، والأرباح مضاعفة رغم خفضه التكاليف للنصف؛ وهو ما أسعد الدكتور خالد كثيرًا رغم رفضه من البداية إبقاء أبواب مستشفاه (عدنان للجراحات العامة والتوليد) مفتوحة، في ظِل انتشار البلطجة وانعدام الاستقرار والفراغ الأمني الذي تعانيه البلاد، لكن يبدو أن الحُرَّاس ذوي الأجساد الضخمة على البوابات قاموا بعملهم على أكمل وجه، للآن على الأقل. كان اقتراح والده؛ أشار عليه بالحراس في نزع رفضه الأخير. وقد قام بما يمليه عليه ضميره رغم المخاطرة، ضميره الذي كان في رحلة غياب طويلة، طرق خلالها كل باب باحثًا عن نفسه، فعثر عليها! قِسمت؛ الوحيدة التي ساندته في قراره، كم غريبٌ تأثيرها على حياته وقرارته رغم عدم قيامها بالكثير! لا تتعمد الفعل فتدفعه دفعًا نحو الطريق الصحيح! قسمت.. "سِيما.. أسما"! ردَّد اسمها بتلذذ. تفرقهما هذه الأيام ظروف عمله، ويعلم لأي مدى ترتاح لبعدهما! زوجته الهاربة دومًا من مشاعر تنكرها، فتقسو على نفسها كي لا ترق وتهفو! ينفلت التوق حينًا ليلوح بعينيها نديتيّ البراعم، وسرعان ما تخنقه ممسكة بتلابيبه لتعيده للأسر كمن ارتكب معصية! لولا يقينه ببشريتها لظنها متحولةٍ ممن قرأ عنهم بالاساطير؛ متبدلة كموج البحر من حالٍ لحالٍ، يستحيل توقُّع خطواتها.

إذا الليل أضواني بَسَطتُّ يَدَ الهوى.. وأذللتُ دمعًا من خلائقه الكبر..

معللتي بالوصل والموت دونه.. إذا مِتُّ ظمآنا فلا نزل القطر..

تنهَّد بعمق زافرًا عناء اليوم الطويل، متيحًا لصوت سومة الرخيم التغلغل بمسامه، ليمنحه ما يتوقه من استرخاء. صدقت: هو ظمآن لنبعها الذي يضن عليه بشربة من رقراقه ولو بملء الكف! حمدًا لله، غرفة العمليات تحتفظ بحُرمتها؛ فلا تستطيع ابتسامة "أسما" وغمازتاها التسلل وإلا بات الأمر كارثة! اختلس نظرة لهاتفه، أيتصل للاطمئنان عليها؟ لا ستنزعج، آه من القسوة بين ضلوعها وذاك الجمود المصطنع! تقلب الأدوار؛ فحين يفترض بالأنثى البحث عن الاهتمام والسعي إليه ترى لديها العكس، بأي منطق يسير معها؟! حدق بجهاز التحكم لثوانٍ، سينشغل بأمور أخرى ولو للحظات! مدَّ أصابعه الرفيعة المغموسة برائحة المطهِّر ممسكًا بجهاز التحكم، مذكِّرًا نفسه بغسل يديه قبل رحيله؛ لن يمنحها حجة تنفُّرها فتتحول السويعات التي ينتظرها بفارغ الصبر لمأساة! ضغط زر الجهاز طاردًا أفكاره المتوثبة للقتال لتضيء شاشة التلفاز، وخفض الصوت ليتمكن من الاستماع إلى القصيدة.

يتابع مع الجميع القنوات الإخبارية هذه الأيام، لكن بتأمله الحال يدرك أن الأمر مدعاة للسخرية! لم يكن يومًا مهتمًا بالسياسة رغم لدغاتها التي كان لعائلته منها نصيب! كما لم يكن يهتم بأشياء كثيرة؛ عالمه المغلق على عمله وهوسه بالفلك لم يترك له فسحة لشيءٍ آخر. ذلك العالم الذي ظنه يومًا مثاليًا، اختلف بظهورها في حياته، وبين ليلة وضحاها باتت صخب الحياة المفتقد وشغفها الممتع الذي حُرِم منه عمرًا، مستمتعًا بغموضها الذي يحاول للآن فكَّ طلاسمه. كان لقاؤهما لعبة من ألاعيب القِسمة، وميلهما لبعضهما معجزة كالتي تحدث الآن وكأنه زمن المعجزات؛ مصر التي سارت مغمضة العينين نحو قدَرَها المحتوم، لتكمل دورها كوسية لابن الباشا، تثور! من كان يصدِّق أن بضع تدوينات لشباب الـ (saggy pants)، قادرة على إطلاق كل تلك الحناجر من أقفاصها؟! حقيقة فرضت نفسها وبقوة. ربما طبقته هي المحظوظة؛ طبقة الأغنياء ذوي النفوذ والعلاقات القريبة من السلطة، قدَرٌ سعى إليهم ولم يسعوا إليه، كما كان قدرها أن تكون سليلة الطبقة الأخرى!

ضغط زر التنقل بين القنوات بنفاذ صبر، تحدَّج عيناه بين فينة وأخرى هاتفه المسترخي فوق الطاولة، ماذا ينتظر منها؟ اتصالًا؟ أحمق! يؤخر نفسه لتهدأ مشاعره وينجح في ارتداء قناع الجمود والاتزان مجبَرًا وإلا فقدها! تعلم ترويض مشاعره ألا يفضحه توقًا سترفضه، وكم تكون الحاجة للاهتمام ممن تحب أكثر إيلامًا من أي شيء.. مسكينة علياء!

ظهرت صورة الرئيس جاذبة انتباهه في إعادة لخطابه، فخفض صوت "سومة" ورفع صوت التلفاز، كان الرئيس بحاجبيه المرفوعين للأعلى، ونظرة الاستعلاء والتصميم بعينيه الضيقتين اللتين يحاول جاهدًا إبقائهما مفتوحتين. ابتسم بسخرية، مازالت حقن المنشطات تقوم بمفعولها العجيب! أرخى الحبل الأيام الماضية ليرى منتهى المطاف، معتمدًا سياسة النَّفَس الطويل كما اعتمدوها معه. أمن المعقول أن يكون خطاب التنحي هكذا ببساطة وتكون محقة بتوقعها؟! رفع الصوت للتأكُّد مما يسمعه، (سأظل.. وسأعمل.. وسأتأكد بنفسي)، أفعال مضارعة مستقبلية لعينة! بدا عليه النحول وقلة النوم، لكنها النظرة الماكرة بعمق عينيه الضيقتين ملتمعة بوميض الإصرار كخطابه العبقري! بضعة جُمل ستصنع فارقًا بلحظات مع شعب اشتهر بعاطفيته، جُمل كالمهدئات (فعلتُ الكثير لأجل الوطن.. لم أكن يومًا خائنًا للعهد والأمانة.. سأموت وأدفن تحت ثرى وطني). اتكأ على الأريكة بأريحية. "علمتم من أين تؤكل الكتف!" هو ليس بالسياسي المحنَّك، لكن اختلاطه بطبقته ساعده بقراءة ما بين السطور؛ الرئيس ليس الكيان الوحيد الذي يجب استئصاله، هو رمز للكيان الفاسد، والمساكين لا يدركون مدى تفشِّي الفساد كالسرطان.. لكن.. يكفيهم شرف المحاولة!

أجفلته طرقات متأنية على باب مكتبه، خشى أن تكون الممرضة أتت لإعلامه بمجيء حالة جديدة! سيموت إرهاقًا، ولن يستطيع التأخر عليها أكثر من هذا، زفر بسخرية، وكأنها تهتم! أمر خارج عن السيطرة ما يتولَّد بينهما كالمفاعل النووي، هل سيعثر عليها عند عودته أم ستكون الليلة حلقة جديدة من سلسلة الهروب؟! يأمل بليلة تحيل الحياة لألوان الربيع! دلف

صديقه مغلقًا الباب بدهشة: ألم تعد للمنزل؟! أخبرتني فاطمة أن عملية الاستئصال تمت بنجاح، هل سومة من تبقيك؟!

نظر عدنان لساعته، مرَّ الوقت سريعًا! مسَّد عينيه بإعياء: أردت التقاط أنفاسي قبل معركة العودة، تعلم كيف هي الأمور، والطريق للفيلا طويل.

مطَّ شفتيه: اختصر الطريق، اتجه لمنزل والديك، تلقيت الليلة الاتصال الثالث من الدكتور خالد؛ يحاول التوصل لطريقة تقنعك بالعودة، عمي غير مقتنع أبدًا بما تفعله، وتعلم أنه شعوري أيضًا، هي لا تصلح لك!

رمقه عدنان بنظرة حادة: هي زوجتي، لا أسمح لأحد بالحديث عنها خاصة بنبرة كالتي تتحدث بها يا عمرو.

لوح بعصبية: كلانا يعلم الظروف التي جمعتكما ـ هزَّ رأسه بضيق ـ كيف تسمح لنفسك بـ....

ـ لا تضيع صداقة عمرنا بجملة لن أغفرها، قِسمت خط أحمر، أنا فقط من يعرف حقيقتها!

تساءل بنزق: أخبرني إذن بحقيقتها علني أتفهم! ـ حدجه عدنان بنظرة صارمة فأرخى كتفيه ـ تضعنا جميعًا أمام جدار صلب، أعلم أنك عنيد ولن تستمع إليَّ، لكن صداقتنا تـحـ...

قاطعه بحزم: تُحتِّم عليك التوقف عن الحديث في الأمر، بل وتعدني بعدم الخوض فيه. ما بيني وبين زوجتي أمر يخصنا وحدنا.

تمتم بحزن: حقوق الصداقة تحتِّم عليَّ تنبيهك لسيرك مغمض العينين نحو حفرة تتربصك بالهلاك ـ صمت لبرهة بانتظار تعليقه فجاوبه الصمت، مدركًا خسارة مرافعته ضدها للمرة الألف ـ قُدْ بحذر وانتبه للطريق.

صديقه ذو الشعر الأجعد والعينين الحادتين العسليتين اللتين طالما أوقعتا النساء بحبائله، مازال يحمل مشاعر الصبا ونزعة الحماية للدفاع عنه ولو أمام نفسه. لاحت رغمًا عنه ابتسامة ألانت ملامحه: أعدك يا عبسي!

قلبَ عينيه بمرح: مازلت تذكر! كانت لينا تصر على مناداتي به ـ تبدلت

ملامح الغبطة على صفحة وجهه للمحة حزن سرعان ما اختفت ـ توقف وإلا أخبرت الدكتور خالد بعنوان فيلا المقطم.

سأله بتسلية: وهل ستفعل يا عبسي؟

مطَّ شفتيه: لن أفعل طالما تصر على ألا أفعل، ولائي لك أولًا

عاد عدنان للوراء قائلًا بشرودٍ: لا أدري أين ذهبت الأيام التي كنا لا نحمل فيها للدنيا همًّا فنمرح بأبسط الأشياء؟ كنا أسعد بغربتنا! اختفت بساطة الحياة رغم دفء الوطن!

ـ ومن أين لنا الاستمتاع بوطنٍ يعاني كوطننا؟! ـ أشار للتلفاز ـ ها هي الثورة أتت على غير موعد حاملة رياح التغيير ـ تابع بمرارة ـ ظل العجوز يمارس جملته الشهيرة (دعهم يلعبون) على كل الأصعدة، وها هي النتيجة، ولا أدري أشرٌّ ما يحدث أم خير. استمعت للخطاب؟

ـ يعتريني قلقٌ رهيب من الساعات المقبلة.

ـ نبرة غير متوقعة! أمازلتم تغلقون غرفة لينا بالمفتاح؟!

ـ أجل، وأرفض مايفعله دكتور خالد، حتى والدتي رغم خوفها ترفض أسلوبه.

قال عمرو بتجهم: لكنه السبيل الوحيد لحمايتها من الطيش الذي اعتراها.

سأله عدنان بسخرية: أتراه طيش حقًا أم أننا نتوارى بخوفنا خلف ادعاء الحماية والتعقل؟

لدينا مجال نساعد فيه هنا، لسنا بحاجة للنزول إلى الميدان لنثبت وطنيتنا وانتماءنا.

ماذا إن كانوا بحاجتنا هناك أكثر من حاجتهم إلينا هنا خلف أسوار مستشفانا الخاص؟

قال قبل أن يغادر مغلقًا الباب: لا تشجعها، أرجوك!

لم يجرؤ عدنان على معارضته كونه يرى ما فعله والده في مصلحة لينا شقيقته، وقد قام بفعلٍ مماثل خوفًا على قسمت!

عمرو؛ صديق الطفولة، علاقتهما تتعدىٰ الصداقة، هما كالأشقَّاء، بقربه منذ وعت عيناه الحياة، ابن الدكتور عادل أبو الفتوح صديق والده المقرب، جمعتهما الغربة أثناء إعارة بإحدىٰ الدول العربية، وبالغربة يبحث كل شخص عمن أتىٰ من منبعه، عمن يذكِّره برائحة وطنه وملامح الأهل والأحبة، كانوا باحتياج دائم لبعضهما البعض كي تظل الذكرىٰ حية بنفوسهما، ذكرىٰ الوطن الذي لا يعلمان هل هاجرا عنه أم هاجر عنهما! وهكذا هو الحال؛ ابن الطبيب طبيبٌ وابن القاضي قاضيٌ رغم أنف الجميع! حتىٰ الأبناء يتم برمجتهم منذ الصغر علىٰ الأمر بلا نقاش، كجرعات التطعيم! ربما أخفقت المعادلة بظروف كثيرة؛ فيصبح الطبيب بالإجبار فاشلًا، لكنها ولحسن الحظ لم تخفق معهما، فعمرو يُعَد عبقريًا بجراحة الأعصاب والأوعية الدموية، أما هو فيشاد بعبقرية جراحاته بالعمود الفقري، لكن لم تكن الإعارة السبب في نقلهما بسرعة البرق لطبقة المجتمع المخملي، بل عملية طارئة احتاجها أحد أقارب الأمير بسرعة تقتضي عدم سفره للخارج، وبالمصادفة كانت عملية دقيقة بتخصص والده، خطوة بدَّلت عالمهم وفتحت أمام والده الأبواب علىٰ مصراعيها لحقبة جديدة، ممتلئة بالوعود لمستقبل حقق فيه الكثير، جاذبًا معه صديقه عادل أبو الفتوح لتصبح شراكة العمر. أنبأه تجهُّم عمرو بعدم اقتناعه، لكنه مؤمن بكل كلمة تفوَّه بها؛ لا أحد يعرف قِسمت مثلما يعرفها. أتراه يسير مغمض العينين لهلاكه كما أخبره؟ ربما ألقت تعويذة لتسحره كما يقولون! أو صنعت عملًا سفليًا كما صرحت والدته حين زارهم في المرة الاخيرة! أطلق ضحكة متسلية، كل ما يعرفه أنها كلما تصدت لمشاعرها كلما زاد رغبة في معرفة ما يدور بذلك الرأس الجميل، وما تخفيه تلك الابتسامة البرق، وإن كان هناك حقًا عمل سفلي، إذن هي ابتسامتها!

قام اليوم بأكثر الأعمال سخافة، ليطمئن لعدم قيامها بأي حماقة رآها تلوح بشرودها ولفتاتها القلقة، تلك النظرة المبهمة بعينيها أصابته بالتوتر، كانت..؟ لا يدري كيف يصفها! كمن بانتظار شيء تراهن نفسها عليه، رفضت الإفصاح رغم محاولاته المستميتة في حصارها بالأسئلة، رأىٰ شيئًا

يشتعل داخلها وهي جالسة على الأرض ضامة ركبتيها لصدرها أمام الأخبار، ليل نهار، بلا نوم! وقد أدرك بعد الخطاب المخيب أنه فعلَ خيرًا! يرجو أن تسامحه حين تكتشف؛ وهي الحادة الطباع دومًا فيما يخص كرامتها! هاجمه خوف مميت وانقبض قلبه. (سأظل.. لن أتراجع.. سأبقى)؛ شرارات نار ستشعل فتيلًا غارقًا بالبنزين، ويعلم من الفتيل! عاود الإمساك بهاتفه وضغط زر الاتصال، ليسمع نغمة الهاتف ترن بإلحاح.

نظرت مقطبة للهاتف الذي أجفلها رنينه، لتقع الحبة الأخيرة التي تحاول وضعها بالكيس المخملي، متدحرجة أسفل طاولة الزينة، زمجرت بغيظ مضيقة عينيها، وانحنت باحثة عنها بلا جدوى، ازدردت ريقها والتفتت صوب الهاتف تحدجه بغضب، كانت الشاشة تومض بصورة لهما معًا أصر عدنان على وضعها، تجاهلته ثانية لبعض الوقت، معاودة للبحث، راكعة على ركبتيها قُرب فراشهما الضخم، لكنها فشلت. ليس أنتِ الأخرى! أمسكت بالهاتف تضم شفتيها بحزم، وضغطت زر الإجابة رغم خشيتها إفلات أعصابها الثائرة؛ لا يجب أن يعلم باكتشافها فعلته! سمعت صوته مداعبًا: "إسمتي فأجابته بالمعتاد: "غير قسمتك" قال بمرح: "تعجبني هكذا" في محاولة لوأد ذاك الشعور المنعش لروحها كلما تفوَّه باسمها، سألته بنزق: "المكالمة الثانية اليوم!" ضحك بتسلية: "مازلتِ تحصين مكالماتي!" قالت ببرود: "اتفقنا على واحدة فقط" صمت لبعض الوقت فأكملت السير حثيثًا، محكمة إغلاق الكيس ووضعته بجيب السترة. أتاها صوته مُحبَطًا: "ربما لا تكفيني مكالمة واحدة" زفرت بسخرية: "كعادتك، ترهق نفسك بالتفكير مطولًا قبل الإجابة، ودومًا تأتي الإجابة بما أتوقعه" تعالت ضحكته: "تعترفين إذن بمعرفتي حق المعرفة" سألته بأنفاس متسارعة هابطة الدرج متلفتة يمينًا ويسارًا للتأكُّد من خلو الصالة: "ماذا تريد أيها الطبيب؟" سألها بتوجس: "لماذا تلهثين؟" توقفت عن السير مزدردة ريقها، ملاحظاته الدقيقة كعمله تكاد تصيبها بالجنون! دست سماعتها بأذنها: "لأني أهبط الدرج، عليَّ الذهاب، كريمة تناديني لأمر بشأن العشاء". سألها

بارتياح: "ماذا سنأكل؟" تآكلها تأنيب الضمير "مفاجأة" هتف بمرح: "اتفقنا، كوني بانتـ.. ـ لم يكمل، بالجملة حميمية لا تناسبها ـ إلى اللقاء يا سيما" غمغمت بصوت أجش: "وداعًا" أغلق الهاتف مقطبًا، هي أعقل من أن تقوم بأمر جنوني في ظروف كتلك، دعا الله أن يكون مصيبًا هذه المرة!

كنا نتلاقى من عشية نقعد على الجسر العتيقة.. وتنزل على السهل الضبابة تمحي المدى وتمحي الطريق.. ماحدا يعرف بمطرحنا غير السما ورق تشرين.. ويقللي بحبك.. أنا بحبك.. ويهرب فينا الغيم الحزين!!.

"تمزحين!" أوقف السيارة محدقًا أمامه وقد أصابه الخرس، يلاقي الأمرَّين بالوصول وهذا ما يلقاه باستقباله! حين انسابت الأغنية لأذنيه التي شابهت في نعومتها قطرات الغيث فوق وريقات الزهر؛ أصابه الجزع وأسرع مترجلًا من السيارة صافقًا بابها، ليقف أمام البوابة الحديدية فاغرًا فاه، مطالعًا الشرفة المضاءة التي تعالى منها صوت فيروز! تضرب جسده هبَّات عنيفة من الهواء، محيلة أنفه ووجنتيه لمرتفعات جليدية، رغم ثقل المعطف الذي فشل في تأدية دوره بتلك الأجواء الصقيعية بالمقطم كليل الصحراء؛ أغلق زِر المعطف منكمشًا، عليه نفض المفاجأة والتحرُّك. تدير إحدى أسطواناتها في هذه الظروف بصوتٍ مرتفع، وليست بأغنية عادية، فخلال ثوانٍ ستقلب سكون المكان لحفل أوبرالي، متحولة لهزيز ريح عاصف! معظم الليالي ينتظره استقبال حافل (مع قسمت.. السينما في بيته)! ربما تهدف لإثارة غضبه أو هي طريقة جديدة لإعلان العصيان! لمح القفل الضخم معلَّقًا بالباب الحديدي، جيد، حسنين لم ينس إغلاقه، يشفق على الرجل من واجبات الحراسه، لكن لن يستطيع الاستغناء عنه، حتى وإن أراد فلن تسمح قسمت! حاول إدخال المفتاح بالقفل، لكنه فشل فأسرع مناديًا: "عم حسنين، عم حسنين". يغط العجوز حتمًا ببئرٍ سحيق ولا أمل أن يسمعه وسط

الضجيج، حاول ثانية هاتفًا من بين أسنانه: "الرحمة!". لماذا يصاحبه الفشل الليلة في التعامل مع الأشياء؟ يكاد لا يشعر بأصابعه، ارتعشت السلسلة في يده ارتعاشة أصابت عموده الفقري سارية بأطرافه، يصاحب رنينها الخافت صوت فيروز الذي فتت هدوء الأجواء، عليه الإسراع؛ المقطع القادم سيهز المنطقة ويعرضهم جميعًا للخطر!

تبدو الفيلا كجسم غريب انشقت عنه الأرض، كأنهم الناجون الوحيدون بعد كارثة طبيعية. القفل اللعين! وجد نفسه يتمتم بكلمات الأغنية بصوت هدجته البرودة، معاودًا الفشل مرات ومرات: "ويقللي بحبك أنـ.. رفع حاجبيه، يدندن فيروز (روزا) كما تدعوها! كل شيء تعشقه يتسلل إليه بغفلة منه ليحتل بقعة من حياته، مزاحمًا بعضه البعض بمزيج عجيب.. مزيج (سيما)! اختفت أصوات الحيوانات التي كانت تعوى ليلًا؛ ربما تعاني هي الأخرى الذعر، الكل مذعور! حتى الهضاب الصغيرة بقممها المنخفضة لم تعد تصفر لهجمات الرياح ممراتها وثقوبها، مكتفية بالاستماع للصوت المنفلت من حناجر اعتادت الخرس! تناهى لسمعه المقطع المنتظر مرعدًا..

يا سنين اللي راح ترجعيلي.. ارجعيلي شي مرة ارجعيلي..

المساجد تدير القرآن والكنائس تتلو الترانيم لما بعد الفجر، وتدير هي أغاني روزا لتستقبله! هتف من بين أسنانه المصطكة: "سامحك الله يا عم حسنين" شعر باهتزاز هاتفه فلعن للمرة الثانية، مجيبًا بنفاذ صبر: أجل وصلت، لا، لا أستطيع، أخبرتك أني لن أبدِّل رأيي وآتي للمبيت، لا أستطيع - لوح بيده - ماذا تعني أنها ليست بمشكلة! تركها وحدها بظروف كتلك ليس بمشكلة؟ - زفر بضيق - أنا في السادسة والثلاثين! لم أعد طفلًا لتنعتني بالعنيد يا دكتور خالد - بدأت نبرته تعلو فوق صوت الأوبرا الدائر - من فضلك يا أبي، أنا...

انقطع الخط؛ صارت عادة لدى الدكتور إغلاق السماعة بوجهه! ارتفع جانب فمه: "لا يهم!" أمكنه المبيت لدى والديه بالرحاب، لاسيما وهي أكثر هدوءًا من قلب القاهرة وأكثر أمانًا من المقطم، لكنه شيء أقوى من

إرادته ما يجعله يعود مرارًا كل ليلة لشهور مضت وشهور آتية رغم الاتفاق! ورغم إصرارها على عدم حاجتها له! لم يكن عليه الانصياع لرغبتها بمكانٍ منعزل هو آخر خط العمار؛ برغم مروره على العشرات من اللجان الشعبية التي نظَّمها شباب المنطقة، إلا أنها اختفت عند نهاية الطريق، فالمتوقع أن المنطقة غير مأهولة بالسكان عدا فيلتين أخيرتين، وقد غادر قاطنوها بعد اندلاع المظاهرات التي أطلقوا عليها منذ أيام قليلة (ثورة)! حين أتى الطوفان لم يفرِّق بين علية القوم وأدناهم؛ الجميع يعاني الخوف وعدم الأمان، وأكبر مثال على هذا (المقطم)؛ واحد من أرقى الأحياء السكنية لعلية القوم والمشاهير، بدايته نهاية طريق المقابر التي يسكن أضرحتها الأحياء! عالم المقطم الغريب حيث الثراء الفاحش والفقر الفاحش؛ هي القاهرة! معقل الغرابة وأرض التناقضات، بطعمها الحلو اللاذع، وقد كشفت الليالي الماضية عن أنياب وحوشها ووجوههم القبيحة، مطلة من شقوق الجدران وظلام السجون والمخابئ التي فُتِحت على مصراعيها! يبدو أن الخطة التي سمع شائعاتها ووُضِعت لقمع العصيان حال حدوثه تم تنفيذها مبكرًا! وقع على رؤوسهم كالصواعق، محرقًا أحلام الوريث بإرث والده العجوز!

الأسطوانة أصابها الجنون! تعيد نفسها! سقطت سلسلة المفاتيح فهتف زافرًا بغيظ: "لن تعود السنين يا أسما.. لن تعود!" اعتصر أصابعه متنفسًا بعمق وقد تلاشت رغبته في المحاولة، معاودًا النداء بإصرار طارقًا فوق البوابة بكل قوته، حين سمع صوتًا متوجسًا: "من هناك؟" كان صوت المسكين بالكاد يخرج من حنجرته، صاح بصوت خفيض. "أنا يا عم حسنين" سارع الرجل وفتح القفل ببساطة شديدة فتنفس عدنان الصعداء، همَّ الرجل بالحديث مبتعدًا عن بقعة الظلام: "الليلة أكثـ..". رفع عدنان يده مشيرًا للرجل بالتزام الصمت، حين سمعا صوت طلقات رصاص آتٍ من بعيد! فتسمَّر كلاهما. كانت الطلقات تعلو وما تلبث أن تخفت وتختفي، الأمر ليس بجديد، حدث طوال الأيام الماضية، هي تقريبًا المرة العشرين التي يسمع بها طلقات الرصاص الليلة؛ ساكنو الجبال ومطاردو العدالة الذين

أصبحوا حلفاء حراسها! لم تكن طلقاتهم موجهة لشخص بعينه، يتعمدون إثارة الذعر! سمع صوت إطارات سيارة تسير مبتعدة ليسود الهدوء، نفس الطريقة وعدد الدقائق؛ ما بين ستة إلى عشر رصاصات تنطلق في الهواء، يليها صوت ابتعاد السيارة، وبعدها الصمت إلا من همهمات مستنكرة أو بعض السباب الغاضب، وأحيانًا قليلة صراخ يحمل دعوة للركض خلف المعتدي سرعان ما يهزمه اليأس. اليوم الثامن ولم تهدأ الأمور كما توقع الجميع! لم يستطع جبابرة النظام إضعاف المظاهرات وكسر شوكتها، أغبياء! لقد أتت الثورة لتبقى.

قال العجوز مشددًا قبضته على عصاه الخشبية الضخمة التي لا تفارق يده المسماه (نبوت): حمدًا لله أنه حضرتك، الرصاص الذي يصل لمسامعنا كل حين روَّعنا.

كانت عصاه تراث أصر على الاحتفاظ به رغم معيشته لسنوات بالمدينة الصاخبة، كما أصر على الاستقرار داخل الجلباب الواسع والخف الجلدي رغم قرصة الشتاء! قال عدنان بمزح: من يراك هكذا لا يصدق معايشتك حرب أكتوبر!

كانت منذ زمن، وملكنا السلاح لنقاوم بحرب شريفة ضد الصهاينة، الآن أجهل العدو المتربص، الحرب التي عايشناها لم تستطع قسوتها تهيئتنا لشيء كالذي نمر به! ـ لوح بنبوته ـ أرني العدو ولن يجرؤ الذعر على الاقتراب مني.

اختصر العجوز بكلمات بسيطة الحكاية المقيتة كلها، كانت الحرب القديمة ضد اليهود منطقية وشريفة، أما أن يحارب الوطن أبناءه فأي منطق هذا؟! مطَّ عدنان شفتيه بإحباط: معك حق يا عم حسنين، جميعنا مصدوم ـ استدرك معتذرًا ـ لم أشأ إخراجك من غرفتك رغم اندهاشي من قدرتك على النوم ـ نظر صوب النافذة العلوية متهكمًا ـ مع الضوضاء!

ـ خف كريمة مفقود، وكنت أنو الخروج للبحث عنه على أي حال، تعلم أن (قطها جمل).

ابتسم عدنان، يعلم كم كريمة زوجة حسنين عنيدة! فيلا موعودة بالنساء العنيدات! ربت فوق كتف الرجل. عد لغرفتك فالوقت غير ملائم للبحث ـ هَمَّ الأخير بالاعتراض ـ قلت اذهب لغرفتك، وأخبرها أني أمرتك ـ أومأ باستسلام دون حراك منتظرًا ليطمئن على دخوله الفيلا ـ شغَّل الأسلاك المكهربة فوق السور وعُد للنوم.

عليه أن يبعدها عن الشرفة، ثمة أشخاص أصيبوا بمنازلهم من تلك الرصاصات! فور ما فتح باب الفيلا استقبلته رائحة العود المحترق مالئة الأرجاء، لن ينسى يومًا سعادتها عند شرائه، ما أجمل ذكرياته الموسومة بابتسامتها، تلك الابتسامة الفتّاكة كوقع الصاعقة والمضيئة كبرقها! يحدوه الشوق لرؤيتها مفترشة أرض الشرفة إلا من وسادة صغيرة أسفلها، وسمَّاعة تسكن أذنها اليسرى تهمس عبرها روزا بأغنيات الحب، لكن لا سماعة الليلة؛ كل شيء يُسمَع معها، وبالإجبار! قفز الدرج الخشبي مناديًا: "أسما، اخفضي الصوت" عاود النداء وما من مجيب! وحين وصل أمام الغرفة طرق الباب بقوة، محاوِلًا فتحه لكنه كان مغلقًا بالمفتاح، فأخرج سلسلة مفاتيحه، ربما تعترض لكن لا يهم! قطع وعدًا بطرق الباب وعدم الدخول سوى بعد الاستئذان، لكنه أصر على الاحتفاظ بنسخة من المفتاح تحسُّبًا للظروف، أتكون قد استسلمت للنوم؟ كارثة! فتح الباب ودلف مسرعًا فاستقبله الإبريق الكريستالي بقلب فارغ فوق المنضدة، اختفت الحبات! التفت مطالعًا الشرفة المفتوحة على مصراعيها، تتطاير ستائرها ذات الخطوط الذهبية مع هبات الهواء دون أثر لها! جالت نظراته القلقة بالغرفة بحثًا عنها، فأوقفه الطبق الزجاجي الذي احتوى ألواح (الـtwix) بسكويتها المفضل، تناولت منه أربعة! اجتذب نظراته شالها الملوَّن متكومًا كالطفل اليتيم فوق ذراع الأريكة، فألقى نظرة على خزانة الملابس، مغلقة كما تركها بلا أثر لمحاولة فتحها. عدا الحبات المختفية وألواح (الـtwix) كل شيء بمكانه! هل عاودت الهروب؟ لكن مشغِّل الأسطوانات يعمل! انحنى محدقًا بريبة للشاشته الرقمية: "فعلتِها يا قسمت!". ضبطته ليعمل بلا توقف متعمدة إيهام

الجميع بوجودها! نهض بتثاقل وأعاد النداء اليائس: "أسماااا" أمنية حمقاء! سار لغرفة الحمَّام وطرق بابها الخشبي: "قسمت، هل أنتِ هنا؟ أجيبيني

هرع للخارج مناديًا حسنين فأتى الأخير مسرعًا، سأله منذ متى لم يرَها، فأجابه بتوجس: منذ الصباح حين أتتها كريمة (بالكافاتشينه) وطلبت ألا نزعجها، حتى الغذاء تناولته بالغرفة. أومأ عدنان بصمت ثم التفت معاودًا الدخول، لتدوي الأغنية بأذنيه ساخرة، لائمة، مستنزفة لأعصابه..

بتذكر شو حكيو علي.. لما نطرت.. وانت نسيت.. وصار الشتي ينزل علي.. واجى الصيف وانت ماجيت.!!

أنتِ المتناسية! اختلجت عضلات فكيه لضغط أسنانه، حين خلع معطفه وألقاه فوق فراشهما الخالي، وارتمى جالسًا فوقه واضعًا رأسه بين يديه، فلمح ورقة ملقاة أسفل قدميه! أدرك دون أن يقرأها أنها رسالة منها، التقطها قائلًا بسخرية: "مازلتِ تتصرفين كفيلم عربي قديم، تمامًا كما تصفين علاقتنا" شعر بالجدران العالية وفسحة المكان تضيق وتجثم فوق أنفاسه، دلف إلى الشرفة المفتوحة هاربًا من الاختناق دون أن يهتم لملابسه الخفيفة، لتهاجمه رائحة النعناع والرياحين وأعواد النوار التي ملأت الشرفة أصصه الفخارية؛ حديقتها الصغيرة، مكانها المفضل الذي يتلقى معظم ابتساماتها. تراقصت الكلمات أمام عينيه بقصاصة الورق، فاعتصر عينيه محاوِلًا التيقن من حقيقتها: (أراك تبتسم سخريةً لأسلوبي القديم كفيلم عربي، لا بأس! تحمَّلني قليلًا للمرة الأخيرة، تعلم أيها الطبيب أن ما بيننا يستحيل استمراره مهما ظننت العكس، سأرحل، وهذه المرة بلا عودة، ليست بمفاجأة! سأبحث عن نفسي لدى من نجحوا بالعثور على نفوسهم الضائعة، ربما عاودني كبريائي الراحل، يحتاجونني كما أحتاجهم، بل يحتاجوننا جميعًا، وداعًا).

ابتسم بمرارة.. كبرياؤها الراحل! ليته رحل! أعاد قراءة الكلمات للمرة الألف ملتهمًا تفاصيلها، مرددًا سطورها مرارًا وتكرارًا كالتعويذة (وداعًا أيها الطبيب.. كبريائي الراحل.. فيلم عربي قديم.. وداعًا.. وداعًا). نبرات

صوتها تطل من بين السطور، سمعها واضحة جلية! حدق بالظلام الدامس معتصرًا الورقة بين أصابعه، وحولها لكرة صغيرة، هامسًا بتقطيبة عميقة: "هراء، محض هراء ـ أردف بغضب ـ كبرياؤك اللعين سيفسد كل شيء!" حدَّق ببراعم النوار وأعواد النعناع والرياحين المتمايلة مع الريح، ناثرة عبقها المثلَّج في الأنحاء لتغزو حواسه؛ إن انتويتِ الرحيل لم تحيطينني بكِ؟ لمَ تركتِ قِسمت هنا؟ لِمَ لَم تأخذي كل شيء يخصك معكِ فلا تتركي أثرًا يذكّرني بكِ؟ تتعمدين تعذيبي! لن أسمح لكِ. أيقن أنها ذاهبة للميدان، باختيارها الهروب الليلة تصعب الأمور عليه وعليها أكثر مما يمكنها التصور! عودة دوي الرصاص نبهه لأهمية البدء بالبحث عنها وفورًا. سارع مخرجًا الهاتف وطلبها منتظرًا بصبر حتى انقطع الخط. هز الهاتف بعنف: "أجيب يا أسما" عبَّ الهواء البارد لرئتيه زافرًا أنفاسه ببطء، لا بأس! لا يهم! سيطرق كل الأبواب بحثًا عنها، وإن استدعى الأمر سيصبح رحَّالة بالطرقات، لن يعود إلا بها، لن يسمح لها باتخاذ قرارها دون العودة إليه! مازال العقد ساريًا رغم أنفها، شرعًا،

وقانونًا، وبوعدٍ منها، هي له! كيف يقبل بعذابات قسمة الروح؟ وهي قسمة الروح!

جلست القرفصاء جانب عربة قمامة اتخذتها ساترًا للاحتماء من وابل الحجارة قُرب سماء الميدان بصحبة كرات النار، وقد استطاع مؤيدو الرئيس ـ كما يدعون أنفسهم ـ الذين انشق الليل عنهم بعد الخطاب إجبار الثوار على التقهقر للمرة الثانية! كانوا يلقون حجارة صغيرة حادة الأطراف ثقيلة الوزن، سمعت بعض أطراف الحديث أنها قطع من الجرانيت والرخام، وقد أصابت الكثيرين بارتجاجات المخ وغياب الوعي! رفعت يدها غريزيًا تغطي رأسها، وروزا تهمس لها عبر سمَّاعتها الصغيرة، ترى هل سيسامح خداعها؟ أكملت

ركضها متمتمة: "لا يهم!" أجل، لا يهم. أتت إلى هنا بشق الأنفس، وقد اضطرت للمرور على العشرات من لجان التفتيش والجيش الذين حرصوا على ألا تمر نملة من تحت أنوفهم، كانت تضطر للصراخ بهستيرية مدعية أن شقيقها مصاب بالقصر العيني ويحتاج لنقل دم؛ الوسيلة الوحيدة لكسب تعاطفهم وإقناعهم بتركها تمر بعد حظر التجوال. قادرة على الصراخ لأول مرة بحياتها! صرخت قبل أن تصل للميدان، خرجت نيرانها الحبيسه من فوهة صدرها فورما اشتمت نسائم التمرد ووقعت عيناها على الحشود (إيد واحدة.. الشعب يريد إسقاط النظام). للمكان هنا قدسية تنفذ لعمق الروح مؤتلفة معها، ولنسائمه كفٌّ تربت وتحنو رغم قسوة المشاهد والدماء! تابعت بعينيها الشِبه مغلقتين الحجارة المتطايرة كآلات كرات التنس فوق سماء الميدان المظلمة، حدقت بذهول صوب الوجهة التي تنطلق منها الحجارة، تلقيها الأذرع لساعات دون كلل! يظنونها الوسيلة لإخراجهم من الميدان، ابتسمت بتشفٍّ.. أغبياء! قطبت حين شعرت باهتزازات هاتفها بالجيب الخلفي لسروالها الجينز، ذاك السروال الفضفاض لدرجة المهزلة! اضطرت لاستخدام حزام جلدي لتمنعه السقوط، لم تملك خيارًا آخر بعد اكتشافها فعلة الطبيب! أغمضت عينيها بحزن، عدنان! لا تتصل أرجوك. تجاهُلها الرد سيكون وسيلة جديدة لتحطيم أعصابه، ورغم كل ما فعلته وتفعله الآن لم يكن تحطيمه يومًا هدفًا متعمدًا، أو كانت أي من تصرفاتها تستهدف إتعاسه، اكتشف الآن ولا شك اختفاءها وخدعتها الصغيرة، جبانة!

الجرحى بكل مكان! والمستشفيات الصغيرة بقلب الميدان لم تعد تكفي لإسعاف من يسقطون من الثوار الذين يركضون في كرٍّ وفر، ضد الجبهة الأخرى التي تطلق على نفسها مؤيدي الرئيس، منظَمون ومهيأون لكل ما يمكن حدوثه، من المستحيل أن تكون مجرد مشاعر عاطفية ما دفعت بهم إلى الشارع، هنا منذ أربع ساعات رأت فيها الأهوال! لم تكن لتتخيل أبدًا حقيقة الحال، من يشاهد الشاشات ويقرأ الجرائد ليس كمن بقلب الأحداث؛ الميدان بوتقة ضخمة تعج بالغليان! لمحت من بعيد عم سيد الذي التقت به

فور مجيئها، كان يرتدي جلبابًا صوفيًا بُنّيًا بلون عمامته في مظهرٍ مثالي لرجل صعيدي، يلف حول رقبته خيطًا سميكًا معلقًا به لافتة بيضاء، كتب فوقها بخط أسود وأحمر (أيها الطغاة. عاد أولادي وأياديهم قبضة من فولاذ). أخبرَها أنه أتى ليأخذ بثأر ابنيه فأيقنت أن أحمد كان محظوظًا بعودته حي! كل شخص هنا بالميدان له ثأر أتى لأخذه؛ إن لم يكن الثأر لضياع العمر في الفقر والمرض، فلضياعه غرقًا، وحرقًا، واغتصابًا للكرامة، سنوات طوال عومل بها كناقص للأهلية بلا صوت أو إرادة! اتسعت عيناها رعبًا حين رأته يسير نحو ممر الحجارة في محاولة جديدة لمشاركة الشباب الدفاع، لا يجب أن تسمح بوقوع مصاب آخر، ليس وهي قادرة على منعه. لم تجد مفرًا في النهاية من الركض رافعة يديها فوق رأسها لتفادي الحجارة المتساقطة كالأمطار، فلم تكن القبعة الرياضية التي تخفي شعرها كافية لحمايتها. كان الرجل يحرك يديه وهو يسير متعثرًا، ينادي بأحد هتافات الميدان الشهيرة بلكنته الصعيدية، وبصوتٍ واهنٍ شابه بنيته، وقد رفع عصاه الخشبية ملوحًا في الهواء (مش عنمشي هو يمشي.. يد واحِده.. يد واحِده.. مش عنمشي.. هو يمشي). وصلت إليه معاتبة من بين أنفاسها اللاهثة: عم سيد! ألم تعدني بالبقاء بعيدًا عن رشق الحجارة؟

التفت نحوها باسمًا، فلاح وميض سنته الذهبية: وهل يترك الجندي الميدان يا بِتي؟!

أمسكت جانبي ذراعيه بكل قوتها: أرجوك يا عم سيد، أحتاج حمايتك لإعادتي لقلب الميدان، لا يمكنني العودة وحدي.

لانت مقاومة عضلاته أسفل أصابعها: حسنًا، سأساعدك لكنني سأعود ثانية، اتفقنا؟

لم يلبث أن انتهى من جملته إلا وقد أصابت رأسه إحدى قطع الحجارة المتطايرة، رفع كفه المتعرق نحو خط الدماء الرفيع الذي سال فوق جبهته، وترنح قليلًا بين يديها لتهتف بجزع: "عم سيد!" تمتم الرجل بصوت بالكاد سمعته وسط الضجيج: لا بأس! أنا بخير، جرح صغير - ابتسم مشيرًا نحو

عمامته بيدٍ مرتعشة ـ لقد امتصت الضربة ـ نظرت بهلع لعمامته التي تخضبت بالدم فأمرها بحزم ـ هيًا يا بِتي لأعيدك لقلب الميدان.

ساعدته بالاتكاء على كتفها، وسارا أسفل خط النار بخطى متعثرة، كل منهما يسعى لحماية الآخر، المتساقطون من حولهم كثر، وكأنها ساحة للقتال! أحيانًا تكون واقفًا بجانب شخص ما، وبجزء من الثانية تراه ملقى إلى جانبك جثة! يصطادونهم كالعصافير! كيف يفترس الوطن أبناءه بدم باردٍ؟! راهنت نفسها طوال الأيام الماضية أنهم سيعودون، سيستسلمون، رابطت أمام شاشة التلفاز ليل نهار في انتظار تلك اللحظة، فمنذ متى وهم يدركون ما يحيق بهم؟! منذ متى وهم يشعرون أنهم على قيد الحياة وقد ارتضوا بمعيشة الجحور لسنوات؟! وكل يوم يمر كان يثبت لها بالدليل والبرهان أنها مخطئة، وما أسعدها بخطَئِها! ظنت للحظة أن الطاغية سينصاع لمطلب التنحي، لكن خطابه! ذلك الخطاب اللعين الذي امتلأ بجُمَل التحدي والأفعال المضارعة كانت القشة التي قسَمَت ظهرها! شعرت بحاجَتها لأن تكون بينهم، للصعود إليهم والانصهار معهم فوق قمة العالم. هي أيضا تملك ثأرًا تريد الأخذ به، ثأر الكثيرين؛ ثأرها، ثأر شقيقها، ثأر نوار، ووالدتها، وأحمد المسكين، ثأر الوطن الذي ضاع وهُتِكَت أعراضه وسُلِبَت أحلامه، الوطن الذي بيعت بين نسائه بسوق النخاسة قربانًا للطمع ووحشية السلطة؛ برهانًا آخر على فرعنة الحاكم رغم ظلم التشبيه، فالفراعنة أقاموا الحضارة! لوهلة جنون رأت العجلات الحربية يقف فوقها الملوك بشموخهم، تنهب أحصنتهم أرض الميدان المقدس، ملوحين بصولجاناتهم المذهبة للنصر، يرهبون قلوب أعدائهم، مذهلين العالم أجمع!

وصلا أخيرًا لمنطقة آمنة، تجمَّع بها بعض الفتيات وكبار السن الذين أصر الشباب على بقائهم بالداخل بعيدًا عن البقعة الساخنة. جلست وعم سيد يفترشان الأرض، بجانب فتاتين تنظران شاخصتي البصر نحو كرات النار، والصرخات الهستيرية من حولهم تصم الآذان، كانت كلتيهما تضعان علم مصر فوق رأسيهما، وكانتا بنفس العمر تقريبًا، لمحت إحداهما تربط

للأخرىٰ رباطًا طبيًا حول رسغها الذي سالت دماؤه، دون أن تحيد عيناها الشاخصتان عن سماء الميدان المشتعلة، تأوهت الفتاة الجريحة بابتسامة خجلة: صافي آلمتِني ـ تابعت بغيظ ـ السفلة يستخدمون حجارة حادة الأطراف، الله المنتقم!

تسببت لكِ بجرح عميق، والمسيح سيركضون كالخرفان، فقط اصبرىٰ. صفصوفة be strong.

انضما إليهما بلا استئذان؛ استشعرت هناك فور وصولها دفئًا وحميمية لم تستشعرهما منذ زمن! حانت منها التفاتة نحو عم سيد، بدا من ملامحه المجهدة أنه احتاج لتلك الفرصة لالتقاط الأنفاس، لم تمنحه شيخوخته فرصة المواصلة، أدركت هذا من عينيه المغمضتين ورأسه المتكئ علىٰ عمود الإنارة، وقد وضع اللافتة إلىٰ جانبه محتضنًا إياها بذراعه. ممتنة لأنها لم تتأخر كثيرًا في إقناعه بالعودة. سألتها إحداهما باهتمام. "هل تحتاجان لشيء؟" قالت الأخرىٰ باسمة: "أنا صفاء، وهذه صديقتي صفاء" ضحكت قِسمت بدهشة: "كلتاكما صفاء!" أومأت إحداهما: نحن صديقات طفولة وجيران، حتىٰ الجامعة الأمريكية ارتدناها معًا بنفس العام.

ـ توقعت الكثير.. لكن أن يكون طلاب الجامعة الأمريكية هنا!

ـ بصباح اليوم الثالث تفاجأنا برغبة مشتركة في المجيء، فبات مصيرنا واحدًا كما كان طريقنا.

أكملت الأخرىٰ بزهو: وهي أكثر لحظات حياتنا متعة وسعادة.

عرضتا عليها بعض رشفات الماء وضمادة طبية، فشكرت قِسمت عرضهما السخي، مكتفية بضمادة لرأس عم سيد. الماء والضمادات في هذا الحصار الذي يطأ علىٰ نفوس الجميع هو منتهىٰ السخاء والكرم. جلست إلىٰ جانبه في وضع أكثر راحة بعدما انتهت من تضميد الجرح، وأعادت رأسها للوراء مغمضة عينيها، تعترف أنها أيضا أرهقت، وحنجرتها تؤلمها من الصراخ والهتاف. سألته إحدىٰ الفتاتين عن سبب مجيئه فصمت لبرهة مستجمعًا أطراف الحديث، ثم زفر بمرارة:

ـ كنا نملك أفدنة قليلة من مزارع التفاح، تلك الأراضي التي يوزعونها على الشباب لاستصلاحها، وكنت أول من عارض الصبيين ـ سألته قِسمت دون أن تفتح عينيها، عن السبب ـ أخبرتهما أنها أرض بور، طريقها طويل وتحتاج لجهدٍ مضني لنجمع طرحها يومًا، طالبتهما بالاكتفاء بالقراريط التي نملكها ببلدتنا ونزرعها كما اعتدنا، فأصرًّا، نداهتنا تقبع بعمق الغيطان في الليل أما نداهتهما قبعت بقلب الرمال الصفراء، ذهبا خلفها يلهثان ولم تثنهما توسلاتي ولا دموع والدتهما التي خضبت جلابيبهما ساعة الفراق.

فتحت عينيها ملتفتة إليه:

ـ وهل نجحا؟!

ابتسم بفخرٍ: أعظم نجاح! أنا وأمهما لم نجرؤ على تركِهما وحدهما يواجهان المجهول، سافرنا إليهما بعدما انتظرت عودتهما مطأطئي الرأس ـ ابتسم بمرارة ـ نسيت أنهما يحملان المخ الصعيدي. كنا ننام ليال طويلة بلا عشاء توفيرًا للنفقات، بعنا القراريط التي ورثتها عن جدي لأبي، ويومًا عن يوم كل قطرة عرق تفصدتها جباهنا، احتضنتها حبات الرمال الصفراء التي كانت أكثر حنانًا ورحمة من قسوة أيامهما، منبتة بُرعمًا صغيرة بأمل جديد، صارت الريح تحمل لنا ليلًا رائحة زهور التفاح بعدما حملت لنا قبلًا رائحة الجفاف والمستقبل المجهول.

همست إحدى الصفائتين بنبرة حالمة:

لطالما تخيلت شعوري بامتلاك أرض خضراء على امتداد البصر، أزرعها زهورًا حمراء وأشجار مانجو، أحب المانجو كثيرًا love it. طالعها عم سيد بحيرة ثم ابتسم ورفع كفه المشققة يفرك أصابعه: لا يفارقني ملمس التفاح السابح فوقه ندى الفجر، مازلت أشم رائحته وكأن السنوات لم تمر!

ـ شعور رائع، أليس كذلك؟!

أجل يا بتي، هو الأروع، شعور بالحياة دون صخب، والسكينة بلا وحدة، حصاد المجهود المضني حين يُكلَّل بالنجاح أروع ما يمكن أن يمر به مخلوق.

قالت قسمت: أعتقد أننا نتشارك نفس الحلم، جميعنا تمنى خيرًا وأرضا خضراء مد البصر.

يذكرها عم سيد بوالدها حين كان يجلس لساعات معها، يحكي عن الأرض الخضراء الندية، وهواء الفجر ممتزجًا برائحة الخبيز ودفء الفرن المشتعل. أكمل عم سيد مسترجعًا مشاهدَ من ذاكرته التمعت لها عيناه:

ـ صارت الأفدنة من أجود المزارع بالمنطقة، ودخل تفاحنا المستوى الأول بسوق التصدير.

علمت قِسمت من نبرة صوته المتألمة أنها حكاية أخرى من الحكايا المغموسة بالمرار فتنهدت: دعني أخمن، أكل الجراد المحصول!

أومأ مغمضا وضرب الأرض بعصاه: أجل، الجراد، جراد بني البشر! ظننا أن مجيء الوزير بزيارة تفقدية مدعاة للفخر، كنا أغبياء، وكان نذير شؤم، فحين تذوقت الهانم زوجة البيه تفاحنا الذي أرسلناه هدية بصندوق سياراته السوداء التي هبطت علينا كالغرابيب، أقسمتْ ألا ياكله سواهم.

مطَّت صفاء شفتيها: الكرم الحاتمي! very bad move

حدق بها لبرهة في انتظار التفسير، وحين طال انتظاره أردف وصوته الأجش يقطر ألمًا: اتصالاتهم ونفوذهم بلا حدود، وسطوتهم بلا رحمة، أخذوها بأبخس الأثمان، ضيَّقوا علينا الخناق فضاقت الحال بولديّ، مرت علينا الأيام تطلي نهارنا وليلنا بالسواد، لم يبقَ سوى أن يجروني بالحصان مكبَّلًا بالحبال فوق أرضي ـ استطرد بحزن ـ بل أرضهم! كانت أرض ولديّ، لم يشفع لي كبر سني وتذللي ـ همس ساهمًا ـ ألم يرحل الإقطاع؟! ألم يخبرونا أن الثورة محت آثارهم؟! كيف أخذوها؟

حدقت قِسمت لكرة من النار قرب إحدى الشوارع الجانبية أمسكَتْ بأحد الأشخاص، كان يركض في كل مكان ولم تستطع تبيُّن إلى من ينتمي، ثم نظرت مجددًا نحو عم سيد الذي يبدو أن الدموع صارت عصية عليه، لا تسمح له سوى باختلاج ملامحه التي جعدها شقاء السنوات المزمن،

وقالت: هذا ما أرادوا منا اعتناقه فوضعوه بمناهجنا الدراسية لنحفظ سطورها كالببغاوات!

قالت إحدىٰ الفتاتين: خطأنا من البداية، لقبناهم بالبيه الوزير والهانم زوجة البيه! ثاروا حينها ليبدلوا الأدوار لا الأحوال، أدركنا متأخرًا! حتىٰ أنتَ مازلت تلقبها بالهانم زوجة البيه!

قالت قِسمت ساخرة: نشأنا علىٰ أن نكون عبيدًا بلا صكوك!

لاح شبح ابتسامة علىٰ وجه العجوز: كانا رجائي من الدنيا، انتظرت اليوم الذي يخذلني فيه ساعدي فأتكىء عليهما.. هَرِبا إلىٰ البحر، غرقا؛ حاولا الهجرة كالآلاف، ففقدت كليهما بليلة، عاد أحدهما بصندوق والآخر مفقود!

رفع ذراعه بالعصاة الخشبية ملوحًا بها وقد عاود وميض الإصرار سكن عينيه، ودبت الحياة في عروقه من جديد (ارحل، ارحل، مش عنمشي، انتَ تمشي، مش عنمشي، انتَ تمشي). رددت خلفه الفتيات الثلاث، وبعضٌ ممن كانوا يجلسون حولهم من الشباب والجرحىٰ الذين كانوا يتلقّون الإسعافات، رافعين قبضاتهم بحماس، مقلدين لكنته المحببة، ترتسم فوق شفاههم ابتسامات دافئة (مش عنمشي، انتَ تمشي، مش عنمشي، انتَ تمشي). أعاد الرجل تكرارها عدة مرات، دون أن يقوىٰ علىٰ النهوض، لقد خارت قواه! ابتسمت بإشفاق وربتت فوق ساعده المتهالك: ليس دورك هذه المرة يا عم سيد، بل دور أبنائك وأحفادك، امنحهم الفرصة لينتزعوا ثأرك وثأرهم من بين أنياب الطغاة، وادعوا لهم وآزرهم، هم بحاجة لدعواتك ومباركتك.

ربت فوق كفها بحنان ثم أحنىٰ رأسه قليلًا وصمت، أيقنت أنه سيلتقط أنفاسه ليعود لساحة القتال. جذبها من أفكارها اهتزازات الهاتف النقال في جيبها الخلفي، فأخرجته تهزه بعنف: لسنوات أضعت منك أربعة وفي ظروف أقل خطورة، والآن بات من المستحيل ضياعك! ـ وجَّهت حديثها للفتاتين بغيظ ـ ما الذي علىٰ المرء فعله هنا ليفقد هاتفه؟!

قالت إحداهما بسعادة: نعيش اليوم حالة رائعة لن تتكرر، لا يضخ الميدان سوىٰ حُبًّا جارفًا لتلك الشقية التي لوحت بيدها فتجمهر حولها الجميع كنجمة السينما!

أكملت الأخرىٰ بابتسامة حالمة: لم نملك سوىٰ الركض إليها مشبكين أصابعنا بأصابعها.

تشبهان بعضهما البعض كثيرًا! نفس التعبيرات، والأحلام، ورقة الروح، تفزعها الهالة الوردية التي تعيشان داخلها، تخشىٰ الكمال لأنه زائف، فلا كمال علىٰ الأرض، علىٰ أي حال هي نفسها مثالٌ حي لتلك الحالة؛ كانت آخر من يهتم، والآن بينهم تركض وتصرخ بالهتاف! عاود الهاتف الاهتزاز ففتحته لتجد المكالمات الصادرة تعدت الخمسين، لم يعد يجدي الصراع، لا مفر من الفراق، لا يهم! سيتخطىٰ الأمر! نهضت الفتاتان بعد أن تقاسمتا بضعة رشفات من الماء، وسارتا في طريقهما ليلتحما بالجموع علىٰ أطراف الميدان. انحنت وخلعت الجاكيت الصوفي الذي ترتديه، ووضعته فوق عم سيد، ربما تعاود ارتداءه بعد استيقاظه. التفتت متأملة الميدان، من الغريب عثورها علىٰ سلامها الداخلي وسط هذا الصخب العنيف، سلام لم تعثر عليه في أكثر الأماكن أمنًا وهدوءًا! فكرت لثانية بالاتصال به كي تطمئنه، فخشيت ضعفها عند سماع صوته، موقنة أن لهفته ستنخر مشاعرها وتحطم مقاومتها. رأىٰ الأمر جليًا بعينيها، لكنهما آثرا الصمت، لعلمه أنها ستعكف علىٰ استنكار قلق تساؤلاته. أخفىٰ ملابسها وأحذيتها بخزانة الملابس وأغلقها بالمفتاح ليأمن طيشها! حتىٰ حمايته، لها طابع خاص وطريقة هي الأعجب! ولكن ما الغريب وعلاقتهما بدأت بأعجب الطرق وستنتهي بأعجب النهايات!

سارت عدة خطوات ابتعدت بها عن عم سيد، لكن يدًا مرتعشة أمسكت ذراعها بغتة، كانت لفتاة ترتدي سروالًا من الجينز وقميصًا قطنيًا أبيض اللون، ضاغطة أحد جانبيها، ونظرة من الرجاء والتوسل الصامت تلوح بعينيها. أفزعها اللون الأحمر الذي انساب علىٰ قميصها، تنزف! رفعت الفتاة يدها

بإشارة يائسة، محرِّكة شفتيها، فلم تتبين همهماتها، تلفتت حولها برعب فلم تجد أحدًا؛ الكل منشغل بكارثة ما! أسرعت ممسكة ذراعها بجزع معاونة إياها على السير، وبالكاد استطاعت الوصول بها لبقعة آمنة، ساعدتها على الجلوس برفق متكئة على إحدى عربات الشرطة المهشمة، فهمست الفتاة بصوت متحشرج مبحوح بعد أن استقر رأسها فوق ذراع قسمت: "ماء، بعـ.. بعض، المـ.. "، نهضت مسرعة صوب عم سيد ملتقطة زجاجة بلاستيكية بها رشفتان، لم تشأ إيقاظه لأنها تدرك عجزه عن القيام بشيء، وسارعت للفتاة، لتنحني معيدة وضع رأسها فوق ذراعها، وساعدتها على ارتشاف البقية من الماء، طالعتها الفتاة بعينين زائغتين وابتسمت بحيرة: "ألـ.. ألذ رشـ.. رشفة ماء في حياتي، كنت أتوق لـ... لها كثيرًا، كنت أتوق للكثير أدركت جيدًا معنى الحيرة التي أطلت من نظراتها، رأتها مطولًا بنظرات الكثيرين، أومأت لها بملامح مختلجة، محاولة رسم ابتسامة ففشلت، كانت مرات معدودة تلك التي فشلت فيها برسم ابتسامتها، وهي الماهرة! لا تريد خوض الأمر ثانية، ليس الآن، لن تحتمل! همت الفتاة بالحديث فاحتضنتها متلفتة حولها بهستيرية: "لا تتحدثي، أرجوك". لِم منعتها من الحديث؟ كل ما رغبت به في تلك اللحظة هو الركض بلا توقف حتى تبتعد تمامًا عن تلك الرائحة التي تعرفها، الرائحة التي صاحبتها طويلًا حتى باتت رفيق الدرب والعمر، إنه الموت يحمل رائحة الرحيل! لم تعرف لها اسمًا لكن لا يهم، فهنا لا يهم من تكون، أو ما أتى بك، بل ما أنت قادر عليه، ولأي مدى تنوي الاستمرار؟ أجفلها الرصاص، فأحكمت ذراعيها حولها، وانطلقت حنجرتها بصرخة يائسة: "النجدة، النجدة!" ارتعشت الفتاة بين ذراعيها من الألم معتصر ذراعها: توقفي، لا وقت لدي، أريد أن. أن أعرف.

هزت رأسها بجزع: لا تسأليني، لا تسأليني.

قالت الفتاة بوهن: نحـ.. نحن على صواب.. أليس كذلك؟! لسنا بخونة.

اختلجت قسماتها واغرورقت عيناها بدموع القهر، السؤال الصعب يأتي بوقت قاتل! هل هم على صواب؟ هل سينتهي الأمر لشيء ذي قيمة

أم يضيع ما فعلوه هباءً منثورًا؟ أيستحق الأمر إزهاق الأرواح ومرارة فقد الأحبة؟ بماذا تجيب وقد حملَ السؤال ألف سؤال! كيف تطمئنها وقد اختبرت قبلًا طعم ذاك المرار وقسوته؟ تجمدت الدموع بعينيها.. يوم كالقيامة! كل ما يحرك من حولها هو الخوف! كم مهول من الغضب يدفع الناس دفعًا للصراع، وأي شجاعة تصمد أمام الغدر! وكم من غدرٍ يختبئ بين الشقوق وفوق أسطح المنازل؛ ضيق العينين، بفوهات آلية تقنص النور لنشر العتمة. أشار لها أحد الشباب من بعيد، كان قد انتهى لتوِّه من توصيل مصاب لإحدى خيام الإسعاف المنتشرة، فلاحت لها بارقة أمل، وعاودت الالتفات إلى الفتاة بارتياح. أجل، نحن على حق، على حق.

ازدردت الفتاة ريقها الممتزج بالدماء، ترتسم ابتسامة واهنة فوق شفتيها: أوصيكم بدمي، دمي وثأري برقابكم.

هتفت بصوت مختنق: لن تموتي!

أمسكت الفتاة بكفها: توسلي أمي لتسامح كذبتي.

وفارقت الحياة! فارقتها دون أن تفارق الابتسامة الحائرة شفتيها. وصل الشاب أخيرًا حاملًا بعينيه تساؤلًا، فهزت رأسها بحزن: فات الأوان ـ انحنت محتضنة الفتاة فصبغ اللون الأحمر كنزتها العسلية ـ لا تقلقي.

مطَّ شفتيه المرتعشتين غضبًا، وقبضتاه المضموتان تسحقان أصابعه وانحنى ليجذبها من بين ذراعيها المتشبثتين بها دون وعي، فعاجلته: قالت ثأرها برقابنا.

ـ كاد حمل الوصايا يكسر أعناقنا!

قالها وسار مبتعدًا نحو قلب الميدان، بمنطقة تجميع الجثث، وسرعان ما اختفى عن ناظريها، لتذوب خطواته بين جموع البشر والأقدام الراكضة بلا هوادة. هاجمها شعور بالخذلان وقلة الحيلة، شعورٌ لعين تمقته. نوار تفارقها من جديد بكل الوجوه الراحلة! ليتها تعرف طريقًا لوالدتها! ستعلق بذكراها للأبد فتاة حملت وجه نوار بلا اسم! نهضت بركبتين منهكتين

خانتاها فعاودت الوقوع، يتردد برأسها صدىٰ جملة لطالما سمعتها تنسل من بين شفتي نوار، حاملة أنفاس الغضب.. (جاوز الظالمون المدىٰ)! انهمرت دموعها كالطوفان، وتحاملت علىٰ نفسها سائرة بتثاقل، لترفع يدًا مضمومة القبضة صارخة: "إرحل، إرحل، إرحل" لمحت شابًا يقف بين مجموعة من الشباب الملتحي، فهتفت بدهشة: "زين!" اهتز الهاتف بجيبها الخلفي، فأعادت رأسها للوراء، وانفلتت من بين شفتيها صرخة مكتومة، حين اخترقت جمرة من النار جانب رقبتها، شعرت بعدها بدفءٍ يسري فوق صدرها داخل الكنزة الصوفية. لقد أصيبت بطلقة رصاص!

* * *

(٢)

خدعت البرودة جسدها فشتتت خلاياها بين دفء وألم، والدفء مريح لا يقدَّر بثمن ولو لنزف الدماء! انسلت السماعة من أذنها حين لامست السائل اللزج بأطراف أناملها، ورفعتها محدقة بيدها المخضبة، دماء من؟ الفتاة بلا اسم أم دماؤها! لا يهم! لن ينهار البنيان بمغيبها! النور أقوىٰ من الهزيمة، وللمرة الألف (لا يهم)! بضغطها علىٰ الجرح نبهت أعصابها؛ فخبىٰ الدفء بغتة مشعلًا الألم لتجتاحها برودة رهيبة، نفضت عروقها أسفل جلدها واصطكت أسنانها، حاولت البقاء منتصبة، حقًا حاولت، لكنها في النهاية مخلوق هش ولو ادعت غير ذلك! رصاصة صغيرة نزعت الحقيقة من براثن الزيف، لم تكن يومًا قوية لامبالية! وقعت علىٰ ركبتيها فضغطت يدها فوق الجرح بأصابع مرتعشة دون أمرٍ منها؛ غريزة البقاء تعمل بشراسة رغم أنها.. حقًا لا تهتم! بات لكل جزءٍ من جسدها إرادته الخاصة، ولم يخفف ضغطها الدماء المسافرة عبر كتفها. تمنت لو نظرت لقسماته مطولًا ولم تتجنب رؤيته عند مغادرته متصنعة النوم كعادتها! لو أجابت علىٰ المكالمة!

مُعذبة بأمنيات تعصف ببقية وعيها الهزيل وتوق اشتاق للحرية بعد طول الأسر. يظل التمني مؤلمًا قاسيًا، ونبض الحنين موجعًا للنهاية. البقعة السوداء من الذكريات المهينة ستظل عالقة بثوب علاقتهما للأبد! ضغطت السماعة لأذنها بيد ترتعش، مازالت روزا تغني رغم الموت المزروع بكل شبر. ارتكنت على عامود الإنارة متمتمة معها..

بنبقى سوا وصوتك بالليل يقّلي وأنا عم اسمع.. بحبك.. حتى نجوم الليـ...

صمتت حين اسودَّت الدنيا ودوائر كالغيمات سابحة من حولها. الضغط قاتل فوق جمجمتها يخنق آهتها، أهي البرودة أم الموت يتسلل؟ أهكذا انسلال الروح.. ضيق ورعب! كيف وربها الغفور الرحيم رغم أنف خطاياها؟! لا تُخفَى عليه خافية. "أنت الرحيم.. أنت.. الرحيم" سبَّحت محدقة بالسماء المضاءة بكرتين من النار "لا تتركني" سبَّحت بلا مسبحة رغم التصاقها برسغها لسنوات! حاولت الصراخ فأبى صوتها الرضوخ، لينقطع الصوت بوقوع السماعة، فاستسلمت. لا تدري لكم من الوقت غابت عن الوعي، حين خُيِّل إليها سماع خطوات تقترب، صوتها بات أقوى، رأت بالضباب أقدامًا تحلقت حولها. "مَن هذه؟ ليست مصرية!" قال آخر: "ربما من الصحفيين الأجانب". شعرت بهم يحملونها من خصرها وقدميها. "الدماء تسيل بغزارة. أسرع علّنا لا نفقدها كالبقية" استمعتَ إليَّ؟! استسلمتْ إليهم وللخدر الساري بأوصالها، مجاهدة إبقاء عينيها مفتوحتين، أسرعت الخطوات حد الركض مؤلمة جرحها. كم الإنسان ضعيف! جرح صغير فيضحى جثة تتقاذفها الأيدي، عبثٌ هي الحياة ودعابة سمجة كبيرة! انتبهت على اهتزاز الهاتف بجيب السروال، عدنان! لم يفقد الأمل. حاولت الحديث بحشرجة: "الهـ.. الهـ.. الهاتف" لم ينتبهوا، كانوا مهتمين بإيصالها للخيمة ليبحثوا عن غيرها، الكثيرون بالانتظار!

اكتشف عم سيد سترتها فابتسم محرِّكا رأسه لتليين عضلاته، وحانت منه التفاتة صوب مجموعة يحملون مصابًا، عرفها من فوره بملابسها المميَّزة

والقبعة الرياضية التي تخفي ذيل حصانها، هتف بلهفة: "قسمت يا بِتِي!" ركض صوبهم نافضًا غبار الإرهاق ممسكًا يدها المخضبة بجزع: "ماذا بها؟!" صرخ أحدهم: "أسرع يا عثمان، لا وقت لدينا" أجابه المدعو عثمان: "بهاما بالكثيرين يا حاج". ركض إلىٰ جانبها: تحدثي إليَّ يا قسمت، لا تغلقي عينيك، لا ترحلي أنتِ أيضًا.

- أهي مصرية! هل تعرفها؟

- إنها قسمت!

انتبهت إليه فهمهمت بكلماتٍ مبهمة لم تصل لمسامعه، هتف بلوعة: لا أفهم ما تقولين، تكلمي، حاولي يا بِتِي.

وصلوا لإحدىٰ الخيام ووضعوها علىٰ الأرض فوق غطاء بلاستيكي، وأخبروا الطبيب عن إصابتها ثم عاودوا الخروج مسرعين. كان قد انتهىٰ لتوه والممرضة من إسعاف مصاب هرول للخارج من فوره، أبعد الطبيب ياقة كنزتها قائلًا: جرح عميق، لحسن الحظ ضلت الرصاصة طريقها عن شريان العنق، مازال بعمرها بقية عكس الكثيرين!

في غياهب ظلام أوشك علىٰ إغراقها، ولدهشة الرجلين، ابتسمت؛ لقد أنقذها ثانية من الضياع، هاتفه المهتز بجيب سرواله كان وسيلة نجاتها! سأله عم سيد بلهفة: "هل ستنجو؟" هزَّ الطبيب رأسه بحسرة: لا يمكنني الجزم، فقدَتْ الكثير من الدماء، وإن استمرت علىٰ هذا الحال ستحتاج لنقل دم، سأخرج الرصاصة وأخيط الجرح علِّي أوقف النزيف!

كان اهتزاز الهاتف يبثها العزيمة للصمود، فضغطت علىٰ يد عم سيد التي لم تبارحها، قرب أذنه لشفتيها: "الهاتـ.. اصطكت أسنانها لتعاود الانتفاض، فثبَّتها الطبيب والممرضة لتنظيف الجرح وتخيطه، استجمعت قوتها للمرة الأخيرة هاتفة بحشرجة: "الهاتف" وأغمضت عينيها مستسلمة لإغماءة مريحة ألحَّت عليها طويلًا. غمرتها بغتة رائحة ريحان نفَّاذة لتطالعها نوار جالسة بجانبها متربعة الساقين، تحرك علمًا صغيرًا بسعادة، كانت

صامتة ومبتسمة باطمئنان، انحنت مداعبة أنفها بريحانة أنعشت رائحتها الندية حواسها، وربتت فوق شعرها مرددة: "يا شافي يا معافي اشفِ الحبيبة، يا شافي يا معافي اشفِ الحبيبة" رفعت عينيها فرأت وجه جدتها بدلًا من وجه نوار. جدتي!

قطب الطبيب مفكرًا: ابحثي بين ملابسها عن هاتف.

جعلت الممرضة تبحث في جيوب سروالها والسترة التي ناولها إياها عم سيد: "وجدته!" كانت شاشته تضيء بصورتها وعدنان، قال الطبيب: حاولت تنبيهنا لاهتزازاته! سأخرج من الخيمة لأستطيع تلقي المكالمة.

* * *

كان يدور بالشرفة جيئة وذهابًا كالأسد الحبيس ضاغطًا ازرار الهاتف بهستيرية، كلما رفضت الإجابة عاود الاتصال، أكثر من خمسين مكالمة بثلاثة دقائق هي العذاب بعينه. سيمضي متخبطًا في طريقه! فتح الكيس المخملي مخرِجًا حبة، محدقًا في الكلمة المحفورة المتلألئة بضوء كهرماني (المغيث)! اعتصرها مغمضا: "أعدها لي سالمة" أجفلته اهتزازات الهاتف محدقًا بصورتها الوامضة: قسمت! أين أنتِ بحق الله؟ انتبه للنبرة الرجولية والسعال المرتبك فسار نحو مشغل الأسطوانات وأغلقه بعصبية: من أنت؟! أين زوجتي؟

- زوجتك معنا.

ازدرد ريقه: هل أنت لص؟ ماذا فعلتم بها؟ حاول الشاب مقاطعته دون جدوى أقسم إن وضعتم إصبعًا عليها لأحطمنكم جميعًا، لا تعلمون زوجة من قــ...

كان الصوت يعلو حينا ويخفت أخرى: "توقـ.. فضلك، لم نختطفها و.. لصوص صرخ عدنان بعصبية ففكر الطبيب أن لديه كل العذر؛ الظروف توحي بالكوارث. "اهدأ لأشرح لك، الشبكة ستقــ.. لحظة" تقطع الصوت ثانية وبالكاد استطاع سماعه "سيديـ.. مصابـ.. الميدان.. جرح.. طلق..

ناري" كان للكلمات وقع الزلازل على مسامعه! قِسمت مصابة بطلق ناري! سأله بصوت يجاهد للإفلات من حنجرته عن درجة الإصابة. جاوبه الصمت! الخطوط اللعينة! كل شيء يتآمر عليه الليلة، أتاه صوته المتقطع: "نزفت الكثير.. ستحتاج إلى.. "، غادر عدنان الشرفة متسائلًا عن مكانهم.

ـ الخيام.. قلب الميدان، انتبه.. المعركة.. المأجورين.. بلا توقف.. لا أعلم.. ستتمكن من الدخـ.. محاصرون.. الداخلية.. وزارة.. هل سمعتـ...

ـ أنا قادم، سأبقى على اتصال، ابقِ الهاتف بحوزتك.

انقطع الخط فعاد ركضًا للغرفة بعد خروجه ملتقطًا شالها الملوَّن وألواح الـtwix، وأخذ في طريقه زجاجة ماء، ثم أيقظ حسنين لينتظره في حال احتاج إليه. اتصل بعمرو ليجيبه بنبرة ناعسة. قال محدقًا بظلام الطريق الذي اتخذه مبتعدًا عن قلب الأحداث: أنا بحاجة إليك.

سأله بقلق: هل أصابك مكروه؟

ـ إنها قسمت، سأحتاجك لحراسة السيارة حين أذهب لإحضارها.

صاح بحنق: عادت لمنزلها القديم ثانية! ولِمَ تحتاجني؟ تنوي تقييدها بالحبال وتحتاج للمساعدة بحملها؟

ـ لا، هي بميدان التحرير مصابة بطلقة رصاص.

ساد الصمت لبرهة تصوره خلالها رافعًا حاجبيه بفمٍ مفتوح على مصراعيه، وهمَّ بالحديث فقاطعه عمرو: أنا بانتظارك!

بعد مواربات نجح في الوصول إلى منزل صديقه، كان الأخير يقف داخل البوابة الحديدية، وخلفه حارس الفيلا ممسكًا بعصى خشبية تشابه ما بحوذة حسنين. قال عدنان بتوجُّس حين دلف عمرو إلى السيارة: "سلاح ناري!" هزَ الأخير رأسه بدهشة: بالطبع لم تفكر بالأمر، مصر كلها الآن تملك سلاحًا ـ استدرك بغيظ ـ ما الذي تفعله بك تلك الـ.. الـقسمت؟! ـ جلس بأريحية ـ اعتبره نوع من الحماية.

ازدرد عدنان ريقه مفكرًا، حتى اللجان الشعبية الآن تحوي قطعة من السلاح أو اثنتين، سأله: "مرخَّص؟" فزفر عمرو بمرح: "أتمزح؟ أنا بطلٌ في الرماية!" سارت بهما السيارة في الشوارع الصاخبة، وقد بات تجنُّب الطرق الخطرة مستحيلًا لاسيما والميدان بقلب العاصمة. رائحة الحريق ماتزال بالأجواء، يصبغ اللون الأسود الحطام المتناثر والبنايات، مصر الجميلة في حداد! لكنها حالة لم يستطع عدنان تبينها، أهي حقًا حالة حداد أم ولادة متعسرة؟! بينما غمغم عمرو بحزن: بلدنا ينهار! الخراب بكل مكان والنيران تلتهم كل شيء!

أمسك عدنان مقود السيارة بقوة محاوِلًا تفادي الأشخاص الذين تنشق عنهم الأرض كل ثانية، وكأنهم بلعبة إلكترونية لسباق السيارات: كثيرًا ما نضطر لكيّ الجرح لتطهيره بعد فتحه للعمق؛ مصر تطهِّر نفسها وتفتح بؤر الفساد لتُخرِج القيح.

تعلقت نظرات عمرو بإحدى المراكز التجارية التي باتت خرابًا، وقد تبعثر ما تحويه على الأرض: ستتحول لساحة حرب أهلية! لم أشأ رؤية هذا.

سأله بإشفاق: أهو هروب يا عبسي؟

- ربما، لا أدري! لم أعد أدري شيئًا.

- ليست بحرب أهلية وإن بدت كذلك لبعض الوقت، يحكي التاريخ عن صمودها الدائم بوجه المصائب، لم يكسرها حريق القاهرة، وما يحترق ليس بقيمة ما احترق قبلًا. ستنبعث من رمادها.

قال عمرو بإحباط: لا يعود من رماده سوى عنقاء الأساطير، والحقيقة بشعة!

- أفضل من التخبط في الظلام.

- ما الذي دفعها لذاك الطيش؟!

قال بغيظ. أغلقت خزانة الملابس والأحذية لأمنعها الخروج، تصرفتُ كوالدي وفشلت. أقوم بأسخف الأمور لأبقيها قربي!

لم يكن عليها تعريض حياتك للخطر مع يقينها باستحالة وقوفك مكتوف اليدين!

زوجتي! وحمايتها واجبي، ليتها تدرك أن ابتعادها يجعلني كبؤساء (هوجو)!

غمغم عمروو بنزق: تصر على دعوتها زوجتك!

قال بتسلية: لأنها زوجتي رغمًا عن أنفها وأنوفكم جميعًا.

لم تمنعهما قتامة الزجاج من رؤية الصورة بوضوح، كقاعة سينما تعرض فيلمًا حربيًا بساحة قتال! الجنون يعم الأرجاء، والهتافات تمتزج بالصراخ واللعنات، قال عمرو متهكمًا: آمنت الآن بامرأة تُبنَى لأجلها الممالك كما تُهدَم لأجلها الحضارات ـ ربت على كتفه هازئا ـ وأنت خير دليـــ...

قطع جملته لاعنًا حين لمح سيارة تمر كالبلدوزر، داهسة بوحشية العشرات ليتعالى الصراخ والعويل! أوقف عدنان السيارة قُرب الرصيف محدقا بالمرآة الأمامية، تطالعه مشاهد اللحم المعجون بعظامه وأنهار الدماء، سحقوا اللوتس الفتي بلا رحمة فأصبح والأرض سواء، التحمت الدماء المراقة بشقوق الأسفلت ترسم ملامح أرض جديدة! لم تهيئه مهنته كطبيب لسنوات توقّف عن عدها لمشهدٍ كهذا، أراد ترك السيارة والذهاب للمساعدة وإسعافهم، وود لو قادها ملتحمًا بالأفعى الحديدية علّه يرحم بفعلته البقية، ولكن قسمت! سأله عمرو متجهمًا: أيمكنك إكمال الطريق سيرًا؟!

التفت مومئًا: سأذهب لشارع الداخلية، وسأتصل بك حين أعثر عليها.

ـ جيد، سأعود للوراء علّني أعثر على أحياء، كُن بخير.

ـ حين أعثر عليها سأكون بخير.

ترجل عدنان من السيارة مفسحًا لعمرو المجال للقيادة، ووقف متابعًا إياه يعود للوراء قرب المتحلقين حول الأجساد المدهوسة، مشيرًا بأنه طبيب، وحين اطمأن ذهب بطريقه للبحث عنها. لا يدري كم مرَّ من الوقت

ركض بالطرقات، متلحفًا بشالها فوق معطفه، دون أن ينقطع اتصاله بطبيب الميدان. كان تلقي مكالمة واضحة بتلك الظروف أمرًا مستحيلا. جلس في بعض الأحيان خلف السيارات على ركبتيه مغطيًا أذنه ليتبين الحديث، فاعلا ما يمكنه ليلتقط ما يقول. كم غريبة تقلبات الحياة! الطبيب مثال الرزانة يركض كالمهووس في الطرقات، مطاردًا طائره المهاجر، ملتحفًا بشال نسائي! عاود الركض حتى باتت أنفاسه تسابق بعضها البعض: "لقد اقتربت، إلى اليمين أم اليسار؟ حاول مقابلـ.. "، تشوش الصوت، أي عذاب! الكل يركض، والكل يصرخ، والكل مشتبك مع الكل، وهو عاجز عن تبين من ضد من! أوقفته إحدى مجموعات الشباب عند طرف الميدان، يطالعونه بريبة، مدركًا أن ملابسه المنمقة ورائحة عطره رسولٌ سيءٌ، اقترب الأربعة يمسك أحدهم بعصا طويلة، مما ذكَّره بحسنين، يضع فوق إحدى عينيه عصابة طبية، لقد تحول الجميع لمقاتلين! طالب أحدهم ببطاقته فأخرجها: "أنا طبيب" طالع الشاب البطاقة ثم أعادها إليه رامقًا إياه بنظرات لم يبارحها الشك، وقام بتفتيشه فسأله عدنان: "أحمد البنهاوي! أين أعثر عليه؟" همَّ أحدهم بالإجابة: "من المستحـ "، فقاطعه رجل يرتدي معطفًا أبيض ويضع فوق صدره شارة مطبوع عليها (مستشفى الميدان): "الدكتور عدنان؟! تعالَ معي . لوح الرجل للشباب بإشارة مطمئنة ليتابع سيره مع عدنان. سأله الأخير بقلق عن تطوارت الحالة فيما مرَّ شابان يحملان فتاة والدماء تنزف من وجهها بغزارة، انقبض قلبه لمرآها، ربما هي زوجة أو حبيبة أحدهم، ربما يتآكل والداها قلقا، هل جال بخاطرها ما سيفعل بهما الانتظار والجهل بمصيرها؟ لا يظن، وإلا فكرت قِسمت ألف مرة قبل المجيء! بالتأكيد همست بواحدة من (لا يهم)! رأى آخرين يحملون شابًا مصابًا بطلقٍ في عينه وكتفه؛ لم تكن الصورة التي نقلتها الشاشات حية كالآن، الواقع أكثر بشاعة!

انتزعه الطبيب: قطع رخام مهشمة تحطم الجماجم وتشج الرؤوس!

التفت إليه عدنان: وهل أصيبت بواحدة أيضًا؟!

حرَّك رأسه نافيًا: لا، فقط طلقة رصاص، وقد أخرجتها، فقدت الكثير من

الدماء لتأخرنا بإسعافها، لم يكتشف الشباب إصابتها سوى بعد نصف ساعة، فأصيبت ببعض التشنجات العضلية؛ البرد قارص.

- ألم تفقد وعيها بالكامل؟

أشار لإحدى الخيام: ستراها بنفسك.

وقف عدنان بمنتصف المسافة بين الخيمة والرصيف المحيط بالميدان متسمرًا بالأرض، يضم قبضتيه ضاغطًا على أسنانه حتى كاد رأسه ينفجر، لم يكن يومًا جبانًا أو ممن تخذله مشاعره وحين تعلق الأمر بها انقلب حاله رأسًا على عقب! هو طبيب بحق الله! لطالما رأى جروحًا تنزف! دعاه أحمد بدهشة: "ألن تدخل؟". رفع طرف الخيمة لتهب لفحة من الهواء تهز جدرانها الواهية، فلمح رجلًا عجوزًا يجلس على الأرض، ازدرد ريقه وخلع الشال محتضنًا إياه، وقد نجح عقله أخيرًا في إصدار أمرٍ لقدميه بالتحرك، سار بتثاقل نحو الخيمة كمن يسير في جنازة! وانحنى راكعًا ليتمكن من الدخول محدجًا العجوز بوجوم. كانت الخيمة كجحر أرنب، وسرعان ما عثر عليها ممدة على الأرض، مدثرة بغطاء صوفي ذي نقوش كرقعة الشطرنج، أغطية خفيفة لن تهبها ما تحتاج من دفء مع دورتها الدموية الضعيفة، لكنه أفضل ما يمكن توفيره في تلك الظروف. جلس متكئًا على ركبتيه إلى جانبها، وشفتاها المكتنزتان ترتعشان بلونٍ أزرقٍ باهتٍ، أمسك برسغها ليستقر إصبعه فوق نبضها المختلج مغمضًا عينيه، لم تكن يومًا ضعيفة رغم هشاشة دواخلها، أو مستسلمة رغم قسوة الظروف؛ فتأتي رصاصة لعينة مجبِرة كيانها على الانهيار! اختلج نبضها بين أصابعه فواتاه الأمل، ربما لن تحتاج لنقل الدم. خلع معطفه ووضعه فوقها، فانسل عم سيد مغادِرًا الخيمة.

انحنى مقبِّلا جبهتها ملامسًا وجنتها بأطرافه الباردة: "أسما، استيقظي يا حبيبتي، أنا هنا" تحرك بؤبؤا عينيها أسفل جفنيها المغلقين، استجابة جيدة، ستستيقظ لأنها محاربة! تذكر الشال فسارع واضعًا إياه حول عنقها "لا تفعلي بي هذا" كانت الممرضة تستمع لتوسلاته البائسة، مشفقة: "ستكون بخير". فتحت عينيها وكأن رائحة الشال أعادت وعيها! وما إن وقعت عيناها

عليه حتى ابتسمت بوهن: "جئت!" سألها باسمًا: "أهو ثأر بيني وبينك؟" تنهد زافرًا رعب اللحظات الثقيلة، ورفع كفها بين راحتيه مقبِّلا نبضها: "أتيت يا عذابي قالت: "نوار كانت معي تمتم: "أنتِ متعبة" سألته معاتبة: "تصدقني؟" ربت على وجنتها: "بالطبع

قالت الممرضة التي كانت تحدجهما ببلاهة: الحب أسفل كرات النار وأمطار الرخام! حاول إخراجها بأسرع وقت، الكثيرون بالانتظار.

غادرت الخيمة فعاود الالتفات إليها بابتسامة حانية: لم تجيبيني! ثمة ثأر بيننا؟ ـ أومأت بعينين مغرورقتين فضرب طرف القبعة فوق رأسها مداعبًا ـ إذن أخبريني به لأقدِّم كفني وننتهي!

تأملت ملامحه المحببة؛ شعره ناعم بالكاد يلامس رقبته كليل يرسل القمر بعتمته قُبلات فضية، عيناه باسمتان بندقيتا الوميض تقطرانَ حنانًا، وشفتان تملكان وحدهما مفتاح ابتسامتهما وإن قابلتهما بالتجهم! هاجمتها التشنجات العضلية بغتة ليرتعش جسدها وتتصلب أصابع قدميها ويديها، فسارع باحتضانها: تنفَّسي بعمق قدر استطاعتك، ستزول خلال ثوان لديك نقص بالأكسجين لفقدك الكثير من الدماء.

أطاعته بكل ما تبقى لها من إرادة، وحين بدأت حدة التشنجات في الانحسار، جعل يمسِّد أطراف أصابعها لبرهة محدقًا بعينيها: لماذا ترسلينني للجحيم؟! ـ التزمت الصمت فحرَّك رأسه بألم، وتحول لقدميها مخرجًا إياهما من أسفل الغطاء ليرفع حاجبيه بغتة ـ خف كريمة! ـ أضاف بتسلية ـ لو تعلمين ما يفعله غياب الخف بحسنين!

حاولت الإشاحة برأسها فآلمها الجرح: أغلقت خزانة ملابسي وأحذيتي!!

ازداد ارتفاع حاجبيه للأعلى: ولم تكسريها! ـ خلع الخفين من قدميها محرِّكًا إياهما بتسلية ـ كريمة تستشيط غيظًا وأرسلت فريق بحث في جنح الليل مكوَّنًا من حسنين، ألا تملكين بعض الشفقة؟ يا جبارة! يجب أن أدفئك لتتمكني من السير، طريق العودة صعب وطويل.

بعيدة كل البُعد عن القسوة والجبروت مع الجميع، إلاه! مسَّد قدميها الباردتين كقطعتي ثلج، فأعلنت بعناد: لن أعود ـ رمقها بنظرة حادة متسائلًا ـ لأنك ترفض إطلاق سراحي.

لم يستطع الإنكار! ليست المرة الأولىٰ التي يعيدها ويعلم قدرته علىٰ إعادتها وإن رفضت! مسَّد جبهته لبرهة ثم أعاد شعره للوراء: تظنينني من يملك إطلاق سراحك وكأنك السجينة! أطلقي أنتِ سراح قلبي، وارحميني. تحولين المشاعر الحميمة لخطرٍ يحدق بك، أي منطق!

عاود التمسيد بصمتٍ متأملا تقاسيم وجهها المميزة؛ خليط الأنوثة الصارخة وبراءة ماكرة لطفلة توشك علىٰ ارتكاب حماقة باستمتاع. كان دفء يديه يسري من قدميها لقلبها الذي ضجت شرايينه بالحياة. يحدجِّها بين الحين والآخر بنظرة ذات مغزىٰ، تسر أنه يعلم ما تحاول مقاومته! ليعود وينهمك بإعادة الحياة لأطرافها، خلع جوربيه ودسهما بقدميها معاودًا ارتداء حذائه، فتمنعت: "لا ينبغي أن تفعل هذا!" عاود الجوس إلىٰ جانبها: "تحتاجين للدفء" أغمضت عينيها هاربة من مرآه الحزين، لا تستحق سعادتهما المزعزعة الأركان التي توقن بانهيارها عاجلًا فوق رؤوس جالبة لكليهما التعاسة لبقية العمر! البداية خاطئة، والإهانة ومذلة الاحتياج كافرة! لن تنسىٰ استسلامها بتلك الليلة الرهيبة، مازالت الذكرىٰ تقيِّد عاطفتها كلما حاولت الخروج للنور، لا يهم! لا فرار من الحب لكن لا فرار أيضًا من القسمة! قالت بتردد: دعوت الله برؤيتك مرة أخيرة لأطلب منك مسامحتي، كنت بحاجة لمجيئك ـ أردفت بإصرار بعد وهلة صمت ـ نوار هنا، لن أتركها بعد عثوري عليها.

ـ تهتمين لنوار وليست بحاجتك، وترفضين كفايتي مرارة الاحتياج! ـ أمسك بذقنها مديرًا وجهها ـ هذه البراعم الوليدة بعينيك وأشياء كثيرة بلا حصر جعلت الأمر (لا يهم) منذ زمن وتعلمين هذا.

آه من عينيها ولونهما ذي الألف حكاية مع كل همسة غزل! ويبقىٰ تشبيه الطبيب الأقرب لقلبها والوحيد.. القادر علىٰ دغدغة مشاعرها! ابتسم رافعًا

حاجبيه بمكرٍ ودسَّ يده بجيب قميصه، مخرِجًا الكيس المخملي يؤرجحه، فتحه بعناية شديدة، وانتقى حبة ووضعها براحتها مغلقًا أصابعها: استقبلتِني بابتسامة جميلة ـ ربت فوق وجنتها برزانة أب يكافئ طفلته ـ تستحقينها ـ احتضن كفها المضموم ـ صدقيني يا سيما، لم يعد يهم.

فتحت أصابعها مجبرة إياه على إبعاد كفه، محدقة بالحبَّة مرددة الاسم (الودود).

اتسعت ابتسامتها ساهمة: كنت أجلس وأنا طفلة فوق ركبة والدي، مندسة بين أحضانه أستمع لتسبيحه، يسبح بلا مسبحة ودومًا بكلمة واحدة (يا ودود، يا ودود)! رددتُ خلفه الكلمة دون إفلاح بنطقها (يا داوود)، كان يبتسم بحنان محاوِلًا إصلاح نطقي، فأفشل، وحين يلوح الإحباط والضيق على وجهي، يهمس (لا يهم ما تنطقه شفتاكِ) واضعًا كفه الأسمر فوق صدري (المهم.. ما ينطقه القلب)!

أخرجت كيس حباتها معيدة الحبة لشقيقاتها، وهمت بإغلاقه فتشنجت أصابعها. أخذه وأغلقه بإحكام ودسه بجيب سروالها: أؤمن أيضًا أن ما تنطقه شفتاكِ ليس ما ينطقه قلبك، شفتاك مراوغتان وعنادك (لا يهم) مثلما أصبح الأمر القديم.

ـ بل يهم، لو لم نلتقِ تلك الليلة لربما كنت.. كنت!

جعلت ترف جفنيها بقوة لئلا تنهار ببكاءٍ سيغرق الميدان كطوفان! رفعها لتتكئ عليه وأحاط كتفيها بذراعه مقبِّلًا أذنها: كفى، التقينا وانتهى الأمر! تؤمنين ألَّا فرار من القسمة؟

هزت رأسها كاتمة آهة على وشك الانفلات، مقاومة الدفء اللذيذ بين ذراعيه: هي قسمتي وحدي أيها الطبيب، وسأبقى هنا.

قال بحزم. على جثتي ـ رفعت رأسها تضم شفتيها فابتسم رغمًا عنه ـ لا وقت لعرض القُبلَة الـمُحرَّمة!

يذكِّرها أنه من شبَّه حركتها العفوية بالقُبلَة الـمُحرَّمة، يذكِّرها بالكثير مما تأمل نسيانه! دلفت الممرضة مقطبة: "مازلتما هنا!". عاجلها عدنان:

"سنرحل حالا" أومأت الممرضة: "سأجعلهم يحضرون المصاب" ساعدها على ارتداء خف كريمة ووضع الشال فوق كتفيها، ثم نهض عاقدًا ذراعيه فوق صدره: "علينا الخروج من الخيمة" مدَّ يده إليها فعضت على شفتها تحدجه بارتياب، ولم تجد مفرًّا في النهاية سوى قبولها، شعورها بالضعف فور نهوضها أزعجها، لم تعتد ذلك! نادرًا ما تمرض أو تصاب بوعكة، حتى الأنفلونزا ونزلات البرد لم تكن من نصيبها، بل نصيب نوار! تسببت قدماها المرتعشتان وأصابعها المتشنجة بوقوعها، وكعادة ذراعيه كانتا متأهبتين لعثراتها، وبكل صبر. استقبلهما الصخب وأصوات الهتاف فاضطر للحديث بنبرة مرتفعة: أمازلتِ مصرة على البقاء؟ ـ أومأت وأسنانها تصطك فمطَّ شفتيه ـ لنرَ كيف سيمكنك الصمود! هذا إن كـ..

قاطعه عم سيد: كيف حالها؟ ـ مدَّ يده ببضع حبات من التمر ـ كانوا يوزعونها قبل قليل.

قال عدنان بلطف: اكتسبتِ صديقًا جديدًا، لا تضيعي وقتك! مرحبًا، أنا زوجها عدنان.

قال الرجل بارتياح: حمد لله على وصولك، أنا عمك سيد، أنقذتني زوجتك اليوم مرتين من شجٍّ في الرأس وارتجاج في الجمجمة ـ أضاف بمرح ـ رأسي لم تعد (ناشفة) كالسابق؛ بدليل تحايلها عليَّ الذي أتى بثماره!

تدهشه قدرتها على إيقاع أيٍّ كان بحبائلها على اختلاف أعمارهم: صرتِ بطلة إذن! ـ أردف بجدية ـ لستَ الأول ولن تكون الأخير.

ابتسم عم سيد، ومدَّ يده بزجاجة ماء وعلبة عصير: أحضرت لها بعض الماء ولبن (بالشكاليطة) ـ رفع عدنان حاجبيه فتابع العجوز ببراءة ـ لم أرَ مثلها قبلًا، هكذا أخبروني!

التفت عدنان إليها، يلتمع بعينيه وميض الفخر: لا تتوقفين عن إيلام حاجبيّ! ماذا فعلتِ بالمسكين ليتسول لأجلك حليب (الشكاليطة)؟ هَمسَ ـ أكانت ابتسامة بصحبة الغمازتين؟

ضحك عم سيد: لا تخف يا وَلَدِي، لم أتسول، هي بعض الإعانات

يوزعونها بين الحين والآخر، لم ينسَ أولاد الحلال من يحارب لأجلهم.

ضربت الكلمات وترًا خفيًا! أهو مخادع بادعائه محاربة الظلم على طريقته؟ أيكفي مستشفاه المفتوح أم هو بحاجة للغوص هنا ومحاربة التيار الجارف؟ انتزعته من أفكاره بصوتها المتحشرج: هيًّا اذهب من هنا وعد لمنزلك، ليس مكانك، وعالمي لم يكن يومًا عالمك، لا تستمر بالخطأ.

قلب عينيه بنفاذ صبر وباغتها بالابتعاد، فترنحت توشك على الوقوع. صرخت مستنجدة: عدنان ـ ارتفع جانب فمه وساعدها فرمقته بضيق ـ تعمدت ذلك!

همس بخفوت: أريك عمليًا ما يحدث إن ابتعدتُ خطوتين. بالمناسبة، سروالي ومعطفي وكنزتي يناسبونك كثيرًا! ما أخبار ملابسي الداخلية؟ لِصة!

ساعدها على الجلوس فوق أحد الأحجار، فقالت: سأكون بخير.

زفر بسخرية: ستعاودك التشنجات العضلية، الحليب والتمر سيمدك بدفء لحظيّ، تحتاجين لتنظيف الجرح ووجبة ساخنة لتعويض الدماء. أين ألواح الشوكولا؟ ـ ازدردت ريقها مطرقة كالأطفال ـ تناولتها كلها! ـ هزت رأسها نفيًا فأمال رأسه بريبة ـ وزعتها!

قالت مدافعة: هناك من يحتاجها أكثر منِّي، لا تعي كيف كان الحال! ـ استطردت ملوحة ـ لا يهم! لن تقدِّر الحقيقة!

قال عم سيد بخجل: والله توسلت إليها لتحتفظ (بالشكاليطة).

همَّ بإخباره أن الأمر لا يهم حين سمع صراخًا هستيريا (طبيب.. نحتاج لطبيب)، فنهض مسرعًا: جربي الأمر لبعض الوقت ولن يعجبك!

أمسك بذراع الشاب مستفهمًا، فقال الشاب وأنفاسه اللاهثة توشك على إسقاطه مغشيًا عليه: مصطفى ينزف ولم أعثر على طبيب، الجميع مشغول.

كان المصاب ملقى على الأرض وحوله مجموعة من الشباب، انحنى عدنان ممسكًا برأسه لفحصه: كيف حدثت الإصابة؟

قال أحدهم: طلقة الغاز أصابته برأسه.

كانت أشلاء مخه مبعثرة يجرفها نهر الدماء، عجز عن إطلاق الحقيقة كقذيفة الهاون بوجوههم، وكانوا يطالعونه بأعين فزعة مترقبة! فوضع يده على نبض رقبته ورسغه، وانحنى متصنعًا التأكد من تنفسه وحدقة عينيه، ثم رفع رأسه: "أنا آسف، البقاء لله". عاوده الشعور المقيت بالعجز! فقدِه مريض بغرفة العمليات وخارجها ليس بالجديد، لكن تظل أقسى اللحظات وقوفه مكتوف اليدين أمام المكلومين، يعترف بعجزه عن التحول كزملائه لآلة بلا عاطفة، لاسيما والأمر هنا مختلف، فمن رحل لم يُمنَح فرصة إنقاذه! أن تقتل بطعنة في الظهر لهو الانحطاط بعينه! فوجئ بأحدهم يمسك بتلابيبه فيدفعه للوراء: هل جننت؟! مصطفى لم يمت، أتفهم، لم يمت، أعد الكشف.

حاول البقية تهدئته: يكفي يا محمد، هو أفضل منا، هو شهيد.

لم يفلت محمد أصابعه المطبقة على ياقة عدنان، صارخًا بهستيرية: مصطفى لن يموت، إنه أفضلنا، كيف يموت أفضلنا؟!

ربت على كتفه أحد الشباب باكيًا: مات لأنه أفضلنا.

تبادل وعدنان النظرات الصامته لبرهة، كان يرمقه بغضبٍ شديد ثم بدأت أصابعه تفلته، نظر شاخصًا نحو الجثة: "مصطفى!" وقفوا محيطين بالجسد المسجى كأن على رؤوسهم الطير! حتى صرخ أحدهم منتحبًا: لم يرد شيئًا لنفسه!

سأله آخر: ماذا سنقول لزوجته؟!

ردَّ أحدهم: مات غدرًا.

مات غدرًا! لم يمنحوه فرصة النظر لعيني عدوه أو فرصة لوداع الحياة! عقدوا صفقة مشينة مع الموت، لكنها خاسرة؛ بفعلتهم زاد رصيد الغضب وعلو الصوت. ستظل بقايا الأجساد وبقايا الأرواح شاهدة على جرمهم! تناهى لسمعه صوت غناء، كانوا مجموعة ملتفة في حلقة، منهم الجريح تعلو رأسه وعينه الضمادات، والبعض سليمٌ معافٍ، فتيات بالحجاب وأخريات دونه، مرتدو السلاسل وتمائم الحظ وملتحون..

ياه يالميدان.. كنت فين من زمان.. هديت السور.. نورت النور.. لميت حواليك شعب مكسور..

يقاومون إحباط الخطاب وقسوة الغدر بالغناء، أيغنون إصرارًا على الحياة أم استقبالًا للموت! أيقن أنها روحٌ جديدة ترفرف حول أرملة انتظرت طويلًا، راحلًا لم يعد!

يكاد جزع قلبه يُركِعه تحت قدميها متوسلًا، لن يقايض بمشاعره، لأول مرة يريد عودتها برغبة حقيقة واحتياج صريح، ماذا إن رفضت؟! أيتخذ الجانب الآمن مرة أخيرة لمصلحتها؟ حتى وإن كان أنانيًا فسيرضى بدنوِّ الأخلاق إن أبقاها بين ذراعيه! وقف مشرفًا عليها يحاصرها بنظراته، ترتعش محتضنة نفسها والعَلَم ملاذًا لأصابعها في محاولة للتماسُك. سألها عاجزًا عن إخفاء التوسل: "تأكدتِ أن بقاءك مستحيل؟" أطرقت تنتفض بصمت، ثم رفعت رأسها تطالعه فكان خطأها! عينيه اللتين اكتشفت زيف قسوتهما كما قرأتهما بحماقة فيما مضى؛ سلبتاها البقية من عنادها الواهي: "عدنان، أنا متعبة، خذني للمنزل أرجوك" حدق بوجهها المختلج ببلاهة كأنها تتحدث لغة غريبة! توقع معركة! وأدرك عجزها عن الاعتراض؛ قِسمت يحنيها ما يحني الجبال! منبع كبرياء لا ينضب، حتى بلحظات الحب الحميمة! ابتسم طابعًا قُبلة فوق رأسها: "لَم تطيلي عذابي" بحثت بملامحه عن شيء يجعلها تمقته، فلم يقابلها سوى حنان غامر! همَّ بمساعدتها على النهوض فأوقفته بكفِّها المرتعش فوق صدره، لتصدمها حرارة جسده: "كعادتك دافيء". زفر قائلًا: "نكمل بعضنا البعض

ازدردت ريقها: أمرٌ أخير ـ أشارت نحو عم سيد ـ لديه زوجـ...

ـ لاااا، سيما! لا تسير الأمور بهذه الطريقة، لم يعد لدينا وظيفة شاغرة!

عاودت توسُّلها بنبرة لا تخيب، فطالعها لبرهة ثم مطَّ شفتيه باستسلام، فغمغمت: "أنت بطلي" سألها متهكمًا: "أحقًا!" أجل.. هو بطلها ملتقط النجوم عبر الأفق، الحالم من عالم مخملي، لكن لن تخبره بحقيقة تخفيها

حتىٰ عن نفسها! ربت عم سيد فوق كتفه بامتنان: لا يمكنني العودة، طالما يُصِرّ

علىٰ البقاء! أبنائي بحاجة إليَّ، لم آخذ بثأرهم بعد ـ همَّت بالاعتراض فأوقفها بإشارة من يده ـ لا تقلقي بشأني، هناك الآلآف من قِسمت، حين يرحل سأبحث عنك أنا وخالتك عزيزة، فالصعيدي لا يترك ثأره.

لكنها عرفت رجلًا فعل؛ أحب الحياة وكره الموت! ترجته فقاطعها: اذهبي معه يا بِتَي، ليس لي مكان سوىٰ هنا ـ التفت لعدنان ـ حفظها الله لك.

رفع عدنان رأسه بزهو كمن ملك العالم بينما هاجمتها نوبة تشنُّج عضلي برقبتها، فشهقت من الألم، كان جسدها يثور عليها وخلاياها تعلن العصيان، لا دماء كافية لحمل الـكسجين، حمدًا لله أن نزف الدماء توقف وإلا بات الأمر كارثة! ساعدها علىٰ الجلوس ممسِّدًا رقبتها وكتفيها لبعض الوقت، ثم قال مطالعًا هاتفه: لن أنجح المرة القادمة في فكِّ التشنج سريعًا، علينا الرحيل.

أطرقت لوهلة: "سأعود ثانية" قال بينه وبين نفسه: حين تضيء الثقوب السوداء! بعد دقائق مريرة كاد يفقد فيها الأمل، رن الهاتف، وأبلغه عمرو بقدومه. ذاب عم سيد بين الجموع مودعًا، بعدما أعطاه عدنان بطاقة تحمل اسمه وعنوانه. مرَّ بعدها الوقت بطيئًا، وأمواج البشر المتحركة بلا هوادة يحملون مصابًا حينًا، ويصرخون بالهتاف أخرىٰ. اشتعلت السماء عدة مرات بكرات النار، وانفجرت الأرض بالمولوتوف حارقة أجساد العديدين. احتضنها فاستكانت بين ذراعيه، تنتفض بين دقيقة وأخرىٰ، ثم تعود لنوم قصيرٍ ينتزعها منه بهمسة في أذنها، غمغمت: ألن تقلق زوجتك علياء لغيابك؟

قال باسمًا: لا تشغلي بالك.

اضطر لإيقاظها وقد حان الوقت فهمهمت: "أريد أن أنام" وعدها بالعودة لفراشها الدافئ، ففتحت عينيها الزائغتين علىٰ مضض، ونهضت

بمساعدته كريشةٍ تتلاعب بها الرياح! لف ذراعها حول كتفه وذراعه حول خصرها: حين تشعرين بعجزك عن السير أخبريني، عليَّ الاحتفاظ بقوتي، فلا أعرف متى سيتعيَّن عليَّ حملك.

ـ أنا آسفة.

همس بتصميم: بل أنا الآسف.

رغم العالم المبهم الذي تسبح فيه، تساءلت: علام يأسف؟ تتسبب في المشكلات دومًا قالبة الطاولة فوق رأسه؟! وتعلم جيدًا تأثيرها السيء على حياته، لكنها عاجزة عن افتعال شجار بلا مبرر عدا أنه رائع.. تغيظها روعته! كم تخشى التأكد! كيف ستبرر؟ كم من أمور أخفتها بعبقرية! انسابت دمعتان صغيرتان شعرت بدفء رحلتهما القصيرة فوق وجنتيها، غيابها عن الوعي أرحم، ليته ما تحدَّث! سارا بخطى حثيثة بين الجموع، يصطدم جسداهما بأجساد مَن يقابلونهما، ومن يحاولون التقدم من خلفهما، زاد من احتضانها ليمنحها الأمان الذي تفتقده وسط الصخب وقدماها بالكاد تحملانها. كلما أوشكت على السقوط اشتد ساعداه حولها، جاهدت حتى الرمق الأخير، وقد بدا الطريق بلا نهاية مع الضعف الساري بأوصالها! تأوهت حين اصطدم جسداهما، فرفعها إليه حتى كادت قدماها ألا تلامسا الأرض، اقترب من وجهها وسألها صارخًا: "هل الألم شديد؟" اختلطت أنفاسهما المتهدجة: "سمَّاعتي، أريدها" قسمت! رغم الأهوال تظل قسمت! احتضنها بقوة، مؤكدًا لنفسه أنها هنا، ليسرع الخطى مجبرًا إياها على مواكبته: "نصل لوجهتنا ولك ما تأمرين . ولم يكن وعدًا بقدر ما كان دعاء!

وكأنها قرأت ما يدور بخلده، همست قبل إغمائها: سامحني إن حدث مكروهٌ.

اشتدت ذراعاه حول خصرها قائلًا من بين أسنانه: أبدًا لن يحدث ـ رفعها فوق كتفيه صارخًا بكل قوته ـ طريييييق، دعوني أمرّ، معي حالة طارئة، معي مصابة.

أنهك الثقل خطواته التي صارت لأجلها طائرة نفَّاثة! وصرخ حتى

شعر بأحباله الصوتية على وشك التمزق، لم يملك سوى الصراخ وبالكاد يسمعونه! صرخ لحياتها، لمستقبله الذي يصر كل الإصرار أن تكون جزءًا منه مهما كان الثمن! قابلته عند طرف الميدان واحدة من اللجان الشعبية، فعرض عليه أحدهم المساعدة في حملها، ابتعد للوراء رافضًا. طمأنه الشاب: "نريد مساعدتك" فاحتد عدنان: قلت لا، إن إردتم مساعدتي ليفسح لنا أحدكم الطريق كي نصل لوزارة الداخلية.

أشار الشاب لأحدهم: "مينا، اذهب معه" قادهما مينا حاملًا عصى خشبية غليظة يرفرف بنهايتها علم مصر، قائلًا: طريق وزارة الداخلية هو الأهدأ، أتمنى أن تعثرا على سيارة تقلكما من هناك. بإمكان عساكر الجيش والضباط المساعدة، فالمكان مؤمَّن بالدبابات.

عاود عدنان الدعاء في سِرِّه بنجاح عمرو بالوصول. كان مينا يشير بعصاه لكل من التقوهم مسهِّلًا لهما المرور، لكن المشكلة أنهم كانوا يمطرونهم بالحجارة، كمن يحاول السيطرة على قطيع جاموس! رفع مينا ذراعه مفاديًا حجرًا متطايرًا صوب رأس عدنان؛ فأصابته، رأى عدنان الدماء تسيل من يده، لكن أيًّا منهما لم يتوقف، كان الوضع أخطر من قطرات دم! غيَّر عدنان وضعها وحملها فوق ذراعيه، خشية إصابتها بالدوار. ففتحت عينيها. جلس مينا وعدنان بجانب إحدى عربات الداخلية المحطمة، منحني الرؤوس، وقسمت فوق ركبتيّ الأخير مستندة برأسها فوق كتفه. قال مينا مشيرًا نحو المسافة بين الميدان والشارع المفضي للداخلية: تلك المسافة هي الأخطر، تحتاجان لدرعٍ يقيكما الحجارة.

نظر عدنانٌ للمعطف الذي ترتديه، كانت ترتجف من البرد! لن تتركه يواجه الأمر وحده، يكفي ما تسببت فيه، قالت بوهن: أستطيع السير، خذ المعطف ـ رفض بحزم ـ أرجوك أيها الطبيب، المسافة قصيرة، ومعي الشال.

حدَّق بالشال المحتضن عنقها وكتفيها، ولمعطفه، لديها استعداد للتخلي عن المعطف، ويكفيها الشال! زجر نفسه لسخافته، ليس الوقت الملائم أبدًا للاعتراف بالغيرة من شالها! همَّت برفع أناملها لتتلمس وجنته، ثم أعرضت

راسمة ابتسامة مرتعشة: خذ المعطف أيها الطبيب.

حدق بها للحظات قائلًا فيما كان مينا يراقب الطريق: لا تستحقين حبة الكهرب، عدتِ لزيف الابتسامات! ـ استعجله مينا فطالعها مترددًا ـ سأسامحك لأنكِ جريحة.

ساعدها على خلعِه ثم انتظر إشارة منه كي يبدآ التحرك، وعند الإشارة نهضا معًا، تلتف ذراعه حول خصرها، وبالأخرى أمسك المعطف الثقيل مخفيًا رأسيهما، عدا فسحة صغيرة ليرى خطواته: لا تغمضي عينيك مهما حدث.

الأفكار برأسه كأشباح تطارده في ليلة مظلمة! ماذا إن وقعت بين يديه فاقدة الوعي؟! ماذا إن لم يعثر على السيارة بانتظاره لاسِيَّما وأنه لم يحدد لعمرو المكان؟ وماذا إن تعثَّر بها؟! لم يبقَ لديه عند خط النار سوى الأمل باستجابة الله لدعائه، والإيمان بصداقة كفيلة بجعل عمرو يتصرف تبعًا لحدسه الذي نادرًا ما أخطأ، حتى ظهرت قسمت!

* * *

لكم من الوقت ركضا! تتعثر خطواتها فيشتد ساعده حول خصرها، حتى شعر بالخدر بأصابعه وذراعه الممسكة بالمعطف، لولا سماكته لكانا هدفين من أسهل الأهداف! كان يصرخ أثناء ركضه بجنون: "معي مصابة" علَّ صوته يهدِّئ شراسة الطرفين، بلا جدوى! فاضطر لاختيار طريق جانبي هادئًا سارا فيه بضع خطوات، لتمسك كفًّا غليظة كتفه توقفهما عن السير: إلى أين؟

رفع المعطف عن رأسيهما بتوجس، محدقًا بصاحب الكف المعتصرة عظامه، لتطالعه عينان حملت صرامة ووحشية سافرة! سقط قلبه موضع قدمية متمتمًا بالدعاء. تبادل النظرات مع الكائن أمامه كشجرة ضخمة بالشارع الحالك، عدا أضواء منسلة من النوافذ؛ أعمدة الإنارة مهشمة مقطوعة الكهرباء. بالكاد تبيَّن ملامحه! شاب صغير ربما يصغره بعشرة

أعوام، لكنه ضخم البنية عريض المنكبين، يشبه من رآهم بأحداث الشغب والشجارات الدموية بالعشوائيات التي تناقلتها الهواتف المحمولة، لاسِيَّما والوضع الذي تمر به البلاد كان تربة خصبة لمن على شاكلته، كان أحد البلطجية المنتشرين كالجراد ممن أفرزهم النظام المتهالك والمتخفين ببؤر الظلام، لم يكن بحاجة للتخمين خاصة مع سلاح أبيض يصل طوله لنصف متر، التفت أصابعه بأظفارها القذرة حول مقبضه، وبالرغم من الأجواء الصقيعية، انبعثت رائحة مقرفة من جسده وملابسه الرثة زاكمة أنفه، كمقلب قمامة! ازدرد ريقه مزيحًا المعطف الصوفي عن رأسيهما: ماذا تريد؟!

خرج سؤاله متحشرجًا من الصراخ، محولًا عينيه صوب نهاية الطريق الذي آمل منذ لحظات الوصول إليه بأمان، ويبدو أن المصائب لن تأتي فرادىٰ! أجابه بابتسامة صفراء: ماذا تملك؟

يعلم أن نفسية هذا الكائن لن تفضل المراوغة، لذا أجابه مباشرة: بعض النقود وموبايل.

ارتفع جانب فمه: والحلوة؟

اشتدت أصابعه حول خصرها: لا تملك شيئًا.

- تملك الكثير!

قال عدنان بهدوء: لا أنصحك بالاقتراب منها.

اتسعت ابتسامته ورفع السلاح عاكسًا ضوء نصله الباهت: لا أنتظر نصيحتك.

كان التهديد صريحًا، فزفر بسخرية: أنا طبيب، وهي مصابة بطلق ناري، شِبه جثة!

قطب الشاب محدقًا بقسمت التي عاودتها إحدىٰ نوبات التشنج العضلي بظهرها، فجعلت تتأوه. بدا له من ملامح البلطجي المرتابة إيقانه عدم تصنُّعها، أمرها: لا تتوقفي عن التنفس - تابع - لا أظنك تسعىٰ لإزعاج نفسك بحمل جثة! خذ النقود ودعني أكمل طريقي بسلام.

أوضحت نظرات البلطجي نافذة الصبر أن كلمات عدنان لم تعطِ صداها المطلوب، خاصة حين رفع يده يهم بلمسها. همست برعب: "عدنان!" أيجب أن يمرا بكارثة ليسمع اسمه مجرَّدا من الحاجز الأسمنتي؟! الأمور ستخرج عن السيطرة ويخشىٰ إثارة غضبه فيزداد الموقف سوءًا! لم يستطع تصنُّع الهدوء أكثر حين لامست أصابعه القذرة ياقتها: أخبرتك أنها مصابة! ابتعد عنها.

ـ لا تأمرني، أنا من يحمل السلاح!

أطرق عدنان بصمت، إن حدث وانفعل لربما يؤذيها! كانت ترتعش إلىٰ جانبه وكل ما استطاعه هو إحكام ذراعه حولها. لم تكن ارتعاشاتها نوبة أخرىٰ، بل كانت خوفًا ورعبًا، هي من أحضره إلىٰ هنا وربما ستتسبب بموته! لن تحتمل فقدًا آخر، عليه قتلها معه، عليه أن يفعل. ظهر شاب خلف البلطجي يحمل سلاحًا مشابهًا لكن أصغر حجمًا. فناداه الأول: تعالَ يا منياوي وانظر ماذا وجدت.

قالها بجزل شديد، فأجابه المدعو منياوي: ما هذا يا برنس؟ إنها في نزعها الأخير!

نهره بحدة: اصمت يا غبي ـ التفت لعدنان ـ النقود!

دس عدنان يده بجيب سرواله مخرجا الحافظة، وهمَّ بإخراج النقود فعاجله واختطَفَها: لا داعي، سآخذها بما فيها ـ أخرج بطاقته الشخصية ونظر لخانة المهنة متهجئًا ـ طَ.. بِ.. يـ. .ب ـ زفر بتهكم ـ أنت (داكتور) حقًا!

ـ أجل وهي مصابة. دعنا نرحل من فضلك.

يعلم الكثير عن التعامل مع المجرمين ومسجلي الخطر كجزءٍ من دراساته في الجامعة وقراءاته الخاصة، ويذكر جيدًا بضعة سطور مازالت محفورة بذاكرته (لا تنظر للمجرم في عينيه مُظهرا التحدي، وكن هادئًا حازمًا في حديثك). لكن أيًا من بقايا تمالك الجأش تلاشت حين اقترب البرنس بنبرة تتوثب للشجار: مازالت تتنفس، ستفي بالغرض.

يعلم أن مصر تعج بأطفال الشوارع ومسجلي الخطر، وجرائم الاغتصاب تسجل أعلىٰ معدلاتها، لكن أبدًا لم يتخيل وصول الأمر لهذا المستوىٰ من الانحطاط؛ لا يهتم إن اغتصب جثة أو امرأة علىٰ وشك الموت! همَّ بالتحدث فأوقفه اهتزاز الهاتف بجيبه، أبعد ذراعه قليلا عن خصرها لتوشك علىٰ الوقوع متصنعًا مساعدتها. شهقة مباغتتها جعلت الأمر حقيقيًا، فانتهز الفرصة ودسَّ يده بجيبه قائلًا: "هيًّا يارجل دعنا نمر يقين لا شعوري أخبره أنه عمرو، هو عمرو بالتأكيد. حدق بعينيها الزائغتين مغمغمًا: آسف ـ ثم هتف بنفاذ صبر ـ أسير أسفل وابل الحجارة حاملًا شِبه جثة، وبعد وصولنا للشارع الخلفي لوزارة الداخلية توقفنا! ليتني ما قبلت مساعدتها، بحق الله يا رجل، إنها مصابة.

قال المنياوي الذي خرج من بؤرة الظلام: معه حق، ماذا سنفعل بامرأة مصابة؟ لن يكون الأمر ممتعًا!.

التفت البرنس قليلًا دون أن يحيد عينيه عنهما: اخرس، أنا من وجدتها.

كان عليه تأكيد عدم صلتة بها؛ فلا يستطيع التكهن بردة فعلهم إن علموا أنها زوجته! فكرة السير بهذا الشارع المظلم أغبىٰ أفكاره علىٰ الإطلاق! لن يسامح نفسه إن حدث لها مكروه، أنقذنا يا إلهي! أنقذنا لأصحح كل الأخطاء، أنقذنا! أشار البرنس لصبيه: خذها منه.

صرخ عدنان بصوته المتحشرج: ابتعد عنها.

وكصمام قنبلة قلبت هدوء المكان لمشهد أكشن؛ ظهرت بقعة من الضوء لسيارة مسرعة، وفوهة مسدس تطلق النار بعشوائية! أُصيب كلا الرجلين بالذعر والارتباك، وجعلا يتلفتان بهستيرية، يحدقان في السيارة تارة وأخرىٰ فيهما. لاحت علىٰ البرنس إمارات غضب وغيظ، والمنياوي منتظرًا قراره الأخير. وخلال ثوانٍ صرخ بتوسُّل: هيًا يا برنس، لننجو بأعمارنا، ستدهسنا السيارة كما فعلت بغيرنا.

التزم عدنان الصمت بانتظار لحظة انهيار البرنس، وقسمت بين ذراعيه

تمر الصور أمامها كالأشباح، تأتيها الأصوات من بعيد محملة بطلقات الرصاص، كمن حصل على جرعة من المخدر، معلقة بين الحياة والموت!
صرخ البرنس بغِلٍ: لن أتزحزح قبل تلقينه درسًا.

همَّ برفع السلاح محاولا إصابة عدنان بوجهه، فأصابت طلقة نارية ذراعه الممسكة بالسلاح، ليسقط وحافظة النقوده من يده على الأرض، انفلتت من فمه آهة مذهولة، مصاحبة لجرعة مكثفة من السباب لوثت أسماعهم وأسماع الكائنات الحية بالمنطقة. "هيًّا يا برنس!". صراخ المنياوي المرتعب لم يؤثر بالبرنس الذي بات يزبد ويرغي بملامح نضحت حقدًا وكراهية، وفي النهاية لم يملك سوى التقهقر كالكلب الجريح، مطلقًا المزيد من لعناته، ليعود محتميًا ببؤرة الظلام التي سبقه إليها تابعه، ليسود الصمت! رأى عدنان نوافذ المنازل تُفتَح دون أن يملك أصحابها الجرأة على أن يطلوا برؤوسهم، فتمتم متنفسًا الصعداء: "الحمد لله" والتقط حافظته الجلدية الملوثة بدماء البرنس.

توقفت السيارة أمامهما بقيادة عمرو الذي فتح بابها الخلفي هاتفًا: هل أنتما بخير؟ قمتما بالسير كل تلك المسافة وبهذه الحالة؟!

عاون عدنان قِسمت على الجلوس بالمقعد الخلفي، ودلف إلى جانبها وأخذها بين ذراعيه: لنرحل حالًا، المكان غير آمن.

فوجئ بأحد الشباب معصوب الرأس والذراع، يجلس إلى جانب صديقه بالمقعد الأمامي. أغلق عمرو الرتاج الإلكتروني للأبواب، وناوله دثارًا صوفيًا، دثرها عدنان به معيدًا احتضانها، بينما التفت الشاب بابتسامة لطيفة: مرحبًا، أنا حسن.

قدمه عمرو: واحد ممن أصابتهم السيارة لكنه مُصِرٌّ على العودة للميدان.

قال عدنان محكمًا ذراعيه حولها: عليك البقاء لاستكمال العلاج!

- وأنتظر زوَّار الفجر! لا، أفضِّل العودة لأمان الميدان وصحبة أصدقائي عن الاختفاء للأبد.

طالعه عمرو عبر المرآة الأمامية: لا تزعج نفسك، حاولت لنصف ساعة دون فائدة.

تنهد عدنان بعمق: لست مندهشًا، رأيت الكثير اليوم الذي سيمنع الدهشة عن اعتلاء ملامحي لفترة طويلة.

قال حسن: لقد أقسمت لي يا عمرو ألا تخرج المصابين من قبو المستشفى حتى يتم شفاؤهم ويكونوا قادرين على العودة للميدان.

ابتسم مطمئنًا: أخبرتك ألف مرة أني سأفي بوعدي، وسأتوصَّل لطريقة تعيدهم إلى الميدان بأمان.

- لن تبلغ سوى عن الجثث كما اتفقنا!

- أقسم بالله لن أبلغ سوى عن الجثث.

تمتم حسن بشرود: لن أنسى يومًا صوت طقطقة عظامهم أسفل عجلاتها - استدرك بلهفة بعد برهة - سأترجل هنا.

- هل أنت متأكد؟ مازالت المسافة طويلة وأنت مصاب!

قال حسن: لن نهرب من أقدارنا - ترجَّل مودِّعًا كليهما - لا تنس وعدك يا عمرو.

أسرع الأخير مناديًا ملوحًا بعدة أكياس بلاستيكية. فعاد حسن وأخذ الأكياس ممتنًا: "كدت أنسى!" ركض ملوحًا، وسرعان ما ابتلعته ظلمة الطرقات، مخلفًا وراءه سكونًا وصمتًا، وزوجين من العيون تتابع خطواته التي حُفِرَت بذاكرتيهما. سأله عدنان عن الكيس، فأجابه: بضعة أكياس من المحاليل الطبية وإبر الحقن والمضادات - ساد الصمت لبرهة ليرفع كتفيه باستخفاف - هو من طلبها!

أطرق عدنان مبتسمًا، كعادته يرفض إظهار ضعفه، عبسي هو عبسي، لكنها الروح الجديدة!

همَّ عمرو بالتحرك، فظهر جندي من القوات المسلحة انشقت عنه

الأرض محققًا معهما! أجابه عمرو: هاجمنا اثنان من البلطجية أثناء إيصال مصابة إلى المستشفى، نحن طبيبان.

أخرج بطاقة تعريف الشخصية وورقة الترخيص الخاصة بالسلاح الناري، تأكد الجندي من الأوراق، فيما أشار عمرو نحو شارع جانبي مظلم حيث اختفى البلطجيان، التفت الجندي للاتجاه الذي أشار إليه، معاودًا النظر إلى المقعد الخلفي نحو قِسمت الفاقدة الوعي بين ذراعي عدنان، آمرًا: اذهبا ولا تعاودا السير بالسلاح الناري.

سأله عمرو باستنكار: وكيف ندافع عن أنفسنا وأنتم تصرون على الظهور بعد الخراب!

لمسة يد على كتفه جعلته يلتزم الصمت، ليقول عدنان بهدوء: شكرًا يا دفعة، سنحرص المرة القادمة على ألا نحمل سلاحًا.

أشار لهما الجندي بإكمال طريقهما، فانطلق عمرو مبتعدًا وغمغم عدنان: "لا ذنب له، مسكين بلا حول ولا قوة". مرَّ بعض الوقت بصمتٍ ثقيل فحانت من عمرو التفاتة نحو المرآة، وجد عدنان متكئًا بوجنته فوق رأسها بعدما خلع عنها القبعة، واضعًا بدلا منها أحد طرفي الدثار، عاقدًا حاجبيه بوجوم، يحرك كفه بشكلٍ آلي حول ذراعيها وجسدها، يمسِّدها. أوشك على فقدان صديق عمره وهي السبب، دومًا هي السبب! سأله بقلق: "هل أنت بخير؟" أومأ عدنان بصمتٍ، فعلم عمرو أنه بحالة صدمة. ازدرد ريقه محدقًا بصورتهما في المرآة، لأول مرة يرى عدنان بهذه الحالة الرهيبة من الضياع؛ عيناه تحدقان في الظلام، ويداه لا تتوقفان عن حركتيهما الرتيبة فوق جسدها، بأحلك لحظاته وعلياء لم يرَ هذه التعبيرات على وجهه! "عدنان" بالكاد وصل صوته لمسامعه وسط الضجيج الذي ترسله رحى الحرب الدائرة بالخارج. لم ينبس ببنت شفه وكأنه بعالم آخر فناداه بإلحاح: عدنان، يجب أن تجبرها على الاستيقاظ. لدي بعض الشاي الساخن بالحليب.

- لا أريدها أن تتألم.

نهره بحدة: أفق يا عدنان ولا تنس كونك طبيبًا.

مرت وهلة من الصمت فظنه عمرو لم يسمع كلمة مما قال، إلا أن الأخير باغته: كانا سيأخذانها.

قطب عمرو مستنكرًا: ألم تخبرهما أنها مصابة؟

ضغط على أسنانه لتزحف يده فوق الدثار ملتفة حولها بتملُّك، ويدس وجهها بعنقه فتمتزج

أنفاسها بمسامه: أخبرتهما ولم يهتما!

هزَّ رأسه بذهول: ماذا فعل بكِ الفساد يا مصر! - ازدرد ريقه - حسنًا يا صديقي، حُبًّا بالله أيقظها، هي معك الآن، وزال الخطر، هيًّا.

رمق عدنان صديقه بالمرآة بتشكك للحظة، ثم ضغط مصباح السقف، لتضيء عتمة السيارة متيحة له رؤيتها، حاول إيقاظها فلم يحصل على ردة فعل في المحاولة الأولى، عدا أن حركة عينيها أسفل جفنيها طمأنته، سألته بسكرات النوم: "ألم نعد لمنزلنا بعد؟" ربما هو مجنون لكن تلك الكلمة (منزلنا) ردت إليه الروح! منحته حميمية الكلمة ما لم تمنحه كلمات عمرو المطمئنة! استعاد الكلمة مرارًا يستمتع برنينها العذب، ربما يكون الضعف سبب إهدائه إياها، لكنه سعيد بها رغم كل شيء، منحها ابتسامة حانية: سنمر أولًا على المستشفى لنطمئن، وبعدها سـ...

- أرجوك، بلا مستشفى، أنا بخير - رمقته بنظرة تعلم تأثيرها جيدًا - لا أريد مستشفى.

- حسنًا، لا مستشفى، لكن عديني بالسماح لي بفحص الجرح دون تملُّص.

أومأت بارتياح فقال عمرو ذاهلًا: لا مستشفى! ولكنها تحـ...

- قسمت لا تريد المستشفى، إذن لا مستشفى! نبضها جيد.

قلده عمرو بغيظٍ: قِسمت لا تريد مستشفى! حسنًا، لازال هناك بضعة أكياس من المحاليل والجلوكوز بالحقيبة الخلفية - مطَّ شفتيه بحنق - ولا مستشفى.

قال بامتنان: لا أدري ما كنت لأفعل بدونك يا عبسي!

منعها المصباح الباهت من رؤيته عدا بعضٍ من ظلال ملامحه، أهو الاحتياج للأمان ما يسيِّرها أم أنها تجرؤ على الاعتراف برغبتها في الحياة معه؟! تساءلت بحيرة: متى سيثور؟ متى سينهرها ويعاقبها على تعريض حياة ثلاثتهم للخطر؟! قرب نهاية العالم! أفلتت آه يائسة فسألها: "تتألمين؟" وكان ألم الروح، لِمَ لا تمنحها الحياة بعضًا من السعادة؟ فقط القليل! أيمكن أن يصيب الأقدار الجنون؛ فتصبح خيانة العهد عهدًا جديدًا! ليتها تعلم الغيب! لا، لا تريد أن تعلم؛ يحمل الغيب دومًا أقدارًا موجعة.

- اجعلها تشرب قدر استطاعتها، به كافيين سينبِّه أعصابها وبروتين سيفيد الجرح - استطرد

ببرود - حمدًا لله على السلامة يا قسمت.

تعلم أمنيته بترك المقود والالتفات ليطبق على عنقها على مرآى ومسمع من عدنان، متحوِّلًا لوحشٍ مفترس، وكما يقولون (عينيه بتطق شرار وحنكه بيشلب دم)، مطلقًا ضحكة شريرة جذلة! اندهشت لقدرتها العجيبة على استنزاف أعصابه دون فعل شيء! تناول عدنان الإبريق: "شراب دافئ؛ نجدة من السماء" أرادت التأكد أنه غير مسموم، لكنها عدلت في اللحظة الأخيرة! صبَّ لها بعضًا منه في الكوب الخاص، ثم ساعدها على الجلوس معتدلة، وعاد الصمت بطل الأجواء عدا ضجيج مكتوم داعب آذانهم متسللًا من الخارج، وصور تمر خلف الزجاج القاتم لأشخاص يركضون، وسيارات تلاحق الزمن هربًا من الفوضى بصخب أبواقها، وحينًا صوت رصاص لا يدري أيٌّ منهم من أين يأتي. وشيئًا فشيئًا بدأ الضجيج في التلاشي مخلفين بقعة الغليان، وسارت بهم السيارة في منحنى أكثر هدوءًا، نحو فيلا المقطم؛ امتثالًا لإصرارها على العودة، بلا مستشفى! ارتدى عمرو قناع الهدوء، رامقًا إياها في المرآة بين الفينة والأخرى، كيف تجرؤ على تهديد حياة عدنان بتلك الأفعال السخيفة؟ غريبة هي الظروف! لم يرَه سعيدًا مع علياء بقدر سعادته معها! صدقت ليلى (القط مايحبش إلا خنّاقه)! ألقى نظرة على المرآة، وقد

عادت يدا عدنان لتمسيدها مستكينة بين ذراعيه كطفلٍ صغيرٍ تركت رغد الفيلا ساعية للموت بقدميها! بات كليهما لغزًّا!

عبثت أصابع عمرو بأزرار مشغِّل الأسطوانات فتعالىٰ صوت سومه..

يا رجائي أنا كم عذبني طول الرجاء.. أنا لولا أنت لم أحفل بمن راح وجاء..

سمعها الذي أرهفته رغمًا عنها التقط نفحات اللحن، مجبرًا إياها علىٰ الاستماع، (أغدًا القاك)! دومًا أذهلها المزيج العجيب بشخص عدنان؛ يحب سومة في القصائد، ويحب فريد في الأغاني، كما يستمع أحيانًا لمجموعة من الفرق الأجنبية، له ذوق خاص جدًا لكن ذوقه اختلَّ؛ هكذا سمعت من أحدهم يصف علاقتهما! عمرو محق، كافيين الشاىٔ الذي بدأ رحلته بدمها أتىٰ بمفعوله وأيقظ حواسها. الأغنية أكثر مما يمكنها احتماله! هو الوحيد الذي رأىٰ ضعفها المهين، والوحيد الذي تهرب من ضعفها أمامه، اختلست نظرة إليه فاختفىٰ مرآه بغتة، بعد إغلاق عمرو الضوء متعللًا بعجزه عن تبيُّن الطريق. ترىٰ بماذا يفكر؟ أهو غاضب أم سيتصرف تبعًا لأخلاقه الشهمة التي تتمنىٰ لو يتخلىٰ عنها حين يتعلق الأمر بها! طبع قُبلة فوق الدثار المغطي لرأسها أجابت تساؤلها. ماذا تفعل أكثر مما فعلت ليغضب؟! سمعته يتمتم مع الأغنية "*فارحم القلب الذي يصبو إليك..* واشتد إطباق ذراعيه من حولها.

ليكن عقابها علىٰ ما فعلته به، فلتعاني احتضانه حتىٰ تختنق! فارحم القلب الذي يصبو إليك.. فغدًا تملكه بين يديك.. داعبت أنفاسه المحمَّلة باللحن جبهتها الباردة، ولولا رؤيتها لعمرو يضغط زِر التشغيل لظنتها خطة مدبرة لتنهار وتتوسل الصفح، لم تعد تحتمل! أطلقت آهة مكتومة فخشي قسوة احتضانه أن تكون آذتها: "ما بكِ؟" قالت منتحبة: "سمَّاعتي، أريد سمَّاعتي قال: "انتظري قليلًا، قاربنا علىٰ الوصول انفعلت: "لا، أريدها الآن" سأل عمرو بنفاذ صبر: "ماذا هناك؟" فأجابه: "تريد سمَّاعتها" يتصاعد انفعالها كلما أطلقت سومة نصلًا باردًا صوب روحها المنهكة..

فارحم القلب الذي يصبو إليك.. فارحم القلب الذي يصبو إليك.. صرخت بعصبية: "أريد سمَّاعتي" قال عمرو بعصبية مماثلة: "حُبًّا بالله يا عدنان أعطها السماعة" عثر عليها ورفعها ساخرًا: "هاتفك معطل، عليك الاكتفاء بسومة" جذبت نفسها من بين ذراعيه، محكمة الدثار حولها، لتنزوي بركن السيارة، متكئة برأسها فوق الزجاج، بات مستحيل على النوم طرق جفنيها، تتوق للتكوُّم كالجنين بين ذراعي والدتها! فتبقى هناك لعمرٍ جديد دون أن تحصي الدقائق أو تطالع ساعتها بانتظار الفراق!

رفعت يدًا مرتعشة نحو عنقها مخرجة قلادة مذهبة، تدلى منها قطعة رفيعة نقشت باسم (نوار). هاجمها وجه زين، متلمسة نقش الحروف، كادت ألا تعرفه! ترى هل عثر على حُبٍّ جديدٍ؟ يجب أن تعيد الأمانة، ستعثر عليه ثانية. رمقها عدنان بحزنٍ، ثم أشاح محدقًا خلف زجاج نافذته، سيحترم المسافة التي صنعتها كما احترمها دومًا، إن كان عليه التكفير عن ذنبٍ ارتكبه ليعثر عليها في نهاية الطريق، وكانت جائزته في النهاية ابتسامة حقيقية منها مغموسة بالحب؛ سيتحمل! تتلاعب بالابتسامات باحترافية؛ فتنظر بعيني ضحيتها بجرأة سافرة تتحداه المقاومة، وحين تبتسم بصدق تلوح إمارات خجلٍ فوق محياها؛ كمن ضبط بالجُرم! فتهرب محتفظة لنفسها بابتسامتها، كم هيَ كريمة حد البخل!

تنفس الثلاثة الصعداء حين توقفت السيارة أخيرًا أمام الفيلا، عمرو سيقيم الأفراح لتخلصه منها، وعدنان اطمأن بعودتهم سالمين، أما هيٍ فكانت سعيدة لخروجها من حصار السيارة الذي نسجته حنجرة سومه. مدّ يده لتتكئ عليها فقبلتها حتى ترجلت، وحين همَّ بلف ذراعه حول خصرها ليقودها نحو البوابة إنكمشت كالهرة الصغيرة، ململمة أطراف الدثار وسارت وحدها رافعة رأسها، كانت كل خطوة تخطوها نوعٌ من المعجزات كمن ضربت كل عظمة في جسده بعصاة غليظة! عليه فقط أن ينتظر؛ تصر دومًا على تعلُّم الدرس بأصعب الطرق! ألقى بذراعيه إلى جانبيه، يمطّ شفتيه بأسف، ثم التفت نحو عمرو: "كنت بطل الرماية اليوم يا عبسي قال عمرو

مازحًا: "أقل إمكانياتي   حانت من عدنان التفاتة نحوها فوجدها توشك علىٰ الوقوع، همَّ بمساعدتها ثم عدل عن الأمر يضم قبضتيه. كان عمرو يتابعها رافعًا حاجبيه دهشة، بينما تحاشىٰ عدنان النظر إليها.

ـ لم لا تمضي الليلة هنا؟ تقلقني عودتك وحدك ـ تابع متهكمًا ـ أنزل حاجبيك يا عبسي، لقد اعتدتُ الأمر!

ردَّ بشرود: كان الله بعونك! تعلم أني لا استطيع النوم سوىٰ في فراشي. والسيارة معي، لا تقلق، سأمرّ عليك غدًا لأعيدها ـ لوح مودعًا ـ لا تنسَ الأكياس بالحقيبة.

سار لمسافة بعيدة ثم ركن السيارة قرب الرصيف مخرِجًا هاتفه. أجابه صوت أنثوىٰ نافذ الصبر: ماذا تريد يا عمرو؟ الساعة قاربت علىٰ منتصف الليل.

اتسعت ابتسامته: وهل كان الوقت يومًا عائقا بيننا يا لولا؟

قالت بنزق: قل ما تريد كي أعاود النوم.

زفر بارتياح: مازلتِ بالمنزل!

ـ أجل، ومازال أستاذك العزيز يغلق باب غرفتي بالمفتاح، وثيرانه تمنعني الخروج.

ـ أنا خائف عليكِ!

ـ لا فرق بينك وبينهم، لا تزعج نفسك بالاتصال ثانية.

ساد الصمت لبرهة كان يحدق فيها بالظلام بجمود، همَّت بقول: "تصبح علــ.."، فقاطعها: "انتبهي لنفسك" (النرفوزة) هكذا أطلق عليها منذ كانا صغيرين! أبعد الهاتف عن أذنه، باحثًا بين صفحاته حتىٰ عثر علىٰ ضالته؛ تأمل الصورة المضيئة لفتاة صغيرة بجديلتين سوداوين، تبتسم كاشفة عن أسنانها الأمامية المفقودة، ووجنتاها الحمراوان يلتمعان أسفل شمسٍ صيفية ساطعة، مرتدية ملابس سباحة وردية من قطعتين، همس بإحباط تعلو وجهه ابتسامة بائسة: عبسي يا لينا، عبسي!

* * *

(٣)

دلفا من بوابة الفيلا، ينتظرهما حسنين وكريمة المتحشة بالسواد، ماتزال آثار الوشم الأخضر الباهتة بذقنها تعلن أصولها الصعيدية الممتدة للنخاع! قال حسنين بارتياح: "حمدا لله على السلامة يا ست قسمت" ابتسمت بوهن: "شكرًا يا عم حسنين لكزته كريمة متمتمة: انظر! ترتدي الخف ـ ضاربة ظاهر يدها بكفها ـ الكحكة في إيد اليتيم!

احتد حسنين عليها: اخرسي ياولية، ألا ترينها متعبة؟!

أطرقت باسمة بخجل: سامحيني يا كريمة، سأعيده فور صعودي وسأشتري لك واحدًا جديدًا.

حدقت بالدرجات الرخامية الأربعة التي تفضي لصالة الاستقبال، كيف سيمكنها الصعود وبالكاد استطاعت السير من السيارة للبوابة؟ لقد أنهكت قواه، لن تقبل مساعدته ثانية. استغلت تشاغُله بالحديث مع حسنين وتثاقلت على نفسها مجرجرة قدميها فوق الدرجات، حتى وصلت لسور الدرج الخشبي بالقاعة، كانت قد استهلكت كل طاقتها كمن سار لأميال! قبضت على سور الدرج، وأخذت نفسًا عميقًا لترفع إحدى قدميها تهم بالصعود،

فأوقفها صوتٌ بحشرجة دافئة: "لا تفكريْ في الأمر قطبت ترف عينيها بحيرة موشكة على البكاء، فاقترب خطوتين حتى صارت أنفاسه لصيقة برقبتها: لدي ذراعان قويتان اسمحي لهما بمساعدتك - زفر برقة - لا أمِن عليك، هي جزء من حقوقك التي ترفضينها وأتوق لمنحك إياها.

- أنا لا أملك حقوقًا ولا أحتاج مساعدتك.

لن تلتفت إليه! ارتقى السلم ليعلو فوقها وأشار بيده: "تفضلي عضت على شفتها بقوة، لم لا يتوقف عن مراقبتها كطفلة؟! وكأنه يربطها بخيطٍ رفيع مفسحًا لها المجال للهو ثم يعود لجذبها وقتما يشاء! لا يهم! لن تستسلم ولتكن معركة! عاودت التحديق بدرجات السلم الراقصة كثعابين السحرة الهندية، تضم شفتيها بتصميم، ورفعت قدمها لترتقي الدرجة الأولى، وحين حاولت الضغط على عضلاتها، هاجمها تشنج عضلي كان أقسى ما شعرته منذ أصيبت! صرخت من الألم الذي يقطع ساقيها كالسكين، وأوشكت على الوقوع فتلقاها بذراعيه: دعي العناد - تنهَّد بإحباط - لا بأس من الاحتياج لبعضنا البعض! ومن لك غيري ومن لي غيرك يا أسما؟!

أفلت الألم سيطرتها فنظرت إليه وكان خطأ جسيمًا؛ نظراته الحانية أذابت قناع البرودة الذي ترتديه فانهارت في بكاء شديد، تهز رأسها ببؤسٍ ودموعها المنهمرة تغرق وجنتيها: "ساعدني" انحنى وحملها بين ذراعيه: "تتعلمين الدرس بأقسى الطرق!" عاوده السؤال الأذلي منذ إيقاظها عاطفته من ثباتها الشتوي (لماذا نجبر أنفسنا على إتعاس أنفسنا؟). وقد أخفت الإجابة بصندوقها الأسود! أجلسها على طرف الفراش معدلا الوسادة خلفها، فأغلقت عينيها، لم يكن هروبًا بقدر ما كان إرهاقًا مميتًا أثقل أجفانها كأكياس الأسمنت! سمعت دبيب خطواته لثوانٍ، ثم تلاشى بعدها كل شيء وراحت في سبات عميق. قاسَ ضغطها وكان منخفضًا، علق أحد أكياس المحاليل مولجًا الإبرة بوريدها الباهت لترتسم تقطيبة خفيفية بين عينيها، سار صوب النافذة ليغلقها، وأشعل مدفأة الغرفة الحجرية التي اختارتها رافضة العروض التي قدمها مهندس الديكور بإحضار واحدة مزيفة، حتى

اضطر لتغيير هندسة الفيلا! أخبرته يومها المبرر الذي لا يعلم مغزاه سواهما (قبلنا بالزيف مرة ولن نقبل به ثانية)! بدأ الدفء يجول بإشتعال النيران وصوت طقطقتها تسرى رتيبة هادئة. غاب لدقائق بالحمَّام ثم اقترب جالسًا بجانبها. كانت وجنتاها تستعيدان حمرة الدماء، فنظر لرقبتها التي حملت بعضًا من أثر النزيف. كابوس! لم يعطها الكثير من المحلول، أراد أن تأكل لتستعيد قوتها. أخرج الإبرة بحرصٍ من وريدها.

ـ عليك الاستيقاظ لتناول الطعام والاستحمام، ـ لاحت ابتسامة حانية فوق شفتيه ـ يجب أن ألقي نظرة على الجرح.. يجب أن تتحملي قليلًا بعد!

ساعدها على السير والأرض تميد بها حتى وصلت لباب الحمَّام، فتحه ليستقبلها دفء بخار مداعبًا أنفها برائحة الزيت العطري، توقفت والدوار يتلاعب برأسها كدوامات الماء: "سأتصرف وحدي". قال بصوت متحشرج: "لن تستطيعي همَّت بالاعتراض فتركها بغتة لتترنح وتوشك على الوقوع: "هذا ليس عدلا" زفر بنفاذ صبر: "وما الجديد؟ كدت أموت قلقًا عليكِ" أزاح الشال بينما اختنقت حنجرتها بأحرف الكلمات فاقدة النطق، تسللت أصابعه لسحَّاب الكنزة فهتفت بوهن: "لا" سألها: "لماذا؟" سؤال وجيه! ولكن هل أقنعته الإجابة يومًا؟ ازدردت ريقها: "لا أستطيع". مرت لحظة من الصمت لم يتحرك أيٌّ منهما كتمثالين من الشمع! عاودت أصابعه طريقها للسحَّاب: أنتِ زوجتي!

عضت على شفتها ليعاودها الدوار: أنا عشيقتك! لا يمكن أن نلوث بما بيننا قدسـ..

قاطعها بإحباط: أعلم كيف تفكرين، لكن شروط الاتفاق انتفت منذ وقتٍ طويل، أصبح لاغيًا يا أسما ـ التزمت الصمت فأمسك بذقنها ليجبرها على النظر إليه ـ مصرة أنك عشيقتي؟ إذن تصرفي كواحدة! ـ للحظة لم تعِ ما يعنيه لكن بريقًا غاضبًا بعينيه أوصل الرسالة جلية ـ أسعديني! أليست وظيفة العشيقة إسعاد عشيقها؟ توقفي عن سَنِّ قوانين التحريم التي تملأ قائمة علاقتنا ـ هزها برفق ـ أنا رجل تعيس، إذن أنتِ عشيقة فاشلة!

عاودها الدوار من هزة يديه فأفلتها حين زاغت عيناها، وجذب السحَّاب فأمسكت بساعديه وعيناها تضيقان توسُّلا: توقف أرجوك.. أنا...

حثها بنفاذ صبر: أنتِ ماذا يا سيما؟ ـ هزَّ رأسه بإحباط ـ لا تستطيعين القيام بدور العشيقة! ـ أبعد يديه فتمسكت بالاتكاء على ساعديه لئلا تقع ـ لست بزوجتي ولا بعشيقتي! إذن من تكونين؟!

هتفت منتحبة: "لا أدري . لم يرَ دموعها سوى مرات يمكنها دك الجبال. فغمرها بين ذراعيه لتلقي برأسها فوق كتفه ملقية ذراعيها بجانبيها. قال: "كفى بكاء، وسأخبركِ أنا" هزت رأسها رفضا وجسدها ينتفض، فصمت حتى هدأت وشيئًا فشيئًا جعلها الدفء تمسِّد جبهتها بقميصه دون وعي، ملوعة اشتياقه وأحباله الصوتية تجاهد لدفع الكلمات: كلانا لديه ما يكفي من الأخطاء ليملك القدرة على الصفح! وإن لزم الأمر فعليَّ معاقبة نفسي مثلك، ولو أن ما تفعلينه أكثر من كافٍ.

جعلت تكفكف دمعاتها بقميصه مستمتعة بقربه، ضعفها ذريعة لن يجعل حساب نفسها فيما بعد عسيرًا! أبعدها برفق معاودًا جذب السحاب. فأدرك أن جلسة التنويم المغناطيسي لم تفلح حين أصرت: أرجوك أيها الطبيب!

هتف بغيظ: مشهد من فيلم المغتصبون! ارحميني ـ أرخى كتفيه هازئًا ـ توقفي عن تقمُّص دور الضحية، تخيفينني من نفسي!

تأمل ملامحها المتغضنة التي حوَّلتها في لحظة من امرأة قوية لطفلة حزينة مجبرة على أداء الواجب! ابتعدت خطوتين الوراء تضم ياقة الكنزة، فأجلسها على طرف المغطس وأحضر بعض الشموع الضخمة مشعِلًا خيطها، ثم أغلق المصباح لتسبح الغرفة في عتمة هادئة من لهب الشمعة الخافت، قائلًا: "أقصى ما يمكنني فعله" لم تجد مفرًا من الموافقة على مضض بعدما وعدها بصنع رغوة كثيفة وإغلاق عينيه! ساعدها على خلع ملابسها ولم يتبقَ سوى بلوزة قطنية فوق ملابسها الداخلية فأمسكت كفه محذرة: "كما اتفقنا أيها الطبيب" أغلق عينيه فهتفت في سرها: ثُر يا عدنان

وأرحني من عذاب ضميرى! تأملت عينيه المغمضتين يتحرك بؤبؤهما أسفل جفنيه اعتراضًا على الظلام، أول ما يبتسم في وجهه عيناه! ابتسامة كثيرًا ما تعجز عن العبور لشفتيه حين تصيبه تصرفاتها بالإحباط! وضع كفه فوق جبهتها ليطمئن لحرارتها ثم تسللت كفه تداعب وجنتها بحنان سرى لخلجاتها، ساكبًا قطرات من النور فوق روحها الجريحة. لم تعِ لنفسها وهي تمسِّد وجنتها بكفه متلمسة المزيد، همَّ بفتح عينيه، فعاجلته: "لا" أرخى كتفيه مومئًا فلعنت نفسها على ما تفعله به، ورغم هذا راقبت عينيه بانتظار هفوة خطأ، لكنه كعادته أمينًا حافظًا للعهد، أوليس كبقية الرجال تحركه نوازعه؟!

ابتسم بمكرٍ: تظنينني لا أراك! غافلة عن أن أناملي تراك بوضوح وتعرفك جيدًا كخطوط كفي.

عضت على شفتها وهبطت إلى المغطس مستترة بالرغوة الكثيفة: "بإمكانك فتح عينيك" زفر بسخرية: "يا للكرم!" أشاحت مقطبة تحدق بالصنبور الذهبي وفقاعات الهواء والصابون التي تتسابق للخروج من فتحات "الجاكوزي". ركع على ركبتيه قرب المغطس ممسكًا بمنشفة صغيرة، بللها من طبق بلاستيكي مزجَ فيه ماءً دافئًا وبعض المطهر ثم اعتصرها برفق، أمسك بذقنها وجعل ينظف حول الجرح بالمنشفة بعناية شديدة: حمدًا لله أن الرصاصة أخطأت الشريان ـ داعبت شفتيها ابتسامة صغيرة سرعان ما كبَّلتها، فضيَّق عينيه ريبة مبللًا المنشفة ـ لِمَ هربتِ؟!

حدجته بنظرة متفاجئة، ثم أعادت رأسها للوراء متكئة على حافة الحوض: وما الجديد؟

لمحته يطبق أصابعه حول المنشفة بقسوة وقال من بين أسنانه مُزيلًا آخر آثار النزيف: الجديد أنها ليلة مرعبة ولا دليل يرشدني إليك!

ـ ربما سئمت عثورك عليَّ، ربما! ـ التفتت محدقة بملامحه المتجهمة ـ أردت حريتي التي ترفض منحي إياها.

ألقىٰ المنشفة جانبًا بإهمال، وجلس علىٰ الأرض إلىٰ جانبها موليًا إياها ظهره: ربما لا تريدين حقًا الحرية التي تدعينها، ربما أنتِ فقط حمقاء تخشىٰ الاعتراف بمشاعرها ـ قلدها بسخرية ـ ربما!

ـ لستُ حمقاء، بل واقعية، سيكون هناك المزيد من الزلات في حديثك بالمستقبل.

ـ أنتِ.. من أوصلني.. لتلك.. الزلة! ولن أدفع ثمنها لبقية عمرنا.. غدًا سنتزوج.

زفرت ببرود: نحن متزوجان، أوليس هذا يقينك؟!

قال من بين أسنانه: تعلمين ما أعنيه.

ـ لن تحضر مأذونًا شرعيًا ليشهد علىٰ زيفنا، ما بني علىٰ باطل هو باطل!

التفت متكئًا علىٰ طرف الحوض: فلنفترض أنكِ محقة، إذن زواجنا لم يعد باطلًا منذ زمن؛ شرط الإشهار تحقق، الجميع يعلم أنك زوجتي بالرغم من عِلم الكثيرين قبلًا، وشرط المدة المحددة انتفىٰ، حتىٰ أجد صعوبة في تذكُّر منذ متىٰ ـ ابتسم ببرود ـ خلاصة القول، أنتِ زوجتي علىٰ سُنَّة الله ورسوله، لم تكن العقود فيما مضىٰ بحاجة لمأذون لتكتسب شرعيتها يا عزيزتي ـ يدرك عقم الجدل معها لكنه لن ييأس، سيتركها لتلتقط أنفاسها ثم يعود في جولة جديدة ـ هيًا لترتدي ملابسك وتتناولي بعض الطعام، لقد تجاوزت الساعة الثانية.

قالت برجاء: اتركني قليلًا، الماء الساخن مريح ـ حدجها بنظرة غاضبة لبرهة ـ وأريد سماعتي!

غادر بصمت فعاودت الاتكاء علىٰ حافة الحوض، وخلال ثانيتين عاد بالسماعة: استمتعي بوقتك.. وحدك! وبينما أنت وحدك، فكري، هل تجرؤين حقًا علىٰ هدم ما بيننا مرة واحدة وإلىٰ الأبد؟! ـ انحنىٰ طابعًا قُبلة فوق جبينها ـ انتبهي للجرح ألا يطاله الماء.غادر تاركًا صوت روزا يصارع برأسها الذكريات البعيدة..

بحبك ما بعرف هن قالولي.. ومن يومها.. صار القمر أكبر.. ع تلالنا..
وصارت الزغلولة.. تاكل ع أيدي اللوز والسكر..

* * *

جلست قِسمت على الأرض بمنتصف السطح، مبتعدة عن سوره المكسور الكاشف عن جزءٍ من إطلالة المبنى. يعلو السطح الطابق السادس ببناية بجاردن سيتي القديمة المطلة على نهر النيل، بغرفتيه الصغيرتين اللتين كانتا مخزنًا للأشياء المهملة، فصارت منزلهما قبل شهرين! دومًا تذكِّرها جاردن سيتي بملامح امرأة عجوز مازالت تملك مسحة من جمال غابر رغم تجاعيدها! خلعت نظارة القراءة ووضعت الكتاب الذي انهمكت بقراءته قرابة الساعة مقلوبًا إلى جانبها، محدقة بفضاء الزرقة السماوية ليوم صيفي حارٍّ إلا من بضعة نسيمات هادئة تأتي لزيارة السطح كل حين. داعبت أصابعها مسبحة الكهرمان الملتفة حول رسغها، متابعة باهتمام سربًا من طيور أبي الحناء، تطير حول بعضها في دوائر. ضامة شفتيها المكتنزتين بحركة عفوية. عاودها ذاك الشعور الغريب أن حياتها كفيلم عربي قديم بالأبيض والأسود! مصر كلها تقبع في فيلم عربي قديم بلا ألوان! كل شيء على حاله منذ عقود، جامد لا يتحرك تمامًا كبنايتها التي أوشكت أن تصبح أثرًا تاريخيًا! تنهدت متمتمة مع فيروز.. بحبك ما بعرف حب لا تشـ... الثبات ملعون! فالحياة تغيرات وتقلبات والثبات موت! تململت معدلة الوسادة أسفل منها محتضنة ركبتيها، تنتظرها قرابة الساعتين الآن، منذ عودتها من مركز التجميل الذي تعمل به كمقلِّمة أظافر. ربما تكون المهنة مهينة لحاملة بكالوريوس إعلام لكن المركز الذي يرتاده علية القوم يمنحها راتبًا مجزيًا هي في حاجة لكل قرش منه! ألقت نظرة مقطبة على الساعة؛ تأخرت كثيرًا! عبت هواء السطح مشبعة رئتيها بنسمة صيفية لطيفة هبت زائرة من صفحة النيل، مؤرجحة شعرها لتلتمع بضعة من خصلاتها ببريق مذهب. ألقت نظرة على عنوان الكتاب ملامسة غلافه الذي مازال يحمل دفء قبضتها.

(جريتا)؛ قصة روسية مترجمة، واحدة من كنوز والدها، إرثه الوحيد وبقايا رائحته الخالدة! طالعت الرفوف الخشبية القابع فوقها المئات من الكتب المتراصة في عراء السطح. من حُسن الحظ أن الوقت صيف ولا خطر عليها! لولا نعمة القراءة لأصيبت بالجنون وقتلها اليأس! أمسكت بهاتفها النقال الذي اشترته مستعملًا وكانت صفقة جيدة، ضغطت زِر الاتصال للمرة العاشرة. الهاتف مغلق! نوار والوقت؛ كالزيت والماء! جذبها رنين الهاتف؛ توقعتها نوار، لكنها سمعت صوتًا رجوليًا تألفه فشهقت بلهفة: ياسر حبيبي، لا أصدِّق! من أين تتحدث؟ كيف حالك؟ اشتقت إليك كثيرًا يا ياسر.

ياسر؛ شقيقها الأكبر وجرح آخر من جروح الغياب. أطلق ضحكة قصيرة: امنحيني الفرصة لأجيبك، أنا بخير، أحدثك من إحدى قرى ليبيا.

- ظننتك ستخبرني أنك بطريق العودة على الحدود!

- مازلت هاربًا.. كيف حال أمي ونوار؟

خبى بريق السعادة عن صوتها: بخير، ماما مع العمة صفية بالسوق، ونوار لم تعد بعد.

قال بإحباط: كلما اتصلت تكون ماما غير موجودة! ما أخبار كامل البرعي؟!

التمعت عيناها بالدموع: اطمئن.

- هناك أشخاص وعدوا بمساعدتي للعودة - همَّت بالحديث فعاجلها - عليَّ الذهاب، أصحاب الهاتف يريدونه.

"لا إله إلا - انقطع الخط فكفكفت دمعاتها - إلا الله" نظرت نحو الجزء المكسور من سور السطح بتردد، أتلقى نظرة تطمئنها؟ نهضت تضم شفتيها، تفرك راحتيها بتوتر، مقطبة بقوة كمن يوشك على القيام بأمرٍ جلل، مدَّت رأسها قليلًا للأعلى ونظرت عبر الجزء المكسور مزدردة ريقها، وخطَت خطوتين بركبتين تصطكان، حين لمحت جزءًا من صفحة النيل يجاورها نهر الطريق بدت فيه السيارات بحجم لُعَب الأطفال! صارت

قدماها كمسمارين دُقَّا في أرضية السطح الدافئة، وشعرت بجبهتها تتعرق وصفيرٌ حاد يخترق أذنيها، هاجمها دوار طفيف فأغمضت.

- أتفعلينها حقًّا؟! ستنظرين عبر السور!

زفرت الصعداء: أنقذتِني من سكته قلبية محققة - استرخت عضلاتها والتفتت بلهفة نحو مصدر الصوت - نوار! ماذا حدث؟!

كانت شقيقتها تسير متكئة على ساعد خطيبها، بالأحرى زوجها وقد عقد قرانهما منذ أربعة أشهر وأجّلا الزفاف لأجل غير مسمى! ابتسمت نوار مطمئنة وجلست على المقعد الوحيد قُرب البأب. اقتربت قِسمت بلهفة: كدت أمرض قلقًا!

ربتت نوار بحنان على يدها: أنا بخير، رضة بسيطة قرب كاحلي. لا تحاولي القيام بعمل بطوليّ كهذا في غيابي!

التفتت قِسمت نحو زين تسأله عما حدث. كان الأخير مقطبًا بقوة ينضح الغضب من وجهه الأسمر الذي تشبه ملامحه وجه تمثال فرعوني، وفوق جبهته لاصقة طبية: أحد الأغبياء فاقدي العقل من عساكر الأمن المركزي ضربها بعصاه محاوِلًا إيقاعها.

قالت نوار بنبرة دفاعية: هم مساكين ومجبرون على الأمر!

صرخ زين بحِدة وقسمت تحول أنظارها بينهما بذهول: لو يعلمون أن ما يفعلونه خطأ فهي كارثة، ولو لا يعلمون فهي كارثة أكبر.

انحنت نوار ممسدة ساقها: يختارونهم بلا تعليم أو ثقافة ليكونوا تحت إمرتهم طواعية، كما أننا لا نقف مكتوفي الأيدي، أحيانًا نبادلهم الضرب، كلا الطرفين منا مرغم على القتال.

- ليس مبررًا ليرفع رجلٌ عصاه على امرأة!

قاطعتها قِسمت بنفاذ صبر: أين كنتما؟! - ألقت السؤال كقنبلة انفجرت بين ثلاثتهم وأردفت ساخرة - هل أخمن أنا؟

نظر زين ونوار لبعضهما البعض بارتباك لتلتفت الأخيرة نحوها بمرح

مصطنع: أكاد أموت جوعًا، وعدتني بالسجق، واليوم تقبضين راتبك.

أتاها صوتها محبطًا: زين! وعدتَ بالحفاظ عليها وحمايتها؟ هي زوجتك، أهكذا تفعل بها!

قالت نوار بخجل: لا تلوميه يا أسما، أنا من أصررت على الذهاب.

- سامحيني يا أسما، لم أستطع الرفض، كل فرد منا اليوم كان له دوره في التواجد بين صفوف المظاهرة، أقسم إنها بدأت سلمية، لكنها كالعادة انقلبت لدموية أسفل عِصِي عساكر الأمن وضباط الشرطة.

- زميلنا أتاه زوَّار الفجر قبل أسبوعين ولا أثر له حتى الآن، كان يجـ..

قاطعتهما بحِدة: حرام عليك نوار، أواجه كل شيء وحدي! وأنتِ تتركينني وأنتَ تشجعها، لن أحتمل مرارة فقد أخرى، يكفي التشتت الذي نعانيه، حتى الجبال تدكها الأهوال ولستُ بجبل!

سار زين نحو سور السطح المكسور ناظرًا لصفحة النيل المتهادية أسفل المراكب الشراعية الصغيرة، واضعًا يديه بجيبي الجينز: نحن نفعل ذلك لأجلنا جميعًا، نفعله ليعود النيل نجاشيًا كما تغنّى له عبد الوهاب، لا ملوثًا بقذارات معدومي الضمير - استطرد بحماس - لنتنفس الهواء نقيًا يا أسما، لتعود والدتكِ ويذهب بدلًا منها من يستحق، لأطفالنا أنا ونوار.

- أريد أن أنجب أطفالًا ليعيشوا لا ليموتوا مرضًا وجوعًا، سنمهد لهم الطريق وإن مروا فوق أجسادنا.

- لا دخل لي بكل تلك الترهات، لا تفعلي ذلك ثانية أتوسل إليكِ.

- مازلنا ببداية الطريق، حتى وإن حاول زين منعي! لن أعدك بشيء لن أفي به.

حدقت بها قِسمت لوهلة ثم مسحت الدموع عن عينيها: جائعة؟ - اتسعت ابتسامتها دون أن تطال عينيها - أحضرت السجق كما وعدتكِ، وصنعت لك سلطة الطحينة.

نهضت نوار مبتسمة: أنت أعظم أسما.

تغضن وجهها حين ضغطت بثقلها على ساقها، فطالعتها شقيقتها بصمت لوهلة ثم قالت: أتبقى لتناول الطعام يا زين؟

- شكرًا، يجب أن أعود لمنزلي لأطمئنهم - اقترب طابعًا قُبلة فوق جبهة نوار - نوارة عمري، مروحتي، قنديلي فوق بساتيني - قالها بسرعة كما اعتاد هادفًا مداعبتها فانطلقت تضحك بسعادة - انتبهي لنفسك وحاولي أخذ قسط من الراحة.

- وأنت أيضًا انتبه لجرح رأسك - همَّ بالرحيل فأوقفته - زين، ألم تلاحظ أن الأمن كان بانتظارنا وكأنهم يعلمون المكان والموعد مسبقًا؟

أومأ بمرارة: نعم، وليست المرة الأولى!

سألته بحيرة: مَن يا زين؟ مَن؟

- لدي شك لم يصل لليقين بَعد، حين أتأكد سيكون لي تصرف آخر مع ذاك النذل - تذكرَّ شيئًا فعاد إليهما - أتحبين أن آتي معكما بالغد؟

قالت قسمت: لا يا زين، تشعر أمي بالارتياح حين نكون وحدنا!

أومأ بتفهُّم ومدَّ يده مصافحًا إياها محتضنًا كفها بين كفيه بقوة، كان الأمر يضايقها بالبداية، لكن مع الوقت اكتشفت حرصه على القيام بهذا مع والدتها ونوار وأصدقائه المقربين؛ تعبيرًا عن تقديره واحترامه، هي عادة أهل الجنوب في المصافحه، ربما عادة رجالية الطبع لكنه لم يستطع التخلي عنها. لوَّحت نوار لزوجها مودعة ثم التفتت لقسمت: تأكدتِ أن الزيارة بالغد؟ اشتقتُ لماما كثيرًا!

* *

فتحت قِسمت عينيها ملتفتة نحو باب الحمَّام الموارب الذي تسلل منه بعض الضوء، حملتها الذكريات بعيدًا! مسَّدت ذراعها تستمتع بملمس الصابون، متمتمة مع روزا.. بحبك ما بعرف حب.. لا تشـــ.. حتى أغنيات هاتفها تتآمر عليها! تنفست بقوة راسمة ابتسامة كبيرة فوق شفتيها، لتبرق أسنانها أسفل ضوء الشمعة الخافت. مازلتِ قادرة على رسم الابتسامة،

وسرعان ما ستعود الأبواب لتُفتَح لك على مصراعيها، حتى وإن اختفت متعة الحياة بدونه! قاطعت دندناتها موسيقى آتية من الخارج؛ فأغلقت الهاتف.

نعم أنا مشتاق وعندي لوعة.. ولكن مثلي لا يذاع له سر..

تعشق المقطع بالرغم من عدم حبها لسومة! امتزجا فلم تعد تدري أشياءه المفضلة من أشيائها، أين تبدأ هي وأين ينتهي؟ التعلق بالأشياء والأشخاص مؤلم! فالأشياء نرحل عنها والأشخاص يرحلون عنا، وقد ذاقت مرارة الاثنين! نعم أنا مشتاق.. نعم.. لم تعد تطيق البقاء في المغطس فصرخت بضيق: "عدنان!" كان قد بدّل ملابسه مرتديًا بيجاما النوم، رفع حاجبيه وشبح ابتسامة ماكرة يلوح فوق شفتيه: "ماذا الآن؟" قطبت: "صوت الأغنية عالٍ" ارتفع جانب فمه: "لا يهم!"

ـ ألا تخشى أن ينتبه لوجودنا البلطجية؟!

ـ تتوسل عضلات حاجبيّ الرحمة! أولستِ نفس الشخص الذي أجبر حصوات الطريق ورمال الجبل على الاستماع لندائك على السنين الضائعة؟!
ـ همَّت بالاعتراض فانحنى صوب المغطس محدقًا بوجهها الممقتع ـ ولم تكتفِ الجبارة بل هربت قبل أن تعرف إن عادت السنين أم لا؟ وبملابسي!
ـ حكَّ ذقنه متصنعًا التفكير ـ وهنا يفرض السؤال نفسه. لماذا لم تكسري الخزانة؟!

ـ لم أشأ تحطيم أشيائك.

ازداد ارتفاع حاجبيه حتى أوشكا على الالتصاق بفروة رأسه: تخشين تحطيم أشيائي وتحطمينني دون أن يرف لك جفن! ـ جعل يسير جيئة وذهابًا عاقدًا يديه خلف ظهره كأستاذ يلقي بمحاضرة لتلميذة فاشلة ـ بل سرقتها لتصحبيني معك، اعترفي أنك لا تستطيعين العيش دوني يا إسمتي.

أخفت وجهها بين كفيها هاتفه: "اصمت أيها الطبيب، اصمت" كلماته كسهام تضرب كبد الحقيقة وإن تصنعت الجهل! وصوته الذي صرخ في الميدان دفاعًا عن حياتهما توجع نبراته المتحشرجة قلبها. أبعدت يديها

عن وجهها: "هل يؤلمك حلقك؟" أمسك بالمنشفة الكبيرة باسطًا إياها أمامها: "وهل تهتمين؟!" أشاح بوجهه فازدردت ريقها ونهضت ببطء. لهب الشمعة يتراقص فوق جسدها ومياه المغطس، عاكسًا ظِلها على الجدار، كانت منكمشة خجلًا فأصابه خجلها بالغيظ، يجبره على الكذب مدعيًا عدم فضوله لرؤيتها، وقد سرق مرآها خلسة. كاد يحترق فضولًا! لم تكفِه اللمسات بستر الظلام ليعلم كل الحقيقة، لم يرضَ بنصف الحقيقة، أرادها كلها! كانت الغرفة معتمة إلا من ضوء المصباحين الصغيرين على طاولة قُرب الفراش. قال: "أضأت المصباح لأجلك". شكرته مبتعدة بتثاقل: "سأبدِّل خلف البارافان" قطب محدقًا بالبارافان الياباني المنزوي بركن الغرفة، كان من الغباء امتثاله لرغبتها بشرائه، كم يكره البارافان، لا يتناسب وديكور الغرفة! تكاد توصله لحافة الجنون؛ اتخذ البارافان عدوًا، والشال منافسًا، والبقية تأتي! صبَّ كوبًا من الكاكاو الساخن، مضيفًا إليه ملعقتين من الكريما الدسمة، ثم أخذ رشفة من كوب الحليب بالفانيلا. حانت منه التفاتة فلمح الورقة التي تركتها قبل هروبها ملقاة إلى جانبه، فتحها معيدًا قراءتها.

- هل انتويتِ الرحيل حقًا دون الحصول على بقية الحبات؟!

ظهرت مرتدية إحدى بيجامات نومها القطنية وروبها الصوفي: الحبات غالية، لكن ما عثرت عليه هناك أغلى.

جلست إلى جانبه بإعياء فقدَّم لها كوب الكاكاو: أخبريني علام عثرت؟!

- على كل شيء، الكرامة، على نبض الحياة الحي، على نوار!

أطرق محدقًا بالورقة: هل استحق الأمر تعريض حياتك للخطر وقتلي رعبًا وقلقًا عليكِ؟!

ارتشفت الكاكاو ثم وضعته فوق الطاولة: غابت عنك حقائق كثيرة بشأن البلد الذي تعيش فوق سطحه المخملي أيها الطبيب، لكن لم تغب عني - أردفت بمرارة - هذا البلد تفنن بتعذيبنا، لم يتوقف عن مواراتنا الثرى، تلاعب بنا كمركب ورقي بعاصفة هوجاء، لم أستطع البقاء متفرجة حين أتت نسمة حاملة أمل الحرية - أعادت ظهرها للوراء بأريحية - أنا متعبة! كل خطوة

هي مجهود جبار ـ التفتت إليه بحيرة ـ أخبرني ماذا يحدث لي أيها الطبيب!

كيف لامرأة أن تقلب كيانه بكلمة؟! يناديه الجميع بالطبيب منذ الصغر؛ والدته ووالده، أصدقاؤه، الجميع فعل ولكن هي! حين تنسلخ الكلمة من بين شفتيها يسمعها تنهيدة حب وهمسة غزل. لفَّ ذراعه حول كتفيها فاستكانت قائلة: أعثر على الدفء هنا وكأنه بانتظاري! ترى من غيري أنا وعلياء منحته دفئك أيها الطبيب؟!

ـ لم أعلم أني أملكه إلا بعد مقابلتك يا سيما!

بحثت في وجهه عن لمحة خداع أو مبالغة، فلم تعثر سوى على الصدق، هو متعلق بها لا شك، لكن معرفته بالكثير مما مرت به يجعل الشفقة أهم أبطال الحكاية! وهو ما يقتلها! متى كتب لهما قدر اللقاء؟ هل كُتِب قبل بدء الخليقة حقًا؟ القِسمة كما يقولون! أين هي الإرادة إذن وما فائدتها؟! همَّ بتقبيلها فأشاحت وجهها بعيدًا، سألها: "أمازالتْ مُحرَّمة؟!" طرقات على باب الغرفة أربكتها، فاعتدلت بجلستها مبتعدة عن محيط ذراعيه، تلملم أطراف ردائها. طالعها مخفيًا ضحكة حائرة: أنت أفشل العشيقات اللاتي رأيتهن في حياتي! اهدئي، ليست شرطة الآداب.

ضمت شفتيها مقطبة: ثقيل الدم.

ـ وأشوقاه لتلك القُبلة المُحرَّمة!

ـ الطعام ساخن وشوربة الخضر أيضًا، من الأفضل أن تتناوليها قبل أن تبرد وقد أحضرت لكِ بعضًا من الكبد المحمر لتعويض ما فقدتِه من دماء.

قالتها كريمة، حاملة صينية فوقها عدة أطباق مغطاة، ناظرة إليها شزرًا، فبادلتها بنظرة باسمة. وقفت كريمة بتململ فأدركت قِسمت ما يجول بخاطرها، كانت تحدق بشيء قرب غرفة الحمَّام استحوذ على اهتمامها محولة نظرها بينهما: "حمدًا لله على سلامتك يا ست قسمت" همت بالخروج فأوقفتها: "كريمة انتظري" وهمت بالنهوض فسألها عدنان: "إلى أين؟ انتظري و... "، تجاهلته ونهضت نحو الحمَّام بتثاقل، وحين همت

بالانحناء سارع صائحًا: "قِسمت، لا". غامت الدنيا أمام عينيها، حين شعرت بذراعين تطوقانها: "هل أنتِ غبية؟" همهمت بخفوت: "خف كريمة"

صرخ بذهول: اللعنة على الخف! واللعنة على عنادك! ـ أشار نحو الخف بعصبية ـ خذيه يا كريمة، أنا على شفا الجنون بحق الله! ـ التفت نحوها بغضب ـ متى ستعلمين أن الحياة ليست بلعبة لنخاطر بحياتنا وسعادتنا، متى؟!

فاجأها الانفجار وقلَّما رأته بتلك الحالة! كانت بانتظار تلك اللحظة؛ ما قسم ظهر البعير ليس الخف، بل شعرة! بادلته النظرات مخفية لأي مدى زلزلها صراخه. فطالعها لبرهة ثم التفت لكريمة: أخذتِ الخف؟ اذهبي الآن قبل أن يقتلنا جميعًا بلعنته!

سارت مغمغمة: نطق أبو الهول!

ـ صدقت كريمة، أنا أبو الهول لأني صبرت طويلًا ولن يستمر هذا بعد الآن.

هتفت بحدة: كريمة تتصرف كأي صعيدية ترى زوجة تعارض زوجها وتضايقه، لا تعي الحقيقة!

أزاح الستائر محدقًا بالسماء: أغضبني استخفافك أكثر من أي وقتٍ في حياتي، وأدتُ فيما مضى الحب بداخلي قبل أن يعي الحياة نزولا على رغبتك، وها أنا أخبرك.. أنا أحبك ـ التفت نحوها بتجهم ـ وأنتِ كذلك.

ـ لا تتحدث عن مشاعرى نيابة عني.

ـ تعايشي مع الأمر لأنه لا فرار منِّي، و.. تناولي حساءك كله لأنه مفيد ـ همت بالاعتراض فقاطعها بخشونة ـ وإياكِ الاعتراض، ما رأيته منذ قليل لا يُقَارن بما يعتمل داخلى ـ ضيق عينيه ـ من تظنين نفسك لتسخري من مشاعرى وتصفينها بالزيف؟! أنتِ زوجتي وآمرك بطاعتي.

ـ لست بزوجتك.

ـ إذن كلانا يعيش في الحرام، وهذا.. لا أقبل به.

ارتدىٰ معطفه وخرج للشرفة. توقفت الرياح رغم بقاء الأجواء الصقيعية، ضمَّ يديه معًا نافخًا نيران سخطه، تحوم حول الأمر من البداية ساعية لإثارة غضبه، احتاجت لثورة كي تفيق. هل سيمكنه رؤية (سيما) الآن؟! أحكم ضم طرفي المعطف، راجيًا أن تمر الليلة دون أن يلتقط بعضًا من التهاب الحلق والأنفلونزا، لتسعد قِسمت هانم وتسترخي بعدما طرحته أرض أرض! يود لو اقتحم الغرفة وعضَّ أذنها الكبيرة مستمتعًا بمشاهدة الذعر علىٰ وجهها، غالب ابتسامة وسار نحو خزانة جانبية، مخرجًا منها حاملًا ارتكز فوقه تلسكوب فلكيٌّ، فتح عدسة التلسكوب معدلًا زاوية النظر ودقة العدسة، فأعاقت الرؤية بعض السُّحُب، لكنه استطاع التقاط بعض النجمات البعيدة وقبس شهاب سرىٰ عبر الفضاء. كان محظوظًا حين طلبت بنفسها عدم الذهاب إلىٰ المستشفىٰ؛ لم يكن ليستطيع التحكم فيما ستسمعه أو تعرفه هناك، وهو بغنىٰ عن المزيد من المشاكل! تناهىٰ لسمعه حفيف خطواتها خلف الزجاج فتصنع عدم الانتباه، وانحنىٰ معدلًا إحدىٰ أزرار التليسكوب.

ترىٰ هل يبحث عن (سيما)؟ أم هو غاضب لدرجة زهده فيما يذكِّره بها؟! آخر ماتفوه به أقسىٰ ما سمعته منه! حين نعتت نفسها مرارًا بالعشيقة كان الأمر هينًا لكن تلك الكلمة المرعبة (الحرام)! لسع سياط فوق جسد متقرح. تغضن وجهها بأسىٰ والتفتت مبتعدة، أمسكت بكوب الحليب بالفانيلا الذي لم يرتشف منه سوىٰ رشفتين، مستنشقة رائحته المريحة، أمسكت بالملعقة مرتشفة بعض الحساء، تبتلع الخضر وقطع اللحم رغمًا عنها، فالتقطت رائحة أخرىٰ دغدغت معدتها، رفعت الغطاء عن أحد الأطباق لتكتشف أنه طبق من الباذنجان المحشو بالأرز واللحم المفروم، وقد أضافت له كريمة رشات من النعناع الأخضر الذي تقطفه طازجًا من الحديقة. لم تحب يومًا هذا النوع من المحاشي، لمَ تشعر إذن أنها علىٰ وشك التهام الطبق؟! مدت يدها وتناولت إصبعًا وشرعت تأكله بنهم! يا إلهي! بات الأمر جديًا! لا، هي فقط عبقرية كريمة في الطهي. زفرت ببؤس محدقة بطبق حساء الخضر فلم تستطع استساغة رائحته وشكله وانقلبت معدتها بغتة توشك علىٰ التقيؤ،

تنفست بعمق عدة مرات وعاودت المحاولة، مجبرة نفسها على تناوله وقد أمرها، وهي بغنى عن المزيد من الشجار! كانت قادرة دومًا على إجبار نفسها على الكثير من الأمور! الحزن بالإجبار والفشل بالإجبار وحتى الحب.. كان بالإجبار! تخشى عليه البرد، لكن تخشى أكثر ردة فعله إن اقتربت منه. تنهدت بحزنٍ ووضعت ملعقة من الخضر بفمها على مضض، تذكرنا الأشياء والروائح بالماضي! الذكريات مؤلمة، سعيدة كانت أو حزينة، فلا نملك محو الحزينة أو إعادة السعيدة، ما بالها تتفلسف كثيرًا الليلة؟ تدفقت الذكريات الحلوة المرة بفمها مع مذاق الحساء!

* * *

افترشت كلتاهما أرض السطح فوق دثار قطني خفيف، متكئتين على جدار الغرفة الصغيرة، ونشيج نوار يقطع السكون، بدت كالأطفال بأنفها الأحمر وشفتيها المقلوبتين وقد بكت المسكينة كثيرًا، تبدو طوال الوقت كمن يوشك على الانهيار! ربما تكون روحها الثورية رحمة من الله؛ تشغلها أحيانًا عن التفكير بالكارثة التي ألمت بهما. تأملت قِسمت ملامحها الرقيقة وعينيها السوداوين: لا أصدق! نوار الثائرة والمعترضة على الدوام بشأن مخاوفي، تبكي كالأطفال كلما أتينا على ذِكر ماما! ألم تعتادي غيابها؟!

ابتلعت السجق مع نشيجها: ليس الغياب فقط ما يؤلمني بل الظلم، هرب اليوم رجل أعمال آخر بعد استيلائه على خمسين مليون جنيه، والمسكينة تقبع خلف قضبان لعجزها عن سداد ستين ألف جنيه ثمنًا لبضاعة تافهة، جاوز الظلم المدى - أطرقت بحزنٍ - وهل اعتدتِ أنتِ؟!

تنهدت متكئة على الجدار: كانت سرقة البضاعة على الحدود الليبية كارثة، لكن ياسر أخطأ، لم يكن عليه توريطها بأمر كهذا.

هتفت نوار بحدة: ومن أين له أن يعرف أن البضاعة سيسرقها قطاع الطريق؟! حظ سيء! يكفي أنه مُطَارَد لاعتراضه على إحدى سياسات القذافي المتخلفة!

ـ أنت تثورين هنا وهو يثور هناك وأنا وماما من يتجرع عذابات الخوف عليكما.

لا تلومينا، مَن المخطئ بهرعِه من بلاده هائمًا على وجهه هربًا من الفشل؟ حين تعثرين على الإجابة ستعرفين من الذي يستحق اللوم والمحاسبة ـ تابعت بنفاذ صبر ـ لماذا الصمت؟!

ـ لأنه لا يهم، الكلام لا يهم والحزن لا يهم، حتى الغضب لا يهم، البقاء بالظل في بلدٍ كهذا هو الأسلم.

ـ لن يغيِّر الله ما بنا حتى نغيِّر ما بأنفسنا!

من يراهما لا يصدق أنهما شقيقتان؛ نوار جامحة، سريعة التأثر، أما قِسمت فهادئة، متعقلة، هشة الداخل رغم جمود خارجها، ناهيك عن ملامحهما، الأولى سمراء ذات ملامح رقيقة، والأخيرة بشرتها بلون الشمع، وملامحها متناقضة تجعلها دومًا محط الأنظار، بشعر بني مذهب الخصلات ورثته عن جدتها قِسمت هانم الحاملة لأصول ألبانية!

قلبت نوار شفتيها بقرف: البخور رائحته رهيبة، لا تشبه ما كان يأتي به بابا كل جمعة قبل صلاة الظهر!

ابتسمت قِسمت لذكرى الأيام البعيدة: كان يحضر الخلطة من عطَّارٍ بالحسين، أسرَّ لي يومًا بالمقادير التي أخذها من جدتنا نوار، وعبثًا أحاول تذكرها!

ـ كل رائع كان بالماضي!

كانت قِسمت تضع بقايا الطعام فوق الطاولة الصغيرة بركن مطبخهما العامر، حين وقعت عيناها على الصور الأربعة المؤطَّرة على جدار الغرفة؛ صورة لوالديهما، وأخرى لجديها لوالدتها وجديها لوالدها، وواحدة لياسر. أخبرها والدها أن ياسر الأكثر شبهًا بعمها شمس الدين أصغر أعمامها. أتى والدها ذو الأصول الريفية للقاهرة باحثًا عن الحُلم والحياة، لتتلقاه عينا والدتها فتأسرانه فيضرب جذوره المنتزعة بأرض غريبة، لم يكن للحب

وحده، فالسبب الرئيسي كان من القسوة ما جعله يمحو صورة حياته السابقة بين أسرته العريقة الثرية بلا رجعة. عمل أمينًا لمكتبة الجامعة لسنوات هي كل عمره الوظيفي، وأنهى حياته عن عُمرٍ ناهز الستين، دون سبب عدا أنه لم يستيقظ في اليوم التالي بعد خروجه على المعاش! ربما قتله الحزن على فراق مكتبته أو هو الشوق الذي أعياه لوالدته، وهو البكر! فكان خروجه معاشًا ذريعة ليقتله الحنين! الشتات بعائلتهم بات خصلة أصيلة وعنوانًا لكل شيء! هاجمتها صورة المكتبة القابعة بعراء السطح، والتي احتوت بعضًا من أمهات الكتب، عِشقه للكتب كان يسري بدمه وشغفه بالقراءة امتد لخلاياها، حتى باتت من حاملي نظَّارات القراءة. تفوُّقها الدراسي وسعة اضطلاعها جعلاها تدرك إلام تطمح؛ كلية الإعلام قسم الصحافة، ومنه انبثق الحُلم أن تصبح يومًا ما مقدمة برامج أو صحفية يشار لها بالبنان، فسقطت صخرة الواقع فوق الحُلم الوليد، وحولته هشيما ذرته الرياح! وشيئًا فشيئًا صار الهشيم غبارًا، خنقها بوظيفة أُجبِرَت عليها. دخلت شقيقتها الغرفة فابتسمت لها بحنان: كل عام وأنت بخير نوار باشا، ستكملين الثالثة والعشرين.

أطلقت نوار ضحكة متسلية: باشا وليس هانم!

أجل، فالهوانم لا يركضن صارخين بالهتاف كالمهاويس يصارعن عساكر الدرج؛ هكذا أخبرتني جدتي، الهانم صوتها ناعم كالمخمل، رقيق كالحرير. كان والدي ينادي جدتي بقسمت هانم، لم ينسَ مرة! كانت أول من سانده في رغبته بالزواج من ابنتها ـ أردفت بزهوٍ ـ فريدة هانم.

ـ بل فريدة الروح، هكذا ناداها، خاصة حين تحضر له شيئًا من أشيائه المفضلة؛ ككوب النعناع الدافئ بعد صلاة الفجر، أو طبق البطيخ المثلَّج بمغارب الصيفيات، فيهتف بسعادة سلمتِ يا فريدة الروح! ـ استدركت باهتمام ـ هل رويت الأصص؟

ـ سامحيني!

ارتدت نوار البيجاما وهرعت إلى الخارج مصطحبة معها زجاجة الماء: نبهتك أكثر من مرة أنها تظمأ مثلنا!

ربتت قِسمت على كتفها بحنان: لن أنساها مرة أخرى، لا تغضبي مني بعيد ميلادك، وكل عام وأنتم بخير.

ضحكت نوار: يومًا ما سيفقدكِ إدمانك الغريب على (فؤاد المهندس) عقلك ـ أخرجت من ياقة ملابسها قلادة التمعَ وميضها أسفل الضوء ـ انظري! أحضرها زين.

طالعتها بإعجاب: ذهب؟

ـ أنت مجنونة يا أسما! جرام الذهب تعدى ثمنه المائتي جنيه، بل ذهب صيني، ستدوم ولن يتغير لونها، لكن نقش اسمي من الذهب، يوفر ثمنه منذ عام.

لا يهم! فضة أو ذهب صيني أو من بلاد الواق الواق، المهم أنك سعيدة، وأنها ستدوم.

سارت نوار صوب سور السطح متكئة عليه تحدق للسماء: ليلة رائعة ومنظر النيل ساحر!

الظلمة تخفي القذارة فلا يتبقى سوى سحر الليلة المقمرة، اشتقت كثيرًا للمنظر.

التفتت نوار ومدت يدها لشقيقتها: "تعالي حدقت قِسمت بيدها الممدودة لبرهة، ثم ابتسمت بارتباك: شاكرين مهللين ـ أردفت ساهمة ـ اختلفت جاردن سيتي حسب ما قرأته كثيرًا عمَّا مضى! كانت منطقة برك ومستنقعات من مياه النيل، وقد حوَّلها السلطان ابن قلاوون لميدان كبير أطلق عليه (ميدان الناصري) مقيمًا العديد من العروض الضخمة وسباقات الخيل.

ـ من المدهش تصوُّر المشهد وقد ازدحم المكان بالفوضى.

ـ كانت المساحة أكثر رحابة لتسمح بإقامة الاحتفالات؛ كيوم السبت الذي أقاموا فيه احتفال وفاء النيل، وكان يستمر لشهرين كاملين يمتطي فيهما الملك الناصر حصانه من قلعة الجبل، ويتحلق حوله الفرسان في أبهى

ملابسهم، قيل إنهم أحَبوه كثيرًا لما كان يفعله من خيرٍ للبلاد وأهلها.

- كثيرًا ما يكون التاريخ مغلوطًا، دُوِّنَ تِبعًا لهوىٰ السلطان! انظرىٰ كيف يرسلون لعناتهم الآن فوق رأس الرئيس، وإن كان معظمها بالخفاء! الشعب يرزح تحت وطأة الظلم حتىٰ تمنىٰ عودة الملكية! أتظنين أن الحُكَّام فيما مضىٰ كانوا أكثر عدلًا ورحمة؟

زفرت ساخرة: قرأت في إحدىٰ المرات شطرين من الشعر في المدح لا أنساهما أبدًا، كانا لابن هانئ الأندلسي في مدح الخليفة المعز (ماشئت لا ماشاءت الأقدار.. فاحكم فأنت الواحد القهار.. وكأنما أنت النبي محمد.. وكأنما أنصارك الأنصار)!

سألتها ذاهلة: قال هذا!

- تخيلي كيف كان الحال! محبوبًا؟ لا يهم، عادلًا في خضم هذا النفاق؟ لا أظن، يبرعون منذ الأذل في صُنعِ الفرعون، من أين سيتأتىٰ العدل!

- صدقتِ، علمونا شعر الهجاء والمدح دون أن يطلقوا سطرًا واحدًا في عقولنا ينتقد نوازعهم، لم يتركوا مساحة نناقشهم فيها عن الخطأ والصواب، درسناها براعة وحُسن تصرف وملكة إبداعية في اللغة فاقت التصورات، ولم ينتبهوا لأنهم يدسّون لنا السم في العسل! - عبَّت من هواء الليل باسطة ذراعيها - لا شيء مخيف في الارتفاع، بإمكاني الجلوس فوق السور - رفعت إحدىٰ قدميها مبتسمة بمرح - انظري.

"نوا.. نوار.. تو.. توقفي مسَّدت جبهتها بأصابع مرتعشة وترنحت في وقفتها، فشهقت نوار بارتياع: قِسمت يا حبيبتي، سامحيني - ساعدتُها علىٰ السير نحو المقعد وأحضرت كوبًا من الماء وأجبرتها علىٰ شُربِهِ - أنا غبية ومزاحي ثقيل.

ابتسمت بوهن: سامحيني، لا تملكين شقيقة طبيعية تقف معك بالشرفة!

جلست مستندة علىٰ الجدار: علام تعتذرين يا أسما وأنا السبب؟ حمدًا لله أنك محتملة البقاء بهذا العلو الشاهق!

ـ من حُسن الحظ أن البناية غاية في القدم حتى أصاب اليأس أصحابها في الحصول من ورائها على منفعة وتوقفوا عن متابعتها، وإلا قاموا بطردنا فور علمهم بتأجيرنا الشقة من الباطن للعمة صفية.

تناهى لسمعهما صوتٌ آتٍ من الدرج المفضي للطوابق السفلية، كانت سلمى الصغيرة، حفيدة العمة صفية جارتهما، ممسكة بيد جدتها، تصعدان معًا درجات السلم. هتفت ذات الضفيرتين المشعثتين اللتين جمعتا شعرها المجعد بشق الأنفس: أبلة قسمت، لقد أحضرت لك تيتة صفية الإيجار.

نهرتها صفية: عيب يا سلمى، لا تتحدثي في أمور الكبار.

كانت تلهث كمن تسلق جبل إيفرست؛ فالمصعد ينتهي بالدور الخامس وغرفتيّ السطح بالسادس، وقد تعدت أعوامها الستين، ببدانة فيل صغير! داعبت نسمة هادئة حملت رائحة الريحان طرحتها البيضاء فوق رأسها المشتعل بالشيب، لتبتسم بسعادة: الله الله! رائحة الأصص رائعة يابنات، سلمت أنامل من رواها.

نهضت قِسمت مسرعة من كرسيها لتجلسها: ماذا دعاكِ للصعود يا عمة؟

أردت الاطمئنان عليكما، وفرصة لأعطيكما الإيجار الشهري ـ أخرجت من طيات صدرها محفظة جلدية وناولت قِسمت عدة أوراق مالية ملفوفة ـ ثمنمائة جنية.

أخذتهم قِسمت ممتنة: لا أدري ما كنا لنفعله بدونك يا عمة!

ـ لم أفعله معروفًا لكما فقط يا حبيبتي، بل لنفسي أولًا ـ أردفت بمرارة ـ بعد زواج صلاح معي بالشقة لم أعد مرتاحة، زوجته امرأة مزعجة، وفكرة استئجاري للشقة المقابلة منحتني حريتي، وطمأنت صلاح، ولا تنسيا صداقتي بفريدة.

ـ سنبقى ممتنتين لكِ طوال العمر يا عمة.

مقابل الإيجار والدرس الذي تعطيه نوار لسلمى واثنين من أصدقائها في الإنجليزية، وراتب عملها نهارًا بمحل بيع الملابس، وراتب الصالون؛

باستطاعتهما استرضاء كامل البرعي بجزء من المبلغ ليتنازل وتخرج والدتهما ريثما يستحضران الباقي.. لولا معاش والدهما رحمه الله لماتتا جوعًا! مطَّت صفية شفتيها بأسى: بإذن الله سيعينكما لإكمال الطريق الصعب، أنتما ولاياه ـ استدركت باهتمام ـ لماذا رفضتما إعادة صلاح بناء الجزء المكسورة من السور حين أرسلته بمواد البناء؟!

أشارت نوار لشقيقتها: أسما هي من رفضت!

ـ لماذا يا ابنتي؟ لقد أرسلته خصيصًا لأجلكِ!

زفرت بارتباك: لأنه متنفسي الوحيد كي أجرؤ على النظر نحو الأسفل.

قالت نوار معترضة: لكنك تنظرين وأنت بعيدة بأمتار محتضنة نفسك رعبًا!

رفعت كتفيها باستخفاف: لا يهم! لن أغلق فسحة الضوء الوحيدة، ولو سرقت أنفاسي!

قالت نوار بحزن: لعبتي اللعينة هي السبب!

أطلقت صفية ضحكة قصيرة: نعم، لعبتك يانونا. صرخة فريدة جعلتني أهرع لشرفتي، فرأيتك تمسكين بقدم أسما التي تدلت خارج الشرفة.

سقطت مني اللعبة على الإفريز الخارجي فطلبت منها إحضارها واستجابت كعادتها لمطلبي، أمسكتها بشدة فصنعت أصابعي كدمات فوق ساقها وكدمة كبيرة على قفصي الصدري.

قالت قِسمت بشرود: لن أنسى نظرة الرعب بعينيّ أمي حين جذبتني وأنا على وشك الانفلات! كنا بالطابق الأول عدا أن رؤية الشارع رأسًا على عقب ماتزال تزورني بكوابيسي.

تابعت سلمى الحديث الدائر بضجر، جاذبة ثوب جدتها: هيًا يا تيته، أريد مشاهدة space toon. سيفوتني الكرتون والدرس مع ميس نوار بعد نصف ساعة! أنا ذاهبة وحدي ـ همت بالمغادرة ثم عادت لتحدق بانبهار لأصابع قسمت ـ ثمة زهرة فضية فوق إصبعك!

- بإمكاني صنع واحدة لكِ لكن بشرط، توقفي عن قضم أظافرك.

وافقت الطفلة والسعادة تحتل ملامحها المنمنمة: أريده أحمر بزهرة برتقالية.

- اتفقنا، اذهبي الآن ولا تتركي يدَ جدتك سوىٰ داخل شقتها - طارت ممسكة بيدها تساعدها علىٰ النهوض - عمة صفية، سأحتاج لإعادة المكتبة للشقة قُرب حلول الشتاء.

- ليست بشقتي لتستأذنيني يا حبة عيني، أنا ضيفة، تمنيت بقاءكما معي.

لم يكن يومًا التواد والتراحم مقتصرًا علىٰ الأهل والأقارب، والدليل صفية؛ الصداقة أحيانًا كثيرة أقوىٰ من رباط الدم، ولو في زمن يشاد له بدوام الغدر!

- كم أحسد سلمىٰ! طلاء أظافرها سينبت لها جناحان!

قالت نوار ساهمة: كنا مثلها يومًا - استدركت - ألديكِ عمل اليوم؟

هزت رأسها نفيًا: موعد مع أحمد بعد ساعة.

- أخيرًا! لا تنسي ارتداء المحبس، تعلمين انــ..

- يتضايق، أعلم!

* * *

انتبهت علىٰ صوت باب الشرفة، دارت بها دوامة الذكريات! طعم الحساء أنعش الذكرىٰ بعقلها الباطن الذي سعىٰ جاهدًا لدفنها. لم تجرؤ علىٰ الالتفات ومقابلة نظراته، فحدقت بطبق الباذنجان الذي اكتشفت إجهازها عليه! شعرت بخطواته تبتعد وتقترب، فرفعت رأسها لتطالعه حاملًا علبة الإسعافات. سألها ببرود: هل انتهيتِ؟ - أومأت بصمت - لن أرغمكِ لئلا يصيبك الغثيان - رفع الأغطية مُقطِّبًا - نسيَتْ كريمة إحضار طبق الباذنجان! - همَّ بالنهوض - سأتصل بها كــ..

أمسكت بساعده: انتظر، لا داعي، لقد أكلته.

قال ذاهلًا: كله! ـ أومأت ـ أنتِ لا تطيقينه! ـ رفعت كتفيها باستخفاف فزفر ـ حسنًا، يجب أن أرىٰ الجرح.

قالت متوجسة: أي جرح؟!

ـ جرح رقبتك، هل تملكين غيره؟!

ـ انسَ الأمر، لن تلمسه مهما فعلت.

تهربين للميدان وسط الرصاص والحجارة وكرات النار وتخشين جرحًا صغيرًا! ـ لوح بسخرية ـ وعادت تؤلمني عضلات حاجبيّ ـ تابع بصوت رزين ـ هيًا.

أخرج المطهِّر فبرقت ابتسامتها: لن يحدث، ولا تحاول المقارنة بين ذهابي إلىٰ الميدان وجرحي، ضمَّدوه وأنا غائبة عن الوعي.

طالع ابتسامتها التي بات يميِّز زيفها كتنفُّس الهواء! لماذا هو ملعون بها؟! تساءل قبلًا لماذا تجبِر نفسها علىٰ إتعاس نفسها؟ فبات يسأل نفسه ذات السؤال! فليتركها تذهب حيث تشاء؛ الميدان، السطح، المريخ إن شاءت! ليعاوده سلامه النفسي علىٰ الأقل الذي اشتاقه. قاوم ابتسامة تكاد تفتك بشفتيه مطالعًا نظراتها المتوجسة، وكأنها ابنته! ما هذا الجنون! لم يجرب عاطفة الأبوة من قبل فاختبرها معها! النظرة الوحيدة التي كان يلقيها إليها كل مرة يلقاها حفرت روحه كما تحفر قطرات الماء قلب الصخر؛ فباتت هُوَّة لا يملأها سواها! ابتعدت نحو الطرف الآخر من الأريكة حين أمسك بقطعة القطن: "إياك أن تفتح المطهِّر، سأتقيأ" كان يقترب منها وكلما يقترب تزداد هي ابتعادًا، حتىٰ اقترب من الوقوع فوقها: "حسنًا، تفوزين!". تنهدت بارتياح دون أن يفارقها الحذر. منحتها الابتسامة التي زينت عينيه بعض الاطمئنان، فأمسكت بيده الممدودة، ساعدها علىٰ الجلوس معتدلة: سنعقد صفقة، أمنحكِ حبة بلا ابتسامة إن ألقيتُ نظرة علىٰ الجرح ـ همت بالاعتراض ـ أعد بعدم إيلامك وإن فعلت أعطيك أخرىٰ ـ أرخت كتفيها باستسلام لتتسلل ابتسامته لطرف شفتيه ـ فتاة ذكية، والآن سأفتح المطهر وامسكي بأنفكِ.

حين همَّ بالاقتراب همست بصوتٍ خَنِفٍ مرتعب: عداد!

نادرًا ما تناديني باسمي، وحين تفعلين يكون خوفًا أو نبرة لا أكاد أفهمها!

ستحصل علىٰ حبة أخرىٰ من حباتها المفروطة، لم تحصهم منذ فترة، أتعيدهم للإبريق؟ هذا سيعني أنها باقية! لا داعي. صرخت متصنعة الألم فأشار نحو ضمادتها علىٰ الطاولة، ضمت شفتيها بتذمر آسرة قبلة جديدة، فقال: ما رأيك أن أساعدك علىٰ إطلاق سراحها؟

- لا تلمني علىٰ المحاولة.

ضحك قائلًا: يجب إزالة الغرز غدًا تحت تخدير موضعي، وإلا تركت أثرًا! - رفضت - ألا تخشين أثره برقبتك؟!

التفتت إليه: لا يهم! لا أريد نسيان متىٰ وُلِدتُ من جديد!

علىٰ عكسها تمامًا؛ وُلِد من جديد يوم دخلت حياته! اختفىٰ للحظات ثم عاد إليها وفتح كفها واضعًا حبة براحة يدها: "تهانئي" رفعتها لتقرأ الاسم (الحليم). جعلت تحركها يمينًا ويسارًا كخبير مجوهرات يفحص حبة من الماس، فقال هازئا: "لا تخافي، هي أصلية" التفتت إليه: "كم تبقىٰ معك؟" قال حاملًا صينية الطعام: "الكثير" عاودها الشعور بالإرهاق فاتكأت برأسها علىٰ الأريكة فنبهها: "حاولي البقاء مستيقظة حتىٰ أعود" تابعته يغادر الغرفة مغلقًا الباب، ولم تعِ سوىٰ بيده تهزها برفقٍ ليناولها قرصًا من الدواء. قادها نحو الفراش فهتفت بلهفة: "حبتي" فطمأنها: "أسقطتِها من يدك حين غلبكِ النعاس، فأعدتها إلىٰ الكيس" عاودها شعور الضعف المقيت وقلة الحيلة، فعادت لعبة بين يديه بلا مقاومة. جلست متكئة علىٰ الوسادة، وأخذت سماعتها ضاغطة زر التشغيل منسلة أسفل الأغطية، لتغوص الأشياء من حولها في الظلام إلا بعض الظلال الباهتة لضوء مصباح صغير جَاور الفراش، وروزا تغني.

جرب إني انسىٰ.. بتسرق النسيان.. وافتكر لاقيتك.. رجعلي اللي كان..

وتضيع مني كل ما لاقيتك.. أنا حبيتك..

أغلق الشرفة وغرفة النوم واضعًا المفتاحين في الجارور مغلقًا إياه بعناية، واقترب من الفراش ترافقه رائحة العود المتطايرة مدغدغة أنفه، همهمت: "تذكرني رائحته بالبخـ.. "، قاطعها ودفء جسده يغمرها: البخور الذي كان يأتي به والدكِ قبل صلاة الجمعة كل أسبوع، لذا أنتِ حريصة على ملئ الأماكن برائحته.

أومأت: "تعلم كل شيء" وانكمشت متكئة على جانبها الأيسر. فكَّر كم تكون وديعة بلحظات ضعفها! فلا تشبه تلك القسمت التي تقفز أمامه بغتة يتطاير الشرر من عينيها. حتى أجوبتها، صريحة ببساطة! مقارنة بدفء المدفأة الذي يكلفه الآلآف لإحضار الأخشاب، كان دفء جسده هو الأحلى! هو الألذ! لكن لن تسمح لنفسها باستغلاله، طالما وقت الرحيل قد حان؛ لا داعي لتعقيد الأمور. شعرته مترددًا، تعرفه كفاية لتعي ما يدور بخُلدِه، حتى ابتسامات عينيه تعلم شفرتها، كالكتاب المفتوح، بعكسها؛ دومًا كالشرنقة! قاومت مداعبات النوم، راغبة في البقاء أطول وقت مدركة لقربِه. سألت رغم عِلمها الإجابة: تخفي المفاتيح جيدًا! أتخشى هروبي؟

وكأن سؤالها دعوة! اقترب متكئًا على ساعده ورفع يده ممسّدا طول ذراعها من فوق الشرشف السميك: تعلمين ما أخشاه، ذابت الحواجز بيننا منذ زمن، ولم يبقَ منها سوى التي تصنعه خيالاتك فتمنعك عني ـ انحنى هامسًا ـ يا إسمتي!

همست بشبه ابتسامة: "غيِّرها" هزَّ رأسه: "تعجبني كما هي كانت تشعر بلمسات أصابعه الرفيعة رغم سماكة الدثار، حنانه واهتمامه بتفاصيلهما المزعجة ذكَّرها بياسر الذي تسلَّم دور والدهم مبكرًا! أين هو الآن وقد انقطعت أخباره منذ أخبرها بعودته قريبًا؟! ترى ما مصيره؟! هل هو بأحد أقبية السجون أم تُراه لحق بوالدها ونوار؟! وكأنها لعنة! يئست من عودته كما يئست من كل شيء؛ خاصة بعد محاولاتها المضنية في البحث عنه عبر السفارة! لقد انتقلت لليبيا حمى الثورة المناهِضة للقذافي ولن تلبث

شرارتها أن تزيد اشتعالًا مع الوقت! أغمض عينيه متنفسًا عبير بشرتها: تشبثتُ بالحبات آملًا أن تعيدك، ألم يعد لها أهمية؟!

باتت أنفاسه قُرب عنقها، غمغمِتُ: بكيت لأجلها، لكنها بأمان معك!

صمتت فظنها غابت في غياهب النوم لتنتفض بغتة: "النظام.. إسقاط النظام" همسَ لها: "أنا هنا، لا تقلقي" لم يقوَ أكثر على الابتعاد فاقترب يلف ذراعيه من حولها بإحكام، وارتاح رأسه أخيرًا فوق الوسادة، تململت بين ذراعيه فقال: "لن أفلتك مهما فعلتِ" سألته عما يريده منها، فزاد من اقترابه حتى شعرت أنها محاصرة به. "أريد أن اسمع ما تسره إليكِ روزا؟"

يا خوفي ابقى أحبك بالأيام اللي جاية.. وأتهرب من نسيانك.. ما أطلع بمراية.. حبسي أنت أنت حبسي وحريتي أنت.. وأنت اللى بكرهه واللى بحبه أنت..

نزعت السماعة من أذنها: ماذا يجبرك على التعاسة؟

سألها بألم: لماذا تجبريننا أنتِ؟

ـ لأن الأمر مستحيل، يكفي كلما تطلعت إليك أرى هواني وذلي، ثم.. ثم ماذا بشأن عمرو ويقينه! عائلتك؟ ومرة أخرى أنا وأنا وأنا.. وأنت!!

داعب طرف أنفه خط الشعيرات النافرة أسفل رقبتها: تحبينني.. كثيرًا. حتى تلوَّنَتْ ملامحكِ بوهج الحنين ـ سألَتْه بحيرة عن سرِّ يقينه ـ قِسمت من أخبرتني أنها تحبني.. وبجنون!

ـ كاذب أيها الطبيب، لم أخبرك شيئًا!

أزاح شعرها هامسًا بتسلية: لم أقل أسما أو سيما، بل قسمت؛ أقابلها دون علمك، آتية بكل الشوق الذي تأسرينه ـ أضاف بمكرٍ ـ القُبلَة المُحرَّمة ليست مُحرَّمة كما تظنين، منحتها لي مرارًا دون أن أتوسلها!

انكمشت بذعر محاولة الابتعاد فأوقفها وقد تحوَّل ما حولها لصورٍ مبهمة من مفعول المهدئ، تثاءبت بقوة حتى دمعت عيناها: وما الفارق بين قِسمت وأسما.. وسيما؟

لم تسمع تصريحاته الأخيرة وسقطت بغياهب هوة عميقة من النوم اللذيذ قادها إليه قُرص المهدئ ودفء اقترابه.

* * *

(٤)

مرًّا في الصباح على عشرات اللجان الشعبية، وبكل مرة يُظهِر عدنان بطاقة هويته، تطالعه نظرات الريبة لأثر الدماء، فيشير لجرح رقبتها. قطبت حين التف عدنان لإحدى الطرق البعيدة عن قلب العاصمة: إلى أين نحن ذاهبان؟!

ـ ثمة مكان عليَّ الذهاب إليه قبل المستشفى.

أمره مريب! أصرَّ على إيقاظها مدعيًا ضرورة الذهاب للمستشفى للاطمئنان عليها. سارا على الطريق الدائري ومنه إلى جسر السويس. تنتظر لتتأكد شكوكها بالرغم من محاولتها إقناع نفسها بأنها مجنونة بظنها! ظهر الطريق المرعب، متمثلًا بإحدى بوابات المدن الجديدة التي كُتِبَ فوق لافتتها (مدينة الرحاب)! احتاجت للمزيد من الوقت كي تستوعب الكارثة، وليتها ما استوعبتها! أظهر عدنان بطاقة الدخول ثم عرج بالسيارة إلى الممر بين الفيلات. هتفت بصوت فزع: عدنان! ماذا تفعل؟ لماذا أتيت بنا إلى فيلا والديك؟

ارتفع جانب فمه بمكر: وما أدراك انها فيلا والداي؟ هل أتيتِ هنا من قبل؟!

أطرقت تعض على شفتها: حسنًا.. الأمر هو! التقطت عنوانك يوم توقيع العقد.

- تبهرني قدرتك على الخروج من الفخ!

رفعت حاجبيها: وهل تصنع لي الأفخاخ أيها الطبيب؟!

- لا يا سيما، أنت من يصنع الفخاخ لنفسه، فتسقطين، ثم تنهضين لفك رتاجها - فرقع بإصبعيه - هكذا!

- أوقِف السيارة، أريد العودة لمنزلنا.

- مممم.. منزلنا! رغم روعة الكلمة التي تغريني بالعودة، لكن آسف - قلّدها - لا أستطيع.

تلفتت بذعر لم تنجح مهابة المكان وروعته في تهدئته، وكأن سيارة البطة الحمراء سفينة فضائية دلفت بهما إلى بُعدٍ آخر، حيث امتدت الخضرة كسجادة ناعمة بلا منتهى، منسابة بين مجموعات الفيلات كمجاري الأنهار، تتلألأ حمامات السباحة الكبيرة والصغيرة من خلف البوابات، أسفل الشمس المقاومة بإستماتة حصار السُّحُب. لمحت العديد من سكانها جالسين على المقاعد الوثيرة بأريحية خارج المقاهي الأنيقة وعلى شرفات المطاعم الفخمة، يحتسي البعض فناجين القهوة في دعة، وتتناول مجموعة من الهوانم إفطارهن، وكأن ليلة الرعب الغابرة؛ حين حاول البلطجية اقتحامها كما أذيع، لم تكن! رأت بعض الأطفال يركبون درّاجاتهم، ناثرين صدى ضحكاتهم الشقية. تتمايل طائرة ورقية ملونة مع الريح تمسك بخيطها فتاة محمرة الوجنتين. حتى ألوان المباني، والتصاميم المعمارية المميزة للفيلات، متنوعة بين الطراز الإسلامي، والأندلسي، والمودرن، كانت بهجة للنظر! تمامًا كما يصفونها؛ كلاسيكية المناطق السكنية. أوشكت على الإمساك بالمقود مجبرة السيارة على الانحراف عن الطريق، وإن أدى

الأمر لحادث! بل فكرت بالصراخ مدعية أنه اختطفها. فغلب المنطق جنونها اللحظي، لا فائدة وقد سقطت في عرين الأسد! أوقف السيارة أمام الفيلا، وترجل ملتفًا حولها: "هيا" قالت دامعة: "لن أخرج" قلب عينيه بنفاذ صبر ممسكًا كفها ليجذبها، فجعلت تتلوىٰ. انحنىٰ حاملًا إياها: "بلا هستيريا!" لم تشأ الصراخ لكنها جعلت تتوسله وقدماها تركلان الهواء، لولا ألم الجرح الذي سرىٰ بطول ذراعها لأجبرته علىٰ إفلاتها!

لا أريد الدخول، أرجوك ـ مسَّدت جبهتها بإعياء ـ كيف تجرؤ علىٰ إحضاري هنا!

ـ أُلقي بطيفك خارج غرفة عملياتي، اخرجي من رأسي يا قِسمت ذو الفقار، لن أطمئن سوىٰ باحتجازك في مكان آمن، وهنا أكثر مكان آمن أضعك فيه وعيناي مغمضتان؛ أعلم نواياك!

ضغط الجرس فظهر اثنان من أفراد الحراسة الخاصة يحملان أسلحة نارية، ردَّ عدنان تحيتهما متجاهلًا نظرات الدهشة، عابرًا الممر الحجري المفضي للبوابة الثانية. سرعان ما فتحت مُنىٰ؛ فتاة متأنقة ترتدي ملابس الضيافة، تبادلت معها النظرات المذبهلة كالكائنات الفضائية، فقاوم قهقهات مجلجلة تداعب حنجرته، خطته من الحماقة ما قد تصل لدرجة العبقرية.. سيخفي القنبلة بفوهة بركان! سألها عن والديه، فأشارت نحو غرفة الطعام. قدمها إليها: "مدبرة المنزل، أقدم لك يا منىٰ زوجتي، قِسمت هانم ذو الفقار" طالعتها الأخيرة ببلاهة ثم أمسكت بوجهه تديره إليها: "أنزلني أتوسل إليك" سألها مضيقًا عينيه: "تعدينني بالتعقل؟" أومأت بصمت فأنزلها لتقف بركبتين تصطكان، خاصة وقد أدركت كارثة جديدة؛ زوجته علياء هنا! جُن عدنان! يبدو أنها نجحت في النهاية بإفقاده عقله كما توقع! تشبثت بذراعه فجرَّها كالدمية، دفع البابين الخشبيين، وكان كلٌّ من والده ووالدته وشقيقته جالسين علىٰ طاولة الطعام، تمسك والدته شريحة من (التوست) تضع فوقها بسكين ذهبي بعضًا من مربىٰ الفراولة. شهقت

بطفولية: نانو! ـ استطردت بفضول ـ من أحضرت معك؟

ـ زوجتي ـ أردف بزهو أدهشها ـ قِسمت ذو الفقار.

توقفت حركة الملاعق والسكاكين ليسود الصمت وقد تعلقت نظرات الأعين بوجهه المبتسم! ساير صمتهم لبرهة، ثم التفت لشقيقته المتجهمة: "أهلًا لولا" قطبت شقيقته وأشاحت وجهها رغم نظرات الفضول التي وزعتها بين قِسمت ووالدها الذي أولاهما ظهره، جالسًا على رأس المائدة. ألقى شوكته برنينٍ خافتٍ سرعان ما تلاشى ليعود الصمت. "مرحبًا أبي"، قالها بهدوء شديد رغم شرارات التوتر، رأت قِسمت قبضتيّ الرجل تنضمان بقوة، وعضلات ظهره تختلج أسفل كنزته! ألقى عدنان نحوها نظرة مطمئنة وشبك أصابعه بأصابعها مواجهًا والده: ألن ترحب بنا يا دكتور خالد؟!

رفع الرجل عينيه بملامح جامدة، رامقًا قِسمت بازدراء جعل عدنان يطبق شفتيه محدجًا والدته بتحذير. كانت قِسمت مطرقة تعاني ازدراد ريقها الجاف، ودقات قلبها تصم أذنيها المحمرتين كقطعتي طماطم، لن تسامحه أبدًا على فعلته، أبدًا لن تسامحه، تنفست مرارًا. لا يهم يا أسما! لا يهم! ارفعي رأسك، لست من صمم على المجيء، تذكري دومًا، لا يهم! رفعت رأسها بكبرياء، مطالعة والده فتجمّد الدم بعروقها، واجتاحها ألم شديد بمعدتها، مستحيل! من بين كل البشر يكون هذا والده! إنه صاحب المستشفى! مستحيل! ستعيش تحت سقف واحد مع صاحب المستشفى الذي قتل نوار! منحت نفسها لابنه وربما تحمل بأحشائها حفيده! عاود الثبات اللعين ليصبغ كل شيء، ويجبرها على النظر للوراء، عادت لتكتم أنفاسها بلا وعي، أمر ظنته رحل بلا عودة كما ظنت الكثير من الأشياء، وهاهو يذكّرها مؤكّدًا؛ أن ما مرَّ مازال وسيبقى! رفعت يدها لمعدتها تعصرها: "سأتـ.. عدناااان، سأتقيأ" التفت نحوها مقطبًا فسأله خالد محولًا نظره بينهما بقرف: تطلب الترحيب مخالفًا كل أصول اللياقة بإحضارها!

قال محذرًا: لن أسمح بالتحدث عن زوجتي بهذه الطريقة.

هزت رأسها برعب: لا أريد البقاء هنا، سأتقيأ، ساتقيأ.

بادلها خالد نظرات تنضح بالاتهام زادت من وطأة الضغط، بينما أطرق عدنان لبرهة، ثم رفع رأسه بزهوٍ: نسيت إخباركم، قِسمت حامل.

وقع الجملة كان له الأثر الأعجب على الإطلاق! حدقت والدته فاغرة فمها ببلاهة؛ كما فعلت قسمت! أما لينا لانت تقطيبتها معاودة النظر إليه. والده فقط من منحه بعض الانفعال حين نهض بعصبية، ملقيًا محرمة الطعام: ماذا تقول؟ هل جننت؟!

كرر ببرود: أقول أن زوجتي الحبيبة حامل ـ أشار نحو معدتها ـ قِسمت هانم ذو الفقار حامل بطفلي.

سألت نفسها بذهول: هل كان الأمر واضحًا لهذه الدرجة وهي من حاولت إخفاءه بكل قوتها؟! حدق بوجهها المتغضن مفكرًا. إن كان عليه الكذب ليبقيها آمنة فليفعل! أطلقت والدته شهقة سعادة، بينما قال خالد من بين أسنانه ضاربًا الطاولة بقبضته: لا يمكن، مستحيل!

زفر عدنان: ها قد حدث المستحيل، إرادة الله.

حدقت بقبضتي والده المضمومتين تلتفان حول عنق نوار لتزهقا روحها من جديد! نادته لكنه لم يلتفت ملوحًا بزهوٍ: غثيان الحمل، لا بأس يا حبيبتي ـ نادته ثانية بينما حوَّل أنظاره بين الجميع ـ أوقن أنهم سيهتمون بك جيدًا أنتِ وطفلنا القادم.

هتفت ليلىٰ: بالطبع يا حبيبي ـ ضمت يديها ـ كم أنت كريم يا رب، معجزة!

وكانت آخر كلمات سمعتها، مترنحة بعينين شبه مغمضتين: "الدوار رهـ.. رهيب، أشعر بألم شديد في جسدي" اقترب بلهفة يحيطها بذراعيه. كان الأمر يفوق طاقتها! تلاشت الوجوه بسقوطها في هوة إغماءة، مستحضرة جزءًا جديدًا من الحكاية القديمة، مبدلة المكان والزمان؛ قبل عام ونصف!

يومها اتخذت خط سيرها المعتاد مرتدية جينزًا مريحًا وتي شيرت، ستطالب يومًا ما بمنح مخترع الجينز نوبل في الإنسانية، لاسيما واختراعه

يذيب الحواجز الطبقية بكل سلاسة، بالفعل اختراع! أنيق ومريح يسهل الحصول عليه بمختلف الأثمان، خاصة الأثمان التي لا تؤلم جيبها. ترجلت من الميكروباص بعيدًا عن (كاسينو كافيه)؛ لتسير المسافة المتبقية؛ عشقها للمشي كان سببًا رئيسيًا لاحتفاظها برشاقتها لكنها ليست الهدف الوحيد، لديها الرضا الكامل عن حياتها متقبِّلة واقعها البسيط، عدا أن المجتمع من حولها لن يقبل الحقيقة مثلها، فتوجب عليها الإبقاء على واجهتها الاجتماعية منمقة على الدوام! اعتادا المقابلة هناك بعد انتهاء رحلة الجامعة حاملة معها ذكريات الأصدقاء الذين تجمعهم بها رغم المسافات وفرقة الأيام. لمحت سيارة بيضاء رياضية قرب المقهى فاقتربت هاتفة بسعادة: "إنجي" انتبهت الفتاة من شرودها، لتطالعها بعينين رماديتين مشوبة بالخضرة لعدستين لاصقتين، تتهدل خصلاتها البندقية حول وجهها البيضاوي، رحبت بها بلا حماسة، فيما سألتها قِسمت متكئة بذراعها على السيارة: لم أرك منذ مدة، ماذا تفعلين هنا؟

عدلت ياقة ثوبها الحريري: بانتظار خطيبي.

هنا بكاسينو كافيه! مصادفة جميلة، ربما نلتقي أربعتنا؛ فأنا وأحمد سنتقابل أيضًا.

غمغمت: "نعم، ربما" تبادلتا النظرات وابتسامة قِسمت تتضاءل شيئًا فشيئًا، بات الصمت محرجًا فقالت قبيل مغادرتها: أرسلي تحياتي لخطيبك. ولن أسامحك على إخفاء الأمر

سارعت إنجي قائلة: حدث الأمر بسرعة!

كان للمطعم ذو الواجهة الزجاجية ديكورات صُمِّمَت على طراز المقاهي الفرنسية الشهيرة، تومض خلف زجاجه أضواء خافتة ولهب شموع يتراقص فوق الطاولات. مجيئهما المستمر جعلهما زبائنه، خاصة بمشروبهما الرسمي؛ عصير المانجو. يمضيان كل مرة ذات العدد من الساعات، وعلى ذات الطاولة بركن المكتبة الصغيرة، التي يحضر صاحبها دومًا الأحدث من الروايات الإنجليزية الرومانسية لدار نشر "هارلكوين" التي تعشق

قراءة إصداراتها من الحقب التاريخية، وربما إن بحثت بين الكتب ستعثر على أحد كتبها التي نسيتها لتقرأها بينما يقرأ أحمد كتاب شعر، حتى فيروز أصبحت زائرة؛ وقد بات بإمكانهما اختيار الأغاني التي يحبان الاستماع إليها. دفعت الباب لتستقبلها إحدى أغانيه المفضلة؛ يعشق كاظم الساهر وقصائده المغناه، وقد اختار الليلة الاستماع لإحداهن (أنا وليلى) للشاعر حسن المرواني. لطالما قصَّ عليها حكاية القصيدة؛ قصة العشق الكبير للشاعر المذهل الذي أحب امرأة بكل جوارحه فأسقاه حبها ألوان العذاب، لينظم تلك القصيدة اليتيمة، ويلقيها بحفل التخرج بكلية التربية في بغداد عام 1978، مهديا إياها لمن أحبها تسعة أعوام، وظنها تحبه، فأغراها المال! وكثيرًا ما نصحوه قائلين: (ما دامت رفضتك ابحث عن غيرها)! فيجيبهم أنه لا مانع لديه من أن يُشنَق مرتين، لكن بكل ما يجيده الأطفال من إصرار عنيد، يرفض أن يحب مرتين! دومًا اختيارات وقراءات أحمد مرهفة مثله! كانت تقرأ في شتى المجالات والثقافات، ويفضِّل هو الغوص بالأدب العربي بمفرداته المتكلفة وقصائدة صعبة المراس! حالم ورومانسي لأقصى الحدود، معللًا أن لا أحد قادر على رسم العشق مثلما رسمته لغتنا العربية، وأي صور أخرى لعُشَّاق أو محبين تبهت بجانب تاريخنا الحافل. مدركة أن كما وهبه حبها السعادة، وهبه الشقاء! صاحَبَها كاظم في رحلتها نحو طاولتهما..

"ماتت بمحراب عينيك ابتهالاتي.. واستسلمت لرياح اليأس راياتي..
جفت على بابك الموصود أزمنتي.. ليلى.. وما أثمرت شيئاً نداءاتي..

جلس مادًا ساقيه المتقاطعتين، يتكئ برأسه على ظهر المقعد المبطن بمخمل أسود، محدقًا بالسقف المُزيَّن بأضلاع رخامية بارزة ذات نقوشٍ كلاسيكية. أصابتها نسمات مبرد الهواء بقشعريرة رغم حرارة الأجواء، فرسمت ابتسامة واسعة ظنتها لبرهة إحدى خدعها، ولدهشتها شعرتها حقيقية نبعت من روحها بلا خداع، نادته مترددة فالتفت ببطء كمن يخشى أن يصيبه مرآها بصدمة! هو أضعف من مواجهتها الليلة. حدجت عيناه العسليتان وجهَها ذا التقاسيم المتنافرة التي صنعت أجمل امرأة في حياته،

سمحت لشعرها اليوم بالاسترسال فوق كتفيها، ملتمعًا بخيوط ذهبيته، مازال مرآها يصيبه بالوجل، والتوق، والألم؛ مدت يدها مصافحة فانحنى طابعًا قُبلة بباطن راحتها، تنهدت ببعض الارتياح؛ لقد عاد أحمد!

جلست قبالته قائلة: كم أنا سعيدة لخروجك من قوقعتك!

مطَّ شفتيه الرفيعتين لتظهر خطوط على جانبي فمه لا تذكر وجودها من قبل، وكأن أعوامًا قفزت فوق عمره لتحنيه ولم يتعدَ السادسة والعشرين! قال: وهل فعلتُ حقًا؟!

- خروجك الليلة خطوة أولى.

زفر بسخرية مريرة: لا أظنني سأفعل يومًا، لقد حفرت الحكاية المُرَّة أخدودًا لا قرار له، حتى ابتسامتك الحلوة لن تستطيع إنارته!

همَّت بالحديث فأتى النادل بالطلبين، نظرت بدهشة لكوب القهوة القاتم كحفرة سوداء وكوب المانجا السابح فوق سطحه قطعتين من الثلج: قهوة! نحن لا نشرب القهوة.

قال النادل بلطف: طلبها الأستاذ أحمد.

- غيرت عادتك!!

التقط أذن فنجانه: رياح التغيير تعصف بنا جميعًا، فلن يصمد كوبٌ من المانجو!

التفت نحو السماعة التي انطلق منها صوت كاظم الملتاع، مبتسمًا بمرارة..

ممزق أنا.. لا جاه ولا ترف يغريكِ فيَّ.. فخليني لآهاتي..

"قابلت إنجي قالتها وانتظرت ردة فعل عدا التوتر القائم فوق ملامحه، فأطرق محدقًا بفنجانه، تابعت بمرح: "ألا تعرف من أعني، إنجي الحطاب" قال. "أعرفها جيدًا، اشربي العصير ازدردت ريقها وأمسكت كوب العصير مرتشفة منه عدة مرات، ثم وضعته أمامها، لماذا لا تشعر بالاسترخاء المعتاد وكل ما عليها ذومًا تلقي غزله وفيض مشاعره؟!

ـ أليست (أنا وليلى) القصيدة التي تعشقها حد الكراهية!

ـ تذكرين ما كنت أخبركِ كل مرة عند المقطع الأخير؟

تأملت عينيه المبهمتين كفنجان قهوته: إياكِ أن تمسي بلا قِسمت حكاياتي!

زفر بسخرية: أحبكِ كثيرًا وتعلمين أن حبك يهبني السعادة ـ سألها بغتة ـ هل وهبكِ أنتِ السعادة؟!

فاجأها سؤاله كما فاجأتها الحالة المحيطة بهما، قالت بارتباك: ما هذا السؤال السخيف يا أحمد؟! بالطبع!

مطَّ شفتيه بحسرة: كنت أكذب وها أنتِ تكذبين!

أخرج علبة سجائر وأشعل إحداهن نافثًا دخانها في الهواء. قطبت بحيرة: سجائر! أنت تكره رائحتها.

زفر: أحمد الجديد!

قالت بنبرة دفاعية: لم أطلب منك شيئًا يا أحمد، لم يكن أنا من أصَرَّ على رحيلك لإيطاليا

ـ أردفت بإصرار ـ لم أطلب شيئًا.

ضغط على أسنانه بقوة مطالعًا وجهها المنفعل: ربما حاولتُ أن آتي إليكِ بما لم تطلبيه لأحصل على المستحيل؛ حبك يا أسما!!

أخرستها كلماته. ما يقوله هو المسكوت عنه! الأمر العالق بينهما والمُحرَّم الحديث فيه. أدرك من البداية أنها لا تحبه، ليست أنانية منها؛ لأنه وافق برضا كامل! لا تحبه ولا تكرهه، تحترمه وتستمتع برفقته، لكن الحب! لم يكن يومًا بحساباتها، اكتفت بتلقِّيه، ظانة اكتفائه بمنحه!

رائع! تذكرتِ محبس خطبتنا ـ رفعت يدها بحركة عفوية تتحسس المحبس بارتباك ـ أصررت على حفر اسمي على سطح المحبس ظنًا بإعلاني ملكيتي لك أمام العالم! وكنت مخطئًا؛ إعلاني ملكيتك ليس بالضرورة تقريرًا لحقيقتها! حسدني الكثيرون أيام الجامعة لأني من سمحتِ

له بالاقتراب! ما الذي أعجبك بي يا أسما؟ ضعفي! أم عشقي بلا حدود أو شروط أو مقابل! - حدق بفنجانه الفارغ - لم أحصل منكِ على قُبلة واحدة، منذ أربعة أعوام!

- لشهور انتظرت خروجك من أزمتك آملة في التحدث معك عن أمور عذبتني بغيابك، فتحدثني عن هذه التفاهة! تعلم جيدًا رأيي في الأمر.

قاطعها بتهكم مرير: هراء! لم أرَ منك لحظة ضعف واحدة بقربي، متعللة أنه لا يجوز، واحترمت هذا بلا اقتناع، وحين اقترحتُ عقد قراننا رفضتِ وبشدة!

انفعلت: تُصورني أتهرَّب وكل ما في الأمر أنها قناعاتي والظروف الغير مناسبة لعقد القران.

أسما من فضلك، مازال برأسي بعض العقل، أنتِ امرأة وأنا رجل، كانت لي لحظات ضعفي برفقتك، وكنتِ كَمَن قُدَّ من حديد! تصعقين بسلك كهربي كلما فاضت مشاعري، ورغم حرمتها هي طبيعة إنسانية، أما أنتِ! لم يكن ثمة مجال لضعفك بيننا - أشار للنادل - لم تحبيني يا أسما ولن تحبيني ولو بعد ألف عام - سارت على دربه ملتزمة الصمت، فأضاف مشفقًا - لا أجرؤ على لومك وأنا الواهم، الموقن بقدرته جمع ومضات ابتساماتك لتضيء دربي المعتم، فلم أكن سوى واحدٍ ممن سحرتهم الابتسامة!

تعالت القصيدة لتنكِّئ جراحًا تجاهلتها ظانة اختفاءها حين يجمعهما بيت؛ أمنية مستحيلة لم تتمنَّها! تمتم بخفوت مع القصيدة.. لا الذنب ذنبك بل كانت حماقاتي! اغرورقت عيناها؛ ذلك الانكسار الذي بات جزءًا منه لم تحتمل مرآه! وأجهزت عليه بعجزها عن الدفاع عن حُبٍّ لم يكن! قالت بصوت متهدج: أنا.. أنا آسفة حقًا لم أكـ...

- أتعلمين لماذا حاولت الهجرة بطريقة غير شرعية؟ - عاد للوراء عاقدًا ذراعيه - لسببين؛ الأول: توفير المال لأملكك بين جدران منزلي، والثاني: لأبتعد عنكِ.

زفرت بحيرة: لم أعد أعرفك!

- ماذا تتوقعين وقد قتلت أعز اصدقائي؟ تغيُّري هو أكثر الأمور بديهية! بت أخاف النظر بمرآتي، قاربت على نسيان ملامحي!

* *

"أحمد لم يقتل.. أحمد.. أحمد" طالعتها مني بذهول، فقال عدنان: "تتحدث كعادتها أثناء نومها، مجرد كوابيس أشار اليها بإحضار أغطية للفراش وعاونها على تعديلها، لا تدري قِسمت كم مرَّ من الوقت على إغمائتها لكن أصواتًا جعلتها ترهف سمعها؛ خطوات تبتعد وصرير الباب، وسؤاله: "هل أنت بخير؟" فتحت عينين مغرورقتين بالدموع: "لا يهم جلس بجانبها: بل يهم جدًا، سامحيني، تطورت الأمور سريعًا! ربما ضايقك ادعائي حملكِ لكنها الطريقة المثلى لتتلقي أفضل عناية.

همت بقول شيء ما لكنها عادت لتطبق شفتيها؛ لا يعلم! الأمر محض صدفة! وكما يبدو لا يعلم أيضا حقيقة والده! ولكن كيف وهو من تولى استخراج شهادة الدفن! سألته أين هي، فقال: "بغرفتي التي أشغلها حين أبيت هنا" تلفتت حولها، مقاومة النوم الملح فوق جفنيها، كانت بالفعل غرفته؛ تعرفها جيدًا خاصة بنافذتها الأرابيسك! أمسك بقرص دواء وكوب من الماء: "تناولي هذا ليخفف الصداع والدوار حدقت في الحبة البيضاء بتردُّد، ماذا بشأن طفلها وقد تناولت حبة من المضاد الحيوي بالأمس؟ ربما تحمل الأقراص الضرر! لا يهم، فبعد ما عرفته اليوم، حقًا لا يهم! قال مساعدًا إياها على الاتكاء: تحتاجين للنوم، ولن أكون هنا لأهتم بك إن حدث شيء.

هتفت بتوسُّل: أرجوك أعدني إلى المنزل.

- أيهما؟ الفيلا أم غرفتيّ السطح؟ - هز رأسه - لا أستطيع يا أسما، لا أثق بتهورك.

أدركت أنها قضية خاسرة، لن تستطيع القيام بشيء ضد رغبته وكل ما حولها يصيبها بالتشوش. تناولت القرص فتنهد بارتياح وهمَّ بالانصراف

فأوقفته: أتظن أن والدي قد أخطأ حين تخلى عن ثأر عائلته مفضِّلًا سعادته؟

جمد بوقفته موليًا ظهره إليها، الثأر! لا يمكن أن تكون على عِلم بصِلتِه بالمستشفى؛ لم يأت أحد على ذكرها بالأسفل. يسير حاملًا إياها فوقَ شعرة رفيعة أسفلها جحيم مستعر! كان حريصًا ألَّا يكون هناك أثرٌ لتوقيع والده على معاملات خروج الجثة! عليه تنبيه الجميع. زفر ببطء مستديرًا نحوها: ألا ترين أن السعادة التي عثر عليها قُرب والدتكِ كافية؟!

هزت رأسها بريبة تجول عيناها برحلة قصيرة فوق قسماته علها تلتقط إشارة تنُبئها بأي شيء عدا ذاك الهدوء المستفز، فعادت خالية الوفاض! عدنان ليس بالغبي ليحضرها هنا مدركًا علام ستعثر، ولكن كيف لا يدري؟!

مطَّ عدنان شفتيه: للمرة الأولى يخالجك الشك بشأن علاقة والديك الفريدة كما تصفينها!

ربما لم يكن عليه ترك ثأره، ففي النهاية رفضه أفقدَه كل ما يملك؛ كرامته أمام أشقائه وأهله، عزوته ومحبتهم، ما ورثه عن جدي وتنازل عنه رسميًا لشقيقه التالي.

أطرق مفكرًا لبرهة محاوِلًا انتقاء كلماته وكأنه بامتحان، ليقول أخيرًا برزانة: في رأيي والدك "علي الدين لم يكن ليأخذ بثأر شخصي منتقمًا لما يخصه، كان أمرًا عفا عليه الزمن، ولم يكن ليأخذه من مرتكب الجرم الأصلي، كانت مجرد حلقة في سلسلة ممتدة وصلت إليه بلا مبرر.

أومأت بصمت فاجأه، كان بانتظار المزيد من الجدال، لكنه ارتاح لما آلت إليه الأمور، فهمَّ بالانصراف، لتجمد خطواته بسؤال جديد: لماذا تصر على إبقائي؟ ألا يكفيك ما دفعته لك طوال الليالي الماضية؟ أظنني سددت الخمسة وخمسين ألفًا التي حصلت عليها منك في تلك الليلة اللعينة؛ قدرتَ الليلة بخمسمائة، وما بيننا تعدىٰ المائة ليلة!

علمت جيدًا وقع كلماتها، تذبح نفسها وتذبحه بكمٍّ الإهانة الملقاه في وجهه؛ احتاجت إيلامه كما تتألم! فما تشعره الآن فاق تصوراتها؛ وقد

تحطمت كل التمنيات التي واتتها في لحظة ما بالحصول على حياة طبيعية! استدار ببطءٍ ليواجهها، بتعابير كقاع محيط بلا قرار! يعي ما تهدف إليه، لكنه سيتعقل، سيتحكم بقبضتيه المضمومتين اللتين توشكان على الإطباق على عنقها لخنقِها عله يستريح! تعدت كل الخطوط الحمراء! بات يوقن أنها عقابه الإلهي، حتى وإن اقترف ذنوبه رغمًا عنه! حسنًا، سيتلقى العقاب بكل شجاعة وصبر القديسين. سيعتبرها شرايين مقطوعة عليه وصلها ببعضها! عملية حراجية ينقذ بها مريضا رغم استهلاكها أطنانًا من أعصابه!

لم أعنِ حينها حرفًا مما تفوهت به، وقد أجبرتِني عليه كي أُبقِيك، لكن إن شئتِ تصوير الأمر السمج بهذه البشاعة، فسأسايرك للنهاية - وضع يديه بجيب سرواله - ماذا إن أردت المزيد من أيام العمر المُدفَأَة بقربنا دون أن تكون النقود هذه المرة وسيلة الشراء؟ بل عشقي الغير محدود والغير مشروط!

- ماذا إن زهدت البيع؟

أجابها بصرامة: مشكلة كبيرة، فمهما فعلتِ لن أتنازل عنك بسهولة.

- معك حق هي مشكلة، فلا أنوي التخلي عن ثأرى كما فعل والدي! - انسلت أسفل الأغطية مغمضة عينيها - لا تتأخر من فضلك، لا أعرف أحدًا هنا.

دعا الله أن تكون العودة للميدان هي ما تعنيه، وإلا فقد تحولت كل كوابيسه لواقع! طمأنها: "سأكون هنا حين تفيقي   ألقى عليها نظرة أخيرة قبل أن يغلق باب الغرفة مسدلًا ستائرها، وسار بالرواق المؤدي لغرفة لينا، يرعبه السؤال! أيجب أن نأخذ بالثأر؟! ماذا إن لم يكن المذنب، أيتركها تأخذ بثأرها منه! ماتلبث الأمور أن تتعقد كل ثانية عن سابقها! غريب شعوره طوال حياته بعدم حاجته لطفل، كذبة اليوم وخزت شيئًا بداخله لم يظنه موجودًا؛ غريزة الأبوة! كان من الطبيعي شعوره بهذا الاحتياج منذ مدة، لا يدري لم تأخر ولم اجتاحه الآن! ممارسة هذه الغريزة مع أسما لم تعد تكفيه، يريد مخلوقة صغيرة يحدق إليها دون أن يمل، ولن يتنازل عن حُلمه كونها نسخة

مصغرة من أسما! تطالعه كبطلها الأوحد بلا منازع كما فعلت لينا وهي طفلة تستقبل والدهما بالهتاف والصراخ عند عودته من عمله. زفر بمرارة، ظن أن عجزه فيما مضى أمر يخص مشاعره، لكن يبدو أن الأمر تعدى المشاعر؛ ثمة خطب ما بجسده، وإلا لكانت قِسمت حاملًا الآن!

* * *

طرق الباب فسمع صوتها الضجر وسط صخب التلفاز: "تفضل" وجدها تجلس قرب النافذة على مقعدها الوثير، يرتاح كفها فوق ذراعه، وأصابعها تنقر فوق قماشه المخملي، طالعته صورة الميدان بالتلفاز، مستعيدًا أجواء القلق والبرودة والناس الذين اتخذوه ملجأ! وأتاه ارتياح غريب حين رأى الشمس تزورهم! ملامح الحزن التي لاحت فوق محيا شقيقته أشعرته بتأنيب الضمير، لم يخطُ داخل الغرفة! تلك التي احتفظت بطابعها الطفولي الحالم رغم عبور صاحبتها مرحلة الطفولة والمراهقة منذ أعوام! وقف أمام الباب مطوَّلًا ولم تهتم بمعرفة الطارق. ترك مقبضه ورفع كفيه أمام فمه مناديًا، تبتسم عينيه بحنان: "ليناااااا" التفتت نحوه فتأرجح شعرها الفاحم بقصَّتِه الفرنسية، والتمع بعينيها بريق محبب للحظة سرعان ما اختفى، تأملته لبعض الوقت لتعود مشيحة رأسها، موشكة على البكاء. ألقى ذراعيه إلى جانبيه بإحباط، مغلقًا الباب خلفه.

ـ لم أتوقع منك هذا الاستقبال البارد يا لولا! أنا غائب عن المنزل منذ ثلاثة أسابيع لم أسمع صوتك فيهم سوى مرات قليلة بالهاتف، من المفترض أن تستقبليني كما اعتدنا؛ تصيحي مقلدة إياي كما كنا نفعل ـ عاود رفع كفيه أمام فمه مناديًا ـ عدناااان ـ احتفظت بصمتها العنيد فأرخى كتفيه ـ لينا، من فضلك!

ـ أتذكر حين أردنا وعمرو الدخول لعمق المياه فوضعنا قاربنا البلاستيكي مقلوبًا فوق رؤوسنا، ظنًا منا بقدرتنا الغطس كما رأينا لينا وعدنان في المسلسل الكرتوني ـ التفتت إليه ـ أتذكر يا عدنان؟

بالطبع، يومها ركض والدي مهرولًا حين انتبه لعدم قدرتك على التنفس أسفل القارب لقصرك الشديد، وصاح بنا بكل قوته أن نترك القارب الذي باتت تصارعه الأمواج، لن أنسى الرعب بعينيه، كنت غبيًا!

قالت بلهفة: كنتَ جريئًا مغامرًا، كنا نثق ببعضنا وبأننا قادرون على تحقيق الأحلام وتحدي الصعاب - أردفت بحسرة - ثلاثتنا كنا كذلك!

- كنا صغار يالولا، لم نعِ أنه خطأ و...

قاطعته بإصرار: كانت أرواحنا حرة مؤمنة بالمستحيل - شخصت البصر نحو النافذة - مثلهم تمامًا، أرواحهم الحرة تتحدى الظلم، مؤمنون بنُبلِ القضية - زفرت بمرارة - وأنتم تحبسونني كالدجاج!

ربت فوق كتفها بحنان: يكفي يا حبيبتي، لو كُنتِ أُمًّا لأدركت كيف يشعرون.

قالت بحدة: إنها أنانية! لأجل راحتهم وأمانهم يحرمونني الذهاب، مَن أكون بجانب مئات الراحلين؟ لم يفعل بهم آباؤهم ماتفعلونه بي.

أطرقَ بحزن، كيف ينكر وقد رأى بعينيه؟ كيف ينكر وكل لحظة تمر وهو بعيد عن الميدان تشعره بالعار؟ نهضت ممسكة كفه: ساعدني على الذهاب يا عدنان، أرجوك، كل أصدقائي من الجامعة الأمريكية هناك، وزملائي بسلك التدريس، والدانا مخطئون في خوفهم.

- أتفهم تمامًا رغبتك لكن لا أستطيع مطاوعتها. من يستمع لمرارتك يظنك تعيشين بفقرٍ مدقع!

ابتعدت عنه وخبا بريق الأمل في عينيها، هو أيضًا خذلها! أطرقت لبرهة ثم رفعت رأسها مشيرة للتلفاز: انظر يا عدنان، انظر جيدًا، لا تقاس الأمور بهذه الطريقة، إن أمكن لكلمتي وصرختي تغيير واقع يؤلم من حولي أو التعبير عن أوجاعهم لم أحبسها؟! الآلاف غيري يعيشون أفضل منا ورغم هذا ينامون هناك على الرصيف وداخل الجامع والكنيسة، لا تغرنك الأجواء الهادئة، مازلنا بالصباح الباكر ولدي شعور كبير اليوم بالقلق - استدركت

باهتمام ـ ساعدني على الخروج.

انحنى طابعًا قُبلة فوق وجنتها: سامحيني لا أستطيع، لا أملك شقيقة سواك.

هتفت بحدة: "أنت أنـ.. قاطعها بمرارة: أناني، لكن حبي لك ولها يجعلني كذلك.

عاودت الجلوس على المقعد قرب نافذتها المغلقة فانسحب بهدوء مغادرًا غرفتها، تودعه أنَّات نشيجها الحانق، حين تناهى لسمعه رنين هاتفها وصوتها يجيب بعصبية: "ماذا تريد منِّي يا عمرو؟ دعني وشأني" ابتسم يهز رأسه بدهشة، يعلم حبهما لبعضهما، لكن ما لا يفهمه لماذا يظل كل منهما في عالمه الخاص؟ ترفضه دون أن يجرؤ هو على الاقتراب؟ شعر أنه يتحدث عن نفسه وقسمت وليس عنهما! غريبة هي الحياة؛ لا أحد ينجح في العثور على السعادة.. لا الفقير ولا الغني سعيد، حقًا! خُلِقَ الإنسانَ في كَبَد.

* * *

أطلت والدته من غرفتها مشيرة بإصبعها فابتسم، ستظل روحها الحانية ممزوجة بجرعة مكثفة من الطفولة وحب الحياة، توقظ دومًا نزعة الحماية لديه كلما رأى عينيها المرحتين تحدجان كل ما حولها بتفاؤل وبساطة، ربما ورثت لينا بعضًا من طباعها، لكنها وبالتأكيد ورثت الروح المقاتلة عن والده المستنكر تصرفاتها، غافلًا عن حملها معظم جيناته، لذا تقف أمامه الند للند! أرسل لوالدته قُبلة في الهواء وسار نحو غرفتها، متوقعًا ما سيدور حوله الحديث، لكنه لم يتوقع السرعة التي بدأته بها حين انحنى مقبِّلًا وجنتيها.

ـ في كم شهرًا؟!

أنبه ضميره، خداع والدته غاية في السوء، لاسيما وقد تسبب بخيبة أملها لسنوات بانتظار حفيد، لكنه لا يثق بردة فعلها إن علمت الحقيقة، قال: "في شهرها الثاني . تأمل السعادة التي أنارت قسماتها، تشبه لينا كثيرًا لكنها ليست

قوية مثلها! صفقت بيديها: مازالت بالبداية! رائع ـ تابعت بمكر ـ أعرف الآن سر انجذابك إليها، حين رفعت رأسها مطالعة والدك بتحدٍّ أطلّت من عينيها روحٌ مقاتلة ـ قطبت مداعبة ـ ومن لا يخاف من خالد؟! حتىٰ أنا أنهزم أمامه أحيانا كثيرة ـ ربتت علىٰ ركبته ـ أنتَ سعيد؟

أوشك علىٰ إخبارها أنه لم يعد يدري وأن اللاشعور بات جزءًا من تكوينه فلا يستطيع الجزم! يحتاج قِسمت في حياته، نعم، يحبها وهو أكيد من الأمر، ولكن هل هو سعيد؟ تلك هي الإجابة الأصعب! تشاغَل بالنظر إلىٰ الشاشة مومئًا. كان فيلم (الزوجة13) من أفلام والدته المفضلة، قِسمت أيضا لا تمل مشاهدته! زمجر في نفسه بغيظ.. قِسمت، قِسمت! همست والدته بحنان: أخبره يا حبيبي ـ مدت كفها تحتضن كفه ـ أخبِره بما أخبرتني، بما اكتشفته حين كنـ.. ـ رفض بصرامة فحاولت إقناعه ـ هو والدك، وإن كان الأمر سيريحه ويجعله أكثر تقبُّلًا لها فلـــ..

قاطعها بحدة، يناديها بأمي دومًا حين يفجِّر أمر ما غضبه النادر أو حزنه: لن أخبره ـ سار نحو التلفاز وأغلقه رغم قرب جهاز التحكم، فقطبت بينما وضع يديه بجيبيّ سرواله ـ لم أخبرك لأحصل منك علىٰ مباركة يا أمي، بل لاحتياجي لشخصٍ أحدثه حيال مشاعري، وليس لي من هو أقرب منك لأسرّ إليه ـ حذَّرها بسبابته ـ إياكِ.

قالت باسمة: أسرارك بأمان يا نانو.

رفعت ذراعيها فانحنىٰ محتضنًا إياها بحب مغمغمًا: "أمي.. أنا!". اختلج قلبه بين أضلعه دون أن يجرؤ علىٰ التفوه! غرز قدميه ببركة الأكاذيب وانتهىٰ الأمر. "أنا ذاهب" أوقفته فتابع بعجالة: سألقي عليها نظرة قبل ذهابي ـ استدرك باهتمام ـ المستشفىٰ! من الجيد أنني تذكرت، أريدكم أن تنتبهوا ألا يذكر أحد اسم المستشفىٰ أمامها.

سألته بذهول: ألم تعرف بعد؟!

* * *

تردد أمام مكتب والده، خاصة وقد تناهىٰ لسمعه صوته الغاضب: ماذا تعني بأنك لن تؤجلها؟ ألم نتفق علىٰ واحدة أسبوعيًا من عملياتكم القذرة! لا أملك القرار! أنسيتَ أنها مستشفاي؟ ـ سمع والده يضرب قبضته للمرة الثانية فوق طاولة مكتبه ـ تعلم جيدًا أني لم ولن أمد يدي لنقود تلك العمليات، وإن أُجبِرتُ علىٰ الموافقة!

زفر مبتعدًا. خسارة يا دكتور خالد، حساباتك خاطئة! عدل عن مقابلته ليقينه بأن لا حديث سيصلح الأمور أو يهدئ الأوضاع، خاصة وأعصابه الآن علىٰ المحك! لقد تحداه، وربما تكون المرة الثانية في عمره كله التي يعارض رغباته. فتح باب الغرفة يطل من خلفه، فلمحها أسفل الضوء الذي تسلل حين فتح الباب، ابتسم حين رأىٰ حركتها الطفولية متمسكة بالدثار كطوق النجاة، مطبقة عليه بكل قوتها! تنام بلا حراك. اقترب مضيئًا المصباح المجاور، وانحنىٰ متأملًا وجهها؛ لم تكن مسترخية كما ظن، بل كانت مقطبة تختلج شفتاها اختلاجات صغيرة آسرة إحدىٰ قبلاتها! حانت منه التفاتة صوب باب الغرفة، ثم عاد هامسًا بمكرٍ: "سيما، سأطلق سراحها" أطلق ضحكة متسلية، يسيطر عليه شعور لص يختبر متعة السرقة لجوهرة ثمينة في جنح الليل، انحنىٰ محررا القُبلَة المرسومة فوق شفتيها بتمهل كسول، ثم اعتدل ماطًا شفتيه بغيظ: "عليَّ دومًا سرقة القبلات أو انتظار قِسمت لتأتي إليَّ بها!" داعب وجنتها الدافئة بأنامله حتىٰ لاح شبح ابتسامة فوق شفتيها فغمغم مازحًا: "نوم الظالم عبادة!"

سار صوب الخزانة مخرجًا شالها الملوَّن من الحقيبة البلاستيكية، ووضعه جانبها فوق الوسادة؛ لا يريدها أن تشعر بغربة المكان في غيابه، ستقوم والدته بما في استطاعتها للاهتمام بها، لكنه يعلم كم ترتبط بأشيائها الحميمة! نظر داخل الحقيبة البلاستيكية، مخرجًا الإبريق الكريستالي واضعًا إياه فوق الكونصول المواجه للفراش، ساكبًا الحبات. اقترب ثانية من الفراش، وأخرج صورة ضوئية من محفظته التقطها التليسكوب، أمسك بقلم ذهبي من جيب سترته وانحنىٰ واضعًا الصورة أسفل ضوء المصباح

ليكتب خلفها بعض السطور، وحين انتهى انحنى طابعًا قبلة فوق مفرق شعرها، ووضع الصورة وفوقها الحَبَّة إلى جانبها، وهمَّ بالنهوض فسمعها تغمغم: "أحمد، أحمد لم يقتل، لست قاتلًا يا أحمد، أحمد انتظر" انحنى نحوها مقطبًا: "من أحمد؟ هي المرة الأولى التي أسمع باسمه منك! مَن قَتَل؟" ظلت تردد اسمه بملامح متألمة ثم عاودت الصمت، وقد سلب مفعول المهدئ إرادتها، متيحًا للذكريات التسلل من عقلها اللاواعي!

* * *

هتفت باستنكار: قاتل!.. ماذا تعني؟!

ضمَّ شفتيه الرفيعتين بصفارة حادة: "هاني، أين القهوة" حدقت بهما أزواج الأعين القليلة باستنكار شديد، بينما أومأ له الشاب بلطف. انسابت الكلمات من شفتيه مكسورة النبرات: أتعلمين! تمنيت، لا، بل حلمت، حلمت أن أكون من سيروي هذه الزروع العطشى بعينيك، بهرني دومًا لونهما الغريب، ليس بالقاتم كفاية ليكون أخضرَ صريحًا ـ اقترب متكئًا فوق الطاولة ـ هو لون آخر مابين الذبول والحياة، لا أجزم إن كان لون حقول يانعة أم حقول يابسة عطشى، لكن رغمًا عني كنت أميل لكونها عطشى، ممنيًا نَفسي بريها، لكنها القسمة! ستظلين بعيدة بُعد المسافات بين المجرات.

ـ يالها من مسافات! ألا يكفيك بُعد السماء عن الأرض؟

هز رأسه بأسى: ليتها هكذا.

ـ لا أفهم إلام ترمي؟

ـ ألم أخبرك أني لم أعد مفهومًا؟ للقاتل بقعة سوداء بصدره بدلًا من الروح.

قالت بإصرار: توقف عن نعت نفسك بالقاتل!

بسط كفه قائلًا: ولم الإنكار وهي الحقيقة؟ قاتل مع سبق الإصرار، أنا من أقنع حاتم ـ ضم قبضته مقتربًا منها عبر الطاولة ـ لم يكن ليفكر بالرحيل لولا احتياجي للهروب بعدما فشل المشروع التجاري الذي قاتلت للنهوض

به ـ زفر بمرارة ـ المشروعات الصغيرة، أولى بهم تسميتها الفخاخ الصغيرة ـلوح يده في الهواء ساخرًا ـ تفضل أيها الشاب خذ القرض وابدأ مشروعك ونحن بانتظارك ليفشل وتقع بين أيدينا خلف القضبان، ومن الأفضل أن تهرب، هكذا نتخلص منك ومن إزعاجك وبحثك المستميت عن مستقبلك.

ألمتها رؤيته بتلك الحالة، كل كلمة انفلتت من شفتيه كانت صرخة ألم حبيسة، يضربون عصفورين بحجرٍ واحدٍ؛ يحطمون المستقبل ويتخلصون من الأرواح المقاتلة، فلا يبقى أمامهم سوى البحر أو السجن! والاثنان ضياع. توسَّلَته: لا يهم، حاول النسيان.

سألها ذاهلًا: لا يهم! ما الذي لا يهم يا أسما؟ أني من أقنعه بالرحيل أم أني من دفعه بعيدًا حتى ابتلعته الأمواج؟ تشبث المسكين بي في لحظة ذعر فقابله شيطان رعبي وأجهز عليه.

قالت مهدئة روعه: لو لم تفعل لغرق كليكما! اضطررت للاختيار بين حياتك وحياته!

فوجئت بعينيه تغرقان بالدموع: ليتنا غرقنا معًا، عودتي هي التي (لا تهم)!

جئت أحضانك الخضراء منتشياً.. كالطفل أحمل أحلامي البريئاتِ.. وأغربتاه..

تعالى صوت القيصر غارسًا نصل الحقيقة بوريد واقعهما الحزين، وأتى النادل حاملًا فنجان القهوة الثاني فأغمضت عينيها قائلة من بين أسنانها: لكنك عدت ولا مفر من الهرب، عليك تخطي الأزمة، وقد قمت بسداد القرض وكان عثرة في طريقك، توقف عن النظر للوراء بلا داعي.

سألها بتهكم. أتظنين حقًا أن عثرة الطريق أزيلت بتسديد القرض؟ لا يا أسما، لقد تضخمت متحولة لوحش سيدهس البقية مني.

أمسكت بيده: لن أتركك وحدك.

انحنى لاثمًا ظاهر يدها بشفتين مرتعشتين: أهو عرض شفقة أم حب انشقت عنه أضلعك؟ ـ ظلت عبثًا تبحث عن إجابة، وطال انتظاره ـ بل

ستتركينني، وليس لأنك لا تحبينني، بل لأنها قسمتنا! ـ سحب يده ممسكًا بفنجان القهوة مرتشفًا منه بازدراء ـ باردة! لم تسأليني من أين أتيتُ بالنقود؟!

يبدو حقًا أنها ليلة المفاجآت! لم تسأله ربما لأنها شعرت أن الأمر لا يهم! وأدركت الآن خطأها الفادح فلم يبقَ سوى الصراحة: لا أدري لماذا لم أسالك!

زفر قائلًا: لكني أعلم، لأن الأمر لا يهم! الكثير مما يتعلق بي لا يهم! والغريب أن من سدد القرض اكتشفتُ بأن أبسط تفاصيل حياتي بالنسبة إليه تهم جدًا! سأتزوج يا أسما، سأتزوج وأعفيك من عبء مشاعر تثقل كاهلك.

وكأنه أمامها لغزٌ لا تفهم طلاسمه، سألته بحيرة: "ماذا قلت؟!" فأعاد جملته بلا انفعال، سيتزوج بغيرها! حسنًا ماذا عليها أن تفعل الآن؟ هل تغضب؟! هل تثور؟ تبكي؟ تصرخ؟ لماذا يبدو الأمر معضلة كبيرة؟! ظلت واجمة تفكر بشيء يساعدها في العثور على الانفعال المناسب، لكنها في النهاية ورغمًا عنها شعرت بشفتيها تنفرجان شيئًا فشيئًا عن ابتسامة واسعة ملوحة بغمازتيها! رفع حاجبيه: هل هذا ما سأحصل عليه بعد تصريحي القنبلة؟ ـ مطَّ شفتيه ـ ألن تسأليني على الأقل ممن سأتزوج؟!

رفعت كتفها باستخفاف: لا يهم!

ـ بل يهم جدًا، إنها إنجي، إنجي الحطاب.

ثمة لحظة تمر في حياتنا تسمى لحظة الإدراك، تشبه الومضة؛ ندرك خلالها الكثير مما كان خافيًا أو مما غفلنا عنه! كانحلال عقدة فتحل وراءها كل الخيوط! إنجي الحطاب! زميلة الدراسة التي انضمت لشلة أصدقاء لا يمتون لواقعها الاجتماعي بصِلة، ابنة كبار مصدري الأخشاب ومالكي مصانع الأثاث المنزلي على مستوى مصر والعالم، لم تكن تشبههم شكلًا أو مضمونًا؛ كانت أعلى في كل شيء، في المرتبة الاجتماعية، المستوى المادي، المستوى العلمي وقد أصبحت بين عشية وضحاها معيدة بالكلية! مصرحة أن الجامعة الأمريكية رغم سهولة الانضمام إليها لن تمنحها ما

تصبو إليه من مجدٍ علمي، أما في الجامعة الحكومية، من السهل الوصول لكل شيء وأي شيء بأقل مجهود! دومًا أثارت محاولاتها المستميتة في التقرب من أصدقائها دهشتها، وكلما ضاقت عليها دائرة التفكير ترجع الأمر لأنها شخصية بسيطة، لا تملك نزعة التكبر التي يملكها الكثيرون من بني جنسها! عرض عليها الكثيرون من معيدي الجامعة الزواج ورفضتهم مبررة (لن أتزوج سوى بمن أحب). ضبطتها عدة مرات متلبسة باختلاس نظرات مبهمة نحوهما، وأبدًا لم تتوقع نواياها!

ـ تحبني.. كثيرًا! عرضت شراء البقية من البقايا التي عدتُ بها.

سألته بمرارة: بعت القضية؟!

اقترب عبر الطاولة ضاغطًا على أسنانه: وهل ملكت قضية لأبيعها يا أسما؟! ستمنحني ما لم تستطعي منحي؛ الحب والاحتواء ـ أعاد جملته الأخيرة بقسوة تعتصر أصابعه فنجان القهوة البارد ـ وأنا في أمس الحاجة لكليهما، من عاد من بين فكيّ الأمواج بحاجة للتلقي لا المنح!

وكأنها بمحكمة ما يلبث الدفاع أن يحاصرها بالأدلة والبراهين الدامغة! لم يملك قضية ليبيعها، فباع نفسه، لا تملك الحق بالاعتراض؛ فلديه الآن من الجراح ما يجعله بحاجة لمن يداويها، لا لمن يتسبب بالمزيد، ولا دواء أفضل من حب صادق! دست السماعة بأذنها..

ساد الصمت، لتلتفت مقطبة، كان يمسك هاتفها يسألها بمرارة: الهروب مجددًا؟!

تنهدت: لا مزيد من نكءِ الجراح، كفاك وكفاني!

أطبقت أصابعه حول كفها فتغضنت ملامحها. كان كلاهما ضائعًا يتألم؛ يتألم لانسلالها من بين يديه، وتتألم لألمه! ظن بخياله السخيف أن امتلاكها جسدًا سيمكّنه من تملّك روحها العصية! نظرته التي وقعت عليها للمرة الأولى أسَرَته، فصارت جزءًا من الحُلم، بل صارت الحُلم كله! شمس الأقصر التي لوحت تقاسيم وجهه، ونشأته بين آثارهم المنتشية بعبق التاريخ، وهبته روحًا جامحة تتوق للحب! كان حالمًا ولا يخجل الاعتراف، حالم في

زمن متوحش الواقع، لكنها الليلة السوداء، محت كل لون وردي باستطاعة عينيه رؤيته، معتصرة توقه للحياة، فسال من أوردته قطرة قطرة!

- لم أتوقع لكني تمنيت.. تمنيت لو تعترضي، تثوري، تبكي وتتوسليني البقاء!

قالت بإشفاقٍ: وما الفائدة؟

- قولي إنك تحبينني، فيصبح ما قلته كأن لم يكن!

تبادلا النظرات لبرهة، وكل منهما يتحدىٰ مشاعره أن تخذله، لكنها لم تستطع، الأمل الذي لاح في نظراته كان عليها أن تقتله مرة وللأبد! ونهضت معتذرة: "لا أستطيع". اختلجت ملامحه ورفع عينيه مطالعًا وجهها، بفراقهما ستفقد من كان يساعدها علىٰ التفاعل ولو أحيانًا مع الحياة، أحمد بحالميته كان البقعة المضيئة بحياتها، يعلم كل شيء عنها ويقبلها بكل طبائعها الغريبة ومشاعرها المتطرفة، لكن لن تكون أنانية، سحبت يدها من بين أصابعه معيدة وضع سماعتها، فسقطت يده فوق الطاولة بلا حراك كطير مقنوص، زفر بمرارة: إذن ستمسىٰ بلا قِسمت حكاياتي!

أطرقت مخفية دمعتين، لتسقط إحداهما قُرب كفه، مدَّ أصابعه يلتقطها قابضًا عليها، لم يسمح زمنه القاسي سوىٰ باحتضان دمعاتها التي تبكيه! "لنرحل، هي بانتظارك"، ألقىٰ بضعة ورقات نقدية علىٰ الطاولة دون أن يحصيها. لمحت إنجي من بعيد تنظر ساهمة نحو الباب، وسرعان ما خرجت بلهفة من سيارتها لتقف إلىٰ جانبها رامقة كليهما بقلق، خلعت محبسه المحفور باسمه، فأغلق أصابعها حوله: لا أريده.

رأت إنجي تلوك شفتيها وأظافرها المقلمة تنقر فوق سقف السيارة اللامع، فالتفتت باسمة: سامحني لأنىٰ لم أكن الحبيبة التي تمنيتها، وحاول أن تكون سعيدًا، اغتنم الفرصة.

- تعنين أن ألعب اللعبة باحترافية!

- اذهب لطمأنتها، أوقن أنها تمر بأصعب لحظات حياتهامنتظرة عودتك!

سار نحو السيارة، يتناهى لسمعهما أصداء القصيدة، تودعهما.. ناولته إنجي مفاتيح السيارة: "تأخرت كثيرًا". التفت كمن يراها للمرة الأولى: كنت أنهى أمورًا عالقة ـ زفرت بارتياح وأمسكت بذقنه تديره إليها، فتسلل لأنفه عطرها الغافي فوق رسغها ـ أمتأكدة من قرارك؟ لست نفس الشخص الذي تعرفينه من الماضي، تغـ...

وضعت أناملها فوق شفتيه: من الجميل يا حبيبي توديعنا الماضي بكل ما فيه، ولتبق عيناك على الحاضر، لا تنسَ موعد الغد مع الدكتور منجي بشأن رسالة الماجستير، لن نضيع لحظة واحدة.

سارت قِسمت مبتسمة تركل أحجار الطريق بطرف حذائها الرياضي كالأطفال، لا يهم! قالتها مرارًا تجوب نظراتها على الحوانيت وإضاءات الواجهات، عادت لدائرة الوحدة.. روزا! هل ستعاود الاستماع إليها كي تحكي كيف يكون الحب؟ لا يهم! كانت قادرة دومًا وستظل! مرت على محل لبيع المجوهرات في طريقها وباعت المحبس الذهبي، منحها الجواهرجي خمسمائة جنيه كاملة، ابتسمت بمرارة، حتى أحمد ساهم بنصيبه في المبلغ المطلوب! تصاعد رنين هاتفها ليجذبها من أفكارها..

تكررت الرنة بإلحاح محدقة باسم المتصل.. نوار! همت بالإجابة إلا أن يداً ربتت فوق كتفها أجفلتها، لتفتح عينيها!

أعتذر عن إزعاجك يا عزيزتي، لكنه عدنان، يتصل للمرة الرابعة للاطمئنان عليك، وطلب منِّي إيقاظك.. سأنتظرك بغرفة المعيشة.

حدقت قِسمت بالهاتف الذي رفعته أمام عينيها، وأومأت ببطء مجاهدة لفهم حديثها وآثار النوم تتلاعب برأسها. طالعتها ليلى بتردد توشك على قول شيء ما لكن يبدو أنها عدلت عن الأمر في اللحظة الأخيرة.

لقد عادت لأرض الواقع المرير؛ ترى لو امتلكت آلة للزمن ستصلح الأمور أم ستقبع تحت رحمة الأقدار ثانية؟! تنهدت بعمق، لا يا أسما، لا

مفر من إعادة الكرة واجترار المرار من البداية، ستختار نفس الاختيارات، وتقدم على ما فعلت بطيب خاطر، لم تملك حلولًا أخرى! حانت منها التفاتة فلمحت صورة النجمة وفوقها حبة كهرب، أمسكت الورقة متأملة إياها وقد رأت من قبل مثيلاتها، انتبهت إلى سهمٍ صغير يشير لخلف الورقة فأدارتها بفضول وقرأت الكلمات:

(سيما تقول هاي، وقد وشوشتني لأمنحك هدية احتفالًا بمجيئك لغرفتي، حبة جديدة منحتِني مقابلها ابتسامة حلوة أثناء نومك، كما منحتِني شيئا آخر هو سر بيني وبين قسمت، أحبكِ، كثيرًا. الطبيب)

أعادت قراءة السطور وفي كل مرة ومع الجملة الأخيرة تشعر برفرفة أجنحة بين ضلوعها، قربت الورقة لتشتمها، إنه العود! تمتمت بلهفة: "أحبك، كثيرًا، أحبك، كثيرًا" ابتسمت لاثمة الورقة، حين تذكرت بعد انقشاع ضبابية النعاس.. الدكتور خالد الجبالي الذي ظنته عادل أبو الفتوح، يالسخرية الأقدار! كانت تعرف الوجه، وتعرف الاسم لاقترانه بعدنان، لكنها أبدًا لم تربطهما معًا! له نفس نظرة عينيه وقت غضبه، نفس نظرة الوعيد، يتشاركان أيضًا قبلات القمر، كم الدنيا صغيرة!

فتحت كفها محدقة لحبة الكهرمان المحفورة باسم (الغفور) بشرود، وداهمتها ذكرى ليلة شتائية بعيدة؛ مرعدة، التفوا حينها حول مدفأة الكيروسين العتيقة بجلسة هادئة، سوى من طقطقة الكستناء فوق سطحها المشتعل، ومطر يمارس الكلاكيت فوق زجاج النافذة، يتدفأون بوهجها وببعضهم، هربًا من برودة اجتاحت الجدران وشبعتها بالرطوبة. أمسكت والدتها بعض الجوارب في عملية انعاش عاجلة بعد أن ثقّبتها أصابع ياسر، ووالدها منهمك بقراءة كتاب فوق الأريكة الإستامبولي. يومها زحفت نوار على ركبتيها لتندس بين ذراعي جدتها التي كانت تقلب الكستناء بتأنٍّ، محصية حبات المسبحة: لماذا يحمل الله العديد من الأسماء؟ لماذا لم يكتفِ بواحد؟

أغلق والدها الكتاب باسمًا حين هتف ياسر: لأنه الله يا حمقاء! كيف يكون له اسم واحد مثل البشر؟

التفتت قِسمت لجدتها متجاهلة حوارهما الساخر وسألتها: أخبريني لماذا يا نانا؟

ابتسمت قِسمت هانم بحنان ومدت مسبحتها مشيرة للحبات: ما قاله ياسر جزء صغير من الحقيقة الكبيرة، فالأسماء رسالات خفية لمن يقرأها بقلبه.

سألتها نوار بفضول: وكيف هذا؟

قبلت جدتها وجنتها: الرحيم؛ لنرحم الضعيف، الغفور؛ لنغفر ونتسامح، العطوف؛ لنعطف على المحتاج والمتألم، الكريم؛ لنغدق بحناننا وأموالنا على من يحتاجها.. وغيرها وغيرها، وسيلة نسمو بها فوق طبيعتنا البشرية، ونرتقي بأرواحنا.

سألها ياسر: وما أهمية أن نرتقي؟

أجابته بثقة: لأنه الهدف من وجودنا يا حبيبي، أن نبرهن للخالق قدرتنا على الرقي فيرتقي ويعمِّر ما حولنا بالعبادة والإدراك.

أغمضت قِسمت عينيها متغضنة القسمات حين عاودتها نوبة من الغثيان، وتنفست بعمق معتصرة معدتها، وأزاحت الدثار ناهضة بتثاقل، كانت الشمس في كبد السماء رغم الرياح المتلاعبة بأغصان النخيل، ابتسمت بارتياح، يملكون اليوم شمسًا تدفئهم، احفظهم يا رب! يختلف المكان كثيرًا في الصباح، لم تتمكن ليلتها أن تلم بتفاصيله لتعجلها الهروب! ابتسمت بمكرٍ، لم يستطع الطبيب للآن إثبات فعلتها!

يعيشون وكأن ما يبعد عنهم بكيلومترات ما هو إلا وهم! العشوائيات والفقر والمرض تبدو كعوالق بقاع إبريق الكريستال، يتجاهلها من يعتلون السطح مدعين بأنها ليست هنا طالما لا تزعجهم بمحاولات الصعود! الإبريق! صدمها وجوده المحدق بها فوق الكونصول ملوحًا (أنا هنا)! فغرت

فمها بذهول واقتربت منه بخطوات حذرة.. يريد إجبارها على الرضوخ للأمر الواقع، باغتها سؤال غريب: ماذا إن كان يحاول إسعادها وإشعارها بالانتماء إلى المكان؟ لا يجب أن تصبح جائرة وظالمة كغيرها. سارت للحمَّام بخطوات متثاقلة تحتضن بطنها، ثم اضطرت للركض بمنتصف المسافة لتفرغ ما بمعدتها، لم تتقيأ شيئًا وظلت تعاني حتى انتهت النوبة، غسلت وجهها بالماء البارد، ومشطت شعرها وعقصته ذيل حصان، معدلة الجينز والسترة الصوفية، حين لمحت شالها ملقى على الأرض، لفَّته حول عنقها، وهبطت عبر الدرج إلى الأسفل. حين لمحتها ليلى ابتسمت بلطفٍ مشيرة بالاقتراب، نظرت قِسمت نحو شاشة التلفاز لتصيبها الدهشة، تتابع مسلسلًا كرتونيًا! أمسكت ليلى بكوب حليب تتصاعد منه الأبخرة: حمدًا لله على سلامتك. تضايقتِ لأنه أخبرني؟!

سألتها بعجرفة: كيف تقبلين بي؟!

رفت عينيها بحيرة: أمرك غريب!

ـ بل الغريب هو رضاك عن وجودي، هل الطفل بهذه الأهمية لتتغاضوا عمّا سواه، وإن كانت كرامة العائلة؟

سألتها بلطف: هل لديك اسم تدليل ـ أمالت رأسها مفكرة ـ لا أظن سوسو مناسب، لا يشبهك!

همت قِسمت بالتفوه بأمرٍ عدائي عدا أن نظراتها اللطيفة كبحت جماحها فغمغت: "أسما" أومأت ليلى باستحسان: "جميل، من اختاره؟ نانو؟" رفعت حاجبيها دهشة، يتذمر عدنان طوال الوقت من إيلامها عضلات حاجبيه، واكتشفت الآن أن الأمر ليس بغريب عليه، خاصة بوجود والدة كوالدته تطلق عليه (نانو)! مخلوقة غريبة تنفصل عن عالم يدور بين جنباته صراع مميت بمسلسل كرتوني وأسماء تدليل! قالت مدركة أنها الطريقة المثلى للتعامل معها: بل شقيقتي نوار، لم تكن تنجح بنطق اسمي وهي طفلة فاختصرت الاسم.

سألتها ليلى بمكر: و.. سيما!

زفرت بتهكم: قصَّ عليكِ الكثير!

ربتت على يدها: ولدي لم يكن يومًا ممن يقدمون على فعل جنوني، أقله لا يبتكر اسم تدليل! لكني أرى الآن شيئًا جديدًا يبرق بعينيه، لمَحته حين أتى مصرِّحًا بتوثيقه زواجكما على يدِ مأذون - مطَّت شفتيها - هو الشغف ربما! لا أدري.

وثق زواجهما! يظنون أن زواجهما بات شرعيًا! حانت من ليلى التفاتة نحو التلفاز الذي احتل الجدار المقابل، لتنطلق من بين شفتيها ضحكة متسلية؛ قام أحد الشخوص بالمسلسل الكرتوني بالقفز من ارتفاع شاهق حاملًا فتاة صغيرة، ليسقط منفرج الساقين ذاهلًا من الألم! هزت ليلى رأسها بمرح: لا أملّ من مشاهدة هذا المسلسل (عدنان ولينا)، مسلسلي المفضل - استدركت - بالطبع أعشق سالي وفلونا، وبيل وسيبستيان، لكن يبقى عدنان ولينا في المرتبة الأولى.

اتسعت عيناها بذهول: هل أسميت ولديك تيم..

أومأت بزهوٍ: نعم، ألم يخبرك؟! كنا بإعارة لإحدى الدول العربية، وكنت حاملًا به، وبالمصادفة كانوا يعرضون المسلسل هناك - التمعت عيناها بحماس - كانت المرة الأولى التي أتابع فيها مسلسلًا كرتونيًا، تعلمين أن هذه النوعية من المسلسلات لم تبثها مصر سوى مؤخرًا، كنت مبهورة بالشخصيات وأسمائهم الغير معتادة، فقررت تسمية أبنائي بأسماء شخصيات الكرتون الذي وقعت في غرامه.. عدنان.. ولينا.

حدقت قِسمت بها لبرهة مضيقة عينيها، ثم هزت رأسها كمن أفاق من غيبوبة بلاهة: حسنًا، لنتحدث في المفيد، أريد الرحيل عن هنا وبأقرب وقت، على الأقل كي لا تراني علياء، لن يستمر حسن الحظ طويلًا - كررت ليلى اسم علياء بحيرة - نعم يا سيدتي، نعم، علياء بحق الله! ألا تفكرون هنا بعواقب تصرفاتكم؟ يحضرني ابنك دون أن يهتم باحتمالية أن تراني زوجته؛

وهي بالمناسبة احتمالية كبيرة، لستُ بنملة يمكنها الاختفاء بين الشقوق!

أطرقت ليلى مقطبة لبرهة، وظلت قِسمت بانتظارها لتتفوه ولو بسخافة أخرى عن مسلسل كرتوني: سيدة ليلى..

ـ أولًا نادِني لولا، ثانيًا، علياء ليست هنا، ولماذا تكون هنا؟!

ـ لأنها زوجته، وقد أخبرني أنه يقطن هنـ...

ـ قسمت! علياء وعدنان انفصلا منذ أكثر من عام، لا أفهم سبب إيهامه لك بأنـــ..

قاطعتها بذهول. مطلقين منذ أكثر من عام، مستحيل!

إذن كانا مطلقين قبل أن يلتقيا، أو ربما تطلقا قبل أن يلتقيا مباشرة! كيف يجرؤ على خداعها بهذه الطريقة ولماذا؟! سألته من البداية إن كان متزوِّجًا ولم ينكر، بل أعلنها صراحة، نعم أنا متزوج، لم يكن عليه أن يكذب، ولِمَ الحاجة! باغتها سؤال: بأي حق تنعته بالكذب وقد سبقته إليه؟! للآن لا يعلم بشأن والدتها، منعوا الزيارات بسبب الاضطرابات والثورة التي فتحت أبواب السجون!

ـ هل أنتِ بخير يا عزيزتي؟

اكتشفت أنها حبست أنفاسها فشهقت بقوة: لماذا تطلقا؟

ـ أعلنت علياء فجأة أنها تعيسة ولا تستطيع الاستمرار، ولم تفلح معها محاولات الإقناع!

قطبت: وعدنان؟!

تنهدت بحزن: لم يحاول إقناعها بالعدول عن رغبتها، الغريب أن علياء لم تكن غاضبة أو ثائرة، بل كانت حزينة دامعة العينين وصامتة حتى اللحظة الأخيرة ـ أردفت بنبرة ذات مغزى ـ الحياة أقصر من أن ندفن أنفسنا في ذكرياتها!

نعتها يومًا بذات الألف وجه لتكتشف في النهاية أن كليهما جديرًا باللقب! يملك قسوة لا تردعه عن الخيانة، وحنانًا يجعله يحتمل وبصبر

نزقها وتطرف أفعالها! ما كل هذه اللامنطقية؟! انتزعها سؤال ليلى عن سير الحمل. بمَ تجيب الآن؟ يبدأ الكذبة وعليها تغذيتها لتكبر وتستفحل حتى تبتلعهم، تدرك أن شخصية كليلى ستسبب لها الحقيقة انهيارًا عصبيًا! لا يهم! لن تكون من يحطم المسكينة الغارقة بأحلامها الكرتونية، اتسعت ابتسامتها بتهكُّم: ألم يخبرك الطبيب؟

طالعتها بحالمية شديدة: لا تعلمين مدى شوقي لحمله بين ذراعيّ، انتظرنا طويلًا! مسكينة علياء! أشعر أنها لم تستطع الاستمرار بسبب عجزه عن منحها طفل!

* * *

(٥)

الحميمية وشهور مرَّت بينهما لم يمكنوننها ولو قدرًا ضئيلًا من سبر أغواره! مَن هذا الرجل الذي عاشت معه لأكثر من عام؟! همَّت بالحديث لولا إعصار دلف إلى الغرفة! كانت لينا تصرخ بانفعال ملوحة سبابتها بوجه ليلى: لن أحتمل الأمر أكثر من هذا يا لولا، اجعليه يسمح لي بالخروج، أبعدوا الثيران عن البوابة ـ أمسكت رأسها بين كفيها ذاهلة ـ عدنان ولينا! ـ طالعتها ليلى ببراءة، فأمسكت بجهاز التحكم مبدلة لقناة تنقل مشهدًا لميدان التحرير ممتلئًا بالثوَّار والخيام ـ انظري جيدًا يا أمي، اخرجي من قوقعتك، الميدان يصرخ وأنتم في عالمكم الخاص! ـ زفرت بسخرية ـ وتريدون منِّي الزواج! أتزوج ممن؟ واحدًا من طبقتنا المخملية غارقًا بصفقاته المشبوهة ـ زفرت هازئة ـ أو إحدى عملياته الجراحية! دعيني أذهب، أرجوكِ.

تهدجت ملامح ليلى كطفلة صغيرة، فركعت لينا أمامها ممسكة بيديها. قالت ليلى بعينين مغرورقتين: لست معدومة الحِس يالولا، أنا فقط.. اختنقت كلماتها ـ لا أحتمل رؤية كل هذه الدماء، الموت البشع! ربما أنا ضعيفة، سخيفة، لكن لن أحتمل فقدانك مثلما فقدوا أبناءهم ـ أجهشت

بالبكاء مربتة فوق وجنتيّ ابنتها ـ لا أستطيع، سامحيني يا حبيبتي أرجوك.

قالت بإحباط: ذهابي ليس معناه بالضرورة موتي!

هتفت ليلى بجزعٍ: لا قدَّر الله، مستحيل، أبدًا لن تخرجي من المنزل.

ارتعشت روح قِسمت لنبرة لينا العنيدة، تذكِّرها بمن لم ينسها الفؤاد: مرحبًا لينا، أنا قسمت.

وكأنها تراها للمرة الأولى، مكفكفة أثر الدموع: كم أنا سخيفة! لم أرحب بك ـ زفرت بخجل ـ تفقدني هذه العائلة صوابي.

ـ لا بأس يا نوار، رغمًا عنهم... ـ استدركت بارتباك ـ أعني يا لينا.

ـ أخبريها يا أسما أنني سأموت إن حدثَ لها مكروه.

قالت لينا بغيظ: حب عدنان لم يمنعك الذهاب ياقسمت، كنتِ هناك!

أمسكت ليلى بجهاز التحكم معيدة المسلسل الكرتوني، وألقت الجهاز فوق الطاولة بدويٍّ عنيف: لن أشاهد تلك القناة أبدًا ـ التفتت نحو ابنتها ـ لن أشاهدها ولن تذهبي ـ أخفت وجهها بكفيها، يهتز جسدها الصغير بنشيجها ـ تحرمينني من رؤيتك عروسًا، لن تحرميني منك أيضا.

ـ لن أتزوج لأنجب اطفالًا في وطنٍ مريضٍ وحياة ظالمة.

نوار في كل الوجوه! منذ الأمس تشعرها قريبة، كادت تشتم ريحانها، كيف يجرؤون على أسر أرواحهم؟! لا، لن تنسى أنها فعلت مثلهم يومًا، غريزة الأمومة لا يردعها رادعٌ أو يسيِّرها منطق، مسكينة ليلى! كلتاهما مسكينة مقسمة الروح. أعادت لينا قناة الميدان: حتى وإن عدتِ لعالم أحلامك يا لولا، لن تنفي الحقيقة، سيكملون حفر النفق نحو أحلامهم، وإن أدمَى أياديهم.

ـ صباح الخير جميعـ...

دلف عمرو إلى الغرفة فرآها جالسة بجانب ليلى رافعة رأسها بتحدٍ، تسمَّر مكانه محوِّلا أنظاره بين ثلاثتهن. ابتسمت ليلى مجففة دموعها: أهلًا حبيبي، تعال، صباح الياسمين.

رمقته لينا بحنق، فسار نحو ليلى فاتحًا ذراعيه: صباحكِ سكر يا لولا ـ طبع قُبلة فوق وجنتها ـ أمي وعلياء ترسلان التحية.

ـ ترى ما سبب تشريفنا بالزيارة يا دكتور؟ لا أظنها لإرسال التحية، تبعد فيلتكم عن فيلتنا بشارعين!

زجرتها ليلى بانزعاج فارتفع جانب فمه: لا بأس يا لولا، اعتدت تصرفاتها الطفولية.

اعترضت لينا بضيق: لست طفلة يا دكتور، قاربت على السادسة والعشرين.

قال هازئا: ومازلتِ تتصرفين كالأطفال!

علياء! هل قال علياء؟! هو لا يطيقها وهي لا تشعر بالارتياح في وجوده، لكن قدميها لا تطاوعانها للانسحاب، لن تمنحه فرصة مضايقتها، كما أنها تحتاج للتأكُّد مما سمعته! انحنت هامسة بأذن ليلى حين سنحت الفرصة: "مَن يعني بعلياء؟" قطبت ليلى بدهشة: "معقول! ألا تعلمين أن طليقة عدنان هي شقيقة عمرو وابنة شريك والده" اعتصرت الصدمة حنجرتها: "لا، لم أكن أعلم باتت تعلم الآن، الكثير! كان مكتب المقابلة للدكتور عادل أبو الفتوح؛ مصادفة ساهمت بإخفاء الحقيقة! تطفو الكثير من الحقائق على السطح كلما طال بها الأمد هنا. عدا الحقيقة التي يعلمها عمرو عن طبيعة لقائها بعدنان، انضمت أسباب أخرى لقائمة العداء؛ هو ببساطة شقيق علياء. كيف جرؤ أن يكون شاهدًا؟ ياله من شخصٍ غريب! قال عمرو موجِّها حديثه للينا: سأخبركِ لماذا أتيت، ثمة ملفات هامة أرسلني بها والدي لعمي خالد، كما أني.. ـ زفر متهكمًا ـ اشتقت إلى.. إلى لولا، ليلى زوجة عمي.

اقتربت تمط شفتيها بحنق: لست لولا، ولست طفلة، ولتهنآ ببعضكما البعض ـ شهقت ليلى باستنكار مستعيبة ـ لا تلوموني على ما سأفعل حين تسنح لي الفرصة.

سارعت مغادِرة بعدما أسرت لقسمت بأمنيتها لرؤيتها ثانية، حين يصبح

هواء المنزل أكثر لطفًا! قال عمرو وقد فشل في إخفاء نبرة القلق: "أمازالت مصرة على الذهاب؟" تنهدت ليلى: "أجل يا مارو رفع عمرو حاجبيه مجليًا حلقه، تدلـله! بحق الله يا ليلى ليس أمامها! استأذن منهما فأعادت ليلى المسلسل الكرتوني، وناولت قِسمت قطعة كعك قضمت منها قطعة ثم سألتها: كيف حدث الطلاق دون تأثُّر العلاقة بين عمرو وعدنان أو العائلتين؟ الطلاق أكبر مدمر بمجتمعنا للعلاقات الإنسانية!

ـ ليس مع عمرو وعدنان، وبالأخص ليس معنا، خاصة وأن علياء من طلبت الطلاق، ثمة شراكة وجيرة وصداقة عمر بين العائلتين تمنع الدمار ـ أردفت بحيرة ـ كان عمرو ضد قرارها منذ البداية، لكنها أصرت!

إذن كان يأمل عودة العلاقة بين عدنان وعلياء فكانت من حطَّم الأمل! تستطيع الآن تفهُّم موقفه، فمن كان ليتوقع استمرار العلاقة بينها والطبيب كل هذا، خاصة بوجود العقد المبرم! أطرقت بصمتٍ محدقة ببطنها لترتفع يدها لا شعوريًا تتلمس طفلها الذي ينمو دون أن يعي والده. هتفت ليلى بسعادة: معجزة بكل المقاييس! لم يكن به وعلياء خطبٌ يمنعهما، حتى الأطباء للآن لم يعثروا على سببٍ محدد، يدعونه عدم التوافق النفسي والبيولوجي ـ شردت لوهلة ـ أسرَّ لي مرة بشعوره بالذنب، لعجزه عن منحها جزء من نفسه!

عجزه عن منحها جزء من نفسه! وكأنه قادرٌ على التحكم بنفسه وتعطيل العملية الربانية، غريب أمر البشر! ها هو العِلم يقف عاجزًا أمام الإجابة على سؤال بسيط (لماذا)! ورغم الظروف المواتية لا يتم الحمل! سألتها: ألم يفكرا بالإخصاب الصناعي؟!

ـ كلاهما رفض الفكرة تمامًا بعد فشلها المرة الأولى.

ـ ولَم تحاولوا معهما ثانية!!

ـ يدهشني تأثُّركِ! لا يا عزيزتي، احترمنا رغبتهما على مضض.

همت بطرح المزيد من الأسئلة لولا منى التي قاطعتها بإشارة من يدها:

المعذرة، ليلىٰ هانم، دكتور خالد يود الحديث إليكِ بمكتبه.

* * *

ـ مازلت هنا يا مارو!

ارتفع جانب فمه مومئًا. فقال خالد: حين تدللين مَن حولك أشعر أننا بإحدىٰ مسلسلاتك الكرتونية ثلاثية الأبعاد ـ التفت لعمرو ـ ألا تخجل من نفسك أيها الطبيب؟ تناديك مارو!

أطلق عمرو ضحكة قصيرة: لتفعل ما تشاء، هي بمنزلة أمي.

قال خالد بضجرٍ: أنا بحاجة للتركيز في هذه الأوراق.

ـ ولِم كل هذا الاهتمام يا عمي؟ هي بضع مراسلات!

عاد خالد للوراء مشبكًا يديه: أي ورقة ستحمل توقيعي يجب التأكد من مصدرها ـ أردف بحنق ـ كان ينقصنا مجيء عدنان بها!

وافقه عمرو: لقد صُدِمت!

قطبت ليلىٰ بدهشة: أمرك غريب يا خالد، زوجة ابننا، وحامل!

هتف عمرو ذاهلًا: "حامل!" أومأت ليلي: "ظننتك تعلم!" هزَّ رأسه ساهمًا: "إنها مفاجأة" قاطعه خالد بعصبية "بل كارثة" انقبض قلب عمرو حين لاحت صورة شقيقته أمام عينيه بملامحها الحزينة ووجهها الذابل. تتعذب وتتألم رغم صمتها! أطرق خالد قائلًا بصوت أجش: لسنوات عجزَ عن الحصول علىٰ طفلٍ من علياء، فيحصل عليه منها!

عقدت ليلىٰ ذراعيها برزانة: حين حمل عدنان إلينا خبر زواجه الكارثي غضبت، لكني الآن سعيدة بها وبحفيدي، فلا تعكر صفو سعادتي يا خالد ـ استطردت ـ ما رأيك بالانضمام إلينا علىٰ الغداء يا مارو؟ ـ ضاقت عيناها بمكرٍ ـ ستحتاج لينا معلومات عن فراشتها الجديدة!

نهض خالد: سأذهب لمكتبي بالمستشفىٰ لألقي نظرة علىٰ بعض الملفات الهامة.

ـ من فضلك قم بتأجيل أعمالك لوقت آخر، ستجتمع العائلة كلها اليوم على الغذاء.

زفر بتهكم: أي عائلة تعنين! تظنينني سأقبل بوجود هذه الأفَّاقة بيننا؟ أحذرك من معاملتها بشكل جيد، لا تجعليها تظن نفسها حقًا واحدة منا.

ـ تنسى أنها بالفعل واحدة منا!

نهض عمرو بدوره فسألته بمكرٍ: إلى الطابق الأول؟ ـ أومأ برزانة فابتسمت ـ أحسنت يا دكتور.

قال خالد مغادرًا: أتمنى نجاحكما في المخطط، سئمت سخافاتها!

قالت ليلى بمرارة: لا يعرف سوى الخط المستقيم للوصل بين نقطتين. وقد ورثت لينا طبيعته! ـ التفتت نحو عمرو الذي كان شارد الذهن ـ لا تقف كالصنم، اذهب قبل طيران الفراشة.

ـ لا أظنها ستستمع.

تلاشى المرح من محياها لتحل رزانة نادرة: لا تدع اليأس يطرق بابك بهذه السرعة، ولا تعد التفكير طالما قررت، من يدري!

أومأ يهم بالانصراف ثم عاود مطالعتها بتردد: أتظنين أن.. أن حكايته معها ستستمر؟

أدركت منبع قلقه: هل رفضتْ علياء الزواج هذه المرة أيضًا؟

ـ العريس الخامس! نفسيتها تسوء يومًا عن يوم، فكرت والدتي بإخراجها لتغيير الأجواء. لكن تعلمين حالة البلاد! فاقترحت عليها زيارتكم لتلتقي لينا علَّ الواحدة تخفف عن الأخرى، خاصة بغياب عدنان لشهور طويلة.

ـ جيد أنها لم تأتِ وإلا أصبح الأمر مربكًا! ـ مطَّت شفتيها بحيرة ـ للآن لم أعِ ما حدث، كلاهما عازفٌ عن الحديث!

أَطرق خجلًا: قلة ذوق منِّي! اتحدث اليك عن علياء رغم علمي كم انتظرتم قدوم حفيد! سعيد لسعادتكم.

لا يا حبيبي لستَ سعيدًا، ولا تلم نفسك، لم يكن لهما قسمة معًا، والزواج رزق. تعلم هذا، أليس كذلك؟

- أتمنى لو أعرف حقيقة ما حدث، أرى الندم في عينيها كل لحظة - انتبه من شروده - سأمرّ على لولا number two.

ضحكت ليلى: لا تنسَ أن تقص عليَّ نتائج الحملة.

القسمة! الجواب الشافي لمعظم أسئلة الكون! لماذا مات؟ القسمة. لماذا نجا؟ القسمة. لماذا أحبها دون غيرها؟ القسمة. ولماذا افترقا؟ أيضًا القسمة! ألف لماذا؟ والإجابة واحدة.. القسمة! أيمكن أن تتحكم القسمة في حياتنا لهذه الدرجة؟! أم لنا نصيبٌ من أقدارنا باختياراتنا!

وصل أمام بابها المفتوح على مصراعيه وطرق طرقتين خافتتين. كانت تجلس أمام تلفازها المعلّق، شاخصة صوب صورة الميدان التي تملأ الشاشة، لا جديد! جموع البشر تملأ دائرته وما حولها، لافتات وهتافات وخيام مع إضافة بسيطة؛ شمس أشرقت فوق سمائه للمرة الأولى منذ أيام ملوّنة الأجواء الرمادية. لم تهتم بالالتفات ولو من باب الفضول: ماذا تريد يا عمرو؟

كلما نادته باسمه انقبض قلبه، بات أداتها التي تصنع المسافات، أوشك أن يكرهه! أخبرها بخفوت خشية خدشه هدوء الغرفة: المرة الأولى التي أجد فيها بابك مفتوحًا!

يكفيني باب واحد مغلق! طالعته صورة يؤطرها جناحا فراشة، تعلو مكتبها الصغير القابع بركن الغرفة، ملوحة له بالأمل! أعاد النظر مدققا بملامحها الرقيقة وعينيها السوداوين ذواتي الأهداب المنتصبة بشقاوة فوق أنف حاد كطبائعها. رفضت كل عروض الارتباط ورفضته، كمن يقطع أنفه ليغيظ وجهه! تجاهلته تمامًا، فسار نحو المكتب ممسكًا بالصورة، احتوت ثلاثة وجوهًا ضاحكة؛ صبيين صغيرين وفتاة، كان ثلاثتهم بمسبح بلاستيكي دائري من تلك التي تُملَأُ بالماء وتوضع بحدائق المنازل، كانت ممسكة

بطرف الحوض بكلتا يديها، لم تبلغ عامها الثالث بعد، أما هو وعدنان فتراوحت أعمارهما بين العاشرة والثالثة عشر. ذكرىٰ نابضة بالحياة، وإشراقة أيام خوالىٰ هي أغلىٰ أيام العمر! اتسعت ابتسامته: مازلتِ تحتفظين بها؟

قالت بسخرية مريرة: محاولة للاحتفاظ ببقايا من أحبهم كما أذكرهم بعيدًا عما شوهته الأيام.

أعاد عمرو الصورة لموضعها ملتفتًا بحدة: ترينني مشوهين؟!

- ربما لم تتشوه الوجوه، لكن الأرواح شُوِّهَت حد البشاعة.

ازدرد ريقه محدقًا بقبضتيها المضمومتين في حجرها: قاسية يا لولا، تغيرتِ!

أغمضت عينيها: أنت تغيَّرت حتىٰ لم أعد أعرفك! لستَ عمرو الذي أطال شعره ليصنع نافورة فوق رأسه بشريط من صندوقِ مشابكي، فقط لأني طلبت منه ذلك كي يليق باسم (عبسي).

قال بحزن: الشخص الذي تحمل دعابات أصدقائه السمجة لأجل إرضائك، هو نفسه الذي مازال يهيم حبًا بك يا فراشة.

- فراشة مكسورة الأجنحة.

حاول التفوه مبررًا ما يعذبها، لكنه آثر الهروب، لا يملك أجوبة تريحها: فقط رفرفات الفراشات بكل مكان في غرفتك ما أبقىٰ صورتك القديمة! دومًا مهووسة بها.. الفراشات الملونة.

تجرأت أخيرًا علىٰ الالتفات إليه: كما كنتُ مهووسة بك.

لفترة طويلة لم تلتقط أذناه رنينًا ناعمًا في صوتها، كانت خشونة الكلمات وحِدّة الطباع رُسُليّ الأحاديث، يدور بمدارات حياته وما يلبث الحنين أن يعود به إليها، وكأن الحنين رحل قبلًا حتىٰ يعود! سألها: وما الذي تغيَّر يا لينا؟!

حدقت بوجهه الذي اعتلته ملامح الأسىٰ، موخزة قلبها، مهددة

صمودها، كيف تمحو سنوات هي العمر كله تركت بصماتها فوق كل لمحة من ذكرياتها؟! فتحت أحد الجوارير مخرِجة واحدة من جرائد المعارضة، يعود تاريخها لشهرين مضيا وقد طويت صفحتها: اقرأ وأخبرني بعدها أي قانون لا يحمي أجسادنا من العبث أحياء غير أموات!

ازدرد ريقه مطالعًا العنوان الأسود بخطِّه العريض (حلم عبد الله بالسفر للعمل بدولة عربية يتحول لكابوس.. سرقوا كليتي بدعوى تحاليل وهمية)! وصورة لشاب لم يتعدَ الرابعة والعشرين بندبة حمراء على جانبه الأيمن. قالت محركةً الجريدة أمام عينيه: يقولون الذي سرقها إحدى مستشفيات المعادي الكبرى. هل أجرؤ على التخمين مستشفى مَن؟

هتف مستنكرًا: أحدِّثكِ عنا فتأتين بجريدة لعينة!

لوحت بالجريدة: يتحدثون عن مستشفى الخالدين، أليس كذلك؟ تفوح الرائحة العفنة منذ مدة وجميعنا يعلم ـ ازدادت اقترابًا حين أشاح وجهه ـ من قام بعملية الاستئصال؟ هل كنت معه؟

قال من بين أسنانه: لينا، أرجوكِ!

ـ بل أنا من ترجوك! هل كنت معهم؟

قال بعصبية: لا أعلم شيئا عن الأمر! التبرع بالأعضاء أصبح شائعًا في بلادنا، والمستشفى تقوم به بموافقة المتبرعين.

رفعت حاجبيها: ربما يقوم بها البعض كصفقة بيع وشراء برضا الطرفين، لكن هناك العمليات المشبوهة أسفل الطاولة كحادث سرقة كلية الشاب المسكين.

ـ أنا لا أقوم بهذه العمليات القذرة، كما أني لا أنظر لوجوه المرضى أثناء العملية، فقط أتواجد أحيانًا بجانب والدي تحسُّبًا للظروف، تعلمين إصراره الدائم على تولي زمام العمليات، لا يترك لي سوى متابعة الحالة.

زفرت بمرارة: لا تنظر لوجوه مرضاك أيها الطبيب! أهي لا مبالاة أم خوف مما ستعثر عليه في ملامحهم؟

قال بغضب: لا تحاكميني وأنتِ جاهلة بخبايا مستشفانا وظروف إنشائها، ربما الواجهة شراكة بين والدينا لكنها ليست خالصة لهما، هناك شركاء الظل بدستورهم الخاص، وأول وأهم بنوده (إن لم تكن معنا فأنت ضدنا)!

ألقت الجريدة بعصبية: لا تعاملني كفتاة ساذجة يا عمرو، أعلم أن مستشفىً ضخمًا بحجم الخالدين لن يقام سوىٰ بنسبة شراكة السُّلطة الحاكمة ليسمحوا بمروره أسفل أنوفهم، لكن ما دخلهم؟ هم ليسوا بأطباء!

أعاد رأسه للوراء ضاحكًا بمرارة: وتطلبين ألا أعاملك كالسُّذَج! انحنىٰ متشدقًا ـ تلك العمليات لا تتم لأجل أشخاص عاديين، مستشفانا خط التواصل مع الطبقة الأولىٰ أسفل قمة الهرم، الكلىٰ والنخاع المسروق وعمليات الترقيع هي للأمراء وأبنائهم وخاصتهم ورجال الأعمال من الدرجة الأولىٰ، ما نحن سوىٰ وسيلة لتحقيق رغباتهم.

قالت بإصرار: لا تبرر لأنه شيء بشع، يا إلهي! كيف تحتمل الوقوف بالعمليات وأنت علىٰ عِلمٍ بذلك!

ـ لا أعرف ولا أسأل، تمامًا كما يفعل والدي، الجهل نعمة ببلدنا، رحمة، كل ما نملكه عدم تلويث أيدينا بأموال تلك العمليات.

اقتربت محدقة بعينيه: وهل تُفلِح محاولة الهروب من ضميرك يا عمرو؟!

مدَّ يده بتردد لوجنتها، فسمحت بحط رحال كفه المُقاسىٰ للغياب: لا تحاكميني، يكفي ما أعانيه، ما تفعلينه يكاد يجهز عليَّ، أنا عاجز عن السعادة رغم النجاح ورغد العيش الذي أرفل فيه، أنت مصدر سعادتي الوحيد، فلا تكوني مصدرًا لشقائي.

التمعت الدموع بعينيها مشيحة وجهها: أنا أيضًا تعيسة لما آل إليه حالنا، عاجزة عن نسيان حقيقتك وما تسترون عليه ـ ابتعدت مردفة بقسوة ـ لولا أنكم أهلي لأبلغت عنكم!

جملتها كشق مبضع جراحي لصدره بلا تخدير (أبلغ عنكم)! لينا صغيرته التي تربَّت علىٰ يديه، وارتشف رحيق حبها علىٰ مدىٰ سنوات شبابه وصباه

تود إلقاءه خلف القضبان! هو مجرم بصمته واستسلامه لكن أن تلقي على سمعه جملة كتلك! قال: ليت الإبلاغ عنّا يسبب فارقًا! نحن مجرد وسيلة، كانت حماقة كبيرة من والدينا حين ظنا أن الشراكة معهم لن تهدف سوى لتلقي الربح بالموعد السنوي، وها نحن ندفع ثمن حماقتهما بكل ثانية تمر، ندفعها رعبًا وقلقًا عليكم وعلى أنفسنا، أذرعهم ممتدة كالإخطبوط في كل شِبر من العالم، الأمر ليس بيدي، بل ليس بأيدينا جميعًا.

نهضت بحدة: الاستسلام بحد ذاته جريمة.

- والحياة لا تسير بمثالية، لها قوانينها الخاصة.

- ليس مبررا للخضوع يا دكتور!

زفر بمرارة: لا تظني أننا سعداء بما يحدث، لكنه أضعف الإيمان. لا نملك سوى الخضوع، أبوانا يرفضان العمل بتلك العمليات ويصران على متابعة المريض بعد العملية في الخفاء.. كلاهما يفعل، وأنا أساندهما.

سألته بصوت متهدج: ولِم أضعف الإيمان؟ ونملك ألسنة للاعتراض وأذرع يمكنها صد الظلم!

آلمته براءتها، المسكينة لا تعي حقيقة معيشتهم بوطنٍ تحكمه كلّابات حديدية! الثورة بالميدان لم تصل للنفوس بعد. قال: تفكرين كفرسان العصور الوسطى! حتى وإن أعلننا العصيان متقبلين مصيرنا المحتوم بإمكانية تلفيق تهمة لنا واحتمالية إصابة أحدكم بسوء، ناهيك عن انهيار وضياع كل ما عكف والدانا على جمعه في سنوات غربتهما، لن تكون النهاية! فسرعان ما ستعاود شبكة الفساد عملها بأشخاصٍ جُدد ومكانٍ آخر وتحت أنف الجميع - أردف بيأس - ما نحن سوى خيط رفيع بالشبكة، لن يشكل انهيارنا فارقًا.

مطَّت شفتيها بقرف، تشق جرحًا جديدًا دون الاهتمام بسَنِ نصلها البارد: الاستسلام والخنوع مرض، ولن أرضى برجل مريض!

قال بصوت فارقته الحياة: أبلغي عنّا إن كان هذا سيمنحك راحة البال رغم شكي؛ لأنك سترينا خلف القضبان والذنب ليس ذنبنا! بل وسترين

بعينيك أذيال الثعابين تعاود نشاطها وكأن شيئًا لم يكن! ستتبدل الأقنعة لكن ما خلفها سيبقى بعفنه وبؤر فساده.

حدقت عبر نافذتها للرجلين ضخام الجثة أمام البوابة: ربما أقدر على الصفح عن خياناتك لأني السبب فيها بشكل أو بآخر، لكني عاجزة عن الصفح عن كل هذه القسوة واللامبالاة التي باتَت جزءًا منك - أضافت بحزن - بتَّ تتنفسهما كالهواء يا عمرو، أصبحت آلة كوالدي، فقدت الروح التي أوقعَتْني بحبك فور أن دغدغ قلبي رفيف أجنحته!

اقترب خطوتين دون أن يجرؤ على المزيد، تمنى لو تلمسها كفه ثانية، فخشي تلويثها!

أصابت حين نعتته بالآلة ولكن! كيف يحتفظ ببشريته وهو مزروع بالإجبار وسط هذا العالم الذي لا يرحم؟ قال: لن أدافع عن نفسي لأني مخطئ، أحتقر نفسي لخيانتي حبنا، لكن لا تقسي عليَّ يا لولا، لا تظلمي والدينا، يعايشان الرعب كل لحظة - أردف بحزن - والدكِ بالذات يعايش الرعب أضعافًا مضاعفة لأخذه على عاتقه الاهتمام بالأوراق، يصر أنه السبب بإغراق والدي معه في الشراكة لأنه من شجَّعه بقبول النسبة اللعينة التي فرضوها علينا للسماح بإقامة المستشفى.

- تدافع عنه وكأنه والدك! إن كان عدنان وهو ابنه من صُلبِه اتخذ قرار الانسحاب! لماذا لا تفعل أنت؟

- لستُ عدنان! لا أستطيع تركهما يجابهان الأهوال وحدهما، وانسحابه لم يكن دافعه الوحيد الاعتراض على الأوضاع - تنهد - لو تعلمين كم أشفق على والدك! لقد وصل به القلق ألا يوقِّع ورقة مهما كانت تفاهتها دون قتلها بحثًا ومراجعة، أراهن أنه لا ينام - أمسك بذقنها لتقابل عينيه - لا فرق لدي بين والدينا، علاقة العائلتين تعدت أواصر الصداقة منذ زمن، وحبي لوالدي لا يختلف عن حبي لوالدك، يكفي أنه السبب بمقابلتي لمخلوقة باتت كل حياتي ومنتهى أملي.

رغمًا عنها دغدغت الكلمات أنوثتها! في النهاية هي امرأة تتوق لمشاعر

الحب وتعاني الحرمان، ومن تتمناه أمامها يتوسلها! لكن عليها المقاومة للنهاية، إما أن تحصل على رجل تحترمه قبل أن تحبه، وإما البقاء وحيدة للأبد! لا مكان لأنصاف الحلول. ابتعدت شاخصة نحو البوابات: حبي لك كان أولى خطواتي نحو أنوثتي، فبات الحب لعنتي التي أعجز عن الهروب منها أو مواجهتها، ليتني أكرهك لكانت الحياة أسهل! بل ليتني أستطيع كراهيتكم جميعًا فأرتاح.

تطلع لوجهها المتعلقة نظراته بالبوابة كالأسرى، ذكَّرته بنفسه حين يطالعها، لا يختلفان كثيرًا؛ هو أسير لعشقها، وهي أسيرة روحها الطاهرة: لولا، انظري بماذا أتيت لك، انظري كم هي جميلة! تشبهك حين يعلو ملامحك الحزن!

أخرج من جيبه علبة زجاجية صغيرة بداخلها فراشة محنطة بأجنحة ملونة، رفع العلبة أمامها.

حملت أجنحة الفراشة على أطرافها الأربعة خطوطًا سوداء تدرجت ألوانها شيئًا فشيئاً نحو الكحلي القاتم فالأزرق السماوي، منتهية ببقعة بيضاء بالمنتصف. التفتت فهاله ما رأى، كانت تبكي بشفتين ترتعشان كطفلة صغيرة صرخ بها والداها، متمتمة: فاتنة!

واتاه الأمل ثانية فاقترب: لا تضاهي فتنتك ـ أمسك بكفها واضعًا العلبة براحتها ـ هي الثانية والستين، أليس كذلك؟!

ـ توقفتُ عن العدِّ منذ سنوات.

أهديك إياها منذ كنتِ بالعاشرة واكتشفت ولعك بالفراشات، منذئذ وأنا في بحثٍ دائمٍ عن فراشة جديدة لأهديك إياها.

طالعته بجمود مزيلة أثر الدموع بقسوة احمرت لها وجنتيها: ألا تود معرفة لم توقفت عن العدِّ يا دكتور؟ توقفت لأني علمت بأمركم، بتُّ ألقي بكل واحدة جديدة تصر على منحي إياها بصندوق قمامتي.

تؤلمه، لكنه يعلم كذبها، من المستحيل أن تلقي بفراشاتها الثمينة في

صندوق القمامة وهي مهووسة بها، لاسيما وبصيص الأمل المزعج مازال ينبئه أن هوسها تعدىٰ الفراش لمن يحضرها! تجرأ علىٰ مسح خطوط البلل التي غفلت عنها قسوة كفها بتأنٍّ وكأنه علىٰ طاولة الجراحة: لماذا ترفضين القُرب رغم يقينك بتعاسة كلينا ببعدنا؟! ـ أعاد السؤال محتضنًا وجهها براحتيه ـ لماذا يا حبيبتي؟

لأني عاجزة عن احتمال توحُّش مشاعركم! الصمت علىٰ الظلم وحشية، يقطعون لحومنا ويبيعونها لمن يملك الثمن! أخشىٰ باقترابي منك أن تفوح رائحة دماء الضحايا الذين سُرِقَت أعضاؤهم أمام عينيك وأنت غارق في خرسك! ـ هتفت بعينين قاتمتين كسواد ليلة غاب قمرها ـ الساكت عن الحق شيطان أخرس.

ـ والناطق به في زماننا ضائع لا محالة، لا أستطيع الإبلاغ، سيفتدون أنفسهم بنا، إن شئتِ أنت افعلي.

ابتعد عنها فقالت متوسِّلة: ربما تحدث معجزة!

أجابها بسخرية: ربما إن حدثت وتبدلت الأحوال نجرؤ علىٰ النطق!

جلست فوق الأريكة قرب النافذة: ثمة ما يمكِّنني من إعادة التفكير بعلاقتنا؛ ساعدني علىٰ الخروج، ساعدني لأطهر نفسي وأطهركم، دعنىٰ أذهب إليهم فاستعيد حريتنا وأبدِّل الواقع الذي سيمكِّنكم من الصراخ بلا خوف، ليسوا الفقراء فقط من انتُزِعَت حريتهم.

قال هازئًا: تريدين المجيء لي بحريتي وتُذهِبين بعمرك؟

حثته بلهفة: ربما تتغير الكثير من الأشياء بيننا إن فعلت.

جلس إلىٰ جانبها ممسكًا ذراعها بقسوة: لا تقايضيني بمشاعري يا لينا، لن أساعدكِ علىٰ الموت لأنال كلمة حب أو نظرة حنان دفعتِ مقابلها حياتك.

حدقت بعينيه الثائرتين كنمر متوثب للقتال ثم أشاحت بوجهها: اذهب يا عمرو، اتركني لحالي وأبقِ علىٰ أطلال صورتك القديمة، لا تقم بتشويهها أكثر من ذلك.

زفر بمرارة: وما الذي بقى من صورتي القديمة؟! لم تنادني عبسي منذ دهور محيلة ما بيننا لأضغاث أحلام!

ـ من أطلقت عليه يومًا عبسي لا تحمل الآن أيًّا من ملامحه، ما بقى من أطلاله رجل مهزوم، اكتفى بإهدائي فراشات عاجزة عن الطيران! وهم، ولن أتنازل عن الحقيقة!

ـ لِمَ لا تعيشين كما يعيش الجميع.. ببساطة!

وهل تعيشها أنت؟ لا أظنك ستحبني إن فعلت، لن أكون لينا التي وقعت في هواها حين فقدت أولى أسنانها!

أرخى أصابعه يمررها على طول ذراعها ببطء، حتى أمسك بكفها ليرفعها نحو شفتيه لاثمًا، تطالعها قسوة عينيه وتجهم ملامحه: إن شِئتِ البقاء دوني فهو اختيارك، أما حياتي؛ راقبيني أعبئها بغيرك من النساء، سأكون دومًا بالقرب، ولن تتخلصي مني! ـ اقترب فشعرت أنفاسه بأذنها ـ سأخونك مع من تملك عينيك أو تحمل أنفك الشامخ، سآتي بكل مناسبة تجمعنا بامرأة لها شفتاكِ، أداعب شعرها كما تمنيت مداعبتك، وسأبقى بانتظار كلمة منك، لأمحوهن جميعًا.

أعادت راسها للوراء حتى لامست خصلاتها المتدلية طرف ذقنه. عبِّ حياتك بمن شئتَ، اشرب من بحورهن المالحة بلا ارتواء، لن أنطقها إلا حين أحصل على عبسي ـ نزعت كفها من بين أصابعه بغضب ـ اخرج من هنا حالًا، لا أريد رؤيتك ـ تبادلا النظرات الغاضبة لوهلة ثم باغتها منقضًّا بقبلة صعقت شفتيها، ليسارع مبتعدًا، مقوضا دفعة كفيها ـ كيف سوَّلت لك نفسك؟! ـ قالت من بين أسنانها بحشرجة ـ اخرج وإلا صرخت محطمة صورتك أمامهم.

حدق بوجهها الممتقع لبرهة، ثم نهض يمط شفتيه: لست نادمًا على ما فعلت، حُلمٌ قديم طاردني حتى تحول لكابوس ـ أضاف متهكمًا ـ ضعي الفراشة مع شقيقاتها لئلا تعاني الوحدة!

غادر تاركًا إياها ذاهلة، تتابع خطواته تنهب الأرض. كان كالفرس الجريح يحتفظ بشموخه للحظة الأخيرة! أنت حقير وتافه وابن... يا عمرو ولا تستحقها! لوَّثتَها بإرادتك وبكامل قواك العقلية، لن تسامحك أيها التعس، خنت الثقة التي منحها لك أصحاب المنزل، أنت لعين وتستحق كل العذاب. جعل يصبّ فوق رأسه اللعنات مستمتعًا بتعذيب روحه، مدركًا أنها المرة الأخيرة التي ستسمح له برؤيتها، لكنه الشيطان! وسوس له بعد جرحها رجولته مرة بعد مرة. وإن كانت لحظة ضعف سيظل حاملًا عارها بقية عمره! ارتكب الحرام قبلًا بلا ندم، لكن لمسها كان أفظع خطاياه أمام نفسه! طعم عناقها سيودي بعقله كمن أصيب بالمس! صفق الباب خلفه بدويٍّ عنيفٍ سمعتها بالأعلى، فنهضت للوقوف قُرب النافذة، تابعته يستقل سيارته مبتعدًا حتى غاب عن الأنظار، رفعت أناملها لشفتيها المرتعشتين تحبس قُبلته لئلا تطير بعيدًا كما طار صاحبها كالدخان! مرتمية على الأريكة تنتحب، آلمته متعمدة؛ الدواء المر أفضل من البقاء عليلًا، جرحته بعمق، وردَّ الفعل قُبلة! لطالما حلمت بلحظة كتلك، لكن أن تأتي نتاج غضب! تشفق عليه من نفسه ونفسها، ولا تملك سوى الاستمرار، ربما تنجح يومًا ما! انتبهت على صوت منى تسألها ماذا تفضِل على الغذاء، التفتت نحوها موشكة على التفوه بسخافة ما لولا فكرة طرأت عليها!

* * *

- ليلى هانم، طلبت لينا غداءها المفضل وستتناوله معكم.

فغرت ليلى فمها: "متأكدة؟!" أومأت منى بسعادة مغادرة الغرفة، فوجهت حديثها لقسمت:

"ماذا سأفعل بدونها؟!" كانت الأخيرة شاردة الذهن تتلاعب أصابعها بعقد الشال، حين انتبهت بارتباك، فعاجلتها ليلى: ما الأمر؟ هل عاودكِ الدوار؟ ألا تستخدمين أقراصًا تخفف الغثيان؟

- لم أفكر في الأمر من قبل! دعينا مِنِّي، ماذا كنت تقولين؟

- منى! ساعدها عدنان في العثور على وظيفة تناسب شهادتها الجامعية بإحدى شركات أصدقائه، لا أدري ماذا دهاه! هي الثالثة التي يوظفها تاركًا إياي أتعذب! لقد تحوَّل بشكل غريب؛ فور معرفته بشخص أرغمته الظروف على عمل لا يرضاه يصيبه الجنون، ولا يرتاح سوى بمساعدته العثور على طريق مناسب!

تلاعب شبح ابتسامة بشفتي قسمت: "أمر غريب!" استطردت ليلى: أخبرني مرة جملة غريبة (لا تعلمين ما يفعله الانكسار بروح عنيدة تتوق للمستقبل ولا تطاله!)، شعرته كالمنعزل بشرنقته، هاجمه ما أجبره على الخروج - أردفت بمكر - من يا ترى كان له هذا الأثر العميق على نانو؟

أطرقت بصمت. لا تود سماع المزيد عن عدنان، لا تريد أن تعلم عن حنانه ورقَّتِه مع من حوله، ليست بحاجة لمعرفة ما توقنه، بحاجة للعكس! سألتها بغيظ شديد: ألم يطرد أحد المستخدمين من قبل؟ يسرق أو يرتكب جريمة مُخِلَّة بالشرف والآداب العامة؟ - طالعتها ليلى بذهول - أبدًا!

قالت ليلى بريبة: ليس على حَد عِلمي - أومأت قِسمت محبطة - شال غريب كالكثير من الأشياء! أعني لا يلائم ملابسك، هو رائع بالطبع، لكن يحدوني الفضول لمعرفة سر ارتدائك له، أتحبين أن أرفع درجة التدفئة؟! الحامل بالأشهر الأولى تشعر بالبرد عادة.

لا داعي، أنا أحب الاحتفاظ به قريبًا لأنه لشقيقتي نوار، وقد صنعته أمي.

نهضت ليلى بارتباك مزدردة ريقها: حسنًا، سأتفقد الغذاء، أتحتاجين لشيء؟ - هزت رأسها نفيًا - حسنًا، سأرسل لكِ بكوب من العصير الطازج كما أوصاني نانو.

أوشكت قِسمت على الانفجار ضحكًا؛ هذه المرأة اعجب من رأت! وكأنها بمدار آخر منفصلة به عن عالمها، لن تنسى نظرة الذهول على وجه عمرو حين نادته بمارو، ودَّ لو انشقت الأرض وابتلعته! أما نانو ياله من

لقب! الدكتور نانو الجبالي! تلاشت ابتسامتها حين طالعتها صورة صغيرة وُضِعَت بإطارٍ مُذهَب فوق إحدى طاولات الأركان؛ كانت لعدنان ووالده يبتسمان بسعادة! الدكتور عدنان خالد الجبالي.. خالد.. مستشفى الخالدين! اسم على غير مسمى؛ فلا خلود هناك، بل نفحة من روائح الموت الكريه، خالد الجبالي.. زعيم القتلة! لم تفكر يومًا بالنظر للأوراق، تلك الرزمة من القمامة التي ألقوها إليها بعد وفاتها. الغريب أنها لم ترَ عدنان هناك، أو تربط بين اسم والده والمستشفى. عليها أن تهدأ لتتصرف بحكمة. جذبتها صورة لطفلة باهرة الجمال والبراءة فوق صفحة المجلة الملقاة أمامها على الطاولة. ترى كيف سيكون شكلها؟ ستشبهها أم نوار؟ أم ستشبههم؟! خلعت الشال ووضعته قرب بطنها محتضنة إياه: "افتحي رئتيك لتشتمي عبير الأحبة، عبير خالتك رحمها الله، وجدتك أطهر الناس، إياكِ والنسيان!" أصابتها بغتة نوبة من الغثيان أدمعت عينيها، لولا عِلمها أن شهور الغثيان لم تنقضِ لظنت من بداخلها يعلن عن تشبُّثه بالبقاء، لا يجب أن تبقى الطفلة، لكنها أجبن من أن تفعل! لن تسمح ببقائها بينهم، إن لم يكن لها يد في حمل موروثاتهم اللعينة فلن تسمح بأن تحمل أخلاقهم، ستنتقم منهم؛ هذا الطفل الذي يتمنونه لن يروه مهما فعلوا! ستجرعهم مرارة الفقد مثلما تجرعتها على يديّ خالد. تلفتت بضجر، ماذا تفعل هنا؟! عليها العثور على طريقة للخروج بأسرع وقت. أمسكت علبة خشبية أنيقة داخلها بطاقات دفعها الملل للاطلاع عليها: طبيب الأسنان.. مطعم للأكلات الجاهزة.. فندق الفور سيـــ.. توقفت مدققة بالاسم الأخير (هيام بروفيشينال بيوتي سنتر)! ياله من عالمٍ صغيرٍ! بطاقة محل عملها القديم، ومن سوى عائلة الجبالي قادر على الدخول لعالم هيام! تذكر المرة الأولى التي التقت فيها بعلياء وكأنها بالأمس!

* *

جلست أمام إحدى العميلات مبردة أظافرها بمهارة اكتسبتها من عملها

لعام بتقليم الأظافر، لم يكن شرودها بالجديد، فالقلق صديق لا يفارقها، إن لم يكن بشأن شقيقتها، فبشأن المبالغ الطائلة المطالَبَة بجمعها في أسرع وقتٍ، أو الحزن على الشتات الذي يعيشونه! تأوهت السيدة منتزعة إياها من أفكارها لتعتذر بارتباك، ابتسمت السيدة التي بدت أصغر من أن تحمل اللقب: "لا بأس، انتبهي فقط ألا تجرحينني" أومات بخجل: "بالطبع، أعتذر حقا" أعادت السماعة لأذنها متمتمة مع روزا..

سألتها السيدة عن اسمها، فأجابتها منهمكة بتلميع ظفرها، رفعت السيدة حاجبيها: ذو الفقار! هو لقب لعائلة عريقة، أعرف بعضهم.

ـ لكنه غير مناسب لمقلِّمة أظافر

شهقت: لم أعنِ هذا أبدًا، أردت فقط الحديث، يضايقني ضجر الانتظار، أنا علياء الجبالي.

أومأت قِسمت بلا حماسة: "تشرفنا" اعتادت محاولات العميلات دومًا فتح باب الحديث ليمر الوقت، لعبة تحولها لمهرج الملك، مطالبة بإلقاء دعابة أو نكتة، ثم تدور بعدها الأحاديث حول غيرهن من العميلات لاستدراجها للنميمة وآخر الشائعات. وكالعادة، ستحاول بشتى الطرق معرفة ما تتناقله الألسن دون أن تصل معها لشيء، هي تلميذة نجيبة، من النادر نسيانها درسًا، لاسيما أول درس لدخولها عالم الهوانم، حذرتها هيام من الانصياع لرغباتهن، فليس ثمة خاسر بالنهاية سواها، الحلقة الأضعف، ولن يقع اللوم لتناقل الأحاديث سوى عليها. تأملت المرأة التي رسمت فوق شفتيها ابتسامة لطيفة كملامحها، تتلفت محدقة بالوجوه، تملك ملامح رقيقة، طبيعية أكثر من غيرها؛ شعر أسود ناعم يصل لكتفيها، مع غرة سوداء منمقة، عيناها السوداوان تلوح فيهما لمحات حزن أو ربما هو الضجر الذي اعتادت رؤيته بوجوه البعض، أنف صغير، وشفتان رفيعتان لم تغزوهما حقن البوتوكس، أناقة وبساطة ملابسها نمت عن ذوق مميز وراق، من الطبيعي اتسام مرتادي المكان بالأناقة، لكن السائد هو التكلُّف، لذا رؤية ملابسها كانت أبسط مما اعتادت عليه!

- لون شعركِ رائع - ضيقت عينيها - طبيعي، أليس كذلك؟!

رفعت قِسمت يدها بارتباك شاكرة، تدس الخصلة الهاربة من الإيشارب الملوَّن الذي وضعته فوق رأسها، اعتادت السؤال ببداية عملها، كما اعتادت نظرات الغيظ والحسد حين تقرّ بطبيعيته، لون شعرها الذي تسبَّب لها بإحباطات متكررة كما فعل لون عينيها! كادت تقول إنها رشات مياه الأكسجين، وعوضًا عن هذا أومأت. لا تدري لِمَ فعلت وقد اعتادت الكذب بهذا الشأن مرارًا! ربما هو الترقُّب للزيارة التي أوشكت مما جعلها عاجزة عن السيطرة على ردات فعلها، طار البقشيش! لا يهم؛ المزيد في الأفق.

سبحان الله، يدفعن الآلاف لتحصلن على لونٍ كهذا فتظل جذور شعورهن تطاردهن بمرآتهن! - تجاهلت قِسمت تعليقها متشاغلة بالاستماع لروزا - توقعت هذا، فرغم النظارة الطبية التي يخفي إطارها معظم وجهك إلا أن لون عينيك أخبرني الحقيقة! أراهن أنه يشعل غيرة الكثيرات هنا.

وجدت نفسها تبتسم لفراسة المرأة وروحها المتباسطة، من النادر لقاؤها بشخصٍ يعاملها بلا تكلف! قالت ممسدة أصابعها بمرطب تصاعدت رائحته الناعمة: أجل، سبَّب لي الكثير من المشاكل، وحرمني الإكراميات السخية، لذا اقتصرت الشر ووضعت إيشاربًا فوق رأسي.

- والنظارة أيضًا!!

- لا، نظري ضعيف، لكن ليس كثيرًا.

- تعجبني روحك المقاتلة، لا تخافي، سأمنحك بقشيشًا سخيًا.

ابتسمت ممتنة: أي لون تفضلين لطلاء أظافرك؟ dark rozy أم indian red. هي أحدث الألوان التي وصلتنا؟

سأكتفي بالطلاء الفرنسي مع ملمّع هادئ، هي المرة الأولى التي أتعامل مع قسم الأظافر، كنت أقوم بهذا في المنزل.

رجت قِسمت عبوة الطلاء: ثمة مناسبة هامة اليوم؟

تنهدت: لا، هو الملل، الملل من كل شيء.

فتحت الرسائل النصية بهاتفها، محدقة بالصفحة البيضاء ثم شرعت في الكتابة (اشتقت إليك! عدت وأنا نائمة). وضغطت زر الإرسال، فكرت بحسرة، ربما تكون الفتاة رغم صعوبة حياتها أكثر حظًا منها! تملأ العاطفة عالمها لشخصٍ ما دومًا بانتظارها! فبرغم الثراء ورغد العيش لا تعثر على سبيل السعادة! ها هو يعود بالأمس في صمتٍ تمامًا كما غادر صباحًا، قارب زواجهما على الثلاثة أعوام، وفي كل يوم تزيد المسافات! أجفلتها رنة الهاتف..

حبك وجع بعدو معي.. حبك حلم هربان.. من قلب قلب...

كانت رسالة! طافت عيناها على الكلمات الأربعة (بانتظارك بعد عشرة دقائق).

يقولون للكلمات أحيانًا سهام نارية، لكن تلك الكلمات كانت نفخة رماد أسود.. كعادته!

تفيض كلماتها شوقًا، فينتقي بالمقابل أبرد الكلمات! تمتمت شاخصة: انت لمين.. انت إلي.. قلبي إلك.. منو إلي.. انت ملك قلبي هواك.. ياللي بحلاك عمـــ... هاجمتها غصة فتنفست بعمق مغلقة الهاتف، لينتظرها! كما هي دومًا بانتظاره. تبكين لرسالة تافهة ولبضع كلمات لا تعني شيئًا يا علياء؟ ولكن هذه هي المشكلة؛ لا تعني شيئًا! هي تريدها أن تعني شيئًا، أي شيء، تريد أن تكون أهم شيء في حياته، لكنها تعرف جيدًا ترتيبها بأولوياته.

أحب إليسا، تعبر عن مشاعر المرأة بدقة غريبة! ـ أردفت ساهمة ـ كعدسة مكبرة مسلَّطة على موضع الألم!

أدهش قِسمت الحزن الذي لاح فوق قسمات العميلة الشاردة، ما الذي يمكنه تعكير صفوها، تراهن أنها لا تعرف للحزن طريقًا أو للحيرة معنى. من عالم آخر لا يعترف بهذه المسميات! عادت علياء لتجول بأنظارها في المكان؛ صف طويل إلى جانبها لأربعٍ من النساء ينتظرن الانتهاء من تقليم أظافرهن، اللعنة على الملل الذي يصبغ حياتها! اكتشفت أنها لا تملك صديقة

حقيقية تركن إليها وقت الحاجة، نادرًا ما نلتقي بالأصدقاء مصادفة، ومن العسير تكوين صداقة حقيقية في وقتٍ قصير، وهي لم تعد لمصر سوىٰ من أربعة سنوات، ثلاثة منها هي عمر زواجها؛ ذلك الزواج الذي تُكرِّس له كل لحظة بحياتها، مستميتة لإنجاحه كي تثبت عدم خطأ إقدامها عليه وبالأخص أمام والدتها. حتىٰ السنة التي سبقت زواجها لم تكن كافية لتكوين صداقة حقيقية، كانت سنة صعبة عليهم جميعًا؛ سنة التخبُّط ومحاولة الاعتياد علىٰ العودة بعد سنوات الغربة. أعلن والدها وعمها خالد فجأة حاجتهما الملحة للعودة، ليقوما ببناء مشروع عمرهما الذي رفضا إنشاءه بالغربة، يومها تعلقت عيناها بعيني عدنان، كانا مخطوبين لتوهما، انتظرت منه نظرة تطمئنها أنهما سيبقيان، فصمت وكأن الأمر لا يعنيه! تمنت البقاء كثيرًا؛ حياتها كلها كانت هناك، صداقاتها، روتينها، وطبيعة الحياة التي اعتادت عليها، لكنها وافقت طالما أنه معها، فأي مكانٍ هو فيه سيكون جَنَّة أو هكذا ظنت! لتنقلب حياتها رأسًا علىٰ عقب في غمضة عين. تركت فصلها الدراسي الأخير بالجامعة للعودة معهم، ثم سافرت مع شقيقها بموعد الامتحانات وعادت معه، ظانة بحماقتها أنها طالما تحبه بجنون سيحبها بنفس القدر، فلا يمكن أن يتلقىٰ كل هذا الحب دون أن يكون له ردة فعل. ألا يقولون (لكل فعل رد فعل مساوٍ له في القوة ومضاد له في الاتجاه)! أين إذن رد فعله القوىٰ علىٰ قوة عشقها؟ سألت نفسها السؤال ملايين المرات: أين قصة الحب التي لن تخبو وأبدًا؟! لتكتشف أنها لم تكن موجودة من البداية كي ترقي لسقف توقعاتها! اكتشفت أنه ليس بالضرورة من نذوب حُبًّا بهم سيبادلوننا العاطفة، فحتىٰ الكيمياء رغم نِسبِها الصحيحة تفشل معادلاتها أحيانًا، كما فشلت في الحصول علىٰ طفل منه!

كانت الأسرتان حريصتان علىٰ الابتعاد عن أي مؤثرات خارجية بإمكانها استدراج بناتهن بعيدًا، وكانت لينا أول من عِلمَ بانجذابها لشقيقها متنبئة: "ستتزوجان علىٰ أي حال فهو المتوقع". فالأهل لن يقبلوا بالزواج من أغراب يحملون جنسية أخرىٰ؛ مسألة مبدأ، لذا لم يكن هناك مهرب من التعلق به..

لم يكن هناك سواه! لاسيما وقدرته على لفت انتباه أي فتاة خاصة بطبيعة عمله ومظهره الرجولي الرزين. الوحيدة التي نظرت أبعد من أقدامهم كانت والدتها حسناء؛ أسرت إليها بقلقها، وفارق السن بينهما الذي يصل لإحدى عشر عامًا. لكن حتى عمرو الذي يخشى عليها نسمات الهواء كان أكبر المشجعين. لم تشعر يومًا أن فارق السن هو المشكلة، المشكلة أبعد مما توقعت والدتها، بل أبعد من أن تعثر عليها، المشكلة الحقيقية ألا مشكلة! والآن، وبعد ثلاث سنوات من الزواج. الحصيلة صفر؛ صفر في المشاعر، صفر في السعادة، وصفر في الأمومة، وقد أجمع الأطباء على أن الأمر مجرد عدم توافق نادر الحدوث، رغم وجود البدائل التي يمكن المحاولة من خلالها! لكنها رفضت بعد أولى المحاولات الفاشلة، كما رأت الرفض في عينيه. كانت طفلة والدتها المدللة، تخشى عليها فتمنعها الخروج للعب مع عدنان وعمرو ولينا، طوال عمرها داخل فقاعة من الحرص صنعتها والدتها، مكتفية بالاستماع لتفاصيل المغامرات التي خاضتها لينا برفقة شقيقها وصديقه، فصنعت منها فتاة هادئة مترددة. أتكون مملة؟! غير مرضية له كأنثى؟ لكنها ليست مترددة معه، ليته يعترض، فما يقتلها حقًا هو صمته! أرادت طفلًا نتاج لحظة حب، ثمرة عاطفة لا ثمرة معامل وأنابيب أثبتت فشلها الذريع، ربما لو كانت الأمور بينهما مختلفة لفكرت بتلك الوسائل، لا تريد شيئًا يرفض منحه وقد منحت نفسها دون شروط! هناك دومًا ذاك الحاجز كجدارٍ غير مرئي، يواجهها حتى وهي بين ذراعيه، شيء ناقص لا تستطيع التوصل إليه، ليته يكرهها لبات الأمر سهلًا! الكارثة أن مشاعره هي لاشيء، خط الرمادي لا يقوى على التحول للأسود أو ينصع بياضه، بين بين.. والنتيجة صفر!

انتزعت نفسها من أفكارها متشاغلة بتأمُّل قِسمت التي أوشكت على الانتهاء: كيف تعثرين على الوقت للتسبيح هنا؟ - أشارت برأسها نحو المسبحة الكهرمانية الملتفة حول رسغ قسمت - أعني هذه المسبحة، كيف تسبّحين في خضم انشغالك؟!

نظرت قِسمت نحو المسبحة بدهشة وكأنها تراها للمرة الأولىٰ: لا، أنا لا أُسَبِّح، هي فقط غرض عزيز، لا أشعر بالارتياح سوىٰ بملاصقتها رسغي، لا أُسَبِّح - مطّت شفتيها بارتياح - انتهينا.

رفعت علياء كفيها متأملة الطلاء والقصة المربَّعة علىٰ الأطراف: "رائع" تنحنحت قسمت: بإمكانك طلبي بالهاتف أنىٰ شئتِ كي آتي إليك بالمنزل - أردفت بارتباك - بالطبع سيكون هناك كلفة إضافية، لكن ليست بالكبيرة.

ابتسمت برقة: فكرة لطيفة، سأجربها بلا شك. هاتفي فرغ من الشحن لكن سأعطيك رقمي لتعطيني رنة بعد ساعتين من الآن.

أومأت قِسمت مدوِنة الرقم: أتمنىٰ حقًا رؤيتك مرة أخرىٰ - شكرتها علياء ودست في راحة يدها ثلاثين جنيهًا، فهَمّت بالالتفات ثم عادت - أرجو ألا تنسي، قِسمت ذو الفقار، فقط احجزي موعد مع السيدة هيام أو اتصلي بي وسأكون لديك بالوقت المحدد.

ابتسمت بإشفاق: لا تقلقي، لن أنسىٰ، قِسمت ذو الفقار، ليس من السهل نسيان الاسم.

حدقت علياء بساعتها الذهبية، مرَّ علىٰ رسالته نصف ساعة، سيكون الآن في الخارج بانتظارها، حسنًا، لينتظر المزيد من الوقت، لقد قررت الحصول علىٰ جلسة تنظيف للبشرة، وتزداد الفكرة روعة بين لحظة وأخرىٰ! تابعت قِسمت وهي تسير للخارج نحو الممر المفضي لغرفة المديرة. دلفت الأخيرة مستئذنة: "هل يمكنني الذهاب؟ لقد أنهيت عملىٰ" تركتها هيام بانتظار الرد لبرهة مشعلة إحدىٰ سجائرها بعينين ضيقتين، ثم قالت: "لا تتأخري فلديك حصة الماساج" خرجت تتنفس الصعداء، محظوظة أن مزاج هيام اليوم جيد وإلا اضطرت للتوسل. كم يوترها اليوم كثيرًا رغم أنه أقل توتُّرًا من أيام الزيارة بدون رفقة نوار! ترفض دوما متعللة بالمحاضرة التي لا يمكنها تفويتها أبدًا لأن المحاضر رجل مزعج، والحقيقية أنها لا تحتمل الزيارة، فهي ليست بالساحة المفتوحة، بل من خلف القضبان. مسكينة نوار، كم هي هشة! لكنها باتت تنوء بما تحمل فوق عاتقها وتحتاج

هي الأخرىٰ لمن يساندها، ظنت بعودة أحمد أنها ستشعر ببعض الأمان، فعاد يحمل هو الآخر أثقالًا توقعت مرارًا أن الوقت الذي سيحين فيه إنهاء العلاقة سيكون قرارها! تأملت الباب الأوتوماتيكي يفتح لأجلها باسمة، لقد أنشأت هيام المركز علىٰ أحدث الطرز، قائلة في إحدىٰ المرات (في زمننا هذا يجب أن تبدأ متوحشًا لتبقىٰ كذلك، فالصغير تدوسه الأقدام، ولا مستقبل للحالمين بالبدء من الصفر). وصدقت رؤيتها، فمنذ بدء الإعلانات وهو لا يخلو من الزبائن المتلهفين الباحثين عن حُلم الجمال، حتىٰ أضافت الكثير من الأقسام والتوسعات، ووصل بها الأمر إحضار أطباء متخصصين فىٰ حقن البوتوكس، كي لا تحتاج عميلاتها للخروج بحثًا عن أيٍّ مما يخطر بالهن. امرأة ذكية رغم تعنُّتها، ويعود هذا لأسلوبها العملي البحت. ممتنة لأنها منحتها الفرصة للعمل وكانت صبورة حتىٰ تعلمت الكثير، سألتها مرة لمَ هي متحمسة لمساعدتها؟ فقالت (الطموح يا أسما، لقد قُتِل هذا المسمىٰ ببلادنا، وحين أرىٰ فتاة مثلك تجاهد للبقاء، لا أملك سوىٰ أن أساعدها.. كنت مثلك يومًا). خطت للخارج بعجالة واضعة سماعتها الصغيرة بأذنها وضغطت زر التشغيل، فسمعت رنين هاتفها يقطع الأغنية.. هبة زوجة ياسر. زفرت بنفاذ صبر، لن تحتمل بكاءها، تقدر مشاعرها، لكنها اليوم لن تحتمل المزيد، أجابت علىٰ مضض تساؤلاتها بشأن ياسر وإن كانت تعلم موعد عودته، وللمرة الألف تذكِّرها أنه لم يتصل بعد المكالمة الأخيرة مؤكدة أنها لا تخفي شيئًا! تمنت المسكينة لو يعود قُرب موعد ولادتها، متذمرة أنه لا يتصل بها كما يفعل معهن، وكعادتها بررت تصرفات شقيقها لأنه لا يملك دومًا سوىٰ مكالمة واحدة، ويعتبر أنها بأمان بين أهلها، بعكسهن، ربما يكون مخطئًا بوجهة نظره لكن ماذا بيدها! همس ضميرها بأذنيها بعض الوسوسات فنحته جانبًا، هي الأخرىٰ تحتاج لمن يسمع شكواها ولن تظل الجبل الصامد إن استمرت دقات المطارق بهذه القوة فوق قمتها! برودها مع زوجة شقيقها حقًا رغمًا عنها. أزاحت الإيشارب عن رأسها، لتسمع صوتًا يصيح مناديًا، التفتت مقطبة تمسد فروة رأسها، فوجدت رجلًا يرتدي بذلة

رمادية قاتمة بشارب كث ونظارة طبية بإطار سميك، تشبه نظارتها عدا أنها تبدو من الماركات الثمينة.

ـ من فضلك يا آنسة، لحظة ـ ضمت شفتيها بحيرة مزيحة النظارة الطبية ـ المعذرة، رأيتك تخرجين من مركز التجميل ـ أشار بإصبعه نحو باب المركز بريبة ـ مركز التجميل! ألم تخرجي منه قبل قليل؟

أومأت بنفاذ صبر: أجل، أعمل هناك، ثمة مشكلة؟

وضع يديه بجيبي بنطاله: أحاول الاتصال بزوجتي، ويبدو أن هاتفها مغلق، وأحتاج لمن يخبرها أنني بانتظارها.

رفعت كتفيها باستخفاف: بإمكانك الدخول وطلب الاتصال عبر مكتب الاستعلامات.

مطَّ شفتيه: في الواقع، أنا.. أنا! ـ أمالت رأسها بترقب ـ لا أشعر بالارتياح في هذه الأماكن، لذا أرجو منكِ المساعدة.

تنهدت بحيرة ملقية نظرة على ساعتها: لكني على عجلة من أمري!

ـ لن يستغرق الأمر سوى ثانيتين، وسأمنحك المبلغ الذي تطلبينه.

رفعت حاجبيها بدهشة: "المبلغ الذي أطلبه!" أومأ برزانة: "نعم، ومقدَّمًا" ألقت نظرة على سيارته "الهامر"، من يستقل سيارة كهذه سوى من يرفلون في الثراء الفاحش! حسنًا يبدو أن الثراء يأتي مع الكثير من الحمق! فلتستغله: "خمسون جنيهًا" رمقها ببرود لجزء من الثانية ثم أخرج محفظته وأعطاها الخمسين، متشاغلًا بالنظر حوله بضجر، أعادت غرتها الكثيفة للوراء رامقة إياه بحيرة، لقد أعطاها ثمن المساعدة! قلبت الورقة بين أناملها، حسنًا، بإمكانها الوقوف هنا طوال النهار منتظرة الحمقى مثله، وخلال عدة أشهر ستكون قادرة على إخراج والدتها! "حسنًا يا سيدي، ما اسم زوجتك؟" أجابها دون أن ينظر إليها كمن ألقى عبئًا ثقيلًا عن كاهله: "علياء الجبالي رسمت متعمدة إحدى ابتساماتها الشهيرة: "دقيقة واحدة" لكنه لم يهتم! قطبت منتظرة التفاته إليها، فلم يفعل! سارعت قائلة: "هل

أخبرها بشيء آخر؟" هزَّ رأسه بالنفي فاتجهت مكرهة نحو المركز، وأمر واحدٌ يشغلها؛ لماذا لم يبدِ إعجابه بها؟ اعتادت لفت انتباه كل من يقع نظره عليها، خاصة بابتسامتها! وكونه متزوجًا لا يعفيه المسؤولية! عليه أن ينتبه إليها وإلا أصبيت بالجنون والتشاؤم! هل كبرت فجأة فباتت مملة للجنس الآخر؟! الكارثة أن تكون قد فقدت الـ mojo على طريقة الأفلام الأجنبية! غادرت مرة أخرى مركز التجميل وهرعت نحوه عابثة بأطراف شعرها راسمة ابتسامة أوسع: "أخبرتهم وسيعلمونها" مطَّ شفتيه بلطفٍ بارد: "أشكرك" ألقى الكلمة ككرة الثلج بوجهها ثم دار حول السيارة مستقلًا مقعد السائق، مخرِجًا أصابعه ينقرها فوق إفريز النافذة، ألقى نظرة على ساعته بضيق، لم يكن عليه الرضوخ لإصرارها على اصطحابها اليوم من المركز، لا يملك قدرة على احتمال هذه السخافات، تثير حنقه تلك الأمور، كل شيء من حوله خانق، العمل بات خانقًا، الحياة كلها ومافيها تطبق على أنفاسه! لكن عليه الاعتراف أن انتظار علياء أفضل ألف مرة من التواجد بالمستشفى أثناء العملية إياها، أحيانًا يتمنى لو أنهم لم يعودوا ويقوموا بهذا المشروع اللعين، أيدي شركاء الظل تعيث الفساد؛ عمليات أسفل الطاولات من استئصال وترقيع وسرقة! وهو صامت، مستسلم كوالده الذي سقط بالفخ، واسقط معه صديق عمره، يكره صمته واستسلامه، لكن ماذا يفعل؟! ليته يستطيع الابتعاد، لكنه لن يجرؤ على ترك عائلته ووالده ليجابه كل هذا وحده.

قالت علياء بعدما دلفت جواره: تأخرت. كنت بانتظارك منذ وقت طويل!

ـ تمزحين يا "لي لي"، أنا هنا منذ ما يقارب الثلث ساعة وقد آلمتني أصابعي من محاولات الاتصال بك!

قطبت مصتنعة الدهشة مخرجة هاتفها: غريب! الهاتف مشحون والشبكة جيدة، ربما الآلات بالداخل تشوش الإشارة ـ مطَّ شفتيه بضيقٍ مديرًا المحرك ـ هل دبرت من سيحل مكانك في سجل العمليات الأسبوع المقبل؟ لقد وعدتني بالذهاب لشرم الشيخ.

ـ المعذرة يا علياء، ثمة عمليات لم أستطع التملص منها، عمليات دقيقة لا أئتمن غيري عليها.

حدقت لجانب وجهه بوجوم ثم مدت اظافرها المقلمة وضغطت زر التشغيل ليعلو صوت فريد..

قسمة مكتوبة.. قسمة محسوبة.. قسمتي جنبك.. قسمتي حبك.. دة انتَ رضا قلبك قسمة...

تنهدت معيدة رأسها للوراء، ماذا عليها أن تفعل ليحس؟! اسعدني بالقرب اسعدني.. اسعدني معاك.. واوعدني بالحب اوعدني.. واخلص في هواك.. هل قُدَّ هذا الرجل من حجر؟! كيف لا يشعر بعذابها أم هو يعي ويتجاهل؟! إن كانت الأولى فهو أحمق، وإن كانت الثانية فهو أقسى من رأت بحياتها.. رغم أنها لم تقابل الكثير!

ـ عدنان! أشعر بالسأم من كل شيء، أكاد أختنق، أحتاج إليك ـ أضافت بتوسل ـ هل تفهم معنى كوني بحاجة إليك؟!

قال بنفاذ صبر: الأمر ليس بيدي وتعلمين كوني طبيبًا يضع فوق عاتقي الكثير من المسؤوليات.

ـ والدك ووالدي وعمرو.. بإمكانك الاعتماد عليهم.

ـ سنعوضها مرة أخرى.

اضطرت للعودة للصمت، لا طائل من الحديث وقد تحدثت كثيرًا من قبل، سألته بعد برهة: لماذا لم توقظني بالأمس؟ منحنا الطبيب جدولًا زمنيًا علينا السير وفقه؟!

عدل من وضع نظارته: كنتُ مرهقًا وكنتِ نائمة، لم أشأ إزعاجك.

تمتمت بخفوت: لم تكن لتزعجني!

ـ سأهتم بالأمر المرة القادمة.

ـ كما تشاء! ـ صمتت مُكرهَة ثم عاودت الحديث ـ ما رأيك بحجز غرفة بالفندق لنقضي فترة ما بعد الظهر هناك، ونهبط بعدها لتناول غداء متأخر ـ

أضافت بخجل ـ أخبرني الطبيب أني مستعدة اليوم، وبعض التدليل لن يضر!

اعتصرت أنامله المقود متأوِّهًا بصمت. ليس وقته يا علياء! كلما طالبته نبرات صوتها الرقيقة بأمر ما أو تمنت شيئًا لا يجد في نفسه القدرة علىٰ تحقيقه يوخزه ضميره، التفت قليلًا نحوها متجاهلًا الطريق الواقف من الازدحام، كانت نمنمات ملامحها تقطر لهفة. يؤنبه ضميره لوحشيته معها؛ الوحشية ليست إيذاءً جسديًا فحسب، وحشية المشاعر أحيانًا تكون اكثر قدرة علىٰ الافتراس، تفترس الروح عوضًا عن الجسد، وذاك الحاجز الغير مرئي بينهما يؤلمه قبل إيلامها. من المفترض أن يكون أسعد رجل في العالم؛ زوجة رائعة كالملاك، قادرة علىٰ غواية القديسين برقتها، وظيفة مرموقة وأموال بلا حصر، لماذا يعجز عن السعادة؟! لم لا يستطيع منحها ما تريد؟ يعلم جيدًا أن احتياجها يتعدىٰ ممارسة الأمومة، فما تحتاجه فعلا الشعور باهتمامه. ولكن ألا يفعل؟! حقًا يحاول بكل قوته لكنه يفشل، بل ويفشل في العثور علىٰ سبب فشله!

ـ عدنان أنا حقًا بحاجة لبعض التغيير.

ـ حسنا، كما تشائين.

زفرت بارتياح معاودة الاتكاء بظهرها علىٰ المقعد: شكرًا يا روحي.

ـ لا تشكريني يا عليا، فهو واجبي.. أعلم أننىٰ مقصر في الكثـــ....

لم تسمع البقية من حديثه؛ كلمة الواجب التي زرعها كالقنبلة الموقوتة بجملته كانت كافية! قناع آخر يرتديه، يفعل كل شيء معها بدافع الواجب، يسعدها أحيانًا بدافع الواجب، يهتم بدافع الواجب، يمنحها المال بلا حساب بدافع الواجب.. حتىٰ لحظاتهما الحميمية! أوقفت التفكير عند هذه النقطة كي لا توقظ جراحًا نائمة، حين أقدمت علىٰ هذا الزواج كانت تعي جيدًا أنه اختيارها، فعليها تحمُّل عواقبه، بل وتطويع الموج لسفينتها.. عدنان رجل رائع، وهذه المشاكل التي ربما لا يعي وجودها ستنجح في العثور لها علىٰ حلٍ، ربما الإلحاح سيكون وسيلتها الجديدة.. ستكون أكثر جرأة!

ـ أتعلمين؟ أنا أيضًا بحاجة للتغيير، وبعض التدليل لن يضر

كان هذا ما يشعره، الاحتياج للتغيير والابتعاد عن كل الأمور الخانقة، وأهمها واقع المستشفىٰ، كم يتمنىٰ ممارسة النذالة والقفز من السفينة كالفئران! حتىٰ استقرار حياته وزوجته اللطيفة عاجزان عن جعله يتقبل الواقع! تلك العملية التي يقومون بها تنبئ عن جريمة في الأفق، وقد ترك عمه عادل ووالده وعمرو ووجوههم مصفرة، حتىٰ عمرو، قام بإلغاء جدول عملياته لشدة قلقه. ذاك الطبيب التعس الذي زرعه الشركاء همزة للوصل وعينهم للمراقبة ويدهم الملوحة بالتهديدات، كم يود لو يخنقه مُزهِقًا روحه! هي دائرة مرسومة بدقة والخارج منها مفقود! أوقفتهم إشارة مزدحمة فلمحت قِسمت تسير علىٰ الرصيف، والتقت أعين المرأتين، لوحت قِسمت بلطف، فانزلت علياء الزجاج منادية: هل أنتِ ذاهبة لمكان قريب نستطيع إيصالك إليه؟

التفت عدنان محدجًا قِسمت بنظرة لامبالية لم تستغرق سوىٰ ثوانٍ، هامسًا لنفسه (فتاة الخمسين جنيهًا)! لقطة أخرىٰ تكمل تدني صورة الواقع من حوله.. لا شيء بلا ثمن!

* *

(٦)

ـ ذاهبة لسجن القناطر.

ضحكت علياء بمرح: لا أظن طريقنا واحدًا.

هزت قِسمت كتفيها بتسلية لتفتح الإشارة وتنطلق السيارة مبتعدة. كثيرًا ما ألقت الدعابة موقنة ألن يصدقها مخلوق، مستحيل! رغم هذا تشعر بارتياح لقول الحقيقة. تابعت السيارة ضامة شفتيها تحدق بيد علياء المطلة من النافذة، هذا الخاتم الذي يضوي بإصبعها بإمكانه تحرير والدتها من سجنها بلمح البصر! أتسرق لأجلها لو واتتها الفرصة؟ كيف يتمكن السارق من فعلته دون الإصابة بذبحة من الخوف؟! من أين يأتي بذاك الجبروت، ليتها جبروتية لباتت الحياة ألطف! المدعو الجبالي ألقى نحوها نظرة لم يكررها، رجل لا ينظر مرتين! الأول من لا تأسره ابتسامتها، ابتسامة ذات غمازتين تعي تأثيرهما جيدًا، كيف لم تؤثر به؟! ابتسمت لحماقة تمارسها وبكل استمتاع بوقت قاتل! لِمَ تشغل بالها؟ وليكن أنها فقدت الـmojo.. لا يهم! تفقد الكثير منذ مدة. زيارة والدتها بحق الله! لكن إن ظلت تفكر بواقعها في الأربع والعشرين ساعة ستفقد عقلها، كابوس يجثم فوق الأنفاس، ليتها تفيق

وكف والدتها يربت عليها بحنو: "استيقظي يا حبيبتي . فقط لو تستيقظ!

عثرت عليها واقفة أمام واجهة زجاجية تنقر الأرض، حاملة كيسًا بلاستيكيًا كبيرًا: أنا بانتظارك لأكثر من ربع ساعة!

تعلم كم يكون الأمر موتّرًا لشقيقتها لذا ابتسمت مبعدة السماعة: أعتذر لتأخري ـ قطبت نوار مشيحة ـ أخذت خمسين جنيهًا ثمن دقيقتين ـ رفعت نوار حاجبيها فزفرت ساخرة ـ سأحكي القصة فيما بعد، المهم أننا بإمكاننا الإحتفال بعيد ميلادكِ وإحضار الجاتو. سندعو زين والعمة صفية.

ـ ماما وجاتو بيوم واحد!

اتسعت ابتسامتها: وسنشتري لفريدة هانم قطعتين قبل ذهابنا.

رفعت نوار الكيس: لقد صنعت العمة صفية لماما محشي ورق عنب بالأرانب ـ طالعتها بدهشة تشير لتاكسي ـ هل سنستقل تاكسي؟

أومات برزانة: أجل، بل وأحضرت لكِ بذورًا جديدة ـ فتحت لشقيقتها باب السيارة ـ أحضرت أعواد النوار يا نوار.

شهقت نوار بسعادة وهمت بالحديث فباغتهما السائق: "إلىٰ أين إن شاء الله؟" تبادلا النظرات بقلق فرفعت قِسمت هامتها: "سجن القناطر من فضلك" تمتم السائق من بين أسنانه: "يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم، الدفع بلا فصال" همت نوار بالاعتراض فمنعتها قسمت: "سنعطيك ما تريد، فقط أسرع" أعادت وضع سماعتها متشاغلة بمتابعة حركة السير، فربتت نوار علىٰ يدها: شكرًا علىٰ البذور.

ـ ليت بإمكاني إحضار المزيد لكن.. لا يهم، الأيام الجميلة لم تأتِ بعد!

أطرقت نوار محدقة بكيس البذور: أفزعتِني بالصباح.

ـ سامحيني، الأمر ليس بيدي.

ـ لا ألومك، أدرك مدىٰ الضغط الذي نتعرض له، أنا فقط.. ظننت الأمر رحل بلا رجعة!

* * *

فاتت ليالي صبرت فيها وخدت ايه.. غير الفراق اللي اتكتبلي وعشت فيه.. وغاب عني وفراقه حبيبي شيىء تاني... تعالىٰ الرنين كاسرًا سكون الغرفة التي أسدلت ستائرها، لتمنع شمس الظهيرة الحارقة من إزعاجهما. جفل عدنان كمن وخزه دبوس، وطبع قُبلة صغيرة فوق جبهتها هامًا بالابتعاد فأمسكت بذراعه: "إلىٰ أين؟" ربت علىٰ وجنتها بحنان: "أشعر بالعطش نهض من الفراش فجذبت علياء طرف الدثار ممسكة بالهاتف وأغمضت عينيها متنفسة بعمق، قطبت لبرهة محاولة تبين الرقم علها تعرفه، لكنها فشلت فأعادت الهاتف واستلقت علىٰ بطنها، تحدق بفراغ الغرفة الفندقية الأنيقة التي تدرجت ألوانها بين الذهبي والأحمر، ترسم سبابتها دوائر وهمية فوق الوسادة، وبرغم البرودة اللذيذة وعتمة المكان المريحة، إلا أن الخدر الذي يجتاحها لم يكن ممتعًا! سار نحو الطاولة المنخفضة ليصب بعضًا من عصير الأناناس في كأس كريستالية، ارتشف بضعة رشفات علىٰ مهل ثم التفت نحوها رافعًا الكأس في عرضٍ لطيف فهزت رأسها، قضم قطعة مقبَّلات مزيحًا الستائر ليغمر الضوء المكان مزعجًا عينيها، رفت بضيق مشيحة وجهها لوهلة ثم عاودت النظر إليه محدقة بظهره.. إحباط جديد في سلسلة الإحباطات المتكررة! لم يؤدِ التغيير لشيء، يظنها توسلته البقاء ليعاودا الكرة بمحاولة لإنجاح الحمل! لم يع أنها تحتاج قربه والسكون إليه. لا يدرك معظمهم أن ما يلي حميمة اللقاء أهم في أحيان كثيرة من اللقاء نفسه! تنهدت بحسرة، لا تدري ما الذي انتظرته لكنها محبطة، آه منك! صامت كعادته، قبلها وأثناءها وبعدها، وسيظل صامتًا شاردًا بملكوته الخاص، بين نجومه وأجرامه التي يكاد يراها في شمس الظهيرة، وكعادته مبهم التعبير، جامد الملامح، هو الآخر بانتظار ما لم يأتِ وما لم يحدث، كلاهما بالانتظار وكلاهما محبطٌ! كيف يكون غاية في الحنان بلا روح؟! غاية في التفهم والرقة بلا شعور؟! زوج مثالي بلا حب! ماذا تفعل لتتفادىٰ وإياه العثرة الرافضة التزحزح عن طريقهما؟ استنشقت عبير ذراعها الذي حمل أنفاسه بقوة حتىٰ شعرت بحرقة الدموع خلف مقلتيها، جريمة رهيبة

حب امرأة لزوجها دون أن يبادلها الحب؛ جريمة بحق نفسها! ربما هو راضٍ بزواجهما وطبيعته الهادئة المستقرة، لكنها بحاجة لانفجار، لبركان يقذف حممًا من الشغف لحياتها معه، تتوق للسباحة في عاطفة هائجة تنسيها من تكون ومتىٰ وكيف! عدم التوافق البيولوجي.. هراء، محض هراء! هو عاجز عن منحها طفل لأن الطاقة والكيمياء بينهما سلبية، اللعنة علىٰ قلبها المتعلق بالأمل، وكيف تفقده وقد أضاعت معه سنوات من شبابها. حرام! مسحت وجهها بالوسادة تُرشِفُها دمعاتها مخفية بطياتها نحيبها المكتوم.

سألها بضجر: "أتودين تناول الغذاء؟" أجابته بنبرة ناعسة لئلا يكتشف بكاءها: "لست جائعة" تعلقت أنظاره بالأهرامات التي تفصلها عن الفندق حدائق النباتات الشهيرة. الخُضرة الممتدة أسفل الشمس موحية بالسكينة. ترىٰ ماذا تم بصدد العملية؟ عمرو اليوم في أكثر حالاته ثورة! في كل مرة يحاول أحدهم الاستغاثة لاكتشافه سرقة كِليته، تقوم الدنيا ولا تقعد لأسابيع، تشحذ خلالها جرائد المعارضة أنيابها وتهلل وتصرخ، وكالعادة ينتهي الأمر بهدوء، وينسىٰ الجميع الكارثة لانشغالهم بأخرىٰ! كل مرة يحبس أنفاسه انتظارًا ليصم الصراخ الآذان، لكن الشياطين ورؤوس الثعابين غاية في المكر والدهاء، وقدرتهم علىٰ التعتيم لعبة يبرعون فيها! زفر أنفاسًا لاهبة أحرقت مسارها بصدره، متأمِّلًا انعكاسها بزجاج النافذة؛ متمددة ببشرتها الرخامية الناعمة فوق الفراش يغطي الدثار الأبيض ظهرها العاري. علياء لوحة من السحر والوداعة، ما الذي يمنع شخصًا مثله من التمرغ أسفل قدميها ولهًا وعشقاً؟! زواجهما هادئ لم يشعل النيران بينهما! لم يكن شابًا عاديًا مرَّ بفترة اللهو والعبث الطائش التي مرَّ بها عمرو دون أن يغادر محطتها؛ كان مثالًا للتعقل والحكمة، لم يلمس امرأة قَط بحميمية عدا علياء! لا يدري سببًا حقيقيًا غير أن حياته سقط منها الكثير خلال رحلة دراسته بالغربة. مرة واحدة فقط شَغُف بامرأة، وكانت كافية لترك أثر عميق بذاكرته لولا أن أجهضته الظروف.. رفيدة! كانت طبيبة متدربة بالمستشفىٰ، سلبت أنفاسه جرأتها وشغفها بعملها وبه، جمالها صارخ وروحها وثَّابة كالمغناطيس،

بعينيها نظرة غريبة تنبئ ألا شيء يمكنه الوقوف بطريقها. قالت كلمة واحدة (أريدك)! طالت بهما الأيام واللقاءات فبات الرابط بينهما أكثر إلحاحًا من أي شيء في حياته. رفيدة.. قطرة الماء العذب الذائبة من ثلوج لبنان بكبرياء لم يرَ مثله من قبل! دللها (روفي) بناءً على طلبها؛ ليس ابن والدته في هذه النقطة! لن ينسى يومًا كلامها عندما أعلمها برفض والده ارتباطهما (لقد عثرت بكَ على وطني الذي خلفته ممزقًا، أنتَ وطني يا عدنان). لكنه لم يجرؤ على مجابهة والده، أو ربما غلبت كفة العقل كفة الشغف، تجمدت الدموع بمقلتيها وهتفت بصوت يرتعش (لم تحبني كفاية). لتبتعد مرفوعة الرأس. اطمئن حين رآها بإحدى المؤتمرات الطبية بصحبة زوجها، بدا عليها الرضا، وتلك الومضة بعينيها حين رأته سرعان ما اختفت، تمامًا كما هدأت رفرفة الأجنحة اللحظية بصدره بعدها بدقائق. كان الخيار الأمثل: علياء؛ ولا مزيد من تحطيم القلوب! آثر الجانب الآمن وأخذ بنصيحة والده، فخاض غمار خطبة لم تطل لتفضي إلى زواج بعد عام! جفل حين شعر بذراعين تلتفان حول خصره بنعومة، انتبه لانعكاسها بالزجاج وقد أحكمت لف ملاءة الفراش حولها، متيحة لأشعة الشمس الرقص فوق كتفيها. سألته: "لأين ذهبت؟" وأراحت رأسها فوق ظهره مغمضة عينيها فالتفت قليلًا: كنت شارد الذهن ـ عاود التحديق بالواجهة ـ بعض الأمور بالمستشفى، مشكلات تافهة.

ـ ألا يكفي وجودي ليشغلك قليلًا؟! ـ ربت بحنان فوق كفيها المتشابكين حول خصره، فأبعدتهما تديره نحوها ـ تحبني؟

سؤال مخيف والإجابة بسيطة: "بالطبع" ضيق حدقتيها أنبأه بخطأ الإجابة. قالت: لم أسألك قبلًا، شيء غريب، أليس كذلك؟

ـ المفترض أن أسألكِ أنا!

مطَّت شفتيها هامسة: لست مضطرًا للسؤال، أنت مطمئن!

ـ أنتِ غريبة اليوم!

أرسلت كفها في رحلة بطيئة نحو صدره دون أن تقطع تواصل نظراتهما، فراقب ما تفعله بغرابة! أزاحت الروب قليلًا ووقفت على أطراف أصابعها لتخفي وجهها بعنقه متمسحة بتجويفه: "أحب رائحتك" رفع حاجبيه: "تعنين عطري؟" حركت رأسها متلمسة المزيد منه: بل رائحتك أنت ـ دغدغته بغرتها ثم رفعت رأسها تطالعه ـ برائحتك تستيقظ حواسي، لا أظنني إن تزوجت غيرك لشعرت كما الآن!

أخرجت خاتمًا فضيًا أخفته بين طيات الملاءة: "عيد ميلاد سعيد" تأمل الخاتم المتوج بحبَّة من الأحجار الكريمة البُنيَّة: "لم تنسي يومًا!" وضعت الخاتم ببنصره طابعة فوقه قُبلة: إن نسيت يوم كتابة قِسمَتي فلا شيء يهم لأذكره!

لمح بعنقها آثارًا حمراء فتلمسها: "فعلها شاربي همست برقة: "لا تهتم". مازال للمساته ذات التأثير المعذب اللذيذ رغم سنوات الزواج؛ هكذا أخبرته استجابتها. لم تطالبه يومًا بإزالته، امرأة غيرها لأصرت ولكن ليست علياء. أمسك بوجهها بين يديه: أنتِ زوجة رائعة يا عليا، جميلة، رقيقة، وملائكية.

ازدردت ريقها مطرقة، كلماته منمقة، لكن ليست ما أرادت! انحنى ليقبِّلها فبادلته القُبلة، لا تملك سوى الانصياع لرغبة قلبها وإن كان ما يفعله جزءًا من واجبه! حين أمسكت أصابعه بطرف الملاءة تهم بحل رباطها الواهي، هاجمتها الرغبة بالاعتراض، أرادت إبعاد يديه والصراخ، تهتف روحها (ادفعيه يا علياء، أوشكتِ على تسول الحب). تمنت مرارًا مطالبته بحلق شاربه؛ ذلك المزعج الذي يترك آثار حرثه الخشن فوق بشرتها، لكنها خشيت الإجابة أكثر من السؤال! وقفت على أطراف أصابعها تلف ذراعيها حول عنقه، متجاهلة صرخات دواخلها المستنكرة، هاتفة: أحبك.

تعالى رنين الهاتف فأغمض عينيه بقوة، لا يريد الإجابة! لكنه لم يقوَ على الانتظار، ابتعد عنها بغتة ممسكًا هاتفه وفتح زجاج الشرفة تاركًا إياها وحدها: عمرو!

ـ عدنان، لم أشا إزعاجكما لكن! يجب أن تأتي حالًا! كارثة. المستشفى ساحة قتال، اللعين علّام أمسك بتلابيب والدي، وهدد والدك، أنا السبب؛ لم أحتمل رؤية المسكين يهيئونه للعملية، فأرسلت له ورقة مع الممرضة أنصحه فيها بالتراجع وألا يخبر أحدًا بالسبب، لكن إلحاحهم وإصرارهم على إبقائه أجبراه على قول الحقيقة.

ازدرد عدنان ريقه: وماذا فعلوا؟

خشوا مغبة صراخه بعد تبادل السباب، وأذعنوا لمغادرته، لكنهم تحولوا إلينا وهددونا بذهابنا وراء الشمس إن تكرر الأمر، كما لمَّحوا بأن شقيقتينا عضوتان بخلايا سرية تهدف لزعزعة الأمن الوطني!

قال من بين اسنانه: السفلة! يهددونا بأهلنا!

ـ علياء معك، أليس كذلك؟ قبل أن تأتي إلى المستشفى أعدها إلى منزل والدي، لا تتركها وحدها.

ـ لا تقلق، وعلى أي حال ثمة احتمال أن تكون تهديداتهم جوفاء.

قال عمرو بتردد: ولينا! يجب أن تطمئن أنها بخير اتصلت بها وأخبرتني أنها بمحاضرة وستنتهي خلال ساعة، تأكد أنها ستعود إلى المنزل مباشرة أو مُرَّ عليها بطريقكما.

غادر الشرفة قائلًا لعلياء التي عادت للاستلقاء: علينا المغادرة، مشاكل بالمستشفى ـ استطرد بعجالة ـ سآخذ حمامًا سريعًا وأرتدي ثيابي ريثما تنتهين من حمَّامك.

أومأت تتابعه حتى غاب بالحمَّام وزفرت بمرارة، على الأقل لديه العذر ألَّا يعرض عليها مشاركته! أنهى المعاملات الورقية وغادرا المكان، كان يقود السيارة بسرعة جنونية نقلت توتره إليها: "لِم أنت متوتر هكذا؟!" أجابها دون أن يحيد نظره عن الطريق: "لا شيء، أين أوصلك، منزل والدي أم والدك؟" أجابته ببساطة: "منزلنا"، قاطعها بحدة: "لا، منزلنا لا، ربما أبيت بالمستشفى ـ سألته عن السبب فأجابها بنفاذ صبر ـ علياء، لا وقت لفتح محضر!" قالت

ببرود: "سأذهب لوالدي" وتناولت هاتفها معيدة طلب الرقم بعدما تذكرت اتفاقها مع مقلِّمة الأظافر، أتاها صوت متلهف خَجِل: مدام علياء، أنا قِسمت ذو الفقار، سامحيني لأني اكتفيت بالرنة، لا أملك رصيدًا.

- لا بأس، سأسجل الرقم، وسأتصل بك حين أحتاج إليكِ.

بينما كان هاتف عدنان يعلن عن تلقيه اتصال؛ يخبره أن لينا في المستشفى، تعرضت لحادث سيارة كُسِرَ ذراعها!

* * *

انقبض قلباهما مطالعتين المبنى العتيق بأحجاره البيج والبني، ولافتته العريضة (سجن القناطر للنساء). ظلتا لبرهة لصيقتيّ المقعد منفصلتين يستحوذ على أفكارهما هاجسٌ وحيدٌ؛ ماما هناك، خلف القضبان! نادى السائق أكثر من مرة: يا آنسة، أنتِ يا آنسة، لا حول ولا قوة إلا بالله - صفق بكفيه - لقمة العيش يا هوانم! - انتبهت قِسمت مجفلة، فتابع بنفاذ صبر - فكَّ الله أسر المحابيس، النقود من فضلك!

ناولته ورقة نقدية، وجمعتا حاجياتهما مترجلتين، لم تعتادا الأمر قَط، كل مرة هي كدخول بيت الرعب! ازدردت قِسمت ريقها: "هيًّا" سارتا معا نحو البوابات التي سبقهما اليها الكثيرون كجحافل النمل قُرب فتحة الخلية؛ في موعد الزيارة الشهري بساحة السجن، تكثر أعداد الزائرين عن الزيارات التي يتعين فيها عليهم مقابلة ذويهم خلف القضبان. كما أنهم عادة ما يحملون الكثير من الأطعمة مما لذ وطاب، منتهزين فرصة رؤية ذويهم وجهًا لوجه، فيحاول البعض أحيانًا إخفاء بعض الممنوعات في طيات ملابسه آملًا ألا ينتبه إليها الحراس. خضعتا للتفتيش بأسلوب فظ كالعادة، حتى توسلت المفتش الرأفة بحال قطعتي الجاتوه ألا تصبحا عجينًا بين أصابعه، فألقى عليها نظرة مزدرية مشيرًا برأسه للدخول. استقرتا فوق أحد المقاعد الخشبية الشبيهة بمقاعد الدراسة؛ نعمة كبيرة لاسيما وقد فشل الكثيرون في العثور على واحدٍ، مضطرتان للوقوف الذي سيتعين عليهما احتماله طوال الزيارة.

مرَّ الوقت كحجر الرحىٰ طاحنًا أعصابهما، تتعلق أنظارهما بباب خروج السجينات، وطال الوقت دون أن تظهر فريدة! وحين أوشك اليأس علىٰ التسلل إليهما ظهرت أخيرًا، بابتسامة متلهفة تتلفت بحثًا عنهما، أتت من بعيد كزهرة قطن ناصعة وسط بقعة أوحال! ابتسمت قِسمت، سعيدة لإحضار مادة الزهرة الزرقاء وزجاجة الكلور، وقد حرصت فريدة علىٰ تذكيرها؛ لم يغيِّر السجن عاداتها، لم يهزمها، مازالت لا ترضىٰ في حياتها سوىٰ بالأفضل! نهضت كلتاهما في وقتٍ واحد ملوحتين بصراخ عالٍ دون أن تتحركا: "ماما" التفتت فريدة نحو مصدر الصوت مهرولة، تمنتا لو استطاعتا الركض قبل أن تصل إليهما لولا قواعد الزيارة (لا حركات مفاجئة، عليك الانتظار حتىٰ يحضر السجين بنفسه). ضمت قِسمت قبضتيها تعتصرهما بكل قوتها ألا تسبق شقيقتها باحتضانها! تعي جيدًا حاجة نوار الماسة لتكون أول من ترتمي بين ذراعيها، احمرت أذناها بشدة، وبات الجو خانقًا. أنفاسها الحبيسة كحلة الضغط تطبق علىٰ صدرها، لكن حين رأت شقيقتها أخيرًا بين ذراعي والدتها ورأسها مندسٌّ بين صدرها وعنقها، أطلقتها!

تمتمت نوار من بين نشيجها: "ماما، اشتقت إليك كثيرًا، كثيرًا" طبعت فريدة مئات القُبلات فوق جبينها: "وأنا أيضًا يا حبيبتي، اشتقت إليكِ كثيرًا يا نوار، كثيرًا جدًا" مسحت قِسمت دموع لم تسمح لها بالانزلاق فوق وجنتيها: "أعطني مما أعطاكِ الله يا أختي!" ابتعدت نوار علىٰ مضض ملتفتة نحوها وقد احمرَّ أنفها تمامًا وغرق وجهها بالدموع، هتفت قِسمت بلهفة: "ماما، أوحشتِني كثيرًا" ارتمت فريدة بين ذراعيها تحتضنها؛ كانت قِسمت بعكس نوار أطول من والدتها بعدة سنتيمترات، وكانت حاجتها لتبادل الأدوار بأن تكون هي بين ذراعيها أكبر من أي حاجة شعرتها يومًا، لكنها رضيت منذ وقت طويل بقسمتها، سألتها وفريدة مخفية وجهها بعنقها: كيف حالك يا فريدة هانم؟

ابتعدت زافرة بمرارة: مازلتِ تنادينني بهانم يا أسما! وهل رأيتِ هانم يومًا خلف القضبان؟

- ستظلين دومًا في نظري ونظر من يعرفك هانم يا أمي، وإن كنتِ حبيسة سجن ارتكب سجّانوه أبشع جريمة بحبسك. أمي.. أنتِ بخير؟

ربتت فريدة بحنان على ظهرها: أجل بخير، اطمئني. استطعتما اللحاق بأحد المقاعد!

ابتسمت قِسمت: أصبحنا محترفات في الماراثون.

سألتها نوار: لماذا تأخرتِ؟ كدت أموت قلقًا!

كنت أتحدث مع مسؤولة المشغل - فتحت حقيبة بلاستيكية كانت تمسك بها - انظري ماذا صنعت لكِ؟ - أخرجت شالًا من الكروشيه على شكل زهرات متشابكة الأوراق ببروز ناعم وألوان ربيعية - عكفت على صنعه طوال الأسبوعين الماضيين، لم أشأ استئذان مسؤولة المشغل سوى بعد الانتهاء لتسمح لي بالاحتفاظ به وتقسيط ثمنه من أموال راتبي الشهري - فردته أمامهما بزهوٍ - كل عام وأنت بخير يا نوار.

شهقت كلتاهما بإعجاب (رائع... مذهل.. تحفة). جعدت فريدة أنفها بمرح، فجذبت نوار الشال بلهفة ورفعته تلفه حول كتفيها. قالت فريدة: شغلته لأن الشتاء قادم، والغرفتان معرضتان للهواء، استخدميه لئلا تصابي بالبرد، مناعتك ضعيفة - استدركت باهتمام - هل تواظبين على شُرب الماء؟

قبّلت قِسمت يدها: لا تقلقي يا ست الكل، أحرص على وضع زجاجة كبيرة ماء قُرب سريرنا.

مسّدت نوار وجنتها بالشال: هذا هو الإنصاف، حَصَلتِ على المسبحة وحصلتُ على الشال، لن أبادلك أبدًا.

سألتها فريدة بلوم: هل أردتِ إعطاءها المسبحة؟

أجل، فأنا لا أُسَبِّح بعكس نوار، كما أنك رفضتِ بيعها لنستفيد من ثمنها.

- ستحتاجينها، ثقي بي، بل سيأتي يوم وتنتظمين بالصلاة، ألا تدعين الله كي يفرج همي؟

ـ وهل يحتاج الله لدعائي ليعلم كربتك يا ماما؟ هو يعلم كل شيء ويرىٰ كل شيء، إن شاء فسيفرج همَّنا جميعًا، لكنه لا يشاء!

ربتت فريدة فوق يديها المضمومتين بحجرها: له حكمته في شؤون عباده.

ـ أي حكمة تلك؟! أي حكمة في وضعك خلف أسوار وأنتِ مظلومة! أي حكمة وشقيقي هارب ببلادٍ بعيدة غريب بين طرقاتها! وأي حكمة قلبَتْ حياتنا رأسًا علىٰ عقب؟!

ـ أسما توقفي، ما تقولينه حرام!

ـ بل الحرام ما نحن فيه يا نوار.

تأملت فريدة ابنتيها، كلتاهما تحزن بطريقتها، وتنظر للأمور من نافذتها الخاصة!

ـ نحن الملومون علىٰ ما نلاقي، نحن من يصمت ويرضىٰ بالذل والهوان، فلا يحق لنا الاعتراض.

ـ وما الحل يا نوار؟ أن نصلِّي وندعو الله يفرج همنا أم نتظاهر ليضربونا بعصيهم الغليظة؟!

شهقت فريدة: نوار! هل خرجت في مظاهرة أخرىٰ؟

همَّت نوار بالحديث فقاطعتها قسمت: أجل يا أمي، لم أشا إخبارك كي لا تقلقي، لكن عدلت عن رأيي، لربما تستطيعين جعلها تقطع وعدًا لكِ ـ أردفت بحدة ـ لقد سئمت كوني وحدي أتحمل الكوارث ـ ظنت أنها أشعلت ثقاب حريق تمامًا كما توقعت نوار، لكن شيئًا فشيئًا بدأ نحيب والدتهما يتعالىٰ، فصاحت بندم ـ سامحيني يا أمي، لم أقصد مضايقتك، أنا فقط.. فقط.. أنا مرتعبة، إن حدث لها مكروه، لا أظنني سأقوىٰ بعدها علىٰ النهوض!

أسرعت نوار راكعة أمامها: "لا تخافي يا أمي، زين معي يحميني . همَّت قِسمت بالاعتراض؛ وقف بلا حراك أمام عصيهم! ثم آثرت الصمت، تود لو

تضرب نفسها بالقبقاب على حماقتها.

ـ لستُ قلقة عليكما بقدر ما أنا حزينة لأجلكما، أوقن أني أنشأتكما ووالدكما جيدًا، وعلى استعداد لقبول ما تقوم به نوار رغم رعبي، لكن كل هذا لا يساوي حزني لحملكما العبء الثقيل فوق ظهريكما وأنتما أعواد خضراء لم تتفتح زهراتها بعد!

لكزت قِسمت شقيقتها: تلك عود أخضر! إنها يابسة كالخيزران، أراهن من ضربها هو من تألم!

ـ حسنًا يا فريدة هانم، طالما أخبرتك هذه الواشية بالمظاهرة سأخبرك بأمر أحمد ـ حدجت شقيقتها بتسلية ـ لقد فسخا الخطبة.

قالت قِسمت ساخرة: لا يهم!

ـ ألن تصرخي بها وتنعتيها بالحمقاء؟ مصرحة أن عريسًا في اليد خير من عشرة بالحفرة!

مطَّت شفتيها: "لا، لن أفعل" سألتها: "لماذا؟"، فقالت هي وقسمت بآنٍ واحد: "رفضته من البداية" نظرتا لبعضيهما باسمتين، فاستطردت فريدة: لم تكن سعيدة ولم تكن لتصبح يومًا، إن تزوجا سيبقى جزء مفقود من الأحجية؛ موضع خواء كبير لن يملأه حب أحمد مهما فعل ـ التفتت نحوها ـ هكذا أفضل.

تعجبت نوار: لستِ كبقية الأمهات؛ (ضِل راجل ولا ضِل حيطة)!

اتسعت ابتسامتها: لو كنت كذلك لما أحبني "عليّ الدين"، أو جرؤ على اتخاذ القرار بالابتعاد عن عائلته! والدك مختلف، لم يكن يصلح له سوى امرأة تفكر مثله، لها وجهة نظر في الحياة.

استدركت قِسمت: نسيت! تفضلي يا أمي، كل عام وأنتِ بخير ـ ناولتها قطعتيّ الجاتوه ـ النوع الذي تفضلينه؛ موس بصوص التوت والكريز.

أخذته فريدة بسعادة: أتى بوقته، لم أتناول سوى البرتقال منذ أسبوع ـ مضغتها مغمضة عينيها بتلذذ ـ كم اشتقت لطعمه! كان والدكما حريصًا على

إحضاره لي من "جروبّي"، أصبح ذاك الحانوت قطعة من ذكريات الماضي كما صارت العديد من الأشياء!

- تفتقدينه للآن، أليس كذلك؟

- لم أنسَه للحظة رغم اكتشافي أني لم أكن كافية لكي يتشبث بي ويبقىٰ علىٰ قيد الحياة! - استدركت - هل تحدثتما إلىٰ كامل برعي؟ هل سألتماه كم يريد للتنازل؟

قالت نوار بإحباط: يريد ثلاثة أرباع المبلغ.

وضعت قطعة جاتوه بفمها ساهمة: لا بأس، سأتحمل المزيد من الفيتامين سي لعدة أسابيع أخرىٰ!

- لماذا تمنعيننا من إخبار ياسر؟ ربما لديـ...

قاطعتها والدتها بحِدّة: إياكِ أن تخبريه يا أسما، المسكين لديه ما يكفيه، وبضعة أشهر بالسجن لن تقتلني، ثم أنكما تحاولان جمع المبلغ.

- أي مبلغٍ يا أمي! مرَّ شهران علىٰ حبسك ولم نجمع سوىٰ ثلاثة آلاف، نحتاج معجزةً.

- لا تقلقي يا أسما، ستفرج، لست قلقة طالما أنكما بخير، أنا أفضل من غيري، أعرف واحدة هنا لديها مجموع أحكام يصل لثلاثين عامًا ولمبلغ أقل، وذنبها أنها وقَّعت علىٰ أكثر من كمبيالة جزَّأت المبلغ، فرفع التاجر بكل واحدة قضية في إحدىٰ المحاكم - اتسعت أعينهم رعبًا، فدست يدها بجيب ثوبها مخرجة ورقتين من فئة المائة جنيه - خذيبا أسما، إنها نقود ادخرتها من عملىٰ هنا.

- لن آخذها. دعيها معك، ربما تحتاجينها.

- خذيها علني أشعر ببعض الارتياح لمساعدتكما، أحتفظ بثلاثين جنيهًا لاحتياجاتي، ولا أحتاج الكثير هنا، هيًا أرجوكِ.

تناولت الورقات لتضعها بحقيبتها علىٰ مضض. متأملة ملامح والدتها الرقيقة الغليظة الشبيهة بملامحها. تدرك أنها تعتصر نفسها اعتصارًا بالزيارة

لتبدو مطمئنة. حرام! امرأة كوالدتها رهينة القضبان لمبلغ تافه، وسواها نهش الملايين من جسد البلاد والعباد، يتنعم بالخارج على شواطئ الدول السابحة بغيمات الترف والنعيم. هذا حرام.. حرام!

* * *

"حرام يا منى" انتُزِعَت من أفكارها على صياح ليلى التي تبعتها منى حاملة إحدى الأصص: أسما يا حبيبتي، لقد أرسل نانو أصص زرع مع حارس منزلكما، وقد لاحظت لونها الذابل، ألا تحتاج إلى ريٍّ؟ حرام!

نهضت ممسكة بالأصيص الفخاري: "أرسلها إلى هنا!" أومأت منى: أجل يا مدام، أمرنا بوضعها فوق سور الشرفة بالأعلى.

أطرقت محدقة بالأصيص: حسنًا، ضعيها كما أمرك، ومن فضلك اِرويها، نسيت ريَّها أمس - استدركت بحزن - كادت الزروع تذبل لإهمالي!

ربتت ليلى على كتفها: لا بأس، كنتِ متعبة ومصابة، على الأقل لديكِ عذر للخطأ، مابالك بابنتي تتصرف بحماقة وبلا مبررات! - تابعت وهي تقودها نحو الأريكة - بالمناسبة، أتحتاجين لمسكِّن؟ هل يؤلمك الجرح؟!

جاوبتها بشرود: جرح رقبتي غير مؤلم، أما بقية الجروح فلا يمكنني احتمالها!

- ألا تحبين ولدي يا أسما؟

سقط السؤال على رأسها كجارور الثلج! عدنان نفسه لم يسألها إن كانت تحبه، كان يقر دومًا واقعًا لا مناص منه! بللت شفتيها الجافتين بكوب ماء: حسنًا هو سؤال غريب!

- إن كان غريبًا فلم تفكري فيه من قبل، وإن كان صعبًا يمكنني مساعدتك، أعرف الإجابة! وبكلا الحالتين عليك التفكير جيدًا فيها، يتوقف عليها الكثير - تنهدت - الرغبة بالهروب ليست حلًا للمشاكل، اسأليني أنا! من يهرب مرة، سيمضي عمره هاربًا.

ـ لا أريد الهرب، أريد الابتعاد فحسب عن عالم لن يكون يومًا عالمي. ألا تعلمين من أين أتىٰ بي؟! ماذا كنت أفعل؟!

ـ أود تنبيهك لأمر نسيتِه بغمرة جَلدك لذاتك، من يختار طريقًا ويسير فيه يختلف كثيرًا عمَّن أُجبِرَ علىٰ المضي، وتعلمين ما أعني.

زفرت بمرارة: ماذا عن البدايات الخاطئة؟

أجابتها بثقة: الكثير من الأشياء تبدأ بالخطأ، وقدرتنا علىٰ الإصلاح هي ما تميزنا. أنتِ الآن حامل، ماذا تنوين أن تفعلي حين تغادرين نانو؟ لا أظنك من النوع الذي يفكر بالتخلص من طفله، حنانك بشأن الزرع وحديثك مع لينا منذ قليل أخبرني ما بداخلك. أرىٰ طفلك القادم محظوظًا حقًا!

نظرت بلا وعي نحو بطنها تتلمسه، طفلي! منذ مدة طويلة لم يتحدث إليها شخص بأمومية؛ بوفاة نوار فقدت والدتها أيضًا! المرأة التي صارعت الإحباط طويلًا خلف جدران السجون العفنة، فألقت بها الضربة القاسمة أخيرًا أرض أرض، متغافلة بغمار حزنها أن ابنتها المتبقية وحيدة في عالم لا يرحم! التفتت محدقة بليلىٰ، تود الصراخ: (أفيقي، زوجك قاتل، عالمكِ ليس بالمثالي كما تظنينه)! لكنها جبنت، لم تجرؤ! ربما لا تعرف شيئًا عن زوجها، ربما هو كزعماء المافيا؛ ملاك وسط عائلته وشيطانًا خارجها! مازالت تملك بعض الرحمة حتىٰ وإن لم تستخدمها مع نفسها! كانت ليلىٰ تتابع فيلمًا عربيًا قديمًا؛ يركض بطلاه بين أشجار الحدائق في سعادة، علىٰ خلفية أغنية للمطربة نجاة.

لم أفهم يومًا ذلك المشهد العجيب! كنت أدعوه مرحلة (جري الجناين)؛ ينتهي عادة بسقوط البطلة والبطل في إغماءة عاطفية من السعادة، مكللا بقُبلة ملتهبة علىٰ أنغام العصافير، دون اهتمام بظروف المكان وعيون البشر من حولهما!

أطلقت ليلىٰ ضحكة متسلية: هو علامة مميزة لكل أفلامنا القديمة، من المشاهد التي تنقلك مباشرة لقلب مصر. كان البحث عن الوطن بالغربة

هاجسًا لدينا، وكلٌّ على طريقته؛ فكانت الأفلام العربية القديمة سلواي الوحيدة إلى جانب أفلام الكرتون بالطبع، كنت أتربصها بهوس غير طبيعي، خاصة وقد سهَّلت الأقمار الصناعية الأمر، فباتت آلتي الزمنية أعود بي متى شئت لأماكن وأزمنة افتقدتها في دوامة بحثنا عن لقمة العيش - ابتسمت قِسمت رغمًا عنها - لن تتخيلي ما كان يفعله بي مشهدٌ كهذا منذ كنت فتاة صغيرة تحلم بفارس الأحلام! أتعرفين؟ طالبت عمك خالد أثناء خطوبتنا اصطحابي لإحدى الحدائق، فقط لأركض وأجبره على اللحاق بي، الغريب أنه رضخ لرغبتي! - تنهدت بمرارة - أضعنا الكثير من الأشياء الجميلة برحلتنا الشاقة.

- وكأنكِ آتية من إحدى الروايات يا سيدة ليلى! عالمنا هذا لم يعد فيه مجال لمن هُم مثلك؛ يتأثرون بمشهد عاطفي ساذج!

- مثلي هم من يصنعون التوازن في عالمنا الصعب، كيف سيكون الحال إن تحولنا جميعًا لوحوش؟ لتقم القيامة إذن! فحينها سيكون الإنسان قد خسر قضيته وانتهى الأمر، الحب طاقة روحية كبيرة كوقود الصواريخ، تطلق صاحبها نحو الفضاء الرحب، فتتخفف الروح من أثقالها وتتذوق لذة الحياة الحقيقية، ولا أعني بهذا حب العشاق فقط، بل كل أنواع الحب.

القضية خاسرة، والنقاش مع عقلية كعقليتها بلا طائل، خاصة وأن لقب (عمك خالد) أصابها بالغثيان، فآثرت إيقاف السجال. أمسكت ليلى جهاز التحكم لترفع صوت التلفاز، ساد الصمت بعدها لبرهة حين تعالت رنة هاتفها؛ عدنان! قطبت، انقطع الخط! لم تتأخر كثيرًا في الرد! زفرت بضيق وضغطت زر الاتصال لتسمع رنين الهاتف لثانيتين ثم أتتها رسالة صوتية (الهاتف ربما يكون مغلقًا، عاود الاتصال بوقت لاحق).

* * *

نداء عمرو الملِح أجبر عدنان على نزع عينيه الملتصقتين بهاتفه الذي أغلقه لتوه، انتبه إليه مدركًا جبنه في اللحظة الأخيرة عن محادثتها، وطالعه

مضيقًا عينيه باهتمام: لا أدري لم تذكرت حين تعرضت لينا للحادث وكسرت ذراعها! أتظنها كانت حادثة مدبَّرة أم مجرد مصادفة؟

قلب عمرو عينيه: ما هذا الحمق يا عدنان؟! بالطبع مدبر.

سأله مشبكًا يديه فوق المكتب: لِم كل هذا اليقين؟!

هل نسيت ما قلته لك ليلتها عن كلام الحقير علام مسعود (انتبه يا دكتور، نحن غاية بالسرعة حين يتعلق الأمر بمصالحنا)، وفي اليوم التالي أتى حاملًا جريدة ألقاها أمامي، وكان العنوان الأبرز في الصفحة، سقوط شبكة آداب معظمها من فتيات الجامعات. يومها ابتسم بتهكم قائلًا (مساكين! دمرن مستقبلهن بحماقة لا تغتفر).

- لم تخبرني بهذا الأمر من قبل!

مطَّ عمرو شفتيه: لم أشعر حينها أنه مهم، لكن الثورة وما يحاولون فعله حاليًا عبر قنواتهم الخاصة من تشويه لسمعة الجميع، جعلني أدرك ما لم أدركه حينها!

لدي عملية سأنتهي منها ونعود معًا إلى المنزل. أخبرتني لولا بانضمامك إلينا على الغذاء.

التفت عمرو بحدة: "لينا من أخبرتك؟" هزَّ عدنان رأسه مبتسمًا: "بل ليلى؟" أطرق عمرو للحظة ثم رفع رأسه: لا أظن، الحالة متوترة بيني وبين.. بيني وبين قِسمت خاصة بعد عِلمها بشأن علياء.

بسط عدنان يده بحيرة: للآن لم أفهم سر إصرارك على إخفاء الأمر!

قال باستنكار: لم أردها أن تعلم أني شقيقها وقد شهدت على عقد زواجكما!

- لا يهم! كان هذا من الماضي.

حدق بصورة لينا الموضوعة على المكتب، لينا حنونة وستسامحه. قال: معك حق، سآتي لكن أخبرني أولًا - اقترب مضيقًا عينيه - ما سر الاسترخاء على وجهك؟!

لأنها لا تستطيع الهروب، اليوم أمضيت فترة العمليات بكامل لياقتي وبذهنٍ صافٍ لم تجرؤ معه ابنة علي الدين على التسلل لأعصابي وإثارتها.

- لم تخبرني للآن سر طلب علياء الطلاق، ولا أظنك ستفعل!

ازدرد عدنان ريقه ملوحًا يده: وما الأهمية؟ الأمر انتهى منذ زمن طويل، وكلانا مضى قدمًا.

همَّ بإخباره أنه مخطئ؛ علياء مازالت بمحطة انتظار قطاره الذي لن يجيء! فقط لو يخبره سر انفصالهما لارتاح وهجر التفكير في الأمر. قال: نسيت تهنئتك بحمل قِسمت ـ مطَّ عدنان شفتيه شاكرًا ـ أتعلم ما يريحني هذه الأيام رغم الأمن المزعزع؟ الثعابين دلفت للجحور! أنت لا تأتي الخالدين كثيرًا، لكن الأمور هادئة أكثر مما يمكنك التصور، لم يقوموا بأي عملية من عملياتهم القذرة منذ أسبوع، وهو رقم قياسي مقارنة بنشاطهم الماضي.

- أتظن أن هذه الثورة ستنجح في تحقيق مآربها؟

لا يمكنني الجزم! فما يحاولون خلعه يشبه ضرس العقل الضارب بجذوره في فكِّ البلاد، لن ينخلع سوى بجراحة دقيقة تستنزف الدم، لذا إن كنت سأراهن على إحدى الكفتين، فسأراهن على الأقوى رغم أمنياتي بأن أكون مخطئًا.

- معك حق. نعرفهم وأساليبهم الوحشية، حتى أنا عاجز عن ترجيح كفة بعينها! ـ استدرك ـ سأتصل للاطمئنان ـ أجابت بنبرة متوعدة فقال بمرح ـ إسمتي!

نهضت مبتعدة عن ليلى التي تكسر البندق بأريحية وهي تتابع الفيلم، قائلة من بين أسنانها: غيِّرها وإلا وضعت رأسك بدلًا من البندق بالكسارة.

أطلق ضحكة قصيرة مقلِّدًا عبد الفتاح القصري: إسمتي لا يمكن أغيرها أبدًا.

رفع عمرو حاجبيه دهشة: عن إذنك يا عبده ـ تابع هازئًا ـ أمنحك الفرصة لإخراج مكنوناتك الفنية.

أعاد عدنان رأسه للوراء مقهقهًا وسألها: ألا تحبين الأفلام العربية القديمة؟ ها أنا أمنحك فرصة متابعتها بالهاتف - استدرك بجدية - من واقع حديثك العذب أستطيع التكهُّن بكمٍّ المعلومات التي جمعتِها، على كم تحصلت حتى الآن يا سيما؟

قالت محدجة والدته: الكثير يا عزيزي، والدتك اعترفت من التقطيبة الأولى - أشارت ليلى نحوها بحبَّة بندق فهزت رأسها رفضًا وأردفت بغيظ - لماذا أرسلت الأصص؟ وكأنك تنوي احتجازي هنا!

- لئلا تشعري بالغربة؟ ستبقين حتى تنتهي فترة الاضطرابات بالبلاد.

قالت بحدة: اسمها الثورة، ولا أظنها ستنتهي عمَّا قريب.

قال بتسلية: إذن لا أظنك ستغادرين منزلنا عمَّا قريب!

طالبته من بين أسنانها: ثلاث حبات، لن أرضى بأقل من ثلاث حبات من مسبحتي تعويضًا عن خداعك أنت وعمرو بيه.

قال بعد فترة قصيرة من الصمت: كل حبة تأخذينها تباعد بيننا المسافات!

- أنت من خدعني.

- كلانا مخادع ومراوغ يا روحي!

أيظن أن ما توصلت إليه من حقائق اقتصر على زواجه المزعوم وعلاقة عمرو بعلياء؟! إما أنه أحمق كبير أو كاذب كبير، وكلا التوصيفين يليقان به! سارت نحو النافذة المطلة على الحديقة وبوابة الفيلا: "ثمة أمور لنتحدث بشأنها". قطب حين وقعت أنظاره على شاشة التلفاز: "لها علاقة بزواجنا؟"، زفرت محولة نظرها بأرجاء الحديقة في حيرة؛ أتخبره أنها اكتشفت حملها بطفله على الهاتف أم لا يصح قول ذلك عبر الأثير؟! ربما تكون فرصة سانحة للتخلص من العبء بلا مواجهة! فلتضربه بالصدمة الآن ليمتصها على مهل: عدنان أنا حـ..

لا يمكن! - سادت فترة من الصمت زادت من حيرتها - نحن على شاشة التلفاز! أديري قناة التليفزيون المصري وسترين بنفسك!

سارعت ممسكة بجهاز التحكم: "المعذرة يا سيدة لولا" أدارت القناة لتصدمها صورة لهما على الشاشة بإحدى البرامج الحوارية المناقشة لأحداث الثورة والمتحيزة لنظام الحكم. صُوِّرَ الفيديو بكاميرا شخصية محمولة؛ عدنان عن بُعدٍ جالس على الصخرة قُرب الخيمة يحتضنها! لم تكن مقاطع الفيديو لهما فقط بل للعديد غيرهما، وبزوايا التقطت خصيصًا لإيصال رسالة محددة! أسرعت نحو النافذة لتفتحها على مصراعيها دون مبالاة بجهاز التدفئة، وهتفت مصدومة: كيف فعلوا هذا؟ ولِمَ نحن بالذات؟!

ـ مصادفة، حظ سيء! يستخدموننا لتشويه سمعة الشباب.

ـ علينا أن نفعل شيئًا، لنتصل ونخبرهم بأننا زوجان وأنني كنت مصـ...

ـ دون عقد زواج موثَّق لا يمكننا التفوه ببنت شفه.

كانت جملته كلكمة على فكها. من سيلتفت لعقد زواج غير موثق أو يصدق ادعاء صاحبه!

تناست الأمر متعمدة، تتشدق بـ(لا يهم)، لتدرك الآن أنه يهم والكثير يتوقف عليه! حانت منها التفاتة صوب البوابة ليتلقي صف أسنانها لكمة جديدة اسقطت البقية: "مصيبة" قال عدنان بهدوء: "ليس لهذه الدرجة، حاولي تجاهل الأمر فنحن لسـ...، قاطعته: "كارثة! علياء ـ قاطعته بصوت جامد ـ علياء هنا!" سألها بدهشة: "بالميدان!" قالت بنفاذ صبر: افهم أيها الطبيب، علياء بالفيلا، رأيتها الآن تعبر البوابة! هل اقتنعتَ أخيرًا أن وجودي هنا أكبر حماقة اقترفتها بحياتك!

قال باقتضاب: أنا قادم.

* * *

تأملتها سائرة على الطريق المكسو بالحصى، كم تغيرت! لم تعد نفس الشابة التي عرفتها تفيض ملامحها رقة وعذوبة. كسا الوجوم قسماتها واختفت ابتسامتها إلا من ضحكة صغيرة ارتفعت لها زاوية فمها بلا حماسة حقيقية، حجابٌ فاجأتها بارتدائه! تحولها الواضح، حالة غريبة تعجز عن

ترجمتها، ليست علياء التي قابلتها يومًا، وكأنها شبح! ما الذي يمكنه كسر امرأة تمتلئ بالشباب والصحة.. الخيانة أم الحياة بلا أطفال؟! هزت رأسها بغير اقتناع، لا، هذه امرأة كسرها الحب! لماذا وهي تعشقه كما رأت بعينيها؟ يا إلهي! سرقها الوقت محاولة التوصل لحل اللغز! حدقت بإفريز النافذة، لتعبر! نعم، لتعبر منه إلى الحديقة قبل مجيئها! رفعت قدمها الأولى مختلسة النظر لليلى، لا وقت لديها للشرح! ماذا إن صرخت ظانة هروبها؟ رفعت ليلى يدها تعرض حبَّة فستق! مهلا هنا! لماذا تشغل نفسها والجميع لا يأبه؟! ذهبت إليها متناولة حبَّة الفستق بابتسامة ساخرة: "خَرِبَت وانتهى الأمر قطبت ليلى بحيرة: "خَرِبَت! ماذا تعنين يا أسما؟" أومأت برزانة: "انتظرى وسترين ـ جمعت بقبضتها بعض الفستق ـ لذيذ، مملح" شهقت ليلى حين دلفت امرأتان إلى الغرفة كانت إحداهما علياء! ابتسمت السيدة التي رافقتها بسعادة: هاي لولا، دعونا أنفسنا اليوم على الغداء.

فغرت ليلى فمها كالبلهاء، وحولت قِسمت أنظارها بين الوجوه ملقية بحبَّة فستق لفمها تمضغها بتلذذ. انتبهت ليلى أخيرًا لتستدرك بارتباك: هاي سونا ـ أسرعت تحتضنها مرحبة ـ لم أرك لأسبوعين.

لوحت حسناء: طوال الصباح حاولت إقناع لي لي ولم أيأس أمام رفضِها الحضور حتى وافقت.

قالت علياء: مفاجأة مدهشة! تستعينين بأسما لتقليم أظافرك!

نظرت ليلى لأصابعها: "أظافري!" وازدردت ريقها ملتفتة لقِسمت فافرغت الأخيرة ما براحتها من مكسرات بالطبق، مبتلعة بقايا الحبة وتشاغلت بتنظيف يديها، بينما هتفت حسناء: الاضطرابات والثورة في كل مكان وأنتِ تقلمين أظافرك! لن تتغيري أبدًا.

ابتسمت علياء: قِسمت ذو الفقار، اسم من الصعب نسيانه، التقينا عدة مرات حين استعنت بها، كيف حالكِ؟ حاولت الاتصال بك عدة مرات فلم أستطع الوصول إليك!

قالت حسناء: ما رأيك بإعطائي جلسة لتقليم أظافريبعد خروجي من معركتنا المطبخية يا قسمت؟

تبادلت ليلى وقسمت النظرات، وهمَّت الأخيرة بالحديث: "بالطبع، لا مشـ.."، فقاطعتها ليلى: لم أكن أعلم أنك عملتِ مقلمة أظافر!

ألقت الكرة بملعبها مطالبة إياها بركلها أينما شاءت! ازدردت ريقها وابتسمت: لقد توقفت في الحقيقة عن العمل منذ أكثر من عام.

قطبت علياء: تعملين مدلكة فقط؟

لوحت حسناء يدها بمرح: لا مشكلة أبدًا، نستطيع الاستفادة منك على أي حال ـ مسَّدت رقبتها بتقطيبة ـ فلا أكثر من عضلاتي المتشنجة.

رفعت ليلى رأسها بحزم حين توسلتها نظرات قِسمت: لا يا عزيزتي، أسما لم تأتِ هنا للعمل، أسما زوجة ابني.

شهقت حسناء ضاربة صدرها بجزع: زوجة ابنك يا ليلى!

همت قِسمت بالانسحاب فأمسكت ليلى بذراعها: أجل، أسما زوجة ابني.

زفرت علياء بدهشة: زوجة ابنك! من تعنين يا لولا؟

جعل الثلاثة يحدقونها بإشفاق والصمت الثقيل يحاصر الغرفة، فقالت ليلى: عدنان يا حبيبتي هو زوج قسمت.

ازدردت حسناء ريقها: يجدر بنا الذهاب يا لي لي.

ونهضت ممسكة بذراع ابنتها التي اتسعت ابتسامتها المتعجبة: لولا، توقفي عن المزاح الثقيل!

قالت قسمت: "سأذهب لغرفتي فأوقفتها مرة أخرى يد ليلى، بينما سارعت حسناء: "بل نحن من يجب أن نغادر" تلاشت الابتسامة من فوق شفتيّ علياء شيئًا فشيئًا حين تسللت لأذنيها كلمتها الأخيرة (غرفتي)! عدنان تزوج، ولم يتزوج بامرأة عادية؛ تزوج قسمت، قِسمت ذو الفقار، مقلِّمة

أظافرها! تبادلت وإياها نظرات متشككة ثم أطرقت محدقة لنقطة وهمية على الأرض، تجولت الخيالات برأسها كحُمم البراكين؛ قِسمت زوجته ويأخذها بين ذراعيه! قِسمت زوجته! عدنان تزوج قسمت، قِسمت وعدنان، قسمت.. قسمت! رفعت رأسها: "تهانئي، لم نكن نعلم" غمغمت ليلى: "الكثيرون لا يعلمون" قالت حسناء بلوم: "لسنا الكثيرين يا لولا، نحن أهل!" حوَّلت علياء أنظارها مطالعة وجه قِسمت بتساؤل. كيف استطاعت إخفاء خبثها خلف ملامحها الجميلة؟! كيف استطاعت خداعها وجذب انتباهه وهو من لا ينظر لامرأة مرتين مهما حدث. كيف ولماذا هي رغم كل مَن حولهِ مِن نساء؟! ما الذي يميزها عدا الابتسامة والعينين الملونتين والشعر ذي الخصلات المذهبة؟! أجمل منها ولم يهتم بهن! لماذا يا عدنان؟! لماذا مقلِّمة أظافري؟! أهي طريقتك في الانتقام! لكنك سامحت. إذن لماذا؟! شعرت بتضاؤل موجع حوَّلها في لحظة لذَرَّة غبار! ذرتها رياح قسمت! مسَّدت جبينها بأصابع ترتعش فسألتها حسناء بلهفة: حبيبتي، هل أنتِ بخير؟ هيَّا لنعـ...

ـ هو الإرهاق، مشيت لمسافة طويلة هذا الصباح ـ أردفت ببرود ـ فرصة رائعة لفتح شهيتي على الغذاء اليوم.

رفعت قِسمت حاجبيها تطالعها علياء بتحدي، فآثرت تجنب المشاكل واستأذنت للمغادرة. رمقتها حسناء شزرًا حتى غابت عن الأنظار، لتنهار علياء على المقعد العريض. كانت ترتعش كالمصاب بالحمى وقد امتلأت عيناها بالدموع معتصرة ذراعي المقعد: متــ.. متى حدث ذلك؟

قالت ليلى بلهفة: علياء يا حبيبتي كل شيء في هذه الدنيا قسمة ونصيب.

قاطعتها ضاربة ذراعي المقعد: "متى؟! أخبريني . زفرت ليلى باستسلام: "منذ عام يا حبيبتي وبضعة أشهر . أغمضت عينيها بألم؛ بعد طلاقهما بأشهر، أم أنها أسابيع؟! زفرت بمرارة: أنا من أتيت بها أمام عينيه! ـ نهضت ببطء ـ سأذهب لرؤية لينا.

كادت تصطدم بمنىٰ التي أتت تحمل صينية، فاستوقفتها ليلىٰ: انتظري لتتناولي عصير البرتقال، أعلم أنك تحبينه طازجٌ من حديقتنا ـ ناولتها منىٰ كوبًا وهمَّت بالانصراف ـ هل أعطيتِ واحدًا لأسما؟

ـ أجل، لكنها رفضته وأخبرتني أن معدتها لا تتحمله لغثيان الحمل.

سقط الكوب من علياء علىٰ الأرض بدويٍّ عنيف وانحسرت الدماء عن وجهها: "حامل!" أطرقت حسناء تعض علىٰ شفتها، وأمسكت ليلىٰ بيدها تعاونها علىٰ الجلوس فرفت عينيها بارتباك: "لا بأس! سأصعد لرؤية لينا" ابتعدت هاربة نحو درجات السلم تنشد الوحدة، وشرعت في الصعود تناديها نبرة ليلىٰ المشفقة، وصوت والدتها الحزين: "ترفض نسيان الماضي!" حانت منها التفاتة لوالدتها أوقفتها لوهلة ـ ثم عاودت صعودها العسير، يريدونها أن تنسىٰ الماضي، ذاك الذي سرق أحلىٰ سنوات العمر! كانت مع كل خطوة تخطوها تدوس فوق رغبتها للحياة؛ لقيت مصرعها هناك بالأسفل فور إطلاقهم رصاصة حملها بطفله! احتضنت نفسها بذراعيها ورأسها المنحنىٰ يحدق بالدرجات المختفية واحدة تلو الأخرىٰ خلفها كسنوات عمرها الضائعة، قِسمت حامل إذن! يالسخرية القدر! لم يكونا صالحين لبعضهما عاطفة وجسدًا! تتوقع الآن ردة فعل الجميع لإصرارها علىٰ البقاء، سيأسفون لحالها البائس وصدمتها. لكنها بحاجة لرؤيتهما معًا؛ سكناته، لفتاته، وهمساته بقربها، كيف ينظر إليها، كيف يبتسم، هل سيلمسها؟ سيكون متحفظًا بلمساته ومتعقلًا كما كان معها أم تحول لشخص آخر كما تحولت ملامحه؛ أدركت هذا من المناسبات النادرة التي جمعتهما، لم يكن تخليه عن نظارته وحلق شاربه التغيُّر الوحيد. الأمر أكبر بكثير، كمن لانت قسماته فأصبحت أكثر نعومة وأقل صرامة، والآن أيقنت أن الأمر تعدىٰ الملامح، لقد تبدلت الروح أيضًا، قربه منها غيَّره وبدَّل أحواله! عليها التأكُّد أن ما عايشته وهم حبست نفسها بين جدرانه طويلًا! هل يعلم عمرو بزواج عدنان؟! هل كان شريكًا فىٰ جريمة الإخفاء؟ لا يمكن أن يكون بهذه القسوة! سمعت صوت فيروز، فعلمت من فورها أنها غرفتها،

بل غرفتهما؛ غرفة عدنان الخاصة التي أقاما بها فيما مضى! إذن سكنت غرفته كما سكنت ذراعيه، تخيلتها متوسدة كتفه ليلًا يضمها بعد لحظاتهما الحميمية، هل يضمها أم ينهض مسرعًا دون أن يعبأ بالنظر وراءه؟! كلما تخيلتهما معًا بوضعٍ حميميٍّ تشعر بوخزة في عمودها الفقرى ويثور عقلها رافضًا الصورة الموجعة، اقتربت مختلسة النظر عبر فسحة الباب!

قد وهبته عمري ضاع عنده العمر.. حبنا الذي نثرو من شــ.

هزت قِسمت رأسها بأسى، موجعة أنت يا روزا! يالقسوة المفارقات! آه منك يا عدنان ومن عنادك! ها هي المسكينة تدفع الثمن، ويقولون إنها من طلب الطلاق! طالعت قِسمت شاشة التلفاز الذي فتحته على قناة إخبارية ترصد الميدان؛ مازالت أرجاؤه الرحبة مكتظة بالبشر رغم بكور الوقت، جذبها الشريط الإخباري الذي يمر أسفل الشاشة والذي أعلن لتوه عن عودة الإنترنت بعد انقطاع خمسة أيام، وتعليقًا للبورصة المصرية، وخبرًا آخر عن طلب النظام لتعديل الدستور والذي وصفه البعض بخدعة جديدة ومحاولة للاحتفاظ بالسُّلطة وإطالة الأمد، والكثير من الأخبار القصيرة عن استقالات أعضاء مجلس الشعب وامناء لجنة السياسات، اسم واحد فقط استوقفها، اسم أعلن استقالته من لجنة سياسات الحزب الحاكم ووضعت أمواله تحت الحراسة (راغب الساعي)! مستحيل! راغب قدم استقالته متنازلا عن مستقبله السياسي، هكذا ببساطة! بل وَوُضِعَت أموال عائلته تحت الحراسه ومُنِعَ من السفر هو ووالده! أسقطتهم الثورة! لم تنجح في الشعور بالشماتة رغم أن الرجل علّمها أقسى درس في حياتها، وبجملة واحدة كانت كافية لتغييرها للأبد! قرأت فيما مضى أن الإنسان يحب بصدق في عمره مرة واحدة، لكنها من القلائل الذين كسروا القاعدة! وكأن لقاءهما بالأمس القريب، عام مضى تبدلت فيه الكثير من ملامح حياتها، جمعتهما المصادفة كما جمعت علية القوم بالقاهرة والطبقة المخملية، وبأشهر فنادق القاهرة.

جلست ليلتها أمام مرآتها لإضافة اللمسات الأخيرة لزينتها، ملقية نظرة

أخرىٰ علىٰ ساعتها التي أعلنت الثامنة والنصف مساءً. أمسكت بالماسكارا تضعها فوق أهدابها بشفتين مزدردتين وروزا تشدو إلىٰ جانبها... بنبقىٰ سوا وصوتك بالليل يقللي وانا عم اسمع.. بحبك حتىٰ نجوم الـ... الماسكارا أصبحت كارثة، أضافت بضع قطرات من الماء للمرة الأخيرة علها تعطيها المزيد من البقايا! كانت نوار جالسة فوق فراشهما الصغير ممسكة بإحدىٰ الجرائد تتصفحها، متلاعبة بقلادتها الذهبية، محكمة طرفي الشال حول كتفيها: أشعر بالبرد! يبدو أني علىٰ وشك الإصابة بالانفلونزا، سيكون البرد في هذا الطقس الحار مزعجًا.

- لا تنسي شُرب الماء أرجوكِ، كليتك ضعيفة.

- والأخرىٰ سليمة! لا داعي للقلق، أستطيع العيش بربعها!

- لا قدَّر الله! سأعدّ لكِ الليمون الدافىء قبل ذهابي، وأعيد ملء زجاجة الماء.

رفعت درجة الصوت متمتمة مع الأغنية وهي تضع الماسكارا من جديد... ماتاري الكلام بيضلو كلام.. وكل شي بيخلص حتىٰ الأحلام والأيام.. بتمحي أيام... قالت نوار بريبة: لا تقولي إنك تستمعين للأغنية لوعةً!

أطرقت ترفّ عينيها فنهضت نوار ممسكة بالدعوة، تلمست قطعة الحرير الوردي المطوية بعناية داخل الصندوق الكرتوني المذهب. وأخرجتها لتقرأ المحتوىٰ المعتاد لصيغة دعوات الأفراح والمذيَّلة باسمي العروس والعريس؛ إسماعيل الحطاب، ومحمود الطيب. دعوة مكتوبة بماء الذهب فوق الحرير الهندي! زفاف إنجي الحطاب! انحنت نوار نحو شقيقتها محدقة بعينيها: لماذا تصرين علىٰ الذهاب؟

طالعتها قِسمت لبرهة ثم أشاحت وجهها بعيدًا محدقة لصورتها بالمرآة، صارعها كبرياؤها الذي همس لها بضرورة ذهابها كي تُرِي أصدقاءها أن الأمر لا يهم! لتتراجع في اللحظة الأخيرة لكن خطاب أرسلته إنجي مع

دعوة الزفاف بدَّل رأيها؛ تناشدها الحضور! أعادت نوار المظروف على الطاولة وجلست على طرف الفراش ممسدة ذراعها المقشعر: ذهابك مزيد من الملح فوق الجراح! يكفيه ما هو فيه.

التفتت قِسمت محدقة بالظلال الخضراء التي ملأت جفنيها. وأمالت رأسها مضيقة عينيها:

"ربما معكِ حق!" قامت بحلِّ ثلاثة من المشابك من شعرها وهمَّت بحلِّ المزيد حين رنَّ هاتفها النقال. طالعت اسم المتصل ذاهلة: "إنجي!" رددت نوار الاسم ببلاهة: "إنجي العروس!" ظلت لبرهة محدقة بالشاشة المضيئة لا تدري ما تفعله. دون أن تجرؤ نوار على التفوه ببنت شفه. أتاها صوتها المرتبك: أسما، أنا إنجي - زفرت بتهكم - ما أسخفني! بالطبع علمتِ اسم المتصل.

ساد صمت ثقيل. كانت جالسة أمام مرآة مذهبة فخمة في حجرة الفندق الشهير الذي سيقام فيه الاحتفال، مجيلة عينيها بأركان الغرفة الأنيقة تغالب دموعًا توشك على تخريب زينة عينيها، حثتها قسمت: إنجي! لماذا تتصلين ولم يبقَ على الزفاف سوى ساعتين؟!

أردت التأكد من مجيئك - حاولت الاعتذار فقاطعتها - لن أسمح بأن تساوره الشكوك، تعالي ليراك للمرة الأخيرة تملأ الضحكات شفتيك، ساعديني على إنقاذه.

أشفقت قِسمت عليها كثيرًا من عذاب الظنون، كيف ستمضي قدمًا في حياتها وشبح غيرها يحوم حولهما؟ طمأنتها: حسنًا يا إنجي، سآتي.

تنهدت إنجي بارتياح: ابتسمي قدر استطاعتك - أغلقت الهاتف بسعادة ونادت خبيرة التجميل - أريد لشفتيّ احمر قانٍ وملمِّع مضيء.

قالت نوار: اعتبريها اضطرابات ما قبل الزفاف.

ألقت الماسكارا بازدراء: أنا بحاجة لواحدة جديدة! - نادتها نوار محذرة فالتفتت نحوها بنفاذ صبر - سأذهب، إن أحجمت ستظنني أتعمد الغياب كي

أُبقيي خيطًا رفيعًا بيني وبينه. يتألم قليلًا لمرآي أفضل من هواجس تصحبه لبقية عمره.

اعترفت نوار أن شقيقتها تملك دفاعًا منطقيًا، وإن لم تكن، فهي عنيدة ولا شيء على هذه الأرض سيثنيها فأرخت كتفيها باستسلام: نصيحة! مثّلي دور اللامبالية بدقة وإلا أصبح ذهابك كارثة.

انفرجت شفتا قِسمت عن ابتسامة واسعة نحتت وجنتيها بالغمازتين: ما رأيك؟ أليست كافية لإقناع أي كان بأني أسعد فتاة على وجه الأرض؟ ـ عاودت النظر بالمرآة ممسكة بطلاء شفاة وردي ـ رفضتُ إنجي ذهابي إليها بالفندق، وقد أعلنت المدام التعبئة العامة للمركز وبأفضل الخبرات، ابنة الحطاب!

عاودت نوار النظر إلى الجريدة وهتفت بغتة: ألطم أم أضحك؟ يسدون في وجه الآباء الثكالى باب الرحمة ـ رفعت الجريدة ـ فتوى تقول إن من ماتوا بحوادث الغرق أثناء الهجرة غير الشرعية ليسوا من الشهداء، بل منتحرين ألقوا بأنفسهم إلى التهكلة ـ ألقت الجريدة بعصبية ـ من يظنون أنفسهم؟ وهل يحملون صكوك الجنة ومفاتيح النار؟!

قالت تحل مشابك شعرها: إهدئي يا نوار، لا يهم ما يقولونه، وحده الله يعلم ما دفع بهؤلاء لجحيم الأمواج، لن تؤثر كلماتهم برحمته الواسعة. لا يهم!

حدجتها نوار بدهشة: تتحدثين بيقين إيماني عميق. ترى من منهما أنت يا أسما؟! أمسكت قِسمت بالثوب المعلّق على الحائط والمغلّف بكيس بلاستيكي متجاهلة السؤال. مقاسها ثابت منذ ثلاثة أعوام، ذوق فريدة مذهلًا دومًا! رفعت الكيس البلاستيكي عن الثوب الأخضر القاتم من الساتان الذي يضوي مع حركة القماش. الحفل الذي حضروه بصحبة والدها كان سببًا لإصرار فريدة على صنع الثوب، كانت لتصنع واحدًا لنوار لولا رفضها الذهاب، لم يجذبها يومًا المجتمع المخملي، لذا حين دعيت لزفاف ابنة

رئيس الجامعة رفضت. رفعت الثوب بزهوٍ: العمة صفية عبقرية في الخياطة، أرادتني ماما في أبهىٰ حلة رغم مستوانا المادي الزاحف كحيوان الكسلان، إلىٰ جانب صواريخ المجتمع الذي أتتنا منه الدعوة - زفرت بمرارة - أذهب لحفل زفاف ووالدتي محكوم عليها بالسجن لِستّ سنوات!

- الحياة تسير رغم أنوفنا والحزن لن يفك أسرها، نحن محظوظتان أن برعي لم يصر سوىٰ علىٰ كمبيالتين.

ارتدت الثوب والجوارب الكريستالية التي استنزفت ثلاثين جنيهًا قررت تعويضهم ببقشيش الأيام القادمة، وحذاء ذهبي ذا كعب عالٍ. رغم تصميم الثوب البسيط الذي غطىٰ صدرها لأسفل رقبتها إلا أن تنورته القصيرة الواسعة ذات الثنيات هي من حملت السحر كله، فأرجحتها حول ساقيها أكسبتها براءة طفولية مشاكسة جاذبة للأنظار. دارت حول نفسها علىٰ أطراف أصابعها أمام المرآة التي لا تظهر سوىٰ نصفها الأعلىٰ: لا بأس بي.

رفعت نوار حاجبيها: لا بأس بك؟ لن يكون عليك القلق بشأن صواريخ الحفل، وقود محركاتهن مليء بشوائب العمليات التجميلية، أما وقودك يا حلوة pure!

اتسعت ابتسامتها لتفتح الجارور الوحيد بالطاولة وتأخذ صندوقًا صغيرًا أخرجت منه دبوسًا ذهبيًا مرصعًا بثلاث نجمات بارزة، فرقت بأصابعها خصلاتها المموجة ووضعت الدبوس عند مفرق شعرها الأيمن.

- تبدين كنساء الثلاثينات بتسريحة الشعر والدبوس!

لفت قِسمت مسبحة الكهرمان حول رسغها: الفضل لجدتي، دبوسها النحاسي والمسبحة، انظري كم هي رائعة مع الثوب!

حين رنَّ هاتفها وضعت وشاحًا من الحرير الأسود حول كتفيها قائلة: اشربي الليمون الدافئ وابقي أسفل الأغطية ريثما أعود، ولا تنسي شُرب الماء.

ودعتها متجهة نحو الدرج فنادتها نوار مازحة: "ادعي لجدتنا قِسمت

هانم تعالت ضحكتها: "سأفعل" ظلت نوار واقفة أمام سور السطح محتضنة الشال لتتأكد من ركوب شقيقتها السيارة؛ كانتا تتقمصان دور الأم نحو بعضهما البعض، عالمهما الذي يتقلص شيئًا فشيئًا من حولهما، منحهما هذا الاختيار الإجباري، كيف كان ليصبح إن لم تكن إحداهما موجودة للأخرىٰ!

ركبت قِسمت بالمقعد الخلفي فهتفت صديقتها بلومٍ: لم نرك منذ شهر يا نذلة!

ـ مشاغل الحياة يا يارا.

* * *

حاول حازم ترك السيارة الـ28 قُرب الفندق لولا اعتراض حراس الأمن بدعوىٰ أنه ممنوع، واضطر في النهاية لركنها بعيدًا في الشارع الخلف. سألت يارا خطيبها بضجر: ألا نستطيع وضع السيارة في جراج الفندق بدلًا من السير مسافة طويلة؟

ـ ألا تعلمين يا حياتي سعر الساعة في الجراج؟ إن ظللنا في الحفل حتىٰ منتصف الليل سندفع أكثر من مائة جنيه.

فندق من أغلىٰ وأفخم الفنادق المدرجة بقائمة السبعة نجوم، له إطلالة ساحرة علىٰ النيل لا يفصل بينهما سوىٰ مسافة قصيرة لسور منخفض رصت فوقه بضعة أشجار نخيل تمايلت سعفاتها مع نسماته. منظر خاطف للأنفاس وقد اصطفت علىٰ الجانب الآخر للشاطئ مراكب نيلية ومطاعم عائمة انعكست أضواؤها علىٰ صفحته بروعة، تكلله أشرعة القوارب النيلية عائمة فوق صفحته الملونة بأضواء المراكب الصغيرة. الغريب أن حجرتيهما تطلان علىٰ المشهد نفسه، عدا أنه هنا مختلف! وكأن النيل يحمل ألف وجه وألف لون، بل ألف حالة وألف طعم، بسحرٍ لا ينضب، ومازال يلقي بسهامه ككيوبيد نحو الأرواح المتطلعة للوحاته المهيبة! أوقفهم الأمن وطلب أحد الرجال ضخام الجثة إلقاء نظرة علىٰ بطاقات الدعوة، فأخرج حازم البطاقة،

أوقفها حارس الأمن: "آنستي، العدد في البطاقة لاثنين فقط، أين بطاقتك؟" همَّت بفتح حقيبتها الذهبية فسقط وشاحها الأسود عن كتفيها، تجاهلته حتىٰ تخرج البطاقة، مانحة الحارس إحدىٰ ابتساماتها المضيئة فاومأ لها بأدب: "المعذرة، تعلمين الأوامر التفتت نحو الوشاح الملقىٰ، همَّ الحارس بالانحناء لمساعدتها، ففوجئت به مرفوع أمام عينيها تمسك به أصابع غليظة، ورائحة عطر نفَّاذ تملأ أنفها! ألقىٰ الحارس نظرة خلفها وسرعان ما تلاشت ابتسامته معيدًا قناع الجمود مشيحًا بوجهه. تعرف هذا العطر، (diadora)؛ عطر إيطالي باهظ الثمن لدرجة انبعاث الدخان من علبته! التفتت ببطء نحو صاحب الأصابع الغليظة بابتسامة واسعة قررت منحها بكرم حاتميّ، فتلاقت عيناهما؛ رجل أنيق فىٰ بداية الثلاثينات، يرتدي حلة سهرة فاخرة، بشرته برونزية وشعره حريريّ يلتوّىٰ حول ياقة قميصه ناصع البياض، أنفه روماني بانحناءة طفيفة، وعيناه رماديتان كسماء متجهمة يعلوهما حاجبان كثيفان متصلان بعبسة، نفث دخان سيجار قصيرًا بدا أنه يحترق منذ فترة، من بين شفتين غليظتين مرسومتين بدقة. جعل الدخان رؤية وجهه ضبابية لثوانٍ وسرعان ما اتضحت! ضبطت عينيه تحدقان بعنقها وأسنانه البيضاء تعض شفته السفلىٰ بابتسامة متسلية! توقفت عن التنفس، وشيئًا فشيئًا تلاشت ابتسامتها الواثقة كدخانه. رفعت كفها نحو عنقها مخفية إياه عن عينيه بعفوية، متمتمة بخفوت مختنق: "شكرًا" جذب أنظاره المسباح حول رسغها لوهلة مقطبًا، فوقعت سمَّاعتها الصغيرة لتتأرجح أسفل كتفها جاذبة أنظاره، كانت عيناه كالخيام تضرب أوتادها بكل موضع تقع عليه! أمسك بطرف السماعة بيده الأخرىٰ التي تحمل السيجار، ليلامس طرف خنصره كتفها دن قصد، رفعها أمام عينيها وقد ارتفعت زاوية فمه: كان من دواعي سرورىٰ.. الكبير!

جذبت الوشاح من بين أصابعه، تواتيها رغبة ملحة للركض، وقد هزم ابتسامتها! أشاحت بوجهها مهرولة نحو أصدقائها ليسيروا نحو الدرج المفضي لقاعة الاحتفال. لكزتها يارا: "مَن هذا؟" رفت عينيها كمن أفاق من غيبوبة: "لا أدري!" انسل الوشاح ثانية ليسقط علىٰ الدرج فانحنت تهم

بالتقاطه ممسكة بطرفه لتفاجأ به إلى جانبها وابتسامة أخرى تداعب شفتيه، ازدردت ريقها بارتباك: "المعذرة" عاود التحديق بعنقها لبرهة ثم صعدت عينيه ببطء نحو شفتيها، عاودت رفع كفها المرتعش نحو عنقها تحميه من طلقاته فاختل توازنها وأوشكت على الوقوع، سارع ممسكًا بجانبي ذراعيها هامسًا بتسلية: هل أنتِ معتادة على إسقاط أشيائك؟ ـ فغرت فمها ببلاهة ـ إذن سيتعين عليّ البقاء قربك لالتقاطها!

نهضت مسرعة ودفعت يارا التي تابعت المشهد الدائر بتسلية كبيرة. صعدتا الدرج ركضًا كالمطاردتين لتحين منها التفاتة، ورغمًا عنها وجدت نفسها تبحث عنه، كان ذو الأصابع الغليظة واقفًا على درجة السلم الثالثة يومئ بمكر، وكأنه يطمئنها. لا تقلقي، مازلت هنا ومازلت أراكِ!

* * *

(٧)

كانت قاعة اللؤلؤة تُشبِه محارة كبيرة، طُلِيَت جدرانها بوميضٍ فضي، يتدلىٰ من سقفها الشاهق نحو خمس ثريات مهولة الضخامة، تضوىٰ كريستالاتها بفخامة مذهلة، ديكور مميز وستائر حريرية ملتفَّة حول الأعمدة الرخامية وبشرائط فضيَّة. الكثير من الضباط الذين أُثقِلَت أكتافهم النسور والنجوم اللامعة، والعديد من الحُرَّاس الشخصيين وحُرَّاس الأمن أيضًا.
زفر حازم بسخرية: والد إنجي من أكثر الناس حِرصًا علىٰ توسيع دائرة علاقاته، لا تندهشا إن رأيتما عددًا من الوزراء بالحفل - أشار بيده نحو بقعة جانبية في القاعة - انظرا إلىٰ تلك المقصورة، أراهن أنها خُصِّصَت ليكونوا بعيدين عن صخب العامة.

قالت يارا بتهكم: يملأني شعورٌ قويٌّ بأننا هنا بطريق الخطأ! ولولا ما يدور أسفل الطاولة ما حلمنا بالحضور! مذهل كم النقود التي يحرقونها في الهواء؛ الألعاب النارية التي لم تتوقف منذ مجيئنا، والأضواء المنتشرة حول الفندق ومكدسة داخله، كلها تحترق ووقودها النقود! ناهيكما عن القاعة

وخلافه ـ تلمست شرشف الطاولة ـ انظري يا أسما! من الحرير الطبيعي، يشبه دعوة الزفاف ـ تنهدت بحسرة ـ زفاف أسطوري!

ربتت قِسمت فوق يدها مبتسمة: لحظة حب بجانب حازم بالكون كله، أراهن أن إنجي تحسدكِ.

ـ غمازتاكِ رائعتان، لكن رفقًا بعضلات وجهك!

زفرت: لن أتوقف عن الابتسام؛ هو عملى الذي كلفتنى به انجى.

انبعثت موسيقى هادئة بالأجواء، ولم تكن الطاولات قد ازدحمت بعد بالمدعوين. ما تزال القاعة هادئة بلا صخب. اكتشفت قِسمت أن الرجل ذا الأصابع الغليظة يجلس غير بعيد، في طاولة خاصة بالقرب من طاولات المقصورة، واضعًا ساقًا فوق الأخرىٰ ونفس الابتسامة تزين شفتيه مع فارق بسيط؛ أُرفِقت بالابتسامة غمزة! قطبت مشيحة، لماذا يعجزها عن الابتسام كما اعتادت؟! أشارت يارا ناحيته: عاد الرجل الغامض!

نظر حازم مقطبًا: ينظر لطاولتنا بكل وقاحة!

رفعت يارا حاجبيها بدهشة: لم يفعل الرجل شيئًا.

لوح يده بضجر: توقفي عن الدفاع عنه، أعرف شاكلته، يظن أنه قادر علىٰ امتلاك هواء أنفاسنا إن شاء!

تناولت قِسمت بشرود ملعقة من الكراميل الذي أحضره النادل بناء علىٰ طلبها. مازال يسلط نظراته عليها بلا رحمة، لايسمح لها بلحظة سلام، حتىٰ أحاديثه المتبادلة مع سكان المقصورة لم تجذبه بعيدًا كفاية لتتنفس الصعداء! هجمات عينيه نذيرتا المطر تربكاها! لطالما وزعت بقايا ابتسامتها علىٰ من حولها، أو تمنحها كاملة لمن تختار، لكن ليس معه، لم تجرؤ! شل ابتساماتها مميتًا بقاياها فوق شفتيها!

كانت العاشرة والنصف حين امتلأت القاعة بصخب هادئ غير مزعج يعي حدوده جيدًا، ثرثرة المدعوين خافتة، ورؤوس الرجال والنساء المتقاربة بأحاديث جانبية احتفظت بالخصوصية. خفت الأضواء بغتة عدا بقعة ضوء

سُلِّطَت على أحد البابين الجانبيين، وتبدلت الموسيقى، تعلقت الأعين بالشاشات لينفتح الباب ويظهر أحمد، واضعًا يديه مضمومتي القبضة إلى جانبيه، محدقًا أمامه بوجوم، حلته سوداء رائعة تناسبت وجسده النحيل وكأنها صُنِعَت خصيصًا لأجله! انفتح الباب على الناحية الأخرى وظهرت العروس، مرتدية ثوبًا أبيض على طراز العصور الوسطى، بتنورة واسعة تداخلت بها طبقات الساتان اللؤلؤى بحبات من الكريستال. لم يكن الثوب وحده مذهلًا؛ صاحبته أيضًا! بدت إنجي بصورة ملائكية رائعة، شعرها مُصفَف بتسريحة تناسبت وطراز الثوب! كانت مطرقة تخفي وجهها غلالة من التُل، خطى أحمد أولى خطواته نحوها عبر طريق طويل من الساتان شابه تطريز ثوبها في مشهد رائع! تعمدت أن تسحره والجميع، مؤكدة أنها ستكون له الحُلم الذي لم يتحقق والأمل الحقيقي بلا أوهام! لم يبقَ سوى عينيه؛ هل ستمنحانها نظرة مثالية كما صنعت كل شيء من حوله بمثالية؟! لم تجرؤ على رفع عينيها إليه خشية الخذلان! سارت عدة خطوات نحوه كما اتفق عليه في البروفات، تنساب نغمات الأغنية الشهيرة لسارة كونور...

انظر لعينيَّ.. أيفضحان الألم القابع داخلي.. أيظهران رغبتي بالهروب والاختباء من عينيك.. أرى قلبك المحطم.. وابتسامتك الضائعة.. لا يهم ما فعلته.. لا يهم ما يقولونه.. فأنا مجنونة بك...

لماذا أحبته؟! لا يملك وسامة مدمرة أو شخصية طاغية، لانفوذ ولا مركز، لكن! أليس الحب أكبر مراوغ في الكون؟ اللاجواب! جرؤت أخيرًا على رفع عينيها لتلتقي عينيه، بدا وسيما كما تخيلته في الحلة التي اختارتها، متعمدة حصاره باهتمامها. الاضطراب وعدم اليقين اللذين باتا يلوحان بعينيه الآن أنبآها بقطعها شوطًا كبيرًا؛ يعاني حيرة مشاعره، لم يعد واثقًا من عاطفته القديمة! كان دومًا أمامها كالكتاب المفتوح، تشعر بحزنه قبل أن تعي قِسمت به، قِسمت! رنَّ الاسم برأسها كجرس الإنذار. هل أوفت

بوعدها؟! التفتت يمينًا ويسارًا ببطء باحثة عنها، وزفرت بارتياح حين رأتها وتلك الابتسامة المشجعة، أومأت ممتنة وعاودت النظر لأحمد. لم يجرؤ على إبعاد عينيه عن عروسه لئلا تخذله لحظة ضعف ويركض هاربًا، ركبتاه غير قادرتين على حمله! المسؤولية الملقاة على عاتقه مفزعة؛ القدرة على إسعاد إنجي لهو أمرٌ جلل ليس بالهين! يجب أن يكون نِدًّا لقوة حبها، لتوقعاتها، وإلا خسر الفرصة الأخيرة للسعادة، وللحياة! أراد بشدة البحث عنها بين جموع المتواجدين ليرى قسمات وجهها المتنافرة الحبيبة، لكنه أبى أن يجرح عروسه، فمن حقها امتلاكه. كانت رقيقة وطاهرة كالملاك داخل هالتها الفضية الحالمة، شفتاها ترتعشان تجاهدان لرسم ابتسامة سعيدة. ابتسم لها بحنان مشجعًا، ومع كل خطوة نحوها كانت ابتسامتها تزداد اتساعًا وثقة تصحبها سارة كونور...

رفع الخمار عن وجهها لتتعلق بعينيه كطفلة متوثبة، بانتظار رأي والدها في ثوبها الجديد! سألته بلهفة: "أنا جميلة يا أحمد؟" ابتسم بحنان: "بل فاتنة" الغريب أنه لم يكذب، شعرَ نفسه صادقًا أمينًا لأنها كانت كذلك! اغرورقت عيناها بغتة بالدموع رغم اتساع ابتسامتها، وزادت ارتعاشة شفتيها، رفع إبهامه نحو عينيها اللتين أوشكتا إطلاق سراح إحدى الدمعات ليلتقطها، هامسًا بأذنها: "لا تبكي لئلا تفسدي زينتك" قبَّل ظاهر يدها فانطلقت صفارات الإعجاب وأصوات التصفيق الحماسية من كل مكان، حتى الطاولة التي احتوت قِسمت وأصدقاءها؛ أطلقت قِسمت ضحكة عالية تتابع يارا تصفر كالرجال: "ستفسدين طلاء شفاهك!" لوحت يارا بلامبالاة معاودة الصفير والتصفيق بحماسٍ. انتهز أحمد الفرصة مختلسًا نظرة نحوها، مازال القلب اللعين ينبض لمرآها! أبعد عينيك عنها يا أحمد واستسلم للأمر، أمرَ نفسه بقسوة فكانت ابتسامتها وكالعادة أول ما سرق انتباهه، ملقية بسهمٍ جديدٍ نحو صدره، تبتسم بسعادة وثقة وكأن الأمر لا يعنيها! تميل نحو صَديقتها لتتهامسا فتنفجر ضاحكة، كمن أتت لزفاف رجل لم تكن يومًا منتهى أمله! أومأت له بسعادة متمتمة دون أن تفارق الابتسامة

وجهها: "مبروك يا أحمد". تابعت إنجي المشهد الدائر بنظرة جانبية متصنعة الانشغال بتلقي التهانيء، وحين ارتفع جانب فمه بمرارة اقتربت هامسة بأذنه لتعاود الابتسامة إشراقها فوق شفتيه. إذن مرت الخطوة الثانية بنجاح؛ علمت قِسمت من الابتسامة الممتنة على وجه إنجي حين رمقتها من بعيد، وأحمد يلوح لأحد معارفه بالطاولة اليتيمة لعائلته على الناحية الأخرى. جميل! يمكنها أخيرًا الاستمتاع والاسترخاء لبعض الوقت.

تبدلت الموسيقى بأخرى أكثر صخبًا لينهض الجميع مشاركين العروسين في الرقص. وقع نظرها على السيدة هيام صاحبة مركز التجميل تلوح لها، نهضت من مقعدها رافعة رأسها تتبختر في مشيتها كأي سيدة من المجتمع الراقي، متعمدة ألا تلقي بالًا للرجل الذي يتابعها باهتمام رغم وقوفه بجانب أحد الوزراء منهمكًا بالحديث! وصلت إلى طاولة السيدة هيام لتمد يدها مصافحة: "هاي مدام، مفاجأة رائعة" أمالت هيام رأسها بمكر: "أنا المفاجأة أم أنتِ يا أسما؟! ماشاء الله، جمالك مذهل" هزت رأسها ضاحكة. أتى أحد النُدُل يحمل دعوة: "المعذرة يا هانم، سيشارككم الطاولة الدكتور عدنان الجبالي وحرمه" اقتربت علياء مصافحة هيام بلطف، تتألق بثوب أزرق حريري موشى بخيوط فضية، تأملتها قِسمت بإعجاب، مازالت تنتقي الأرق والأرقى. جذبتها ثانية عيناه كالمغناطيس رغمًا عنها؛ رجل يحارب وهو جالس بمقعده! عاد إلى طاولته يرفع كأس العصير البرتقالي في تحية غامزًا لها للمرة الثانية. أنتِ أيضًا حمقاء؛ تبحثين عنه كل دقيقتين فلا تلومي إلا نفسك!

لا يمكن، قِسمت ذو الفقار! ـ هزت علياء رأسها بتعجب ـ بالكاد تعرفت إليك!

لوحت: يفعل الماكياج الأعاجيب!

رفعت حاجبيها: ياله من تواضع! أنت فاتنة يا عزيزتي، القالب غالب.

أطلقت قِسمت ضحكة صغيرة مختلسة النظر نحو زوجها الذي جلس على المقعد المجاور: "شكرًا لذوقك" رفع عدنان رأسه لثانيتين، قابلت

عيناه عينيها وعاود التحديق بهاتفه. يفعلها ثانية ويتجاهلها وكأنها هواء! كيف لم تلفت انتباهه هذه المرة! أرخت كتفيها بإحباط، سؤال هيام الذي حمل نبرة تحذير انتشلها من أفكارها: إذن تعرفين رقم أسما! السيدة علياء تعرف رقم هاتفك؟! عرضته عليها بعد أن تفاجأت لكونك خبيرة ماساج أيضًا! تريد تجربة إحدىٰ الجلسات الخاصة بمنزلها.

ـ بالطبع تعرف الرقم؛ طلبته مني رغم أنني أخبرتها أنكِ لا تفضلين أن يكون الاتصال مباشرًا بيننا وبين العملاء ـ التفتت نحو علياء ـ أليس كذلك مدام علياء؟

أدركت الأخيرة إمارات القلق والتوسُّل الخفية بعينيْ قِسمت وشعرت نحوها بالشفقة، فابتسمت واضعة ساقًا فوق الأخرىٰ: في الحقيقية أنا من أصرَّ، أردت تخطي عاملات الهاتف خاصة وأن المركز ماشاء الله يعج بالعملاء ليل نهار، والازدحام يضايقني، أعتذر إن كان الأمر أزعجكِ.

ـ لا داعي للاعتذار أرجوك! سأكون سعيدة جدًا إن أرضاكِ عمل أسما.

ابتسمت قِسمت بسخرية، الحلقة الأضعف كما أخبرتها! همت بالذهاب بعد استئذانها فأوقفها سؤال: ألم تفكري بالعمل في مجال عرض الأزياء؟

التفتت نحو مصدر الصوت؛ سيدة أنيقة جالسة إلىٰ جوار هيام، لم تستطع تحديد عمرها بسهولة مع العمليات التجميلية الـمُتقَنة، مفضِّلة الشد عن التعبئة كما هو متداول. امرأة ذكية؛ عمليات التعبئة تكشف الحقيقة بسهولة أكثر من الشد، وتترك علىٰ البشرة بعد رحيلها آثار الحرب! ملابسها من أحدث التصميمات ويبدو أن سعرها الباهظ لا يشكِّل لها أدنىٰ مشكلة. أمالت المرأة رأسها مضيقة عينيها تتأملها، ساحبة من سيجارتها الرفيعة نفسًا طويلًا: جسدك الممشوق وملامحك المميزة مؤهلات رائعة لهذه الوظيفة.

قطبت هيام فاستشعرت قِسمت عدم ارتياحها؛ لا تريد أن تفقد عاملة نشيطة كحرصها علىٰ ألا تفقد عميلة هامة. قالت: لم أفكر في الأمر من قبل.

ـ إذن أنصحك بالتفكير، هذه المهنة مربحة مع الكثير من المميزات؛ شهرة، عمل بالسينما والفيديو كليب.

قالت هيام بضيق: أسما لا تفضل ذلك النوع من الأعمال، لديها ميول أخرى.

فتحت المرأة حقيبتها مخرجة بطاقة صغيرة: أوقن أنها ستفكر الآن ـ ناولتها البطاقة ـ بانتظارك!

رفعت قِسمت كتفيها فتناهى لسمعها صوت رخيم لم تجرؤ أذناها على تفاديه: "مساء الخير فيما هتفت ماهي بدهشة: أنتَ أيضًا هنا الليلة!

أطلق ضحكة قصيرة: الحزب كله هنا ـ التفت نحوها ـ مرحبًا مرة أخرى.

ـ هل التقيتما من قبل؟

أومأ بتسلية: منذ دقائق عنـ... ـ استأذنت قِسمت مغادرة بارتباك فانحنى ملتقطًا سلسلة فضية علقت بثوبها ـ بإذنكما لدي حديث هام مع سيادة الوزير.

قالت هيام بضيق: ابتعدي عنها يا ماهينار، ليس من السهل إدراجها بقائمة العارضات.

أعادت ماهي رأسها للوراء ضاحكة: ومن قال إني سأضمها للعارضات؟! عمرها أكبر من المطلوب، واستدارتها لا تناسب العمل!

ـ لهذا طلبتُ منكِ أن تتركيها لحالها.

رفعت ماهي حاجبيها: وكأني سألتهمها!

سألتها بتهكُّم: أولستِ كذلك؟!

ـ الكل يأتي بكامل إرادته، بل ويتوسل، وكله بالشرع والقانون.

قالت هيام ساخرة: أحقًا تصدقين ادعاءك؟

ـ الشرع اختلف عليه الأئمة، ومجال الاجتهاد مفتوح.

ـ إلا الحرام والحلال، واضحان كالشمس!

لا تتحدثي إلى كالوُعَّاظ يا هيام، أنتِ أيضا تمتصين دم عاملاتك! كلتانا يطوع الكون لصالحه.

تأملت علياء العروس التي تعرفت إليها بالنادي الذي حرص والدها

وعمها على الحصول على عضويته فور عودتهم، رغم المبلغ الخيالي والتبرعات الضخمة، محاولين الدس بهم إلى المجتمع بأسرع وقت لئلا يشعروا بالغربة. امتلأ الزفاف بالوصيفات والصديقات، أما زفافها كان هادئًا، رزينًا، خلا من المرح الذي يملأ الأجواء، واقتصر مدعووه على الأطباء وذوي السلطة!

جالت أنظار عدنان بين وجوه الرجال الذين تسمرت أعينهم عليها؛ فتاة الخمسين جنيهًا، بصحبة ابتسامتها الزائفة! تلقي لهم ببقاياها التي تصنعها أحاديثها الجانبية مع أصدقائها.. أغبياء!

سارت مبتعدة نحو الرواق ومنه استقلت المصعد للأسفل، دلفت إلى غرفة الاستراحة النسائية؛ جناح فاخر بمرايا عريضة مذهبة، وسجاد سميك مع مجموعة من الأرائك الوثيرة والمقاعد، وصوت موسيقى ناعمة يتسلل من فتحات السماعات. كانت هناك سيدتان غادرت إحداهما فور ما انتهت من إصلاح زينتها، وبقيت الأخرى ترضع طفلتها. أسرعت بالدخول لإحدى دورات المياة لتتأكد من عدم وجود السلسة بطيات ثوبها، وحين خرجت معدلة إياه انفتح الباب بغتة وأطلت منه امراة متشحة بالسواد: "عثرتُ عليها يا سامح بيه". وفتحت الباب على مصراعيه ليظهر رجل غريب الهيئة، فشهقت قِسمت باستنكار مغطية صدر السيدة بوشاحها الأسود: ما قلة الذوق هذه!

حدجتها التي كانت ترضع طفلتها بنظرة بائسة صامتة. كان الرجل يرتدي حلة سهرة فضية وربطة عنق رصعت بالكريستال، تجاهلها موجها حديثه للأخرى: ألا تكتفي ابنتك النهمة من الرضاعة؟ الوقت حان لفقرتك!

عشرة دقائق فقط، المسكينة تبكي بلا توقف وأم عبده تعجز عن إسكاتها.

قال بضيق: لا شأن لي ـ فتح الباب قليلًا لتدلف المتشحة بالسواد تهم بنزع الطفلة من بين ذراعيها، زافرًا بنفاذ صبر ـ هيًا يا أم عبده، لا طاقة لي على غنج شمس.

هتفت قسمت: كيف تسمح لنفسك بالدخول بلا استئذان؟

التفت الرجل وكأنه يراها للمرة الأولى: المعذرة يا هانم لم أنتبه لوجودك.

كان يرمقها بنظرة تقيمية لولا رأسها الذي رفعته بعجرفة ونظرة الازدراء على محياها التي أخرست شكوكه: بإمكاني مناداة الأمن ليطردوك.

اتسعت فتحتا أنفه بغضبٍ محدجًا شمس بوعيد: أنتِ السبب، نعتذر يا هانم على الإزعاج، سنغادر حالًا

قالت ببرود: ستغادر وحدك، لأن مدام شمس ستبقى حتى تنتهي طفلتها من الرضاعة.

ـ مدام شمس! إنها الراقصة يا هانم، وليتها نجمة الحفل، هي راقصة من الدرجة الثانية؛ هدية من صديق العروسين.

قالت بعجرفة: أنا صديقة مقربة لإنجي هانم، وإن علمت بما قمت به من هجوم علينا، ستكون العواقب وخيمة.

حوَّل أنظاره بينهما بتردد ثم أرخى كتفيه: المعذرة مرة أخرى يا هانم، سأكون بانتظارك يا شمس، أسرعي من فضلك.

غادر الرجل فالتفتت إليها شمس: أشكرك، المسكينة تبكي بلا إنقطاع لأن أسنانها تنبت، أشاروا عليَّ بإعطائها مواد مهدئة لتنام فخشيت أعراضها الجانبية ـ حدجتها قِسمت بدهشة ـ معي ليسانس آداب لكنها الظروف!

ـ خذي كل الوقت الذي تحتاجينه.

* *

خرجت من الاستراحه رامقة سامح بازدراء. مطالبة أحد النُدُل بفتح باب الشرفة. دلفت متأملة صفحة النيل الناعمة، ونسمات من هواء الليل البارد محمَّلة برائحة الفل تداعب شعرها، الحمد لله، من يرى مصائب الناس تهون مصائبه! تنفست بعمق، مالئة رئتيها بالهواء جاذبة سور الشرفة الحديدي بغضبٍ، فقدت سلسلة المسبحة؛ مسبحة عمرها مائة عام احتفظت بكيانها

كل هذا الوقت، وتأتي بإهمالها في ثوانٍ تضيع منها جزءًا لا يُقدَّر بثمن!

أنتِ لوحة مرسومة! ـ جفلت مدركة وجوده قبل أن يرتد طرفها ـ أفزعتكِ؟!

كان الرجل ذو العينين نذيرتي المطر، يتكئ على سور الشرفة بمرفقه وابتسامة ماكرة تتلاعب بشفتيه. رهبة المفاجأة لمرآه كانت كرصاصة بدء الماراثون، فانطلقت نبضاتها في سباق جنوني! قالت ببرود زائف: لا

ـ كاذبة، رأيتك تجفلين.

سألته بضيق وقد تصاعد النبض الجنوني ضاربًا رأسها بلا رحمة: ماذا تريد؟

ـ أريدك أن تبتسمي، أصبو لابتسامة تضيئها الغمازتان لي وحدي!

زفرت بدهشة: "أنت غريب!" هزَّ رأسه مسلطًا عينيه كسيفٍ فوق وريدها: "لا، أنا راغب" سألته بحيرة: "راغب بماذا؟" أعاد رأسه للوراء مقهقهًا، محطمًا سكون الأجواء بصوته الرخيم، وقد تحولت عيناه لخطين أسودين، قالت بنفاذ صبر: "هل قلتُ نكتة؟ توقف سينهار المبنى فوق رؤوسنا!" صمت لبرهة محدقًا بوجهها الحانق ليعود وينفجر ثانية بالضحك، من المفترض أن تترك هذا المعتوه وتغادر المكان، لكنها تسمرت بانتظار تحدجه ببلاهة! قال بعينين أدمعهما الضحك: "آه يا إلهي! اعذريني لم أستطع التوقف، راغب بماذا!" سألته بغيظ: "وما المضحك؟" تنفس بعمق: لأني لا أجرؤ الآن على قول ما أنا راغب به، وإلا دفعت بي عبر سور الشرفة! لنؤجل رغباتي قليلًا ـ همَّت بالصياح مستنكرة ـ بجانب أنَّ راغب فِعلٌ أود القيام به، هو اسمي يا ذات الغمازاتين، اسمي راغب الساعي.

فغرت فمها شاعرة بمدى سخافتها، غبية ومعتوهة، يقول إنه راغب، فتسأله بماذا؟! رفعت رأسها بعجرفة: "لم أنتبه" واستدارت توشك على المغادرة لولا إصبعاه اللذان أمسكا طرفي المسبحة: "انتظري وإلا انقطعت" قالها محذرًا فازدردت ريقها محدجة إصبعيه يحبسان كرتي

الفضة المسكينتين، أوشكت على قول (لا يهم)، لكن خوفها على المسبحة كان أقوى من خوفها منه! ضمت شفتيها بتذمر فانتقلت نظراته إليهما يعض على شفته بتسلية.

ـ توقَف وإلا قَطَعتَها!

ـ بالضبط، ولكي أتوقف عليكِ التوقُف. من العدل أن أعرف اسمك، وقد أخبرتك باسمي.

قالت ببرود: "لم أسألك". رفع كتفه باستخفاف: قلته على أي حال، وأود سماع اسمك تنطقه شفتاك المذهلتان.

قالت بضيق: أنت وقح ـ مط شفتيه بلامبالاة ـ وتتركني أذهب؟

ـ لنرَ إلام ستفضي بنا خطوة البداية يا...

حوَّلت أنظارها بينه وبين المسبحة؛ ماذا إن جذبتها؟! سينفرط العقد وتتراكض الحبات! أطرقت لثانيتين ثم غمغمت بضيق: قِسمت ذو الفقار.

أومأ برزانة، يحل ربطة عنقه: حسنًا يا أسوم، اقتربي قليلًا، فلدي حديث هام أود قوله لك.

ـ لا تدللني وأنا لا أعرفك!

ـ بل تعرفينني، أنا راغب الساعي، وإن بقيتِ معي لبعض الوقت، ربما أخبرك بما أنا راغب فيه، وبقوة!

اجتذبها التماع سلسلة فضية رفيعة حول عنقه الأسمر: أنت مخيف.. جدًا!

قال بضجر: كل ما هنالك أني صريحٌ جدًا.

ومرة أخرى جذبتها السلسلة أسفل ياقة قميصه، بتباينها الصارخ مع لون بشرته القاتم. أفلت طرفي المسبحة فالتفتت محدقة بطرفيها المتأرجحين بتوجس، لتفاجأ به يلف أصابعه الغليظة حولها: مسبحة جميلة! ـ همت بجذب رسغها المأسور فحدجا بتحذير ـ لماذا ليس سوارًا ذهبيًا أو حلى مما اعتدن ارتداءه للتباهي؟!

سألته ساخرة مقاومة قبضته: وهل أنت خبير بالنساء وبما اعتدن؟

ـ هوايتي، أحب النساء، كثيرًا! أحب معرفة كل شيء عنهن لأعرف متىٰ وكيف أقترب ـ تابع بنبرة لا ترد ـ لا أريد أن تترك أصابعي علامات برسغكِ، توقفي.

هدأت مقاومتها رغمًا عنها ليرتفع حاجباها دهشة: ألم أقل إنك مخيف؟!

ـ لست مؤذيًا ولا أضمر الشر، علىٰ العكس، أنا باحث عن السعادة، وسعادتي بقربكن يا بنات حواء ـ وجدت نفسها تنفجر ضاحكة رغمًا عنها فانفرجت شفتاه عن ابتسامة ـ تعجبينني يا أسوم، بك شيي مميز ومختلف عن نساء القاعة.

أطرقت بخجل وابتسمت ابتسامة ضيقة تحدق في مسبحتها: فقدتُ إحدىٰ سلاسلها الفَضية الليلة.

ـ هل تهمك كثيرًا؟

ـ جدًا، هي غرضٌ غال.

ـ لماذا هبطتِ إلىٰ الأسفل وبإمكانك استخدام الشرفة بالأعلىٰ؟

كانت علىٰ وشك الكذب لكنها عدلت: تشعرني المرتفعات بعدم الأمان.

ـ رائع، أعشق العُقَد!

سألته بتوجس: هل أنت مجنون؟

ـ مخيف.. وقح.. أم مجنون؟

رفعت أصابعها: الثلاثة، فالمجنون مخيف ووقح في معظم الأحيان!

اقترب قائلًا: حسنًا، أعترف، أكاد أجن لأحصل علىٰ قُبلة ـ نفخ هواءً دافئًا من بين شفتيه محملًا برائحة السيجار ـ أنتِ كارثة.

فغرت فمها بذهول محدقة في ملامحه الشيطانية الوسيمة المختفية خلف ذقن خفيفة، وعينيه اللتين أصبحتا أكثر قتامة تحت ظلام الشرفة، لتصيح ملوحة كمن أفاق من صدمة: ما هذا؟ أنت حقًا!

أجلى حلقة: آآ.. هل أنت قريبة للعروس؟ - رفعت رأسها بكبرياء وهمت بالذهاب، فسارع بإيقافها - عيناك بلون التفاح الذي ينمو بحديقة منزلي، وأنا أعشق التفاح - جالت عيناه فوق كتفيها قائلًا بنبرة كسولة - ناعمة مثله - أكملت عيناه تجوالهما من رأسها لأخمص قدميها - لديكِ استدارته، والأهم.. لذيذة.. جدًا!

لمعة باهتة بسلسلة عنقه الرفيعة استدرجت أنظارها ثانية، ما الذي يحدث؟! تحدق بعنقه مثلما كان يفعل! سألته بحدة: هل أخبرك أحدٌ أنك وقح لدرجة رهيبة؟

- الكثيرات، وأجمعن على أن وقاحتي ألذ صفاتي!

أمرته ببرودٍ: دعني أمر.

- لا أستطيع رؤية تفاحة ندية أمامي ولا أمدّ يدي لأقطفها، لألمسها - رفع يده نحو وجهها دون أن يجرؤ على لمسها، محركًا كفه كمن يتلمس هالة من الضوء - لا مسافات بيننا، وبهذا القرب تشعلين جنوني، لا أدري ما دهاني مذ رأيتك! - أمسكت سور الشرفة معتصرة إياه، فهبطت أصابعه مداعبة المسباح - لسنوات عانيت اختفاء الشغف بحياتي، نساء كثيرات.. نعم، جميلات.. أكيد، لكن بلا شغف - ابتسم - بغمازتين وعينين بلون الغواية وحشرة محنطة بحبة كهرمان، أعدتِ لي شغفي المفقود!

اكتشفت ولدهشتها انتظام نبضها الذي رقص قبل قليل رقصة إفريقية، قارعًا طبول قبائل الدينكا، سألته: وهل لعيني لون الغواية؟ والأحمر هو المقصود.

هزَّ راسه ببطء: وكيف تكون الغواية في الصراحة، في الوضوح؟ الأحمر ساذج مباشر! ولا أظن أن الثمرة التي تسببت في غواية آدم وإتعاس البشرية ليوم القيامة بتلك السذاجة. أراهن أنها كانت مراوغة تمامًا كلونِ عينيك؛ مزجت العسل بخضرة الأرض فحيرته وأثارت فضوله لسبر الحقيقة وتذوق الغموض، الغواية يا أسوم.. هي سحر الغموض!

هاجمها الدوار فاكتشفت حبسها لأنفاسها، من المفترض أن ترفع كفها لتصفعه على وقاحته، لكنها عاجزة عن الحراك كالمشلولة! أبدًا لم تقابل رجلًا مثله في حياتها؛ رجل من نار، يبدد الهواجس ويخفيها بعيدًا فلا يبقى سوى إدراكه والوعي به، يجبرها على الشعور والاستمتاع بالخوف، هل حدث يومًا واستمتعت بخوفها؟! حسنًا، لكل شيء مرة أولى! يجتاحها الضعف وهي من صمدت طويلًا أمام العواصف كالشجرة العتيقة: توقف عن الحصار الذي تمارسه عليَّ منذ أتيت، ماذا تريد منِّي؟

صمت لبرهة محدقًا بعينيها، فشعرت بضغط رئتيها كمن يغوص بالمحيط، ثم قال: أريد كل شيء، وبالطريقة التي تريدينها!

أشاحت برأسها محدقة في صفحة النيل ومركب صغير يخطو بدلالٍ مع أغنية من راديو عتيق يشدو بصوت سومه: اتركني لحالي أرجوك، دعني أذهب!

قال بصوت أجش: لدي ما يخصك! ـ رمقته بعينين متسائلتين فرفع أمامها السلسلة الصغيرة ـ كما أخبرتك سيتعين عليَّ البقاء قربك لالتقط أشياءك المبعثرة!

شهقت بسعادة: "عثرتَ عليها!" عاود الإمساك برسغها فهمت بجذبه مجفلة لولا نظرة تحذيرية جديدة من عينيه، حملت مزيدًا من السُّحُب المظلمة. حرك خرزاتها للخارج بحركات آلية بطيئة حتى انتزعها من يدها، وشرع يثبت السلسلة قرب شقيقتها بتأنٍّ حتى أعادها كما كانت ثم أعادها لرسغها. حركت أناملها بسعادة فوق الخرزات فانتهز الفرصة ليقترب: من أنتِ يا قِسمت؟ هانم أم صعلوكة أم جنية انشقت عنها الأرض، تبعثر أشياءها كالفخاخ للإيقاع بي؟

وكانت (صعلوكة) ضغطة الزر فوق جهاز إنذارها؛ كلمة حقيقية لدرجة الصدمة، لقد نسيت نفسها بعالم وردي في صفحة الرواية! فأعادت كلمته العبقرية توازُنها: ألا ترى أنك مبالغ؟

أجابها برزانة: هكذا أنا، لا يوقفني شيء عن إعلان مشاعري، ولا يهمني المنطق حين أسمع نداءً لقلبي، وصدقيني، مرَّ زمنٌ طويلٌ لم أسمع فيه نداءً حقيقيًا!

ـ دعني أمرّ من فضلك.

سألها وقد بات الشغف الذي يحكي عنه يغلف كلماته: وتتركيني ضائعًا بعد عثوري عليكِ؟!

ـ لا تكن سخيفًا، لسنا برواية عاطفية صفراء الأوراق!

قال بإصرار: أنا صادق بكل كلمة ـ هددته بالصراخ ـ اصرخي، ولن أوقفك ـ همس برقة ـ لكني أحذِّركِ من إضاعة فرصة كبيرة من السعادة، أوقن أنك تبحثين عنها مثلي.

زمَّت شفتيها بحزم، أيمكنها حقًّا الصراخ مفتعلة فضيحة؟ تناهى لسمعهما موسيقى آتية من الأعلى؛ سارة كونور من جديد...

ربما فرصة العشق كقطارٍ سريعٍ.. علينا اللحاق به قبل فوات الأوان.. آمل بالعثور على شمس وراء الغيوم...

انتظر بتمهُّل، تردُّدها في تنفيذ تهديداتها أنبأه أنها مسألة وقت! لا يدري ما الذي يحدث له؟! لطالما كان محاربًا فيما يتعلق بالنساء، لكن تلك الفتاة! حين تلاقت عيناهما أنعشت فيه روحًا ظنه أضاعها للأبد في خضم صراعاته، وركضه خلف البعيد. الغريب أنه لم يجرؤ للآن على لمسِها! ربما هي براءتها التي تلوح حينًا بعينيها، لكنه لم يكن يومًا محترفًا للصبر هل رقصتِ من قبل أسفل ضوء ليلة نيليلة مقمرة؟

قالت بصوت مبحوح: لم أرقص من قبل!

طالعها لوهلة بحيرة: أبدًا؟! إذن لنجرب معًا، سيعجبك الأمر.

تصارع بداخلها في تلك اللحظة أمران؛ أن تطلق ساقيها للريح هاربة من هذا الوهم كبحرٍ مظلمٍ غريق، وآخر يغريها بإلقاء نفسها بالعمق مختبرة انتعاشة عاطفة لم تعِ وجودَها قبلًا! يالها من لحظة حين تنقسم الروح مشتتة

بين هذا وذاك، بين الخطأ والصواب، الواقع والخيال، المنطق والجنون. لكنها تسمرت، ورغمًا عنها لجزء من الثانية استسلمت حين التفت ذراعاه حول خصرها، همَّت برفع يدها لتستريح فوق كتفه من عناء النزاع، ليعلق طرف مسبحتها بدبوس كمه، معطلًا يدها عن رحلة الصعود! انتبهت لنفسها وما تفعله فتجمدت وهمت بالاعتراض، عدا أن صوت اقتراب خطوات منعها! التفت الاثنان في آنٍ واحد، فشهقت بذهول، فيما طالعه راغب بلامبالاة. وقف متسمرًا مطالعًا وجهها الذي انحسرت عنه الدماء؛ الجبالي، زوج علياء! ولبؤسها فعل كما يفعل كل مرة، حدج وجهها لثانية مرت كالدهر متمتمًا: "المعذرة" واستدار عائدًا من حيث أتى كالاشباح. انتظرته ليلتفت، ليمنحها الفرصة للتفسير بأن ما رآه مجرد خطأ، لحظة غباء! واتتها رغبة قوية بالركض خلفه، أرادت الدفاع عن كرامتها وكبريائها! سينتشر الخبر كالنار في الهشيم؛ مقلمات الأظافر وخبيرات المساج سمعتهن كأجنحة الفراش، تتفتت بهمسة وشاية! اِلتفت نحوي بالله عليك، لا توليني ظهرك هذه المرة. لكنه لم يفعل؛ هو رجل لا ينظر للوراء، أو ينظر مرتين! التفتت نحو راغب منتحبة: "انظر ماذا فعلت!" جذبت يدها منه ولدهشتها انحلت المسبحة عن الدبوس، وسارعت مغادرة الشرفة يناديها صوته النافذ الصبر. وطفقت تركض فوق الدرجات بكل سرعتها.

أمسكت بها يد أجفلتها، التفتت للوراء، لتفاجأ بعدنان! يطالعها بشوقٍ: كيف حال جرحك؟ ـ قطبت بحيرة محدجة وجهه وعينيه المبتسمتين مشوَّشَة الوعي. وضع كفه فوق وجنتها ـ يبدو عليكِ الشرود، ألم تسمعي نداءاتي؟!

ليعاودها الإدراك للمكان والزمان: مرَّ وقتٌ طويل منذ رحلت في الصباح ـ أردفت شاعرة بحالة غريبة من الضياع ـ ما مرَّ يبدو كأيام وليس بضع ساعات!

ـ أهذا اشتياق يا إسمتي؟

مطَّت شفتيها: لا، فقط الكثير قد حدث أيها الطبيب.

كنتِ أكثر لطفًا عبر الهاتف! لماذا عليَّ الاختفاء لتكوني رقيقة في الحديث؟!

أطرقت بصمتٍ ثم رفعت رأسها: ألا يكفيك الكوارث التي حدثت منذ مجيئي؟!

رفع حاجبيه: توقعت مشادة وصراخ!

- عاجزة عن الشجار، ربما إن أبكرت لاختلف الأمر!

- مررت على غرفة المعيشة قبل صعودي وألقيت التحية، فتلقيت من حسناء نظرة شديدة اللوم ومن أمي تعبيرًا بائسًا.

جلست على طرف الفراش: صدمت المسكينة وأصرت على البقاء للغداء! لماذا أخفيت؟

- أنتِ من افترض كوني متزوجًا ومن اشترطه للاستمرار معي!

اقترب محدقًا بجرحها: يبدو أن الجرح يلتئم بشكل جيد، هل يؤلمك؟

- قليلًا - استدركت بتوسل - يجب أن نرحل من هنا، لا يمكننا المبيت، تعي جيدًا ما يمكن أن يحـ...

قاطعها مخرجًا من جيبه ثلاث كرات فضية: "لا تقلقي قطبت ببلاهة محدقة في الكرات: "تمزح! أين حبات الكهرب؟" رفع كتفيه باستخفاف: لم نحدد بالاتفاق نوعية الحبات، اقبلي أو ارفضي - ضمت شفتيها سخطًا فرفع رأسه بعجرفة - لا أريد قُبلة.

- أنت مخادع أيها الطبيب - نهضت بعصبية ووضعت الكرات بالإبريق الكريستالي ملتفتة - لماذا تطلقتما ومتى؟

- قبل شهر من لقائنا بالحفل، وهي من طلبَ الطلاق، كانت تعيسة!

- لا أصدقك! كيف تكون تعيسة بقربك وبعيدًا عنك؟ ثمة سر في الأمر!

نهض قائلًا بحدة: لم يكن لنا قسمة معاً، ما الغريب في هذا؟!

قالت بجذل: إذن هي الخيانة، عذبتها بخياناتك حتى ضاقت ذرعًا وطلبت الطلاق.

أمسك ذراعها قائلًا من بين أسنانه: تبحثين باستماتة عن شيءٍ يشوهني بعينيك، لتكرهيني! وتعلمين أنك تذوبين حُبًّا بي لكنه كبرياؤك اللعين يفسد كل شيء ـ أطلق ضحكة متشفية ـ عليك البحث عن مبررٍ آخر لكرهي، فلم أكن يومًا خائنًا لعلياء. ونصيحة، استسلمي لكوننا عالقين معًا حتىٰ النهاية.

أزاح الستائر الثقيلة بعنفٍ فغمر ضوء الشمس أرجاء الغرفة، وأسرع ممسكًا وجهها بين يديه يقبِّلها بغيظٍ ونفاذ صبر، توقع دفعه بعيدًا لكنها فاجأته باستسلامها ولهفتها التي مهرت دومًا بإخفائها، شاعرًا بأناملها تندس بشعره متلمسة طريقها عبر دروب خصلاته. ابتعد هاتفًا: لم ينقلب العالم من حولنا لأني عانقتك في ضوء النهار مطالعًا عينيك ـ ألقىٰ نظرة علىٰ الباب ـ ماذا أفعل بك؟ تنسينني قواعد الذوق والاحترام! أعانقك دون الاهتمام بالباب المفتوح، أفقدتِني اتزاني ورزانتي يا قسمة روحي!

(قسمة روحي)! المرة الأولىٰ التي ينطقها، يعلم أنه نداء والدها الشهير لوالدتها. ارتمت بين ذراعيه تتكئ برأسها فوق صدره، فقال بنبرة تفيض حنانًا: أدعو الله أحيانًا أن تكوني أنانية فتفكري بنفسك فقط وتستميتي بالاحتفاظ بي دون النظر لسوانا، حين طلبت منك بالأمس التصرف كعشيقة لم أعنِ بطريقة حميمية ـ زفر بتهكم ـ ولن أشكو إن فعلتِ! لكني قصدت أن تكوني محاربة للاحتفاظ بما وُلِدَ بيننا.

سالت دمعتان من مقلتيها لتقعا علىٰ طرف ياقته، ورفعت رأسها طابعة قُبلة فوق عنقه اختلجت لها قسماته: سيما، أنا أحـ...

سارعت هامسة بصوت مختنق: أعرف الحقيقة أيها الطبيب، أعرف أنك ابن صاحب المشفىٰ الذي قتل نوار.

تصلبت عضلات جسده كتمثالٍ خشبي، محدقًا بالإبريق الذي التمعت حباته، صانعة مهرجانًا من الألوان الكهرمانية علىٰ الحائط، كانت الحبات أكثر منه حياة في رهبة اللحظة، حدق بالحبات التي حملت كل منها ابتسامة واتفاقًا أبقاها بقربه، وباتت الحبات تطالعه ساخرة وتسأله: ماذا ستفعل؟

لكن مهلًا، هل رأت والده من قبل؟! ولماذا تظنه قاتلًا؟! تفاجأت قِسمت بوجه علياء يطل من فسحة الباب؛ تقف مطالعة كليهما وبحيرتين من الدموع تغرقان عينيها! تصنعت عدم رؤيتها فأطرقت مبتعدة لتختفي كما ظهرت. قلبها لم يعد يحتمل ليثقله حزن جديد على سواها، لم تؤذِ أحدًا في حياتها أو تسعى لإتعاس مخلوق، والآن، وبعد رؤيتها للمرة الثانية، يجتاحها شعور قوي أنها غدرت بها! أطبقت عينيها بقوة، عليها أن تلقي ما بجعبتها للمرة الأخيرة وتنتهي من الأمر، لقد اكتفت! همست ببرود: أنا حامل أيها الطبيب! حامل منك، ولن أترك ثأري كما فعل والدي.

وكأن طفلتها مُصِرَّة على الإعلان عن نفسها، انتابتها نوبة قوية من الغثيان، ركضت صوب الحمَّام مفرغة ما بمعدتها، وعيناه تحدقان بها شاخصتي البصر! تمسك بالكونصول الخشبي بكل قوته وصداع يفتك برأسه. لمحته بوجهها الممتقع لشدة النوبة، يرتمي فوق مقعد النافذة ملقيًا بيديه فوق ذراعيه، متحوِّلًا لتمثالٍ من الشمع الذاهل، فقط صدره الذي يعلو ويهبط أنبأها أنه لا يزال حيًّا! ضاق صدرها بما تحمله من أسرار، وباتت في أمسِّ الحاجة لمن يحمل عنها.. وإن شكت منه إليه! اهكذا يكون الانفصال عن الحياة؟ كأنه بين بين، عدا جملتين تربطانه بالواقع؛ (والدك قاتل شقيقتي.. أنا حامل)! كلما حاول الابتسام سعادة بالجملة الأخيرة انقبض صدره وماتت الابتسامة على شفتيه. تحتضنه وتقبِّله وتلقي بصواعقها على التوالي فوق رأسه، المرة الأولى التي تلقي بنفسها بين ذراعيه في وضح النهار! موجات من التنميل تسري ببطءٍ عبر أوردته، حتى دمائه أثقلها الفزع وأصيبت بالشلل اللحظي، كأن أعوامًا هاجمت عمره محوِّلة إياه لكهلٍ بلحظات! جاهد النطق ممسِّدًا جبهته التي نزف عرقها بيدٍ مرتعشة: نحن وحدنا فلا داعي لتلك السخافة بشأن الحمل!

تسارعت أنفاسها والغثيان يزداد وطأة: أنا حامل فـ.... ـ عاودت التقيؤ، يوشك رأسها على الانفجار ـ فعلًا.

هي إذن لا تراوغ! قِسمت حامل بطفله! عليه التحرك لمساعدتها. نظر لقدميه بتردد، وتمسَّك بذراعي المقعد بكلتا قبضتيه لينهض بتثاقل، ويخطو مترنحًا نحو الحمَّام جاثيًا قُربها: "هل أنتِ بخير؟" صوته مخيف؛ لم تعد نبراته حنونة كما عهدتها! التفتت ببطء: "جرح رقبتي، يقـ... يقتلني ألمًا" عبثًا حاولت ثانية التقيؤ فأسرع ممسكًا برأسها: "هل انتهيتِ؟" أومأت بضعف وقد تحول وجهها للون أصفر ملأه فزعًا: "هي نوبة الغثيان الأقوى التي أتعرض لها منذ علمت بالأمر غسل فمها ووجهها وقادها للفراش، وهاتفهم طالبًا كوبًا من عصير البرتقال بعسل النحل، ثم ارتمى فوق أكثر المقاعد بُعدًا عنها. كان الصمت مهيبًا، لم تجرؤ على كسره رغم الكلمات التي تتوسلها لتطلق سراحها. مسَّد وجهه براحتيه وقد بدا عليه الإرهاق الشديد. أوشكت على النهوض مئات المرات لتذهب إليه وترجوه الحديث، كانت قسوة إعلامه بالأمرين معًا، وهي لم ترَ منه شرًا يومًا، منذ متى تقسو على أحبائها؟ وهل أدخلتِه يا أسما في زمرة من تحبين؟ وهل تحتاج للسؤال؟ مارست عليه كل ألوان الحب؛ أحبته كشقيقها الغائب، كصديق وفي، كوالدها بلحظات حنانه واحتوائه. ما الذي تبقى من الحب لم تمارسه عليه؟ حب الحبيب؛ أجمل لحظاتهما حين تتخلى لبعض الوقت عن نزق الطباع! لولا معرفته جيدًا لأقسمت أنه ممثل بارع.

ـ لماذا أخفيت صلتك بالمستشفى؟

جفل كالمستيقظ من ثبات عميق، ورفع رأسه: متى علمتِ بأمر الحمل؟

ازدردت ريقها: منذ خمسة أيام، شككت في البداية حتى قمت باختبار منزلي، وظللت غير مقتنعة حتى بدأ الغثيان ـ أوما بصمت مثيرًا جنونها ـ علمت بصعوبة حدوث حمل بينك وبين علياء، وكنت تعطيني الفرص كل ليلة بنفسك، وتتخذ احتياطاتك أيضا.. لكن ـ تسلل الضعف لصوتها ـ هو منك، صدقني.

نهض بغتة يضم قبضتيه: لولا أني لم أمس امرأة بسوء قط، لأخرستك بصفعة ـ كتمت أنفاسها محدقة بوجهه الغاضب في ذهول ـ حمدًا لله أني

أدرك مدى حماقتك، جملتك الحقيرة لا تهينك وحدك بل تهينني أيضًا. تشككين بنسب طفلي! كيف تجرؤين؟! ـ امتقع وجهها وعاودها ألم رقبتها فرفعت يدها نحو الجرح متأوهة ـ لا أملك حاليًا مسكّنًا يناسب حالتك، ولن أعطيكِ النوع السابق خوفًا على الطفل ـ قطع جملته مستدركًا ـ الطفل! كنت تتعاطين أقراصًا دوائية خلال الأربع والعشرين ساعة ـ أمسك ذراعها بقسوة ـ كيف لم تنتبهي؟ ألم تخشي على صحة طفلنا؟!

لا، لم أخشَ لأني أرفضه، لا أريد ثمرة لعلاقة معوقة! كنتَ صريحًا للغاية، كيف تنتظر منّي غريزة الحماية لمخلوق رفضته من البداية. والآن بات رفضي أقوى من رفضك!

- تصريحات حمقاء بظروف مغايرة، كيف طاوعتك نفسكِ على إيذاء طفلتنا؟!

هو أيضًا يقول طفلتنا! ما بال تلك المخلوقة تعلن عن وجودها مرارًا وبقوة! دفعت أفكارها العاطفية بعيدًا قائلة بسخط: حتى وإن مرت عليّ لحظة تمنيت فيها الحصول على طفلة منك فقد بات الآن مستحيلًا، لن أسمح لطفلتي بأن تكون حفيدة لقاتل، هذا إن أبقيتُ عليها.

- لقد أخفيت صِلتي بالمستشفى كي لا تكون سببًا لذكرى مؤلمة بيننا، خاصة مع قوانينها السخيفة بشأن استلام الجثث؛ والدي ليس بقاتل!

قالت ونبرة صوتها تعلو شيئًا فشيئًا: إذن ماذا تسمي قراره بإيقاف الدواء؟!

هز رأسه بذهول: من المستحيل أن يقوم والدي بذلك عن قصد، الكثير من الأشياء تبدو عكس حقيقتها.

زفرت بمرارة: لماذا تبدو الجملة مألوفة! ربما حقيقية ببعض الأحيان رغم عدم إيمانك بها، لكن من المستحيل أن يكون مظلومًا، والدك الظالم يا عدنان، توقّف عن إمداد شقيقتي بالمضادات الحيوية لأنها باهظة الثمن، ولم أملك المال الكافي لدفع التكاليف، والدك قاتل يا عدنان، قاتل!

نفى من بين أسنانه: هذا غير صحيح.

فأومأت بإصرار: بل صحيح، ولا أملك مبررًا واحدًا يجبرني على قبوله جدًا لطفلتي أو مبررًا للبقاء معك.

اسودت عيناه، وكأنها قطعت بجملتها الأخيرة لسانه! سار نحو الباب ليغلقه بالمفتاح واقترب ممسكا بذراعها يجذبها نحوه، فشهقت بذهول، ربما توقعت الكثير لكنها أبدا لم تتوقع قُبلة، وبهذا الشغف! قُبلة جعلتها تتمنى فسحة من الوقت لالتقاط أنفاسها. كتم صوتها مخرسًا أفكارها، هادمًا إرادتها التي اكتشفت كم هي واهنة أمام يقينه وهجومه الذي لم يحمل أيًا من التفهم! ابتعدت هاتفة: "يؤلمني الجرح" ابتعد بدوره مطالعًا عينيها الغائمتين بالدموع، وحين عثر على صوته من بين أنفاس هدجتها مشاعره، قال: لا تملكين مبررًا لبقائك يا أسما! ها أنا أمنحك المبرر؛ ما بيننا ليس طفلًا أو ذكرى مؤلمة، ما بيننا عشق تغلغل بكلينا حتى بات الرابط بيننا كالجسد والروح.. يغيب أحدهما فينعدم الآخر! أنا فقط من يعرفك ـ تلمست أنامله قسماتها مرورًا بشعرها وعنقها وكتفيها ـ أنا من يحفظ خطوطك وانحناءاتك وأنفاسك، أنا من يحفظ أفكارك وهواجسك، كوابيسك وأحلامك، أحفظها مثلما أحفظ خريطة جسدي وشراييني، حفظتها بظلام غرفتنا، وما أرشدني نور عشقي، رغم أنفك!

ـ اِبتعِد عني، اصمت، اصمت.

مسح دمعة صغيرة قرب أذنها: أنا فقط من يعرف قِسمت ذو الفقار، ذات الألف وجه.

دفعته بكلتا يديها حين اكتشفت وصولهما للفراش، لم يتحرك قيد أنملة، فهبطت عليها رحمة السماء: "سأتقيأ" أجبرته النوبة على إفلاتها فهربت للمرحاض وحاولت التقيؤ، معدتها ماتزال خاوية! غسلت وجهها وعادت للغرفة هاتفة بنزق: طريقة سخيفة لإثبات ما لم أفهمه، ولا أظنني سأفعل!

نهض عاقدًا ذراعيه فوق صدره: بل تفهمين جيدًا ما جرى وما يعني ـ كانت تضم شفتيها كعادتها فابتسم رغمًا عنه ـ لا أريد المزيد.

تجاهلت السخرية المبطنة لكلماته: سأخرج لاستنشاق الهواء، وأتركك

لتفكر في حلٍّ إن أردت الاحتفاظ بالطفل، وإلا سأعثر عليه أنا.

(كثيرًا ما تبدو الأمور على غير حقيقتها) جملة يذكرها جيدًا، تماما كما يذكر رده القاسي الذي لم تسامحه عليه؛ الكثير من المرارة والأحزان عالقة بـذاكرتيهما، ولا عاطفة صحية يمكنها النمو بهذه الأجواء! كيف لم ينتبه وكل الدلائل أشارت لكونها حاملًا؟! أكلها الباذنجان وشُربها الحليب، عاداتها التي تغيرت فجأة، والغثيان! الغبية؛ تظن أن بإمكانه التفكير في شيء مقرف كالذي اتهمت به نفسها، لكن لديها العذر، فالبداية الخاطئة بينهما أكبر المشكلات.. مفارقات جمعتهما كوَّنت جبالًا من سوء الظن، كما قالت (أنت رجل لا ينظر للوراء أو ينظر مرتين)! ربما لو فعل لتغيرت أمور كثيرة؛ كتلك الليلة التي رآها بين ذراعي رجلٍ بالشرفة، كان من الطبيعي تصورها لعوب توقع الرجال والطعم ابتسامة، بلَّ بقايا ابتسامة!

* * *

عاود الصعود للحفل بالمصعد ذاته الذي هبط به للدور الأرضي بحثًا عن فنجان قهوة سوداء، تمنى استنشاق بعض الهواء بالشرفة المقابلة لركن القهوة العربي، لكن مفاجأة رؤيتهما أربكته، فابتعد موقنًا بظنونه؛ فتاة الخمسين جنيهًا لا تضيع وقتها، يالها من ردة فعل مُتقَنة! سأل علياء بضيق: لماذا تريدين الحصول على تلك الجلسة السخيفة، لا أرتاح لتلك الفتاة أو مركز التجميل ذاك.

قطبت بحيرة: إنها فتاة مسكينة تحاول العيش وسط عالم صعب!

زفر بتهكُّم: أنتِ فقط ساذجة.

رفعت حاجبيها: "تعني حمقاء!" رغم إنكاره، تعرف أنه لا يأخذها بجدية! إلى متى ستظل تتصيد لنفسها الأخطاء كي تتفهَّم برودة مشاعره؟! رأت قِسمت تميل نحو أحد الجلوس معها على الطاولة وتبتسم بسعادة؛ إلى جانب جمالها تمتلك روحًا مرحة وقدرة على جذب الأنظار. ما بالها باتت تحسد من حولها على كحكاتهم اليتيمة!

لكزتها يارا هامسة: "اختفيتِ!" قالت قِسمت بشرود: "شعرت بالاختناق فبحثت عن بعض الهواء النقي انشقت عنه الأرض فجأة لتجده أمامها يدخن إحدى سجائره السميكة نافثًا دخانها بعينين تضيقان حنقًا، ظل واقفًا لثوانٍ يحدجها بغيظٍ ولوم، لينحني بغتة نحوها لا مباليًا بأزواج العيون على الطاولة، فابتعدت للوراء مجفلة حين تشدَق: "سنلتقي، ثانية" واختفى خلف مجموعة شباب يرقصون بهستيرية مع الأغنية الصاخبة! التفت أصدقاؤها نحوها بدهشة فقالت: "أنا نَفسِي لا أفهم شيئًا!"

مرَّ الحفل بوتيرته المعتادة، تخلله افتتاح البوفيه الذي كان حدثًا جللًا بحد ذاته، به كل أصناف الطعام التي عرفها الإنسان منذ بدء الخليقة! كان الأمر مدعاة لتندُّرهم بمدى الحال الذي وصل إليه المجتمع؛ يمد أصحاب الزفاف موائد تكفي لإطعام قرية كاملة ليومين، وسواهم يعود خماصًا كل ليلة مع خيبة الأمل! كان المدعوون ملتفين حول العروسين يهنئونهما ويلتقطون معهما الصور التذكارية، وموسيقى هادئة تسبح في الأجواء. رأت والد إنجي يجذبها غامرًا إياها بين ذراعيه وسط الحلبة ليرقصا، طابعا قبلة حانية فوق جبينها. دومًا تشدقت إنجي بالعلاقة القوية بينها وبين والدها؛ هي ابنته الوحيدة، أحلامها أوامر! طالعها أحمد بابتسامة باهتة وبريق بعينيه لم تخطئه! توقفت الموسيقى بغتة مما أوقف الجميع عن الثرثرة ملتفتين نحو كوشة العروسين، رفعت إنجي يدها مديرة وجهه إليها، ثم لوحت بإشارة ذات مغزى انسابت بعدها موسيقى جديدة، أمسكت الميكروفون مطرقة لثوانٍ قليلة ثم غنَّت بتردد. أتى صوتها الواجف متقطعًا بالبداية ومئات الأزواج من الأعين تحدجها بلا رحمة، ورفعت رأسها ببطء مستجمعة شجاعتها، لم تملك صوتًا شجيًا كصاحبة الأغنية الشهيرة، لكنها ملكت مشاعر نقية وصادقة تقاطرت مع كل حرف نطقته، تبث ابتسامات من السعادة على وجوه الجميع، وبالأخص أحمد الذي طالع جرأتها ذاهلًا، معلنة حبها أمام الجميع! اقتربت متصنعة اللوم ورفعت كفها لترتاح على وجنته...

أنا الحضن اللي من تعبه هيهرب ليه.. وأنا القلب اللى من خوفه هيتحامى فيه...

اغرورقت عينا قِسمت رغمًا عنها، وأطبق أحمد شفتيه المرتعشتين، حاملًا إنجي يدور بها أمام المدعويين الذين انطلقت من حناجرهم صيحات الإعجاب. انتظرته بترقب ليعاود البحث عنها، لكنه كرَّس نظراته لعروسه التي لم يبقَ سواها أمامه وخلفه وبكل مكان! طالعته قِسمت وهو يبتسم لأحد المصورين فبادلها نظرة لم تدم، مشيحًا رأسه ليطبع قُبلة حانية فوق جبهة عروسه!

حانت منها التفاتة نحو طاولة علياء، فضبطت الجبالي يحدجها مقطبًا وطرف شفتيه يرتفع بتهكُّم في تناقض غريب! منحها اهتمامه لثانية أخرى وعاود الإشاحة برأسه، خيرًا فعل! إن منحها أكثر لربما توسلته، وكأنها ألقت إليه بأحد ملفاتها السوداء! ترى هل سيمنع زوجته من التعامل معها؟ هي بغنى عن المزيد من سخط النساء وكراهيتهن، وشاية بسيطة عمَّا رآه بذرة ممتازة لزرع التوجُّس؛ الفتاة اللعوب التي ستخشى منها الزوجات على أزواجهن! وهي تدخل الكثير من البيوت بحُكم عملها القابعة تحت رحمته. تلمَّست خرزات المسبحة. ملعون ذاك الجزء من الثانية! هل ستدفع ثمنه لبقية عمرها؟! جالت نظراتها بالمكان باحثة عن سبب الكارثة فلم تعثر له على أثر، تبخر!

سارت مع صديقيها في طريق مختصر عبر جراج الفندق للخروج للشارع الخلفي حيث السيارة، فلمحت راغب جالسًا أمام مقود سيارة مرسيدس سوداء متجهم الوجه، تجاهلته مومئة لعلياء التي كان زوجها يفتح لها باب السيارة الجانبي. صوت احتكاك إطارات حاد كسر الهدوء وهمهمات الأحاديث بين السائرين؛ سيارة راغب! موضحة تمامًا حالة السخط التي تجتاحه. كانوا الوحيدين الذين أكملوا سيرهم نحو الحديقة، تلفَّتَتْ قِسمت مقطبة حين لاحظت بضع فتيات صغيرات في العمرو لا تزيد أعمارهن عن الثانية والعشرين، يقفن مرتديات ملابس من أحدث الموديلات في أركان

مظلمة بالحديقة يتحدثن إلىٰ رجال، رأت بعضهن أثناء الحفل. همست وهم يسيرون معًا عبر الحشائش: لماذا يقفن بهذا الشكل؟

التفت حازم زافرًا بسخرية: يتفقن مع زبائن علىٰ تسعيرة الليلة.. فتيات ليل.

شهقت قِسمت بينما قالت يارا: مستحيل، هي حديقة فندق شهير وله سمعته!

ـ لكل كوكب مضيء جانبه المعتم، ولكل شيء ثمنه.

قالت يارا مشفقة: لكنهن أنيقات ويتحدثن بطريقة محترمة لا شبهة فيها عدا وقفتهن المريبة بالظلام!

أطلق حازم ضحكة قصيرة: لا تفكري بطريقة الأفلام القديمة وفتيات الليل الخليعات اللاتي يتصرفن بأسلوب مشين، يمضغن اللبان ويضعن شامة سوداء فوق شفاههن، الزمن تغيَّر، وأصبحن يتعاملن مع الأمر باحترافية ـ أضاف بنزق ـ يستحقن الضرب بالرصاص.

تأملتهن قِسمت بألم، يبعن أجسادهن لأجل لقمة العيش أمام أعين الساسة فيغضّون الطرفَ! ترىٰ هل اعتدن الأمر؟ هل يتحولن في النهاية لأسطوانة مشروخة تعيد نفسها بلا طعم أو شعور؟! همهمت بخفوت: لا تكن قاسيًا، لا ندري ما دفعهن لهذا.

قالت يارا: إلا الشرف، تجوع الحُرَّة ولا تأكل بثديها.

نظرت قِسمت لبعيد شاخصة: قرصة الجوع ومرارة الحاجة في أحيانٍ كثيرة أشد قسوة من تأنيب الضمير ووجع الكرامة، الجوع كافر كما يقولون.

سألها بدهشة: تدافعين عنهم يا أسما؟!

ـ ليتني أستطيع! ربما أخطأن بلحظة ضعف، لكني أشفق عليهن.

* * *

أنا عندىٰ حنين ما بعرف لمين.. ليلي بيخطفنىٰ من بين السهرانين..

كانت تستمع للأغنية فحانت من حازم التفاتة نحو مرآته الأمامية معلنًا أن هناك سيارة سوداء تتبعهم! قالت يارا: ربما ستنحرف إلىٰ طريق فرعي - أطلقت ضحكة متسلية - من سيهتم باتباعنا؟ أولىٰ به أن يتبع أحد المهيبين اللذين قابلناهم بالزفاف.

أيقظت جملة السيارة السوداء جرس الإنذار لديها، أيكون راغب؟! تجمدت بجلستها دون أن تجرؤ علىٰ الالتفات، محدقة بنافذتها الجانبية. تبعتهم السيارة حتىٰ بنايتها فغمغم حازم بقلق: مازالت السيارة خلفنا! - التفت مضيقًا عينيه - أليس هو الرجل من الزفاف؟ يبدو أني سأحطم أسنانه.

رفعت يارا حاجبيها محدجة قِسمت بنظرة ذات مغزىٰ بينما أمسك حازم مقبض الباب يهم بالخروج لولا نداء الأخيرة: حازم توقف، يريد التحدث إليَّ لأني لم أمنحه الفرصة في الزفاف، سأذهب إليه وأخبره أن ما يفعله سخافة وأجعله يرحل، وسأناديك إن احتجت إليك.

- لن نرحل سوىٰ بإشارة منك.

أومأت مزدردة ريقها آخذة نفسًا عميقًا من الهواء، وترجلت علىٰ مضض رافعة رأسها بعجرفة فرنَّ هاتفها، رفعت رأسها لأعلىٰ فوجدت شقيقتها تلوح لها من السطح، ورأت راغب ينحني محاولًا رؤية من تشير إليه، ملوحًا لها بأصابع كفه الغليظة، فزفرت بحنقٍ وحثت الخطىٰ نحوه.

"ألن تأتي يا ست قسمت؟ نريد أن ننام" قلبت عينيها بإحباط. عم جابر البواب! التفتت نحوه بابتسامة متزلفة: "دقيقة واحدة" أومأ الرجل بضيق: "أسرعي لنغلق البوابة"

- أنت مجنون! معتوه! لماذا تتبعنا؟

ترجَّل راغب ووقف متكئًا علي السيارة عاقدًا ذراعيه فوق صدره: أنا لا أتبعكم - أشار بسبابته - بل أتبعكِ.

أشارت نحو سيارة حازم: منعته عنك بأعجوبة، لولا خشيتي من الفضيحة لأطلقته عليك.

هزَّ رأسه بثقة: بل تخشين تفويت ما تستشعرينه بقوة بيننا ـ أردف ساخرًا ـ أنتِ من أرسل ابتسامة أوقعتني بشباك غمازتيك.

وقعت أخيرًا بشرِّ أعمالها؛ حاولت اصطياد أسد بفخ أرنب! اقترب خطوة: لا تنسي، بيننا رقصة لم تبدأ.

استغل وجومها والتفت مطالعًا السيارة، فتصنَّع حازم نظرة غاضبة متوعدة كأشرار الشاشة الفضية. أعاد راغب رأسه للوراء مطلقًا ضحكة متسلية حين همَّ حازم بالخروج لولا يارا أمسكت ذراعه: اهدأ يا وحش، نحن بغِنىٰ عن فضائح الليل وآخره.

عقدت قِسمت ذراعيها: هيا، ارحل من هنا وإلا ناديت عم جابر ليرشك بالماء.

ـ لن أرحل قبل أن نتحدث ـ أردف بضيق ـ ترفضين الحديث إليَّ منذ رآنا ذاك الرجل،

وكأنه زوجك وضبطك بالجُرم! كنا علىٰ وَشَك الرقص، ما المشكلة؟!

ـ سُمعتي علىٰ المحك! ما الذي سيقوله بعد رؤيتي بين ذراعيك، هل أنت مجنون؟!

ـ نعم، منذ رأيتك يا أسوم!

زمجرت بنفاذ صبر: لا تدللني، أنا لا أعرفك!

ـ وهذا ما جاء بي إلىٰ هنا، أريد أن أعرفك ـ وضع يديه بجيبي بنطاله ـ أشعر أن الأمر يستحق السير خلف حدسي، وحدسي ينبئني بالكثير.

زفرت بيأس متلفتة حولها في الشارع الهادئ حين أضاءت فكرة برأسها. أشارت نحو البناية خلفها: "إليك المعلومة الأولىٰ، أقطن بغرفتين فوق سطح البناية" أمال جسده قليلًا متأمِّلًا المبنىٰ ثم عاود النظر إليها قائلًا بإنجليزية مخملية: "nice try!" لم يصدقها! مازال البشر يرفضون الحقيقة باستماتة، مخفين أعينهم بأيديهم كلما ازداد سطوعها. حسنًا هو حر، لا لوم عليها فيما بعد. أيّ بعد؟ لا بعد. سينتهي كل شيء والآن! صرخ البواب

بضيق: "ياست أسما، نريد أن ننام" لوَّحَتْ بنفاذ صبر ليصمت.

ـ عليَّ الذهاب يا أستاذ راغب. ولا تعاود المجيء إلـ...

ـ أستاذ راغب! قديمة جدًا يا أسوم، بالمناسبة لن أناديكِ أسما مثلما يفعلون، أحب أسوم أكثر ـ انحنى قليلًا نحوها ـ بها غنج، أسوم، ممممم لذيذ.

ازدردت ريقها ترف عينيها، يعاود لمعان سلسلة عنقه جذب أنظارها، وقد باتت أكثر وضوحًا بعد تخلُّصه من ربطة عنقه، (جذاب كالشيطان)! جملة قرأتها مرارًا في رواياتها الرومانسية، ولم تعِ معناها سوى الآن! قالت بصوت مبحوح: "عم جابر يريد النوم" سألها بغتة: "هل تحبينه؟" قالت ببلاهة: "عم جابر!" أعاد رأسه للوراء منفجرًا بضحكة اهتزت لها بنايات الشارع العتيقة المتكئة على بعضها البعض: عم جابر البواب! أنتِ غير معقولة. أعني العريس. رأيتكِ تبكين!

حدِّث ولا حرج منذ رأيتُكَ وأنا أتفوَّه بكل الجُمَل الغبية التي اخترعها الإنسان! تصنعت التأثر: ماذا إن كنت أحبه، ولا أظنني سأنساه؟

قال ملقيًا بذور الرهبة داخلها: سأنسيكِ إياه، بل سأنسيك اسمك! ـ همَّ بالذهاب ثم التفت إليها ـ انتظريني غدا.

رددت ببلاهة: غدا! ـ جلس أمام المقود فانحنت نحو نافذة السيارة ـ ماذا تعني؟

أدار المحرك: فقط انتظريني ـ أطلق قبلة في الهواء ـ لشفتيكِ يا تفاحتي.

وتركها فاغرة فمها كالمعتوهة! لولا صراخ عم جابر: "ياست أسما، الله يرضى عليكِ، نريد أن ننام" فهرولت نحو البوابة تطاردها نداءات يارا الفضولية!

كانت نوار جالسة فوق الفراش، تلف الشال حول كتفيها وبيدها كتاب تتصفحه بضيقٍ، جلست قِسمت على طرف الفراش: شعرك مبتل! كلما عدت وجدتك استحممتِ! حتى وأنتِ متعبة؟

أجابتها باقتضاب: لا تقلقي.

أغمضت عينيها بإعياء طاردة صورة عاشق التفاح، ومسدت فروة رأسها بعدما سحبت دبوس جدتها الذهبي: كيف حال نزلة البرد؟

قلبت صفحة الكتاب: تناولتُ قرصًا مسكِّنًا منذ قليل وبدأت أشعر بالتحسن.

انحنت قِسمت متناولة زجاجة الماء الفارغة: سأصنع لكِ شراب الليمون ريثما ألتقط أنفاسي.

نقرت نوار على غلاف الكتاب بطرف سبابتها: ألن تخبريني مَن كنتِ تقفين معه بالأسفل؟

جلست بجانبها: كارثة متحركة اسمه راغب الساعي، يرغب بكل شيء، وبالطريقة التي تريحني ـ أمسكت منديلًا لتمسح أحمر الشفاه لتعاودها ذكرى القبلة الهوائية ـ وسيم لدرجة أنه مصيبة كبيرة، وأنا أمامه فاغرة فمي كفوَّهة بئر!

أغلقت نوار الكتاب: المرة الأولى التي أراكِ مضطربة وعاجزة عن قول (لا يهم)! ـ نظرت لساعة معصمها بقلق حقيقي ـ وقد مرَّ ربع ساعة على عودتكِ! هل وقعتِ بالفخ؟!

ـ ليس لهذه الدرجة ولا بهذه السرعة، كل ما هناك أنه رجل.. رجل! فظيع ـ أردفت بغيظ ـ رجل خرج لتوه من رواية (نعم أحبه لكاي ثورب)!

أطلقت نوار ضحكة متسلية: "مصارع ثيران!" فضيقت قِسمت عينيها مفكرة: "وارد"

ـ انتبهي يا أسما، عيناك تلمعان!

ابتسمت متمتمة: رجل يعصف بكل المخاوف ولا يتبقى سوى، راغب! ـ التفتت نحو شقيقتها بلهفة ـ شَعرتُني الليلة بقوة يا نونا، رأيت ملامحي بعيني رجل يصفني بوصفٍ لم أسمعه قبلًا! يملك نصف الجاذبية الأرضية، قادر على تثبيت قدميَّ بلا حراك ـ ازدردت نوار ريقها مطرقة بصمت ـ قولي شيئًا.

ناولتها زجاجة الماء فارتشفت نوار بضعة رشفات مبتسمة: أخشىٰ عليكِ من تلك اللمعة بعينيكِ، كلتانا تعي أنكِ بأول طريق التعلق، هل أخبرته أين نقطن؟ والدتنا أين هي؟

نهضت محدقة بصورتها في المرآة تمسح بقية آثار الزينة بشرود: رفض التصديق.

قالت نوار بتحذير: سيعرف لا محال.

ـ حكاية خيالية لن تستمر، وربما أنا جبانة، لا أدري، كل ما أعرفه حاليًا أنني سعيدة وللمرة الأولىٰ في حياتي.

راقبت نوار شقيقتها تصنع الشراب الدافئ في ركن الغرفة الضيق، متصنعة القراءة، يبدو أن قلقها عليها سيصبح هاجسًا من الليلة، تكاد ترىٰ غيمة سوداء قادمة في الأفق! سألتها: ألن تخلدي للنوم؟ تعلمين أني لن أنام سوىٰ بعد التأكُّد من إغلاق الباب والنوافذ.

ناولتها الكوب: سأجلس بالسطح لبعض الوقت، وأعود لأقص عليك عرضًا غريبًا لوظيفة.

ـ انتبهي لنفسك، فلا أملك سواك في هذه الدنيا.

طبعت قِسمت قُبلة فوق جبينها، وخرجت حاملة وسادة صغيرة وضعتها بمنتصف السطح، وجلست ممسكة البطاقة الخاصة بماهينار النقراشي! اختلست نظرة صوب الجزء المكسور من السطح حابسة أنفاسًا سرعان ما أطلقتها في الفضاء الرحب..

رح يوصل حبيبك بكرا من السفر.. وجيرانك يحكو معو وكيف الصبايا اتجمعو.. لما كنتي بالشجرة وصرتي تغني يا قمرة..

نزعت السماعة عن أذنها وطالعت القمر المتوسط صفحة السماء، مرسلًا أشعته فوق بشرتها نافذة لروحها، وانتشاءً يسري بأوصالها، مخيف ولذيذ كمغامرة غير مأمونة العواقب! قال إنها جميلة كتفاح حديقته! قطبت بقلق؛ يملك حديقة وشجرة تفاح! وهي جالسة علىٰ وسادة فوق السطح،

تطالع قمرًا ربما يطالع الآن والدتها خلف نافذة الزنزانة.. أمي!
هل جرفني الطوفان؟ أنا بحاجتك!

* * *

حدقت علياء بالقمر الذي لاح خلف ستائر غرفة نومهما، حين هبَّت نسَيمَات لامست ستائر الشرفة تداعبها على استحياء، رأت عدنان ينظر عبر عدسة تليسكوبه. منذ عادا وهو بالخارج. تناهى لسمعها صوت رسالة جديدة على مدونتها؛ إنه الباحث عن الحقيقة! الرسالة العشرون التي يرسلها عبر بريدها الخاص لمدونتها (ليالي من الحنين)، لماذا لا يعلق كالبقية؟! لماذا يسعى للخصوصية؟! تجاهلت الرسالة معاودة النظر لزوجها، مديرة الأغاني بالملف الذي أسمته (عدنان)، لتنساب نغمات الفالس التي تشتهر بها ألحان فريد...

بهمسة عينيا بنادي عليك.. بلمسة إيديا بنادي عليك..

خلعت الروب الحريري، حاملة كوب الحليب المتصاعد مع أبخرته رائحة الفانيلا بعدما صبت لها كأسًا من عصير الفاكهة، وسارت مزيحة الستائر، اقتربت تقف على أطراف أصابعها طابعة قُبلة فوق عنقه: إلام تنظر؟

ـ أنتظر نيَزَكًا سيحترق قرب الغلاف الجوي، يقال إن ذيله سيصل لعدة كيلومترات.. لكن يبدو أني مخطئ في توجيه التلسكوب، لم يظهر للآن!

أمسكت بكتفه مديرة إياه: ما أشعره من اشتياقٍ دائم إليك أكثر قدرة على الإحراق، تصبح روحي كالهشيم كلما شعرتك متباعدًا صامتًا!

مدت يدها بكوب الحليب فأخذه قائلًا: بكِ شيء مختلف، أعجز عن ترجمته!

تمتمت مع الأغنية متمايلة بدلال: (بهمسة عينيا بنادي عليك، بلمسة إيديا بنادي عليك..) ها أنا أحاول مساعدتك على الترجمة، رغم أن لغتي أول لغة خُلِقَت بين آدم وحواء، لغة الغرام! ـ رفع حاجبيه وارتشف من

الكوب محدقًا بها ـ لنجرب طريقة أخرىٰ ـ ابتعدت خطوتين تدور حول نفسها ـ ما هو الجديد بي؟

تأملتها نظراته المرتبكة وعيناه تجولان فوق جسدها بلا هوادة: "أحمر الشفاة؟" أرخت كتفيها بإحباط: "بل ثوب نومي الجديد" كان الثوب قصيرًا فوق ركبتيها من الحرير بلون البنفسج، وحمالتان رفيعتان سقطت إحداهما أسفل كتفها.

ـ أترغبين بتجربة التلسكوب؟

رفضت بضيق متجرعة ما بكأسها ووضعت الكوب علىٰ السور معاودة التحديق في الفضاء ـ هز قلبي الليلة غناء إنجي، يبدو أنهما متحابان.

عاد للداخل: الحب ليس كل شيء في الحياة، ليس الأهم.

التفتت إليه: ما الأهم من الحب؟!

خلع النصف العلوي من البيجاما: التوافق النفسي والاجتماعي، العِشرة، المودة والاحترام، كلها أمور يمكنها صنع رابط قوي ومتين بين اثنين.

زفرت بمرارة: ماذا إن انعدم التوافق؟!

جلس علىٰ الفراش أسفل الشرشف مشيرًا إليها بالمجيء: ألف شيء يمكنه تقوية صلة رجل بامرأة غير التوافق.

رفت عينيها بارتباك: "لقـ.. لقد انتهت الفترة المناسبة كي نحاول أن نحـ.. قاطعها: "ألا ترغبين بـ....."، سارعت مقتربة: "بالطبع يا حبيبي استسلمت كعادتها لآلية اللقاء؛ منتبهة لكل ما حولها حتىٰ دقات الساعة الرتيبة، دقاتها التي تحصيها، مراهنة نفسها إن كَسَرَ رقمه المعتاد بالبقاء قربها، ويظل الوقت قاطعًا كالسيف لرجائها وأمنياتها الحمقاء! كل خطوة متوقعة، كل لمسة في موعدها، وكل تنهيدة تعلم عددها ومدىٰ حرارتها، كل شيء محسوبٌ ومقدَّرٌ كقسمتها، خمس عشرة دقيقة بالضبط! لم تحتَج التطلع إلىٰ الساعة، لكنها نظرت حين انسلَّ من جانبها مبتعدًا نحو الحمَّام. اللعنة علىٰ الإحباط! متىٰ ستعتاد الأمر؟ الكارثة أنها تريد المزيد

وعدنان لا يملك المزيد، لملمت أطراف الملاءة الزهرية أسفل ذراعيها ونهضت معتدلة حين باغتها رنين وصول رسالة أخرىٰ، أرسل الباحث عن الحقيقية رسالتين في ليلة واحدة! تجاهلتها وفتحت مدونتها لإضافة مقطع جديد من خواطر رولا بسيوني (أقسمت ألا تبصر دمعة أخرىٰ تذرفها عيني وتبلل ملوحتها وجهي، ومن ثم تتجمع عند ركن شفتي يملؤ طعمها فمي ولا تجففها أنت! لا أذكر أنك جففت دموعي أبدًا، بل أذكرك ألمًا اعتصرني كثيرًا، وتركني علىٰ وسادات مبللة دومًا في الليل). عاود الخروج مختليًا بتليسكوبه، ألقىٰ بعبئه الثقيل وهرع هربًا من المواجهة، تساءلت دومًا عمَّ يبحث؟ شيء مفقود هو الآخر يأمل في العثور عليه بين نجيماته؟ أم يملأ الفراغ الذي يعانيه كلما انتهيا من إحدىٰ لقاءاتهما الحميمية؟! لمحت جملة مكتوبة علىٰ الشاشة (أشعر أنكِ هنا، أرجوك أجيبيني). ازدردت ريقها محدقة في الحروف الوامضة كإنذارات الخطر (أنا الباحث عن الحقيقية، أرجوكِ يا ليالي أجيبيني)، تساءلت برعب: كيف وصل إلىٰ بريدها؟ هل هو واحد من الهاكر؟ همَّت بإغلاقه فظهرت كلمات جديدة (أشعر وكأني أعرفكِ، وربما أعاني مثلك)، تأملته لبرهة موليًا إياها ظهره، ورفعت يدها تمسح الدموع عن عينيها لتنقر فوق الأزرار بأصابع مرتعشة: (ماذا تريد؟!).

* * *

ـ لماذا تصرين علىٰ البقاء؟

ـ أردت التأكد، ليتكِ أخبرتني من البداية يا لينا.

ـ جعلوني أقسم ألا أخبرك أو أخبر أحدًا، كان يحدوهم الأمل ألا يطول الزواج، حتىٰ عمرو أصرَّ علىٰ التزامي الصمت.

التفتت علياء نحوها بحدة كادت تقتلع رأسها: وهل يعلم؟ كيف يفعل بي شقيقي هذا؟! كيف طاوعته نفسه؟ ـ أغمضت عينيها بقوة ـ آه لو تعلمين، آه لو تعلمون جميعًا!

ـ أخبريني يا لي لي علك تلقين عبئًا عن كتفيكِ.

ـ لا أحد في هذا الكون قادر على حمل العبء عنّي سوى عدنان، لعنة حياتي! ليتني أملك نزعه من قلبي انتزاعًا حتى وإن قتلني هذا، لكن كيف السبيل ـ أمسكت برأسها بين يديها ورفعت وجهها للسماء ـ إما أن تخرجه من قلبي أو تعيده إليَّ، أنا تعبت، تعبت ـ احتضنتها لينا بقوة مواسية، فالتفتت لتسألها من بين نشيجها ـ أمازلتِ تركلين النعمة يا لينا؟ كم في العمر من بقية لهذا العناد؟!

نهضت لينا مبتعدة: نعمة مغمسة بالقذارة ستمرضني!

ـ أنا لا أفهمك، ولكن أدرك امتلاكك لشيء حلمتُ به طوال عمري، أن أشعر بنفسي محبوبة ممن أحب! أوليس هذا كفر بالنعمة؟

أتاهما صوت عمرو مترددًا أمام الباب: أخبريها ـ حدجته علياء بنظرة اتهام ـ

علينا المغادرة.

ـ ونترك المهرجان؟! ـ همَّ بالحديث فاقتربت بخطوات بطيئة ـ كنت تعلم! ـ ارتعشت ملامحها ـ كنت تعلم أنه تزوج من مقلِّمة أظافري؟! ـ رفعت قبضتيها تضرب صدره بهستيرية ـ كيف تفعل بي هذا وأنت شقيقي؟! أنت شقيقي يا عمرو، شقيقي، شقيقي!

تركها تفرغ شحنة الغضب والخذلان المستعرة داخلها كالأتون، وقد استحق كل ضربة ووخزة ألم، لقد خان ثقتها ويدعو الله ألا تعلم بقية الحقيقة، كانت شهقاتها تعلو وما تلبث أن تنخفض مدركًا حاجتها للصراخ. غمرها بين ذراعيه حين استشعر ضعف ذراعيها، فاستغلت حضنه لتعلو نبرات بكائها كاتمة إياها في ملابسه التي أغرقتها الدموع، سامحة لنفسها أخيرًا بإفلات شهقاتها من أسر حنجرتها المؤلم. لفَّت ذراعيها حول خصره تلوذ به، فاغرورقت عيناه وجسدها ينتفض بين يديه، ودَّ لو يخفيها بين ضلوعه وينقض على صديقه مكيلًا له الضربات واللكمات، ويجبره على العودة لها لترتاح، انفجرت شهور الكبت الطويل في تلك الثواني مطلقة

سراح الأوجاع، جملة واحدة جعلت ترددها: أحبه كثيرًا يا عمرو ـ أمسكت ياقة قميصة بلوعة ـ اجعل الألم يزول، أبعِد الألم عنّي يا عمرو.

ـ لماذا طلبت الانفصال يا عليا؟! ـ جمدت بذعر حين أفاقها السؤال، فانحنى طابعًا قُبلة فوق جبينها ـ سامحيني، لم أشأ إضافة حزن جديد لحزنك يا حبيبتي، ظننتها نزوة!

رفعت رأسها تطالعه: ربما يستبقى عليها لأجل الطفل، أوقن أنه سيردّني.

ـ أنتِ علياء! فابقى عالية الجبين.

ابتعدت راكضة فأعاد رأسه للوراء مغمضًا عينيه. أتاه صوت لينا مواسيًا: دعها، عدنان الشخص الوحيد القادر على إفاقتها!

ـ أحيانا تكون الحقيقة أقسى من أن يدركها العقل ـ مطَّ شفتيه مطرقًا ـ أنا آسف، أعرف أني تصرفت بخسة هذا الصباح!

وكأن شفتيها عادتا للحياة! عاودها طعم العناق والشعور الذي صاحبه، حتى معدتها وخزَتْها! غالبت ابتسامة توشك على فضح أفكارها، متمتمة بتصنع: أسامحك فلا داعي لتعذيب نفسك.

رفع رأسه مضيقًا عينيه ريبة: كاذبة! إن كنت أغضبتك بحق، كنت ستلقين أثاث البيت فوق رأسي.

ـ لا تكن أحمق، لقد غضبت لكني تماديت في استفزازك.

قال بتسلية: كانت رائعة، أليس كذلك؟

غمغمت على مضض: كانت لا بأس بها.

اقترب بحذرٍ: امنحيني فرصة أخرى وأعدكِ بالاجتهاد لتحسين أدائي.

غالبت ابتسامة: الأمر أبعد من أحلامك.

توقف قبل أن يصل اليها بخطوة: أنتِ من يكابر يا حُلُمِي العنيد.

"عمرو، أنا أحبك، كثيرا" احتاجت لإطلاق جملة دفنتها طويلًا داخل صندوق الفراشات، تمنحها أجنحة ملونة وتطيرها إليه، ليحتفظ بها، ليحافظ عليها كما فعلت طويلًا.

هل قالت إنها تحبه؟! ألغى في ثانية الخطوة الأخيرة بينهما، ولف ذراعه حول كتفيها، أزعجه وخز الخيوط الصوفية لكنزتها، تمنى لو كانا بالصيف ليلامسها بعيدًا عن الكم البغيض.

تصريحي بالحب كان أبكر من تصريحك بزمن طويل، قلتها بألف طريقة، حين حملتك فوق ذراعي لجرح إحدى القواقع قدمك، فتقاطرت دماؤك فوق ساقي حتى صرخ الجميع خوفًا على كلينا، كانت أحبك! ـ لامس شعرها بطرف أنفه ـ حين مسحت دموعك يوم ضايقك الفتيان بالطريق ونعتوك بالكرنبة، كانت أذوب بكل جزء منك! ـ أردف بلهفة ـ كنتِ أجمل كرنبة بوجنتين كوريقات الورد وأنف صغير وشفتين تنافسان الكرز إحمرارًا، بادلتني الحب بكل ضربة فوق كتفي بقبضتك الرقيقة، وكل مرة ناديتِني (عبسي).

طالعته بنظرة ملؤها اللوم: لَم تحافظ على حبنا.

ـ بل لأنني أحبك حبًّا يفوق الوصف سمحت لنفسي بالتخلي عن جزء من إنسانيتي، وتحملت ضميرًا يعذبني ليل نهار فقط لأمنحكم الأمان، ففقدانك يعني فقداني لحياتي، وأنا متشبِّث بالحياة يا لولا ـ فاجأته بتفهمها وتسامحها ـ بكِ شيء مختلف عمَّا استشعرتُه هذا الصباح، لا اعتراضات! والكثير من التفهم مع تصريحٍ بالحب، ما الأمر يا لينا؟

أرخت كتفيها باستسلام: تعبت!

* *

دخل عمرو المكتب مغلقًا الباب خلفه، كان خالد يقف متجهمًا وعدنان يضم قبضتيه، تلوح انفعالات الغضب ونظرات الاتهام فوق محياه، صرخ خالد بعصبية: صديقك يتهمني بقتل شقيقة زوجته، يبدو أن الأفعى بدأت بنفث سمومها.

قال عدنان بحدة: لا تسمح لنفسها بحمل حقيد لقاتل لا يملك الرحمة! رفضتَّها من قبل يا دكتور خالد والآن أتى دورها لترفضنا جميعًا!

ـ من نوار هذه؟! يمر عليَّ مئات الحالات في الأسبوع فما بالك بحالة منذ أكثر من عام!

ولماذا لم تخبرني بها سوىٰ الآن؟!

ـ لو أخبرتك بحكاية نوار قبلًا لاتهمتني أن بقائي معها بدافع الشفقة وتأنيب الضمير، لم تكن لتصدقني مهما حاولت إقناعك أني أحبها، لكن فات الوقت ـ تعالىٰ صوته ضاربًا سطح المكتب براحته ـ ستفقد حفيدك يا دكتور خالد، ترانا مجرمين وقتلة!

صاح بغضب: أنا لم أصدر قرارًا بمنع الدواء عن مريض في حياتي.

مطَ عدنان شفتيه: ظننت بالبداية أنها لعبة من ألاعيب علام، لكنه ألقىٰ إليها بتلك المعلومة، عليك أن تتذكر يا أبي ـ أردف بمرارة ـ رغم يقيني أن الحقيقة لن تغيِّر من الأمر شيئًا، بكلتا الحالتين نحن شركاء في الجريمة!

لوح عمرو: اهدئا، يمكننا الدخول لملفات المستشفىٰ ـ أشار نحو اللاب الخاص بخالد ـ أتسمح؟ ـ اختلجت ملامح خالد لبرهة محدجًا حاسوبه بتشكُّك ـ عمي!

لوح خالد بضيق: ليس لدي ما أخفيه.

فتح عمرو اللاب، وأملاه عدنان تاريخ الوفاة، فبحث لثوانٍ قليلة حتىٰ أخرج الملف وفتحه، وراجع التقارير معلنًا بارتياح: لا شيء، لا دليل واحد علىٰ قيام عمي بذلك، كان لديها فيروس في النخاع والحالة منتهية، وتلك الحقنة المطلوبة ثمنها غالٍ جدًا يصل إلىٰ الستين ألف جنيه وغير متوفرة!

سأله عدنان ساخرًا: أتظنها التقارير الصحيحة؟ أين ذكاؤك؟!

ـ ليس أمامنا سواها.

زفر خالد بتهكم: هل آمنت الآن ببرائتي؟!

ـ ما رأيك في شعور الظلم يا دكتور خالد؟ طعمه مُرّ، اليس كذلك؟!

ـ هل تعمَّدتَ اتهامي رغم يقينك بالحقيقة يا عدنان؟!

ذاقت الظلم ألوانًا، فأتحت لك الفرصة لاختباره، وإليك المفاجأة الأكبر، لتبقي على الطفل يجب أن تحرمنا رؤيته.

تبادل وإياه نظرات صامتة لبرهة ثم نهض خالد صارخًا بعصبية حال خروجه من الغرفة: أين الغداء يا ليلى؟!

دلفت لينا إلى المكتب محولة أنظارها بينهم: تنصَّتُ عليكم وسمعت شيئًا يخص فتاة قُتِلَت بالمستشفى!

سارع عمرو: لا تكوني حمقاء، في الأمر سوء فهم ـ استدرك بسخرية ـ وتعترفين بالتنصت!

غادر عدنان بوجه متجهم، بينما عقدت ذراعيها فوق صدرها مضيقة عينيها ريبة، فأردف هازئًا: "مجرمة!"، غادر الغرفة باسمًا، فالتفتت صوب طاولة المكتب لتلتمع عيناها بسعادة، حين عثرت على سلسلة المفاتيح بالطبق الكريستالي!

* * *

(٨)

أغلقت قِسمت المجلة التي عثرت عليها بين مجموعة من المجلات، يعود تاريخها لأشهُر مضت، مطالعة غلافها المطبوع بصورتها؛ واحدة من مجموعة الصور التي التُقِطَت لها بعد عرض أزيائها الثالث والأخير، كم الأيام غريبة! تجبرنا على الاحتفاظ بالذكرى حيَّة مؤلمة، وتسرق في غفلة مقابلها قدرتنا على الفرح، نُدمِن الحزن، فنفقد آلية السعادة!

اتكأت على جذع الشجرة الضخم مستنشقة هبَّة من الهواء البارد حملت عبير زهيرات الياسمين والحشائش الخضراء، وقد بدت حياتها الماضية كحُلم قديم، ماهي أيضًا كانت ترتدي رائحة الياسمين! كانت عاشقة للعطر الشهير (كوكو شانيل)، مصرِّحة بثقة أن المرة الأولى من كل شيء دومًا الأجمل، تمامًا كأول نفحة من زجاجة عطر!

اتجهت صباحًا لوكالة ماهينار، ورهبة بصدرها تشبه ليلة العيد، شعورٌ ينمو منذ اللحظة التي يُعلَن بها أن اليوم التالي أول أيامه! تسارع وأشقاؤها بإخراج ملابسهم الجديدة التي أتت بعد حصاد أيام طوال في ترحال بين الحوانيت بحثًا عن الأفضل والأجمل! ويأتي الليل، وتنتهي كل منهما من

الاستحمام لترتدي البيجاما الجديدة، فتحتضن نوار بقية ملابسها مغمضة عينيها، علَّ الصباح يأتي سريعًا محمَّلًا برائحة الحلوىٰ والكعك وصواريخ ياسر المزعجة! وتبقىٰ هي، تتعلق عيناها بالملابس فوق المشجب، ممتنعة عمَّا تفعله نوار رغم توقها الشديد، كانت جدتها أكثر من شعرَ بها، لكنها أبدًا لم تفكر ولو للحظة أن طبيعتها تلك ستتسبب لها بالمشكلات. حتىٰ ليلة وفاة جدتها! امتنعت عن البكاء رغم انهيار نوار وياسر، فازدادت الحالة سوءًا! لا تدري أكان نوعًا من الإيثار لتفسح لغيرها المجال أم أنه جُبنٌ.. عدم امتلاك شجاعة كافية كي تُفصِح عن ضعفها؟! وضعت فوق عينيها نظارة قاتمة، فمنحتها القدرة علىٰ البحث في الخفاء والتظاهر باللايهم! دست سماعتها بأذنها متمتمة مع روزا...

تبدو كأن لا تراني وملء عينك عيني.. ومثل فعلك فعلي ويلي من الأحمقين...

فكرت بتردد: تاكسي! لا، ستمنح نقودها أجنحة! همَّت بعبور الطريق لتشهق بذعر حين توقفت أمامها بغتة سيارة مرسيدس سوداء! رفعت حاجبيها من خلف النظارة تضم شفتيها ذهولًا لقد عاد الرجل المُمطِر! فُتِح باب المقعد الجانبي: ادخلي يا سبب جنوني ـ رأت سبابته الغليظة تلوح بنفاذ صبر ـ هيًّا يا أسوم، يكفيني الصداع الذي يفتك برأسي، أنا مستيقظ من السادسة صباحًا.

رفعت رأسها: "لم يطلب منك أحدٌ الاستيقاظ" تمنت لو يرحل ويتركها لحالها في عالمها الفوضوي! صِدقه بالمجيء أفزعها رغم السعادة.

ـ كلانا يعلم شوقك لرؤيتي كما أنا مشتاق إليكِ منذ الأمس.

انحنت مقطبة: هل أنت مجنون؟ ماذا عن البشر من حولنا؟

انحنىٰ رافعًا نظارته الريبان: نحن بعيدان عن شارعك ـ رفعت نظارتها فوق رأسها بضيق ـ رحلة شاقة بسيارة أجرة بهذه الأجواء الحارة أم رحلة لطيفة داخل سيارة زجاجها الأسود سيمنع اختلاس النظر، وهواؤها المنعش سيجعل الوصول لوجهتك peace of cake؟

ـ قوانين المرور هذه الأيام تمنع استخدام الزجاج الأسود!

ارتفع جانب فمه: "لكنها لن تمنعني يظنها ستستقل تاكسي! مسكين، لا بل هي المسكينة! أضاف: أعدك ألا افكر أنكِ فتاة سهلة المنال، وإن شئتِ اجلسي بالمقعد الخلفي واعتبريني سائقك ـ رفعت رأسها بعجرفة وصفقت باب السيارة المفتوح ـ أنتِ والصداع!

همَّ بفتح الباب ففاجأته بالجلوس بالخلف: "المهندسين يا أُسطى" أعاد رأسه للوراء مقهقهًا: "أمرك يا هانم كان هواء التكييف منعشًا لأقصى درجة عدا أنه ساهم بالمزيد من القشعريرة فوق بشرتها. قال برقة: "صباح الياسمين" التفتت محدجة عينيه عبر المرآة الأمامية: "لا أحب السائق الثرثار ألقت الجملة بعجالة وسارعت للاحتماء بالنافذة. قال ممسكًا بعلبة ورقية طُبِعَ فوقها اسم أحد الفنادق التي يكفي شعارها لطرد كل من تسوِّل له نفسه الاقتراب: أحضرتُ شيئًا لطيفًا.. أردت دعوتك على الإفطار وتوقعت رفضك لذا...

أسرعت مقاطعة: أجل كنت سأرفض.

أومأ بتفهُّم: أعلم، لذا أحضرت شيئًا يصلح للاثنين.. إفطار وهدية ـ فتحت العلبة بتوجس لترفع حاجبيها ـ لترضى عنى الهانم! أوصيت الشيف بـ extra كراميل.

وهي من وعدت نفسها أن تبقى السيدة نزقة الطباع لآخر لحظة! من المستحيل الالتزام بالقانون مع رجل مثله. غمغمت: في الحقيقة أحب كثيرًا الكريم كراميل!

ـ نحب خدمة الحلوات، بلغة سائقي التاكسي ـ أطلقت ضحكة قصيرة فطالعها بالمرآة تمسك بالملعقة ـ يمكنني متابعتك تأكلين لسنوات بلا ملل، ألذ شفتين رأيتهما!

توقفت عن المضغ: لا أحب السائق الثرثار.

أطلق ضحكة قصيرة: حسنًا سأتوقف عن الوقاحة ـ استدرك باهتمام ـ

كنت بانتظارك من السابعة لجهلي موعد خروجك.

ـ ماذا إن قررت البقاء بالمنزل؟

رفع كتفيه باستخفاف: لا يهم! كنت سآتي باليوم التالي والذي يليه، حتى أنجح برؤيتك.

زفرت بدهشة: لا يهم!

أومأ بإصرار: لا يهم ـ لوح بيده ـ إلا إذا صنعتِ معي معروفًا وأعطيتِني رقم هاتفك.

فارق كبير بين اللايهم خاصتها واللايهم خاصته؛ الأولى ضعفٌ والثانية منتهى القوة! زهرة فُتنة هي أمام رياحه! سألته: لماذا لم تفكر في الحصول عليه من هيام؟

ـ أريد كل شيء برضائك.

قالت ببرود: يملكه العديدون بحُكم عملي ـ رفعت رأسها بكبرياء مبادلة إياه النظرات عبر مرآته ـ كخبيرة ماساج ومقلِّمة أظافر، أعمل لدى هيام.

خفض عينيه فأشاحت بوجهها معيدة النظارة فوق عينيها، قال: هذا شيء لم أتوقعه، وبكل أمانة لا أهتم ـ أمرته بحدة إيقاف السيارة فسمعت صوت الإغلاق الإلكتروني ونبرته الضجرة ـ تضايقك صراحتي رغم عدم انزعاجي لصراحتك!

من يظن نفسه! هتفت بغضب: هي وقاحة، تتحدث وكأني تلميذة صغيرة تنتظر نتيجة الامتحان يا سيد راغب!

وعدنا لأسلوبك الاستفزازي! اسمي راغب، كما أني رجل واقعي أحسب حساباتي جيدًا قبل أن أخطو.

ضربت ظهر مقعده بكفها: إذن قم بحساباتك بعيدًا عني وأعفني تصريحات بأنك لا تهتم!

جذبها من يدها: تعالي اجلسي إلى جانبي.

قاومته لبرهة لكن قوة ذراعه كانت أكبر منها! فغرت فمها بذهولٍ متمتمة: أنت مجنون، سنعمل حادثًا!

ـ كنت على وشك الجنون بسبب تلك المسافة السخيفة، هكذا أحلى

ـ نظرت لأعلى ذراعها الذي طُبِعَت عليه أصابعه الغليظة علامات حمراء

ـ آسف، لكنني أردتك بشدة إلى جانبي، لا أترك وسيلة في إمكانها تحقيق مبتغاي.

سألته بحيرة حقيقية: ماذا تريد منِّي يا راغب؟! أخبرني بصراحة.

التفت نحوها لأقل من ثانية: هل أنتِ مستعدة حقًّا لمعرفة ما أرغبه منكِ الآن؟

هزَّت رأسها رفضًا مزدردة ريقها وقد باتت ملامحه جدية: منذ الأمس أفكر بك، كثيرًا، وخائفة مما تريده، جدًّا ـ سألها بهدوء عن وجهتها فاعتدلت بجلستها ـ السيدة ماهينار عرضت عليَّ العمل بوكالتها الإعلانية الخاصة بعروض الأزياء.

قطب بدهشة متأملًا جسدها: بجسدك هذا!

اعترضت بحدة: "لستُ سمينة" أطلق ضحكة قصيرة وعض على شفته السفلى معاودًا نظراته الوقحة: أنتِ مذهلة ـ أردف بجدية ـ لكن لست بالنحيفة كفاية، لديها ولا شك نوايا أخرى ـ أوقف السيارة قُرب أحد الأرصفة المظللة بالأشجار ـ أنا عضو عامل بالحزب الحاكم وواحد من أهم أعضاء لجنة السياسات، ووالدي مدير مكتب وزير السياحة، لذا أمتلك شبكة اتصالات ونفوذ لا بأس بهما، أعلم جيدًا هذه المرأة ونشاطها لأنني قابلتها بعدة مناسبات.

حدجته لوهلة بذهول ثم أشاحت وجهها صوب النافذة، تتابع عصفورين صغيرين يفردان جناحيهما ويطيران حول بعضهما البعض في دوائر، لم تستطع أذناها التقاط زقزقتهما، وساد صمتٌ لم يقطعه سوى جذب اصبعيه لسلك السماعة فصدح صوت روزا...

تمر قفزَ غزال بين الرصيف وبيني.. وما نصبت شباكي ولا أذنت لعيني..

لم تكن منتبهة لوشوشة روزا، الغريب أنها دومًا استمعت إليها برفقة أحمد وبتركيز، حتى بلحظات بثها فيها غرامه! سألته متابعة العصفورين: ما الذي يريده رجلٌ مثلك من فتاة مثلي دون أن يفسد حياتها؟

قال ممسكًا بكفها المرتاحة إلى جانبها: لا تخافي مني، فلن أجبركِ على فعل ما لا تريدينه! من يجب أن تخشيها ماهينار.

الصواب أن تفتح الباب مطلقة ساقيها للريح، لكنها التفتت إليه غافلة عن كفه فوق كفها: ماذا تعمل ماهينار؟

- خاطبة - أردف بتهكم - توفِّق راسين في الـ.. الزواج - همَّ بإبعاد خصلة من شعرها عن وجهها فسارعت بإبعادها وسحبت يدها الأخرى من أسفل كفه - ماهي همزة وصل بين فتيات يرغبن بالزواج من الأثرياء. لا داعي للاقتراب منها.

سألته بتشكك: أتعني زواج القاصرات؟ مثلما يحدث في الصعيد.

- مثلما يحدث بمصر كلها، قاصرات وأنواع أخرى.

سأذهب لمقابلتها على أي حال، وإن كانت تسعى لنوعٍ آخر من الأعمال فسأبتعد، أنا بحاجة شديدة لعمل جديد.

أعاد إدارة المحرك. إذن سآتي معك، وجودي سيطيح بكل الأفكار السوداء التي تحدوها بشأنك، سأحصل لكِ على صفقة جيدة طالما أنتِ مصرة - غمغمت بريبة شاكرة - لن تكفيني كلمة شكر، أنتظر المزيد.

ابتسمت: ستنتظر طويلًا!

ارتفع جانب فمه: أحب لعبة الانتظار.

أسبل لون الزجاج قتامته على أفكارها، يشبه زجاج نافذته المخالف للقوانين؛ مبهمًا رغم صراحته، وكتومًا رغم وقاحته، يمنحها مساحة كبيرة من الرؤية ورغم هذا يفوتها الكثير! لم تكن ترغب بتلاقي خطوط حياتيهما بهذه السرعة، رجل مُقتِحم! مُحاصِر! ينسج خيوطه الحريرية من حولها

لتعلق بفخ عاطفة ناعمة لم تشعرها من قبل. رجل كالحُلم! تعترف بارتكابها الكثير من الأخطاء منذ تقابلا، لكنها عاجزة عن استشعار الذنب بقدر السعادة! ستنحي تساؤلاتها جانبًا الآن وتستمتع بلحظات القُرب منه وسط فخامة وثراء نادرًا ما اختبرته! تسللت عيناها نحو عنقه الأسمر ومنه لسلسلته الفضية التي تحركت بنعومة كلما حرَّك ذراعيه، فسألها:

يعجبك عنقي أم السلسلة؟

تمتمت ببلاهة: هه؟! ـ أعاد السؤال باسمًا فهتفت بحنق ـ ما هذا؟ السلسلة بالطبع.

ـ خسارة! ظننته عنقي، فما يعجبني هو شفتيك، وليس الروج ـ هزَّت رأسها بيأس فتبدلت ملامحه بغتة للجدية ـ السلسلة هدية والدتي رحمها الله، من آخر رحلة حج!

تمتمت بخفوت: أنت أيضًا تتعلق بالاشياء؟

أمسك بالسلسلة: أحيانا تكون كل ما بقي، فكثيرًا ما ينسى القلب وتنسى العين!

ـ أكره تعلُّقي بالأشياء.

ظهر أمامهما بغتة طفلٌ يحمل مناديل ورقية وابتسامة مشاكسة تداعب وجهه، فضغط المزمار لاعنًا بغضب وفتح النافذة: ستموت يا غبي!

لوَّح الطفل محرِّكًا حاجبيه الصغيرين: عمر الشقي يا باشا.

تمتم من بين أسنانه: أين أهله؟ يطلقونهم في الشوارع كالنمل يُدهَس منهم من يُدهَس!

زفرت بتهكم: يبحثون عن لقمة العيش وملعقة الدواء بين أكوام القمامة.

عاود إغلاق النافذة مطبقًا شفتيه دون أن تفارق خطوط التجهم العميق جبهته، يعلم أنه بالغ بغضبه فقد أشار الولد بيده محذِّرًا، وجودها قربه يجبر أعصابه على الغليان! ما الذي يفعله بحق الله؟! موعد استيقاظه لم يحن بعد! حتى الفتاة التي كان على موعد معها بالأمس لم يهتم بالاعتذار عن الحضور

لشفتها! تشعل رمادًا انطفأت جذوته منذ زمن! يرغبها لدرجة التمنِّي أن يكونا بصحراء خالية من سواهما ليحصل على مبتغاه ويستريح، لكن السؤال: هل سيستريح؟ اختلس نظرة نحوها للمرة الألف، لشفتيها المكتنزتين، ووجنتيها الناعمتين كقشرة الخوخ المخملية وقد لوحتهما حرارة التصقت بها عاجزة عن مبارحة مكانها! لقد عاودت إخفاء عينيها خلف نظارتها الرديئة! تشعر بالتوتر وإلا ما فركت حبات ذاك المسباح الغريب! ربما مساعدتها أمرٌ مفيدٌ؛ حين يعلن أنه برفقة عارضة وليس مقلمة أظافر! هذا إن صحت مشاعره وعثر على المزيد برفقتها!

* *

حدقت باللافتة الضخمة التي طبعت ماهي صورتها فوقها، فابتسم مطمئنًا: ثقي بي، أخبرتك أني لم أضمر الشر يومًا لامرأة.

عبثًا حاولت تصنُّع المرح: وهل تضمره للرجال؟

قال بشرودٍ: تجبرنا الحياة أحيانًا على القيام بأشياء مقيتة، تؤذينا قبل أن نؤذي غيرنا!

همست بخفوت: أنت أكثر تعقيدًا مما تصورت يا ابن الساعي!

زفر بسخرية: ليس كثيرًا يا ابنة ذو الفقار ـ بعض العرق وخز جبهتها ومنبت شعرها حين توقف المصعد ـ بإمكاننا العودة إن شئتِ!

حدقت بعينيه القاتمتين لبرهة: أشعر الحكاية أكبر مني.

قال برزانة: أنت الأكبر من الحكاية كلها، أنت كنز بالنسبة لماهينار، لكن لا تخافي، أنا معك.

احتلت العديد من صور العارضات الشهيرات الحائط، حملت وجوه البعض منهن ملامح عربية والأخرى لعارضات أجنبيات أُخِذَت من صورهن الرائعة، الإضاءات المبهرة التي سُلِّطَت عليهن جعلتهن باهرات الحسن. سألتها السكرتيرة ببرودٍ عن موعد سابق، همَّ راغب بالحديث فعاجلته:

"أخبريها أن قِسمت ذو الفقار" كانت عينا السكرتيرة مسلطتين على راغب الذي وقف مقطبًا بضيق لممانعتها المستميتة لنطقه جملة مفيدة! التفتت نحوه بعدما أشارت لها السكرتيرة بالدخول: "سأدخل وحدي" رفعت رأسها مبتعدة وعيناه تلتهمان كل تفصيلة بها رغم حنقه؛ ليتني اختطفتها لأقرب صحراء وانتهيت! هتفت السكرتيرة: "تأمرني بشيء يا راغب بيه؟" حدجها بازدراء وأشاح وجهه.

طرقت الباب وسحبت نفسًا عميقًا بقوة، راسمة أجمل ابتسامة؛ بطاقة عبورها الدائمة! وجدت ماهي خلف مكتبها تحرِّك المقعد الدوار يمينًا ويسارًا بتسلية، وقد رسمت هي الأخرى فوق شفتيها ابتسامة واسعة يلتمع بها بريق الجذل: "أهلًا بالقمر، لم أتوقعك بهذه السرعة!" خطأها الأول! توجَّب عليها التصنع كما تفعل الفتيات أمام هذه العروض! أشارت إليها بالجلوس فقالت: "لقد فكرت بعرضك، يروقني الأمر" رمقتها ماهي بنظر تقييمية لبرهة، ثم أشارت برأسها لتنهض وتسير أمامها لترى مدى مناسبتها للوظيفة، ترددت للحظة ثم فعلت ما طلبته، فمطت ماهي شفتيها بحسرة: خسارة، جسدك رشيق لكن غير مناسب.

يبدو أن ثوب الأمس منحك مظهرًا رفيعًا أكثر من حقيقتك، وعمرًا أقل من عمرك!

أطرقت بحزن: ظننتك متحمسة لي.

ارتفع جانب فمها: ومازلت، لكن....

قاطعها صوته الأجش: "لكن ماذا؟" التفتت ماهي متسعة العينين حين دلف راغب، سائرًا بخيلاء نافثًا دخان سيجاره مشيرًا برأسه نحو قسمت: أراهن أنك ستطيرين من السعادة لمجيء أسوم ـ أمالت ماهينار رأسها بريبة فجلس على المقعد أمامها ـ سمعتك تقولين ولكن!

ـ تعرفان بعضكما!

التفت نحو قِسمت التي بادلته نظرة مرتبكة: معرفة وثيقة ـ انطفأ الجذل

بعيني ماهي ـ خلال أيام قليلة سنعلن خطبتنا ـ أردف بنبرة حالمة ـ أوقعتني بابتسامة! أرادت المجيء وحدها وأصررت على مرافقتها للتأكد من حصولها على عقدٍ جيد ـ استطرد متشدقًا ـ بعرض الأزياء!

خطوبة! لقد تمادى كثيرًا، حسنًا ليس كثيرًا، تروقه الفكرة رغم جنونها! تأملها فاغرة الفم بذهولٍ وابتسم. "مفاجأة رائعة" قالتها ماهي مجيلة نظرها بينهما، فانتبهت قِسمت: "تعلمين راغب، سيد المفاجآت!" عضَّ على شفته السفلى بتسلية حين سمع صوتها ينادي باسمه.. لذيذ! إطباق شفتيها حين تتفوهان بالباء؛ قاتلتان! تأوَّه بصمت، ستُفقِده عقله! نهض يلف ذراعه حول خصرها فجفلت راسمة ابتسامة مصطنعة تخفي ذعرها، لديه قدرة عجيبة بالحصول على رد الفعل الذي يرغبه، وهذا غير مطمئن!

ـ ألا توافقينني أن خطيبتي تملك أجمل ابتسامة في العالم؟

"قِسمت هانم قمر فغرت الأخيرة شفتيها، دعتها ماهي بالهانم توًّا! هزت رأسها كمن أفاق من غيبوبة: لا يهم، أمن المستحيل عملي بمجال الأزياء؟

سارع راغب محذرًا: لا يوجد مستحيل بقاموس ماهي! أليس كذلك؟

التفت نحو السيدة التي جمدت ملامحها، فتمتمت على مضض: أنا تحت أمركما، هل يمكنها فقدان أربعة كيلو جرامات؟!

قلب شفتيه: سأحزن كثيرًا على فقدانها إستدراتها ـ همت قِسمت بالصراخ اعتراضا على وقاحته، فأضاف بحسرة ـ لكن أحلامها أوامر، إن أرادت أن تصبح عارضة فلتكن!

ـ إذن سأكون بانتظارك خلال أسبوع لنبدأ التدريبات.

أمسك راغب بيدها لاثمًا: تهانئي يا حياتي ـ احمرت وجنتاها حتى شابهت البطيخ ـ سنعود يوم السبت القادم.

ابتسمت ماهي ابتسامة صفراء: "ترى متى إعلان الخطبة؟" زفر بسخرية: "أقرب مما تتصورين" ووضع يده خلف ظهر قِسمت يقودها نحو الباب.

عاودت الالتفات: سيدة ماهي، أرجو ألا تخبري السيدة هيام بشأن لقائنا.

قالت ماهي بسعادة: هي رغبتي أيضًا.

لا بأس! لن يرضيها عرض الأزياء، ولن تكفيه، راغب مَلُول؛ لن يصبر طويلًا على نوعٍ واحدٍ من الطعام! يقعن دومًا في النهاية مهما طال الوقت! مسكينة هيام، فَقَدتِ واحدة أخرى من فتياتك!

* * *

كانت واجمة يقودها كالعمياء حتى استقلا السيارة، فسألته: إعلان الخطبة المفاجئ!

- ألم تري أنيابها؟ عالم ماهينار شرس، وربما لقاؤنا قدريًا!

- كيف استطعت تطويعها لرغباتك؟!

ابتسم ساخرًا خلف نظارته الشمسية: النفوس البشرية مليئة بالثقوب، ضعي خُطّافك في الثقب المناسب، واجذبي بقوة - طالعت برهبة حركة إصبعيه كالخطاف - تصبح الفريسة ملك يديكِ.

يؤرجحها بين الخوف والاطمئنان، يخيفها من نفسه وما يلبث أن يضع قناع الوداعة وسذاجة الحملان! هل ترتدي دروع الحماية أم تسلمه دفة القارب ليبحر بها في محيطه المجهول؟! قالت: سأتأخر على عملي - أردفت بنبرة ذات مغزى - لم أصبح model بعد!

ابتسم برقة: حدثيني عن أسرتك.

أطرقت مزدردة ريقها لتعبث بحبّات المسبحة فوقعت عيناها على طرف سماعتها المتدلي من حقيبتها، روزا صامتة! المرة الأولى التي تغادر عالمها لفترة طويلة. غمغمت: أعيش وشقيقتي وحدنا.

- حياة صعبة تواجهانها وحدكما! - رفعت كتفها باستخفاف - تعجبينني كثيرًا يا قسمت، وأريدك، أعني كما يريد أي رجل امرأة، وأعني كل حرف مما نطقته.

قالت بتهكم: هناك ألف صورة يرغب الرجل بها المرأة.. حبيبة، خطيبة، صديقة، وأحيانًا كثيرة عشيقة، أو.. زوجة.

ضحك بتسلية: تسلكين درب الصراحة مثلي، حسنًا، أريد كل هؤلاء وبالطريقة التي تريحكِ ـ أردف بجدية ـ لم أكن قديسًا وجرأتي على الصراحة تكفيني للاعتراف بأنني زير نساء ـ مطَّ شفتيه بنبرة بدت بعيدة عن التفاخر ـ سيء السمعة كما يقولون.

سألته بعصبية: وهل أنا من سيختار؟!

رفع كفه ممسكًا يدها المعلقة في الهواء محتضنًا إياها بين كفيه: أخبريني أولًا، هل أعجبك كما تعجبينني؟ أوشك على فقدان عقلي توقًا للاقتراب حتى تمتزج أنفاسنا!

حسنًا، بالحديث عن الأنفاس، هل يعني هذا الشيء الذي تحبسه بصدرها؟! ألحَّ عليها: "أسوم! أجيبيني ضاقت عيناها حين هاجمها دوار من ضغط رئتيها الصارختين طلبًا للهواء، والتفتت محدقة بمقبض الباب تفكر بالركض بعيدًا آلاف الأميال حتى تفصل بينهما شوارع وبنايات ومسافات، حتى يتلاشى ذلك الشعور حلو الطعم كالخطر المُزيَّن بأكاليل الزهور! يسعى شاحذًا كل قوته وكل ما يملك من قدرات لجذبها نحو أتونه! رفعت يدها ببطءٍ نحو مقبض الباب وهمَّت بالهرب إلا أن صوت الإغلاق الإلكتروني أوقفها: لا تحاولي الهرب! إعلاني خطبتنا كان أغرب ما فعلته بحياتي فكان أكبر دليل لنفسي على احتياجي بقائك إلى جانبي وبأي ثمن.

دوت كلمته الأخيرة بأذنيها كجرس إنذار! فسألته بصوت مختنق: أي ثمن تفكر بدفعه لتبقيني بقربك؟! أنا لن أكون عشيقة أبدًا!

ابتسم لاثمًا طرف إصبعها الصغير: إذن لن تكوني، فقط أخبريني أنكِ تشعرين ما أشعر

شهقت بغتة: يا إلهي! موعد العمل، أرجوك، افتح الباب، أرجوك.

أصابتها الهستيريا ففتح الرتاج الإلكتروني لتمسك حقيبتها راكضة،

يودعها صوته الجهوري: لم ينتهِ الأمر!

* * *

ـ يداكِ مريحة للأعصاب يا أسما.

ابتسمت ممررة يدها بلطف على كتفيّ علياء المستلقية أمامها، مستعينة بنقاط الزيت المعطر الذي وضعته فوق ظهرها العاري: سعيدة لأنكِ قررت استقبالي ولم تقومي بإلغاء الموعد للمرة الثانية.

حين ألغته أيقنت أن الجبالي منعها، لكنها الآن تتنفس الصعداء؛ نسيها كما توقعت، أو ربما لم ينتبه لها من البداية بظلام الشرفة! لا، لن تخدع نفسها، لقد رآها وطالعها العين بالعين، تعبيراته المزدرية بالقاعة كانت واضحة كالشمس! قالت علياء: كان ظرفًا طارئًا ـ تابعت بنبرة ناعسة ـ لماذا لم تتزوجي للآن يا أسما؟

ـ لم يأتِ ابن الحلال بَعد.

التفتت إليها قليلًا: أحقًا أنتِ بانتظاره أم هو موجود لكنها الظروف؟

قالت قِسمت مضيفة بعض نقاط الزيت فوق ظهرها: بل مازلت بانتظاره ـ أردفت باهتمام ـ من الأفضل أن أضع لكِ قناع الوجه.

أومأت علياء مستلقية على ظهرها: أتمنى أن تعثري يومًا على من يحبك بصدق، لا تتنازلي مهما حدث.

شردت قِسمت متذكرة أحمد وحبه الكبير الذي ناءت بحمله الضلوع! ترى هل ركلت النعمة التي ستندم عليها؟ سألتها: هل أنتِ متزوجة منذ فترة طويلة يا مدام؟ تبدوان سعيدين. تنهدت: قاربنا على الثلاث سنوات ـ أضافت بشرود ـ يحبني بجنون. يظهر حبنا جليًا، أليس كذلك؟

أومأت قِسمت باسمة فيما رنَّ هاتف علياء، ورأتها تتجهم بقوة حتى تشقق القناع. انتفض قلبها رعبًا؛ هل اتصل ليأمرها بطردها؟! يا إلهي! لم تحصل بَعد على الإكرامية! رأت علياء تومىء بإحباط: "أمر مزعج" ثم

ألقت الهاتف بعصبية على الأريكة المقابلة لفراشها مطرقة بتفكير. رفعت عينيها أخيرًا نحو قِسمت التي كانت تلملم أشياءها بتوتر شديد: أسما، هل تعرفين بالمصادفة شخصًا يمكنه مساعدتي بالضيافة؟ شخص يمكنك الوثوق به كي يأتي إليَّ خلال ساعة؟ زوجي العزيز فاجأني بدعوة ثلاثة أشخاص على الغداء!

ـ آسفة جدًا، لا أعرف.

أرخت علياء كتفيها بإحباط وجعلت تضرب قبضتها براحة يدها، تسير جيئة وذهابًا حين توقفت بغتة: لدي فكرة رائعة، لم لا تقومين أنتِ بمساعدتي؟

التفتت إليها بحدة: لكني لا أعمل بمجال الخدم يا مدام!

شهقت: لم أعنِ هذا، هي مجرد خدمة ستؤدينها لي، بإمكانك القول إنها تقترب من فن الضيافة والوقت ضيق، أرجوك ـ كان التجهم يعلو ملامحها وصمتها الرافض ينبئ عما يعتمل بداخلها من انزعاج ـ سأعطيكِ مائتي جنيه في الثلاث ساعات التي ستمضينها معي.

هزت رأسها بحرج: سيدة علياء، الأمر لا يتعلق بالنقود، أنا!

هتفت علياء: "ثلاثمائة" عضت قِسمت على شفتها السفلى، ماذا بشأنه؟! كانت تأمل في الرحيل قبل عودته ومواجهة سخريته المزدرية من خلف نظارته! "حسنًا يا أسما، أربعمائة، ماذا قلتِ؟" رفعت رأسها مبتسمة بمرارة: "أربعمائة جنيه في ثلاث ساعات؟" أومأت علياء وابتسامة ماكرة تتلاعب بشفتيها. حسنًا أيها الطبيب، يبدو أنه مقسوم لنا المواجهة! أربعمائة جنيه إغراء كافٍ. ستعود لنوار بأربعمائة جنيه. نوار! أسرعت قائلة: حسنًا يا مدام، ولكن امنحيني الفرصة لكي أُطمئِن شقيقتي.

هتفت علياء بحماس: أعدك بأن الأمر أبسط مما تتخيلين.

كيف حالك الآن يا حبيبتي، هل انخفضت الحرارة؟ ـ هزَّت رأسها بحيرة ـ ارتفعت ثانية! ماذا يحدث؟ نحتاج لطبيب متخصص، المضاد

الحيوي لم يفعل شيئًا ـ لوحت يدها بإحباط ـ أنا قلقة، ولا أدري سبب رفضك الذهاب! ـ أومأت بحزن ـ حسنًا يا حبيبتي حاولي شرب الكثير من السوائل والماء ـ سارعت قبل إغلاق الهاتف ـ انتبهي لنفسك.

فكرت ببؤس، أعراض البرد الدائمة وتلك الآلآم! مهلًا، الجبالي طبيب! ربما تكون فرصة لاستشارته، وكيف ستجرؤ على السؤال؟! أطرقت بإحباط معيدة أغراضها إلى الحقيبة، وجلست قُرب نافذة عالية تطل على حديقة صغيرة، ألقت نظرة للمرة المائة على الهاتف بانتظار مكالمة من رقم مجهول! أسبوعين لم تَرَه أو تسمع صوته، وجَبُنَت من الذهاب للموعد المتفق عليه دونه؛ غبية! وضعت ثقتها بشخصٍ ظهر بحياتها لبضع سويعات معتمدة على وعده الواهي؟! وضعت سماعتها بأذنها...

أنا خوفي.. أنا خوفي من عتم الليل والليل حرامي.. يا حبيبي تع قبل الليل..

انهمكتا في العمل لأكثر من ساعة، وقد اكتشفت قِسمت أن التحضير لدعوة غداء لدى علية القوم، يستغرق وقتًا رهيبًا وتفاصيلًا أكثر مما تخيلت! حين قاربت الساعة على الثانية والنصف كانت تضع قطعًا من الحلوى الشرقية في صينية فضية، بترتيب أشارت عليها به علياء التي انهمكت بتقطيع عناقيد من العنب الأحمر والأخضر في إناء كريستالي ضخم. سمعتا صوت باب الشقة، ودلف عدنان مرتديًا نظارته الشمسية، يحمل في يده باقتين من الزهور ملأت رائحتها المطبخ: "أعتذر يا عزيزتي، فاجأتك بدعوة الغذاء" حدق بقسمت في صمت لثانية ثم أشاح وجهه، ازدردت ريقها بتوتر متحاشية النظر إليه، بينما اقتربت علياء طابعة قُبلة فوق وجنته، فرفع يده مبعدًا العدسات القاتمة عن نظارته الطبية: "لدينا ضيوف!" أشارت علياء نحوها بسعادة: "أنها أسما! ألا تذكرها؟" قال ببرود: "سيصعد البواب خلال ثوانٍ ومعه الطعام، سأكون بغرفتي". ودون أن يلقي عليها نظرة أخرى، اختفى! رفعت يدها نحو وجنتها المحترقة، توشك على فقدان الوعي. ما لهذا الرجل يربك كيانها كلما التقيا؟ في لحظة تَسقط ثقتها متدحرجة أسفل قدميه كتلميذة خجلة!

لا بأس، أربعمائة جنيه مبلغ يستحق المهانة، لايهم يا أسما، تذكري دومًا (لا يهم)! انشغلت وعلياء لنصف ساعة أخرىٰ في التحضير للغذاء وإعداد المائدة، ثم تركتها الأخيرة وذهبت لتنسيق الزهور. سمعتا جرس الباب الخارجي وعدنان يرحب بالضيوف، همت علياء بالذهاب ثم عادت مترددة: حسنًا! ملابسك غير مناسبة لتقديم الطعام ـ تفقدت قِسمت ملابسها بحيرة ـ الجينز والقميص غير مناسبين للضيافة ـ هزَّت رأسها بتساؤل، فأسرعت علياء نحو إحدىٰ الخزائن مخرجة ثوبًا أسود قصيرًا ومئزرا مزركشًا ـ اِرتدِيه من فضلك يا أسما، ترتديه دومًا من تأتي لمساعدتي.

حدقت بالملابس رافعة حاجبيها بذهول، كان الثوب يشبه ثوب الخدم بالقصور: لكن الثوب قصير، ولا أملك جوارب سوداء!

أشارت علياء نحو أحد الجوارير ستجدين الكثير منها هناك، وأرجو أن تلملمي شعرك علىٰ شكل كعكة ـ مطت شفتيها بابتسامة لطيفة ـ أسرعي من فضلك.

لأجل أربعمائة جنيه تحولت لخادمة! لكنها حمقاء، كان عليها توقُّع شيء كهذا، فمهما تزينت الكلمات وتجملت العبارات يبقىٰ المعنىٰ واحد؛ ضيافة أي خادمة! ومهما كانت علياء لطيفة معها، ستظل بالنسبة لها واحدة ممن يقدمن الخدمات مدفوعة الأجر! أغلقت باب المطبخ بالمفتاح وسارعت بارتداء الملابس ململمة شعرها علىٰ شكل كعكة! سمعت صوت ضحك آتٍ من الخارج، ثم دلفت علياء هاتفة بإعجاب: يبدو الثوب رائع عليك، هيًّا لتقدمي العصير، وسأكون بانتظارك بالخارج.

حين رأتها علياء أشارت نحو أحد الضيوف: "قدمي للدكتور شمس أولا" اتجهت نحو رجل كبير وقدمت الصينية فتناول منها إحدىٰ الكؤوس، مانحًا إياها ابتسامة لطيفة، سارت نحو البقية مناولة إياهم؛ فتاة وشاب صغير منحها نظرة إعجاب حين تناول منها الكأس. قال عدنان موجهًا حديثه لزوجته: دكتور شمس من المنيا، هو أستاذنا، وقد التقينا مؤخرًا في مؤتمر طبي، فأصررت علىٰ دعوته للغداء حين يزور القاهرة ـ كان يضع ساقًا فوق

الأخرىٰ، قدمت له متجنبة النظر إلىٰ عينيه لكنه رفض ببرود ـ الدكتور شمس الدين ذو الفقار لديه مشروع رائـ....

انقلب الكأس المتبقي على الصينية فامتقع وجهها، ولملمت الأشياء المتسخة بارتباك: يا إلهي! أ.. أنا آسفة حقًا، يالـ.. يالغباء!

ضاقت عينا عدنان متأملًا إياها علىٰ وشك الإغماء خجلًا! وهل تملك ذَرَّة من الخجل؟! تلك الواثقة من نفسها وابتسامتها، سائرة بخيلاء بين البشر وكأنها أميرة! وهي ليست سوىٰ متسولة، مخادعة، فاسدة الأخلاق كمثيلاتها! صاح بازدراء: لم لا تنتبهين لعملك؟

رفعت رأسها المنحني تعض علىٰ شفتيها المرتعشتين: آسفة، سأنظف كل شيء حالا

ألقت نظرة خاطفة علىٰ الدكتور شمس حين نهضت علياء مبتسمة: لا بأس يا عزيزي، لم تتعمد الأمر.

وضع الدكتور شمس الدين كأسه الفارغ: حصل خير يا جماعة، نقول في المنيا (دلق القهوة خير)، ولا مانع أن يكون عصيرًا.

ضحك الجميع في محاولة لتخفيف حدة الأجواء، عدا أن التجهم لم يبارح جبهته فأشاح بوجهه، ليسأل الطبيب الشاب الذي سلَّط نظراته علىٰ ساقيْ قسمت: وأنت يا دكتور كريم، هل تشجع والدك علىٰ القيام بهذا المشروع؟

رفت قِسمت عينيها مغالبة دموعها واختلست نظرة أخرىٰ نحو الدكتور شمس ثم سارعت بمغادرة الغرفة. لم يغفل عدنان عن كريم الذي تابعها بعينيه فناداه بإصرار: "دكتور كريم!" انتبه الطبيب الشاب معتذرًا، وانتبهت علياء بدورها: لقب عائلتكم (ذو الفقار)! مصادفة غريبة، اسمًا أيضًا تحمل ذات اللقب ـ سألها دكتور شمس عمن تعني فأجابت ـ قِسمت ذو الفقار، مدبرة المنزل المؤقتة ـ نادتها قبل أن تختفي بالداخل ـ كنت أخبر دكتور شمس الدين أنكِ تحملين لقب عائلته، أيمكن أن تكونوا أقارب بالمصادفة؟!

تجمدت بوقفتها متسارعة الأنفاس، والتفتت ببطء، نظرت لشمس بابتسامتها الواسعة التي أظهرت غمازتيها: لا أظن، ربما هو تشابه أسماء.

ابتسم بدوره: لا أظن أننا امتلكنا يوما بعائلتنا ابتسامة مذهلة كابتسامتك يا قسمت، حسبما أذكر نحن عائلة صعيدية بلا غمازات.

ضحكت الفتاة التي كانت بصحبتهم: انتبه يا بابا، أنت تغازلها! سأشي بك لماما.

لوح شمس يده بمرح: لا بأس يا نوار، سامحيني هذه المرة، البُنَية ضحكتها حلوة.

نوار! سمعت صفيرًا حادًا بأذنيها، مغمغمة: أشكرك.

قال عدنان باهتمام: أراها مجازفة كبيرة يا دكتور شمس؛ جنوب سيوة تعداد سكانها وزوارها لا يصلح لإقامة المشروع!

سارع كريم: مستقبل المنطقة رائع، وبناء المركز الصحي هناك فكرة مذهلة؛ الطبيعة خلابة والأجواء صحية والهواء نقي، وفرصة استخدامنا للعلاجات الطبيعية متوفرة.

أضافت الفتاة بنفس الحماسة: سيكون مركزًا للسياحة العلاجية من الطراز الأول، وسنحتاج لشريك بثقلك وخبرتك يا دكتور.

زفر عدنان: مشروع بهذه الضخامة سيجذب الشريك كما يجذب الدببة العسل.

سأله شمس عما يعينه فرفع عدنان حاجبيه محدجًا إياه بنظرة ذات مغزىٰ، لوح كريم يده بضيق: لماذا تتحدثون بالألغاز؟

قالت نوار: يعني الطرف الثالث الذي لا يمرر مشروعًا ضخمًا دون ان يكون له نسبة فيه؛ الأخوين.

لا أظن أني سأغرز قدمي بتلك الرمال المتحركة ثانية وقد اختبرت خطورتها.

هتف كريم باستنكار: وهل سنئدُ أحلامنا بسببهم؟ يمكننا الرفض.

- مستحيل يا كريم، والدي وصديقه لم يستطعا التملص، والنتيجة سفينة مليئة بالثقوب ببحرٍ هائج!

* * *

طالبتها علياء بإحضار الملاحة أثناء الطعام، فأتت مسلِّطة نظراتها على شمس الذي انهمك بتقطيع شريحة اللحم. قال عدنان بتهكُّم: "أسرعي من فضلك يا آنسة" انتبهت بارتباك نازعة عينيها عن الرجل، ووضعت الملاحة مغادرة الغرفة. جلست على المقعد المقابل لطاولة الطعام بالمطبخ، تدس ملعقتها بطبق الأرز المُزيَّن بقطع اللحم الصغيرة والكبد المحمر، ورغم معدتها المتلوية جوعًا أعادت دفن الملعقة الذهبية وشهيتها داخل الأرز! شاردة نحو نافذة المطبخ المطلة على الشارع الصاخب، تابعت سيارة حمراء صغيرة تحاول المرور بين صفوف السيارات كنملة بين أرجل الأفيال، فاضطرب السير بغتة وتعالت الأبواق المنزعجة بكل مكان اعتراضًا على محاولتها! هاهي تتناول الطعام بالمطبخ الفخم كإحدى الخادمات! حاولت الرفض، فأجبرتها علياء بلطفها. لا يهم! ولِمَ لا تأكل؟ الطعام رائع ودعوة علياء كانت لطيفة. عبثًا عاودت المحاولة وقد تسلل كبرياؤها لمعدتها لافظًا كل لقمة! ربما هو الهاجس الرهيب الذي يسيطر عليها أن يكون من تظنه! أيعقل أن يكون الرجل بالخارج هو شمس الدين أصغر أعمامها! حكى والدها الكثير عن عائلته؛ عائلة ذو الفقار ذات الأصول الصعيدية العريقة، والأطيان والأراضي الممتدة التي استطاعت التملص من الإصلاح الزراعي، لما قام به جدها من توزيع أراضيه على الفلاحين بعقود صورية يقابلها صكوك قابلة الدفع الآجل، ذاك الثراء الفاحش الذي لم تذق منه وعائلتها شيئًا، وقد تنازل عنه والدها لشقيقه نور الدين بعدما حمل أمانة الأخذ بالثأر! وكان أهم ما قصه عليها حرص جدها على تسمية أولاده بأسماء تقترن بكلمة (الدين)، فكان والدها علي الدين وهو الأكبر تلاه نور

الدين ثم عز الدين وأخيرًا شمس الدين، هزت رأسها بحيرة متلاعبة بحبيبات الأرز بطرف ملعقتها، لم لا يكون مجرد تشابه أسماء؟ لا، قلبها يحدثها أنه هو. شمس الدين، أصغر أعمامها، وأقربهم لقلب والدها رحمه الله! قدر غريب! آلآف الأطباء بمصر فيلتقي الجبالي بهؤلاء بعينهم؟! تلكما العينان اللتان تشبهان عينيّ والدها، بل وربما تحملان ذات اللون العسلي القاتم، حتى أنفه الدقيق، يا إلهي! عمها واثنان من أبنائه بالخارج؛ عائلة من الأطباء! أسما يا معتوهة، مجرد تشابه أسماء، ولكن، المنيا أيضًا مصادفة؟! دفعت الطبق المليء بالخضر واللحم بعيدًا بامتعاض ممسّدة جبهتها، ونهضت مخرجة هاتفها لتتصل بنوار بعدما ألقت نظرة على المكالمات الفائتة؛ لم يتصل! حدثتها سريعًا لتطمئن عليها وعلمت أن الحرارة عاودت الارتفاع والعمة صفية تضع لها بعض الكمادات الباردة.

دلفت علياء إلى المطبخ تطلب المعاونة في تقديم الحلوى والفاكهة. حملت كلٌّ منهما طبقين متجهتين لغرفة المعيشة، وانشغلت بعدها بلملمة أطباق بالغذاء من طاولة غرفة الطعام المقابلة، مختلسة النظر كل حين نحو شمس الذي جلس بمقعد غير بعيد. ثم انشغلت في المطبخ الفوضوي. كانت علياء تأتي كل حين لسؤالها إن كانت بحاجة لشيء معتذرة أنها مضطرة للبقاء مع الضيوف. وحين دقت الساعة السابعة والنصف كان الضيوف يودعون مضيفيهما بابتسامات لطيفة. أسرعت قِسمت معاودة اختلاس النظر لوجوه الجميع؛ كريم يشبه شقيقها ياسر، كما شابهت شقيقته نوار! جينات العائلة قوية!

قال شمس: أرجو أن تعاود التفكير في الأمر يا دكتور، وأنا سأحاول تخفيض مساحة رؤيتنا للمشروع كما نصحتني حتى لا نصنع منه حدثًا ضخمًا.

قال كريم: شراكتنا معًا مكسب كبير لكلينا، لا يجب أن نسمح ببيع أحلامنا في سوق نخاستهم.

لاحظ عدنان الدكتور شمس يصوب نظراته نحو المطبخ بابتسامة لطيفة، فاكتشف وقوف قِسمت خلف الباب الموارب تبادله ابتسامة مرتبكة! المراوغة المخادعة تختلس النظر للرجل العجوز، تظنه صيدًا جديدًا! أشاح وجهه محدثًا شمس: أعدك أن أفكر بالأمر، شرفتمونا بالزيارة يا دكتور.

- الشرف لي أنا يا عدنان، منذ كنت أستاذك بالجامعة وأنا معجب بك كثيرًا وأعدُّك واحدًا من أبنائي.

* * *

تأكدت من إتمامها عملها على أكمل وجه بعينين غارقتين في دموع تأبى الانفلات عن حدود أجفانها، عذاب التفكير ينهش روحها المقسمة بين سعادة واهنة وغضب شديد، بدلت ملابسها ذاهلة، ربما قابلت اليوم واحدًا ممن كتبوا على والدها وعليهم العذاب بحرمانهم من حقهم في ميراث شرعي وحياة كريمة، لكنها أبدًا لن تعرف الحقيقة، فقد فاتت الفرصة! استندت بكفيها فوق الحوض الألومنيوم مطرقة، ربما يمكنها سؤال الجبالي عله يقطع الشك باليقين! جفلت حين دلفت علياء تربت فوق إحدى كتفيها: "أرهقتك معي اليوم يا أسما" كانت تحمل اللاب توب الخاص بها فعضت على شفتها بتردد، سألتها علياء إن كان هناك شيء تود قوله، مخرجة علبة القهوة مضيفة مقاديرها بدقة للركوة: "يحب عدنان قهوته مظبوطة لدرجة قاتلة - ضحكت ساخرة - دقيق في كل شيء!" قلبت القهوة واضعة إياها فوق نار هادئة، وجلست إلى الطاولة وفتحت الحاسوب، همَّت قِسمت بالحديث حين تناهى لسمعهما موسيقى تنبعث من الغرفة المغلقة المقابلة للصالون، قالت علياء محركة إصبعها باهتمام فوق المربع الصغير: "إنه عدنان، أدار إحدى أغنيات علي الحجار كانت تنظر إلى شاشتها بعينين مبتسمتين فانتهزت قِسمت فرصة انشغالها.

كنت أتساءل إن كان بإمكاني.. أعني إن كان مسموحًا لي أن.. أن أستشير دكتور جبالي بشأن حالة مرضية.

أومأت علياء دون انتباه حقيقي ناقرة فوق الأزرار: بالطبع ـ رفعت رأسها بنفاذ صبر ـ اسكبي القهوة بفنجان صغير وأعطيه لزوجي بغرفة مكتبه، الغرفة الثالثة على اليسار ـ ناولتها النقود ـ أشكرك على المجهود الذي بذلته معي اليوم.

حملت قِسمت صينية مذهبة وضعت فوقها فنجان القهوة المضبوط وكوب الماء البارد، متجهة إلى غرفة المكتب بركبتين تصطكان، شعرت بالغيظ من نفسها والقهوة تكاد تنقلب من رعشة يديها، يهينها بصمت ويخيفها دون تهديد! طرقت على الباب طرقتين وسمعته يدعوها للدخول، دلفت ليستقبلها صوت الحجار الرخيم بنبرته الحزينة...

ف قلب الليل.. وعزف الصمت متهادى كموج النيل.. ومافي حد في الشارع سوى مهر اتربط جازع...

كان جالسًا فوق مقعده خلف المكتب ممسكًا بنظارته الطبية، موليًا إياها ظهره، يحدق إلى النافذة المفتوحة المطلة على شارع خلفي هادئ خلا من المارة، كان الشارع قطعة أرض فضاء بانتظار من يدق بها أساسات بناء جديد، اتكأ برأسه على ظهر المقعد محدقًا في السماء التي أوشكت على فتح ذراعيها لعتمة المغيب، بقايا خيوط الشمس الراحلة تداعب في جولة أخيرة خط الأفق الأزرق كفرفرة روح، مهزومة لا محالة! يحب الجلوس هنا بعيدًا عن ضوضاء الشرفة الأخرى، كم سيحزن حين تقرر آلآت البناء اجتياح المكان وسرقة لحظات هدوئه! هتفت قِسمت بصوت مختنق: "القهوة يا دكتور . جمد بجلسته واستدار معاودًا ارتداء نظارته يرمقها ببرود، أشار برأسه نحو طاولة المكتب: "ضعيها واذهبي وضعت الصينية بحرص فوق السطح الخشبي متململة، اختلست نظرة نحو حاسوبه الذي انبعثت من سماعته ذبذبات الإيقاع...

وصهل المهر لم افهم.. اخوف مني.. ام اتعاجب...

تشاغل بالنظر إلى الأوراق أمامه فأطرقت تفرك حبات مسباحها: "كنت، كنت أريد أن.. أن..."، قاطعها بضيق: "تريدين ماذا؟". ازدردت ريقها

تستجمع شجاعتها ورفعت رأسها: أن أخبر سيادتك أن كثيرًا ما تبدو الأشياء على غير حقيقتها ـ ساعدها صمته على المضي ـ وأقسم أن ما رأيته في شرفة الفندق كان سوء فهم لا أكثر، لا أريدك أن تظن بي السوء.

ارتفع جانب فمه ببطء ورفع رأسه: ألا ترين يا آنسة أنكِ تضعين نفسك بمكانة أكبر بكثير من حجمك؟!

فغرت فمها: عفـ.. عفوا.

زفر بسخرية قاسية: من أنتِ لأهتم بما تفعلينه؟! من أنت لأكوِّن عنك فكرة أو أظن بك أي ظن، خاطئ كان أو مصيب! أنت لا شيء، فاطمئني ـ اشار بيده نحو الباب ـ والآن اذهبي فلدي أعمال هامة.

كانت كلماته كالصفعات اللاهبة، فرفعت يدًا بلا وعي نحو وجنتها! رغم ما تكالب عليها من بلاءات وكوارث في حياتها لم تشعر بمهانة كهذه! أرادت أن تلقي بفنجان قهوته في وجهه صارخة به (أنت أيضًا لا شيء، لا شيء أبدًا! مخلوق قاس لا تعرف الرحمة). كانت ترف عينيها بهستيرية مستميتة بمغالبة دموعها. لكنها بحاجة إليه! جابهت بشجاعة نظراته الباردة التي بدا الضيق يلوح فيهما، متمتمة بصوت طير مذبوح: هل يمكنني أن أسألك شيئًا؟ أرجوك، لن آخذ من وقتك الكثير ـ عاود النظر إلى الأوراق في صمت ـ الدكتور شمس الدين، هل هو من المنيا؟ ومن أي قرية بالظبط؟ وهل له اشقاء؟

رفع رأسه قالبًا شفتيه بازدراء: أنصحك بالابتعاد عن الدكتور شمس، وعدم استخدام فخ الابتسامة إياه، هو رجل فاضل ورب عائلة، فلا تضيعي وقتك الثمين، لأنك لن تحصلي منِّي على شيء يمكِّنك من الإيقاع به! ـ زفر بتهكم ـ ربما يمنحك غيره أكثر من خمسين جنيهًا في دقائق الوهم التي ستمنحينها له!

شهقت بارتياع: "أنا.. ولكن.. أنا.. أنا.. لم أكن يومًا! أنا لم أكن! صدقنـ..."، قطعت استرسال جملتها نازفة دموعها بغزارة أمام عينيه، حتى

باتت ترفع كفوفها الاثنين مكفكفة سيلها بلا جدوى، لتزداد نظراته برودة وجمود.

اللعنة عليك يا امراة، لم تصلح الغمازتين فتبكين؛ أقدم حيلة في التاريخ! أغاظه الضعف الذي بدأ يتسلل إليه! أراد أن يصرخ بها (توقفي عن البكاء واذهبي بعيدًا)! وكأنها سمعت صمت أفكاره فهمّت بالالتفات مبتعدة ينتفض جسدها، ثم عاودت الوقوف، لن تهرب، هي لم تخطئ، حتى وإن تبخر الأمل في معرفة حقيقة شمس الدين، فمازالت نوار بحاجة إليها! رآها تعاود الوقوف برأسٍ شامخ فعض على أسنانه، متناولًا أحد الكتب المتراصة بعناية على سطح مكتبة، وفتحه متشاغلًا بالنظر إلى الصفحة ـ عاجزًا عن قراءة كلمة من السطور التي تحولت أمامه للوغاريتمات، احتضنت نفسها بذراعيها في محاولة للسيطرة على انتفاضة جسدها، تأملته يقلِّب ورقة الكتاب ببرودٍ متجاهلا وجودها، ليرتفع جانب فمها بمرارة، ينظر للدنيا من نافذته الخاصة! نافذة بستائر حريرية تطل على بساتين خضراء وسماء صافية، ولكن لا يهم! لا يهم أبدًا! سأتخطاك، سأتخطاكم جميعا وسأمر فوق عقبة لقائك وإهاناتك أنت وعالمك.

ـ سؤال أخير..

رفع راسه يزم شفتيه بنفاذ صبر "اللعنة"، انفلتت الكلمة خافتة من بين شفتيه حين وقع نظره عليها، لِمَ عاود إرتداء نظارته الطبية؟! ليته ما فعل، لربما نجح الاستيجماتيزم الحاد بتشويش مرآها وتأثيرها المخادع! أدار مقعده بعنف مواجها الأرض الفضاء، فزفرت مغمضة عينيها: هي استش.. استشارة ـ شهقت بنشيجها ورفعت ظاهر كفها تمسح دموعها ـ شخص يهمني أمره، يعـ.. يعاني من ارتفاع في درجة الحرارة ما تلبث أن تنخفض لتعاود الارتفاع، وثمة آلام بالبطن والظهر تتزايد مع الوقت، لأي تخصص علينا اللجوء؟

إلام ترمي هذه المرة؟ هل تحاول استعطافه وإيقاعه بفخ جديد؟! قرر السير في طريقها للنهاية متمسِّكًا بقسم أبقراط: ربما هي نزلة برد تحتاج

لمضاد حيوي من نوع خاص، وتلك الآلآم ربما تكون التهابًا شديدًا في الأوعية الدموية أو أمرًا يخص الكلى، يجب أن تُعرَض الحالة على متخصص في المسالك أولًا وطبيب باطني جيد، لكني أفضل أن تذهب إلى مستشفى للاطمئنان على كل الأمور بشكل عام، وللقيام بتحاليل شاملة.

أومأت بصمت وعادت للوراء عدة خطوات مغادرة الغرفة. كان بانتظار تعليق وربما سؤال! أطرق مفكرًا لثانية ثم استدار بالمقعد: "بإمكاني أن ألـقـ..."، سمع صوت طرقة الباب القوية ليفاجأ بعودته وحيدًا سوى من موسيقى الأغنية، رحلت كما وعدته دون إضافة كلمة أخرى أو استغلال لوقته الثمين! زفر بغيظٍ متمتمًا من بين أسنانه: "وآخرتها!" ذهب للشرفة الأخرى ملقيًا نظرة عليها؛ كانت تحث الخطى مبتعدة عن البناية، يتناهى لسمعه صوت الحجار يشدو بنهايات الأغنية مخلفة وراءه رنينا حزينا...

وكان في جيده قيد جارحه.. وقيد في جيدى ما لمحه.. فبرد الليل..

مسحت وجهها المضرج بدموعها بغيظ متلمسة المبلغ من المال بجيب قميصها؛ جذوة النار فوق صدرها دفعت ثمنها الكثير، اشترت النقود بالمهانة والذل! لم يكن عليها سؤاله عن شمس الدين وهي تعي جيدًا استحالة الاقتراب من عائلتها أو طلب المساعدة! ماتزال كلمات والدها تطن بأذنيها (عليَّ البقاء بعيدًا حفاظا على حياة شقيقك). مازال الثأر فوق الرؤوس كظِل الموت! ومازالت السلسلة متصلة ببعضها! وقد فقدت العائلة ابنها الثاني بعد سنوات من رحيل والدها، وحين حاول والدها العودة وطلب الصفح، شيعته العائلة بالسخط! وها هي قد تلقَّت التقريع من رجل يبحث دومًا عن الأسباب ليشير نحوها بأصابع الاتهام! لا يهم! ستطوي صفحة الماضي مبتعدة عن تلك الأسلاك الشائكة بطريق ذاك الطبيب وزوجته. دلفت لأحد حوانيت بيع المشاوي، وحين ناولها البائع طلبها نجحت إحدى ابتساماتها الصغيرة في الوصول لطرف شفتيها، متخيلة وجه نوار حين تُرِيها إياه. وضعت بقية النقود بسعادة في جيب القميص لتخفت جذوة النار! لا يهم، نوار هي الأهم. استقلت الميكروباص معرِّضة وجهها لهبات الهواء الجاف

التي عبرت حدود النافذة الصغيرة، هاربة من خليط الرائحة المزعجة للقذارة والعرق المنبعثة من الأجساد المتلاصقة. تمر أضواء المصابيح ومضات متسارعة تشابه أفكارها. ألقت نظرة أخرىٰ علىٰ هاتفها متنهدة بإحباط، وجعلت تداعب حبات المسبحة حول رسغها. اختفاء راغب أخلىٰ المسرح للتردد يرتع فيه كيف يشاء! ماذا ستفعل؟! تأوهت متكئة علىٰ إفريز النافذة المعدنية، ربما عليها الإبقاء علىٰ خداع ماهينار فلا تنفي خبر خطبتها له! ستكون حريصة كل الحرص في تعاملها، ولا ضرر طالما في إطار عروض أزياء للدور الشهيرة وحفلات مفتوحة! ستفعل المستحيل للخروج من هذه الحفرة، لتسرع الزمن وتقصر المسافات لأجل شقيقتها ووالدتها، خاصة ونوار لم تعد

قادرة علىٰ العمل.

* * *

ـ كيف حالها الآن؟

قال زين بتجهم معتصرًا المنشفة الصغيرة المبللة بالماء البارد من وعاءٍ صغيرٍ وضعه فوق ركبتيه: ساعدت الكمادات علىٰ هبوط الحرارة، أحضرت الطبيب منذ قليل، شعرته حائرًا هو الآخر، لكنه أكَّد أن مناعتها ضعيفة، وطلب منا بعض التحاليل علىٰ الكلىٰ والدم.. ربما ستمكننا من معرفة نوع الفيرس.

هتفت سلمىٰ بحماس: أحضرنا الطعام.

دلفت العمة صفية متكئة علىٰ كتف سلمىٰ: يجب أن تأكل جيدًا، مقاومة المرض تحتاج لغذاء ـ ناولت قِسمت عدة أوانٍ معدنية ـ طهوت لها شوربة لسان العصفور وبعض الأرز والخضر باللحم.

اعتدلت نوار بجلستها: أشعر بتحسُّن فوري، الرائحة مذهلة أسالت لعابي.

رفعت قِسمت حقيبة الطعام بإحباط: خسر الكباب في مواجهة طعام العمة ـ وضعت الطعام على الطاولة الخشبية جالسة بجانب شقيقتها، وقد تبدلت ملامحها المرحة للجدية ـ هل أنتِ بخير حقًّا؟

أومأت باسمة: صدقيني أصبحت بخير، أحضر لي زين هذا الصباح نوعًا جديدًا من المضاد الحيوي.

أضاف زين: ألف جرام، لذا عليها أن تتغذى جيدًا ـ اقترب مناولًا نوار الوعاء المعدني الصغير ـ ابدئي بالحساء واشربيه كله.

ناولتها قِسمت نصف ليمونة: اشفي سريعا فأنا بحاجتك.

أخذها زين وعصرها فوق الحساء: إليك يا نوارة عمري مروحتي قنديلي فوق بساتيني.

هتفت نوار بسعادة: لا أمِلّ سماعها أبدًا.

حدقت قِسمت بالليمونة المعصورة الملقاة على الطاولة، يبدو أن الحياة لن تتركهما سوى بعد أن تصبحا مثل هذا النصف؛ معصورتين لآخر قطرة!

عادتا وحيدتين بعد إصرارهما على رفض دعوة العمة للمبيت معها بالشقة. سألتها نوار وهما جالستين على الأرض بعيدتين عن سور السطح: هل أنتِ أكيدة من قدرتك على هذا العمل؟ ـ أردفت بحيرة ـ هل تملكين الجرأة الكافية للسير أمام الناس فوق الممشى؟! كلما فكرت بالأمر اقشعر بدني!

أنت حقًّا psycho! تتظاهرين أمام مئات البشر وتخجلين من أضواء كاميرات وأعين تحدق بك؟ ـ مطت شفتيها ـ حسنًا أعترف أنه مختلف قليلًا.

هتفت نوار معترضة: كثيرًا! ـ رفعت قِسمت كتفيها بلامبالاة ملقية نظرة على هاتفها ـ لو اتصل سيرن الهاتف!

ازدردت قِسمت ريقها محدقة بالأفق المظلم: لكنه لن يفعل، عاد إليه عقله.

ـ التعامل مع شخص مثله كاللعب بالنار.

لم تشأ إخبارها بالتفاصيل الأخرى عن طبيعة ماهينار، فضلت السير في الطريق وحدها دون مشاركة شقيقتها أعباء ومخاوف هي بغنى عنها، سألتها بقلق حقيقي: هل أنتِ حقا بخير؟

- لا أدري يا أسما، أشعر أن مرضي يلاعبني، أحيانًا أكون بخير وأحيانًا لا، لكن المضاد الحيوي الجديد له مفعول جيد، انخفضت حرارتي كثيرًا.

- جيد، سنذهب غدًا لإجراء فحوصات شاملة كما طلب الطبيب، وقد استشرت طبيبًا آخر وأخبرني نفس الشيء.

قالت نوار بحدة: لا داعي للمصاريف، لننتظر حتى أنهي المضاد الحيوي ثم نرى بعدها - أردفت بقلق - لا أريد الذهاب للمشفى أرجوك، وكلما أسرعنا بادخار المال قصرت المسافات بيننا وبين أمي، يجب أن نتحمل قليلًا.

- لكنني قلقة عليك كثيرًا يا نوار، أريد أن أطمئن.

احتضنت نوار ذراعها: صدقيني سأكون بخير، هي فقط مناعتي الضعيفة، أعلم أن الأمر سينتهي قبل أن تنتهي أقراص الدواء الجديد.

رفت قِسمت عينيها مرسلة الدموع بعيدًا: من يدري! ربما بعد الغد سيكون معي المزيد من النقود، وخلال أشهر قليلة نتمكن من دفع المبلغ للدائن، وتعود أمي بيننا.

قالت نوار بنبرة حالمة: ونعود لمنزلنا، ومن يدري ربما يعود ياسر - استطردت بحماس - أسما، نسيت إخبارك، لقد وضعت هبة، أسمته علي الدين كما تمنى ياسر - تلاشت الابتسامة من على وجهها متمتمة - علينا إحضار هدية!

ربتت على يدها مطمئنة: سأحضر بالغد هدية لطيفة، هيًا اذهبي لترتاحي وسآتي خلفك.

اتكأت على كتفها لتنهض بتثاقل: لن أنام قبل مجيئك لأتأكد من إغلاقك النوافذ والأبواب.

زمجرت: ألا تثقين بي أبدًا!

- لا أثق بعقلك!

اختارت رواية كانت قد وعدت نفسها بقراءتها منذ فترة طويلة (عقل وعاطفة لجين اوستن)، معاودة الجلوس على الأرض، اتصلت بزوجة شقيقها وهنأتها، متعمدة جعل المكالمة أقصر ما يكون؛ ما لديها من طاقة يوشك على النفاذ، كما أن مخزون الدموع لليوم انتهى!

* * *

استيقظت في اليوم التالي على صوت شقيقتها المبتئس: "ألم أقل لك؟" نهضت بتثاقل وكل جزء في جسدها يؤلمها من نومها على الأرض! تمتمت: "الحر قاتل . صاحت نوار: "أفضل من كارثة أخرى!". سارعت لتفتح النافذة فهبت نسمة هواء هادئة محملة بعبق النيل وأشعة شمس الصباح. حصلت على حمَّامٍ باردٍ ثم ارتدت بنطالها الجينز وبلوزة صفراء ناعمة، واضطرت لوضع حزامٍ فوق البنطال بعدما أصبح واسعًا عليها؛ الحمية الخاصة بالأسبوعين الماضيين أتت بثمارها! تركت شعرها مسترسلًا ليجففه هواء السطح، عل التجعيدات التي سيصنعها الهواء تمنحه رونقًا ومظهرًا عبثيًا؛ تحتاجه اليوم أمام ماهينار! أصرت نوار على مرافقتها بالزيارة الشهرية للسجن خاصة وقد انخفضت حرارتها. لم يكن لديهما الكثير لتقصاه على والدتهما، أو بالأحرى ما تملكانه لم يكن مناسبًا كي تسمعه فريدة، خاصة وقد حرصت نوار على التماسك أمامها مخفية مرضها. عرجتا بعدها على زوجة شقيقهما في زيارة لم تستغرق الكثير، بعدما اشترت قِسمت هدية لطيفة للطفل، ثم افترقتا لتعود نوار للمنزل بعد أن أنهكتها كلتا الزيارتين. كانت تبحث عنه بكل الوجوه من خلف نظارتها على أمل الاصطدام به، ملتفتة نحو كل سيارة تمر إلى جانبها، لكن سرعان ما انطفأ الأمل حين أوقفت المايكروباص، لا يهم! من الجيد أنه لم يأتِ! راودتها فكرة مخيفة، أيكون قد استخدم اتصالاته ونفوذه لمعرفة المزيد عنها؛ تعيش في غرفتي السطح ووالدتها بالسجن! ولكن ألم يخبرها أنه مصر على معرفة كل شيء منها وبرضاها؟ حمقاء! لقد عاد لرشده، بات

يعي أنها لا تصلح له، هكذا..وببساطة!

حدقت لثوانٍ باللافتة ثم استقلت المصعد لينغلق الباب المعدني أمامها شيئًا فشيئًا، حتىٰ أوشك علىٰ الإطباق، لولا مفتاح معدني صغير ظهر من بين شقيه أوقفه! طالعها وجه مبتسم وعينان لاح بهما وميض الاعتذار، فكتمت أنفاسها من هول المفاجأة؛ راغب! هل تبعها؟! هل علم أين كانت قبل قليل؟! طمأنتها ابتسامته المشرقة، فزمت شفتيها رافعة رأسها بعجرفة.

ـ صباح الياسمين. لا أستحق أن تنظرىٰ بوجهي التعس!

خطا للداخل متيحًا لبابيّ المصعد الانغلاق، ليقف إلىٰ جانبها مصفرًا بمرح ولامبالاة، تتعلق عيناه بأرقام مؤشر المصعد، مختلسًا النظر إليها كل حين بطرف عينيه. التزمت الصمت بعنادٍ فانحنىٰ ضاغطًا زرًا أوقف المصعد بغتة باهتزازة طفيفة، هتفت بحنق: هل أنت مجنون؟!

اتسعت ابتسامته مقتربًا ليهمس بأذنها: لو منحتني قُبلة عن كل مرة سألتني بها (أنتَ مجنون؟) لأسكرتِني! ـ رفعت سبابتها تحركها بتحذير تهم بالحديث، ثم عدلت عن الأمر مطبقة فمها بغيظ ـ هكذا بالضبط، اهدئي لنتمكن من التفاهم.

ـ أي هدوء وأنت تحبسني في مصعد؟! ألا تخشىٰ أن يسقط بنا؟

قال بثقة: لا تقلقي، والآن لنبدأ من جديد، أنا رجل متوحش قاسٍ ـ همت بالاعتراض فرفع يده مقاطعًا ـ لا تحاولي الدفاع عنِّي، ما فعلته الأسبوعين الماضيين لا يغتفر! ـ تصنَّع الخجل ـ راغب ترك أسوم حبيبته دون كلمة تطمئنها ـ همت بالحديث ثانية فوضع سبابته فوق شفتيها ـ أعلم.. كدت تفقدين صوابك لعدم اتصالي! ـ اقترب متشدقًا بصوته الأجش أرقام هاتفها ـ أحفظه عن ظهر قلب.

عضت علىٰ شفتها السفلىٰ بقوة علَّ الألم يبقيها واعية، كل حرف منه يقطر مخدرًا يسري من أذنيها لشرايينها سالبًا كل مقاومة، كل شيء به ضخم؛ جسده، ملامحه، هالته السلطوية! يشبه محاربي الرومان، لا ينقصه سوىٰ

درع حديدي وحربة! وجلّ ما تخشاه أن تصيب حربته صميمها! تابعت عيناه الوقحتان عنقها الذي تحرك ببطء حين ازدردت ريقها، معلنًا عن لحظة الضعف الرهيب الذي تمر بها، فازدرد ريقه بدوره: كيف تفعلينها؟

ـ سألته عما يعنيه بعد عثورها على قاموس المفردات الضائع، فازداد قربًا

ـ تشعلين حواسي بحركة صغيرة، كابتلاع ريقك، أو ضم شفتيك، أو حتى تجهم جبهتك المعاتب ـ هزَّ رأسه ذاهلًا ـ لأين تأخذينني يا أسوم؟ في حياتي لم أرغب امرأة كما أرغبك الآن ـ زفر بتهكم ـ ربما أكون الآن قادرًا وأخيرًا..على إخبارك بما أرغب، فأجيبك على السؤال الذي أرَّق مضجعك ومضجعي!

انحنى نحوها ببطء، تبدو نواياه جلية. فاتسعت عيناها رعبًا. لمَاذا بحق الله تتحول أمامه لحمقاء وخرساء بهذا الشكل؟! تراءى أمام عينيها مشهدٌ لصديقتها يارا تسقط بإغماءة تأثر، لدرجة اختلاسها النظر إلى جانبها على الأرض علها تراها! هتفت وسط التشوش: "لا تقبِّلني أرجوك" رفعت يدها تدفعه بضعف، ولم يمانع دفعها رغم يقينها بقدرته على مقاومتها التي تشبه نفخة هواء فوق حجر ثقيل، أجلى حلقه وابتعد، بعيدًا لأقصى مسافة سمح بها ضيق المصعد! ورغما عنها اتسعت ابتسامتها شيئًا فشيئًا، فضاقت عيناه ريبة: توقعت كل شيء عدا أن أحظى بابتسامة مذهلة كتلك! أهو هدوء ما قبل العاصفة أم ما بعدها؟

قالت بدهشة حقيقية: لم أتوقع امتثالك لرغبتي!

أطرق يمط شفتيه لثانية: أفي بوعدي، لا أجبرك على شيء رغم قدرتي!

ـ تصيبني الحيرة مع تلك اللهفة الجلية بعينيك!

نظر لساعته: سنتحدث فيما بعد، لا تنسي أننا متاخرين أسبوعًا، إلا إن بدلت رأيك! ـ دس يده بجيب سترته ـ يجب أن نؤكد لماهينار خطبتنا ـ التف شيء بارد حول بنصرها، فرفعت كفها لتتسع عيناها ذهولًا ـ واسع قليلًا، لكن بتقديري لحجم إصبعك المرة الماضية غفلت عن فقدانك الوزن. هو

محبس من البلاتين النقي مُزيَّن بحبَّاتٍ من الماس الأزرق، أحضرته من إيطاليا خصيصًا لاجلك.

فغرت فمها: ماس أزرق وبلاتين! ـ بللت شفتيها بطرف لسانها ـ حسنًا توقعت البلاتين رغم شكي، لكن ماس أزرق! ـ هزت رأسها بذهول ـ لا لا، هو باهظ الثمن لدرجة ارتعابي من التِفَافِهِ حول إصبعي وسـ.. ـ قطعت جملتها ـ إيطاليا! كنت مسافرًا؟

رفع كفها لاثمًا موضع المحبس: "هيَّا بنا وإلا تأخرنا" سارت منصاعة يقودها خارج المصعد بين أشخاص وجوههم مستنكرة تنبئ عن معرفتهم بفعلته، لكنها لم تهتم! كان الثقل الجاثم فوق بنصرها لذيذ البرودة! ناهيك عن الكف الضخمة المرتاحة خلف ظهرها؛ شعور رائع أن تجد من يساندك، فترتكن إليه بلحظات الاحتياج! سامحته على الغياب وبلا مبررات. انحنى هامسًا: اسمحي لي بلف ذراعي حول كتفيك كي نقنعها.

لم ينتظر موافقتها، فسألته: لِمَ تزعج نفسك بالاستئذان!

رفع كتفه: نوع من الوقاحة المقنعة بالكياسة.

ضحكت: أنت فظيع!

ـ أنتِ أفظع.

ـ أسما هانم، يا أهلا بالقمر ـ نهضت ماهى بسعادة إلا أن بريق الترحاب سرعان ما انطفأ ـ راغب بيه!

ـ أحضرت خطيبتي الجميلة لتبدآ العمل، فقدت للأسف أكثر من أربعة كيلوات ـ استدرك قائلا ـ نعتذر عن التاخير؛ أصرت أسما على التمهل لتفقد المزيد، حظي سيء!

مطت ماهى شفتيها متصنعة المرح. ضريبة الشهرة، وأنا تحت أمرك في أي وقت.

أشارت عليها إلى الداخل بعدما ألقت عليها نظرة تقييمية أخيرة. كانت بطاقة دخولها لذلك العالم الصاخب الألوان، والسرعة التي لا تستطيع معها

التقاط أنفاسك دون أن يفوتك شيء ما! توالت جلسات التصوير، وتصفيف الشعر، واختيار الألوان والملابس، والتموضع مرات بلا حصر أسفل سخونة الأضواء الكاشفة والظل المعتَّم لخلفيات مختلفة. قرابة الساعة الثانية بعد الظهر كانت قد أنهكت، حتى ظهر راغب من خلف أحد الأبواب معلنًا انتهاء الجلسة. مدت ماهي يدها برزمة من النقود: تفضلي يا قسمت، خمسمائة جنيه لأولى جلسات التصوير، ولديك جلسة تدريب بالغد على السير فوق الممشى.

قطب راغب: ظننت المبلغ أكبر من هذا يا ماهي!

أومأت بارتباك: بالطبع، البقية ستحصل عليها بعد كل حفلة ـ أردفت باهتمام وهي تبحث في حاسوبها ـ لدينا عرض بعد أسبوع، وسيكون المبلغ مجزيًا، أعدك ـ همَّا بالذهاب فأوقفتهما بمكر ـ أرى المحبس الرائع يلتمع بإصبعك، هل أقول مبروك؟

التفتت قِسمت إليه مستنجدة، فابتسم ببرود: أجل، أصبحت خطبتنا رسمية.

مطت شفتيها: لا تنسَ دعوتي للزفاف يا باشا.

ارتفع جانب فمه: من الصعب نسيانك يا ماهي.

* * *

(٩)

تنهدت بنفاذ صبر تحدجه من خلف قائمة الطعام التي أخفت وجهه عدا حاجبيه المقطبين: أصررت على الصمت طوال الطريق إلى هنا يا راغب!

ابتسم: ألم تختاري بعد؟ ـ مطَّ شفتيه ـ دعيني أختار هذه المرة ولنرَ إن كان ذوقي سيعجبك.

أتى النادل منحنيًا بأدب وجعل يشير إلى الأصناف، انتظرت بتمهل صمته المهيب الذي فرضه على كليهما بشروده، ثم أمسكت بالشوكة لتضربها بطرف الطبق رافعة حاجبيها: "تكلم!". شبكت كفيها أسفل الطاولة محتضنة المحبس حين أتى النادل، حاملًا عدة أطباق تصاعدت رائحتها اللذيذة وأبخرتها الساخنة مسيلة لعابها رغم انقباض معدتها. أشار راغب لطبق جانبي: مقبلات الـــ foie gras! طبق بارد من مشهيات العشاء لكني أردت أن نتناولها معًا.

اقتربت متكئة بمرفقها على الطاولة: كبد الأوز؟ ـ أومأ فقلبت شفتيها بازدراء ـ طبق رائع خلفه حكاية تعيسة، أهم دروسها أن وراء كل متعة ألم!

انحنى مقلدًا إياها: لا تحبين كبد الأوز؟! أتعلمين كم يبلغ سعر طبق

كهذا في فرنسا؟ خمسة وعشرين يورو، كما أن طعمه مذهل.

الطعم لا خلاف عليه، تناولت كبد الأوز من قبل حين كانت تطهوه والدتي، وبالمناسبة كان كبد واحد كل مرة، لأنها دومًا إوزة واحدة!

ضحك: ثمة معرفة سابقة، إذن ما المشكلة؟!

المشكلة هي الطريقة التي يأتي بها الكبد، الثمن الذي يدفعه الإوز المسكين لننعم بطبق المشهيات! تعذيب طائر جميل كالإوز وإجباره على الطعام بماكينات آلية، وحبسه في أقفاص ضيقة تجبره على البقاء بلا حراك لشهور، حتى تتورم أقدامه ويتضخم كبده بالدهون، فيصاب بعسر الهضم وتيبُّس العضلات، هي طريقة غير آدمية لتناوله.

مطَّ شفتيه: صناعة، ونوع من التجارة أيضًا، وقد حلل الله تناول الطيور وذبحها.

- ليس بهذه الطريقة، ليس بتعذيبه، الغاية لا تبرر الوسيلة.

- وما المشكلة إن كانت النتيجة مرضية للمُرَبِي والمُشتَرِي؟

رفعت كتفيها باستخفاف: هي وجهات نظر، لاسيما وقد رأيت الأوزات المسكينة بعيني، ورأيت نظراتها الحزينة المكسورة حين قرأت عن الأمر بالإنترنت - أعاد رأسه للوراء مفجرًا ضحكة مجلجلة شعرت معها باهتزاز جدران المطعم، حتى نظر له مَن حولهم شذرًا - يكفي يا راغب، الناس يحدقون بنا!

قال من بين ضحكاته: لا أصدق يا أسوم! رأيتِ نظرتها الحزينة المكسورة؟! - توقف بغتة عن الضحك مقتربًا عبر الطاولة دون أن تفارق الابتسامة شفتيه - أتعلمين السر في صخب ضحكاتي برفقتك؟ نادرًا ما أضحك بصدق، كثيرًا ما تنفرج شفتاي عن ابتسامات مجاملة، تزلف، وأحيانًا ضيق وحنق، لذا حين تواتيني لحظة استمتاع صادقة، أسارع بالتشبث بها كي أُطيلها قدر ما استطعت، لا تعلمين كم تكون الحياة أحيانًا غاية في الملل، رغم بهرجها الخداع!

ـ ألا تخشى أن أكون مخادعة..مدعية؟

وكيف أخشى فتاة تتعاطف مع الإوز؟ أخبريني، هل للإوز نظرات مثلنا؟

ـ تعاطفي مع الأرواح وليس الأجساد يا راغب ـ أردفت بشرود ـ أكره القهر وحبس الروح مهما كان الهدف، لا أطيق إجباري على شيء لا أحبه، وما لا أطيقه على نفسي لا اطيقه لأي مخلوق، ولو إوزة مسكينة بلا حول ولاقوة، تعذيب الغير لمتعتنا أمر قميء!

أنتِ مخلوقة غريبة! ـ تنهد متابعا ـ وربما غرابتك ما إجتذبني من اللحظة الأولى ـ مط شفتيه مزيحا طبق المشهيات ـ حسنا يا أسوم، دعك من فواجرا الإوزة الحزينة، وكلي شيئًا آخر.

كانت شاردة معظم الوقت، تتشاغل أثناء مضغها بالنظر عبر الزجاج العازل نحو الإطلالة الرائعة للمطعم. تبادلا بضعة جمل مقتضبة عن مواضيع عامة لا تحمل حميمية. حين تنهدت بنفاذ صبر رافعة حاجبيها: والآن، ماذا تريد؟ ـ أمسكت بجبهتها ـ ياربي! سألتك السؤال مليون مرة! كن رحيمًا بي وأجب بلا مراوغة يا راغب.

أخبرها بجدية تلاشت معها إمارات الاسترخاء: عديني أن تستمعي إليَّ حتى النهاية وتقدري صراحتي.

عاودت الاتكاء بمرفقيها فوق المائدة: "أعدك" اقترب من الطاولة مشبكًا يديه: حسنًايا أسوم، كان لدي علاقات كثيرة بنساء غيرك لكن منذ رأيتك لم ألمس امرأة. تقابلنا منذ أسبوعين فقط لكنهما كافيان بالنسبة لي لألتقي بالعديدات ـ ضاقت عيناه ـ ولأصدقك القول، جعلتها فترة اختبارية لمشاعري ـ همَّت بالحديث مقطبة فعاجلها ـ لأنها المرة الأولى التي أشعر فيها بانجذاب قوي لامرأة بهذا الشكل، وأسيطر على نفسي برفقتها احترامًا لها، وليس عجرفة!

ابتسمت: إذن هو الاحترام ما يحميني منك!

تجاهل تعليقها: لكنها ليست طباعي، أنا رجل يفضِّل العلاقات العابرة، كافر بقدرتي على إبقاء امرأة سعيدة لفترة طويلة ـ مدَّ شوكته متناوِلًا قطعة من الفواجرا وجعل يمضغها بتمهل متعمد ـ لذيذ! قدرتي على إسعاد أي امرأة التقيت بها لم تتعدَ الأسابيع، وسرعان ما أفقد اهتمامي، لذا فضلت دومًا العلاقات خارج إطار الزواج، تزوجت عرفيًا عدة مرات، ولم يكن يستمر سوى شهور قليلة.

ازدردت ريقها قائلة بخفوت: لن أتزوج عرفيًا مهما حدث!

قال باسمًا: ولن أجبركِ على ما لا تريدين، أحاول فقط أن أكون صريحًا معك، أنا رجل هوائي ـ زفر بتهكم ـ ربما صدقت مقولة أن الابن سِرّ أبيه! تريدين زواجًا رسميًا؟ سيسبب لي الكثير من المشكلات مع والدي، إلا أني على استعداد لخوض المغامرة إن كنتِ جريئة كفاية لخوضها معي.

ـ تطلق على ارتباطنا مغامرة؟!

أومأ بحزم: مغامرة كبيرة على كل الأصعدة؛ مواجهة مجتمعي باختياري أمر ليس بالسَّهل! سأثير غضب والدي لأن خططه بشأني بعيدة كل البعد عنكِ، كان يخطط لمصاهرة أحد الوزراء أو السفراء، بل وربما تعدت أحلامه هذا! وعلى الجانب الآخر لدينا أنا وطبيعتي، تغيري تحدٍّ كبير، لكن أجمل ما فيه أنه سيكون على يديك ـ نظرت بشرود عبر الزجاج دون أن تنبئ ملامحها عن انفعالٍ يرشده عن وقع كلماته ـ وعدتِني أن تقدري صراحتي!

قالت دون أن تنظر إليه: "أقدِّرها تمامًا" كانت تتفهمها رغم قسوتها! ليست بفتاة مراهقة تنظر للحياة بحالمية مُغيَّبةٌ عن واقعها، فواقعها مُرٌّ! وصراعه المحتمل مع والده ليس بالغريب؛ طبقة كطبقته؛ تسعى لمن هُم على شاكلتها. ودخول مخلوقة مثلها بينهم سيسبب صدمة شديدة لكل من يعرفه: ألهذا ساعدتني لتبديل مهنتي؟

كنت سأساعدك على أي حال ـ زفر بحيرة ـ انتابتني نحوك نزعة بالحماية، ولن أعيد هذا لإنسانيتي المفرطة، فأنا أبعد ما يكون عن هذا، ربما

لأني أردتك لنفسي ـ مدَّ يده عبر الطاولة مداعبًا بإبهامه المحبس الماسي ـ قسمت، أنا أحبك.

التفتت بغتة محدقة بعينيه رماديتي القتامة ونذيرتي المطر! انسابت الكلمات من شفتيه الغليظتين بصدقٍ غريبٍ، فسألته بتردد: ماذا إن تبدل شعورك بعد أن.. بعد أن تحصل على ما تريده مني؟!

ـ وارد، لكن ثمة شيء بسيط مختلف هذه المرة؛ أني لا أسعى لجسدك فحسب، بل أسعى لروحك وعنفوانك الممتع أيضًا، أريد الاقتراب منك بكل الطرق، أريد أن أشعر بك وأسمع أفكارك، سأستميت في الحصول عليك وإن كان الزواج الشرعي وسيلتي.

زفرت بدهشة: أتسعى لإخافتي وحتى على الهروب.. أم طمأنتي؟!

ـ سيكون العبء كبيرًا على كلينا لنُنجِح هذه العلاقة، وصراحتي أثمن ما أقدمه لك.

ـ لم تسألني عن أحمد! ـ سألها بمكرٍ عمَّن يكون فاستدركت باسمة ـ أحمد لم يكن يومًا لكي يكون الآن.

ـ لنتزوج يا أسوم، ستكون مغامرة العمر كله، وأوقن أنها ستحمل معها أسعد أيام حياتي.

اختلج قلبها بين أضلعها من نبرته؛ مزيجًا من الأمر والتوسل! هو أيضًا خائف ولا يملك ضمانات! داهمتها صورة قديمة رسمتها نوار في طفولتهما بدفتر الرسم؛ فتاة صغيرة تجلس فوق غيمة من حلوى القطن الوردية، سابحة في سماء زرقاء تحفُّها عصافير ملوَّنة، لا تدري لِمَ تذكرتها الآن! ربما لأنها منذ قابلته تستشعر تلك الغيمة أسفل قدميها، وتسمع زقزقة العصافير عوضًا عن روزا! السعادة التي تشعرها الآن كافية للاختيار وخوض المغامرة رغم المخاوف والشكوك. قررت أن تعيش الحُلم، وأمامها الكثير لتفصح عنه، وستفصح عنه! فقط بالوقت المناسب. قالت: لنتزوج يا راغب!

رفع عصير البرتقال هاتفًا: لنحتفل بارتباطنا، وهذه المرة حقيقة.

فتحت عينيها على كوب من عصير البرتقال، وصوت لينا: أصرت أمي على أن أجبرك على تناوله - أخذته منها شاكرة - تتساقط دموعك وتبتسمين!!

رفت عينيها موارية دموعها، احترفت الكتمان، فباتت ممارسته أسهل من تنفسها الهواء! ربما إن استمع إليها عدنان ذاك اليوم ومدَّ يدًا لمساعدتها متخليًا عن عجرفته وظنونه السيئة لمنعَ الكثير من الكوارث، لحظة فارقة كانت ستصنع الكثير! انتبهت على سؤالها: "هل أزعجتك؟" نفت فجلست إلى جانبها فوق الأرض المعشوشبة وتلفتت حولها لتتأكد أن لن يستمع إليهما أحد: أنا ذاهبة الي الميدان عما قريب.

هزت رأسها بحيرة: مستحيل وهؤلاء الحراس على البوابة، كما أن سياج الفيلا شاهق وتعتليه أسلاك شائكة.

زفرت لينا بسخرية: كل هذا لن يقدر على منعي، لدي خطة إن نجحت سأكون هناك خلال ثلاث ساعات.

تدرك أنها محض أوهام؛ الحصار من حولهم شديد لدرجة لا تسمح لنملة بالمرور! لكنها لم تشأ إزعاجها وفضلت أن تبقي لديها الأمل. تابعت لينا: للآن لا أرى سببًا لرفض العائلة زواجكما!

اتكأت قِسمت برأسها على جذع الشجرة: ربما لا أليق بالمقام العالي! - هزت لينا رأسها بغير اقتناع - ربما لأني عملت بعرض الأزياء.

لم تجرؤ على قَصِّ تفاصيل تشينها رغم تعايشها مع الحقيقة، فأمسكت بالمجلة ذريعة للمراوغة. رفعت لينا حاجبيها دهشة: "هذه أنتِ!" أومأت قسمت: يراني والداك لستُ أهلًا للارتباط بابنهم الطبيب! - لكزتها بمرح - لا تنسي أن تأخذيني معكِ.

مطت شفتيها بأسف: ليتني أستطيع! على أي حال نلتِ فرصتك، دوري لأتنفس هواءً نظيفًا، عديني بكتمان السر.

أطرقت قِسمت متابعة نملة صغيرة تسير حثيثًا بين سيقان الحشائش، حاملة بين فكيها وريقة شجر أضعاف حجمها صوب وجهة مجهولة،

معاندة رياحًا تعبث بلا هوادة بشراعها الورقي! رفعت رأسها مطالعة عينيها المتوسلتين: "سيكون سرنا" ازدردت لينا ريقها: أخبريهم إن حدثَ ونجحت، أني أحبهم جميعًا، وطمئنيهم أني ساكون بخير حتى أتصل بهم، لا أريدهم أن يظلوا قلقين بشأني لفترة طويلة!

تركتها متجهة للفيلا فتقاطع طريقهما؛ وتوقفا يتبادلان النظرات الصامتة، كانت تلتهم ملامحه بعينيها وكان يفعل بالمثل. استنشق بقوة عبيرها هامسًا: أتتزوجينني يا لولا؟

صوته الهادئ المبحوح كان كطرف أنملة داعبت أوتارها. نبرته المترددة المشوبة بالتوسل وهو لم ينطق سوى بكلماتٍ ثلاث مرمرتها ولوعتها، ففاض بها الحنين! حين ينفلت اسمها من بين شفتيه، تنفلت معه الفراشات عابرة أسوارها الزجاجية هاربة من أسرها، فتتطاير من حولها ملوِّنة واقعها الباهت، مذيبة السكر في مرار الأيام.

- تزوجيني يا لولا، لنحقق الحُلم الذي وُلِدَ بيننا! ودِّعِي الهواجس بعيدًا مرة وللأبد - رفع يده ممسكًا بكفها - ربما يصبح قربك دافعًا لهزيمة ضعفي وصرع خوفي.

نظرت ليده المرتعشة رغم دفئها لتعاود النظر لعينيه العسليتين، ألقت الطُّعم ولم يبقَ سوى جذب الصنارة! تكره نفسها لخداعهم، لكن الحرب خدعة! وهم من أجبروها، لكن! لم تكن لتتخيل أن يصل به الأمر لعرض الزواج! عجزت على النطق، لكنه لم يصمت مثلها بل استطرد وبإصرار: سأتحدث إلى والدينا لنقرأ الفاتحة اليوم، ما رأيك؟ - وجدت نفسها تومئ فاتسعت عيناه ذهولًا - موافقة! أنتِ موافقة؟!

أومات ثانية وهمست حين عثرت على صوتها: موافقة، جدًا - هزَّ رأسه بغير تصديق فاتسعت ابتسامتها ورفعت كفها ملامسة وجنته - تعلم أني لم أحب غيرك في حياتي يا عمرو، وتعلم أن رفضي كان غيظًا منك، مازلت غاضبة ورافضة لقراراتك، لكن مشاعري لا سُلطة لي عليها، تحدَّث إلى والدي.

رفع يدها نحو شفتيه لاثمًا: سنحتفل بخطبتنا بعد أسبوع من الآن.

- بل بزواجنا! يمكننا البقاء بغرفتي حتى نهيئ شقة - تابعت بشرود - سنقيم احتفالًا كبيرًا، سأرتدي ثوبًا أبيض من الساتان، وطرحة طويلة تمسك بها فتاتان صغيرتان - التفتت إليه - وستكون أوسم عريس رأته عيناي.

هتف بلهفة: سأتحدث إلى والدينا حالًا

أغمضت عينيها بألم: أسرع يا عبسي، لا تضع الوقت!

اتجهت نحو الدرج المفضي إلى الأعلى وهمت بالصعود إلا أن نداءً أوقفها. هبطت مسرعة نحو عمها عادل ليغمرها بين ذراعيه: "كيف حال حبيبتي لولا؟" طبع قُبلة فوق جبينها فأجابته: "بخير لف ذراعه حول كتفيها "أين الجميع؟" أشارت نحو المكتب: "ستجد عمرو ووالدي هنا باجتماع مغلق، أما لولا وسونسون في المطبخ تلملمان آثار الهجمة العنيفة" أعاد رأسه للوراء ضاحكًا: "سر بيني وبينك، سأموت جوعًا" ابتسمت: "المائدة جاهزة، سأنادي عدنان وقسمت وأبحث عن علياء" جمد بوقفته: "وهل عدنان هنا؟ - أومأت بصمت فغمغم مقطبًا - لم يخبرني خالد!" تركها وحث الخطى نحو مكتب والدها. تأملت طوله الفارع الذي يطغى على طول والدها وقد ورثه عنه عمرو وشعره المجعد القصير. رجل رائع وحنون يشارك والدها الكثير من الصفات، لكنه أكثر قدرة على إظهار مشاعره. ستغادر الفيلا مع وعد بأن تكون لعمرو. توقن أن ما يحدث بمصر الآن لن يمر كزوبعة في فنجان! هو زلزال قوي سيغيِّر الخارطة كلها، وستكون جزءًا منه مهما حدث! التفتت مكملة صعودها تنقر على إفريز الدرج الخشبي بأطراف أصابعها، أيكون الميدان حقًّا الإجابة لأسئلتها الحائرة ولطمأنة روحها التي تتجاذبها بين حب وسخط على كل من حولها؟! سارت في الرواق المؤدي إلى غرف الطابق الأعلى لتتجمد بوقفتها: لي لي! ماذا تفعلين هنا؟

رفعت علياء رأسها بشفتين مرتعشتين محدقة بوجه لينا المصعوق، ورفعت يدها مشيرة نحو غرفة عدنان: أردت أن.. أردت أن أتحدث إليه،

ولم أستطع ـ هزت رأسها بألم ـ أنا جبانة! جبانة وضعيفة طوال عمري، أمتار قليلة تفصل بيني وبينه ورغم هذا أتجمد بمقعدي، مكتفية بالقرب منه وتأمله كل دقيقتين، كم أنا مثيرة للشفقة!

أجبرتها لينا على الوقوف، ولفت ذراعها حول كتفيها: تعذبين نفسك بلا طائل.

رمقتها بإصرار: يجب أن أتحدث إليه!

ـ بالطبع، لكن ليس وأنت بهذا الضعف.

همت علياء بالانصياع ثم توقفت: انتظري أرجوك، سألقي عليه نظرة أخيرة.

أومأت لينا باستسلام، فعاودت علياء اختلاس نظرة داخل غرفته، تتكئ برأسها فوق إطار الباب الخشبي. كان موليًا إياها ظهره يشعل واحدة من قطع العود، تصاعد معها الدخان المعطّر من المبخرة سابحًا عبر أثير الغرفة. استنشق عبيرها مغمضًا عينيه. أحلامه تنسل من بين يديه، آخذةً معها امرأته وطفلته التي ظل لسنوات يحلم بضمها بين ذراعيه! يصر والده على براءته من دم نوار، وتوقن هي أن والده قاتل، وكلاهما مخطئ ومصيب! لو حاول التفسير لنفى التهمة عن والده وفتح عليهم أبواب جهنم! أيهما أكثر رحمة؟! أن تجهل براءة والده أم توقن من إدانته؟ أي بابٍ من الجحيم سيختار؟! طالعها جالسة أسفل الشجرة تتكئ برأسها على جذعها، يعلم يقينًا معاناتها مثله، أتراها قادرة حقًّا على تفيذ تهديداتها؟! يومًا بعد يوم يزداد يقينًا بظُلمِه علياء، كان قاسيًا بلا رحمة، وها هو يدفع الثمن؛ علياء التي توسلت يومًا طلبًا للمغفرة لم يستمع، وحين يمنحها بلا شروط ترفضها قسمت! ترفض غفرانه لخطيئة لم تريكبها، ولا يدري إن كانت ستغفر خطيئة ارتكبها بملء إرادته! وما تلبث فوهة الماضي أن تطلق لهيب الذكريات البشعة!

* * *

جالت عيناه بالقاعة الفخمة المقام بها عرض أزياء دار كميل، يلوح الضيق فوق محياه، هاتفها مغلق! أصرت على اصطحابه لها بعد انتهائه من العملية، وها هي تختفي! رغم الإضاءة الخافتة ظهرت الوجوه بوضوح، وقد تعلقت الأعين بالممشي الخاص بالعارضات النحيفات؛ يسرن كالنمور فوق أغصان الأشجار، بكعوب عالية جعلته مترقبًا لسقوطهن على وجوههن بين لحظة وأخرى! همَّ بتحويل عينيه عن الممشي بضجر لولا ابتسامة واسعة زينتها غمازتان! إنها هي! فتاة الخمسين جنيهًا صائدة الأثرياء، تسير بكل ثقة وسط نظرات الجموع كأنها ملكت العالم! رفع حاجبيه دهشة، في كل مرة يلتقيان تصدمه بطريقة ما؛ مرة مخادعة، ومرة لعوب، وأخرى صائدة رجال، وها هي تريه الآن وجهًا جديدًا لامرأة واثقة بنفسها حد الغرور! ألقى نظرة على ساعته ليزفر بنفاذ صبر، ربما علياء بغرفة السيدات تعدل زينتها، فليبق قريبًا من مقعدها علها تظهر بعد قليل. عالم مصطنع البريق؛ ملامح العارضات، زينتهن المبالغة، نظراتهن الخالية من ملامح الحياة! كنَّ مشاجب بشرية عداها، هي فقط مَن ابتسمت، غير عابئة بجذب انتباه الحضور عما ترتديه بأشياء أخرى كانفعال أو ابتسامة غير مرغوبة! حتى قوانين عملها تضرب بها عرض الحائط! يبدو الاستهتار متأصلًا بها! المكان والعرض أجبراه على النظر، لكن لنظراته نحوها نوعًا من الخصوصية؛ مدركًا ما يدور أسفل تلك الابتسامة وداخل تلك الجمجمة. لمح بطرف عينه الرجل الذي رآه معها تلك الليلة، ليرفع جانب فمه بتهكم؛ لم تضع وقتها!

كان راغب يبتسم لها ابتسامة فخورة متوجًا إياها بغمزة من عينيه، اتسعت لها ابتسامتها مبادلة إياه النظرة سريعًا، لتلتفت دورتين سريعتين على كعبيها مرتكنة على قدمها اليسرى، ثم سارت بعدها مبتعدة بخطوات متسارعة واثقة خلف الكواليس. تنفست الصعداء ممسدة جبهتها، ودلفت إلى غرفة التبديل مغلقة الباب خلفها. مهنة لم تكن تتوقع يومًا امتهانها، كما لم تتخيل مدى صعوبتها وإرهاقها. وزاد من وطأة الضغط النفسي اضطرارها للتملص من دعوة راغب على الغداء لزيارة والدتها. لم تخبره بعد وتعي جيدًا كم هي

غبية! حدقت بإصبعها الحامل لمحبسه الماسي، أحيانًا يصبح أشواكاً توخز إصبعها، فتسري ألمًا بكل حواسها. تحمل ثروة مهولة وتعجز عن تخليص والدتها! ياله من ظلم! تلمست أناملها المِسبَحة الكهرمانية المعلَّق على المرآة، كعادة القدر.. يلقي بينها وبين طوق النجاة حاجزًا شفافًا متلاعِبًا بها، لم تخبره بشأن شقيقتها؛ تخشى أن يظنها متسولة! وأبدًا لن تضع كبرياءها على المحك حين يتعلق الأمر به، سيصل دخلها للثلاثة آلاف شهريًا على أقل تقدير، ربما يطول الوقت قليلًا حتى تُخرِج والدتها لكن على الأقل بات أقصر مما كان. نظرت في المرآة وتبسَّمت برضا، يلائمها العمل كثيرًا؛ نقود، prestige، وكرامة! تذكرت فعلة الجبالي بها تلك الليلة اللعينة! لا يهم أبدًا! صفحة طويت، نظرته المسمومة رحلت بغير رجعة!

كل مرة حين تخرج من خلف الستار نحو الأضواء تصطك ركبتاها، ورغم تذمر البعض وغيرتهن، لكن معظم من عملت لديهم تغاضوا عن إصرارها على الابتسام، ربما لإعجابهم! ألقت نظرة سريعة نحو راغب الذي جلس رافعًا ساقًا فوق الأخرى يحدق بساعتة بضيق، رفع رأسه متأملًا إياها ليجبره مرآها على ابتسامة واسعة جديدة؛ طلتها تدغدغ مشاعره وتتلاعب بعواطفه ورغباته بلا رحمة! يرغبها حتى الألم! هو ليس بالملاك ليحمل بين ضلوعه قلبًا أفلاطونيًا! عليه الصبر قليلًا بعد ليتأكد من مشاعره واستحقاقها مواجهة والده الغير مأمونة العواقب. تأوَّه مغمضًا، كيف سيمكنه الصبر؟! نظرة واحدة إليها تصيبه بالجنون، شفتاها الملعونتان تناديانه في صمتٍ، وعيناها ترسلان نحوه موجات من الشغف القاتل. هي أيضًا وقعت في غرامه، باتا يسيران معًا فوق قطع من الزجاج المكسور، واحتمالات الألم والجروح قسمة لا مفر منها، وأيٌّ منهما عاجز عن التراجع! قُبلة.. تحتل تفكيره رغبته المميتة بالحصول على قُبلة منها. ذاك الثوب الناري الذي ترتديه أظهر نعومة بشرتها المغموسة بالحليب بشكل مذهل، لم يلمسها للآن مكتفيًا بقبلات بريئة فوق باطن راحتها، ومداعباتٍ ناعمة لوجنتيها من حين لآخر، لا يكفي أبدًا! أصبحت العروض تثير غيرته؛ هي فقط جعلته يغار ويفكر ويشرد،

بل ويسهر لساعات ليلًا يفكر بها. ما الذي يدعوه لكل هذا الإزعاج؟! هي الوحيدة التي ملأت بعضًا من الفراغ الذي خلفته والدته رحمها الله، تملك كثيرًا من حنانها والكثير الكثير من رقتها رغم العناد. تلك الفاتنة التي تسير بخيلاء فوق ممشى العارضات امرأته! أرسل لها قبلة في الهواء فاحمرت وجنتاها، قلبها الذي قام برقصة "سالسا" جنونية داخل صدرها جعلها توشك على التعثُّر، لكنها تمالكت جأشها في اللحظة الأخيرة.

همَّت بالاستدارة فكانت كمن تلقَّى لكمة قوية؛ الجبالي! توقف الزمن بينهما لثانيتين معاودة السير في طريقها، اللعنة عليه إن جعلها تفقد التماسك، لتريه أنها لا تهتم. قامت برسم أوسع وأقوى ابتساماتها حتى آلمتها عضلات وجهها، وفي استدارتها الأخيرة أطلقتها نحوه بلا رحمة، ربما لم تمكنها الأضواء المسلطة عليها من رؤية عينيه، لكن ملامح وجهه الجامدة أنبأتها أن سهم ابتسامتها فشل بإصابة هدفه، رجل كالجبل لا تهزه أعتى الرياح! أولت الجميع ظهرها مقطبة، واختلست نظرة أخيرة إليه قبل أن تختفي خلف ستائر العرض. زفر عدنان مغمغمًا: "وابتسامة زائفة جديدة، بارعة في التمثيل" أخرج هاتفه معاودًا الاتصال بعلياء فأجابه الصوت الآلي، تمتم من بين أسنانه: "أين أنتِ؟". تفاجأ بسيدة متأنقة تتناول الحقيبة الصغيرة على المقعد المجاور، وتومئ بابتسامة لطيفة: "دكتور عدنان، فرصة سعيدة". ردَّ التحية دون أن يتوصل لشخصيتها، فسارعت بلطف: "أعرف علياء من النادي وقد التقينا هناك من قبل لكن يبدو أنك لا تذكر، فما أكثر من يمرون عليك! لماذا لم تحضر علياء الليلة؟" قطب بدهشة، لماذا لم تخبره أنها بدلت رأيها؟! أجابها: "وعكة صحية خفيفة" قالت السيدة: "سلامتها، سأتصل بها فور عودتي للمنزل - ابتسمت - هي فرصة لمعرفة رأيك بعملية أحتاج للقيام بها، رغم أنه ليس بتخصصك، بالتأكيد تمتلك بعض المعلومات المفيدة" مطَّ عدنان شفتيه ببرود: "بالطبع" لم ينجح في الفرار من قبضة فمها الثرثار، وقد انتهى عرض الأزياء ليقع بشرك بقية صديقاتها اللاتي التففن حوله كالبعوض حول اللهب في ليلة حارة! وبعد نصف ساعة كُنَّ قد اكتفين من

التهام الفريسة، فتسربن الواحدة تلو الأخرى بعيدًا.

- دكتور جبالي.

ازدردت قِسمت ريقها مذهولة لفعلتها، كمن ينتظر حُكم القاضي! يجبرها على الدفاع عن النفس والمرافعة كلما التقيا، التفت ناظرًا إليها ببرودٍ فتسمرت بمكانها، طال بهما الوقت يتبادلان النظرات، فتسارعت أنفاسها المضطربة وبدآ حاجباه بالارتفاع شيئًا فشيئًا، استجمعت شجاعتها وخطت بتثاقل حتى توقفت أمامه. انتظرها بتمهل، فأوشكت على خلع حذائها ضاربة رأسها ألف مرة، لماذا تدس يدها بعش الدبابير؟ ما الغواية في تلقي لدغاته؟

- رأيتك بين الحضور وبحثت عن مدام علياء، أين هي؟

أجال عينيه فيما حوله بضجر: "لم تأتِ" اقتضابه أعلمها أنه في غنى عن إضاعة وقته الثمين معها، فتلبَّسها العناد كالروح الشريرة: فرصة سعيدة رؤيتك الليلة، كنت أتحدث للتوِّ مع خطيبي عن الاستشارة الرائعة التي حصلت عليها منك.

ابتسم ببرود: "جيد". صفعة جديدة من اللامبالاة! توقعت على أقل تقدير أن يهنئها، لكنه لم يفعل، اللعنة عليه، لم يفعل! استدارت مشيرة نحو راغب الذي حدجهما مضيقًا عينيه: إنه راغب الساعي الواقف هناك - لوحت له وبادلها الابتسام - تذكره بالطبع.

نظر نحوه ماطًا شفتيه بأسف: "لا أظن" حبست أنفاسها ذهولًا، لا يظن! لا يظن! من يظن نفسه هذا الكاذب؟ يتعمد إهانتها ودفعها لتذكيره بالتفاصيل! اللعنة عليه، يتلاعب بأعصابها، كل ما أرادته استعادة جزء من كبريائها، هل هذا كثير؟! مطت شفتيها تقلده: "لا تذكره أبدًا؟" تصنَّع النظر إليه: "لا" أطلقت الهواء الحبيس أخيرًا بعدما تسلل الدوار لرأسها ورفعت يدها بالمحبس الثمين: سنتزوج عمَّا قريب.

ارتفع جانب فمه بعدما ألقى نظرة ممتعضة على المحبس: الكثير من الأشياء رغم لمعانها لا تساوي شيئًا!

تلاشت الابتسامة من فوق شفتيها، لا تساوي شيئًا! هي الملومة، تستحق قطع لسانها، حدقته ببلاهة وقد أصابها الخرس. لم يبقَ سوىٰ ركلة من قدمه علىٰ مؤخرتها تلقي بها بعيدًا، وستكون فكرة جيدة! راق لها الأمر كثيرًا، تخيلت نفسها تطير بركلته عبر إحدىٰ النوافذ، ستكون بعيدة عنه آلآف الأميال! جفلت حين طبع راغب قُبلة فوق شعرها يضمها إليها: ألم يحن الوقت لإعادتك إلىٰ المنزل؟

التفتت إليه ودموعٌ تتسلل إلىٰ مقلتيها: "هيَّا يا حبيبي قطب حين رأىٰ عينيها اللامعتين فابتسمت مطمئنة، التفت نحو عدنان: "مرحبًا" رد عدنان ببرودٍ: أهلا، أخبرتني الآنسة أنكما مخطوبان حديثًا، تهانئي، وأعتذر لعجزي عن تذكُّر أيٍّ منكما رغم محاولاتها المستميتة بتذكيري.. بإذنكما.

مضىٰ دون أن يلتفت وراءه فسألها راغب بحدة: أليس هو الرجل الذي رأيناه بشرفة الفندق؟

أومأت واجمة تتابعه يخرج من البوابة: أمسك بيدي من فضلك، أشعر بالدوار - سألها بقلق عما بها فابتسمت بضعف - بعض الأرهاق يا حبيبي.

لف ذراعه حول كتفيها وحثها علىٰ السير نحو باب الخروج: يتصرف بقلة تهذيب معك! ما الذي دعاك للتحدث إليه؟!

أطرقت تعض علىٰ شفتها: أردت إعلامه أننا مخطوبان، أردته أن يعرف أنني تلك الليلة لم أكن... لم!

قلَبَ شفتيه ازدراءً: ما الذي يجعلك مهتمة بما يظن وما لا يظن، هذا الرجل لا شيء، فلا تشغلي بالك - شبك أصابعهما معًا ليرفع يدها لاثمًا عقلة إصبعها - يكفي أننا معًا وأني أعرفك جيدًا. إن حدث والتقينا به لا أريدك أن تتحدثي إليه أبدًا.

سألته باسمة في محاولة لتسكين العاصفة التي بدأت تلوح في عينيه: هل تغار؟

لوح بحنق: لا أدري! لكنه بالتأكيد شعور مزعج.

احتضنت ذراعه بحب: وأنا لا أريد إزعاجك أبدًا يا حبيبي ـ سار بها نحو الجراج فتذمرت ـ لماذا لا يحضر السائس السيارة؟ أنا مرهقة.

أجابها بجدية أدهشتها: أحتاج للبقاء معك بمفردنا بعيدًا عن الأعين الفضولية.

ازدردت ريقها تتعلق نظراتها بملامح وجهه الصارمة التي تبدلت في لحظة، مذعنة لرغبته. ضغطَ زر التحكم بغيظ: "نسيت أين وضعتها" تناهى لسمعهما صوت إنذارها الحاد فسارا صوبها معًا ليفتح لها باب السيارة، لم تكن إضاءة الجراج قوية لكنها كانت كافية لمنحهما القدرة على رؤية بعضهما، أغلق الباب ممسكًا بالمقود يعتصره بين أصابعه محدقًا أمامه، فسألته بريبة عما يزعجه، أجابها بلا مواربة: أنتِ من يزعجني ـ رفعت يدها نحو صدرها بدهشة، التفت إليها دون أن تطلق أصابعه سراح المقود المسكين الذي أوشك على التفتت ـ ومن غيرك أصابني بالجنون وسرق رقادي؟ ـ لانت نبرته ـ أنا لا أنام يا أسوم، أكاد أفقد عقلي توقًا!

قالت بحيرة: لكننا نلتقي كل يوم تقريبًا، ولا نفترق سوى لساعات قليلة، أحبك وتعلم هذا.

أومأ هامسًا: وأنا أذوب حبا بك، وتعلمين هذا ـ ضرب المقود بقبضته هاتفًا ـ والمشكلة أن هذا لا يكفيني، أريد أكثر، ألا تريدين تطوير علاقتنا؟

أطرقت محدقة ليديها المتشابكتين بحجرها، لم تدرِ بم تجيب، لم تخبر أحدًا بخطبتهما سوى نوار، حتى والدتها التي كانت بزيارتها هذا الصباح لم تخبرها لأنها توقعت سؤالها إن كانت قد أخبرته بكل الحقائق! هي خائفة، لم تكن يومًا خجلة من والدتها، فالظلم وقسوة الظروف قسمة فرضتها الأقدار، لكنها منذ قابلته والكثير من الأمور بداخلها مشوشة، أن تفقده! أمر لا تظنها أبدًا قادرة عليه. عثرت معه على بعض الأمان والراحة، يهتم بها، وهي في أمسّ الحاجة لمن يهتم بها عوضًا عن أن تكون دومًا من يهتم. عاد للوراء ملتقطًا علبة كرتونية مطبوعة بشعار كميل شمعون وأعطاها إياها: لم أستطع

المقاومة، لا أحد سيليق به مثلما يليق بكِ يا أسوم.

نظرت للعلبة برية لوهلة ثم فتحتها: الثوب الأحمر الذي ارتديته قبل قليل - كيف تصد هجومًا كهذا؟! تأملت بوجل روعة القماش الناعم وتفصيلات التطريز وخرزات الكريستال مغمغمة - يجب أن نؤجل الخطوة الجديدة لبعض الوقت، أحتاج المزيد من الوقت لأتأكد من مشاعري.

- لكنني غير قادر على الانتظار - زفر بسخرية - ظننت أني من سيعاني الشك والتردد!

- راغب حبيبي، أرجوك امنحني بعض الوقت.

لم تكن تدري بم سيفيد الوقت؟ القادم قادم لا محالة، واللحظة الفاصلة التي سيتعين عليها البوح فيها لا مهرب منها! أضاء سقف السيارة ممسكًا بذقنها ليجبرها على النظر إليه: ممَا أنتِ خائفة؟ منِّي؟

ابتسمت بوهن: منذ رأيتك أدركت أنك عاصفة ستقتلع جذوري من الأرض وتغرقني.

داعب إبهامه وجنتها: وهل تخشين الغرق يا أسوم؟

بللت شفتيها الجافتين فتحولت نظرته إليهما: يقال إن من يركب البحر لا يخشى من الغرقِ، وقد ركبت البحر يا راغب، وعشقت أخطاره، صرت أجمل ما عصف بحياتي.

- وتطلبين المزيد من الوقت لتتأكدي؟! الشوق أقسى من أي ألم شعرته بحياتي، تروضينني يا ابنة ذو الفقار! - استدرك برزانة - كوني رحيمة، لا تجعلي الصفعة قوية.

همت بالاستفسار عمَّا يعني، فجذبها وغمرها بين ذراعيه آسرًا أفكارها واعتراضاتها في قُبلة طويلة متعمدًا ألا يفسح لها المجال للتنفس أو التفكير. كان غزوًا بكل ما حملته الكلمة من معنى؛ كر وفر مع مشاعرها، كر وفر مع إرادتها ومقاومتها، والنصر كان حليفًا له حتى النهاية! دق رأسها بقوة، وأصيب نبض عنقها بالجنون جاعلًا مقاومتها محض عبث، أهكذا تُسرَق

الأنفاس؟! ملأت أنفها رائحة سطوته وثقته بنفسه، وخبرته؛ الكارثة الكبرى! كان جيشًا من ألف مقاتل، وكانت كتيبة من جندي وحيدٍ منزوع القدرة، هزيل المقاومة! جندي دخل حربه الشعواء مهزومًا، وخرج منها مهزومًا! حين ابتعد أخيرًا كان عقلها المشوش يرسم خيالات ودوائر مضيئة أمام عينيها اللتين كانتا شبه مغمضتين، ورغم هذا رأت السيارة التي مرت مسرعة كالريح إلى جانبهما، ونظرة سلطت فوق رقبتها كحد السيف؛ نظرة من عينين لا تنظران مرتين! عضت على شفتها توشك أن تدميها، تابع ولا شك المشهد الدائر مهنئًا نفسه على رجاحة عقله، وحُسن حكمه على الأمور. همست بارتياع: "لماذا فعلـ... إلا أن إشارة من يده أوقفتها وصوته المبحوح أخرسها: اصمتي، دعيني أستمتع بلحظة انتظرتها طويلًا ـ عاد للوراء ملقيًا برأسه فوق ظهر مقعده مغمضًا، وابتسامة هانئة ترتسم فوق شفتيه لثانيتين، بعدها زفر بإحباط ـ لا فائدة! لم أكتفِ، آسف، لن أستطيع منحك المزيد من الوقت، سنعقد قراننا خلال اليومين القادمين وبأسرع وقت.

هتفت بذعر راغب! ماذا تقول؟

اعتدل بجلسته: أقول أن علينا عبور الحواجز، سأتحدث لوالدي الليلة بشأننا ـ احتضن وجهها بين كفيه ـ في حياتي لم أظن أن براءة قُبلة من نحب ستكون أجمل ألف مرة من ملايين القبلات الخبيرة، أنت كَنزِى يا أسوم!

السعادة التي انسلت إليها زاحمت كل المشاعر السلبية، أول قُبلة تتلقاها بحياتها! أول شعور بالحب يدق بابها! استكانت بمحيط ذراعه الذي التف حول كتفيها يقربها منه، غامرًا روحها بحنانٍ افتقدته. وحين أدار المحرِّك منطلقًا بكل سرعة كانت ذقنه الخشنة تداعب مقدمة جبهتها: لن أفعلها مرة أخرى وأسرق قبلة رغمًا عنك، سأحتفظ بكل نفحة براءة لديك ككنزٍ ثمينٍ وسيكون جائزتي في النهاية.

ضغطت قدمه دواسة البنزين لتنطلق السيارة متسابقة مع جموع السيارات، متمنيًا الطيران وقد منحته قُبلتها جناحين! أعادته لمراهق شغوف يحلم

بالقُبلة الأولى واللمسة الأولى؛ شعور افتقده أبد الدهر. هي أيضًا كانت على وَشَك الاستسلام للسعادة والاطمئنان، لولا اللقاء الذي جمعها به ثانية عبر نهر الطريق! فمه الذي ارتفعت زاويته بتهكم أنبأها بما يدور بخلده؛ كان على حق، وكل مرة يراها تثبت له أنه على حق!

زفر عدنان بسخرية. حثالة المجتمع! لولا الأسطوانات المدمجة الهامة التي أمره والده بإعادتها بنفسه إلى خزانة المنزل، لاستعان بأحد سائسي الجراج لإحضار سيارته، وهو الأحمق الذي ظل يؤنب نفسه على قسوته معها طوال الأسبوعين المنصرمين، ناعتًا نفسه باللا إنساني! سيعاود الآن النوم بكل ارتياح فوق وسادته.

كانت الأجواء هادئة بشقته والظلام مخيم على المكان إلا من بضع مصابيح صغيرة تلقي بظلالها الخافتة على أركان السقف والأرضية. ألقى حقيبته فوق الطاولة بإهمال وسار نحو غرفة النوم المضاءة، أوشك على الاقتراب من الباب حين تناهى لسمعه من الداخل صوت رجولي، ظنَّها تتابع أحد المسلسلات أو الأفلام على شاشة التلفاز كما اعتادت، لولا صوتها الذي انطلق من الداخل بضحكة مدوية ناثرًا كلمات ملئها الغنج (كفاك وقاحة، أنت فظيع حقًا!). مَن تُحدِّث؟! سمعها تقول (أخبرتك أن هذا كل ما ستحصل عليه منِّي، قُبلة في الهواء). ضرب رأسه قرع قوي، وكأن ضغطه ارتفع بغتة لأعلى معدلاته ومالبث أن انخفض بنفس السرعة، مخلفًا وراءه جسدًا انحسرت عن شرايينه وأوردته الدماء! ازدرد ريقه وتثاقلت خطواته، علياء! مستحيل! ثمة تفسير بلا شك. دلف إلى الغرفة بملامح جامدة وأنفاس باتت عسيرة مع كل خطوة، رآها مرتدية أحد أثواب النوم التي طالما تذمرت من عدم انتباهه له، جالسة أمام حاسوبها، وصورة رجل غريب تملأ شاشته، كانا يتبادلان حديثًا مرئيًا! سمع الرجل يقول بنبرة قذرة (تملكين أجمل... رأيتهما في حياتي).

أعادت علياء رأسها للوراء ضاحكة: توقف يا نانو، توقف.

ألقى هاتفه فوق الطاولة المنخفضة؛ فدوى بأذنيها كانفجار قنبلة!

تجمدت، حدقت أمامها تتسع عيناها رعبًا، وزحفت كفها المرتعشة بعيدًا عن بقعة التحكم بسهم الشاشة لتقع صريعة قُرب ركبتها العارية! لمحت من بعيد هاتفها الملقى كالجثة الهامدة فوق الفراش؛ نسيت شحنه! سرقها الوقت بجلوسها لساعات أمام الشاشة. تسارعت أنفاسها فكتمتها، ضبطها عدنان تمارس جريمتها الغبية! تجمدت أوصالها حين شعرته يقترب ليقف إلى جانبها فيجبرها على رؤيته بطرف عينها، حانت منها التفاتة نحو النافذة وأملٌ يداعبها في أن تقوى على النهوض والركض، لتلقي بنفسها للشارع، لا تريد أن تراه، لا تريد أن يراها أو يرى نظرتها الهلعة المستعطفة، النافذة مغلقة! أغلقتها لتدير مكيف الهواء، سيمنعها إن حاولت، ليتها تركتها مفتوحة! لكانت الآن جثة هامدة على قارعة الطريق، لكان انتهى الأمر! هيهات. أطرقت لجزءٍ من الثانية ثم حركت رأسها ببطء كمن يخطو فوق أرضٍ مزروعة بالألغام لترفعها نحو وجهه، في ثوانٍ معدودة رسمت خطة الهروب وأفشلتها، لكنها كانت من اللحظات التي يزحف فيها الوقت كالسلحفاة! طافت نظراتها المضطربة فوق صدره المتسارع الأنفاس رغم سكونه، فوق عنقه المتسارع النبض رغم ثباته، فوق شفتيه المطبقتين صمتًا؛ لم تعثر على شيء! تيبست ملامحه كأفرع الأشجار بشهور الجفاف! انحسرت عنه الحياة، وهي السبب! أطرقت هاربة، وانفلت من بين شفتيها صوتٌ مبحوحٌ كاد يذبح أحبالها الصوتية: عد.. عدنان، أنااااا.. انـ.. أنا...

امتدت يده ببطء وقبضت على كتفها فاستسلمت لجذبه دون أدنى مقاومة، وقفت منكسة الرأس للحظات ثقيلة، جثم الصمت فوق صدرها إلا من صدى أنفاسه الذي تردد صداها الخافت بدهاليز أذنيها، رفعت رأسها ببطء لتتقابل عيناهما، فطالعتها تقطيبة عميقة حفرت ما بين عينيه هوة مظلمة، تكاد أصابعه تفتت عظامها، أوشكت آهة على الانفلات فسارعت لوأدها، لا يحق لها التأوه! بحثت عبثًا عن بؤبؤي عينيه الذين أظلمتهما الصدمة، عن ومضة نور تطمئنها، تشجِّعها على النطق، فلم يطالعها سوى اختلاج ملامحه وتساؤل صامت صارخ سمعته دون أن ينطق! جعل يحول أنظاره بينها وبين

الشاشة المضيئة بذهول، وطال الوقت دون أن يتخلى عن صمته أو تجرؤ على التفوه ولو بالتوسل، لكنها أخيرًا تمتمت بنحيبٍ: لا شيء.. هذا لا شيء.. لا يعني شيئًا، صدقني.. أنا!

اقترب بغتة فانلفتت رغمًا عنها آهة ألم، كان يزم شفتيه بازدراء محاوِلًا النطق مرة خلف مرة بلا جدوى! لم ينجح في النهاية سوى بنطق اسمها الذي جعل يردده من بين أسنانه مرارًا وتكرار كمن أصيب بهذيان الحمى، تساؤلًا واتهامًا وصدمة: علياء! علياء! علياء!

أغمضت عينيها فانسابت دموعها غزيرة كالفيضان فوق صفحة وجهها الشاحب، رفع يده عن كتفها بامتعاض مبتعدًا عدة خطوات، وجعل يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، يقف برهة محدقًا بها وقبضتاه تعتصران بعضهما البعض، لتعود خطواته تنهب الأرض كالأسد الحبيس! رأت بين قبضتيه المضمومتين عنقها، شعرت بهما تطبقان عليه بلا رحمة! ظل على تلك الحال لدقيقتين كانتا العذاب! ثم ألقى بنفسه فوق المقعد القريب من الفراش، واضعًا رأسه بين كفيه: منذ متى؟!

أطرقت متمتمة بإصرار: إنه لا شيء أبدًا، إنه أنت، طوال الوقت كان أنت.

سارت نحو باب الشرفة مطالعة الشارع المزدحم، كم يكون الصمت أحيانًا أكثر صخبًا وإزعاجًا من أي صوت؛ معاناتها طوال الوقت، صمت مشاعره وسكون عاطفته! والمرة الوحيدة التي تحصل فيها على انفعاله تكون النهاية "أناديه نانو أدركت أنها من الآن فصاعدًا ستمارس الانتظار وقد أتاح لها المجال كاملًا لتتحدث، التفتت إليه ترمقه بنظرة مترقبة، فزفر بمرارة ليرتفع جانب فمه بابتسامة تهكُّم قاسية لمحتها من خلف ظلال كفه الذي ارتاح على جبهته، كررت بإصرار مولية إياه ظهرها: عدنان، لم أكن يومًا خائنة، هي الحقيقة.

أبعد كفه عن جبهته والتفت نحوها: أكاد لا أعرف حقيقة واحدة في حياتي!

التفتت إليه: يجب أن تعرف، لأنك.. لأنك تعرفني جيدًا.

أشار للحاسوب: وما هذا إذن؟

لوحت يدها صارخة بتوسل: سقطة، خطأ، غباء، أسمِه ما شئت، لكن ليس خيانة، أقسم لك، لم يلمسني قَط ولم يكن ليفعل.

نهض بغضب ليخطو عدة خطوات نحوها، جفلت لجزء من الثانية لولا وقوفه بمنتصف المسافة: الخيانة لا تتجزأ يا علياء ـ تشدق من بين أسنانه ـ لا تتجزأ! ـ أمسك حاسوبها بقرف ـ تحدثين رجلًا غريبًا وأنتِ مرتدية قميص نوم فاضح! رجل يحدثك بطريقة قذرة وضحكاتك تملأ الغرفة بصخبها! وتقسمين إنها ليست بخيانة! ـ عاود إلقاء الحاسوب فوق الفراش مقتربًا منها ـ بل هي خيانة يا زوجتي العزيزة، خيانة يا ملاكي الطاهر!

هزَّت رأسها بتوسل وشهقاتها المكتومة تشق صدرها كنصل السكين: لم نتقابل ولا مرة واحدة، لم يرني قَط، أنا فقط كنت أراه، كنا نتحدث فحسب.

أمسكها من كتفيها يهزها بعنف ولولا نحيبها لظنها فقدت الوعي: لماذا، أخبريني لماذا؟

استجمعت رفات قوتها صارخة بهستيرية: أنتَ السبب!

طافت نظراته الحائرة فوق وجهها الممتقع وعاود هزها بحقد: ماذا تعنين؟..انطقي.

ظلت تنتحب بحرقة، تهز رأسها كمن أصيب بمس الجنون: كنت أحاول ملأ الهوَّة الفارغة بداخلي التي أتعستني وكنتَ سببًا فيها ـ أبعدت يديه عنها فجعلت تسير بأرجاء الغرفة مشيرة لما حولها ـ بيت رائع، حياة مرفهة ـ أشارت إليه بمرارة ـ طبيب مرموق، أملك كل شيء حتى ما لم أحلم به، بلا فائدة، بلا متعة، وبلا إحساس بالحياة ـ التفتت بغتة ـ لماذا لم تضربني؟ لماذا لم تقتلني حين رأيت خيانتي بأُمِّ عينيك كما تظن؟

ضمَّ قبضتيه بغضب: هو ليس بالظن يا علياء، هو يقين.

صرخت بعصبية: إذن لِمَ لَم تضربني؟! سأجيبك أنا..لأنك لم تحبني

حقًا لتؤلمك خيانتي، لم تحبني يومًا يا عدنان لتنجح في سدِّ هوَّة احتياجي، منحتني كل شيء دون أن تمنحني شيئًا!

توقع تذرعها بأي حجة، لكن أن تلقي الأمر برمته فوق عاتقه فيصبح المذنب الوحيد! زفر بسخرية: مزحة سمجة.

مطَّت شفتيها بمرارة: ليتها كانت يا زوجي العزيز! ـ كفكفت فيضًا جديدًا من الدموع ـ يا حبيبي الذي بخَلَ عليَّ بالحب! ناديته باسمك طوال الوقت، أعرفه منذ أسابيع قليلة، كنت أستمع، فقط أستمع لأحاديثه ومغازلاته، لدعاباته التي رسمت الابتسامة فوق شفتيَّ يا عدنان ـ احتضنت نفسها ـ شفتاي اللتان فقدتا آلية الابتسام منذ زمنٍ! حتى طفلك رفضت منحي إياه ـ حدجها بنظرة قاسية حملت الكثير من الازدراء والغضب ـ لا تتعجب، الحقيقة فرضت نفسها بيننا ولا مجال للتجمل أو الخداع ـ خطت نحوه بتردد فأوقفها بنظرة محذرة ـ أنت لا تحبني ولو بضعة من مقدار حبي لك!

ـ ظننتكِ سعيدة يا علياء!

ارتفعت زاوية فمها: وهل السعادة حرماني من نظرة حب صادقة ولو لمرة في عينيك! أم هي لقاء الحب المعدوم من الحب؟ اللقاء الذي كنت أشحذه أحيانا بحثا عن لحظة صفاء ترشدني إليك، بعيدًا عن محاولاتنا المستميتة للحصول على طفلٍ. ما هو تعريف السعادة؟ أخبرني أنت!

استدار موليًا إياها ظهره: تحملين كل هذا لسنوات، وأمكنك البوح متى شئتِ!

أعادت رأسها للوراء مطلقة ضحكة خشنة لم تستطع إتقانها ليغلبها البكاء: تسألني لماذا لم أخبرك؟! ـ عاودت الضحك بقسوة شديدة ممسِّدة جبهتها بأصابع مرتعشة ـ آه يا عدنان! أخبرتك آلاف المرات، وبألف طريقة، لكنك أبدًا لم تسمع، لم تعِ، كنت كمن ينادي من قاع وحدة موحش، نحو القمة حيث أنت، أغثني يا عدنان.. لا تنسَني ـ زفرت بحزنٍ ـ فصَمَّت أذنيك عن نداءاتي.

أغمض قائلًا بأسف: لكنني ـحببتك، ربما ليس بالطريقة التي أردتِها، لكني فعلت ـ التفت إليها ـ وكل ما أخبرتني به الآن ليس مبررًا كافيًا للخيانة، مهما حدث.

هزَّت رأسها بعنف مغطية أذنيها بكفيها: لا تقل إنك أحببتني، ليس الآن، لا أصدقك، لا أصدقك.

أومأ بإصرار: بل أحببتك، أحببت نقاءك وبراءتك وطهرك.

ـ إن كنت تحبني بحق كما تدعي فسيمكنك مسامحتي ـ أردفت بذعر ـ أليس كذلك يا عدنان؟ قل أنك ستسامحني.

ـ لا أظنني قادرًا على المسامحة يا علياء، ليس حين يتعلق الأمر بكرامتي.

ـ لكنـ... لكنني لم أفعل شيئًا، كنت أهرب لساعات قليلة من صحراء حياتنا الجافة، كنت أناديه باسمك، أقسم بالله كان أنت.

ـ وهذا سبب أدعى لنضع حدًّا لعلاقتنا، هناك صدع، هوة كما أخبرتني، وإن كنا عاجزين عن ملئها فلا مبرر لبقائنا معًا، ما حدث الليلة جرس إنذار لكلينا، علينا تصحيح الوضع قبل أن يتفاقم لكارثة.

اقتربت منه واضعة كفها قرب ذراعه، تعلقها في الهواء كما تعلقت روحها بتصريحه: أنا أحبك، أريد البقاء معك لآخر يوم في عمري، سامحني يا حبيبي، سامحني.

أمرها ببرودٍ: عليك الاتصال بوالديك وإعلان رغبتك بالطلاق، أخبريهما بعجزك عن

الاستمرار لأنك تعيسة.

شهقت بجزع: لا، لن أفعل، لن أفعل.

جعلت تحرك رأسها يمنة ويسرى، متراجعة للخلف بخطوات مرتبكة حتى أوشكت على التعثر، فسارع ممسكًا بها: علياء، استمعي إليَّ، أود التصرف معك بنبل للحظة الأخيرة، لا أريد لأحد أن يعلم السبب الحقيقي

لطلاقنا، حاولي التفكير بمنطقية، حبي لك لم يكن كافيًا أو مرضيًا فلا مبرر للاستمرار.

"ستسامحني، اعلم أنك ستسامحني جعلت تردد كلماتها بعناد مرات ومرات كان يناديها خلالها بالتعقل والهدوء، ولم يجد مفرًا في النهاية سوى الصراخ بها: علياء، لن أستطيع العيش معك بعد رؤيتي لذاك المشهد القذر، انتهى الأمر، هو اختيارك يا عليا.. اختيارك!

أفلت ذراعها وسارع مبتعدًا صوب الخزانة ملتقطًا بيجاما، وهرع نحو الخارج يتناهى لسمعه صوت صرخاتها الملتاعه كمن فقد عزيزًا: لا تقل إنك أحببتني، لو أحببتني لسامحتني، هل تسمعني؟ أنت كاذب، كاذب يا عدنان.. كاذب.

صفق الباب خلفه واختناق رهيب يطبق على عنقه يكاد يزهق روحه، هرع يهبط درجات السلم، كانت قدماه تنهبان الدرج كالفرس الجزع بهستيرية، لا يُلوي على شيء سوى الهروب والنفاذ بعمره من تلك الحفرة النتنة المدعوة شقة الزوجية. ماذا سيبقى نقيًا إن تلوثت علياء؟! ماذا سيبقى متزنًا حقيقيًا بعدها؟! "ثمة مشكلة يا دكتور؟!" تجاهل الرد على سؤال حارس البناية، مبتعدًا بأقصى سرعته، وحين وصل لسيارته فتحها ملقيًا بجسده المنتفض فوق مقعدها الأمامي، تُغشِي عينيه ظلمةٌ. حدق بجارور القمامة القابع فوق الرصيف، ممتلئًا عن آخره حتى تناثر محتواه من حوله، تلاشى صخب الازدحام ولم يبقَ سوى صورة الجارور وقيئه القذر! لم ينتبه لوجوده من قبل أو تتغلغل رائحته متشعبة هكذا بحواسه رغم زجاج السيارة المغلق! تسللت أصابعه نحو مفتاح المحرك مديرًا إياه ببطءٍ دون أن تحيد عيناه عن الجارور، وقبل أن يغيب عن ناظريه، كانت ربطة عنقه أصبحت جزءًا منه!

سار لفترة طويلة بسيارته حتى وجد نفسه في النهاية واقفا فوق كوبري قصر النيل القريب من ميدان التحرير، أطفأ المحرِّك ورفع يده يحل أزرار قميصه، مازال يحاصره الاختناق، لكنه ليس ما يعتصر روحه، بل الزيف!

استعادته المشهد الذي دارَ بالأعلى لثوانٍ كانت كافية لتحطيم كل صغيرة وكبيرة بعالمه المثالي! أعاد رأسه للوراء محدقًا بصفحة النيل، كل ما حوله زائف؛ سعادة زائفة، زواج زائف، نجاح زائف، إخلاص زوجته الملائكية زِيفٌ كبير، حتى يقين عمرو ونجاح والده ورضا عمه عادل زيف! الكل يمارس الزيف! ما أكثر الزيف المحيط بك أيها الطبيب! عاوده السؤال بإلحاح: ماذا ليبقى نقيًا إن تلوثت علياء؟! ضربته الليلة في مقتل! رفعت الحُجُب عن عينيه ليبصر عري الحقيقة، منضمة لقبيلة ذوي الابتسامات الكاذبة، تمامًا كفتاة الخمسين جنيهًا! الخيانة لا تتجزأ؛ كل أشكالها وألوانها ودرجاتها تصبّ في النهاية ببوتقة واحدة، وأن يتألم خير ألف مرة من أن يُخدَع. عليه الابتعاد عن كل شيء!

* *

(١٠)

صرخت قِسمت برعب: ماذا تقصد بأنك لا تملك أسطوانة أُكْسِجين؟!

قال زين الذي شاركهم المكان الضيق بسيارة الإسعاف، بعدما دسَّ بيد السائق والممرض عشرة جنيهات: علينا أن نبتهل لله كي نصل قبل نفاذ الأُكْسِجين ـ التفت بعصبية نحو الممرض ذي السترة الباهتة المبقعة ممزعة الأطراف ـ كيف يحدث شيءٌ كهذا؟!

أعاد الرجل رأسه للوراء منفجرًا بالضحك: احمدوا الله أنكم وجدتمونا ـ ألقى نظرة على ساعته ـ الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل.

حدقت بجسدِ شقيقتها الواهن، ملقى فوق سرير سيارة الإسعاف التي تحاول عبثًا التسلل بين صفوف السيارات السائرة ببطء السلحفاة، قاموا بإنزال شقيقتها من السطح للعربة فوق ملاءة سرير أحضرتها من شقتهم، لأن السيارة خالية من سرير نقل المرضى! وها هي أسطوانة الأُكْسِجِن اليتيمة توشك على النفاذ!

ـ عليَّ قياس ضغطك يا سيما! نزف الدماء الذي تعرضتِ له مع وضع حملكِ الجديد يحتاج لمتابعة صحية باستمرار.

حدقت بالجهاز الطبي الصغير بين يديه بحيرة: "ضغطي أنا؟" ظلت لبرهة غير مدركة ما يطلبه، لكنها بمرور الثوان أدركت أين هي وماذا تفعل، همَّت بالنهوض مبتعدة عن الشجرة التي عكفت بأسفلها على اجترار الذكريات لأكثر من ساعة: لستَ بحاجة للقلق بشأني.

أمسك بذراعها: لستُ قلقًا بشأنك فقط، بل بشأن طفلتي أيضًا.

لانت ملامحها قليلًا لتساؤله وشبح ابتسامة حائرة يداعب شفتيها: "لماذا تصر على أنها طفلة؟" أملَتْ العثور على إجابة حقيقة لسؤال عجيب سألته لنفسها مرارًا.

- لأني دعوت الله كثيرًا أن يكون لي طفلة منك، وحين أخبرتني بالحمل شعرت أن أبواب السماء كانت مفتوحة. لدي شعور قوي أنه استجاب لدعوتي بكل تفاصيلها.

كم أنت رجل غريب الطباع! تحرص كل ليلة على إعطائي قرص منع الحمل بنفسك، وتتخذ كل الوسائل الممكنة الأخرى، ثم تدعو الله بالحصول على طفلة منّي، أهي دعابة أم لغز؟

أشار نحو البقعة التي نهضت عنها: اجلسي، وأعدك أن أخبرك بحل اللغز.

حدقت بقياس الضغط بين يديه للحظة ثم قررت الامتثال، لن يضرها الاطمئنان على صحتها خاصة وهي تحمل طفلته. "جيد، لا أظن أن هناك حاليًا ما يدعو للقلق أغلق جهاز القياس فهمَّت بسؤاله عن حلِّ اللغز ليسمعا نداء والدته تدعوهما للغذاء.

كانت كل المقاعد مشغولة عدا مقعدين، حرصت ليلى على إبقائهما مجاورين لرأس المائدة حيث يجلس الدكتور خالد! أشار عدنان لرأس المائدة: "لم تلتقِ بعد بالدكتور عادل أبو الفتوح؛ صديق والدي وشقيقه الروحي وشريكه في العمل" كان لاسمه رنين خاص جدًّا، الآن فقط علمت صاحب الاسم (الدكتور عادل أبو الفتوح) الذي ظنته صاحب المشفى!

حيَّته مومئة فبادلها التحية دون أن يكلف كلٌّ منهما نفسه عناء الابتسام؛ فالطاولة التي تحوي هذا الكم الهائل من الأشخاص الذين يوشكون على ضرب رؤوسهم بالجدران ندمًا على قبول الدعوة، لن تحتمل أيًّا من سمات التلطف والمجاملات! صرح خالد فأوقفهم عن الطعام: علمت هذا الصباح بشأن الشباب المختبئين بقبو المستشفى يا عمرو!

انتبه عمرو الذي جلس إلى جانب لينا: من أخبرك يا عمي؟!

سألت لينا بدهشة: هل أخفى الثوار بقبو المشفى؟

أومأ خالد بتجهُّم: لا يهم من أخبرني! تعلمون جميعًا أني ضد التدخل في الأمور السياسية، ولا أستحسن انضمام أي منكم لمظاهرات أو اعتصامات من هذا النوع.

سأله عادل الذي تابع الحوار باهتمام: هل تظنهم سينجحون بتلك المظاهرات؟!

ابتلعت قِسمت اللقمة التي جعلت تمضغها مرارًا وتكرارًا لإلهاء لسانها عن التفوه، فلم تحتمل المزيد: هي ليست بمظاهرات يا دكتور عادل مع احترامي، هي ثورة! سقط مسمى المظاهرات منذ وقت طويل وباتت ثورة شعبية.

تشدقت بكلماتها الأخيرة، يلوح الانفعال في نبراتها. تجاهلها خالد مجيبًا على سؤال صديقه: لا أظن، مجرد زوبعة في فنجان، الخوف أكبر عدو للإنسان، وهناك ألف طريقة لإخافة متظاهري الميدان.

عاد لتناول طعامه ببساطة بعد أن تشدق هو الآخر بكلمتيه الأُخيرين، أوشكت مرة أخرى على الحديث فسبقها عدنان: حتى وإن كان، لا نستطيع الوقوف مكتوفي الأيدي، نحن أطباء يا دكتور خالد، أُوقِن أنك تتحدث بصوت العقل، لكن أتحداك إن امتلكت الجرأة على طردِهم أو موالاتهم ظهرك، يجب أن نعطيهم فرصة للحياة لا أن نغدر بهم كما فعل غيرنا.

زفرت قِسمت: ربما منح فرصة للموت هو حُكم العادة.

ارتطمت الشوكة التي ألقاها خالد فوق المائدة بعنفٍ جعل الجميع يعاود التوقف عن الأكل، محدقين بقسمت بين لوم ودهشة. قال خالد من بين أسنانه: لم تكن مستشفانا يومًا معقلًا للموت يا مدام قِسمت! أرجو أن تعيدي التفكير مطوَّلًا قبل التفوه بالهراء.

لا تقلق يا دكتور خالد، أحصي على أصابعي دومًا من واحد لألف، قبل التفوُّه بحرفٍ واحدٍ ـ وضعت قطعة لحم صغيرة بفمها أرسلت شعورًا قويًا بالغثيان إلى معدتها ـ وأنصحك بإعادة النظر في اسم مستشفاك ـ جعلت تمضغ قطعة اللحم بتلذذ مصطنع ـ ألست معي أن الاسم ليس على مسمى؟!

ناداها عدنان محذِّرًا فرفعت رأسها بعجرفة متجاهلة التحذير، وهمَّت بالحديث فسارع خالد بمقاطعتها: لم يكن يجب أن تقوم بذلك يا عمرو، مخاطرة كبيرة!

هتف عمرو: لم أستطع التخلي عنهم ـ أطرق مغمغمًا ـ ربما هي فرصة لنساهم ولو بالقليل فيما يحاولونه.

أجلى حلقه بارتباك حين التفتت لينا تطالعه بحُبٍّ وإعجابٍ شديدين: "لِمَاذا لم تخبرني؟" تعترف بأنها تفاجأت، كان الحصول على خطوة إيجابية منه حُلما بعيد المنال، ناهيك بالحصول عليها في ظروفٍ كتلك! مدت يدها محتضنة كفة الممسكة بالشوكة هاتفة: "سنتزوج" شهقت ليلى مخفية فمها بكفيها: "لا أصدق، أخيرًا!" نهضت حسناء من مقعدها محتضنة لينا وعمرو تقبِّلهما بسعادة، فيما أضاءت قسمات خالد: "تحدثنا أنا وعادل قبل قليل، واتفقنا على قراءة الفاتحة الآن، والخطبة وعقد القرآن خلال شهر" خلع عمرو المحبس الذي صُكَّ باسمها منذ سنوات من إصبعه الصغير، متنهدًا بسعادة: "أخيرًا يا لولا" رفعت لينا كفها ليضعه في بنصرها لاثمًا يدها، احمرَّت وجنتاها خجلًا، ليقابلها وجه قِسمت الذي تهلل، لتعاود نظراتها التعلق بعمرو الذي بلغ به الشوق منتهاه. فيما مضى تمنت قِسمت أن تشهد نوار ملائكية الطلة بطرحة عروس، لكن القدر حرمها أبسط حقوق التمني، وتركها منهكة الضمير والجسد! نهض عدنان من مقعده مهنئًا

شقيقته وصديقه، وعاود الانحناء ممسكًا بكفها واضعًا حبة كهرمانية صغيرة براحتها: "تستحقينها، أنعشت ابتسامتك قلبي" طبع قُبلة صغيرة فوق وجنتها وسار مبتعدًا نحو غرفته، فحدجتها علياء بكراهية.

تبعته بعد لحظات حين هاجمتها الوحدة بينهم على الطاولة، فعثرت عليه مستلقيًا على سريره مغمضًا: أيمكنني الحصول على بعض الماساج لرقبتي يا أسما؟ ـ همت بالاعتراض فعاجلها ـ تناولت مسكّن دون جدوى.

استدار نائمًا على بطنه فازدردت ريقها وجلست إلى جانبه، وشرعت بتمسيد أعلى كتفيه: تعلم أن كل حبة تباعد المسافات بيننا وأعلم جيدًا كم يزعجك هذا، لماذا إذن؟!

صمت طويلًا حتى ظنت أن تمسيدها أغرقه في النوم لولا تنهيدته العميقة: ربما أحرص على إرضاء ضميري وعدم خداعك لتتأكدي أننا لسنا بوحوشٍ يا أسما، وإن باعدت أمانتي بيننا خطوات!

ـ هل فكرت بالأمر؟!

ـ وكيف لا والأمر متعلق بابنتي التي تنوين قتلها ـ صعدت أصابعها قليلًا نحو رقبته مغمضة بألم، فأمسك كفها مستديرًا ـ ألا يكفي حبنا ليعدو الحواجز؟!

أطرقت محدقة بحبتها الجديدة التي حُفِرَت باسم (العادل): لم أتصوَّر يومًا أن تجمعنا مشاعر تدفعك للقفز فوق أي حواجز أيها الطبيب!

أطلق ضحكة مريرة: ولم أتصور يومًا أن يتعسني نداء (أيها الطبيب)! لكن ماذا أفعل؟! إسمتي! ـ ابتسم ـ هل معكِ كيس الحبات؟ ـ قطبت مخرجة إياه فأخذ علبة مخملية صغيرة من الجارور المجاور ـ أحضرتُ سلسلة من البلاتين قوية التحمل لحفظ حباتك، هي فكرتي رغم غرابتها.

ضحكت رغمًا عنها: وهل تملك أغرب منّي؟!

ـ ستفقدينني الحبات أسرع مما توقعت!

أمسكت بطرف السلسلة: "يتدلى منها حرفان!" أومأ قائلًا: أول حروف

اسمينا، أحضرتها بالأمس وكنت أنوي مفاجأتك، هدية عيد زواجنا وقد تأخرت كثيرًا، سامحيني، لم أكن قادرًا يومًا على ابتكار أمور رومانسية.

الرومانسية ليست ورود حمراء أو كلمات غزل فحسب، أنت قادر على تحويل أبسط الأمور بيننا لفانيلا - ردد الكلمة بدهشة - أجل.. فانيلا أيها الطبيب! تناولُك الحليب غارقًا بالفانيلا أولى دلائل رومانسيتك الشديدة، هل نسيت ما أخبرتني به عن عشقك لها؟! - تنهدت - الاهتمام رومانسية، الحماية والأمان رومانسية، وقد منحتني منهم الكثير - طالت بينهما النظرات فاستدركت بارتباك - أتعلم ما يغيظني حقًا؟ كلام الجميع عنك وعن طبيعتك من قبل البعيدة كل البُعدِ عمَّا تراه عيناي!

- غيرتِ بي الكثير، حتى الفانيلا التي أعشقها كان لها طعمٌ جديدٌ معك - أشاحت برأسها هاربة - سأضيف عمَّا قريب حرفًا جديدًا لأني لم أعلم بالأمر سوى اليوم - داعب وجنتها بكفه - الحرف الأول من اسم ابنتنا، أريد أن يبقى شيء منِّي محتضنًا كفك طوال الوقت، وكلما نظرتِ إليه تذكرين رجلًا يحمل لك مشاعرَ فاض بها قلبه.

جالت نظراتها فوق ملامحه الهادئة وعينيه اللتين أشرقتا بابتسامة لاحت معها تجعيدات صغيرة. كيف يمكن للحب الذي يعتنقانه العيش في تلك الظروف؟! مستحيل! لكن كان لكفِّها رأي آخر وحاجة من نوعٍ خاصٍ؛ تغرق أصابعها في شعره مداعبة القُبلات القمرية المنثورة بين طياته، يظنها بحاجة لشيءٍ يذكِّرها به غافلًا عن تغلغله داخلها حتى بات وعيها وحواسها. لم تدرِ مَن منهما بدأ الرحلة؛ قبَّلتهما دومًا رحلة نحو طاقة للنور، كلما تشاركاها أحالت شفتيها لبتلات زهور عطشى، تهفو لقطرات ندى فجرية تنساب منه إليها، مُحِيلَة بين ذراعيه المذلة والسخط الدائم للهفة واستكانة، حتى كبريائها الهارب تعثر عليه هناك، بين ذراعيه! تسرق تلك اللحظات من الزمن مرة تلو الأخرى، مختزنة زادًا لرحلة عطش طويلة، ستكون حياتها دونه صحراء ممتدة بلا نهاية! ابتعد قائلًا بصوتٍ أجش: مازالت الفرصة سانحة لتخرج

ابنتنا للحياة في بيئة طبيعية، حتى وإن صوَّرنا الأمر أنها ابنة سبعة أشهر وأن الحمل تم فور زواجنا.

ـ مشاعري حيال الأمر برمته، نسيت أم تناسيت؟

احتضن وجهها بين كفيه متوسلًا: حتى وإن عجزت عن تأكيد ادعائك أو نفيه ستبقى لدينا قدرتك على الصفح، سامحي الأيام يا أسما وسامحيني لأني لم أكن رحيمًا بكِ مثلها.

نهضت هاتفة بالتياع: تطلب المستحيل! ما بيننا لم يعد ذكريات مُرَّة، بات ثأرًا ودمًا لا يقوى على محوه الزمن أو النسيان أيها الطبيب.

هذا النداء اللعين بات سهمًا ناريًا يخترق أعصابه! قال: بل تستطيعين لكن ترفضين المحاولة!

ـ أجل وترفضها كل خلية منِّي، لن أسمح له بالحصول على حفيدة من إحدى ضحاياه، لن أمنحه الحياة وقد منحنا الموت.

ـ يمكنني حبسك هنا حتى موعد الولادة، ولن تستطيعي فعل شيء.

ارتفع جانب فمها: حينها سأتحيَّن الفرصة لأقتلها وأقتل نفسي، يجب أن يذوقوا مرارة الحرمان مثلي، ستهبط عدالة السماء رغم أنوفهم، لن يتنعموا بقربِها أبدًا!

أسرع محتضنًا بطنها متوسلًا: لا تتخلصي منها، لا تقتلي حلمنا الوليد في لحظةِ غضبٍ! ـ مسَّد وجهه ببطنه ـ توسليها أن تمنحك فرصة الحياة.

تغضنت ملامحها حين عاودها الغثيان: "توقف، توقف" أبعدته عنها برفق وجلست على المقعد المجاور للفراش، متكئة برأسها على ظهره العالي. نهض بحزنٍ: أكاد لا أعرفك! بقمة سخطك وغضبك لم تكوني بهذه القسوة.

أحنى كتفيه مغادرًا يجر أقدامه كمن يحمل جبلًا، أدمى قلبها مرآه لكنه حق نوار! لن تفعل مثلما فعلت دنياها وظلمتها، حين أولى والدها ظهره للثأر لم يكن ثأر دمه، لكنه ثأرها؛ دمها ولحمها. مسَّدت موضع وجهه فوق

بطنها، تكاد لا تعرف نفسها كما أخبرها، لكن ما مرت به كان قادرًا على تحويل الحُملان إلى وحوش!

*   *

وضعت المنشفة داخل الطبق المعدني الذي حوى قطعة من الثلج الكبيرة وبعض الماء لتعتصرها بقوة، واضعة إياها فوق جبهة شقيقتها متمتمة بقرف: قطعة الثلج قذرة!

قال زين ورأسه منحني بين كفيه: حمدًا لله أني استطعت إقناع صاحب السوبر ماركت القريب بأخذِها من ثلاجته المعطلة.

هزت صفية رأسها بحزنٍ: المستشفى بحالة كارثية، لا أطباء ولا ممرضات يأبهون بنا! المسكينة وقفت أسفل المياه الباردة أكثر من ثلاث مرات، وكلما انخفضت الحرارة اندست بين الأغطية ونامت حتى يعاودها الارتعاش، فتقف أسفل المياه من جديد.

ضغطت قِسمت قطعة القماش المبللة برفق فوق جبهة نوار: أشعر بالعجز ولا أدري ما أفعل! لماذا تأخرتم بطلب الإسعاف؟!

أجابها زين: رفضت وأصرت على أخذ حمامات الماء البارد، ليتني لم أستمع إليها!

انتفضت نوار بشدة أسفل الشرشف الصوفي المهترئ، فسارعت قِسمت بوضع الشال حول رقبتها: كيف تفعلين هذا بنفسك يا نوار؟!

فتحت عينيها ببطء: سامحيني يا أسما، أنا خجلة منك، كنت ضعيفة.

دمعت عيناها: المرض ليس بأيدينا.

هزت نوار رأسها بضعفٍ: كان اختيـ.. ـ قطعت كلماتها لتهذي بصراخ ـ ماما.. فريدة.. فريدة

نادتها قِسمت بنحيب: "نوار استيقظي، ترعبينني!" لا تدري كم مضى من الوقت بين جدران الغرفة الصفراوية بلون عصارة المعدة، حين التفتت

نحو هاتفها الذي تعالىٰ رنينه وكان راغب! نظرت عبر النافذة، الظلمة تعتصر بقايا النهار، نهضت بارتباك: "سأغيب لدقائق"

تسمرت بوقفتها حين قابلتها قِطة رمادية في طريقها للأسفل مكشرة عن أنيابها بصوتٍ كالفحيح، مدافعة عن ملكيتها لركنها كما يفعل أسود الغاب، انقلبت معدتها قرفًا لمرآىٰ جلدها الأجرب وعينها المريضة. "هل أخافتك بوسي؟" أتىٰ السؤال مازحًا من إحدىٰ الممرضات ذوات المعاطف التي أحالها الزمن للونٍ رمادي مبقع، ليأتي بتناغم مذهل مع جلد بوسي! يفوح عرقها كالغاز السام.

ـ وضعت بوسي منذ عدة أيام أربع قطيطات، نعطف عليها ببعض اللبن والزبادي من حينٍ لآخر، يجب أن نرحم الحيوانات، هي أرواح مثلنا.

ما رأيك أن تعطفي أيضا علىٰ الإنسان لتأخذي ثوابه؟! ـ أشارت للأعلىٰ ـ شقيقتي بالطابق الثالث، ومنذ الأمس ونحن بانتظار الطبيب ليلقي نظرة عليها يا...

دست عشرة جنيهات بكف الممرضة التي لانت ملامحها قليلًا بعد جمود لتصريحاتها الهازئة: أمينة يا أختي.

ـ حسنًا يا أمينة، اهتمي بنا قليلًا وسأهتم بكِ!

فور خروجها من أبواب المستشفىٰ عبت من الهواء المختلط بروائح العوادم وأبخرة المحال، أكثر لطفا من الرائحة بالداخل! أجفلها صوت بوق مرتفع وسباب ساخط وهي تعبر الشارع بعدم انتباه، وصوت آخر لصبي لم يتجاوز الرابعة عشر يسير إلىٰ جانب صديقيه محرقًا سيجارة بفمه: "انتبه يا جميل" رفعت حاجبين أثقلهما الإرهاق سرعان ما سقطا فوق جفنيها. كان راغب مغمضًا عينيه وقد استرخىٰ برأسه فوق ظهر مقعده، ممسكًا بالمقود ينقر فوقه مع موسيقىٰ الأغنية، نقرت هي الأخرىٰ فوق الزجاج فالتفت لتنفرج شفتاه الغليظتان عن ابتسامة ارتياح. دلفت إلىٰ المقعد المجاور فأفاقت رائحة المعطر والجلد الفاخر حاسة الشم لديها. احتضن كفها بين

كفيه وانحنى طابعًا قبلات ثلاثة فوق ظاهرها، ليطغى صوت قبلاته القوية فوق صوت الموسيقى الصاخب!

مشتاق لدرجة التمني بنقض عهدي كالأطفال، لأحصل على قبلة حقيقية فوق الـ18.

أطلقت ضحكة واهنة: آه يا راغب! لو تعلم كم احتجت للابتسام في هذه اللحظة!

أدار المحرك فاسترخت بجلستها مستسلمة لصخب الأغنية، التفت نحوها مرسلًا إليها قُبلة في الهواء مقلدًا الأغنية بشقاوة انعشتها...

بتروح قلبي بيلحقك والروح.. ممنوع تتركلي قلب مجروح.. مسموح تعشق مش مسموح تفل..

كانت بحاجة إليه! بحاجة ألا تحمل للدنيا همًّا للحظات! توقفت بهما السيارة في شارع زينته الأشجار على كلا الجانبين، اشتمت به بعضًا من رائحة السكينة المفقودة.

- إصرارك غريب على مكان لقائنا!

قالت مطرقة: لي صديقة مريضة بالمستشفى كنت بزيارتها.

قلب شفتيه ازدراءً: لا أدري كيف تطيق صديقتك البقاء هناك؟ رأيت قطة تدخل من الباب، مكان يصيب السليم بالأمراض!

سألته بتهكم مرير: قابلت بوسي؟!

في بلاد محترمة، قطة كتلك كافية لغلق المكان بالشمع الأحمر - ازدردت ريقها الذي جف كعطش الصحارى وهمت بالحديث فعاجلها - لنعقد قراننا الليلة!

أشاحت لتنظر عبر الزجاج ممسدة رقبتها المتألمة، ثم خفضت يدها ملتزمة الصمت، بماذا تجيبه؟ تمتمت: "تبدو مرهقًا" أحبطته ردة فعلها فتنهد: "كان هاتفك مغلقًا طوال اليوم" تعللت بالانشغال ولعنت نفسها بغيظ، لِم لا تخبره أن نوار بالمستشفى وتنتهي من الحكاية؟ لا ستجر

الأمور بعها وتبوح بالبقية. لن تستطيع.. ليس بعد!

- تشاجرت مع والدي هذا الصباح، فاجأني بنيته التحدث مع صديقه بشأن خطبتنا أنا وابنته. وقبلكِ لم أكن لأهتم، خططت لكل شيء عدا أن يدق قلبي.

ابتسمت بوهنٍ: أنا أيضًا، كل شيء في حياتي غير متوقع، حتىٰ أنت!

- لنتزوج الليلة؟ أحتاجك بحياتي واقع وحقيقة في أقرب فرصة، ليتأكد والدي من جدية قراري، وأنها ليست نزوة كما يصر علىٰ وصفها.

أمالت راسها: وهل أعلنت رغبتك بالزواج من قبل؟

نفىٰ بثقة: أنتِ الأولىٰ في كل شيء.

أغمضت بقوة: كم أنا متعبة يا راغب!

هتف بلهفة: دعيني أخطفك يا أسوم، لنتزوج الليلة زواجًا شرعيًا كما تريدين وعلىٰ يد مأذون بعِمَّة - اردف بتسلية - رغم شكي في العثور علىٰ واحد، لكن أعدك أن نقلب القاهرة بحثًا عنه، دعيني أكن حلمك - تعالىٰ رنين هاتفه فأغلقه دون أن يجيب مديرًا المحرك - هيًا لنبحث عن مأذون، إنه والدي يـ....

- والدتي بالسجن!

ابتعدت أصابعه عن المفاتيح ببطء: أعيدي ما قلتِه فلم أسمع جيدًا!

- بل سمعت، والدتي بالسجن يا راغب.

توقعت الكثير من ردات فعله؛ يصرخ، يثور، يغضب، بل وربما يلومها ويحاكمها علىٰ خداعها، فتفوَّه بآخر ما توقعته: لماذا أخبرتني؟

أعاد السؤال علىٰ أسماعها بغضب فقالت بدهشة: لا يمكنني الزواج بك وبيننا أسرار!

هزَّ رأسه وملامحه تزداد انفعالًا: كان يجب أن تلتزمي الصمت، أن تكذبي - لوَّح يده وقد أظلمت عيناه - افعلي مثل بنات جنسك، راوغي وناضلي للحفاظ علىٰ أسرارك - أمسك ذراعها بقسوة - لماذا قلت الحقيقة؟

كان هذا أكثر مما تحتمل: من المنطق أن تلومني على كذبي وليس العكس!

صرخ بها ضاربًا المقود بعنف: الصدق في زماننا غباء يا قِسمت، غباء وحمق، الجميع يرتدي أقنعة، الجميع يكذب ويصارع ليبقى ـ انتهى إعصاره بغتة كما بدأ، محدقاً بالشارع الساكن الذي خلا من المارة والهواء، حتى توقفت أوراق الشجر على أغصانها عن الحركة ـ ليست المرة الأولى التي تجذبني فيها امرأة، لكنها الأولى التي أتجنب فيها البحث خلف أسرارها لأعثر على نقطة ضعف أدلف بها داخلها! قمت بهذا معهن جميعًا وبنفس الخطوات..عداك! ـ التفت إليها ـ أنت فقط من كسرت معها القاعدة، ربما خوفًا من لحظة كتلك، خوفًا من اكتشافي أمر يحول بيني وبينك، أو يفسد هالة السحر من حولك، وها قد حدث ما كنت أخشاه!

لا أحمل العار لأن والدتي بالسجن! هي كالغارمات، سُرقَت.

هزَّ رأسه بضيق: لا يهم الأسباب ولا المبررات، عالمنا لا يسير بهذا المنطق، العالم بلا رحمة، وبالأخص عالمي! والدي رفض فكرة ارتباطي بك ولم يعرف غير اسمك! ما علمته الآن سيقوض أركان قضيتي! مركزه ووظيفته يجعلانه حساسًا للأمور المتعلقة بسُمعته وعلاقاته الشخصية.

قطبت مطرقة لبرهة ثم رفعت رأسها: ماذا بشأن حبك لي؟!

مطَّ شفتيه بمرارة: كان لدي استعداد للقتال حتى الرمق الأخير، لكنكِ دمرتِ مخططاتي، ليتك خدعتني!

سألته بحدة: ما الذي يهم وبيننا حب؟

أجابها بسخرية قاسية: أي حب يا قسمت؟! لسنا بحكاية خيالية، نحن على أرض واقع مقرف مليء بالانحطاط والقذارة والفساد، والأهم، النفوذ والسلطة.

كان محقًا بكل كلمة، أين تظن نفسها كي تستند على المشاعر والعواطف في هذا الزمن! أي سؤال غبي هذا؟! قال مقطبًا: لم يعد أمامنا سوى حلٍّ

وحيد إن شئتِ إكمال الطريق، نتزوج سرًّا، زواجًا عرفيًا لا يمكن لأبي تتبع أثره وسأدعي أني تخليت عن فكرة زواجنا وأماطل بشأن خطبتي.

ارتفع جانب فمها: وإلىٰ متىٰ ستخفي زواجنا وتماطل؟

أشاح: لا أدري، هذا هو الحل الوحيد ـ رفضت بنبرة قاطعة فتمتم بحزن ـ خسارة يا أسوم! كنت أتمنىٰ أن تكوني لي.

ـ أمكنك أن تصبح واحدًا ممن يحاربون الواقع القذر بحبنا!

زفر بمرارة: أنا لا أحبك يا قسمت، أنا أعشقك! لكن حتىٰ العشق لن يشفع لنا، اقبلي الحل الوسط، فربما تحمل الأيام ما يفاجئنا.

رفعت رأسها: إما كل شيء أو لا شيء.

ابتسم بحزن: أنت وكبرياؤك! تحملين منه أكثر مما تحتمل الحياة، كبرياؤك ما دفعك لإخباري الحقيقة وليس صدقك.

رفت عينيها بقوة مخفية دموعًا أوشكت علىٰ البوح بانكسارها: أحببتني وأنا أحمل ذاك الكبرياء، وعليك احترام اختياري.

رفع كفه ملامسًا وجنتها: سأحترم اختيارك رغم يقيني بأني لن أخرج من حكايتنا كما دخلتها! تغيَّر شيء ما بداخلي، وكم أشق علىٰ نفسي فراقك!

أبعدت وجهها عن محيط أصابعه: "أعدني إلىٰ المستشفىٰ". تمتم بتوسل: "أسوم أرجوكِ" ظلَّ محدقًا بها لبرهة لكن عنادها الصامت أنبأه أن ما هو بانتظاره درب من المستحيل، صوت رسالة بهاتفه جعله يرف بعينيه كمن أفاق من غيبوبة، محدقًا بالشاشة: "لقد علم بالأمر!" كانت إطارات سيارته الفارهة تسحق مع أوراق الأشجار والأفرع الجافة كل أمل لديه ببؤرة ضوء ترشدهم لخارج النفق المظلم! ربما قرر للحظة المغامرة والزواج بها ضاربًا عرض الحائط، لولا رسالة والده (ترتضي لأولادك بجَدَّة خريجة سجون؟!) اختصر كل ما يمكن قوله بينهما في مشادة من الوارد اندلاعها بينهما الليلة. كعادته لا يترك سبيلًا من الممكن أن يوصله لمبتغاه، وقد بدأ بطريق اللين والنصح الناعم. تجنب طوال عمره العاطفة ممارِسًا ما يريده دونها، لكن هذه

المرة وقع بالفخ والنتيجة؛ شتات وضعف لا يطيقه لخذلانها! الحب أكبر حدث يمكن أن يزلزل حياة رجل، حتى وإن كان رجلًا أمضى حياته كلها مثله في عبث! مساعدته والدتها باتت مستحيلة، يعرف جيدًا ما يخطط والده الآن من هجوم كاسح في كل الاتجاهات، سطوته بلا قيمة أمام سطوة والده، ضاع كل شيء! دموعها التي تجمدت بعينيها وعكسها الزجاج الجانبي حطمت فؤاده.

ـ قسمت، يمكننا الانحناء للريح حتى تمر.

ـ أنا وشقيقتي نعيش بغرفتيِّ السطح اللتين أشرت نحوهما من قبل ولم تصدقني، ولا تنسَ كنت أعمل مقلِّمة أظافر، ووالدك يعلم الآن الكثير من الأشياء التي ربما لا تعلمها أنت.

لن يعلم أحد بالزواج وستكون فرصة لأتمكن من مساعدتك أنتِ ووالدتك، إعلان زواجنا لن يسبب سوى المشاكل ـ أردف من بين أسنانه ـ تعرفين أني أرغب ما ترغبينه وإلا ما عرضت الزواج.

هزت رأسها بحزن: المرة الأولى التي تخذلني بها عواطفي، غبية!

سارت نحو الفخ بعينين مفتوحتين على اتساعهما موقنة من النتيجة، القانون لا يحمي المغفلين! دست سماعتها بأذنها وانفرجت شفتيها عن ابتسامة واهنة: وعدتني مرارًا أنك لن تؤذيني فآذيتني أكبر أذية في حياتي.

أوقف السيارة أمام المستشفى والتفت نحوها: سأمنحك أربع وعشرين ساعة للاتصال بي وإعلامي بتبديل رأيك وقبول الزواج السري، لن أفقد الأمل.

قالت تهم بالخروج: ستنتظر طويلًا.

سارع ممسكًا ذراعها: نصيحة أخيرة، ربما أكون أكثر من قابلتهم إنسانية في مجتمعنا الذي خطوتِ إليه بإرادتك، داخل عالمنا استميتي في الاحتفاظ بأسرارِكِ، فمهما تمرغنا ببساتين العشق، نتمسك بسياط الجلد، لا نرحم! وأنا خير دليلٍ لعينٍ على ذلك.

قالت معيدة السماعة لأذنها:أعدك أن أحفر النصيحة برأسي كنقوش المقابر ـ أردفت ضاغطة زر تشغيل الأغاني ـ وداعًا يا راغب ـ ترجلت من السيارة التي انطلقت بسرعة الضوء يتعالى منها ضجيج الموسيقى يصم الآذان ـ ليس لنا سوى بعضنا البعض يا روزا، كفى عنادًا!

صعدت درجات المشفى القليلة تجرجر قدميها اللتين باتتا كقطعتين من الحجر، أيكون ذنب أحمد؟ لحظة رهيبة أشعرتها بالدونية وقلة القيمة، والدتها تاج فوق رأسها مهما قالوا ومهما فعلوا، فريدة هانم! ياسر؛ لماذا تذكرته الآن؟! ومن غيره كان ليشد عضدها ويربت على ظهرها، هامسًا بأذنيها كلمتين توقعانها صريعة الضحك، آه يا ياسر! من أين آتي بك لأختفي بين ذراعيك من قسوة العالم؟! نوار! في ثانية ذاب صخر قدميها، كانت خلالها تطير فوق درجات المستشفى.

قالت صفية معاتبة: تأخرت كثيرًا، نوار غابت ثانية عن الوعي وكانت تبكي من ألمٍ شديد أسفل ظهرها وبطن...

قطع استرسال حديثها دخول أحد الأطباء مع مساعدته فعاجلته قِسمت: حرارتها مرتفعة بصورة رهيبة يا دكتور، أرجوك افعل شيئًا.

التزم الطبيب الصمت لدقائق قاس خلالها النبض ليلتفت نحوهم بملامح جامدة: لا فائدة من أيٍّ مما نفعله هنا، هي بحاجة لتحاليل دم من نوع خاص، أشك بوجود فيروس قوي هو ما يسبب لها تلك الآلام في البطن والظهر وارتفاع الحرارة ـ استدرك باهتمام ـ راجعت الأدوية التي تناولتها؛ تعاطت أنواعًا كثيرة من مجموعات المضادات بلا فائدة، ثمة شيء غامض لا أفهمه! إن بقيت على تلك الحالة ستكون العواقب وخيمة.

صرخت قِسمت حين وقعت على رؤوسهم جملته الأخيرة كالصاعقة: ماذا تعني؟ ستموت!

مطَّ الطبيب شفتيه بأسفٍ شديد: أنا عاجز، إمكانيات المستشفى صفر، بل تحت الصفر.

اقترب زين ليجلس إلى جانبها بعينين اغرورقتا بدموع القهر: ما بك يا حبيبتي؟! تكلمي، ما الذي يؤلمك؟ ـ استطرد بصوت خنقه الرعب ـ ألا يمكنكم فعل شيء، أي شيء؟!

هزَّ الطبيب رأسه بأسى: لو كان بيدي شيء ما تاخرت لثانية، صدق أو لا، مازلت مؤمن بقسَم الطب الذي أقسمته، خذوها لمستشفى حقيقي، لديه إمكانيات وأدوية وأجهزة أشعة محترمة.

سألته صفية التي أخفت شفتيها المرتعشتين بكفها المتعرق. ثمة مستشفى تنصحنا به؟

ـ مكان وحيد قريب من هنا لديه الإمكانيات التي ستمكنها من تخطي الأزمة وتأكيد شكوكي ـ رف الطبيب عينيه بارتباك ـ حسنًا هي من أكبر مستشفيات مصر وبها معظم التخصصات (مستشفى الخالدين)، بالرغم من أنها ـ ازدرد ريقه ـ مستشفى خاص باهظ الثمن.

هتفت قسمت: "لا يهم وقالت صفية مؤكدة وهي تنهض بتثاقل: "الله معنا يا بني، أرشِدنا للعنوان" نهض زين لإحضار تاكسي فأوقفه الطبيب: سأغادر على أي حال، سأقلكم، سيارتي صغيرة لكنها ستفي بالغرض.

قابلتهم عاملة الاستقبال بابتسامة باردة ووجه أغرقته زينة ثقيلة نالت منها وجنتاها النصيب الأوفر: يجب أن تدفعوا تأمين دخول الحالة ـ رفعت حاجبيها محدقة بنوار الشِّبه فاقدة للوعي متكئة على كتف زين ـ المستشفى باهظة، كما هو واضح!

تنهد الطبيب الشاب هامسًا بأذن قِسمت: لقد حذرتكم من البداية، آسف.

التفتت إليه: لا باس، يكفي بقاؤك معنا.

ـ دعيني أرى إن كنت أستطيع المساعدة ـ نظر لعاملة الاستقبال بلباقة وبنظرة ذات مغزى ـ هل الدكتور علام مسعود هنا؟ ـ التفت لقِسمت ـ دقائق

وسأجعله يسمح بإدخالها إلى غرفة خاصة ريثما تتمكنون من تحضير مبلغ التامين، ومن يدري ربما أستطيع الحصول على خصم ـ زفر بمرارة ـ رغم شكي بأن الخصم قد يفيد بشيء.

سألت قِسمت كم مبلغ التامين المطلوب، فأجابتها الفتاة بعجرفة بعدما ألقت نظرة أخرى على نوار المتشحة بالشال: كثير.

قالت قِسمت من بين أسنانها: لم أسألك قليل أو كثير، سألتك كم؟!

اتسعت ابتسامة الفتاة ببرودٍ: عشرة آلاف جنيه مصري، الليلة الواحدة بالمستشفى تتكلف أكثر من ألفي جنيه، وهذا يتم تقديره تبعا للحالة.

شعرت قِسمت بتحول جسدها لقطعة من الرخام البارد، تسري بجسدها قشعريرة أوقفت الشعيرات خلف رقبتها: "عشرة آلآف!" تمتم زين ذاهلًا: "ألفين لليلة!" وكانت شهقة العمة صفية آخر ما سمعته قبل تشوش أذنيها! أنذرها الطبيب بغلاء المستشفى، ولكن أن يصل المبلغ المطلوب لليلة لهذا الحد! يا إلهي! من تختار؟ علاج نوار أم حرية فريدة؟! التفتت مطالعة شقيقتها التي ترتعش داخل الشال.. نوار! لا تستطيع أن تتركها هكذا، صوت زين الذي أتى خجلًا كنسمة هواء أكد صواب اختيارها: لا يهم يا أسما! المهم أن تشفى نوار، أملك خمسة آلآف كنت سأحصل عليهم من جمعية مع زملائي، ربما أحضرهم بالغد إن شاء الله.

هتفت صفية: وأنا أستطيع تدبير ألفين الآن ـ انهارت قِسمت فاقتربت منها العَمَّة تحتضنها ـ لا تخافي يا حبيبتي، الله معنا، سندبر النقود.

هزت رأسها بمرارة دون أن تتوقف دموعها المنهمرة عن إذلالها: أملك النقود يا عمة، لكنها نقود الدائن.

شهقت صفية بجزع مدركة المأزق القاتل: لا بأس يا حبيبتي، وإن أغلق الله باب رحمة سيفتح آخر.

ـ لا أظنني بلائحة رحمته.

ـ حرام يا قِسمت، إياك واليأس من رحمته أبدًا، إياك!

رفعت يدها مكفكفة دموعها: أستغفر الله، أستغفر الله.

عاد الطبيب قائلًا بخجل: وافقوا على إدخالها والشروع بعلاجها ريثما تحضرون النقود، لكن يجب إحضارها على الغد بالأكثر، كما استطعت الحصول على خصم صغير ـ سأله زين بلهفة عن قيمة الخصم وأزواج العيون الأربعة تحدق به وقد انضم للجمع فتاة الاستقبال ـ سيكون مبلغ التامين تسعة آلآف بدلًا من عشرة، ثمن الغرفة أقل بمائتي جنيه.

كانت نبرة الخجل واضحة حتى شعرت قِسمت رغم غرابة الموقف لأجله بالشفقة: أشكرك كثيرًا يا دكتور، قمت معنا بما في استطاعتك، سيكون المبلغ المطلوب هنا بالغد إن شاء الله.

تناول ورقة صغيرة من فوق طاولة الاستقبال وأحد الأقلام دون استئذان الفتاة، وانحنى مدوِّنًا رقمه: أعلم أني لم أكن ذا فائدة كبيرة، لكني مستعد لمساعدتكم بأي وقت.

تناولت الورقة بامتنان: بالتأكيد يا.. ـ قرأت اسمه المدوَّن على الورقة ـ يا دكتور همَّام.

وخلال دقائق قليلة كانت نوار قد استقرت بغرفة خصصت لأجلها، تفوح بين جوانبها رائحة المطهِّر التي خنقت أنفاسهم. هتف زين بذهول: لولا يقيني من أن ما كنا به قبل ساعتين مستشفى، وهو ما أشارت إليه لافتتها العريضة، لاعتقدت أننا كنا بأحد المراحيض العامة!

زفرت صفية بتهكم: من يمرض من الغلابة في بلدنا ليس له إلا الموت.

تأملت الأنابيب وخراطيم الدواء التي اتصلت بشرايين شقيقتها في أقل من دقيتين، والممرضات كالنحلات النشيطات من حولها بلا كلل، غاية في البهاء والنظافة، وقد زارها الطبيب المعالِج أربع مرات في ـقل من نصف ساعة؛ تصنع النقود الـعاجيب! رغم ـنهم لم يدفعوا سوى ألفي جنيه. دلف دكتور هشام الطبيب المعالج بوجه بشوش: "مرحبًا" وقف بجانب فراش نوار يتابع بسماعة طبية ضربات قلبها بحاجبين معقودين زادا من قلقها

فسألتُه: هل لديك تكهُّن بشان طبيعة المرض؟!

ـ تقديري أنه فيروس قوي أضعف مناعة الجسم ـ نادىٰ الممرضة التي أتت مسرعة كطلقة الرصاص ـ أريد تلك المجموعة من التحاليل بسرعة ـ التفت أخيرًا لازواج الأعين الثلاثة التي تعلقت به ـ من فضلكم أريد الغرفة خالية سوىٰ منِّي والممرضة أمينة لأقوم بالفحص الذاتي للمرضة في هدوء.

خرج الثلاثة علىٰ مضض فغمغمت قسمت: آه لو رأيت الممرضة أمينة الحكومية! لنا الله.

بعدها برُبعِ الساعة كان ثلاثتهم يقفون مرة أخرىٰ وسط الغرفة، واثنان من الأفواه فاغرانَ ببلاهة: متاعب شهر العسل!!

أومأ الطبيب بثقة: أجل متاعب شهر العسل، ربما لأنها ليست ذات خبرة كافية ظنت أن ما يحدث لها زيادة عادية في الأملاح لكن الأمر تفاقم مع الوقت والإهمال.

* * *

(١١)

عضت نوار على شفتها مشيحة، يشق صفحة وجهها جدولين من الدموع، بينما أسرع زين مستفهمًا: زوجتي تعاني بسبب.. بسبب...

ابتسم الطبيب بلطفٍ: بسبب العلاقة الحميمة، أمر طبيعي لولا خجلها من الإفصاح الذي زاده سوءًا، ومن واقع خبرتي أتوقع ما ستكشفه لنا التحاليل والأشعة.

قالت قِسمت بمرارة: ماذا ستكشف لنا أكثر من هذا؟!

تابع الطبيب محوِّلًا أنظاره بينهما بريبة: التهابات شديدة ربما وصلت لجدار الكلى، وانتشرت بالحوض مسببة سوائل زائدة، وهي السبب في ارتفاع الحرارة الجنوني والانتفاضات والآلام، لم تؤدِ المضادات التي تناولتها مفعولها لعدم تناسبها ونوع الفيروس، يجب عمل مزرعة لأحدد نوعه والمضاد المناسب.

غادر الطبيب فغادرت صفية بدورها متعللة بالوضوء، فسارع زين قائلًا:

أسما تذكري أنها زوجتي، وإن كان هناك شخص يلام على هذا التسرع فهو أنا.

طالبته نوار بصوت مختنق: "اتركنا وحدنا من فضلك" همَّ بالاعتراض فقاطعته بوهن فاقترب طابعًا قُبلة فوق جبينها: "سأكون بالقرب" ساد الصمت برحيله، واتجهت قِسمت صوب النافذة وفتحت فسحة صغيرة تعب الهواء لرئتيها: "منذ متـ..."، عاجلتها نوار: كانت لحظة ضعف!

أغمضت قِسمت عينيها تهز رأسها بألم، معاودة إغلاق النافذة لتجلس إلى جانبها: نوار! كيف.. متى؟ أين كنت أنا؟!

حاولت نوار النهوض، فأجلستها قِسمت متكئة على الوسادة، بالكاد تقوى على فتح عينيها، احتضنت كتفها وأراحت رأسها على صدرها، فابتسمت نوار بضعف: كنتِ دومًا حامي الحما يا أسما، أتهور وأخطئ ثم أعود لأحتمي بكِ من أمي، فتقفين أمامها كالأسد، تتحدثين بالمنطق حتى تفغر فمها ببلاهة محذرة (آخر مرة يا نوار، هل سمعتِ؟).

رغمًا عنها ابتسمت: وهاهي حمايتي لم تكن كافية.

اعتصرت نوار كفها بأصابع مرتعشة: لا تكوني حمقاء، أنا المذنبة، بغياب ياسر وأمي ومغادرتنا المنزل، أحاطتني وحدة فظيعة.

ـ لم أخفيتِ الأمر عني؟ ربما إن تحدثتِ معي كنا توصلـ...

قاطعتها مغمضة عينيها: كنت خجلة منك ومن نفسي خجلًا كاد يذيب عظامي، كلما قلقتِ عليَّ وسألتني تستحمين كثيرًا والجو بارد! ـ تهدج صوتها بالنحيب ـ خجلة منك كثيرًا، ليس من حقي ما فعلت، ليس وقته، لكني احتجت للانتماء لمن هو أقوى منِّي، لسنا رجالًا يا أسما، بل فتاتين بلا حول ولا قوة! لن أخجل من الاعتراف أني عثرت بين ذراعيه على الأمان والحماية.

أطرقت بحزن: تسرعت كثيرًا يا نوار، وأخطأت بإخفاء الأمر، كيف تصلين بنفسك لهذه الحالة؟!

ـ ذهبت لطبيب مسالك، لم أخبر زين، لكن العلاج أتىٰ بنتيجة لم تستمر، لم أعلم أن عليَّ الذهاب لطبيب نساء ـ أردفت بحزن ـ لم أكن أعلم!

تنهدت قِسمت وساعدتها علىٰ الاستلقاء ثم نادت زين، دلف محوِّلًا أنظاره بينهما، فقالت: علينا اتخاذ تدابير جديدة يا زوج أختي ـ حملت نبرتها شيئًا من السخرية اللائمة فأطرق بخجل ـ سأطلب من العَمَّة صفية أن تغادر فور خروج نوار لتشارك الشقة، لم يعد يجدي بقاؤكما منفصلين، ليس بعدما حدث.

أثنتها نوار بفزع: لا يا أسما، نقود الإيجار! وماما؟!

ـ سيكون علينا البحث عن حلٍّ آخر ـ لانت ملامحها ـ لن نُعدَم الحيلة يا نوار!

عليها العمل ليل نهار ولو اضطرت لمخاصمة النوم! خطوة تلو الأخرىٰ، التفتت مطالعة كليهما؛ زين يجلس إلىٰ جانبها محتضنًا إياها، يتبادلان الابتسام وعلىٰ وجهيهما أمارات ارتياح... كما تقول العَمَّة صفية (القسمة والنصيب). ومن يقدر علىٰ الفرار من قسمته؟!

* * *

أغلقت صنبور الماء مجفِّفة وجهها، حين سمعت صوت علياء المتلهف؛ مرة أخرىٰ تتقاذفها الذكريات محطمة أعصابها. باتت الآن حبيسة ومجبرة علىٰ الاستماع! التفت عدنان نحو علياء مُرحِّبًا، محاوِلًا إبقاء نبرته هادئة، ثم عاود الإشاحة نحو النافذة. هنأته بحمل قِسمت فقطب بحيرة، اقتربت منه: "ستكون أبًا!" شكرها وتمنىٰ لها المِثل، فابتسمت بمرارة: لكي أحصل علىٰ طفل يجب أن أتزوج بغيرك! وهذا لن يحدث، لأني زوجتك! ـ نبرة الثبات في صوتها جعلته يلتفت إليها بدهشة ـ لم أشعر للحظة أني لست بزوجتك، لقد وشمتَ عمري ببصمتك يا عدنان، وشم بماء النار لا يُمحَىٰ! عاجزة عن الانتماء لسواك، حتىٰ أمومتي تحوَّلت لعشقٍ جرفني يصب بمصبك.

ـ علياء ماذا تقولين؟! لقد تطلقنا منذ زمن!

وما معنى كلمة تافهة خرجت في لحظة غضب لفعلة حمقاء؟! ـ ازدادت اقترابًا ـ تعلم أنها فعلة حمقاء، أليس كذلك؟ تعلم أنها لم تكن علياء من قامت بها، لم تكن علياء من زلت في لحظة ضعف!

أطرق بأسى: لكنها الحقيقة.

هزَّت رأسها بإصرارٍ: كم أكره تلك العلياء وفعلتها! لا أسامحها على ما فعلته بي، هي من ضيعتك، وأتعستني مُلصِقة المرار بأيامي ـ أشارت لرأسها ـ انظر..لقد ارتديت الحجاب، واستغفرت مرارًا، لا أظنني حاملة وِزري بَعد الآن، أوقن أن الله سامحني، أفلا تسامح أنت؟!

تنهَّد بحزن: أدعو الله أن يسامحنا جميعًا.

ـ اغفر زلة زوجتك، سامحني ـ أمسكت بذراعه مرددة ـ أرجوك سامحني يا عدنان، سامحني.

وضع يده فوق أصابعها الملتفة حول ذراعه بحنانٍ: لكني سامحتكِ وغفرت زلتك منذ زمنٍ طويلٍ.

نظرت إليه محتضنة كفه بكفها: ربما سامحتَ مثلما تقول، ربما غفرت، لكن لم ترحم! وأنا أطلب الرحمة، اصرخ بي يا عدنان، اضربني علَّ تحرير غضبك يهبني رحمتك ورأفتك بي!

ـ علياء! يكفي، كنتُ رحيمًا كفاية بعدم تحطيمي كرامة والدك وشقيقك!

ـ كنتَ رحيمًا بالجميع عداي يا عدنان.

ـ بل كنت رحيمًا بك أكثر من الجميع، لأحررك من زيجة لم تسبب لكِ سوى التعاسة.

ـ لم أطلب الحرية ولم أسعَ إليها ـ أردفت بتوسُّل ـ حاول أن تتخيل واقع امرأة ربطت مصيرها بك، لا ترى من الرجال سواك، أنت كل الرجال، أنت مصدر براءتها وطُهرها أمام نفسها، إن قبَلتَ بها أيقنت أنها تحررت من زلتها، وإن رفضتها ستظل حاملة لعارِها حتى تموت، اقبلني بحياتك ثانية لأعثر على سلامي، لأسامح علياء.

انحنى نحوها متمتمًا بحزمٍ: ما تطلبينه مستحيل، لقد تغيَّرتْ الكثير من الأشيـ...

قاطعته بإصرارٍ: بل المستحيل ما أنا فيه، لا تعرف معنى أن تختزن إنسانة لأجلك كل لحظة بعمرها! لا تعي أن تُحبَّكَ امرأة حُبًّا يشبه ممارسة الحياة، أن تكون مدارها! أنت كل هذا يا عدنان، ولا شيء يهم سواك.

ـ تعذبين نفسكِ! تربطين مسامحتك لنفسك بمسامحتي لك! ولا أملك صكا للغفران، انسي ما كان بيننا، فما كان بيننا طفل مشوَّه كُتِبَ عليه الموت.

هتفت بلوعة: لا يا عدنان لا تقل هذا أرجوك، لا تقلها، أنا أحبكَ وأعلم أنك تحبني.

همَّ بالحديث لولا دويّ عنيف لطلقات رصاص أتى من الخارج، مُخرِسًا كليهما. انفتح باب الحمَّام بغتة، لتظهر قِسمت مجيلة أنظارها بينهما: كنت.. لم أشأ مقاطعتكما.

عاودت الطلقات دويها فذهب عدنان صوب النافذة ليستطلع الأمر، رأى حراس الأمن يركضون بعيدًا عن البوابة نحو مصدر الصوت خلف الفيلا، سألته قِسمت إن عرف مصدر الرصاص، فقال: هناك شيء غير مفهوم ـ صمت لبرهة ـ لقد توقف الرصاص! كانت أربع طلقات فقط.

سارعت قِسمت لمغادرة الغرفة لتتفقد الأمر بالأسفل، فابتعد عن النافذة لاحقًا بها. أوقفته علياء ممسكة ذراعه هاتفة بهستيرية: لا، لا تذهب وراءها، ها قد حصلت على الطفل الذي تريده منها، لا بأس، يمكنك الاحتفاظ بها لتربي الطفل، أسامحك، لكن دعنا نعد لبعضنا البعض، هي لا تشبهك ولا تشبهنا، اتخذني زوجة ثانية يا عدنان، عد إلي!

أمسك ذراعها بقسوة: أفيقي يا علياء، لا تخطئي بحق نفسكِ أكثر من هذا.

رفضت بعنادٍ وصوتها المنتحب يقطر توسُّلا: أنت لا تفهم، لا تفهم، أنا عاجزة عن الحياة، لقد توقف بي الزمن ليلة فراقنا، أعيش ميتة.

لاحت إمارات ازدراء مُتعمَّد علىٰ وجهه: أصبحتِ عِبئًا كبيرًا عليَّ، لا أملك وقتًا لترهاتك، أنتِ لا شيء بالنسبة لي يا علياء ـ أمسك بكلا ذراعيها يهزها بقسوة ـ لَم تكوني شيئًا ولن تكوني الآن، قِسمت هي من أُحِبّ، هي من تحمل طفلي، ولن أتخذ زوجة ثانية ـ استطرد بقسوة شديدة ـ حتىٰ إن فعلتُ فلن تكون أنتِ.

اتسعت عيناها ذهولًا: من أنت؟! أين زوجي؟ هي من فعلت بك هذا! مُقلِّمة أظافري السبب، قِسمت السبب!

ركضت مغادرة الغرفة مخلفة صدىٰ نحيبها لتردده الجدران!

هتفت حسناء برعب: استر يارب، ركضت علياء إلىٰ الخارج منذ لحظات ولحق بها عادل، لم تستمع لنداءاتي!

تبادل عدنان وقسمت النظرات في صمتٍ فيما دخل أحد الحراس: وجدنا هذا السلاح الناري علىٰ الأرض عند البوابة الخلفية.

ورفع قطعة السلاح أمام أعينهم فانتزعه خالد من يده: مسدسي الخاص! ماذا أتىٰ به هناك؟

سأله عمرو: هل دخلَ شخصٌ غريب غرفة مكتبك يا عمي؟ أعرف مدىٰ حرصك علىٰ وضعه بالخزانة!

سألهم خالد عن أي أثرٍ لشيءٍ آخر، همَّ الحارس بالإجابة فقاطعه عمرو بريبة مزدردًا ريقه: أين لينا؟ أخبرتني أنها ذاهبة لتبدِّل ملابسها فجلست مع عمي ووالدي ريثما تعود، ظننت أنـ... ـ أطرق لوهلة ثم رفع رأسه ـ لينا! ـ ركض صوب الدرج ليبحث عنها بغرفتها وعاود الهبوط مسرعًا ـ ليست بالأعلىٰ، سأبحث بالحديقة، تعالَ معي.

أشار لأحد الحراس ليتبعه، فيما تمتمت ليلىٰ وحسناء برعب. عاد عمرو مطرقًا يجرجر أذيال الخيبة، فشهقت ليلىٰ منهارة علىٰ أحد المقاعد: أين ابنتي؟ ـ التفتت صوب خالد بلوعة ـ أريد ابنتي يا خالد، أعِدها لي، لن أسامحك إن حدثَ لها مكروهٌ.

قالت قِسمت بارتباك: لم أظن أن حديثها لي قبل ساعة كان جديًّا!

سألها عدنان عما تعني فأخبرته، ليصرخ بها عمرو: كيف تخفين شيئًا خطيرًا كهذا؟!

قالت ليلىٰ من بين نشيجها: كان يجب أن تخبرينا، ابنتي ضاعت، لن أراها ثانية.

ـ لم أظن للحظة أنها ستنجح بالخروج من هنا ـ استطردت بلهفة ـ لكنها أخبرتني أنها ستتصل بكم فور وصولها إلىٰ هناك كي تطمئنكم.

صرخ عمرو بغضبٍ: ستكونين السبب في موتها!

صاح عدنان: يكفي يا عمرو، لوم بعضنا البعض الآن لن يفيد، يبدو أنها استخدمت السلاح الناري لجذب أنظار الحراس بعيدًا عن البوابة لمغافلتنا والخروج!

أعلن عمرو: أنا ذاهب للميدان ـ أثناه عدنان فقاطعه بإصرار ـ لَم تُرسِل أحدًا بدلًا منك وراء زوجتك يا عدنان ولا أنوي أن أفعل.

سارع مغادرًا المكان صافقًا الباب خلفه بدويٍّ عنيفٍ بعد أن ألقىٰ علىٰ قِسمت نظرة مزدرية حاقدة. جلس خالد علىٰ أحد المقاعد ساهمًا، ثم التفت لوهلة صوب ليلىٰ التي انهارت في البكاء، وحسناء جعلت تربت علىٰ يديها المرتعشتين باكية هي الأخرىٰ، ليعاود النظر أمامه في صمتٍ، قال عدنان: "ستكون بخير تبادلا النظرات فتمتمت قِسمت بنبرة مختنقة: لم أكن أعلم أنها ستنجح!

زفر عدنان بسخرية: ربما تحصلين أخيرًا علىٰ ثأرك!

تعالىٰ نحيب ليلىٰ الجزع، وهمَّت قِسمت بالتفوه ثم أطرقت مقطبة، فغادر عدنان البهو، وذهب خالد للجلوس خلف مكتبه. كان الاتهام جليًا بعيني عدنان، حتىٰ نظرات المرأة التي يدعي أنها زوجته وتحمل طفله امتلأت بالاتهام! أتكون عدالة السماء؟! يفقد ابنته مقابل من فقدوا قِطعًا من أجسادهم؟! وضعَ رأسه بين كفيه محدقًا في رزمة الأوراق أمامه، وحين

رفع رأسه طالعته قِسمت بجمودٍ. يعاني عذاب الخوف على ابنته! ربما المرة الأولى التي يشعر فيها الخوف، بل الأولى التي يشعر فيها كبقية البشر! ظلت مستشفاه تماطلهم لأكثر من أسبوعين بشأن العلاج، متعللين بحالة الكِلية الضعيفة المتأثرة بالالتهابات! عشرات التحاليل والأشعة، يتقاذفونهم الأطباء كالكرات بعد اختفاء الدكتور هشام في اليوم التالي، وبمرور الوقت.. غُرِزَت أقدامهم في الرمال المتحركة!

* * *

سار علَّام بخيلاء الديك الشركسي منفوش الريش، بين دجاجات المستشفى المتقافزات من حوله بسرعة الضوء، يرمقهن بمزيج من الرضا المتعجرف، مهنئًا نفسه على الإنجاز الرائع في فترة زمنية مذهلة القِصَر. حدَّث نفسه بخفوت: "مرحى يا أبو الأعلام، بضع خطوات وتلمس النجوم، بل وتأخذ القمر بين ذراعيك، مجهود مُشرِّف يا بطل" لم يظن يومًا أنه سينجح في الوصول لتلك المكانة، رغم ما سنَّه من قوانينٍ صارمة لنفسه سار عليها بكل حزم؛ أولها انعدام الضمير، والنهش بمخالبه والنزع بأنيابه لكل ما تطاله يداه، كل هذا لم يهيئه لمدى العِز والسلطة اللذين وصل إليهما! عليه الاحتفال الليلة بالنجاح الباهر للعملية الأخيرة؛ متبرع وديع ومُستَقبِل راضٍ، صِلات ونفوذ، والمزيد المزيد من المال! أي حياة أجمل! نداء حماسي قطع أفكاره، تلميذ الشيطان النجيب! ابتسم بمكرٍ للطبيب الذي حملت قسماته أمارات سعادة: مساء شَريف يا باشا، أراك بشوشًا اليوم.

رمقه علام بنظرة ذات مغزى: وأنت أيضًا ستكون بشوشًا بعد قليل، أرسلتُ لك "الشيك"

انحنى الشاب بأدبٍ مبالغ: لا حرمنا الله من عطاياك الكريمة يا باشا.

ضحك علَّام في سره؛ لا ينجح الشيطان الأعظم دون مساعدين أكفَّاء، وهمَّام خير مثالٍ! نشيط، متيقظ الذهن، ولا تفوته فائتة، بجعبته حيل لا تنفذ. تابع الأخير: علينا البِدء بالتفكير في العملية القادمة، صاحب الـ order متعجِّل.

ـ صحيح، ابنته المسكينة بين شقي الرحى، تحتاج لكِلية في أسرع وقت.

ابتسم همَّام: ونحن لا نجرؤ على التأخُّر!

مطَّ علَّام شفتيه: ثمة عراقيل! الفتاة صغيرة والمستشفى لم تستقبل واردًا جديدًا.

صرَّح همَّام بزهوٍ: اترك الأمر لي، تلميذك حاضر دومًا بحلوله السحرية ـ ربت علّام فوق كتفه باستحسان، فاومأ مطمئنًا وابتسامة ظفر تستحوذ شفتيه ـ أمنيتي أن ترضى عنِّي، وتضع إمضاءك الكريم على قرار تعييني رسميًا هنا بالمشفى.

أنت بالمشفى الحكومي أكثر فائدة، متعهد التوريدات! هل بخلتُ عليك بشيء؟

ـ للأمانة لم تبخل يا أستاذنا لكنه القرف، لم أعد أحتمل البقاء هناك وسط العفن!

ـ هِمّتك معنا، اعثر على بديلٍ مناسبٍ تثق به.

طرق الباب فرفع خالد عينيه المنهكتين عن الأوراق التي ازدحمت بها طاولة المكتب؛ كان يبحث عن ثغرة بمثابة تهديد حقيقي لسلامة كل من يعمل معه، أو بالأحرى سلامة كل من يجاهد لإبقاء يديه نظيفتين.

ـ مازلت تفضِّل مكتب عادل حين تقرر العمل على الأوراق!

مطَّ خالد شفتيه ببرودٍ: ثمة شيءٍ ضروري لأتشرَّف بالزيارة يا علَّام؟

زفر الرجل بسماجة شديدة: مع حفظ الألقاب بالطبع ـ جلس على المقعد المقابل ـ تنسى دومًا أن تسبق اسمي بلقب دكتور!

رفع خالد حاجبيه: مهنة الطب بعيدة كل البُعد عمَّا تمارسه هنا بمستشفاي.

لوحَّ بسبابته محذِّرًا: مستشفانا، لا تنسَ هذه التفصيلة الصغيرة لأنها تصنع فارقًا كبيرًا لستَ نِدًّا لإغفاله.

تنهَّد خالد بنفاذ صبر: ماذا تريد؟

لا شيء، مجرد دعوة جديدة لحضور حفل من حفلات مجموعتنا، مازال الجميع يتمنى مقابلتك ـ رفع بطاقة مذهبة أمام عينيه ملوِّحًا بها ـ تعلم جيدًا كم هي باهظة! غيرك يشتريها بآلاف الجنيهات.

ـ تعي جيدًا رفضي مقابلة أسيادك.

جمدت ملامح الرجل واعتصرت أصابعه طرف البطاقة: بل أسيادنا يا عزيزي.

هذا ما تحاول إقناع نفسك به، لكنك أبدًا لن تستطيع إذلالي، هُم أسيادك أنت، فلستُ حارسهم المطيع وكلبهم الأمين.

لا بأس! سأكون متسامحًا كعادتي ـ رفع يديه ـ جئتُ في سلام ـ همَّ خالد بالحديث فاستطرد يمط شفتيه ـ ستكون مناسبة لطيفة لإزاحة عبء العمل الثقيل عن كواهلنا المرهقة، حفلة مسالمة مثلي!

أشاح خالد باقتضاب: لستُ مهتمًا.

وضع علَّام البطاقة فوق أكوام الورق مبتسمًا إحدى ابتساماته اللزجة: ارحم نفسك، مهما فعلت لا فائدة.

وضعَ خالد نظارته فوق أنفه معاودًا النظر إلى الأوراق بينما رمقه علَّام ببرودٍ. لا بأس، ستسقط الثمرة ناضجة في حجره إن عاجلًا أو آجلًا، سيأتي متوسلا كي يبيعه المشفى وسيشتريها بأبخس الأثمان، ليصبح وأخيرًا على رأس الإمبراطوية، ليصبح الملك!

انهمك خالد ثانية بمراجعة مجموعة أخرى من الملفات، متمتمًا: "أوشكتُ على الإمساك بك" حين سمع طرقات أخرى. أتاه صوت أنثوي متردد: صباح الخير ـ ازدردت ريقها معتصرة جانبي الأوراق ـ سيادتك مدير المستشفى؟

تنهَّد بضيقٍ مُبعِدًا النظارة عن عينيه: كيف يمكنني مساعدتك؟

أجابته قِسمت بلهفة: "شقيقتي نزيلة هنا" أرادت رسم إحدى ابتساماتها ففشلت، استحثها بنفاذ صبر، فاقتربت حيث أشار لها بالجلوس. نظرته

اللامبالية استقرت فوق وجهها، معلنة أن سحرها لا مجال له هنا! ناولته الأوراق: "إنها الفواتير طالع القرارات الدورية لعلّام بوقف التداوي فور التوقف عن السداد! إدارة أي مستشفى تحتاج للحزم، لكن وقف التداوي شناعة من شناعات هذا الحقير، خاصة وأن بعض الإنذارات الحازمة كانت لتفي بالغرض! مطّ شفتيه: "لا مشكلة فيها" ملعونة الحاجة التي تضعها دومًا بمواقف تبغضها الدنيا وما فيها!

- أخبرتني الممرضة أن... عليّ دفع حساب المستشفى غدًا!

وضع الأوراق: المبلغ المستحق وصل لخمسة وعشرين ألفًا!

أطرقَتْ: أعلم، أنا فقط.. أنا.. كنت! - استحثها ثانية بضيقٍ - لن أتمكن من سداده دفعة واحدة!

حرَّك رأسه بتصميم: آنسة؟ - سارعت متمتمة باسمها - آنسة أسما، لسنا بمستشفى عادي، كل شيء هنا يدار بدقة شديدة، كما أن الأدوية التي نستخدمها مستوردة، بخلاف أجور طاقم التمريض والأطباء.

- أنا أخاطب ضميرك الإنساني، المبلغ كبير، وقد دفعت كل ما أملك بالأيام الماضية، أطلب فقط مهلة للسداد - رفض بحزم، فازدادت نبرة التوسُل إطباقًا على حنجرتها - لا تقطعوا العلاج، لم تكمله بعد! - عاد لمراجعة الوراق مزيحًا ملف نوار فتابعت - رسالة الطب تحتم عليك النظر بعين الرحمة لمرضاك!

يشعر أحيانًا أن العالم الذي أُجبِرَ على دخوله في لحظة غباء، اقتطع جزءًا من إنسانيته، أو ربما هو من اضطر لاقتطاع ذاك الجزء ليقوى على التعامل مع مسوخه! انهارت بغتة في البكاء: سأفعل أي شيء تريد..أي شيء، فقط أمهلني بعض الوقت.

تمتم بحدة: "أرجوكِ!" كيف يفسر لها أنه عاجز عن الوقوف أمام قرارت علَّام، خاصة وأن الحالة لا تخصه! اقتربت من مقعده تتكئ بكفيها فوق المكتب تتساقط دمعاتها فوق وريقاته: أنا التي ترجوك أن ترحمها!

هي كل من أملك في هذا العالم. ربما إن وافقت على سداده على أقساط كل عشرة أيام سأفعل المستحيل، ماتزال رحلة علاجها طويلة، خاصة مع كِليتها المتضررة من الالتهاب، أرجوك - جعل ينقر بقلمه الذهبي فوق كومة الأوراق؛ يقلِّب حديثها برأسه - ثمانية آلاف كل عشرة أيام وأعدك ألا أُخلف موعدًا مهما حدث.

زفر باستسلام: سيتعين عليكِ تسديد اثني عشر ألفا خلال أسبوع.

هتفت بالتياع: ولكن هذا مبلغ كبير جدًا، من أيـ...

رفع يده مقاطعا: هذا كل ما يمكنني فعله - همَّت بالحديث فسارع باستدعاء السكرتيرة عبر السماعة الداخلية، دلفت الفتاة فناولها الفواتير - أخبري الحسابات أن يسجلوا تاريخ السداد كل عشرة أيام، اثنا عشر كل مرة.

نظرت الفتاة إلى الفواتير رافعة حاجبيها: ولكن علَّام باشا سيـ...

قاطعها خالد بحِدة: افعلي ما أمرتك - حوَّلت قِسمت أنظارها بينهما وقد اغرورقت عيناها بالدموع - ومن فضلك اصحبي الآنسة إلى الخارج.

لم تنتظر دقيقة أخرى وأمسكت بالملف وهرعت إلى الخارج ركضًا، مازالت ظروفها تقهرها وتدوس عليها بالأقدام، بلا سبيل للنجاة! لا تملك جدرانًا تحميها أو صدرًا تلوذ به.

اصطدمت بأحدهم فسقط الملف من بين يديها وتساقطت منه بضع وريقات، تمتمت باعتذار مشيحة وجهها لتخفي آثار البكاء، وانحنت تلملمها وقد غشيت عيناها الدموع، تجاهد شهقاتها المكتومة للانفلات من بين شفتيها المطبقتين. هبَّت ريحٌ قوية حين فتح باب المستشفى الإلكتروني لدخول أحد الأشخاص، فتطايرت ورقة بعيدًا عن متناولها، شهقت بجزع ونهضت تركض خلفها مجففة وجهها بظاهر كفها. فيما إرتسمت تقطيبة عميقة بين حاجبيه، تملأه الدهشة للمصادفة الألف التي تجمع بينهما، فتاة الخمسين جنيهًا، الجراج، وعرض الأزياء والضيافة، فتاة الألف وجه! تابعها تجلس على السور الرخامي المنخفض القريب من درجات البوابة، محتضنة الملف ساهمة، استطاع رؤية كتفيها يرتعشان لبكائها، باغتته ذِكرى حديثهما

عن مريضها، هزَّ رأسه بحيرة عاجزًا عن التوصل لسببٍ واحدٍ لتسمُّره!

استقبله والده بالمتوقع:حياتك مقلوبة رأسًا على عقب منذ قرابة أسبوعين، عملك أهملته، وغائب عن المنزل!

رفع عدنان قدميه فوق الطاولة المنخفضة بأريحية: أفكر بالسفر.

لوَّح خالد يده بحنقٍ: العمل بحاجة اليك.

زفر عدنان متكئًا برأسه على ظهر المقعد: العمل! أمازلتَ تحاول إقناع نفسك بأننا هنا نعمل؟ سأخبرك بحقيقة تتغافلها ـ أردف بتهكم ـ نحن نعبث، ما يحدث هنا بالمستشفى محض عبث.

ـ هل جننت؟ هل أخلت الصدمة بوعيك؟!

التفت نحوه مطلقًا ضحكة خشنة: أي جنون تتحدث عنه يا دكتور ونحن بقلبِ الجنون نفسه! عبثًا تحاول إقناع نفسك بأنك تؤدي رسالة، وعبثًا يقنع عمرو ووالده نفسيهما بذات الأمر، حتى أنا! كنت أُقنِع نفسي بأني مرغمٌ ومجبرٌ على الخضوع، وكله زيف، مخدِّر كالذي نستخدمه في العمليات لنغيِّب المريض عن الوعي لئلا يشعر الألم ويرى بشاعة ما يمر به، عدا أن المريض تأتيه لحظة ويفيق.

سأله باستنكار: كيف تسمح لطيش علياء بتحطيمك وإخلال موازين أفكارك وقناعاتك بهذا الشكل؟! وإن طلبَتْ الطلاق! هي الخاسرة. وستندم.

أطرق بصمتٍ. نجحت بإقناعهم أنه مرادها! الصدمة التي تلقاها تلك الليلة ساعدته على إتقان دور الزوج المحطَّم، جذبت أنظاره الدعوة المذهبة فالتقطها وقلَّبها بين يديه بتهكم: حسنًا، أتفق معك أن الأمر حطمني لكني سعيد، فقد أزاح الغشاوة عن عيني وواجهني بالحقيقة، منحني الشجاعة كي أعيد حساباتي ـ رفع أنظاره يطالعه متحديًا ـ سأعتزل الطب لأجلٍ غير مسمى، أحتاج لإعادة ترتيب أوراقي بشكل يرضيني ـ أنزل قدميه من فوق الطاولة بتكاسُل ـ ونصيحة، حاوِل أنت أيضًا، بل عليكم جميعًا فِعل ذلك، ربما تدهشك الحقائق.

نهض خالد هاتفًا بحدة: لا تضع مجهود السنين، والاسم الذي صنعته لنفسك باجتهادك إخلاصك في عملك!

ـ لقد اتخذت قراري وانتهى الأمر، سلام.

أغلق الباب وراءه فسقطت من يده دعوة الحفل المذهبة، انحنى ليلتقطها ترتفع زاوية فمه مقطبًا بسخرية، ليضعها بجيب قميصه.

* * *

نزعت المسبحة من رسغها وعلَّقتها على طرف المرآة، مطالعة صورتها بتقطيبة عميقة، تلامس الثوب الناري المحتضِن جسدها بنعومة وإغراء؛ بقايا ذكراه المؤلمة! لا تدري لِمَ أصرَّت على ارتدائه رغم الأثواب التي عرضتها عليها ماهي، ربما محاولة للاحتماء.. أو التحدي! ماتزال تلك الغصة المزعِجة تسكن تجويف قلبها المرتعش حنينًا إليه، لكن لا يهم! انعكست صورة ماهي خلفها بالمرآة: ارفعي رأسك وأظهري ثقتك بنفسك، ولا تنسي الأهم، ابتسامتك.

سحبت الهواء لصدرها بقوة حتى شعرت بقفصها الصدري يتمزع، وزفرته ببطءٍ لتتسع انفراجة شفتيها شيئًا فشيئًا، بإحدى إشراقاتها الفاتنة! رفعت ماهي حاجبيها باستحسان: أنتِ ماهرة في الأمر كثيرًا!

تلاشت الابتسامة بغتة من فوق شفتيها: هي لعبتي المفضلة ـ ازدردت ريقها ـ هل حان الوقت؟

أطلقت ماهي ضحكة ساخرة: تحوّلين الأمر لمأساة يا أسما! ما المشكلة إن كنتِ ستتزوجين الليلة؟

ـ بل سأبيع نفسي الليلة!

نبراتها المريرة لم يكن لها أدنى أثر على ملامح ماهي المسترخية: إن وضعتِ الأمر في هذا الأطار ستتعبين كثيرًا، لست الأولى ولن تكوني الأخيرة، فنانات شهيرات أيضًا فعلنّها وأكثر من مرة، الفرق بينك وبينهن؛

أنهن تضعنّها بإطارٍ ذهبيٍّ أنيقٍ تحت عنوان (زواج الفنانة فلانة من ثري عربي) ـ أردفت برِقَّة ـ أنتِ الليلة عروس، ولن يحصل عليك سوىٰ من يمنح وزنك ذهبًا.

ابتسمت بسخرية: وكأنكِ كنت بانتظارىٰ!

أعادت ماهي رأسها للوراء مطلِقة ضحكة غنجة متسلية: راهنت نفسي عليك، لكن للحق، أتيتِ أسرع مما توقعت! ـ زفرت بتهكم ـ جميعكن تأتين في النهاية بشكلٍ أو بآخر، مع الفارق، أتيتِ fresh، ولهذا وضع خاص جدًا.

عاودت قِسمت التطلع بالمرآة: أصبتِ، جميعنا نقع في النهاية! ويبدو أنك خبيرة بمجالك.

رمقتها ماهي بغموض وسارت متجاهلة نبرتها المتهكمة، صوب الستارة المخملية الحمراء التي تفصل بين الطابق الأعلىٰ والسور المُطِل علىٰ قاعة الاحتفال، وأزاحت الستار: يجب أن أكون كذلك وإلا انتهيت ـ أشارت إليها فاقتربت ووقفت بجانبها ـ انظري إليهم، إلىٰ وجوههم، جميعهم راغب الساعي مرتديًا قناعًا، لكن ما خلف القناع واحد، الكل يبحث عن إشباع جوعه بطريقته.

ـ عن أي جوعٍ تتحدثين؟ تكاد رائحة ثرائهم الفاحش تزكم أنفي!

ابتسمت بإشفاق: أمامك الكثير لتتعلميه! الجميع هنا جوعىٰ وكلٌّ علىٰ طريقته، الجوع ليس جوع البطن فحسب، جوع الروح أشد سطوة ـ تابعت بازدراء ـ أشبعوا الكثير من أنواع جوعهم، وأتوا إلىٰ هنا باحثين عن جوعٍ جديدٍ ليشبعوه؛ الحياة مملة إن انتهت الرغبات، وهنا موطن ضعفهم ومكمن سُلطتي!

ضمت القاعة معظم ألوان وأجناس البشر، كانت القاعة كرة أرضية صغيرة! شيوخ بملابسهم الخليجية، أجانب من الجاليات المختلفة، حتىٰ ذوي البشرة السوداء كان لهم نصيب من التواجد، ومعظمهم تعدّىٰ العِقد الخامس واشتعلت رؤوسهم شيبًا، رغم مهارة البعض في إخفائه بالصبغات

من أفضل الماركات العالمية. فقط تجاعيد الوجه خذلتهم! هل كان راغب مثلهم؛ جائع الروح؟ شرهًا؟! هل أراد أن يسد بها حاجة ويُشبع بها رغبة؟ لا، مستحيل أن يكون ما شعرته وهمًا! لقد نفذت لأعماقه، لمست شيئًا بداخله كما فعل هو! لم يكن الرابط بينهما محض رغبة وإلا فقلبها أغبى مخلوق على وجه البسيطة! أمسكت ماهي الهاتف الداخلي: "أدخلي الفتيات" وسرعان ما امتلأت القاعة السفلية بطوفان من الفتيات من مختلف الأعمار، اجتحن القاعة كأسراب النمل الدؤوب في كل ركنٍ، يوزعن الابتسامات، وبقايا الابتسامات، مع كؤوس الشراب والمقبِّلات وهمسات الغنج ولمسات الدلال والإيعاز.

سألتها متأملة الحشد: لماذا لستُ معهن؟

- وهل نضع الجوهرة وسط كسر الزجاج؟! أنت النجمة التي ستتطلع صوبها الأعين وتقفز من محاجرها - تأملتها من رأسها لأخمص قدميها - اختيارك للثوب مذهل - أطرقت محدِّقة بطياته المحتضنة بعضها كوريقات الورد - غالٍ جدًّا.

تمتمت بشرودٍ: أغلى مما يمكنك التخيل! - عاودت النظر للقاعة بقلب واجفٍ، لم تتعدَ معظمهن الواحدة والعشرين رغم أصباغ الزينة الثقيلة - يبدو أني أكبرهن!

أعادت ماهي الستار لموضعه: أجل، وربما سبَّب هذا بعض العراقيل، الجميع هنا يفضلن الصغيرات والقاصرات - ربتت فوق كتفها مشجعة - لكن لا تقلقي.

- تعنين الضعيفات! يذهلني الفارق الرهيب بمجتمعنا!

زفرت ماهي بمرارة: على الجميع البقاء في الطاحونة، بل ربما تنزع أطرافهم بين الحين والآخر، كي لا يرفعوا رؤوسهم بحثًا عن الكماليات؛ الحق.. والحرية!

- تحيرينني يا ماهي! لا تشبهين ما يجب أن تكون عليه امرأة مثلك.

أطلقت ضحكة قصيرة ثم تبدلت ملامحها لأخرى اكثر حدة: أحمل الكثير من الأقنعة فلا تنطلي عليك لطافتي، وانتبهي، الدرس الأول: لا تفكري مطلقًا بعقد صفقات بعيدًا عن ملعبي، ما يتم بالفيلا يبقى بالفيلا للحظة الأخيرة، وأنا طرف فيه مهما حدث، لست وحدي، ولدي من يقدرون على تأديب المخطئ.

يبدو الأمر مختلفًا عن كثب، ليس محزنًا أو مهينًا بقدر ما هو غريب! أن تقوم ببيع نفسك أمر يفصلك عنها، فتصبح في لحظة كيانين؛ كيانٌ مراقب ومتوجع في صمت، وكيان يتحرك كالدمى، قادتها ماهي بدفعات طفيفة من كفها المرتاح فوق ظهرها، وفور دخولهما تعلقت بهما أزواج الأعين، والعشرات من الأكف والإيماءات تلوح لهما من بعيد (مرحبًا ماهي.. اشتقنا لسهراتك.. جميلة كعادتك). سارت بينهم كالمنوَّمة، تقذفها نظراتهم بلطخات القذارة، الآن فقط علمت شعور الخراف قبل الذبح! تمتمت ماهي باسمة: هكذا بالظبط! كلما اتسعت ابتسامتك استعرت النيران وسَهُلَ وصولنا لغايتنا.

كانت نظراتهم تعرِّيها من ملابسها ومن جلدها، يسيل لعابهم كدماء فريسة افترسوها للتو! تلك النظرات التي تلتهمها التهامًا كانت ترهقهم! بالكاد سمحت لهم أعمارهم العتيقة إلقاءها. يبحثون عن جوعٍ مات منذ زمن! رأت العديد من الوجوه التي تظهر على صفحات الجرائد، وأخرى ترتعب وتهتز لها شوارب العتاة بمصر، سمعت كثيرًا عن تورُّط بعض الشخصيات العامة في أمورٍ مشبوهة كتلك، لكنها لم تظنها حقيقية لهذه الدرجة! تخيلت انتهاء المطاف بها بين أحضان أحدهم، فاقشعر بدنها وأعلنت معدتها العصيان حتى أوشكت على لفظ فتات الطعام. تأملت الفتيات؛ كل النظرات مكسورة، وكل الضحكات مشروخة الصدى رغم صوتها المجلجل.. بؤرة للطحن! هنا تُطحَن الأرواح قبل الأجساد، وما تراه ليس سوى أشباح نساء، بقايا فتيات يلقين بفتات أنوثتهن على الأرض لاجتذاب صيد جديد، وبرغم تقمصهن دور الصياد، يوقن بقرارتهن أنه العكس! وبرغم الفزع الساري

بعروقها، ونبض الألم الرهيب بعضلات وجهها، تمسكت بابتسامتها! (وجه جديد الليلة يا ماهي هانم؟). تساؤل ظل يُرَدِّدُ على أسماعها كلما تنقلت بين حلقات الرجال، تشيعها نظرات السخط المنبعثة من أعين الأخريات!

ـ كما توقعت! رغم كبر سنك، تظل لابتسامتك وملامحك النضرة قيمة مرتفعة.

جفلت ليدٍ قوية أمسكت بذراعها كالكلَّابات: أي شيطانٍ لعينٍ أتى بكِ إلى هنا؟!

صوت من المستحيل أن تخطئه ولو مضى ألف عام؛ راغب! هتفت ماهي بترحاب: "راغب باشا! مفاجأة رائعة". لم تجرؤ على الالتفات مكتفية برفع رأسها والاحتفاظ بابتسامتها الساخرة.

قال من بين أسنانه: أظنني رأيت أحدهم يشير إليك يا ماهي ـ انسحبت ببرودٍ فأدار قِسمت بعنفٍ مجبرًا إياها على النظر إليه ـ ماذا تفعلين هنا؟! ـ ضمَّ شفتيه بغضب ـ أتعلمين أين أنتِ؟! أتعلمين ما يتم بين الرجال والفتيات هنا؟!

نزعت ذراعها من بين أصابعه: لا شأن لك بي يا راغب ـ تابعت بحقد ـ أنت من ألقاني بطول ذراعه، فلا يحق لك سؤالي عن شيء، لم يضربوني على رأسي ليحضروني هنا!

أغمض عينيه محاوِلًا السيطرة على أعصابه: دعينا نتحدث بهدوء كأصدقاء قدامى.

جرَّها نحو الشرفة صامًا أذنيه عن اعتراضاتها الخافتة لئلا تلفت الأنظار. أغلق بابيها الزجاجيين، فوقفت أمام سورها تولِّيه ظهرها، وقفَ إلى جانبها بصمتٍ، مشعلًا سيجاره المطفأ، نافثًا دخانه ليتغلغل برئتيها مصاحبًا عطره النفَّاذ وبعضًا من نفحات الأرض الرطبة: لماذا أنت هنا؟

قالت ببرود: أريد زوجًا ثريًا.

تأمل عينيها اللتين باتتا كتلتين من الجليد: "لا أصدقك زفرت بمرارة:

"لا يهم" همَّت بالانصراف فأوقفها: أخبريني الحقيقة يا أسما ولو لأجل الأيام الخوالي!

طالعته لبرهة ثم عقدت ذراعيها فوق صدرها متكئة على السور: أنا بحاجة للنقود، لمبلغٍ كبيرٍ من النقود.

أسما اسمعيني، حتى وإن حصلتِ الليلة على النقود فلن تستطيعي مساعدة والدتك، لن يسمح لكِ والدي بإخراجها قبل أن يوقن من عدم أهميتك بالنسبة لي، لكنني أعدك وبشرفي أن أساعدها بكل وسيلة ممكنة، حتى وإن لم أخرجها فسأحرص على توفير سُبل الرعاية والراحة لها بأي طريقة.

صاحت بمرارة: من تظنون أنفسكم لتتحكموا بمصائر البشر؟ يرفضني لأني ابنة سجينة مظلومة، ويمنع إخراجها بعلاقاته! جاوز ظلمكم المدى! ـ زفرت بسخرية ـ اطمئن، لن أخرجها ـ ارتفع جانب فمها ـ ولا يهم! سأتزوج على أي حال ـ تابعت ببرود ـ أخبرتني ماهي أن لدي فرصة كبيرة بالحصول على زوجٍ من العيار الثقيل.

أمسك ذراعها صائحًا: لقد جننتِ! أنت لا تدركين مدى البشاعة هنا! ـ ضحك مِلء فيه بخشونة ـ غبية!..سيفترسونك، لن يتركوك سوى جثة هامدة، شبح لن يطيق أحدٌ النظر إليه ـ أشار صوب الزجاج المغلق ـ انظري لوجوه الفتيات لتتأكدي ـ تابع بتوسل ـ لنتزوج! ستقومين بالأمر على أي حال، على الأقل زواجنا سيكون حقيقيًا ـ لمح بعينيها وميض حيرة فأدرك أن العرض أربكها ـ الرجل منا يستطيع التفرقة بين فتاة بريئة وامرأة لعوب من مجرد قُبلة! ـ أعاد ذكرى ملامستها غيمة السكر فطرق الحديد الساخن ـ تعالي معي وسيمكننا التفكير في طريقة لإخراج والدتك ـ سألته عن إعلان زواجهما فأطرق يعض على أسنانه ـ ليس الآن، سأحتاج لبعض الوقت.

اتسعت ابتسامتها: ظننتني سأهرع إليك زاحفة فور سماعي عرضك الكريم! تمنَّ لي الحظ.

أمسك ذراعها بقسوة: ماذا حدث لك؟!

صاحت بحدة: أنت ما حدث لي، أمي ما حدث لي، شقيقتي، وشقيقي، الحياة كلها التي ترفض منحي فرصة لالتقاط أنفاسي!

أمسك بيدها متوسلا: دعيني أكون الفرصة يا أسما.

هزت رأسها بتصميم: مستحيل، تراجعك وترددك ضربني بمقتل، بذلك اليوم أمام المستشفى مات جزء منِّي، الجزء الوحيد الذي سمحت له بالحُلم والتوق لشيء لطالما ترفَّعت عليه، ليصبح السلاح الذي أرداني!

أمسك وجهها بين كفيه: كبرياؤك بات من الغباء لدرجة أنه سيفسد كل شيء، لا تتخلي عن نفسك.

- ما رفضَتُه وأنا قوية لن أقبله وأنا ضعيفة!

أغمض عينيه يهز رأسه بألمٍ: ما الذي فعلتُه بك؟! ملعون أنا!

دلفت ماهي إلى الشرفة محولة أنظارها بينهما بريبة: كل شيء على ما يرام؟!

رفعت قِسمت رأسها: بل أفضل مما يرام يا ماهي.

قالت الأخيرة بحماسٍ: هيَّا إذن، الأمور تتسارع بشكل جنوني، حصلت حتى الآن على عرضين، وبانتظار المزيد.

هتف راغب من بين أسنانه: "قسمت!" لكنها لم تلتفت وغادرت المكان رافعة رأسها بكبرياء، يتناهى لسمعها صوته اليائس: "سأفي بوعدي لأجل والدتك" في كل خطوة كانت تدهس بقدميها العاريتين شوكًا يابسًا حاد الأطراف، كم تود لو تهرع إليه ملقية نفسها بين ذراعيه لتبوح بكل شيء وتوافق على أي شيء! لكن يبقى كبرياؤها وخزة الألم الأشد والأقسى!

- الدرس الثاني: إلقاء عواطفنا بجبٍّ عميقٍ، والردم فوقه بالأسفلت!

* * *

شاهدت أحد الشيوخ يهمس بأذن ماهي فيرتفع حاجباها دهشة وتلتمع عيناها ببريق جذل، فاقشعر بدنها لصورة احتلت عقلها انتشلها منها صوت هادئ: وجه جديد إذن!

ضاقت عينا قِسمت بريبة: ألستِ الراقصة شمس التي كانت بزفاف إنجي الحطاب؟

رفعت الفتاة كتفيها باستخفاف: ربما، أذهب لمئات الأفراح ـ ضيقت عيناها بدورها ـ انتظري، أنتِ الفتاة التي ساعدتني ووقفت بوجه الحلوف سامح؟! ـ أومأت فارتفع جانب فمها ـ أنتِ من أرادت ستري بوشاحها الأسود ـ عقدت يديها فوق صدرها ـ أي رياحٍ عاتية أتت بك إلى هنا؟! تبدين FRESH!

رفعت قِسمت حاجبيها: المرة الثانية التي يصفني بها أحدهم بهذه الكلمة!

أشارت شمس فيما حولها: وهل هناك أبلغ منها وصفًا وسط كل هذه الفاكهة المعطوبة؟! أهي المرة الأولى؟ اعذريني فأنا غائبة عن تلك الحفلات منذ ستة أشهر.

ـ نعم هي الأولى وستكون الأخيرة، فلا أنوي الاستمـ..

قاطعتها ضحكة خشنة أطلقتها حنجرة المرأة بلا حياء، دوى رنينها بالقاعة لكن أحدًا لم يهتم: لا تنوين الاستمرار بعد هذه المرة! ـ عاودت الضحك حتى اغرورقت عيناها بالدموع ترمقها قِسمت بانزعاج ـ يا إلهي! لم أضحك هكذا منذ زمنٍ، اعذريني، هذه الكليشيهات تجعلني أنفجر بالضحك رغمًا عنِّي! ـ أردفت بمرارة ـ أتذكرين تلك المشاهد حين يدخل مسجون جديد الزنزانة، ويخبر الآخرين (أنا مظلوم)، كلنا قلنا (سأتوقف بعد المرة الأولى)! كلنا انتوينا، لكن مرة تجر المرة وهلم جرا! إن شئتِ حقًّا الإفلات، اذهبي الآن، أطلقي ساقيك للريح، فكل دقيقة تمضينها هنا تسحب من رصيد سمعتك وتصمك بعار لن يمحوه شيء على وجه الأرض!

قالت بإصرار: لكنني لا أنوي الاستمرار بالفعل، أنا بحاجة إلي مبلغٍ من المال أسدد به دَينًا وينتهي الأمر.

ـ لن تستطيعي، وإن استطعت الإفلات من فخِّ الشبع والحياة الرغيدة، لن تنجحي بالإفلات من فخِّ ماهينار، هي كمصاصي الدماء، لا تكتفي سوى بالقطرة الأخيرة ـ أشارت نحو رجلٍ بين مجموعة بازدراء ـ إنه علَّام مسعود، عبقري عمليات hymen الأول في مَصر، هؤلاء الفتيات عميلات مستديمات لديه ـ رددت قِسمت الكلمة بحيرة ـ ألم أقل إنك غافلة! عملية الهيمان؛ عمليات الترقيع الشهيرة للعذرية ـ تأملته بحقدٍ ـ بائع يغسل الكريز العفن، ليخفي عفنه ويخدع الشاري، لكن يظل المعطوب معطوبًا مهما انهمرَ عليه الماء! معظم الفتيات هنا قمن بها أكثر من مرة ـ أشارت لنفسها ـ وإليك أبلغ مثال! أعرض نفسي الليلة للزواج للمرة الخامسة في سِت سنوات، وأقول لنفسي في كل مرة، هي الأخيرة ـ رفعت كتفيها باستخفاف ـ لقد سحقت الرحايا عظامي، وانتهى الأمر.

عزفت ركبتاها اصطكاكًا إحدى مقطوعات السيمفونية الصاخبة مزدردة ريقها: ما الذي تعنينه بعميلات مستديمات؟

ـ يقمن بتلبية طلبات الزبائن، يريدنهن معظم الوقت عذراوات، والفائدة ستعم، مقابل مُجزٍ للفتيات والطبيب، ورضا العميل.

سألتها باستنكار: وأنتِ!

مثلهن، لدي طفلة، ومازلت أقوم بدور العذراء حين يتطلب الأمر، وظيفتي! ولا أريدها أن تكون وظيفتكِ، أفلتي طالما أمكنك الإفلات، أنتِ هنا بلا ثمن، لم يعد أحد يصدق أن ثمة بريئات بيننا، لا دليل واحد على نقائك في عالم تزييف البراءة.

للحظة فكرت بالهرب والركض دون توقف، لكن صورة حجرتين صغيرتين سرعان ما ستصفر بأبوابهما رياح الشتاء مغرقة مئات الكتب بأمطارها، أوقفتها! يجب أن تحصل نوار على علاج حقيقي، بمشفى حقيقي،

وتعود لبيت دافئ. لكل قاعدة شواذ، وستكون أول شواذ القاعدة! أشارت ماهي من بعيد إشارة الفوز غامزة بجذل، كما يبدو توصلت لعرضٍ أسال لعابها، جالت بعينيها بين الوجوه، كلما فكرت بالأمر يصبح التنفس مجهودًا كبيرًا، مازالت تماطل في الإجابة على السؤال: هل ستستطيع؟! حسنًا، التجربة خير إثبات. استوقفها وجه لم تسعفها ذاكرتها سريعًا لاكتشافه، وحين دققت النظر بإمعانٍ شهقت ذهولًا: "مصيبة!" كانت الكلمة الوحيدة التي استطاعت الإفلات من شفتيها قبل إصابتها بخرسِ الصدمة! سارعت متوارية خلف إحدى الستائر السميكة تختلس النظرات نحو الرجلين. "لا، لا، لا!" جعلت ترددها كالببغاء! بالكاد عرفته دون شاربه ونظاراته! ألا يكفيها ما تمر به؟! هتفت من بين أسنانها بخفوت: "ما الذي أتى بك إلى هنا أيها الجبالي؟" ثمة إجابة منطقية وحيدة؛ أتى ليضيف لمسته الخاصة. أغمضت عينيها متأوِّهة بنحيبٍ، الضربة سترديها هذه المرة، من بين كل حفلات القاهرة العامرة يختار الحفلة التي ستعرض بها نفسها للزواج! وكأن كوارث الدنيا خُلِقَت لأجلها، مدَّت يدها تتلمس حبَّات مسبحتها فتذكرت أنها تركتها بالأعلى، لا يهم! اليوم ليس بشأنها بل بشأن نوار، وكل شيء عداها لا يهم! تنفست بعمقٍ وخطت لتقف بجانب الستار، متصنعة اللامبالاة، ودست سماعتها بأذنها متشاغلة متمتمة مع روزا، علها تبدد القلق الذي يلتهمها حية.

بناديلك يا حبيبي ما بتسمعلي ندا.. ولا التلات القريبة بترجعلي الصدى..
كأنك ما حدا ضايع بهالمدى.. حبيبي يا حبيبي.. مالي غيرك حدا.

* * *

(١٢)

ـ لنرحل يا عدنان، أشعر أننا أخطانا بمجيئنا، ما يجري هنا لا يشبهنا!

رمق عمرو بازدراء فتاة كانت تسعىٰ بشتىٰ الطرق لاستمالة نظراته. كيف وافق علىٰ مرافقة زوج شقيقته الوحيدة لمكان موبوءٍ كهذا؟! كيف استطاع عدنان إقناعه؟ أي منطق في وضعَ عدنان أمام فوّهة نار، متوقعًا ألا يحترق! تلاقت عيناه بعينيّ علّام مسعود الذي رفع حاجبيه تهكُّمًا وكأس شرابه الأصفر بتحية سخيفة.

التقط عدنان إحدىٰ الكؤوس الكريستالية التي يدور بها النادل: ربما لأنه لا يشبهنا أعجبتني الفكرة، نحتاج للخروج عن المألوف وتجربة الجديد ـ رفع كأس العصير ـ في صحتك، ولو أنه لا يحوي الخمر، يبدو أن الشيوخ يرفضون تناوله.

زفر بسخرية: أرني شيئًا من الحلال هنا لنستثني الخمر!

يعترف أنه لا يدري ما يفعله هنا رغم استنكاره تراجُع عمرو! لحظة مجنونة تلك التي قرر فيها المجيء مستغلًا الدعوة التي رأىٰ مثلها الكثير قبلًا، دون

أن يعرف حقيقة ما يدور خلفها. جالت عيناه بالقاعة ووجوه المتواجدين، مازال الزيف يحيط به! توقع رؤية أشخاص صادقين مع أنفسهم، يسعون لرغباتهم بطريقٍ مباشر بلا مواربة، لكن حتىٰ هنا، ترتدي الوجوه أقنعة الرقي والانحطاط متغلغل بالشرايين!

- لننسَ قليلًا كوننا أطباء، يكاد الاختناق يقضي عليَّ يا عمرو.

- لا بأس، ستكون الأمور علىٰ ما يرام، ستفيق علياء إن عاجلًا أو آجلا.

زفر عدنان، ترتسم ابتسامة ضيقة فوق ثغره، ليرفع كأس شرابه مرتشفًا بلامبالاة. استوقفه ثوب ناري وحانت منها التفاتة سمحت له برؤية جانب وجهها الذي زينته غمازة.. ذات الألف وجه! وضع كأسه الفارغ فوق إحدىٰ الصواني المارة والتقط غيره: "انتظرنىٰ" تمنَّىٰ ألا يكون مخطئًا، لكن تفاصيلها الصغيرة أكدت ظنونه؛ سنابل القمح بشعرها الذي جعدته بكلاسيكية الثلاثينات، عنقها المرمري، رأسها المتعجرف، ناهيك عن السماعة الصغيرة، والغمازات!

- صدفة غريبة!

أغمضت عينيها تعض علىٰ أسنانها، لماذا لم يتجاهلها كعادته؟! التفتت إليه بحدة:

نعم صدفة، وحاولت تجنبها قدر المستطاع أيها الطبيب، هل تعرفني؟! لا أظن ذلك! قلتها بنفسك بعرض الأزياء.

أعاد رأسه للوراء ضاحكًا بتسلية: أمازلتِ تذكرين؟! كانت دعابة لطيفة.

- وأي دعابة! ظللت أضحك بهستيرية لأيام، ماذا تريد؟

توقفت عيناه علىٰ ثوبها المحتضن منحنياتها بنعومة، نزولًا لساقيها المتلحفتين بجوارب سوداء شفافة، ثم عاد لعينيها قاتمتي الكحل حتىٰ بات خضارهما يصرخ بين جفنيها. قال باستخفاف: ما يريده الجميع هنا؛ معاينة البضاعة.

لم يخطئ! هكذا فكرت حين تلقت صفعته الأولىٰ. قالت: لستُ قلقة

الآن ألّا تكون ذات الشخص! هكذا أفضل؛ الابتسامة اللطيفة والتعامل الإنساني معي لا يليق بك.

أشار لوجهه: عملية ليزك خلصتني من نظارتي، وشفرة حلاقة من شاربي.

قالت ببرودٍ: تهانئي، والآن، هل أعجبتك البضاعة؟

أجاب هازئًا: بضاعة جميلة، وليس بالجديد ـ اقترب منها ـ لكن لسوء الحظ، عفن البضاعة لا يراه سواي!

حدقت بملامحه الساخرة مجترة كلماته، تلتقم مرارتها قطرة قطرة، حتى استجمعت شجاعتها: هذه البضاعة بعيدة المنال بالنسبة لك، فلا داعي لإصابة نفسك بالغثيان ـ زفرت بتهكم ـ رغم أني أرى العفن متبادل، والدليل محبس الزواج بإصبعك، والشامبانيا! لا ترجمني بحجارة خيانتك أحق بها!

نظر لكأسه بدهشة، لم ينتبه لالتقاطه شمبانيا! رفع حاجبيه: لكِ مخالب إذن!

أومأت: وحذار أن تجرحك.

تبادلا النظرات المتحدية لبرهة، ثم قال: ما الذي أتى بك هنا؟ واعفني الإجابة المعتادة؛ أمي مريضة أو سجينة، إخوتي مشردون، المعتاد لا يليق بك!

ـ لا إجابه لدي عدا أنه فيلم عربي قديم، وسخيف! ألا يقول وهبي بيك الدنيا مسرحٌ كبيرٌ.

ـ مسرح وليس فيلم.

ارتفع جانب فمها: كلاهما ادعاء.

ـ وفيلسوفة أيضًا! ـ جذب السماعة الصغيرة ووضعها في أذنه متعجبًا ـ فيروز! ـ عاودت جذبها بعصبية فوضع يديه بجيبي سرواله ـ ترى ما المفاجآت الأخرى بجعبتك؟!

اكتست ملامحها بالاستنكار: تسألني عن مفاجآتي وأنت أكبر المفاجآت! لِم الخيانة وهي امرأة رائعة؟ أعرفها جيدًا فلا تحاول ادعاء العكس.

أجابها متهكمًا: ربما أنا خائن بطبعي، لا أستطيع الاكتفاء بامرأة واحدة، وربما وغد، لا أستحق ملائكية علياء - غامت عيناه - أو ربما أحاول أن أكون سعيدًا! أشعر أحيانًا أن الحياة كلها فاتتني وكنت الرجل الظل بمسرحيتي الهزلية وغيري لعب دور البطولة - تابع بنبرة متسلية حملت بقايا مرار - والآن دورك، ماذا تفعلين هنا؟

زفرت بسخرية: أخبرتك! فيلم عربي قديم، وسخيف.

- لا تحبين الأفلام القديمة إذن؟

- على العكس، أراها مريحة أكثر من عالمنا المعقَّد.

طالعها للحظات مفكرًا في صمت، ثم همس بتسلية: لا أشعرك غريبة، ولا أجد تفسيرًا للأمر، كنت أنظر إليك دون أن أراكِ، وابتسامتك، يالها من وهم! - زفر بتهكم - أتعلمين أن تلك الغمازات التي تستخدمينها فخًا من العسل هي خلايا ميتة؟ - مطَّ شفتيه بازدراء - خلايا مشوهة!

تلقت الصفعة الجديدة رافعة رأسها بعجرفة، فعلها ثانية وأدرك حقيقة ما تشعره، هي الآن مجرد جثة! سبر غورها بلا مجهود! أمر صغير فقط، مازال ظالمًا متجنيًا، حتى الآن فحسب؛ فبعد قليل سترسخ بذهنه كل الشكوك وتتحول إلى حقيقة، صاحت: لا أدري سِر المتعة التي تحدوك عند إهانتي، لكني اكتفيت - همت بالابتعاد فشعرت بكفه تمسك ذراعها، التفتت بنفاذ صبر - لست بحاجة لمحلل نفسي والبحر مليء بالأسماك كما ترى.

نظر حيث أشارت لمجموعة الاثرياء العرب والشيوخ قائلا: ربما، لكن ليسوا مثلي.

رفعت كتفها باستخفاف: لا يهم - عاد يتأملها فجذبت ذراعها بضيق - أنت تضيع وقتي! شدد قبضته على ذراعها: حسنًا اهدئي، تعجبني البضاعة وأريدها.

قالت بعجرفة: وكيف ستحتمل العفن؟!

تلاعبت ابتسامة متسلية بثغره جعلتها ترغب في الإمساك بشعره المنمق

بكلتا يديها لتشده فتفقده الذاكرة؛ سبيلها الوحيد ليعتقها!

ـ أحتاج لتجربة شيء جديد ـ ازدردت ريقها مضيقة عينيها ـ فكري بتعقُّل وستدركين أني فرصة لا تعوض.

يقسم إنه عاجز عن إدراك سبب واحد يجبره على التفوه بهذا الهراء! كيف يرغب بامرأة تمثِّل أسوأ طبائع النساء؟ ناهيك عن انحطاط الأخلاق! ربما هو الملل وإغراء التحدي! أهي النداهة الأسطورية بحكايا عواجيز النساء؟ أم هي رغبة شرسة لمعرفة ما يدعو امرأة للتخفي بالألوان كالحرباء؟! بل هي ابتسامتها اللعينة التي تفوز بها دائمًا، إلا معه! لن تستطيع الفوز بها مهما فعلت. تابع: انظري من حولك وتخيلي عودتك لأحضان هؤلاء الشيوخ العجزة، ماذا ستختارين؟!

تبادلا الابتسام بتحدٍّ، فأشاحت بوجهها صوب ماهي التي وقفت بجانب أحد الشيوخ مبتسمة بسعادة، مشيرة نحو الرجل الذي التفت بدوره نحوها لتنفرج شفتاه عن ابتسامة. كانت فقرة الابتسام للجميع! انقبض قلبها من يديه المجعدتين اللتين نجح الزمن بجدارة بترك أثره فوقهما، أخاديد وجهه العميقة وأسنانه الصفراء كانت مرعبة، ناهيك عن نظراته النهمة التي أوقفت الشعيرات بمنابت جسدها عدا رأسها، والفضل للدبابيس! عاودت الالتفات إليه بمقارنة سريعة كان يعلم مسبقًا لمن سيكون الحسم فيها، وسألته بحيرة صادقة: "لماذا؟" فرفع كتفيه: "لا أدري" هتفت معترضة فأطرق مفكرًا، وحين رفع رأسه كانت قسماته خالية التعابير: ربما وقعت بفخ ابتسامتك كغيري!

ـ أرجوك، أي شيء عدا الاستهانة بذكائي.

ـ حسنًا! ألقت بك الأقدار أمامي مِرارًا وتجاهلتها، يغريني الاقتراب، فقط لأرى وجهك الحقيقي ـ تابع بتسلية ـ رغم احتقاري لك، واستحالة تصديق أيٍّ من وجوهك الألف!

عاودت الالتفات نحو الشيخ الذي يبدو أن ماهي أغلقت معه الصفقة

بطريقة مرضية، ليجذبها رنين هاتفها بعيدًا عن الجميع، ابتعدت عنه نحو الشرفة مجيبة، فأخبرتها صفية بصوتٍ حزينٍ أن حرارة نوار ارتفعت، وتوسلت كثيرًا للممرضات كي يداووها، فذكروها أن الفواتير المستحقة يجب أن تدفع الليلة وإلا سيعاودون إيقاف التداوي! أغمضت قِسمت عينيها، تعض علىٰ شفتها: خلال ساعة سيكون المبلغ بالإدارة ـ حدجت عدنان ـ ربما أتأخر للغد، لكن لا تقلقيٰ سأرسل النقود.

أغلقت الهاتف ووقفت بمنتصف المسافة بين الشيخ وعدنان، قائلة بترقب: لكني أريد مبلغًا كبيرًا ـ مطَّ شفتيه رغم هاتفٍ داخله يحاول باستماتة إثناءه عن المضي ـ سأختار العرض الأكبر، غامرت وأتيت هنا لكي أحصل علىٰ المال ولا أنوي التنازل ـ تابعت بتحدٍّ ـ مائة ألف، مهرًا وشبكة معًا، والزواج لن يستمر أكثر من ستة أشهر

أطرق مفكرًا بصمت، كما توقع، تعي قيمتها الخارجية جيدًا. قال: كثير! سأدفع علىٰ دفعات، عشرة آلآف الليلة شبكة، وغدًا مثلهم مهرًا، وكل فترة ساعطيك مبلغًا حتىٰ يكتمل ستين ألفًا ـ أشار لمن حولهم بالقاعة ـ أعرف أنك ستختارين صوت العقل والمنطق.

حاولت التلاعب للمرة الأخيرة: "لا يهم . مطَّ شفتيه: بل يهم جدًا، قولي لا إن استطعتِ، وعودي لأحضانهم لينتهزوا الفرصة كعادتهم، بشكلٍ رائعٍ!

ابتسمت بمرارة: لا يهم، جميعكم يملك شعيرات بيضاء، وجميعكم فاحشو الثراء.

قال بسخرية: أمر بسيط أحب توضيحه رغم وضوحه كالشمس، الشعيرات البيضاء فوق رأسي عوامل وراثية، أما ما فوق رؤوسهم فهي عوامل الطقس والتعرية.

نظرة واحدة صوب الرجل الذي ينتظرها كانت لتمنحها أكثر مما تحتاج من يقين لتصديقه! قالت: ستعطيني اثني عشر ألفًا ونصف كل أسبوع حتىٰ يكتمل المبلغ.

أومأ بعد لحظة تفكير فأشارت لماهي التي أتت مسرعة مبشرة: اسمعي أخباري الحلوة، الشيخ عرض مائة ألف كما أردنا واتفقت معه على أن يسـ...

ـ سأعقد قراني على الدكتور جبالي ـ فتحت ماهي فمها ببلاهة معترضة ـ الدكتور جبالي سيدفع ستين ألف جنيه، أريد الطبيب!

علمت ماهي بخبرتها الصفقة الخاسرة من الرابحة، لذا كان من السهل تبديل القناع: ألف مبروك، وعمولتي؟ ـ كتمت قِسمت أنفاسها متضرعة ـ لا تنسَ أنك زيجتها الأولى.

قال عدنان محدِّجاً علَّام مسعود بتهكم: يا لي من محظوظ!

تعالى صوت المأذون الذي ظهر فجأة بين المدعوين على أريكة توسطت القاعة، طالبًا من أحدهم الترديد وراءه: "زوَّجتك موكلتي، البكر الرشيد" حدقت قِسمت ببلاهة صوب شمس التي جلست مقابل الرجل الآخر. توقيت ممتاز! شمس بكر، رشيد، رائع! تعالى صوتهم بالدعاء (بارك الله لكما وبارك...) كانت على وشك التقيؤ تقززًا وقرفًا، سكارى يدعون الله ويباركون زواجًا زائفًا! مَن يخدع مَن؟ ابتسمت ماهي بسعادة: نقبل credit card.

أشارت قِسمت إليه ليقترب تضيق عيناها ريبة، ابتسمت عيناه وانحنى قليلًا لتسأله: هل ارتكبتَ ذنبًا كبيرًا بحياتك؟ ـ فاجأته بجديتها الشديدة ـ باقترابك منِّي ستكفر عن كل ذنوبك.

أعاد رأسه للوراء مقهقهًا: أنتِ حقًّا غريبة الأطوار!

ـ لَم ترَ بعد غرابة أطواري.

ازداد حاجباه ارتفاعًا: فيما يبدو ومن الآن فصاعدًا ستؤلمني كثيرًا عضلات حاجبيَّ!

* * *

ـ ماذا تظن نفسك فاعلًا؟

ـ سأتزوج! تلك التي هناك، تدعىٰ قِسمت ذو الفقار.

هبطت الكلمة فوق رأس عمرو كدلوِ الثلج حين أشار نحوها. صاح مستنكرًا: هل جننت؟! كيف تتزوج بامرأة سيئة السمعة؟ انظر من يقف بين مجموعة الرجال بركن القاعة؛ علّام مسعود، أكبر رعاة الحفل! ـ رفع عدنان كتفه باستخفاف ـ ماذا بشأن علياء؟

ـ حكايتنا ماتت، والميت لا يعود.

ـ امنحها فرصة لترتيب أفكارها، سحابة صيف!

ـ أريدك شاهدًا علىٰ زواجي.

قال عمرو ذاهلًا: تلك المرأة تبيع نفسها سلعة، وربما هي سلعة مستعملة لعشرات المرات، كيف تسمح لنفسك بشيء كهذا؟!

طالعها عدنان تقف رافعة رأسها بنظرات زائغة: لا تتركني وحدي يا عمرو، أحتاجك معي، اعتبرها إجازة قصيرة علها تعيد لي ثباتي، ومن يدري!

أدرك أن اللعب علىٰ أوتار الصداقة أتىٰ بمفعوله حين أطرق عمرو باستسلام! يؤلمه خداعه وإيهامه أنها فرصة عله يهدأ ويعود لعلياء، لكنه لن يجرؤ علىٰ المضي قدمًا وحده! جلسا يتوسطهما المأذون بعدما وضع كأس الشمبانيا التي كان يرتشف منها بتلذذ، مبتسما ابتسامة صفراء: "مرحبًا بالعريس والعروس" أمره عدنان بنبرة حازمة: "لننتهي سريعا" رفع المأذون الكأس ليتجرع بقيته بجُوفه: "أمسكي بيده" هبَّت مع أنفاسه رائحة قذرة أعلمتها أنه لم يكتفِ بالشمبانيا، استدرك الرجل بنبرة ثقيلة: "أين الشهود؟ كدت أنسىٰ!". أطلق ضحكة خشنة انفجر معها جموع المتواجدين بالضحك ليجلي حلقة متصنعا الرزانة: "أعطوني البطاقات" ناوله عمرو بطاقته محدِّجًا قِسمت بتجهم، وآخر كان يترنح بوقفته، هَمَّ المأذون بكتابة البيانات لتقف قِسمت معترضة بصوت متهدج: "لا أستطيع، لا أستطيع" وهرعت نحو درجات السلم الداخلي عائدة للغرفة، منهارة في البكاء.

انفتح الباب ليتناهىٰ لسمعها صوته الضجر: "ماذا الآن؟" ابتلعت ريقها

وتماسكت مخفية أثر البكاء: لا أستطيع أيها الطبيب، لا أتحمل أن يعقد قراني مأذون مخمور، ويشهد على عقدي مترنح بالكاد يقوى على الوقوف، ليدعو لي بمباركة الزواج بعدها مجموعة من السكارى، لا أستطيع! إن أردت إتمام الأمر سنتمه بطريقتي ـ مسحت دموعها رافعة رأسها ـ سأجعل المحامي يعقد قراننا، ويشهد على عقدنا الطباخ والسائق، هما الوحيدان اللذان لا تسمح لهما ماهي بتجرع الخمر.

رفع حاجبيه بدهشة: تتخلين عن عقدٍ شرعي في مقابل عقد على يد محامي، تتخلين عن حقوقك هكذا ببساطة؟!

ضحكت بمرارة: عن أي حقوق تتحدث أيها الطبيب؟! وهل للعشيقة حقوق؟! لن أخدع نفسي وأخدعك بكلام منمق بلا داعي، ماذا قلت؟ ـ همَّ بالحديث فسارعت مقاطعة إياه ـ ومازال بإمكانك كتابة الشروط كما تشاء، مدة الزواج ومبلغ المهر المتفق عليه.

سادت فترة من الصمت، كالعادة ظنت أنه أصيب بالخرس ليفاجئها بالسؤال القاتل: ما الذي تغيَّر هذه المرة؟

ـ لأنها أول مرة أيها الطبيب! صدِّق أو لا، هي أول مرة.

ـ ألم نتفق بلا مراوغة؟!

كانت تدرك أنها تحفر البحر عميقًا، ولن تعثر سوى على الماء المالح فاكتفت بالمحاولة: ربما رغبة ألا تمتهن إنسانيتي أمامك ولو لمرة! ـ أردفت بمرارة ـ بقايا كبرياء يوشك على الرحيل.

طالعها مضيقًا عينيه، فبادلته النظرات بجرأة. تمتم بعينين ذيلتهما ابتسامة باهتة: سألعب لعبتكِ للنهاية، مسلية!

* * *

ـ عدنان! أناديك للمرة الرابعة! ثمة حالتين أُخريَين؛ شجٌّ بالرأس وطلقة رصاص في الكتف.

تنهد بإحباط: أنا مرهق.. والدي وعمي سيتوليان الأمر، حمدًا لله، لا مزيد من رائحة الموت منذ نصف ساعة!

جلست قِسمت بقربه على الأرض داخل الخيمة: رائحة الموت في كل مكان، سقيت الأرض بدماء تكفيها لسنوات ـ استطردت واجمة ـ يقولون (الأرض تشرب كل شيء عدا الدماء)!

مطَّ شفتيه: قرأت المقولة مثلك، ومن تجربتي؛ كل شيء يشرب الدماء.

قالت باسمة بحزنٍ: من يصدق أننا عدنا للميدان بصحبة معظم عائلتك، رغم كل احتياطاتكم وإنذاراتكم!

ـ لم نأتِ برغبتنا! أجبرتنا لينا على المجيء؛ استغاثتها بالهاتف وحاجتها وأصدقاؤها للإسعافات الطبية! لم نجد مفرًّا من إجابة مطلبها.

اتسعت ابتسامتها: هكذا أنتم يا آل الجبالي، لا تستجيبون سوى بلوي الذراع! ـ تفاجأت بعينيه الدامعتين وانطباق شفتيه المرتعش ـ عدنان! ـ أطرق ممسكًا بعصى خشبية يعبث بحصوات الأرض كالطفل الصغير ـ المرة الأولى التي أراك بها دامعًا!

ـ ضاع عمرو.. انتهى ـ تابع محطمًا العصى ـ مسكينة لينا، ستحمل ذنبه حجرًا فوق ظهرها لبقية العمر!

تنهدت بحزنٍ: ليس الأول ولن يكون الأخير. يؤلمني حال الدكتور عادل، أتمنى أن ينجح بعبور الصدمة سريعًا ـ تابعت بازدراء ـ وكأنها معركة بالعصور الوسطى؛ أحصنة وجمال! أي عقلية شيطانية خططت ونفَّذَت ذاك الهجوم الدموي؟ حتى الجيش وقف مكتوف الأيدي يراقب الحرب الطاحنة، مكتفيًا بإطلاق أعيرة في الهواء لتفريق الأشتباكات!

ـ من الصعب تدخُّلهم في ظروف كتلك وإلا تحولت لحرب أهلية.

هزَّت رأسها بغير اقتناع: بالتأكيد ثمة وسائل أسرع للتعامل مع هذه المواقف حقنًا للدماء.

أومأ بشرودٍ: "ربما". تمتمت مع روزا وقد انقطع حبل الحديث...

وحدن بيبقوا.. متل زهر البيلَسانْ وحدهُــن بيقطفوا وراق الزمــانْ..
بيسكروا الغابة.. بيضلهُــن متل الشتي يدقوا على بوابي.. على بوابي..

دلف بعد برهة شابان برفقة رجل أغرقت جبهته الدماء، سائرًا بينهما مرفوع الراس:أرجو أن تتفقد الجرح يا دكتور، أحد الكلاب ألقى بقطعة رخام نحونا فشجت رأسه.

أشار عدنان نحو ركن الخيمة: "اجلس فوقها كي أرى الجُرح أسفل ضوء المصباح المعلَّق" امتثل الرجل فأزاح عدنان قطعة القماش مضيقًا عينيه، وجعل يضغط حول الجرح بروية عدة مرات، دون أن تبدو على الرجل أمارات ألم حتى اختلجت ملامحه في الضغطة الأخيرة. "هناك قطعة رخام صغيرة مغروزة بالجرح، أحتاج للمزيد من الضوء لرؤيتها" أخرج أحد الشباب هاتفه النقال، وضغط أحد الأزرار فانبثق ضوءٌ من منتصف الهاتف، قال عدنان بعد وهلة: "غير كافٍ، الشظية الرخامية رفيعة، يجب إخراجها لأستطيع تقطيبه" تابع بسخرية: "لا أظن أن لدى أحدكم عدسة مكبرة" عاود تفحُّص الجرح مقطبًا، يبدو عليه الغيظ، حين هتف أحد الشابين بحماس: "معي عدسة" التفتت أزواج الأعين نحوه فأجلى حلقه معدلًا نظارته الطبية: "معي نظارة للقراءة، عدساتها مكبرة، هل تصـــ"، قاطعه عدنان بنفاذ صبر "إليَّ بها"

"عاش الشباب" الجملة الوحيدة التي تفوَّه بها الرجل المغطى بالدماء بعدما أطلق ضحكة متسلية، ظنته قِسمت لوهله أخرس! انهمك عدنان بتنظيف الجرح وإخاطته ريثما اتفق بما لديه من أدوات، وحين انتهى رفع الرجل يده بتحية مرحة تنافت تمامًا مع الأجواء المتوترة: "سلمت أناملك أيها الطبيب" ونهض محوِّلًا أنظاره بين الشابين: "هيَّا بنا" سأله أحدهما: "ألن ترتاح قليلًا، نزفك لم يكن بالقليل؟" قال متهكمًا: "مازال الطريق طويلًا نحو الراحة، لنساعد البقية فالجرحى بالعشرات" لم يمنَح أحدًا الفرصة لإقناعه بالعدول عن قراره، وكان أول من غادر الخيمة.

طالع أحد الصبية دكتور خالد نافذ الصبر: أنت بطيء جدًا!

قالت لينا: أخالفك الرأى يا علي، الدكتور خالد الجبالي، أشهر جراحي الأعصاب والعمود الفقري، يجب أن تثق أنه لا يفعل سوى الصواب.

ضرب الصبي ظاهر يده براحته: مازلت بطيئًا، أريد العودة إليهم سريعًا، لا أستطيع تركهم يواجهون البلطجية وحدهم.

زفرَ خالد متأملا الصبي الذي اعتلت صفحة وجهه خدوش وآثار جروح قديمة كمحاربي الصحراء، مندسًا بقطعتين مهلهلتين من الملابس الخفيفة التي لا تناسب الطقس البارد. رفيعًا كعود السواك، ضامر البطن تحيط عينيه هالات سوداء قاتمة، يرتدي بقدميه خُفًّا جلديًا تطل منه أصابع زرقاء الأظافر كالكدمات. سأله: "كم عمرك يا علي؟" أجابه الصبي بعجالة وعيناه معلقتان بباب الخيمة: ثلاثة عشر ـ التفت رافعًا رأسه بزهوٍ ـ أعرف بعضًا ممن أخذوا مقابلًا لمساعدة البلطجية، أحدهم كان يوزِّع النقود علينا، لكني رفضت، لن آخذ مقابلًا لأضرب أصدقائي.

ـ إذن أنت صبي عاقل وتعرف الخطأ من الصواب، إن خرجت الآن دون أن تسمح لي بتطهير الجرح وربطه بالشاش الطبي سيكون عُرضة للتلوث، ومنفذًا للجراثيم، وسرعان ما سيعرقلك، أعدك أن أكون سريعًا، فقط انتظر لثانيتين.

أطرق الصبي مفكرًا لوهلةٍ ثم رفع رأسه مستحثًا، أشار خالد لعدنان أن يُحضِر بعض الشاش المعقَّم والبيتادين، ناولهم عدنان لقسمت، ولم تكن الخيمة كبيرة كفاية لتستغرق وقتًا طويلًا في مناولتها الأشياء له، لكن لدهشتها جذبها منها بنفاذ صبر، موجِّهًا حديثه للصبي: "ألا تخشى الموت يا علي؟" ـ محاولته جذب انتباهه ولو للحظات باءت بالفشل، كان مضطرًا لجذب ذِراع الصبي كل ثانيتين لئلا يطير من الخيمة صوب النقطة التي يبدو أنها شغله الشاغل!

ـ لستُ جبانًا، وليست المرة الأولى التي أتشاجر فيها بالشارع، الخوف شيمة الفتيات.

نزعت قِسمت السماعة عن أذنها وسألته: ولماذا تتشاجر يا علي؟ ما الذي يبقيك في الشارع؟

ـ أنا رجل البيت بعد وفاة أبي، توفى بحادث منذ عامين، دهسته سيارة في سباقٍ بين شابين أخرقين، منذئذ أقف على عربة البطاطا في الشتاء والذرة المشوي والتين الشوكي في الصيف.

قالت قِسمت باسمة: يجب أن تخبرني بمكان عربتك لأشتري.

لوح يده: أنا ملازم الكورنيش كل يوم، وأحسن بطاطا لأجل عيونك الحلوة يا "أبلة"

سأله خالد: ولِم لا تلتفت للقمة عيشك وتبتعد عن المشاكل؟!

تحوَّل بغتة لرجل حكيم يحدثهم بعصارة تجربته في الحياة: نحارب الفاسدين الذي اضطَروني للعمل وترك المدرسة بعد تشقق أقدام أمي بحثًا عن معاش أبي ـ تابع برزانة ـ بالمناسبة يا "أبلة"، كنت تلميذًا مجتهدًا ـ لوح بيده ـ أخبرني أصدقائي الشباب أنهم سيسترجعون حقوقي الضائعة، كيف أتركهم وهي معركتي؟!

حانت من خالد التفاتة خلف الصبي فرأى شيئًا بارزًا خلف ظهره مُثبتًا بحزام بنطاله، قطبَ بريبة ومدَّ يده نحوه ممسكًا به، فقفز الصبي فزعًا، صرخ به خالد: "ما هذا الذي تخفيه؟" جذبه ثانية بعنفٍ دون أن يمنحه الفرصة للهروب، ونزع الشيء بسرعة من أسفل ملابسه ليرفع حاجبيه دهشة: زجاجة مياه! ـ داعبت ابتسامة صغيرة شفتيه ـ أفزعتني وجففت دمي! لماذا تستميت هكذا في الحفاظ عليها؟!

ابتسمت لينا: لم يبقَ بها سوى القليل! هناك الكثير من العصائر والألبان التي توزعها الفتيات.

قال بحماسة شديدة: أجمل مياه شربتها في حياتي، طعمها كالسكر، بعكس مياه صنبورنا، تغليه أمي وتصفيه بالشاش، ويظل طعمه كريهًا ورائحته مقرفة! ـ التمعت عيناه ببريق الشقاوة ـ أحيانًا يسمح لنا صاحب

السوبرماركت بوضع زجاجة في ثلاجته لتبرد ويسهل ابتلاعها، وكثيرًا ما يرفض فأضطر لشربها ـ امتعض وانقلبت شفتيه ازدراءً ـ يخ.

ابتسمت قِسمت وناولته زجاجة شربت نصفها: "الجودة من الموجود" أخذها الصبي باسمًا: "شكرًا يا أبلة" وقبل أن يحكم خالد إغلاق الشريط اللاصق كان الصبي قد أطلق ساقيه للريح، فناداه بحنقٍ: "أكمل إغلاق الشريط" رفع الصبي يده محكمًا إغلاقه دون أن ينظر خلفه، طائرًا نحو سماء حريته التي عرقلها جرح جبهته الصغير!

قال خالد: يذكِّرني كثيرًا بعدنان، كان له نفس البنية الضعيفة والساقين الطويلتين، ونفس بريق العينين والحماسة، حين ابتلعته دوامة الطب الذي جَذَبَتْهُ إليها، شيء ما انطفأ بداخله!

ارتفع جانب فمها: أجبرته على شغفك الشخصي، ولم تترك له اختيار شغفه الخاص.

اخترت له المستقبل الأفضل، لا يمكن للإنسان الحصول على كل شيء، هناك أشياء تسقط منا رغمًا عنا أثناء عبور الطريق!

قالت مبتعدة: وأشياء تدهسونها أيضًا أثناء العبور.

غادرت المكان بعصبية شديدة، ووجدت نفسها مفترشة الأرض خلف الخيمة، عبوره العظيم لم يدهس الأشياء فحسب، بل دهس الأرواح أيضًا! شعور العجز مفزع لأقصى حد، شعور يحوِّلك لصرصورٍ بعالم الديناصورات! لا صوت لك ولا إرادة، ولا قدرة على القيام بأي فعل عدا الاستسلام، والاستسلام موجع، مُرهِق للروح، وبالأخص لروح اعتَادت النضال! استسلمت ليلتها بكامل إرادتها للتيار، مُطلِقة العنان لرغبات الغير بتسييرها، عدا رغبة واحدة تمسكت بها للرمق الأخير؛ عدم استباحة علاقتها بالله، حتى وإن تخلت عن قواعد السلامة بأرضٍ ملغَّمة!

* * *

أشارت ماهي بابتسامة قِط انتهى لتوِّه من وليمة: "لندعو للعروسين" أوشكوا على الدعاء لولا صياح قِسمت: "لا أريد دعاءً من أحدٍ" تعالت بعض الهمهمات وسرعان ما انشغل الجميع كل في شأنه، لينحني نحوها عدنان هامسًا: "تهانئي، حصلتِ على الورقة" قالت باقتضاب: "أريد المغادرة الآن ـ فركت يديها بتوتر ـ لم أعد أطيق المكان ولا الأجواء أكثر من هذا". زفر بتهكم: "أوليست أجواءك المعتادة؟!" قالت من بين أسنانها: "اسأل ما شئتَ فيما بعد" جفلت لأصابعه الملتفة حول ذراعها ليسيرا معًا خطوتين: "انتظر، نسيت شيئًا هامًا" اقترب هامسًا: "لا تنوين الهروب!" زفرت بمرارة: "لا مفر أيها الطبيب" تنفست الصعداء فور اختفائها خلف الباب، وسارت نحو جارور طاولة الزينة، متجنبة النظر إلى وجهها بالمرآة، أمسكت مسبحة الكهرب ورفعته بين راحتيها لتفركه بقوة وتشتمه.. ساعدني لأجلها.

ألصقت رأسها بزجاج النافذة محدقة بالفراغ المُظلِم بالخارج؛ اتصل عند خط الأفق بسماء نثر فوق صفحتها الليل حباتٍ من نجيمات خافتة البريق، وقمر وارته سحيبات عابرة. بجسدها شيءٌ من الوهن، وبصدرها الكثير الكثير من الرهبة. ها هي تجلس إلى جانب رجلٍ غريبٍ عنها بمقعد سيارته الأمامي، يقولون عنه زوجها، بعقدٍ يندرج تحتَ قائمة زواج المتعة، لتسعة أشهر! يجب أن ترى نوار، سيكون أول ما تفعله مع إشراقة الصباح، صباح تتطلع له بحماقة! دون أن تدري كيف سيمر الليل أولًا حدقت نحو السماء بعينين متوسلتين دون أن تجرؤ على البوح؛ ماذا تقول وهي العاصية الآثمة؟! أتنتظر معجزة؛ يوقف السيارة بغتة ويعتقها لوجه الله! هراء. عليها أن تخرس، حتى الدعاء، لم يعد يحق لها! ليتسلل صوت فريد الشجي لأذنيها مع موسيقى الفالس الناعمة...

إياك من حبي.. إياك.. وابعد عن قلبي.. حبك مش ليا.. أنا ليا أساك...

اختلس نظرة نحوها فانكمشت على نفسها متحولة لجمرة متقدة بثوبها الأحمر! رفع حاجبيه بدهشة: قِسمت، اسم غريب وكأنه أتى بغير أوانه،

كانت محاولة لإخراجها عن صمتها نجحت حين لمح تمتمات شفتيها مما اضطره لخفض الصوت: "عفوًا!" كررت باقتضاب: هو لجدة جدتي، عُرف ـ عاود سؤالها مستوضحًا فتابعت ببرودٍ ـ ربما أقص الأمر فيما بعد ـ أُحبَط لفشل مسعاه لولا غمغمتها ـ أنت أيضًا تحمل اسمًا غير معتاد.

ـ والدتي من أصرت عليه، قيل أن معناه قديمًا بقعة تختارها القوافل للراحة، والبعض يقول إنه نهاية الترحال، أي المُستَقَر ـ سألته لِمَ أصرت عليه فابتسمت عيناه ـ ربما أقص الأمر فيما بعد.

المُستَقَر؛ معنى غريب لرجل أغرب! لا يكن لها سوى الاحتقار ويدفع أموالًا طائلة للحصول عليها! رجل خائنٌ لامراة لا تستحق الخيانة! تأملت صورته المنعكسة فوق الزجاج المجاور، عاودته تقطيبته، ماذا يريد منها هذا الرجل المُستَقَر؟!

هو أيضًا كان يتساءل لماذا تتصرف كمن يصحبونها لغرفة الإعدام؟ تكاد ارتعاشة جسدها تقلب السيارة! مدَّ يده مخففًا برودة المكيف، ولسببٍ مجهول قرر منحها فسحة صمت...

خايف من قلبك يمكن يتغير.. خايف من حبك علشان بيحير...

تهدجت أنفاسها التي حبستها طويلًا بنشيج بكائها. أتراها أخطأت حين رفضت عرض راغب؟! هل حقًّا حكمت كبرياءها بكل شيء.. فخسرت كل شيء؟! رفضت زواجًا عرفيًا مقابل زواج متعة مرهون بشروطٍ لا حصر لها! رفضت رجلًا يحبها مقابل رجل يحتقرها ويُعُدَّها جارية اشتراها! رفضت بعض من الكرامة وفتحت ذراعيها لسيل إهانات! رغمًا عنها انفلتت شهقة قوية من بين شفتيها فسارعت لوأد شقيقاتها، مكتفية بكفكفة الدموع التي انهمرت كالشلال، آلمها جانبها المغروز بمقبض الباب؛ لكنها الفرصة الأخيرة التي سيسمح لها القدر بالانفراد بقسمت التي تعرفها!

اختلس نظرة أخرى نحوها، يوشك على سحق أسنانه! ألم يتفقا ويبرما

العقد؟! قرر الاستمرار بتجاهُل بكائها وكأنها غير موجودة؛ وحين تدرك سخافة لعبتها ستتوقف، وإلا سيفقد صوابه.

ـ مازلت أتساءل، كيف وقعتِ بين يداي بتلك السهولة و.. أنا الرجل الذي أهانك مرارًا؟

بقرارة نفسه توقَّع إجابة، لكنه أبدًا لم يتوقع إجابتها: النفوس البشرية مليئة بالثقوب، ضع خطافك في الثقب الأكثر ظلامًا وعمقًا ـ شهقت بنشيجها محركة إصبعيها مثلما فعل راغب يومًا ـ واجذب بقوة، تصبح الفريسة طوع بنانك.

ارتفعت زاوية فمه: لستُ بحاجة لتخمين أي ثقب جذبتك منه!

عاد الصمت سيد الموقف عدا نهنهة خافتة انفلتت رغمًا عنها، فتشاغل بالتمتمة لوهلة مع الأغنية متصنعًا اللامبالاة...

راح تقسى عليا لو قلت اهواك.. اهواك.. اهواك...

ضغط زر الإغلاق بنفاذ صبر: "لماذا تبكين؟" سارعت لتمحو سيلًا جديدًا من الدموع، تعض على شفتها بخجل: "مُرهقة" سألها: "تبكين دومًا حين تشعرين بالإرهاق!" أومأت فمطَّ شفَتيه: "وماذا ستفعلين ووجهك ملطخ بماكياجك السائل؟ سندلف لمكانٍ عام بعد قليل" استفسرت عن وجهتهما فزمَّ شفتيه محدقًا بخطى الدموع السوداء لوهلة: "أحد الفنادق ـ استطرد بسخرية ـ شهر عسلنا سيبدأ الليلة"

أوقف السيارة أمام بوابة الفندق بعدما توقفا بشارع هادئ لتنظف وجهها. ترجلت منها لتتجه عيناها تلقائيًا نحو الطريق الجانبي المؤدي للحديقة الخلفية، أغمضتهما بألم حين طافت برأسها صورتهن، وعضت على شفتها مغالبة الوهن الذي اجتاح أوصالها بغتة. استقرت كفه خلف ظهرها تقودها برزانة نحو بوابة الدخول، مصفرًا بشفتيه بقايا نغمات فريد.

* * *

أجفلها إعتام الغرفة وجمد البقية من الدم بعروقها! احتل المكان شعاعٌ خافتٌ لمصباحين عُلِّقا على جانبي الفراش الضخم المزيَّن بورود حمراء نُثِرَت فوق شرشفه اللؤلؤي. رفعت درجة الصوت بالسماعة في محاولة يائسة للهروب، تتسابق ضربات قلبها مع إيقاعها...

بنقول رايحين ونكون راجعين على دار الحب ومش عارفين..

حاولت التمتمة مع الكلمات فخرج صوتها مرتعشًا كصياح الدجاج! "أنهيتِ البكاء؟" إجفالة أخرى اعترتها حين شعرت بصوته قُرب أذنيها، وهل عاودَتْ البكاء؟! لمسة أُنملته التي التقطت إحدى دمعاتها الموشكة على الرحيل عن وجهها أعلمتها أنه محق! أخذت نفسًا عميقًا راسمة واحدة من أوسع ابتساماتها: لا يهم! لن أبكي بعد الآن - مسحت أثر الدموع والتفتت إليه - أعتذر عن إزعاجك، أُصبِح سخيفة جدًا حين أكون مرهقة.

- من الجيد إدراكك لإزعاجي - انحنى نحوها فظنت انه سيقبلها عدا أنه اكتفى بلصق أذنه بالسماعة - إلام تستمعين؟ - ابتعد رافعًا حاجبيه - أمازالت تهمس إليك فيروز؟

أطلقت سراح الهواء المحبوس بصدرها: أرجو ألا تجتاحني كالصواريخ الموجهة هكذا أنى شئت - تلاعبت ابتسامة صغيرة بطرفيّ عينيه حين عادت للوراء - علينا صنع مسافة تسمح لي بالتنفس - أردفت بجدية كبيرة - أحتاجها.

اقترب مبددًا المسافة بخطوة، مطالعًا اضطراب قسماتها: متنفس ومسافة! بعد ما سيحدث بيننا الآن؟!

تتبعت كفه المشيرة نحو الفراش مزدردة ريقها: يجب أن نحرص على صنعها - عقد ذراعيه فوق صدره فأغمضت هاربة من تحديقه - لنجعل الأمر بيننا مهنيًا بَحْتًا - ارتفع حاجباه دهشة متشدقًا بكلمتيها الأخريين، فقررت القتال للرمق الأخير - أعني يظل الأمر بالنسبة لك احتياج، ينتهي بالإشباع.

ارتفعت زاوية فمه: نظرية مثيرة رغم صعوبتها، وماذا بشأنكِ؟

وضعت يدها فوق صدرها برزانة: أنا أيضًا سأحرص على إبقاء الأمر من

ناحيتي مهنيًا بَحْتًا، وسأعمل على تنفيذ شروط لعقد في سرية تامة، كما أنني سأحرص على.. إرضائك ـ بالكاد سمع غمغمتها الأخيرة فانحنى مستفهمًا، فكررتها من بين أسنانها ـ إرضائك ـ ضبطته يحدق بنبض عنقها المضطرب مستغربًا ـ التواصل الإنساني بيننا سيكون بلا معنى، لستُ متاحة للأبد، كما أنك رجل متزوج.

ـ حسنًا، تخلّصي من ملابسك وإنتظريني بالفراش ـ أشار برأسه ففغرت فمها كالبلهاء، وأوشكت سخونة إحمرارها على تبخير ملامحها، ظل لبرهة يطالعها بجمودٍ حتى لانت ملامحه بغتة مطلقًا ضحكة متسلية ـ لم أستطع المقاومة، والآن.. يا مدعية المهنية، لا تتفوهي بأمورٍ لستِ نِدًّا لها. لكن أخبريني.. هل كان سيختلف الأمر إن كنت أعزبَ؟

سارعت مجيبة بغيظ: لم أكن لأقبل العرض. أحتاج لشخصٍ يملك حياة بعيدًا عنّي، تجنُبًا لفخ العاطفة.

ضيَّق عينيه: أتظنين أن هناك احتمالية لوقوعي بهواكِ لو كنت أعزب؟ ـ أصابها الخرس فاستدرك بتهكم ـ مستحيل، اسأليني لماذا؟ ـ أردف برزانة ـ هيًّا اسأليني ـ سألته مضيقة عينيها بدورها فقال ـ لأنها نفس احتمالية دوران مذنب هيل بوب حول الشمس في سنة ـ سألته بحنق عما يعني فمطَّ شفتيه بثقة ـ هيل بوب يستغرق 2400 عام ليكمل دورة واحدة حول الشمس!

قطبت فاغرة فمها ببلاهة لبرهة، ثم استدركت: ممتاز! ـ أردفت بريبة ـ لِمَ أصبحت فجأة أكثر لطفًا؟ لم تعد السيد النزق كالسابق!

أطرق زافرًا بسخرية ثم رفع رأسه: اكتشفت مؤخرًا أن الحياة ليست أبيض وأسود فقط، هناك ملايين الدرجات اللونية بينهما، كما أن الهدف من وجودنا معًا الليلة من الصعب أن يتم بنزق الطباع! لن يكون ممتعًا ـ أرخت أنظارها بوجل فنزع السماعة عن أذنها ـ حسنًا بما أن الأمور اصبحت جلية..

نزع فتيل الأمان، جرَّدها من قوقعتها! وأشار برأسه: "هيًّا لنبدأ عملنا، المهني الـ...بحت". تشدق بالكلمتين الأخريين بتهكم مطلِقًا أحصنة

الرهبة بشرايينها. فسمعا طرقًا على الباب؛ أتى أحد النُدُل بطاولة معدنية مليئة بأطباق الحلويات وسلة من الفاكهة، مع زجاجة شمبانيا غارقة بالثلج هدية من الفندق. تنفَّسَت عدة مرات بعمق مستجمعة شجاعتها لرسم ابتسامة واسعة، هي بحاجته، تجنبت الكثير من البشاعات بعثورها عليه، لا بل بعثوره عليها! وعليها أن تفعل أي شيء لأجل نوار، كل شيء يهون عداها. هَمَّ بإزاحة الستار فأمسكت بيده: ألا ترغبين برؤية إطلالة الجناح؟! تبدو رائعة ليلًا ـ هزت رأسها بتصميم معلنة عدم اهتمامها ـ لكنني مهتم وأريد رؤيته.

أسرعت مولية ظهرها إليه: أرجوك، لن أستطيع البقاء بالغرفة ـ احتضنت نفسها هامسة ـ تشعرني الارتفاعات بعدم الأمان.

حدجها بنظرة مطولة في صمتٍ، كانت شعيرات ذراعيها مقشعرة ونبض عنقها ينتفض بشدة، لانت ملامحه قليلًا معيدًا الستار لموضعه، واقترب ممسكاً بذراعيها: "أغلقته" جفلت للمسته وقفزت مبتعدة فأمال رأسه مضيقًا عينيه، اقترب ببطء طابعا قُبلة صغيرة بآلية قرب نبضها المنتفض هامسًا بفتور: "عطر حلو أوشك رأسها على الانفجار، يا إلهي! ماذا ستفعل وقُبلة صغيرة دمرت أعصابها، إنه غريب عنها بحق الله! ذهب لتبديل ملابسه! لا تذكر أنه أتى بحقيبة ملابس، فكان من السهل تخيُّل ما سيحدث لاحقًا! رفعت أطراف أناملها مزيلة أثر قُبلته، منتحبة كالأطفال، هذا عسير جدًّا! ذهبت للحمَّام وفتحت الحقيبة، لا أثر لملابس نوم مناسبة! كلها أثواب فاضحة انتقتها ماهينار بعناية شديدة، بعثرت الأشياء بهستيرية على الأرض وقد احتقن وجهها وتعرقت يداها.. أيتها الظالمة المفترية، ماذا أفعل بتلك الكوارث؟! حانت منها التفاتة لكومة ملابس ألقتها بركن الغرفة حين عثرت على ضالتها! كان جالسًا أسفل الأغطية عاري الصدر يعبث بأزرار تحكم التكييف، ألقى عليها نظرة لامبالية: لا أظننا بحاجـ.. ـ عاود النظر ببلاهة ـ هل أقف دقيقة حداد؟ ـ استطرد هازئًا ـ كم أنتِ أنيقة!

مسدت عباءتها الحريرة السوداء: سعيدة أنها ـ ازدردت ريقها ـ أنها.. أعجبتك.

حدق بالإيشارب الأسود الذي لفته حول رقبتها: مَن المغفور له؟

تلعثمت: لم أستطع العثور على غيرها، نسيت الحقيبة الأخرى ـ زين طرفي عينيه شبح ابتسامة واصطكت أسنانها مشيرة نحو الباب ـ هل أغلقته بالمفتاح؟ أحتاج للشعور بالأمان.

طالعها بتقطيبة عميقة فسارعت بابتسامة كبيرة أضاءت غمازتيها، مثبتة ملامحها كتمثال الشمع، حولت أنظارها بينه وبين الفراش متحاشية النظر لصدره العاري، وحدها معه! أمكنها أن تكون ليلة عُرس حقيقي فقط لو قبلت عرض راغب! انتزعتها فرقعة إصبعيه لتجفل بارتباك، وتسير كالمومياء نحو الفراش، حتى توقفت إلى جانبه فأمرها بالجلوس، تذكرت حيلة الدخان قرب ثقوب الإنذار لتنطلق رشاشات الماء ومعها صفارات الحريق! رفعت رأسها مجيلة أنظارها بالسقف دون أن تفارق الابتسامة شفتيها، فرفع رأسه باحثًا عمَّا يجذب أنظارها: "يكفي ابتسام!". اتكأ بمرفقه على الوسادة يتأملها بحيرة أخفاها خلف جموده، طال الصمت بينهما فأجلت حلقها: لا أصدِّق أننا تزوجنا!

ارتفع جانب فمه: أمر أعجب من أن يصدق ـ أزاح الإيشارب ـ أنا بغِنى عن المزيد من القتامة! أتريدين سببًا آخر لزواجي بكِ؟ تسرقين أفكاري في غفلة مني وتدسين غيرها، وغيرها.. أكثر راحة وتسلية، وأنا بأمسّ الحاجة لكليهما.

ـ إذن أنا دمية!

أومأ بصمت ورفع سبابته ملامسًا غمازتها: لن أقبل بثمرة لعلاقتنا مهما حدث، لستِ المرأة المناسبة لي ولا أنا الرجل الذي تريدينه بحياتك للأبد ـ أومأت موافقة ـ بالنسبة لليلة سأتخذ احتياطاتي، ومن الغد سأحرص على توفير وسيلة مناسبة لك.

اجتاحها شعور رهيب بالمهانة: "كما تشاء!" انحنى يهم بتقبيلها: "والآن يا دميتي ذات الغمازتين، ليصمت كلانا لبعض الوقت" عادت للوراء باحثة عن زِر الضوء وأغرقت الغرفة في الظلام، صاح معترضا معاودًا إنارة الغرفة، فتمتمت بتوسل معيدة إظلامها، تجاهل توسُّلها معيدًا الضوء واكتفى بمصباح فأسرعت بإطفائه؛ يضعون عصابة فوق عيني الذبيحة لئلا ترى جلّادها، فلماذا يبخل عليها بلحظاتها الأخيرة؟! صاح بعصبية: يكفي يا قِسمت! حصلتِ على ما أردتِه، فما الداعي للتصنع والمراوغة؟

توسلت بخفوت: أرجوك، فقط هذه المرة.

ساد الصمت ثانية للحظات، حرصت خلالها على الانسلال أسفل الأغطية معلنة استسلامها الأخير، حين شعرت بأول لمسة ليديه بالظلام! فصلت نفسها عن واقعها مستدعية إحدى الأغنيات التي تعشقها، مسترجعة ذكرى ليلة قسَمت روحها بصحبة راغب بين هذا وذاك! رغمًا عنها كانت تنتزعها لمسة أو دفء نفس من أنفاسه بين حين وآخر، فتسارع هاربة بأحاسيسها بعيدًا، مغمضة عينيها بقوة دون أن تعترض طريق يديه! حين لامست شفتاه نبض عنقها قطبَ بقلقٍ معاودًا ملامسته! رفع أصابعه للتأكد فهتف ذاهلًا: ماذا تفعلين بحق الله؟! بالكاد أشعر نبضك!

ظلت بلا حراك فعاود نداءها، ظنَّ أن البرودة وضعف الاستجابة طبيعتها واعتيادها.. ليلتهما الأولى معًا، رغم أنها امرأة مجربة وتعي المفروض حدوثه! لكن وإن كان لديها القدرة على التحكم بانفعالاتها فماذا بشأن النبض؟! هتف بحنق: اللعنة على الظلام! ـ أشعل الضوء محدقًا بوجهها الشاحب ـ أسما، توقفي عن حبس أنفاسك، لا أريد جثة بسريري ـ التزمت صمتها العنيد فصرخ بعنفٍ ـ قلت تنفسي، نبضك ضعيف.

هتفت بهستيرية: "لا أستطيع" هزت رأسها بعنف حين عاود هزَّها آمرًا إياها بالتنفس، وشهقت بقوة متيحة للهواء الوصول لرئتيها المسكينتين: لا أستطيع، لا أستطيع، لا أريد النقود، لا أريدها، لا أستطيع.

رنَّ هاتفها معلنا وصول رسالة جديدة فالتفت محدجة إياه بألم، وأخفت وجهها بين يديها كاتمة نشيجها. سألها مقطبًا بحيرة: لماذا تعذبين نفسك بهذا الشكل الغريب؟! أوليست حياتك التي اعتدتها؟! الأمر ليس بالجديد! أم أنه.. أنا؟ هل أثقلت عليك؟!

رفعت رأسها مزيلة أثر الدموع: أبدًا، أنا فقط.. أشعر بالضغط، أمور كثيرة تشغلني ـ ألقت نظرة على هاتفها ثم التفتت بلهفة ـ آسفة، أعدك أن أكون أفضل.

كانت تجاهد للسيطرة على انتفاضها مما جعله يجذب رداء الحمَّام ويسير نحو النافذة، همَّ برفع الستار ثم عدل عن الأمر مكتفيًا باختلاس النظر فقالت: "لقد أعدتَ زجاجة الشمبانيا!" كان سؤالًا أكثر منه تصريح فارتفع جانب فمه: "إن شئتِ طلبتها، أنا لا أعاقر الخمر انسلت أسفل الأغطية مغمضة: "لا داعي، أنا لا أشرب" حدجها بدهشة؛ لِم سألَتْ إذن؟! غرقت بسباتٍ عميق فمسَّد جبهته بإعياء. لحظة طيش مجنون جعلته يقرر ربط مصيريهما لبعض الوقت! امرأة سيئة السمعة تبكي ليلتها الأولى معه وتكتم أنفاسها مع أول لمسة! أهي عبقرية في التمثيل أم أنها تائهة تبحث مثله عن طريق؟! أعياه التفكير من طرف واحد، فقرر الاقتداء بها، تخلى عن رداء حمَّامه وانسل أسفل الأغطية، استسلم لنومٍ عميق داعبت أحلامه امرأة لم يحمل وجهها من ملامح سوى غمازتين وجدولين من الدموع!

* * *

فتح عينيه بغتة حين خنقته الحرارة، فوجئ عند مواجهتها بالفراش فارغًا، لم تكن الغرفة باردة كما يجب رغم جميع الأبواب المغلقة! هبَّت نسمة هواء دافئة داعبت الستار؛ باب الشرفة مفتوح! سار مزيحًا الستار ليلقي نظرة وهاله ما رأى! كانت واقفة فوق طاولة الشرفة الملاصقة للسور، تحدق ساهمة صوب نقطة بعيدة بعينين ضيقتين، تبدو على ملامحها السكينة. اتسعت عينيه ذهولًا، أتسعى للانتحار تلك المجنونة؟ حركة صغيرة وستلقى

حتفها! لم تنجح بتحويل نفسها لجثة بالفراش فقررت تجربة طريقة أخرى!

ـ هل جننت يا قسمت؟! ـ اقترب بحذرٍ ـ ألا تخشين السقوط؟ ـ لم تلتفت إليه ـ وأين كل ذلك الهراء بشأن الأماكن المرتفعة؟! تخدعينني إذن! ـ تجاهلته وجعلت تحدق أمامها بلامبالاة ـ إن ظننتِ الأمر مضحكًا فهو سخافة، انزلي حالًا ـ ورغم نبرته الآمرة لم تهتم، فكانت تقطيبته تزداد عمقًا مع كل خطوة ـ أسما! ـ تابع بريبة ـ إن أردتِ الانتحار فضلًا لا تحاولي بشرفة جناحي ـ أمسك ذراعها بحرص وصاح ـ تحدثي إليَّ!

تتسعت عيناها لتسأله بحيرة: "ما الأمـ..."، لجزء من الثانية رمقها ببلاهة، وسرعان ما أدرك الحقيقة؛ تسير وهي نائمة! ندت عنها شهقة فزعة حين وقعت أنظارها على إطلالة الشرفة من الطابق الخامس، أعقبتها بصرخة مبحوحة ليختل توازنها وتوشك على السقوط، لولا ذراعاه اللتان أطبقتا على خصرِها. جعلت ترفس بقدميها ويديها بهستيرية، والعرق ينضح من جبينها هاتفة بأرباع جمل غير مفهومة: لا اتركني.. أنا.. لا أريد.. سأقع.. خائفة.. لا

ـ اهدئي يا أسما، لن أفلتك، هيًّا تنفسي ودسي وجهك بعنقي، لا تنظري للأسفل.

كان صراعًا بين جنونها وقوته، ولولا إحكام يديه حولها لسقطت مع علوِّ الطاولة وخروج نصف جسدها عن السور. كان صوته يعلو شيئًا فشيئا لإجبارها على الاستماع حتى بات صراخًا، سيتسبب بفضيحة! أفضل من جثة طائرة! كانت تبكي منتفضة كعصفورٍ صغيرٍ بيوم مرعدٍ، وجهها القاني يبخِّر الدمعات المنفلتة بسرعة الضوء، تدفعه انفعالاتها دفعًا للمزيد من محاولات احتضانها العبثية، جرَّها بصعوبة بالغة ونجح أخيرًا بالإلقاء بكليهما فوق الفراش منهكين. كان شعرها ملتصقًا بجبينها ورقبتها ماتزال تحمل رائحة الكرز البري التي انسابت بدفءٍ صوب أنفه. سادت برهة من الصمت استعاد كلاهما خلالها بعضًا من أنفاسهما الهاربة، فسألها مبعدًا خصلة التصقت

بجبينها "أتقومين بهذا الأمر كثيرًا؟"، لم تشأ هذا القرب، لم تسعَ إليه، لكن رهبة الفزع وتسارع دقات قلبها أفقداها القدرة على الاحتجاج، قفز أمام عينيها منظر الشرفة المرعب والظلام اللامنتهي فتكورت تدس رأسها بصدره، كان مرفأ آمنًا رغم تبعات الموقف المهين، جعلت تحرك نفسها يمنة ويسرى بين ذراعيه، فجعل يهدهدها، لمح سماعتها فمدَّ يده حريصا ألا يبتعد عنها ووضعها بأذنها لينساب صوت روزا حاملًا أُلفة استكانت لها. "أهكذا أفضل؟" سؤاله الذي حمل نبرة التفهم لأول مرة منذ التقيا كان مزيدًا من الطمأنينة، وخلال دقائق غطت بنوم عميقٍ، فعدل وضع رأسها فوق الوسادة محكمًا الغطاء، وانسل إلى جانبها بإعياء، مدركًا لِم حذرته من نفسها! مشكلة كبيرة! ترى لأي مدى وصل بها المرض؟! سمعها تغمغم بخفوت: أغلق الباب يا راغــ.. راغب أنا خائفة! لا تتركني.

أجفلته حركة فوق الفراش، الشمس لم تشرق بعد! وجدها تسير صوب الأريكة لتصعد واقفة فوقها، فغر فمه ببلاهة حين رآها تعاود الهبوط لتنحني جالسة على الأرض أسفلها، متكئة برأسها فوقها معاودة النوم، تسير ثانية وهي نائمة! ربت فوق كتفها ففتحت عينيها وسألته: "ما الأمر؟" تنهَّد: "لا شيء، انهضي أعادها للفراش مدركًا أنها لن تذكر الكثير من التفاصيل بالغد، وسيكون من الصعب إقناعها بما حدث.

يالها من ليلة! انفلتت الجملة من بين شفتيه بإحباطٍ شديدٍ بعد جذبه إياها للمرة السابعة كي يعيدها للفراش، هل بدأ يكفِّر عن سيئاته الماضية كما وعدته أن يفعل؟! لم يبقَ لديه سوى حلٍّ وحيدٍ، جذبها بين ذراعيه واحتضنها بإحكام.

تسللت الشمس أخيرًا من خلف الستار فتمتم ممتنًا: "أحمدك يارب" أطول ليلة بحياته وهو الطبيب الذي اعتاد الليالي الصعبة! نهض مقطبًا بانزعاج، يذكر رؤيتها بالأمس تسير صوب الباب الذي حرص على إغلاقه، ظنها أضغاث أحلام لكنها الآن نائمة على الأرض أمامه متوسدة كفها! يبدو

أن استيقاظه عشرات المرات أعياه وأفقده القدرة على التمييز بين الواقع والخيال. كان كمن رُزِق لتوه بطفل حديث الولادة! عدا أن الطفلة النائمة أمام عتبته لديها خفة قِطة وماكينة مائتي حصان تعمل بلا توقف! قام بضبط هاتفه ليصدر صوتًا تنبيهيًا مبتسمًا بمكرٍ، وأولاها ظهره متصنعًا النوم، تعالى صوت الهاتف فسمع شهقة مكتومة، شعر بعدها بثقل الفراش إلى جانبه! حرِصت على صنع مسافة بينهما، توشك أنفاسها على التوقف، عاجزة عن تذكُّر أي شيء عدا أطياف أفق مظلم، يا إلهي! سيتخلص منها وهي لم تحصل على النقود بعد! تمتمت بدعاء صامت، حين نهض بتثاقل سارعت ملتفتة إليه: "صباح الخير ارتفع جانب فِمه: "صباح الخير، هل نمتِ جيدًا؟" فتحت فمها وأغلقته مضيقة عينيها ترقُّبًا لكنه التزم الصمت.

نمتُ كالأطفال ـ رفع حاجبيه بتسلية فنهضت بدورها متكئة على مرفقيها ـ لِم أنت مندهش؟ هل هناك ما يمنعني؟ ـ هزَّ رأسه نفيًا فازدردت ريقها ـ أعتذر عمَّا بدرَ منِّي، أعدك أن تكون الأمور مختلفة الليلة.

تلاعبت ابتسامة صغيرة بطرفي عينيه جعلتها تسأل نفسها: كيف يفعلها؟! قال: ولِم الانتظار لليل؟

فغرت فمها ببلاهة: أجل.. حسنًا، بالطبع..أعني، بإمكاننا أن..

قاطعها بتهكم: اهدئي يا... مهنية بحتة، لدي عمل هام.

أصبحتْ لغزًا فكاهيًا! بعيدًا عما تعانيه من عُقدٍ غريبة، هي جاذبة كالثقوب السوداء نحو التيه، ولحسن الحظ استقرار حياته الآن والتيه سيان! قال متعمدًا إضفاء نبرة تهكم ماكر على تصريحه: كنت أتمنى الإفطار بالشرفة

لكنك ترهبين المرتفعات، تشعرك... بعدم الأمان!

تجمدت بوقفتها تداهمها ذكرى مخيفة لوقوفها على طاولة أمام مرتفع مظلم. أزاح الستائر لتضيء الغرفة بشمس الصباح، حريصًا على جعلها تجلس مولية ظهرها لزجاج النافذة: يديك ترتعشان، أمازلت قلقة من الإطلالة؟ انسي الأمر.

رسمت ابتسامة واسعة وضعت بها كل سحرها، فأرخى عينيه بلامبالاة قاضمًا قطعة خبز بالمربى وارتشف من كأس الحليب الذي تصاعدت منه رائحة فانيلا ناعمة، سألته بدهشة: تشرب الحليب بالفانيلا!

ـ أعشق كل شيء مغموس بها ـ استدرك باهتمام ـ سأذهب لتفقد بعض الأمور وإحضار ملابس من الفـ... من المنزل.

ـ سيكون عليَّ الذهاب أيضًا لمنزلي كي أطمئن شقيقتي وعمتي صفية ـ عرَض عليها إيصالها فرفضت ـ أفضِّل الذهاب وحدي ـ أطرقت بصمتٍ لبعض الوقت ثم رفعت رأسها ـ هناك شيء يحيرني ـ حثها بإشارة من رأسه ـ أخبرت موظف الاستقبال أني زوجتك! ألم نتفق على السرية؟

رفع كتفه باستخفاف: لا يهم ـ قطبت ورددتها بتسلية فابتسمت عيناه ـ ألا يحق لأحد قول (لا يهم) سواكِ؟ أنا حر فيما أفعل ـ همَّت بالاعتراض فعاجلها ـ منذ متى تعانين السومانو؟

توقفت الشوكة بين فمها والطبق: عفوًا! ـ أعاد الكلمة بإصرار فألقت الشوكة ـ ما هذا الهراء، أنا لا أعاني somnambulism!

تبادلا النظرات وملامحه المسترخية الواثقة تحطم أي أمل بالفرار من الإجابة، فابتعدت عن الطاولة نحو الفراش: "كيف علمتَ؟" نهَض بتكاسُل وجذب الستار المزركش مخفيًا الإطلالة: أنقذتك بالأمس من السقوط حين وقفتِ فوق الطاولة بالشرفة، ناهيك عن محاولاتي مرارًا إثنائك عن النهوض وافتراش الأرض للنوم!

ألقت بنفسها فوق الفراش بإحباط: ظننته رحل بلا عودة! ـ تشاغل بوضع السكر بفنجانه فتابعت بشرود ـ لم يعاودني منذ مدة طويلة ـ أطرقت بخجل ـ أعانيه دومًا حين أرزح تحت ضغط نفسي.

ـ هل تصرفاتي معك كانت اكثر مما تحتمله أعصابك يا أسما؟ ـ تنهد بحيرة ـ أخبريني ما الجديد عليِّ أدرك السبب! ما الذي فعلته لم يفعله غيري قبلًا؟!

أتى سؤاله هادئًا متعقّلًا لكنه ظل في النهاية صفعة جديدة! قالت: أخبرني الطبيب أنَّ عِلم النفس بئرٌ عميقٌ بلا قرار، وأنَّ أحدًا لم يستطع التوصل لحقيقة هذا المرض، هل ستطلّقني لأني..

ارتفع جانب فمه: وهل تزوجتكِ بَعد لأفكر بالطلاق؟ ـ عاودت الإطراق بخجلٍ فتابع ـ منذ متى تعانينه؟!

حارت من أين تبدأ الإجابة، وهي المرة الأولى التي ستتحدث بها عن الأمر: منذ طفولتي، قال الطبيب إنه نوع من المتنفس ـ أضافت بتهكم ـ كالمخدرات! أقوم خلاله بما كبتُّه وأحجمت نفسي عن القيام به رغم رغبتي الشديدة، بحثٌ عن الوهم، عدا أن الوهم بحياتي هو الحقيقة! لذا طلبت منك إغلاق الباب خشية افتعال فضيحة ـ تابعت بشرود ـ كانوا يعثرون عليَّ بعد وفاة جدتي كل صباح بسريرها والوسادة غارقة بدموعي، بكيتها فقط أثناء نومي مستيقظة، بصحبة السومانو ـ زفرت بسخرية ـ وكثيرًا ما ضبطوني واقفة أمام سور شرفتنا ليلًا وقد غلبني النعاس! طلب الطبيب من والدتي تشجيعي على إخراج مكنونات مشاعري، ولم أنجح، وإلا ما عثرت عليَّ فوق الطاولة! هي المرة الأولى التي أتحدث فيها عن السومانو! ـ التفتت إليه بحيرة ـ لماذا أنت؟!

ـ ربما لأني الوحيد الذي لم تسقطه صاعقة ابتسامتك صريعًا يا أسما، احتفظت بعقلي واعيًا للحظة الأخيرة!

اتسعت ابتسامتها لتبرق أمام عينيه آسرة أنظاره، فمدَّ أنامله ملامسا غمازتيها بإبهامه: يالها من ابتسامة! ترى كم قلبًا حَطَمَتْ؟

ـ وهل أملك ابتسامة مُحَطِّمة؟

وضع يديه بجيبي سرواله: أتسعين لمجاملة؟ ـ صمتت فاستطرد بريبة ـ أتعانينه حقًا أم أنك تراوغين؟

ـ المفترض ألا أنفرك لأحصل على بقية نقودي!

جذب ذقنها مجبرًا إياها على النظر إليه وانحنى مقتربًا منها، همَّت بنزع

ذقنها لكنها عدلت عن الأمر، طبعَ قُبلة صغيرة فوق شفتيها كانت بلا معنىٰ: تثيرين أفكاري وهو ما أحتاجه حاليًا ـ همّ بالذهاب إلا أنه عاد مشرفًا عليها ـ بالمناسبة، سيتعين علينا البحث عن مكانٍ خاصٍ بعيدًا عن الفنادق.

وضعت قطعة السكر بالشاي وجعلت تقلبهما متابعة الدوائر التي صنعتها الملعقة بصمتٍ ثم قالت: ليكن مكانًا بعيدًا قدر الإمكان عن كل شيء، لا أريد لأحد أن يراني أو أرىٰ أحدًا، أريد العزلة عن العالم بأكمله حين نكون معًا.

قال ساخرًا: لم أرَ عروضًا لشقق بالمريخ.

رفعت رأسها ببرودٍ: إذن ابحث عن واحدة.

غادر وتركها لوحدتها المضطربة وروحها المقسَّمة بين ألف أمرٍ وأمرٍ، ارتدت ملابسها وأخذت البطاقة الإلكترونية من فوق المنضدة، فوجدت الشيك مذيلة بإمضائه وبالمبلغ المتفق عليه وبضعة وريقات من النقود ذات المائة جنيه؛ دفع ثمن ما لم يحصل عليه!

* * *

قال همَّام بصوتٍ خافت: حرصتُ طوال الفترة السابقة علىٰ علاج الالتهاب الذي أصاب جدار الكلية وجدار المثانة.

ـ استنفذت وقتًا طويلا يا همَّام!

ـ كنت لأنهي العلاج في وقتٍ أقل لولا تأخير الأدوية نزولًا عن رغبة سعادتك.

ابتسم علَّام: لولا تعليماتي لما امتلكنا مبررا لإطالة بقائهم والتعلل بالمضاعفات ـ ارتفع جانب فمه ـ ألا تخشىٰ ألا تحتمل الكلية العبء لفترة طويلة؟

ـ يعلمون بالفعل أن لديها كلية مريضة. وثمة أمل ولو ضعيف أن تستطيع الاستمرار مع الحرص الكافي والعلاج، وبأسوأ الظروف ستحتاج لغسيل

كلى فيما بعد، يمكنها الانتظار، بعكس صاحب الـ order وابنته، أم أني مخطئ!

انفرجت شفتا علَّام بابتسامة واسعة: وإن احتاجت لكلية جديدة نحن بالخدمة.

دلف همَّام للغرفة بصحبة طبيب بدا أكبر منه سِنًا ومكانة، نظرات عينيه سلطوية! ردت قِسمت بلطف التحية وسألته: ثمة مشكلة؟ سددت الدفعة المتفق عليها مع رئيس المشفى!

لوح همَّام: لا مشكلة أبدًا، جئت أزف إليكم بشرى، وافق أستاذنا علَّام مسعود على مباشرة العلاج بنفسه، إنه المشرف على رسالة الدكتوراه خاصتي وسيساعدني ببحثي بأمراض الكلى.

سألت صفيه بقلق: أي كلى يا بني؟ نوار تعاني بعض الالتهابات الحادة، هذا ما أخبرنا به دكتور هشام.

ابتسم علَّام ببرودٍ: مجرد استنتاج من هشام وعلاجاته مؤقتة، هاك الأشعة والتحاليل ـ أشار لهمَّام فأخرج الأخير من مظروف ورقة قاتمة وناولها لعلَام ـ انظروا ـ أشار صوب بقعة داكنة بتخطيط الأشعة ـ هناك انسداد بالحالب الأيمن جراء الالتهاب ونحتاج للقيام بعملية للتخلص منه.

هتفت قِسمت برعب: عملية! لكنه حالب الكلية السليمة.

قال همَّام بلطف: لذا نريد الحفاظ عليها لأنها تقوم بالعبء الأكبر، لا داعي للقلق، العملية لن تتكلف الكثير، ربما عشرة آلاف أخرى.

سارع علَّام: وربما خمسة، لا مانع لدي من التنازل عن أجري! أرى مدى معاناتكم بالسداد ـ نهضت قِسمت محاولة الحديث فقاطعها بنفاذ صبر ـ لا وقت لدي للجدال يا آنسة، إن وافقتم على العملية أهلًا وسهلًا، وإن رفضتم فلتتحملوا العواقب، أمامنا ثلاثة أيام حتى الموعد المحدد، سنحرص خلالها على إعطائها المضادات الحيوية لإنهاء الالتهاب بدرجة كافية تسمح للمريضة بتحمُّل التخدير ـ مدَّ يده بصور الأشعة ـ اسألي طبيبًا آخر إن شئتِ!

سارع همَّام جاذبًا الأشعة من يدها: أمعقول يا أستاذنا! ومن ستحتاج لأخذ رأيه بعد سيادتك؟

أومأ علَّام ببرودٍ: سأكون بمكتبي - انحنى هامسًا بأذن همَّام - عمل جيد بالأشعة.

دلف زين إلى الغرفة أثناء مغادرتهما: "لِم وجهاكما مصفرَّان؟!" قصَّت عليه قِسمت ما قاله الطبيب، مبدية قلقًا شديدًا لما آلت إليه الأمور على غير توقُّع؛ فأطرق مفكرًا لبرهة: سمعت عن انسداد الحالب، مشكلة ليست بالهينة! كما أن نوار تملك كلية ضعيفة.

قالت صفية: إذن لا مفر من العملية يا ابنتي.

غمغمت بشرودٍ: لا أدري يا عمة، انقبض قلبي!

قالت نوار التي تابعت ما يدور بصمتٍ: ألا يسمحون لي بالخروج ساعتين لرؤية أمي قبل العملية؟ - نادتها بإلحاح - أسما.

انتبهت من شرودها: ربما، لا أظنهم سيمانعون - استدركت - عليَّ الذهاب - استنكرت صفية سرعة مغادرتها فأعلنت - العمل لا يرحم!

- سألتُ عنكِ مرارًا بالأمس، واستيقظتُ مرتين لتتأكد من وجودك!

ربتت قِسمت على كتف صفية: كان العمل ثقيلًا ولم أستطع المجيء، أحضرت النقود.

تناهى لسمعها صوت شقيقتها الواهن: أسما، أنتِ هنا! - اقتربت منها بلهفة وجلست إلى جانبها تلف ذراعها حول رأسها فابتسمت - هكذا أفضل، رائحة أمي بالشال، وأنتِ إلى جانبي. قدماي أشعرهما متورمتين قليلًا، تقول العمة إنهم حريصين على إعطائي مسكنات قوية؛ كنت أكثر نشاطا قبلها!

ربتت فوق وجنتها بحنانٍ: لا بأس يا حبيبتي، من الطبيعي أن تكوني متعبة بعد العملية، أيام وستشعرين بالراحة - أطرقت بحزنٍ - سامحيني، ضغط العمل رهيب.

قالت باسمة: أعلم أني عبء ثقيل عليك، أنتِ من أرجوك أن تسامحيني.

مسحت قِسمت على جبهتها بحنانٍ مزيحة غرتها بعيدًا عن عينيها. لا أحد يعلم ما يدور بحياتها، تعيش بشخصيتين بعالمين مختلفين لا رابط بينهما عدا نوار! لا يعلمون أنها تسكن بالمقطم منذ ثلاثة أيام، حين فاجأها الطبيب بالعثور على مكانٍ منعزل كما طلبت! منذئذ وهي مشغولة معه بنقل وشراء المستلزمات التي يحتاجانها للمعيشة. قالت بمزحٍ: لم أرتدِ الشال ولا مرة للآن، سأستعيره بعد شفائك.

- أتظنينني سأشفى؟

- ما هذا الهراء؟! بالطبع ستشفين وعمَّا قريب!

همست بضعف: قرِّبي الشال مني - أطاعتها محكمة لفه حول رقبتها - سامحتني يا أسما؟

طبعت قُبلة فوق جبهتها: سأسامحك إن تماسكتِ وكنتِ قوية، أحتاجك بجانبي.

- أشعر أحيانًا أني ألتقط آخر أنفاسي بالحياة، وحين أتنفس عبير الشال أشعر بأحضان أمي، فيسري الإصرار بعروقي كي أقاوم، اشتقت إليها!

اختنقت الكلمات بحنجرتها: ليتني أستطيع القيام بأي شيء لإحضارها!

ربتت نوار فوق كفها: سامحيني لضعفي، ضعفي أمام الكثير من الأشياء.

توقفي عن التفوه بالحماقات يا نوار، كان التوقيت خاطئًا، لكن لم تقترفا جُرمًا، أنا بحاجة إليك، لا تنسي هذا أبدًا.

استسلمت نوار للنوم الذي كان متربصًا أسفل وسادتها بانتظار لحظة ضعف جديدة ليسرقها بعيدًا. طالعت قِسمت سجادة الصلاة الموضوعة بعناية تجاه القِبلة، والتي استأنست قبل قليل بخشوع جبهة العمة. نهضت نحو الحمَّام ومنحت نفسها دشًا سريعًا حرصت فيه للمرة الثانية على التخلص من كل آثار الليلة المشينة؛ عانى الطبيب بالأمس مزاجًا شيطانيًا على غير عادته، مما أفقده الصبر وجعله يتخلى عن تفهمه! انقبضت معدتها

لذكرىٰ ليلة أعادت بها سيناريو ليلتهما الأولىٰ بكل تفاصيله، منهية إياه بالـ Master Sceen حين اجتاحتها هيستيريا اللا أستطيع! والنحيب والبكاء كأفلام الدراما السخيفة! تحمد الله أنهما انتقلا بالفيلا؛ لديها الآن كل الحرية بالصياح كالدجاجة المذعورة! جعلت تمحو أسفل المياه بصماته فوق جسدها، تجول أصابعها بهستيرية فوق بشرتها، ودَّت لو توغلها أسفل جلدها فتغسل عن العروق والأوردة عار الذكرىٰ. إلىٰ متىٰ سيطول صبره عليها وكرمه بمنحها النقود بلا حساب أو مقابل؟! تناولت إسدال الصلاة الخاص بالعمة التي أصابتها دهشة مشفقة ألزمتها الصمت، ووقفت محنية الرأس لتبدأ صلاتها الثانية خلال سويعات قليلة، لم يكن المؤذن قد أذن لصلاة الظهر بعد، ولم تكن لتهتم، احتاجت للحديث معه، ألم يخبرنا أنه مقيم لدىٰ المريض ومن يعوده يلقاه؟! صلت ركعتين وبالتسليم رفعت رأسها للأعلىٰ مغمضة عينيها، حدقت أمسِ بسقف غرفتهما الخاوية بالفيلا، وهنا تلاشىٰ السقف والتقت بالسماء، تحلِّق عيناها برحابتها، لم تجرؤ علىٰ الاقتراب من غيماتها المتناثرة، لكن ضوءها القوي غسل روحها. يبقىٰ خيال! لكنه مريح ليعاونها علىٰ الحديث معه. توسَّلت مرارًا وتكرارًا دون كللٍ، ساعدها، ساعدها، سامحني وساعدها!

*

كيف حالك الآن يا عمرو؟

فتح عينه: بخير يا عمي، لا تلقِ بالاً ما يصيبني بالجنون رغبتي الشديدة بالسعال، يبدو أني سأصاب بالبرد!

أثنته لينا بلهفة: لا يا عمرو، قاوم أرجوك، تعلم أن طلقة الخرطوش قد تـــ...

ربت فوق يدها مطمئنًا: أعلم يا لولا، لن أسمح للشظية بالتحرك من مكانها أو التسبب بنزيف جديد ـ استطرد بإحباطٍ ـ أتعلمين ما أنا بحاجة إليه أكثر من السعال؟ شيء أتكيء عليه، أشعر بدوار ولا أستطيع رفع رأسي.

بحث خالد لبرهة: لا شيء يصلح للاتكاء هنا، ولن أستطيع السماح لك بالنوم على الأرض.

ألصقت ظهرها بظهره معيدة رأسها للوراء: "لنتكئ على بعضنا البعض" أطاعها عمرو ولفَّ ذراعه ليمسك بكفها فسألته بخفوت: "أهكذا أفضل؟"، ابتسم: "ألف مرة" أطرق خالد بحزنٍ وسار مبتعدًا عنهما. عادل يعمل بلا توقف كالمهووس؛ يخيط جرح هذا، ويخرج رصاصة من كتف الآخر، ويضمد جرح ذاك، رآه في إحدى المرات يعلق كيسًا من المحاليل لأحدهم رغم وجود ممرضة! محاولاته المستميتة للهروب من رؤية عمرو أدمت فؤاده، عاجز عن الابتعاد وعاجز عن الاقتراب! لا يجرؤ على تخيُّل نفسه بدلا منه. لولا الظروف لانفجر في البكاء والعويل كالنسوة، فما باله بوالده! لقد انكسر ظهر عادل للأبد وهو السبب! مرة أخرى يتسبب له بكارثة ولو بطريق غير مباشر! الأذى الذي لحق بعادل نتيجة قراراته الخاطئة منذ زمن بعيد جنَّبه إياها بتعرية صدره ليتلقاه بدلًا عن الجميع، لكن هذه المرة عجزَ عن صد الهجوم لأن مصدره ابنته! عمرو انتهى كطبيب في اللحظة التي اخترقت فيها تلك الطلقة عينه!

صرخ عادل بحنق احمرت له أوداجه: "أحتاج لخيط هنا" طالبت لينا قِسمت بإيصال بعض الخيط إليه حريصة ألا تؤثر حركتها على رأس عمرو، مشيرة نحو حقيبة جلدية: "ستجدين الكثير هنا" نهضت قِسمت مسرعة نحو عادل، فجذب الخيط بضيقٍ: "ابقي هنا لمساعدتي أعاد رأسه للوراء محرِّكًا إياها يمنى ويسرى لثوانٍ، ثم عاد بعدها لينهمك في عمله، تأوَّه الشاب حين جذب الإبرة من بين طيات الجرح، فتمتم عادل من بين أسنانه: أمكنك تجنب الألم ببقائك بمنزلك، أتيتم بالخراب!

ابتسم الشاب وتلاشت أمارات الألم عن ملامحه: الخراب هنا منذ زمن لكن أعينكم عاجزة عن رؤيته! نحن لا نأتي به بل نحاول تحجيمه.

قال عادل بحدة: بل تزيدون الخراب خرابًا، البلد يحترق والأمن تلاشى.

- النهر في بلدي يا دكتور توقف عن منحي الحياة، بات يمنحني المرض - تنهَّد بحزن - صارت حضارتي شاهدًا على عجزي وتخلُّفي، وباتت أرضي تلفظني كنفايات، جئتنا بالبحر أكثر من الأسماك الميتة! وتتهمني أنا بالخراب؟

قال عادل بمرارة: لا تأمل كثيرًا، أكثر منك مالًا وذكاءً فشَل أمام طغيانهم.

- وربما أنجح، هي فرصتي الأخيرة! لم أملك شيئًا من قبل في حياتي أفخر به كفخري بامتلاكي حريتي وامتلاكي الميدان - استدرك بثقة - وأكبر دليل على هزيمتهم أمام صراخنا الجِمال والخيول؛ وسيلة مفضوحة وخائبة - استطرد بحالمية - لكني أبدًا لن أتركها، تلك التي أحاول خطب ودها منذ زمن فيمنعونني عنها، أحايلها فلا ألقى سوى الصد والنكران!

سأله عادل: ألا تخشى الحجارة، الرصاصة التي شقت ذراعك، الموت؟!

- صلِّ على النبي يا دكتور، وهل ما نعيشه حياة؟!

هزَّ عادل رأسه بضيق: صبية تلعبون بالنار وستحرقوننا معكم!

همَّ الشاب بالحديث فسمع رنين هاتفه ينبعث من جيب قميصه المشقوق، هتف بغير تصديق: شبكة! - سارع مجيبًا بلهفة - أبي، كيف حالكم؟ أنا بخير، ماذا؟ بعت نفسي بوجبة ومائة دولار! ما هذا الهراء؟! أبي اسمعني، اهدأ، يكذبون صدقني، لا يمكن أن تقع بفخهم الساذج هذا، لا، لن أعود، مازال الطريق طويــ.. أرجوك لا داعي للصراخ، لن أنتظر كي تقتطع من راتبك الهزيل وتمد يدك إليَّ لتصرف على بيتي حين أقرر الزواج مثل أخي! لقد نفق راتبك يا أبي وكان بالكاد على قيد الحياة! - حدق للهاتف بذهول - أغلق الخط!

- ربما أنت مخدوع! ربما هناك من قبض ومن باع، ما الذي يؤكد أنك على يقين؟!

اتسعت ابتسامة الشاب بثقة: إن كان هناك من خان ومن باع ومن أخذ الوجبات، فأنا لم أخن ولن أبيع، أنا الأبقى، هذا ما أراه بأعين أصدقائي ممن

لم يخونوا ولن يبيعوا، صدقني يا سَيِّدي، نحن الأبقىٰ. وقد اكتفينا، تأخرت يقظتنا كثيرًا لكن لم يفت الوقت، تساءلتُ دومًا لم لا يُستجاب دعاء أمي؟ فاكتشفت أن العيب فينا وليس بأبواب السماء!

قال عادل بأسىٰ: عد لوالدك يا بني، لا تدري كيف حاله الآن، اتهامه وصراخه الغاضب عذرٌ ليطالبك بالعودة.

أرخىٰ الشاب عينيه لبرهة ثم رفع رأسه قائلًا بلطف: شكرًا علىٰ علاجي - همَّ بالمغادرة ثم عاود الالتفات - هل سأعثر عليك إن احتجتك؟ - مطَّ عادل شفتيه بصمت فتابع دون أن تفارق الابتسامة وجهه - سأبحث عنك علىٰ أي حال!

ظل عادل بعدها لدقائق صامتًا، يحدق بركن الخيمة المتداعية الأطراف، ثم أعلن عن رغبته باستنشاق بعض الهواء. لملمت أسما الأشياء التي تركها خلفه وسارت تجاه عدنان، ملقية نظرة علىٰ عمرو الذي بادلها النظرات وطلب بعض الماء، همَّت لينا بالحركة إلا أن قِسمت منعتها وناولته بعضًا منه: لم يعد هناك الكثير، كما أننا بحاجة لأدوات طبية، الأشياء تتناقص بسرعة رهيبة - سألتها لينا عن سيارة الإسعاف الخاصة بمستشفاهم - الطرقات مزدحمة ويصعب الوصول إلىٰ هنا بالسرعة المطلوبة، لا تقلقي.

- لولا خوفنا علىٰ إصابة عينه من الاهتزاز لأرسلناه مع إحدىٰ الدراجات البخارية التي تخرج من الميدان بالضحايا والمصابين - أردفت بقلقٍ - علينا بدء العلاج سريعًا.

لم تكن يومًا حقودة أو حملت في لحظة كراهية لأي مخلوق، لكنها تساءلت: هل سيقطعون عنه العلاج في مرحلة ما لأنه عاجز عن السداد؟! لا، لا تظنهم سيفعلون، هي مستشفاهم وعلاجهم وأطباؤهم، أما نوار، كان الأمر معها مختلفًا!

كان زين يصرخ بغضبٍ شديدٍ ذاهل العينين: انتظروا، إلى أين تأخذونها، نوار، نوار ـ صرخ بحقدٍ ـ لن تأخذوها، أتفهمون!

دلفت قِسمت للغرفة. الممرضات وهمَّام يقفون بملامح متجهمة قُرب فراش شقيقتها الخالي، لمحت الطاولة المتحركة التي وضع فوقها جسد مغطى بملاءة بيضاء يهمون بإخراجه، شهقت صفية فور رؤيتها: يا حبيبتي يا بنتي، خطفها الموت يا كبدي!

ابتسمت قِسمت رافعة حاجبيها بدهشة: ما الأمر؟ أين نوار؟

مطَّ همَّام شفتيه: تأخر العلاج لتأخُّركم بالسداد، أنتم السبب، العملية ناجحة لكن الالتهابات كانت شديدة.

صرخ زين: أنتم من قتلها يا سفاحين، نوار، استيقظي يا نوار، أفيقي.

همَّ بالارتماء فوقها فنادى همَّام بعض العاملين، أتوا مسرعين ليمسكوا بذراعيه: البقاء لله يا أستاذ، ادعُ لها، حرام ما تفعله.

صرخ بهستيرية مقاومًا أياديهم: اتركوني أيها السفاحين، ماذا فعلتم بها؟ اتركوني.

جرت الممرضات الطاولة للخارج وقِسمت تتابعهم بدهشة: من سيأخذونها؟! أين نوار؟

انتحبت صفية تهز رأسها بألمٍ: البقاء لله يا بنتي، عادت لخالقها، يا حبيبتي يا فريدة، كيف سنخبرها؟!

وأجهشت بالبكاء محدقة بوجه قِسمت الخالي من التعبير وعينيها الهائمتين بزوايا الغرفة بلا هدى. ذهبت الأخيرة صوب الحمَّام وفتحت بابها: نوار، أين أنتِ يا حبيبتي؟ هل أخذوها لقِسم الأشعة؟

نهضت صفية بتثاقُل واحتضنتها: اِقرئي لها الفاتحة يا حبيبتي، رحمها الله كانت ملاكًا، لا مكان للملائكة بيننا!

قفزت قِسمت مبتعدة: توقفي يا عَمَّة وإلا غضبت منكِ!

هتفت صفية بيأسٍ. إرادة الله.

تناهىٰ لسمعها صوت زين آتيًا من الشارع: "نوار، اخرجي يا نوار هرعت صوب النافذة فوجدت زين يقف بالحديقة قُرب نافذة مغلقة، قالت صفية بألم: "إنها المشرحة، سيفقد عقله حزنًا عليها" سألتها قِسمت بشرودٍ: "علىٰ مَنْ؟!" غطت صفية فمها بيدها، تنهمر دموعها بغزارة، حين عاود زين الصراخ: لا تحبسوا نوار، نوار تكره الظلام، تمقت القيود، لا تستسلمي يا نوار، اخرجي، حطمي جدرانهم الكالحة، لن تهزمك الجدران يا حبيبتي، أعرفك قوية ـ أتىٰ رجلان ضخما الجثة نحوه يهمان بالقبض عليه، فعاد للوراء خطوتين بنظرات غاضبة ـ أريد زوجتي، أعيدوها لي ـ تابع بصراخ ـ أتسمعينني يا نوار، أنا هنا، اخرجي إليَّ.

همَّوا بالهجوم عليه مثلما فعلوا بالأعلىٰ فأطلق ساقيه للريح وظلَّ يركض بلا توقف، تتابعه وصفية من نافذة الغرفة، ركَض بلا هوادة بين صفوف السيارات حتىٰ كادت تسحقه عجلاتها، تعثَّر ووقع عشرات المرات، ونهض بعدها مكملًا ركضه بلا توقف حتىٰ غاب عن الأنظار. جلست فوق الفراش واجمة، ومرَّ الوقت وهي جالسة تحدق بالجدار، لحظات وانهارت صفية في غيبوبة سكر أتت في أثنائها الممرضة لتبديل ملاءات الفراش، فأسرعت منادية أحد الأطباء الذي أسعفها ونقلها لغرفة أخرىٰ. تناهىٰ لسمعها صوت الممرضة: هكذا الدنيا؛ لا يبقىٰ من الغائبين سوىٰ رائحتهم علىٰ ملاءات تزيلها مساحيق الغسيل!

عاد همَّام حاملًا مجموعة من الأوراق: البقاء لله يا آنسة، قسمتها! ـ جاوبه الصمت فمدَّ يده بالأوراق ـ هنا كل التحاليل والأشعة الخاصة بالمرحومة وفواتير المشفىٰ؛ لن نستطيع إخراج الجثة من ثلاجة المشرحة سوىٰ بعد دفعها، سياسة المستشفيات! ـ رمقته بجمودٍ فأرخىٰ عينيه واضعًا الأوراق فوق ركبتيها ـ البقاء لله.

كان علَّام بانتظاره مترقبًا: هل أعطيتَها الأوراق وأخبرتها بالمبلغ المطلوب لاستخراج الجثة؟

ـ أجل، وكنت أفضِّل تسهيل المعاملات ليتم الأمر بهدوء.

هزَّ رأسه بضيق: غبي! يجب أن يسير كل شيء بشكل قانوني وطبيعي لئلا يُقَال أننا نخفض أصواتنا منعًا للثرثرة، لا أريد أن يتهاون المشفىٰ بتحصيل كافة المستحقات والمصاريف، نريد كل شيء صارمًا وقانونيًا، أوراقنا سليمة!

* *

ماتت نوار! الأموال الحرام تستخرج شهادات الوفاة! صدق الشيخ الذي هاجمته يومًا لجمود فتاويه! ألقت حقيبتها علىٰ الأرض وخلفتها بسلسلة مثقلة بالمفاتيح منحها عدنان إياها. ولولا النافذة البانورامية علىٰ الحديقة التي ألقت ببعض الضوء ما تمكنت من تلمس خطواتها. زاد الفراغ من وحشة المكان فبات كالقبر الواسع، الدرجات ممتدة بلا نهاية أمامها، الانسلاخ الأخير عن نفسها والتنحي الأخير عن الحياة! جذبت السماعة لتلقيها هي الأخرىٰ ثم اتكأت علىٰ سور الدرج خالعة حذائها الواحد تلو الآخر، محدقة ببصيص الضوء المنبعث من باب الغرفة شِبه المغلق؛ فريد يغني وعليه أن يصمت، علىٰ كل شيء أن يصمت؛ ماتت نوار! عليها الاستسلام لتمنحها الحرية، لن تحتمل بقاءها بثلاجة باردة! حلَّت شعرها المربوط وخلعت حزام الجينز ملقية بكليهما لتصعد أولىٰ خطواتها نحو مصيرها المحتوم؛ ماتت نوار!

دفعت الباب فقابلتها ابتسامته الساخرة: "عدتِ! ـ وضعَ كوب الحليب الفارغ علىٰ الأرض ـ ظننتك هربتِ" أغلقت الضوء، فطالعتها نظراته الحائرة: "تبدين مرهقة!" أكملت سيرها الصامت نحو ستار النافذة لتجرّه ببطء، مغرقة الغرفة بسوادٍ قاتم لولا صوته الذي أرشدها إليه، وقفت أمامه معتصرة قبضتيها كتمثال حجري، الخطوة الأولىٰ هي الأصعب! هكذا طمأنت نفسها المذعورة.

ـ تتصرفين بغرابة!

ألغت الخطوتين الفارقتين بينهما واقفة على أطراف اصابعها مقربة شفتيها من شفتيه: الاستسلام النهاية الطبيعية! ولا مزيد من الهروب.

لولا دفء أنفاسها الذي لفح وجهه لظن أنه يهلوس، قِسمت تأتي إليه بقدميها واعية! أجفلته قُبلة صغيرة لشفتيه بعجالة كمن يلقي لطفلٍ لعبة يتسلى بها!

ـ ألم تكن رغبتك؟! ها أنا أستسلم دون جنون أو صخب، أنا فقط ـ سألها بصوت أجش أي لعبة تلعب! فقالت بلهفة ـ أقسم أن أكون لك الليلة كما تشاء ـ أحاطت عنقه بذراعين مرتعشتين ـ ها أنا ذا بلا مراوغة.

دست وجهها بعنقه مغمضة عينيها فزفر بسخرية: نجحتِ بإشعال النار، لكن أطرافك المتجمدة فضحتك، إلام تسعين؟! ـ طبعت قُبلة أخرى فوق عنقه حملت ذعرًا جديدًا، أعقبتها بأخرى بدت مستميتة فسألها هازئًا ـ هل ثار بركانك الخامد فجأة وتفجرت عواطفك!

هو الاحتياج، أحتاجك كما تحتاج إليَّ، وكل على طريقته ـ همَّ بالحديث فوضعت إصبعًا فوق شفتيه ـ لم أعهدك ثرثارًا أيها الطبيب، اصمت أتوسل إليك، اصمت!

بدأت خطواتها الأولى لزلزلته وتشويشه، لا تريده واعيًا، يجب أن يكون لها بملء إرادته أو بدونها، فما تمنحه وبسخاء ثمن باهظ. لا يهم! نوار بحاجة للدفء. سألها من بين أسنانه، تكاد تغرقه ضبابية انفعالاته: ما الذي تحاولين إثباته؟! ـ زادت من جرأتها بحركة يائسة أخيرة ليصمت، لكنه تابع بغضب ـ ما تفعلينه خطر يا أسما، لن يكون لدي رغبة في التراجع أو قدرة على التفهم وقت ذعرك!

هتفت بيأسٍ: "لا يهم انحنى وحملها متمتمًا بغيظٍ شديدٍ. بل يهم، لكنكِ من سعى للأمر، فلا تلومي إلا نفسك!

تساءلت بمرارة الصمت: ماذا يعلم عن اللوم؟! ذاب ملح دموعها المنسابة خفية متحدًا بطعم قُبلاتهما. حائر ومتعجب ربما لكن وطأة مشاعره

واحتياجه كانت أشد من أن يوقفها! وبهدوءٍ وروية اختارت اللحظة الحاسمة: "أحتاج لخمسة وأربعين ألف جنيه" جمد لثانية ثم صاح بجذل من بين أنفاسه المتسارعة: "كنت أعلم، المقابل إذن!" سارعت هاتفة بتوسُّل: "لا تنسَ أنه مهري، فقط أريده دفعة واحدة، ولا تقلق، العقد مازال قائما، أتوسل إليك" دسَّ يده خلف رأسها المرتاح على الوسادة ممسكًا إياها بقسوة، مطالعا نظراتها المتضرعة أسفل ضوء القمر الباهت الذي غافلهما متسللًا من خلف الستار: "لماذا؟" هزت رأسها: "بلا أسئلة" واقتربت لتقبِّله بجرأة اذهلته، قُبلة يائسة مستميتة، ويعترف أنها نجحت باختيار اللحظة! لا يهتم الآن إن منحها المبلغ دفعة واحدة أو على أقساط، جلّ ما يهمه الحصول على الراحة من الآتون المستعر الذي أشعلته تلك المشعوذة! همَّ بالعودة إليها لولا سؤالها المتلهف: "ستعطيني النقود؟" إجابته المقتضبة حملت لها رياح الطمأنينة فاستسلمت؛ كل لفتة منها أذهلته بسذاجة المحاولة، كان يبتسم أحيانًا لحركة تقوم بها دهشة أو شهقة ذهول. وتلاشت أفكاره بعالمها الذي شرعت له أبوابه على مصراعيها! طال الوقت وشهقات نشيجها تعلو شيئًا فشيئًا!

هتفت بلهفة حين نهض مبتعدًا: ما الأمر؟ هل اخطأت في شيء؟

أولاها ظهره مقطبًا: لا أدري! ـ أطرق محدقًا بالأرض ـ تعانين معاناة شديدة، معاناة لا تنتهي!

لمست كتفه بتوسل: "لا يهم . ازدرد ريقه: أشفق عليكِ من تلك المعاناة يا أسما، تحتاجين للراحة!

هتفت بجزع: ولكن.. ولكنني لست مهتمة لمعاناتي!

التفت ودفعها بحزم: "اخلدي للنوم" جذبت غطاء الفراش حتى ذقنها: "والنقود!" ضغط على أسنانه بقوة مغمضًا عينيه: "سأعطيكِ النقود". وضع رداءه المنزلي فوق جسده العاري ملقيًا عليها نظرة أخيرة. خطان صغيران من دموع سالا أسفل جفنيها، يرتفع غطاء الفراش مرة بعد مرة من أثر النشيج!

أغلق الباب خلفه وسار نحو غرفة لم يكن بها سوى مقعدٍ خشبي مليء بآثار الطلاء يستخدمه العمال، ألقى بنفسه فوقه بإحباط، معيدًا شعره المبلل بالعرق للوراء بقسوة. كان من المفترض إنهاء الأمر خلال ثوانٍ؛ تلك العمليات تتيح ذلك حتى طويلة الأمد منها! لكنها مختلفة، حتى وإن لم تخضع لعملية وهو ما استبعده من البداية لم يكن ليستغرق الأمر كل هذه المحاولات العبثية والوقت الطويل! كأنما تملك نوعًا نادرًا من عذرية عنيدة لا تُفقَدُ بسهولة؛ كانت صادقة منذ اللحظة الأولى! في لحظة ما ظن أنه! لا، لا، ماتزال عذراء! زفر تنهيدة طويلة متمتمًا: "وآخرتها يا قِسمت؟!" أخرج من جيب ردائه دفتر الشيكات وحرر المبلغ الذي وعدها به؛ خمسون ألفًا ترفض الاعتراف بسبب احتياجها لهم! عاد لغرفة النوم، فوجدها تجلس عارية على الأرض محتضنة نفسها قُرب الأريكة التي ماتزال محتفظة بغلافها البلاستيكي، واضعة رأسها فوق إحدى وسائدها العريضة غارقة في النوم. لم يكن هذا ما أفزعه فقد اعتاد جولاتها السومانية، بل خط الدماء الرفيع المنزلق فوق ساقها! التفت نحو الفراش فطالعته بقع قاتمة الاحمرار افترشت الملاءة البيضاء، تغضنت ملامحه وأسرع صوب الستار مغرِقًا الغرفة بالظلام، سيحترم رغبتها! صرخت مرارًا أنها بريئة وطاهرة فصمَّ أذنيه! هي أيضًا ملومة؛ وجودها بتلك البؤرة الموبؤة سببٌ كافيٌ لسوء الظن. الملعون علّام مسعود يشين كل من يجمعهم به مكان واحد! أخرج ملاءة جديدة من كيسها وتخلَّص من الأخرى ملقيًا إياها بجارور الملابس المتسخة، حدق به لبرهة ثم لعن بخفوتٍ معاودًا الدخول إلى الغرفة، انحنى وحملها بين ذراعيه فتململت: "ماذا هناك؟ ماذا تريد مني؟ دعني، لا تفعل" هدأها بصوتٍ أجش، ووضعها فوق الملاءات النظيفة وساعدها على ارتداء البيجاما ودثرها فعاودت الاستسلام للنوم. أحضر منشفة صغيرة وبللها بماءٍ دافئ وعاود الجلوس أمامها ورفع الدثار: "آسف" جعل يزيل أثر الدماء من فوق ساقها بلطف قدر استطاعته، ثم عاود إسدال البنطال، من الجيد أنها تغط في النوم وإلا يعلم الله وحده كيف لتكون ردة فعلها! أخرج الورقة المطوية من جيب ردائه ووضعها إلى جانبها

علىٰ الأرض، طلبت النقود وسيمنحها إياها والمزيد بسخاء؛ وسيلة رخيصة لتسكين ضميره، (اللعنة يا أسما! لم أقترف خطأ). أخرس الصوت بغضب لينسل أسفل الأغطية ملقيًا نظرة أخيرة عليها، موليًا ظهره، مغمضًا عينيه.

شعر بها تنهض من جانبه فجرًا، انتظر ليتأكد من وعيها! اتجهت للحمَّام بثباتٍ وسمع بعدها خرير المياه. خرجت من المغطس بوجنتين مشتعلتين متشبثة بالحوض الصغير، متجاهلة ستر جسدها المنهك بإحدىٰ المناشف الضخمة، ما جدوىٰ تغطية شيء تعرىٰ واستبيح! حدقت بصورة وجهها الممتقع وملامحها المتغضنة. بحثت بقسماتها عن شيءٍ تغيَّر، شيء ينبئها أنها لم تعد ذات الشخص الذي ودعته علىٰ أعتاب الفراش بفجوة زمنية فصلتها عن الوجود! متقلبة بين دوامات الألم والمعاناة التي عبثًا حاولت تجاهلها فأطبقت عليها من كل اتجاه! رفعت أصابعها متلمسة شفتيها؛ مازالتا حادتي الأطراف، غليظتي التكوين، لم تنتقص منهما سويعات العذاب شيئًا! أغمضت عينيها بألم، منحته نفسها ورفضها، لم تكن جيدة! معدومة الخبرة أمام رجلٍ يظن بها الأسوأ في كل شيء! واتتها الجرأة أخيرًا للنظر إلىٰ جسدها.. لم يتغير! ربما كدمة صغيرة فوق كتفها الأيمن لا تستطيع التذكر كيف حصلت عليها! جففت شعرها بمنشفة صغيرة وألقت بها في جارور الملابس المتسخة الفارغ!

* *

(١٣)

لم يؤمن يومًا بالأشباح أو يخشىٰ بطفولته الوحوش المختبئة بالخزانة كأقرانه، لكنه الآن مرتعب من المجهول القابع بالأعلىٰ! جال بلا هدىٰ لساعات، لدرجة شرائه شطائر من محل (take away)، لم يفعلها طوال حياته، فقط ليبتعد! سيعتقها لحال سبيلها، أنقذها من نفسه بأعجوبة، ماتزال هناك فرصة، وهي فرصة أخيرة نادرة الحدوث، بل معجزة لتستعيد إنسانيتها وتبتعد عن طريق الضياع المحقق. سيكون إنسانًا معها للحظة الأخيرة؛ سيمنحها ربع المبلغ ويأمرها بإعادة البقية، صفقة عادلة! تطايرت الأفكار والهواجس بعيدًا كالدخان حين وقعت أنظاره عليها بغرفة النوم؛ متكومة علىٰ الأرض تحتضن ركبتيها متلحفة بشالٍ ملون، يتأرجح جسدها للخلف والأمام بوتيرة هادئة مطأطئة الرأس. ظنها بالبداية إحدىٰ جولاتها الليلية رغم البكور لولا النقود المتراصة أمامها! ناداها فثبتت ورفعت رأسها ببطء تطالعه بنظرات تائهة، بدت لوهلة عاجزة عن التعرف إليه، لكنها سرعان ما أدركته فعاودت التأرجح.

- هل انتِ بخير؟!

"لا أدري ماذا أفعل!" بالكاد استطاع فهمها، فسألها بريبة عما تعنيه، عاودت رفع رأسها لترمقه بجمود: "راح زين وعادت صفية للمنزل، غيبوبة سكر، لم يأتِ أحد، أنا وحيدة، قتلتها النقود!" سألها مقطبًا عن هؤلاء الأشخاص فأشارت بيدٍ مرتعشة: "انظر، معي نقود كثيرة! لكني وحدي" سألها إن كانت قد صرفت الشيك، أومأت بصمتٍ فاقترب منها مستفسرًا، فهتفت بلهفة: "كيف نخرج الجثث من الثلاجات؟ نوار تشعر بالبرد وأريد أن أدفئها!" جعلت تحرك حبات المسبحة الواحدة تلو الأخرى: "لا أريدها، لا أريد النقود، خذها وأخرج نوار، أخرجها". استطردت تمط شفتيها ازدراءً: "صرفت الشيك ورُحت أدور بالشوارع عاجزة، للمرة الأولى! وحيدة، غبية" تشبثت بذراعه: "ماذا أفعل أيها الطبيب؟ كيف أمنحها الدفء؟ ساعدني، خذ النقود وساعدني" جلس بجانبها فانتفضت، تتساقط الكلمات من بين شفتيها كاللوغاريتمات: "نوار ترتعش، أشعر بالبرد، النقود.. القذ.. القذرة تستخرج شهادات الدفن، تستخرج شهادات الدفن!"

أفزعه حالها وتخبطها فقبض على ذقنها آمرًا إياها بالهدوء ليمكنه مساعدتها: "مَن نوار؟"

تجاهلت سؤاله وعاودت التأرجح. توقع حوارًا باردًا قصيرًا، تملأ بعده حقائبها تاركة إياه بسلام ليعود لحلقته المفرغة وواقعه المضطرب! لم يتوقع شيئًا كهذا أبدًا. "أين نوار؟" قالت: "بالثلاجة، أشعر بالبرد، أشعر بالبرد" سألها: "هل ماتت؟" أومأت: "أمس، رحل زين أمس، رحلت صفية أمس" تابعت بنبرة مزدرية: "تسولت النقود ببيع نفسي". سألها بأي مستشفى فقالت (الخالدين). كرر ذاهلًا: "مستشفى الخالدين بالمعادي!" أمل أن تكذبه أو يكون قد فقدَ حاسة السمع أو ربما فقد عقله، لولا صمتها! ازدرد ريقه متكئًا على الجدار وحقول من الصبار تمد جذورها بحلقه: "هل تلقت العلاج بتلك المستشفى؟" أومأت: "خذ النقود، ماتت نوار!"

ظل طوال الطريق محتضنًا إياها بذراعه الحرة وهاجس مرعب سيطر

علىٰ أفكاره؛ ما ينتظره هناك بالمستشفىٰ التعس! ترجلت بركبتين مرتعشتين وسارت مستندة علىٰ ذراعه، وفورما وقعت عينيها علىٰ الأبواب الإلكترونية تجمدت وعاودتها الانتفاضات، أدخلها مكتبًا خاليًا وأمرها بالانتظار. سأل أحد حراس الأمن عن رئيسة الممرضات، فأشار الرجل نحو باب مغلق، فلم ينتظر ثانية أخرىٰ.

- أريد إجابة مباشرة، ماذا تعلمين عن حالة نوار ذو الفقار؟

رددت رئيسة الممرضات الاسم بحيرة: ليس بغريبٍ لكن كثير من الأسماء تمـــــ...

قاطعها بنفاذ صبر: توفيت هنا بالأمس، أريد أن أعرف كل شيء يا فاطمة، اِئتني بالملفات والأوراق كلها ولا تتركي شيئًا مهما كان تافهًا، هل فهمت؟!

وقعت عينيه عليها متكومة فوق أحد المقاعد الحديدية، متكئة برأسها فوق الحائط البارد واجمة النظرات، اقترب وجلس إلىٰ جانبها محتضنًا كتفيها: كان عليكِ البقاء بالمكتب.

استسلمت لجذب ذراعه: أريد رؤيتها، لم يسمحوا لي برؤيتها.

أومأ متفهمًا ونهض ظانًا أنها ستتبعه إلا أنها ظلت بلا حراك، ناداها ولم تجبه فمدَّ يده جاذبًا إياها، أطاعته لولا ساقاها خانتاها فأوشكت علىٰ الوقوع، اتكأت علىٰ ساعده وسارا معًا برواقٍ طويل معتم، قابلا به فاطمة: ها هي الأوراق يا دكتور، كل ما استطعت الوصول إلَيه، لكن عِدني بحمايتي إن علم مسعود!

وصلا أمام باب مغلق جلس خارجه رجل متجهم الملامح رمقهما بنظرة غير مرحِبة ونبرة محذرة؛ الأخبار تنتشر كالنار بالهشيم! لكن للأقفال الفولاذية مفاتيحها. أخرج من جيبه ورقة فئة المئتي جنيه ودسَّها بيده: تريد زوجتي توديع شقيقتها المتوفاة للمرة الأخيرة.

حوَّل الرجل نظراته بين الورقة المالية ووجهه الجامد ثم أرخىٰ كتفيه وفتح الباب: كن سريعًا، تعرف علَّام باشا.

صعقتهما البرودة. لم يأتِ هنا يومًا أو يفكر بإلقاء نظرة أخيرة على مريضٍ فقدَه. دوامة العمل شديدة السرعة والقوة، فلا يجرؤ على النظر للوراء أو النظر مرتين لأوراق حالة انتهت. فتح طرف الأوراق بصعوبة لئلا يتخلى عن ارتكانها إليه، قرأ رقم الثلاجة ثم بحث حوله حتى عثرَ عليها، وقال: استمعي إليَّ جيدًا، وافقتُ على مجيئك لكن، أريدك قوية، لا تنسي أنها إرادة الله.

سألته بشرودٍ (لماذا هي بالذات؟!). فلعن نفسه لسؤالها الكسير. لم يستطع العثور على مبرر، فألقى الأمر بكل خساسة على إرادة الله، والله بريء مما يفعلون وعمَّا يخرسون، منذ متى كانت إرادة الله ظُلم العباد وافتراس أعضائهم بلا ذنب! سارا بين ممرات الطاولات التي سجيت فوقها الأجساد المبردة، معلق بأطراف أصابعها بطاقات صغيرة كُتِبَ فوقها بخطوط مبهمة وأرقام سوداء. حاصرتهما رائحة الموت من كل شبرٍ حتى وصلا أمام خزانة ضخمة، مدَّ يده لإحدى جواريرها وجذبه؛ كان أعلى من ركبتيها بقليل وقد احتوى حافظة بلاستيكية سوداء. طالعت الكيس بوجوم: "أين نوار؟!" انحنى وفتح السَّحَّاب ليظهر الوجه النائم الشاحب، أبعدت كفه الممسكة بها لتنحني جالسة على ركبتيها، مدَّت لها يدها فلسعت البرودة أصابعها، ازدردت ريقها وانحنت مقبِّلة جبهتها: أتشعرين بالبرد يا حبيبتي؟ لا تقلقي، أحضرت شال أمي ـ سحبت الشال من رقبتها ووضعته فوق رقبة نوار ـ لا تقلقي لن آخذه منك أبدًا، لا أحد سيأخذه منك.

هزت رأسها بتساؤل صامت متأملة ملامحها المستكينة، ثم رفعت كفها مغطية فمها لتنفلت من حنجرتها آهة لوعة. انحنى يهم باحتضانها فدفعته بعنف: ابتعد عني أيها الطبيب، لقد تركتني نوار، تركتني ولم يكن هذا اتفاقنا ـ اتكأت برأسها فوق الجسد البارد ـ أقسمنا على عبور الأزمة معا وأخللتِ بالاتفاق ـ رفعت يدها ممسدة الكيس الأسود بأصابع مرتعشة ـ لِم فعلتِ هذا؟! أنا وحيدة، وحيدة دونك يا نوار!

أجهشت بالبكاء مطلقة العنان لدموعها وتأوهاتها تملأ المكان، لم يجرؤ على اعتراضها مدركاً احتياجها وإلا صرعها الحزن. رفعت رأسها بغتة:

بمَ سأخبرهما؟ ـ مسحت دموعها بقسوة معاودة سؤال شقيقتها الصامتة ـ أخبريني ماذا أقول لهما ولن أعاتبك على الرحيل، بم أخبرهما يا نوار حين يسألونني عنكِ؟! كيف أخبرهما؟! ماذا أقول يا أختي، ماذا أقول؟! ـ جعلت تردد الكلمات بهذيان هستيري وأمسكت بالكيس الأسود تهزه بعنف ـ تكلمي يا نوار، لا تتركيني وحدى، لن أستطيع النظر بأعينهم!

هتف عدنان بجزع: كفى يا أسما، اطلبي لها الرحمة، كفى!

التفتت كأنها تراه للمرة الأولى: أخبرني أنت ماذا أقول لهما أيها الطبيب؟ كيف أخبرهما أنها لن تكون بانتظارهما معي حين يعودان! ـ جعلت تردد سؤالها بلا توقف يتعالى صراخها شيئًا فشيئًا ـ ماذا أقول لهما؟! متاعب شهر العسل! شهر العسل قتلها! ـ حاول جذبها عن الجثة فدفعته بعنفٍ وأوقعته أرضا صارخة ـ ابتعد عني، ابتعدوا عنِّي جميعًا، كفاني، كفاني لم أعد أحتمل، لن أتركها وحدها، سأبقى معها، ابتعد عنِّي، ابتعد.

جذبها من كتفيها بكل قوته صائحًا: يكفى! يكفي يا أسما، لن يعيدها صراخك، ارحمي نفسك ـ حدق بالأعلى هاتفًا ـ اللعنة علينا جميعًا، ماذا فعلنا بصمتنا؟ ماذا فعلنا بكم؟

أخرج هاتفه، تشوي رقبته حرارة أنفاسها وهبَّات نحيبها الملتاع، متلوية بين أحضانه بلا هوادة: فاطمة، حالا آتني بحقنة مهدئ بالمشرحة.

* *

كان مدركًا مدى بشاعة ما يدور بالمشفى، لكن أبدًا لم يواجه الأمر قبلًا؛ لم يسمع صرخات الألم المنفلتة من حناجر المكلومين، أو يواجه لوعة فقدانهم أحبتهم. كم أزهق ذلك الكلب من أرواح؟! عمليات الترقيع وسرقة النخاع والأعضاء فاحت كلها برائحة القذارة وخيانة الشرف، لكنها لم تعنِ القتل! توهم الإبقاء على حياة المسروق واستغلال الفقر والحاجة اللتين يسهل إخراسهما بحفنة مال، لكن أن يصل الأمر للقتل! المسكينة التي ظلت تصرخ بلا توقف حتى أُنهِكَت وانهارت أعصابها واحدة من ألوف غض

عنهم البصر بإرادته. يملأه القرف من نفسه ومنهم جميعًا؛ كيف استطاعوا الاستمرار في هذا المستنقع متنازلين عن إنسانيتهم وشرف مهنتهم بتلك البساطة؟! كيف صموا آذانهم عن كل هذا العويل؟! دفع الباب فعثر عليه خلف مكتبه، يرتشف بتمهل فنجان قهوته.

- دكتور جبالي! لمن ندين بشرف رؤية وجهك الكريم بعد كل هذه المدة!

اندفع نحوه كوحشٍ جائع أُطلِقَ من محبسه ممسكًا بتلابيبه: أخبرني أيها الحقير ماذا فعلت بنوار ذو الفقار؟! الأوراق لا توضح شيئًا - هزَّه بعنف - انطق، ماذا فعلت أيها السفاح؟

صرخ علَّام محاوِلًا الإفلات من قبضتيه المحكمتين كالكلَّابات على ياقة معطفه: هل جننت يا دكتور؟! عمَّن تتحدث؟!

زفر عدنان بحقدٍ: بالطبع، هي مجرد جسد لوغدٍ مثلك! لا يهم اسمها، المهم ثمار القِطاف والحصاد، كيف قتلتها أيها الكلب الضال؟ لماذا انهارت وظائف الكلى بعد العملية؟

أسرعت إحدى الممرضات للداخل مستفهمة بذُعرٍ فطردها علَّام صارخًا بغضب: "اخرجي يا بنت الـ...، لا أريد لأحد أن يدخل هنا، أتفهمين؟" سارعت الفتاة بالخروج متعثرة الخطوات حتى أوشكت على الوقوع، مغلقة الباب. تبادل كلاهما نظرات الازدراء والحقد، وقال علَام: والآن لنعد لموضوعنا الشيق يا دكتور جبالي!

قال عدنان من بين أسنانه: أريد أن أعرف وبالتفصيل ماذا فعلت بنوار؟ - استدرك محذِّرًا - ولا تحاول الكذب.

تشدق بكل حرف فابتسم علام إحدى ابتساماته الصفراء: ولماذا أكذب؟ كانت تعاني من التهابات شديدة بعنق الرحم تفاقمت لفيرس تسرب للحالبين والكلية والمثانة؛ إهمال أدى لوفاتها!

هزه بعنف: وهل تقتل الالتهابات الشديدة يا علام؟! هذا السيناريو

الساذج لن ينطلي عليَّ، أنت كاذب، أخبرني يا ابن الـ... ماذا فعلت بها؟ انطق وإلا خنقتك بيديَّ هاتين أيها القذر!

نهض بغتة ودفعه بكل قوته صوب الحائط المجاور للمكتب، ورغم نجاح علّام في إحكام قبضته هو الآخر على ياقته عجزَ عن الإفلات من قبضة عدنان التي كادت تمزع ملابسه، باتا كنمرين في صراع للبقاء.

ـ أهي صديقتك؟ كنت تصاحبها على زوجتك يا لعوب!

نبرة علام الساخرة أججت نار غضب عدنان حتى تصاعد رائحة الحريق من رأسه وعينيه: هي شقيقة زوجتي أيها المنحط، لا يدور برأسك سوى الأفكار القذرة والنوايا العفنة.

لجزء من الثانية اعترى علّام الارتباك وضاق بؤبؤا عينيه: "شقيقة علياء!" اقترب عدنان من وجهه رامقًا إياه بحقدٍ: شقيقة زوجتي الجديدة، رغم أن الأمر لم يكن ليختلف.

أعاد علّام رأسه للوراء مطلقًا ضحكة خشنة: أصبت يا دكتور، في خضم غضبك الأعمى قلت الحقيقة، لا فرق من تكون ومن أين! امتلكت الكِلية المناسبة وكِلية أخرى مريضة لم أهتم لها كثيرًا، حظها سيء، إرادة الله يا دكتور جبالي، لستُ سوى أداة بيديه.

غرز عدنان عقلات أصابعه التي ابيضت من شدة التشبث بعنق علام: أيها السافل! لا تصم إرادة الله بعار أفعالك وأنت شيطان حقير.

وضرب عنقه بقبضته المضمومة عدة مرات، لكن علام تمسَّك بوجهه اللامبالي قائلًا من خلف ابتسامته: أصبتَ ثانية، أنا شيطان، لكن لست الشيطان وحدي، جميعنا نسير على نفس الصراط الذي سيلقي بنا في سواء الجحيم يا دكتور ـ قطب عدنان متأملًا ملامحه باحتقار فاستطرد بسخرية قميئة ـ لا تنكر أني وإن اخترت بإرادتي أن أكون شيطانًا عاملًا فاعلًا في المجتمع، فقد اخترتَ أيضًا وبإرادتك أن تكون شيطانًا من نوعٍ آخر!

"تقلب الحقائق تبعًا لرغباتك أيها السافل!"

هتفَ بها عدنان من بين أسنانه مطبقًا بيديه على رقبة علَام حتى تقطعت أنفاسه وخرجت الكلمات من بين شفتيه متحشرجة مبحوحة: لا تحاول الهروب من الذنب بإلقائه على عاتقي يا عزيزي، أنت أيضًا شيطان، لكن شيطان Silent! رأيت الظلم بعينيك ولم تمد يدًا لتغييره! ـ أخرسه عدنان بحقدٍ فأطلق ضحكة مشروخة من حنجرته بظفر ـ أمرتني منذ قليل بعدم الكذب، وحين أُلَبِّي رغبتك تأمرني بالصمت! لأن الكلام ليس على هواك! ـ زفر بتهكم ـ كنتَ بانتظار حديث يطمئنك؛ أنا الشيطان وأنت الملاك البائس المغلوب على أمره! ـ عاود ضحكته المتشفية وقد لانت قبضة عدنان الملتفة حول عنقه ـ لا يا عزيزي، كلنا شياطين مع فارق بسيط؛ أنا لا أنكر طبيعتي الشيطانية ولا أتبرأ من بَني جنسي، أما أنت! ففي بحثٍ دائم عن قناعٍ زائفٍ تتوارى خلفه ـ صاح بجزل ـ أنت مثلي يا دكتور جبالي، ربما ستكون أقل مني بدرجتين في الجحيم، لكن كلينا سيشم رائحة احتراق لحمه.

اختلجت عضلة أسفل عينيّ عدنان اللتين أرخاهما مستسلمًا لصمتٍ أطبق بغتة على المكان، أرخى قبضتيه وألقاهما إلى جانبيه فأجلى علَّام حلقه رامقًا إياه بتوجُّس، ثم سار ببطءٍ معاودًا الجلوس خلف مكتبه وارتشف بعض الماء: ما الفرق بين نوار وغيرها؟ ـ انتظر إجابة على سؤاله بتمهل ـ حسنًا، إن كنت لا تجرؤ على قول الحقيقة أقولها أنا، لا فرق.. أبدًا ـ تشدق بكلماته وسعل بقوة ـ يدك ثقيلة يا دكتور، تلك اليد التي لم تفكر يومًا بتغيير المنكر عوضا عن إطباقها على عنقي المسكين! ـ رفع حاجبيه كمن يخاطب طفلًا صغيرًا ـ ليس لأنها شقيقة زوجتك يا عزيزي ستشكِّل فارقًا، كلهن بنات ناس، وكلهن يُبكين فوق قبورهن بحرقة، لكنها ليست قضيتي، ولا تحاول أن تصنع منها قضيتك، فات الوقت ـ زفر بسخرية ـ وكما يقولون (تعاطفك وحده مش كفاية)، أتيت متأخرًا يا دكتور جبالي، وقدماك DEJA غارقتان معي في الوحل، كبقيتكم!

رفع عدنان رأسه: لمَاذا؟ إن كنت تدرك ما أنت وما ستكون عليه نهايتك!

مطَّ علَّام شفتيه مرتشفًا المزيد من الماء، مشيرًا بسبابته: أحب الأسئلة

المميزة يا دكتور جبالي! لنرَ - حكَّ ذقنه متصنعًا التفكير - أظن أني لم أملك الصبر الكافي لانتظار جنة الخُلد، الجوع والشوق لرغد العيش مُلِحّ أكثر من نزعتي الإيمانية - قلب كفيه في الهواء متهكمًا - ولا تظنني كافرًا والعياذ بالله! قررت فحسب الحصول على جنتي هنا والآن عوضًا عن انتظارٍ طويلٍ لا أطيقه! - أردف بعد لحظة صمت أخرى تأمل خلالها وقع كلماته - ولا تَنس أن الله غفور رحيم! كما أني أنقذ أرواحًا بائسة تتمنى الحياة!

هزَّ عدنان رأسه قائلًا بازدراء: منطقك المريض! تزهق روحًا لتنقذ أخرى مقابل النقود - نهض هاتفًا بغضب - سألقي بك في السجن، سأريح العالم من شيطنتك.

أعاد علَّام رأسه للوراء منفجرًا بالضحك حتى دمعت عيناه وسحب منديلًا ورقيًا: لا، لن تفعل يا دكتور جبالي لكن عرض سينمائي لطيف.

قال عدنان بإصرار: بل سأفعل وأمتعك بالعرض أكثر مما تتصور.

عاود علام الضحك قائلًا: أنت أجبن من أن تفعل، أجبن من أن تلقي بوالدك وعمك العزيز وصديقك في السجن! - رفع حاجبيه بانتظار تعليقه وحين طال الوقت هتف بتهكم - اذهب من هنا يا عدنان إن كنت عاجزًا عن تحمُّل عذاب الضمير، ولا تعد ولا تنظر للوراء. فقط لأجل خاطر والدك المطيع لن أؤذيك هذه المرة، المقابلة انتهت - ضغط زِر استدعاء الممرضة فدلفت للغرفة بترقب، أشار صوب عدنان - رافقي الدكتور جبالي لغرفة زوجته واهتمي بنفسك ألا ينقصهما شيء، أفضل أطباء الأعصاب لدينا يفحصها ثانية وحساب الغرفة أضيفيه باسمي - التفت إليه - هدية بسيطة لتشريفك اليوم. مع السلامة.

تلاشت من عينيّ عدنان نظرة التحدي، وانتقلت لعيني علَّام فورما أطرق الأول وسار بصمتٍ دون انتظار للممرضة، صافقًا الباب خلفه. جعلت خطواته تحفر الممر الطويل بثقلها همومًا فوق الهموم، وعذابًا جديًدا يضاف للعذابات القديمة! يعي اللعين أنه لا يجرؤ على إيذاء أيُّهم ولو بشكة دبوس؛

يغلهم من رقابهم مستغلًا خوفهم على بعضهم أسوأ استغلال! وقف أمام فراشها يطالعها بألم، ذات الألف وجه باتت بوجهٍ وحيدٍ، شاحب، مجهد رغم ارتخاء قسماتُه بفعل المهدِّئ، كم عانت المسكينة! تبادل وإياهم عليها الذبح بسكينٍ باردٍ، بل ونقدتهم ثمن ذبحها. كيف يطفئ نيران حزنها ويخرس ضميره؟! صوَّبت نحوه مرآتها الضخمة وأجبرته على التحديق، مسمرة قدميه بالأرض بلا سبيل للفكاك!

نظر لسقف الغرفة الذي بات خفيضًا يكاد يطبق عليه متسائلًا: ماذا يفعل؟! يطوف السؤال برأسه كطيرٍ جارحٍ ينبش عن فريسته!

*

اختلس عدنان النظر للرجل الجالس على الأريكة المجاورة؛ صلاح ابن الجارة صفية المنهمك بقراءة جريدة مُعنوَنة بأحد الأسماء الجديدة التي ظهرت مؤخرًا، جاذبة الأعين والحواس بعيدًا عن كليشيهات الجرائد القومية التي غذَّت النفوس دهورًا، غذاءً خاليًا من العناصر المفيدة فأصابتها بالأنيميا الحادة. تجاذب معه عدنان أطراف الحديث مستغلًا جيرته لعائلتها، سائلًا إياه عن والديها وأشقائها، متعللًا بحداثة زواجهما وعدم حصولهما على الوقت الكافي لمعرفة بعضهما البعض. كان بحاجة لمعرفة المزيد عنها، فقاطعت صفية حديثهما حين استشعرت جهل عدنان بأمر فريدة؛ كثرت أسرارك يا أسما وزادت مفاجآتك! سألها عن حالها فجلست تمصمص شفتيها بحسرة، مستسلمة للطفلة التي اتخذت حجرها مجلسًا ولفَّت ذراعيها حول رقبتها مسددة نظرات الفضول لعدنان: لهفي عليك يا بنتي، جالسة قُرب باب الغرفة شاردة، لا تجيب أيًّا من أحاديث النسوة. جيد أننا نصبنا العزاء بالسطح، حالتها لا تحتمل البقاء بين جدران تحمل الكثير من الذكريات ـ حوَّلت نظرها في الأنحاء بتململ ـ فاجأني زواجكما يا بني! لم تأتِ أسما على ذِكرك ولو بشكل عارض! اعذر تدخلي لكن قِسمت ونوار في عهدتي ـ استدركت بحزن ـ رحمك الله يا بنتي.

أصيب بالارتباك لسؤالها، فأخبرها أنه طبيب معالِج بمستشفى الخالدين مضيفًا: أحبها كثيرًا، أعني.. أحببتها من النظرة الأولى، تعلمين كم أسما رقيقة.. و.. جميلة!

لاحت أمارات ارتياح على محياها: القسمة! لا تنتظر أحدًا ولا تتمهل لأجل مخلوق، أراد الله جمعكما في الحلال ـ تنهدت بحسرة ـ أرسلك عونًا للمسكينة، غائبة في ملكوت لا يعلمه سواه!

فاجأه كثيرًا مدى وحدتها! لا تملك اعماما أو اخوالا، كلا والديها كانا وحيد والديه، وأقاربهم القلائل ضيعتهم الأيام ومشاغل الحياة، فاقتصر العزاء على السيدات وأعفاه الحرج؛ رجل لا يعلم عنه أحدٌ شيئًا ظهر بغتة في حياتها! هتفت سلمى متحولة من حمامة وديعة لصغير نمر: "أردت حمل باقة الورد للعروس وذيل ثوبها، هكذا اتفقنا أنا وأبلة قِسمت!" ابتسم عدنان ببلاهة مطالعًا صفية طلبًا للمساعدة، لكنها كانت تحدجه بترقُّب، فقال: "عقدنا القران فحسب، أعدك إن أقمنا عُرسًا ستحملين الباقة وذيل الثوب" سألته بحماس عن موعده فأعادت صفية خصلة منفلتة من شعر سلمى كلسانها خلف أذنها. كان بحاجة لمعجزة تسكت هذه الطفلة، لكن صفية تجاهلته وكأن الحديث على هواها! دلفت بغتة امرأة بعقدها الثالث تزفر بعصبية: صلاح! لقد جهزت العشاء.

نهض الأخير بارتباك: المعذرة يا دكتور، يرفض الأولاد تناول الطعام بدوني.

حدجت صفية ابنها بعدم رضا ونهضت بدورها: سأصعد لها ببعض الطعام، لم تذق شيئًا منذ الدفن!

وجدتها كما تركتها؛ جالسة على مقعد الخشب القديم قرب باب الغرفتين، تتكئ على الجدار برأسها، وتسبِّح بمسبحة الكهرمان واجمة. تأملت ملابسها بامتعاض؛ جينز قديم وقميص رجالي! عبثًا حاولت إقناعها بارتداء لون قاتم فأخرستها بقولها (كفنيني بالسواد من رأسي لأخمص

قدميَّ، إن كان سيعبر عن حرقة قلبي عليها)! حدقت قِسمت بيد صفية الممدودة بشطيرة ظهرت كرات اللحم المشوية من بين شطريها، فانقلبت معدتها: "لستُ جائعة" اعترضت صفية: لم تأكلي شيئًا منذ الصباح يا حبة عيني، ستسقطين!

هزت قِسمت رأسها بوهن: "لا يهم . همَّت صفية بمعاودة التوسل لولا صوتٌ أتىٰ من خلفها: دعيها لي، سأجعلها تأكل.

نظرت قِسمت إلىٰ يارا نظرة خاطفة ثم أطرقت متغضنة الملامح تهز رأسها بألم. اقتربت منها الأخيرة واحتضنتها: حبيبتي يا أسما.

فدست وجهها بين ذراعيها وانهارت في البكاء: رحلت نوار يا يارا، تركتني وحدي!

بكت طويلًا وهمهمت كثيرًا بكلمات متفرقة غير مترابطة، كانت تصمت للحظة ثم تعاود البكاء. أدركت يارا أن كلمات العزاء كلها لن تستطيع محو دموعها؛ روحها المتعلقة بنوار عليها أن تأخذ وقتها كاملًا للتشافي، انتُزعت روح قِسمت وسيمر وقتٌ طويلٌ قبل أن تستقر بين ضلوعها! قالت يارا مستغلة تغافُلها عن ألمِها: يبدو دكتور عدنان شخصًا طيبًا، التقيتُه.

رفت بعينيها مطرقة ثم رفعت رأسها وحدقت بوجه صديقتها المتسائل: طيب.. جدًّا!

قطعت يارا كسرة من شوكولا الـtwix وقرَّبتها من فمها ففتحت قِسمت فمها بتلقائية: يبدو أنه يعرفك جيدًا، أرسل معي الشوكولا والعصير وألحَّ عليَّ لإقناعك بالأكل.

نظرت قِسمت للشوكولا بين أصابعها: يحبني.. كثيرًا!

وضعت يارا قطعة أخرىٰ بفمها: أخبرني أنه لن يرحل حتىٰ يطمئن عليكِ.

أومأت قِسمت بصمتٍ تلوك قطعة الشوكولا ثم رفعت رأسها بغتة صوب صفية بنظرة قلقة، فأشارت لها صفية مطمئنة؛ يبدو أنها نفذت رغبتها بإعلانها خطبة! زفرت بارتياح وطالعت صديقتها التي ابتسمت لها بحنان، متناولة

قطعة أخرى من يدها جعلت تمضغها بلا وعي. ربتت يارا على كتفها بحنان: أعلم أنك مؤمنة حتى النخاع يا أسما حتى وإن نفرت من مواجهة الحقيقة، لا أقول والعياذ بالله إنك تدعين العكس، لكنك تسخرين دومًا من ركوننا لنزعتنا الإيمانية وتعليق الكثير من أمور حياتنا فوق مشاجبها ولكن ـ تنهدت ـ هذه المرة حقًّا أنتِ بحاجة إليه! بحاجة لتكوني صريحة معه! هذا قضاؤه ولا راد له، إن كان بكاءنا سيعيد الراحلين لغرق الكون منذ أمدٍ! اطلبي منه العون، كوني لحوحة.

رفعت قِسمت رأسها بغتة: هو ليس بظالمٍ، ما حدث فعل البشر يا يارا، فعل البشر!

ـ هل ثمة شُبهة في وفاتها؟!

تجاهلت سؤالها وجعلت تحدق في وجوه السيدات من حولها؛ كل الجارات أتين للعزاء، بعضهن أتين لتعاطف حقيقي والكثيرات أتين للاجتماع والنميمة، يلوكن بعضا من لحوم الخلائق! عليهم أن يوزعوا أعواد الخشب مع القهوة لتنظف السيدات أسنانهن من اللحوم الميتة! جميعها ـحاديث ما بعد الموت. ترى كم شخصًا منحن أنفسهن متعة تعريته وكم شخصًا وصمنه بعارٍ لم يقترفه؟! وتأتي بعدها عناوين العزاء والتي نشرت العَمَّة صفية بعضًا منها (لو رأيتها يا حميدة.. وجهها كالبدر.. ملاك)، وتمصمص الأخريات شفاههن بحسرة (اختطفت البنية في عزها، يقولون أن النعش كان طائرًا فوق أكتافهم)، وتجيب أخرى والتي تدعي دومًا أن لديها الخبر اليقين (لم نستطع اللحاق بها يا أختي والله، ظللنا نجري دون جدوى)! رفضت إقامة عزاء أو دعوة مخلوق لمشاطرتها الحزن لولا إصرار صفية العنيد (الأمر لا يصح يا بنتي، أقله يترحمن عليها ويقرأن لها الفاتحة). لو رأين السعير المتقدة بضلوعها لاتسعت أعينهن المفترسة رعبًا وخرست ألسنتهن الذابحة، وفررن هربًا كقطيع نعاج هائج! لِم لا يصمتن؟ لم لا يدركن أن الموت نقطة ونهاية السطر؟ يحاول الجميع بحوارات ما بعد الموت إلحاق الراحل بصورة

القديسين، وكأنه أنهى حياته بإحدى درجات الملائكية. حمقى! لا يعلمون عن الموت شيئًا، لم يكن وجهها متهللًا منيرًا. كانت نوار؛ شقيقتها، طفلتها، وربيبتها! وقد ماتت وانتهى الأمر! نهضت بغتة فتعلقت بها أزواج الأعين، للحظة خانتها قدماها وأوشكت على السقوط لولا تمسُّكها بباب الغرفة، تناولت إبريق الماء وسارت صوب أصص الزرع وجعلت تسقيه بتأنٍّ، ثم التفتت إليهن: عدن لمنازلكن، لا عزاء غدًا أو بعد غد ـ سرت همهمة بين الجالسات حملت نبرات الاستنكار ـ من أحبَّ نوار يومًا، فليترحم عليها.

أعتمت الغرفتين ووضعت القفل الضخم متلمسة الباب الخشبي بابتسامة ساخرة. هبطت الدرج، وكانت تتشبث مع كل خطوة بسوره العتيق، كم من المرات تسابقتا هنا لتطلقا طيارتهما الورقية بصحبة ياسر، تلك الطائرة التي حملت ذيلًا ذهبيًا طويلًا كان يلتمع تحت ضوء الشمس كخيطٍ من خيوطها! تذكر اسميهما الذي حرص ياسر على كتابته باللون الأبيض على جانبيها (قِسمت ونوار)، كانتا تتقافزان بسعادة وتشيران للطائرة صائحتين (اجعلها تعلو يا إيسو، دعها تذهب عند الشمس). للآن صدى ضحكاتهما يتردد بصندوق ذكرياتها المخبَّأ؛ حين كانت ابتسامة ثلاثتهم مغموسة براحة البال وهناء العيش!!

نهض فور دخولها فطالعته بملامح جامدة: نسيتُ أنك هنا.

ـ لكني لم أنس وكنت بانتظارك.

ـ من كانت سببًا لما بيننا رحلت!

أعلنها صراحة وبجدية شديدة: أنتِ زوجتي! لا تنسي هذا أبدًا.

انكسرت ملامحها وتوسلته لئلا تعود معه. لم يدرِ سببًا لبقائه لكنه باقٍ رغم اعتراضها. أيستغلها لتسكين ضميره؟! لربما تكون فرصة لتصحيح أخطائه! هي بحاجته في وحدتها وهو بحاجتها كي تصالحه على نفسه. قال: مازال الدين باقيًا بيننا يا أسما، ووفاة شقيقتك لن تسقطه!

اقتربت ممسكة بذراعه: أرجوك، اِنس أنك قابلتني، ونقودك أعد أن

أسددها ولو استغرق الأمر عمري كله، لا أستطيع الرجوع، لا أستطيع.

فاجأته القسوة التي تحدث بها: بل تستطيعين، كنتُ زوجًا صالحًا للحظة الأخيرة، أتممت دوري على أكمل وجه والآن دورك، ستعودين معي والليلة يا أسما، أملك عقد زواج.

دلفت كل من يارا وصفية بغتة وصاحت الأخيرة: تصرفك مشين يا أسما! كيف تطردين النسوة بهذه الطريقة يا بنتي وقد أتين لمواساتك؟

التفتت نحو صفية بحِدة: لا أظنه سبب مجيئهن؛ السيدة علية تريد معرفة طريقة الدجاج على الطريقة الإيطالية التي تتقنها السيدة رحمة، أما الست حميدة فتتحرق لمعرفة سبب فسخ خطبة ابنة الست سامية الشهر الماضي، والست رئيفة أتت لتخبر الست سميحة بما قالته عنها الست علية أمس حين كانتا تقفان على عتبة الشقة - استطردت بحدة - بإمكاني إخبارك المزيد، فقد كان عرضا ساخرًا مليئًا بالعجب - دمعت عيناها هامسة بخفوت - لا أحد تذكَّرها أو ترحّم عليها، لا أحد اكتوى بنارها سواي!

همَّت صفية بالحديث لكنها عدلت والتزمت الصمت، فسارعت يارا وجلست إلى جانبها محتضنة كتفيها: يكفي يا أسما وأكثري الدعاء، فلا أحد سيشعر نارها سواكِ كما تقولين.

مخطئة صديقتها؛ هو يشعر نارها ويكتوي بها معها! استحثها فأسرعت مقاطعة: "أجِّل النقاش قليلا" استشعرت يارا الحرج فحملت حقيبتها للمغادرة والعودة بالغد، فسارعت قِسمت: سنكتب كتابنا غدًا صباحًا ونسافر؛ عدنان لديه مؤتمر طبي لا يستطيع تأجيله ولا يرغب بتركي وحدي.

ابتسمت يارا بلطفٍ: لا بأس يا حبيبتي، سأراك عند عودتك - احتضنتها مودِّعة والتفتت نحو عدنان - انتبه لها.

كم ستشتاق إليها! لم تعد تليق بصداقتها بعد الآن! واتاها الأمل بطيّ صفحة الأمس والبحث عن نفسها من جديد، لتعود وتنعصر في خضم حياتها المعتادة، لكنه أبى منحها الفرصة وأولى أمنياتها ظهره! حسنًا، مازال الدَّين

قائمًا، لكن مرارة التسديد بطعم العلقم! ومايزال أمامها المرحلة الأصعب؛ والدتها! ماذا ستخبرها وكيف؟! انتزعها صوته الضائق، طالعتها صفية بريبة. فقالت: سأذهب مع زوجي يا عمة.

ولكن يا أسما أنتما لستما زوجين بَعد! عقدتما القران ولكن ماذا سيقولون حين يعـ..

قاطعتها ممسكة بذراعيها: لا يهم يا عَمَّة ـ تحولت صفية لببغاء يردد الكلمات ببلاهة فأشفقت عليها ـ إن أمرني زوجي بالذهاب بموجب عقد القران شرعًا عليَّ الرضوخ، أليس كذلك؟ ـ اعترضت فقاطعتها للمرة الثانية ـ أريد منك خدمة، حين تسأل عني يارا أخبريها أني سافرت لأجل غير مسمى ـ همَّت صفية بالحديث فعاجلتها ـ لا تسأليني! فقط لبِّي رغبتي.

أومات صفية بحزنٍ: هل ستقطعي صِلتك بي أنا أيضًا؟!

احتضنتها بقوة وطبعت قبلتين على وجنتيها: "أبدًا يا عَمَّة، أنا فقط بحاجة للراحة والابتعاد قليلًا، لكني سأعود". هكذا وعدت نفسها، ستعود!

* * *

تراءت لها نوار وسط النجوم البعيده مبتسمة ومالبثت أن أخفتها سحيبات عابرة، فهاجمها مرآها الأخير وصدمت شفتيها ذكرى برودة القُبلة فوق جبينها! توقفت السيارة بإحدى الإشارات فشعرت بشيء دافىء فوق يديها؛ الشال! "أحضرته من المشفى أمس وأرسلته للتنظيف، أعلم كم هو غالٍ عليك" قالها فتمتمت شاكرة ووضعته حول رقبتها، لتعاود السيارة الانصهار بنهر الطريق الذي سرعان ما خف ازدحامه، باتجاههما صوب المقطَّم.

ـ قف أيها الطبيب؟ ـ سألها مطقبًا عن السبب فأردفت بإصرار ـ قِف يا عدنان أرجوك.

حين سمع اسمه مجردًا علم جدية الأمر فضغط فرامل السيارة. لم تنتظر ثانية أخرى وترجلت فأسرع خلفها. أشارت صوب إحدى أعمدة الإنارة

الخافتة التي جلس أسفلها رجل وامرأة. جذبها من ذراعها بحنقٍ: هل جننت؟!

قالت ونظراتها لا تبارح مجلسهما: ربما يكونان بحاجة لمساعدة.

قال بحدة: وربما يكونان لصوصًا، أبسط قواعد السلامة عدم التوقف ليلًا للغرباء على قارعة الطريق!

كانت المرأة بأواخر عِقدها الرابع تضع رأسها بين كفيها باكية، ويتكئ الرجل على عصا غليظة تشبه النبوت يحدق أمامه في صمتٍ. جذبت ذراعها: قلبي يخبرني عكس ذلك.

لم تمنحه فرصة أخرى للاعتراض وسارعت مقتربة منهما: "مساء الخير" رفع الرجل رأسه: "مساء الخير يا ست" سألته عمَّ يفعلانه هنا في هذا الليل، فقالت المرأة بصوتٍ منتحب: لا نملك مكانًا نذهب إليه، لو كان لذهبنا! لو كان لنا لذهبنا!

ضربت فخذيها بيديها فصرخ الرجل: يكفي يا كريمة، وإلا قسمًا بالله سأضربك أمامهما.

جعلت المرأة تضرب فمها بكفها في صمت دون أن تتوقف عن النحيب. ناداها عدنان بنفاذ صبر فالتفتت إليه، ثم انحنت نحو الرجل: أخبرني يا عم ماذا يبكيها؟ ربما أتمكن من مساعدتكما.

رفع الرجل رأسه بكبرياءٍ: اذهبي في طريقك يا ست، لسنا بمتسوّلين ـ تلجلجت فكرر بإصرار ـ اذهبي لحالك واتركينا لحالنا.

هتفت كريمة بلوعة: أخبرها يا حسنين، قل لها إن زرعتنا نخرها السوس! الشجرة التي كنا سنستند عليها بشيخوختنا قطعتنا من جذورنا وألقت بنا في الشارع، أخبرها عن خيبة العمر يا حسنين! ـ صرخ بها الرجل أن تصمت وإلا قطع لسانها فانتحبت ـ إلى متى سأصمت؟! لقد طردنا يا ست، ابننا الوحيد ذو العشرين عامًا طردنا من منزلنا، لافت عليه فتاة بلا أصل ولا فصل، سحرته! جعلته ينسى أبوه وأمه، أخذ الغرفة اليتيمة وألقى بنا في الشارع.

قال الرجل بصوت أجش: لم يطردنا من الجنة يا امراة، أرض الله واسعة.

عادت المرأة لضرب فخذيها بمرار. لكنها العشة التي تسترنا يا حسنين، والأرض ضاقت علينا، الأرض دومًا تضيق بالغلابة!

سألته قِسمت عن عمله، مربتة على كتف المرأة. فقال: "في أحد المشاتل، باليومية" سألته عن زوجته فقال بحزم: "نساؤنا لاتعمل يا ست!" عاودت سؤاله عن أقاربهما بتمهُّل خوفًا من إثارة حفيظته. فأجابها: نحن من أقاصي الصعيد، جئنا منذ عشر سنوات عازمين على تربية ابننا الوحيد الذي خرجنا به من دنيانا الصغيرة لأم الدنيا، وها هي ابتلعته! ندهته النداهة وأعادته إلينا شيطانًا! ممسوسًا من الجن! ينقض على والدته ويضربها مطالبًا بالنقود رغم عِلمه أننا لا نملكها!.

نهضت مطالعة كليهما لبرهة ثم التفتت صوب عدنان الذي وقف عاقدًا ذراعيه متجهمًا: أظنني عثرت على البستاني ـ ناداها محذرًا ـ على ضمانتي الشخصية أيها الطبيب.

جذبها من ذراعها بعيدًا: منذ متى نلتقط مشردين على قارعة الطريق؟!

قالت ببرودٍ: ليسا مشردين، بل شُرِدُوا!

هزَّ رأسه بعصبية: لا أرى فارقًا.

ـ هو عمل خير، سأدعو الله أن يمنح حسناته لنوار، أخبرونا بالمسجد أن الصدقات نرسلها هدايا، ولا أملك النقود!

ازدرد ريقه محدقًا بها، في كل مرة تنطق اسم شقيقتها تزلزل كيانه، البقاء قربها أغبى ما قام به! حاول إثناءها: سأعطيكِ ما تريدينه من نقودٍ.

وكأنه لمسها بسلك كهربي صاحت: لا أريد أموالك ـ أمرها من بين أسنانه أن تذهب معه فتشبثت بذراعه ـ إن وافقت على مجيئهما سأبقى معك لشهرين آخرين بعد مدة العقد، وبلا مقابل.

ودَّ إخبارها أن أمنيته في هذه اللحظة أن يكون بعيدًا عنها آلاف الأميال،

لكنه وجد نفسه يقول: "ثلاثة أشهر أطرقت لوهلة مفكرة ثم رفعت رأسها باستسلام!

صعدا إلى غرفتيهما فورما تأكدا من استقرار حسنين وكريمة بغرفتيّ الحديقة، يتعالى صوت كريمة بالدعاء لهما بالستر والبركة، وأن يجعل قدمها قدم خير وسعد على كليهما، فأرسلت شبح ابتسامة باهتًا إلى شفتي قِسمت. ذهب عدنان للحصول على حمَّام دافئ، فأعدت له بعض الشطائر وكوب الحليب بالفانيلا، وقالت ببرودٍ حين سألها ألن تأكل معه، متجهة للفراش: لا أظنك ستجبرني على الطعام مثلما أجبرتني على العودة!

ظنها غفت إلا أن يدها امتدت مغلقة ضوء المصابيح الجانبية، مقتربة منه: كنت بانتظارك؛ أعدتني لتسديد ديوني، عليَّ البدء!

ـ لا تظني أنني سأتوقــ.. ـ قطع استرسال جملته ـ الظلام اللعين! توقفي يا أسما ـ قال من بين أسنانه ـ أنتِ متعبة ولا تدرين ما تقومين به، لست بحالتك الطبيعية! توقفي، أسما توقفي، توقــ.. اســـ...

نهض حين شعر بحركتها للمرة الثالثة، أضاء المصباح الجانبي، وجدها جالسة على الأريكة متكئة برأسها على الحائط شِبه مغمضة.. يكفي يا أسما حُبًّا بالله! حانت منه التفاتة صوب الفراش، فوجد الملاءة غارقة بالمزيد من نزف براءتها، أعاد شعره للوراء زافرًا بإحباط: "شعيراتك الدموية ضعيفة جدًا!" سارع مبدلًا إياها بأخرى نظيفة ووضع المتسخة بالغسالة الكهربية مع بعض المسحوق وأداراها ثم عاد إليها.

"لا تذهب، لا تتركني وحدي" جذبها بين ذراعيه فدفعته بضعفٍ: "دعني، دعني!" فرك وجهه بكفيه ممسِّدًا فروة رأسه، وترقبها حتى تأكد أنها غطت في النوم وعاود الاستلقاء إلى جانبها، أوشك على النوم فانتبه على ذراعها تحيط خصره ورأسها يندس بين كتفه ورقبته: "لا تتركني وحدي همَّ باحتضانها وعدل في اللحظة الأخيرة، ناداها فلم تجب، كانت تهذي! غمرها بين ذراعيه محكمًا الغطاء حولهما، وقبل أن يغوص في

غياهب النوم سمعها تتوسل: "لا تتركني.. لا تذهب يا ياسر..لا يا راغب.. أحتاجك.. ماما". اشتدت ذراعيها حول خصره: "لا تتركني". تمتم بخفوتٍ: "لا أظنني سأذهب لأي مكان بعد الآن!" ومرة أخرى تاهت الشمس عن ليلته.

*

- متى تعود الشمس؟

قالتها لينا مغمضة كمن يتلو صلاة، فقلِقَ عمرو: أتشعرين بالبرد؟

- بل أريد الاطمئنان أن ثمة غدٍ قادم.

اشتدت قبضته حول كفها: لا تخافي أو تحملي همًّا - استطرد بتهكم - (ضربوا الأعور على عينه قال خربانة خربانة) - همَّت بالابتسام إلا أن شفتيها خانتاها - ششششش، لا داعي للبكاء، أنا بخير.

أمرته ببؤسٍ: إياك أن تسامحني يا عمرو، أنا السبب، كان يجب أن تصيبني الرصاصة!

ابتسم بحنانٍ. أيتها الحمقاء! إن أصابتك فقد أصابتني، حمدًا لله أن عيني تلقتها بدلًا منك.

اصمت يا عمرو أرجوك! صدقني أتيت لأفتديكم جميعًا بنفسي لا العكس، كرهت الظلام الذي عشناه خوفًا علينا أن نتحول في غفلة لوحوشٍ ويفوت أوان العودة - تابعت بحزن - سامحني لتصنعي دور البطولة، وكنتم أول من قتلتّهم معركتي!

كفى، أنت لا تعلمين شيئًا، عينى التي تبكينها كانت بلافائدة! كنت أعمى بعينين، والآن مبصر بواحدة!

من الآن فصاعدًا سيصادقها الصمت بحضرته؛ فلم يعد للحديث معنى، ترى من التالي؟ على من ستلتاع وتبكي؟ حثته: يجب أن تغادر فورما تأتي السيارة ولا تعود أبدًا.

ـ أنسيتِ أنَّ لي ثأرًا الآن؟! يجب أن أقتص ممن فعل بي هذا.

ومنذ متىٰ لعمرو ثأر مع أي مخلوق؟! عمرو المسالم الوديع ذو المشاكسات الطفولية صنعت منة ساعيًا للثأر! أثنته: أنت مريض وكل دقيقة تمر تقلل من نسبة شفائك ـ كانت الكلمات تذبحها، عاجزة عن التزام السكوت ـ لا يمكن أن تبقىٰ، ربما إن أصبحت أفضل فيما بعد.

ـ أنا بحاجة إليكِ..

ـ أنت بحاجة لأطباء لا لإنسانة كانت سببًا فـ....

أنا بحاجة إليكِ الآن وغدًا وفيما مضىٰ، بحاجتك منذ وعت عيناي الحياة، لا تظني أني سأسمح لما جرىٰ أن يكون سدًّا جديدًا بيننا، لن أفقد عيني وأفقدك ـ استطرد حين جاوبه صمتها ـ أعلم أني أشحذ عاطفتك لكني لا أهتم.

شعرَها تتحرك خلفه مبتعدة، لم يستطع الالتفات للوراء لكن نداء خالد نافذ الصبر عليها أعلمه أنها عاودت الهروب! هدر خالد بغضبٍ معدلًا عبوة المحاليل الطبية الموصولة بأحد الجرحىٰ: سيصيبني أولادي بالجنون ـ أمرَ الممرضة المتطوعة ـ انتبهي لاستقامة الأنابيب ريثما أعود.

لم تكن بنيَّتِه ملاقاة عادل، ورغمًا عنه اقترب مفترشًا الأرض إلىٰ جانبه، وجعل يتابع معه الهرج والمرج من بعيدٍ؛ ضربات الحجارة لم يصل مداها لوسط الميدان، وقد انحسرت المناوشات علىٰ الأطراف، الشمس غابت تمامًا تاركة المكان فريسة للبرد والظلام، الأقدام تركض هنا وهناك، والصراخ يعلو ويهبط، مازال الميدان مشتعلًا ومن آنٍ لآخر تسقط قذيفة مولوتوف من فوق أسطح العمارات أو يلقيها أحد البلطجية بمواجهة الثوار.

ـ ألا ترىٰ الأمر غريبًا بعض الشيء! أن يكون اليوم دمويًا هكذا رغم تأثير الخطاب العاطفي بالأمس؟! كان من الممكن أن تهدأ الأمور!

قالها عادل فأجابه خالد بضجرٍ: ربما سلَّط الله عليهم أنفسهم ليطغوا في جبروتهم حتىٰ يسقط التعاطف ـ سادت برهة صمت ـ سامحني يا صديقي،

حِملي ثقيل ولا أدري كيف أكفِّر عنه! أفسدت الأمر منذ البداية حتىٰ النهاية.

قال عادل متهكمًا: افتقدت طوال عمري ملكة الطموح، أفضِّل السير في الظل مكتفيًا بمِنَح الحياة! طبيب بإعارة؛ أُحصِّل مبلغًا هائلًا بكفاح الغربة، بمقدوري استثماره بعيادة صغيرة أو حتىٰ بالبنك، فلا أشغل بالي بالمزيد، هكذا كانت لتصبح حياتي! لكنني أُختبِرت للمرة الأولىٰ في حياتي غياب سقف الطموح ـ التفت إليه ـ منحتني جزءًا من طموحك فسرت وراءك ولست بنادم! صدقني يا خالد لستُ بنادم، كما خسرنا اشياء ربحنا أخرىٰ. هكذا هي الحياة! سرت معك مفتوح العينين مدركا لكل شيء، لم يكسرنى أو يحطم عزيمتىٰ عثرة بطريقنا. الشيء الوحيد الذي أعجز عن إدراكه أن مستقبل ولدىٰ إنتهىٰ! وعلىٰ يد ابنتك ـ أطرق بشرود ـ ابنتي لينا!

اعتصرت خالد غصة قاسية، طلب الغفران في هذه اللحظة ليس له معنىٰ! كان يدرك ما يودّ عادل إخباره؛ أي شيء عدا عمرو!

تابع بحيرة: لم نكن يومًا منخرطين بالسياسة، لم يهمنا سوىٰ عائلتينا، حتىٰ أتىٰ الإعصار مقتلعًا كل شيء! أترانا كنا بداخله دون أن ندري أم أننا فعلًا كنا منعزلين؟ ـ استطرد بحدة ـ ماذا حدث لعالمنا يا خالد، أجِبني؟! ما الذي نفعله هنا؟ ـ أطرق بحزنٍ ـ مسكينة حسناء! كيف سأخبرها؟!

تأمله خالد بأسىٰ. امتصت الغربة شبابهما وعنفوان أحلامهما، وحين قرروا العودة لزرع البقايا بأرضهما علها تطرح ثمارًا تغفر لهما الغياب، لم يجدا سوىٰ أرضٍ بورٍ جُرِّفَت خيراتها، فطفحت أشواكا حادة بِسُمٍ زعاف! غمغم: لا أدري ماذا نفعل هنا يا عادل! وكأنها دوامة ابتلعتنا!

كان الصخب والصراخ في كل مكان يصم الآذان، ومجلسهما مراقبان علىٰ الأرض أغرب ما مرَّ به خالد في حياته التي خططها بكل دِقة! هل ثمة مخرجٍ يعودون منه أم أن الأرض هنا رمال متحركة ستبتلع الجميع؟! لمح قِسمت من بعيد تخرج من الخيمة، هو أيضًا رأىٰ البريق الجديد بعينيّ عدنان الذي حكت عنه ليلىٰ ولم يصدقها! لم تكن نظرات عادية لمُحِب، بل نظرات

احتواء واهتمام مغلَّفة بنزعة الحماية، وكأنها أيقظته من سباته!

*　*

حدقت قِسمت بالوجوه المكفهرة التي اعتلىٰ وجناتها الاحمرارُ رغم برودة الطقس! غريب أن يعثر الإنسان وسط الموت علىٰ دفقات الحياة! أوشك الكثيرون علىٰ اليأس، لكن الأكثرية مازالوا يحملون أحلامهم فوق ظهورهم، مُصرِّين علىٰ العبور فوق الدمار والخوف. كان الشباب يجهزون الحجارة داخل الميدان والفتيات ينقلنها إلىٰ المداخل التي وضعوا عليها المتاريس، وقد تحولوا إلىٰ مجموعات من العمل في حرب الحجارة مقابل المولوتوف وطلقات الرصاص! ساعات مرت منذ بداية الهجوم صباحًا بالخيول والجِمال، للحظات رأت الخوف يتسرب للقلوب خاصة بتزايد أعداد الجثث والإصابات، لكن دماء الشهداء التي رأوها بأعينهم أشعلت الإصرار بعد تخطِّي الصدمة. رفت بعينيها متذكرة سبب خروجها؛ كل الهواتف التي يملكونها إما قطعت شحن أو ضعيفة الاستقبال. جالت بعينيها حولها، وسارت نحو بقعة هادئة بها بضعة رجال، ملابسهم لم تلتقط شيئًا من غبار المكان! كان أحدهم يتحدث في الهاتف بثقة كبيرة، يقف إلىٰ جواره شابٌ لم تتبين ملامحه جيدًا، لكن باقترابها كانت المفاجأة! "زين!" اضطرت لتكرار النداء عدة مرات وسط الضوضاء حتىٰ التفَّت: "أسما!" همس بشيء ما في أذن الرجل الذي يقف بجواره ثم سارع إليها بخطوات متلهفة: "أسما، كم الدنيا صغيرة!" احتضن كفها الممدود بين كفيه، وظلا لوهلة يتبادلان النظرات في صمتٍ دون أن يفلت يدها، وحين عثرت علىٰ صوتها باحت بما دارَ في خلدها فور أن رأته: "تغيرت كثيرًا!". قال: "أولسنا جميعا كذلك؟ كيف حالك يا أسما؟" سؤال بسيط إجابته أبعد ما تكون عن البساطة! من أين تبدأ وأين تنتهي وهل هناك وقت؟! مازال يملك البريق المحبَّب بعينيه، فيجبرك علىٰ الاسترخاء والطمأنينة، علىٰ الرغم من أنه أصبح أكثر خفوتًا! تأمَّلت لحيته النابتة الخفيفة وعلامة السجود التي اعتلت

جبهته، ونظَّارته الطبية التي عكست ضوء إحدىٰ كرات المولوتوف.

- بخير الحمد لله، تزوَّجت.

رفع حاجبيه بسعادة: خبر رائع! تعلمين معزتك، أنتِ رائحة الحبيبة التي لا تغيب، وكأني برؤيتك رأيتُها.

قالت بصوتٍ مختنقٍ: وأنت أيضًا غالٍ! - كانا يبحثان في بعضهما البعض عن ملامحها - أرىٰ أنك اخترت طريقًا جديدًا!

سحب كفيه واضعًا إياهما بجيبيٌ بنطاله: أمر طبيعي وإلا فقدت عقلي! شراسة الأيام كانت رد فعل طبيعي لما أنا فيه، لست مختلًا نفسيًا كي لا أدرك ما فعلت وأفعل، علىٰ العكس! أعي تمامًا خطواتي واختياراتي. سأكون صريحًا معك! ومعك فقط! وربما هي المرة الأولىٰ التي أسمع نفسي أقولها بصوتٍ عالٍ، كنت بحاجة لعملية إحلال، روح بدل الروح وعالم بدل العالم، زلزال نوار بعثر الكثير من الأشياء بداخلي، محدثًا فوضىٰ كانت أقسىٰ مما أحتمل، جنبوني عناء التفكير! فعثرت علىٰ راحتي بينهم.

- لا أظنك كنت ناقص دين أو عقيدة يا زين، لا أظنها كانت مشكلتك!

قال باقتضاب: "ولا كانت مشكلتهم!" التفت محدجًا الرجل الذي مايزال يتحدث بالهاتف واضعًا إحدىٰ يديه بجيب بنطاله يقهقه بصوتٍ جهوري، وأطرق بصمتٍ لولهة ثم رفع رأسه بملامح أثقلها الحزن: كانوا إجابة سؤال حاصرني بفترة من أصعب فترات حياتي، كل ما عليَّ هو السمع والطاعة، وهذا مريح يعفيني التفكير

- بعت إرادتك!

تنطلق تعليقها كالسهم المسموم: أجل، واشتريت راحة بالي.

- لا أظنك ستحصل عليها، ربما تغيَّرت شكلًا، لكن أوقن أن زين الذي أعرفه مايزال يقبع بالداخل! زين الذي عشقَتْه شقيقتي حتىٰ آخر لحظة بعمرِها، حتىٰ نظارتك الطبية ولحيتك الوليدة لا أراهما تناسبانك.

ـ توجَّب عليَّ التحول لدودة قراءة لعشرات الكتب في وقتٍ قصيرٍ كي أصبح منهم!

لانت قسماته باجتياح ذكرىٰ الحزن، فلم تشأ أن تصبح وسيلة ضغط علىٰ أعصابه، مافعله طريقة للهروب التجأت إليها هي الأخرىٰ، لا يهم نوع الهروب طالما سيبقىٰ في النهاية هروبًا!

ـ زين أنا بحاجة لهاتف، حالة حرجة يجب نقلها للمشفىٰ.

صوت رصاص جعل كلاهما ينظران للأعلىٰ في آنٍ واحدٍ، آتيًا من سطح إحدىٰ البنايات

القريبة، تعالىٰ بعده الصراخ لسقوط ضحية جديدة. التفت زين نحوها: "دكتور محمود هاتفه يعمل بشبكة جيدة! لا أظنه سيمانع" ركض مسرعًا نحو الرجل: "دكتور محمود لقد رأيتهم! رأيت القناصة بالأعلىٰ؟" أشار بيده نحو سطح البناية التي ومضت بها نيران رصاصة أخرىٰ فشلت في الحصول علىٰ اهتمام الرجل المنهمك في محادثته التليفونية، ملقيًا نظرة ضِيق نحو زين الذي ألحَّ: يا دكتور مصطفىٰ لقد رأيتهم معي الآن! يمكننا الصعود للسطح أنا وبعض الإخوة، وأوقن أننا سنتمكن منه إن شاء الله.

أنهىٰ الرجل مكالمته والتفت إليه بابتسامة يعرفها زين جيدًا: ولماذا تقوم بشيءٍ كهذا؟!

أجاب زين بنبرة لم يستطع إخفاء رنة استنكارها: لكي نمنعهم من قتل المتظاهرين، لنكبح شرهم!

رفع دكتور محمود يده مربتًا فوق كتفه؛ حركة تنذره دومًا بتعليق جديد سيكون عاملًا مساعدًا لفوران دمه: أحيانًا يصبح الشر جنديًا من جنود الحق يا زين، لا نريد للأمور هنا أن تهدأ، ليس بصالحنا! شعبنا عاطفي، وقد رأيت ما فعله الخطاب بالأمس، دعهم لعملهم ودعنا نحن لعملنا!

قال زين مدافعًا باستماتة: لم يفتت الخطاب الغضب لهذه الدرجة! الشباب لم يبارحوا الميدان منذ الأمس، إخوتنا وبقية الشباب لم يتأثروا

بتلك الكلمات الجوفاء يا دكتور!

قاطعه بنفس الابتسامة التي تقطر زيتًا باردًا: زين زين زين، تفكر كثيرًا وهي ليست مهمتك، كل ما عليك اتباع الأوامر وعدم القلق، أنت معنا ونحن نحميك، بل نحميكم جميعًا.

يدفع زين بيديه العاريتين حائطًا صخريًا، له ملمس ناعم، لكنه لن يتزحزح! أتراه باع القضية ليشتري أخرىٰ أكثر خسارة؟! تخبُّطه في الظلام جعل روحه المقسَّمة بين غضبٍ وتيهٍ تتوق لحبل نجاة يجذبها من القاع، ويرجو ألا يكون قد جذب ثعبانًا عوضًا عن الحبل! نوار! بدلة الجندية الطاهرة التي انتزعها من فوق جسده فانتزعت معها جلده القديم وقطعة من روحه، مرتديًا بدلة رقص! اللعنة علىٰ أسما؛ خرجت من ضباب الماضي بوجهها وابتسامتها ككشَّاف الضوء، أجبرته علىٰ مواجهة نفسه وهو من يهرب منها ركضًا تتقطع له أنفاسه! حدَّق بالهاتف الأنيق بين يديه وللحظة نسىٰ لولا طلقة رصاص: أسرعي، حصلت عليه بصعوبة!

تناولت منه الهاتف وطلبت عربة الإسعاف وتأكدت أنهم علىٰ مشارف الميدان: اتبعوا لون الإسبراي الأخضر علىٰ الأرض، نعم ليس الأحمر بل الأخضر، وهناك من سيساعدكم علىٰ الدخول ويفسح لكم الطريق ـ ناولته الهاتف ـ هي المرة الثالثة اليوم التي يغيرون فيها لون العلامات علىٰ مداخل الطرق المؤدية للميدان.

ـ ما باليد حيلة! يخشون الأمن أن يتبع خطاهم، كانت فكرة رائعة من الشباب. هل أنت بحاجة لشيء آخر؟!

شكرته ممتنة ثم استطردت متأملة الهاتف: نوع غريب لم أرَه من قبل، شبكته قوية!

ـ يطلق عليه دكتور محمود (ثريا)، في إحدىٰ المرات طلب منِّي إحضاره، فظللت أبحث عن تلك المدعوة ثريا بين صفوف الموظفين! ـ أردف بدهشة ـ هو الوحيد الذي لا يشكو أبدًا ضعف الشبكة لاتصاله بالأقمار ـ استطرد

بضجر ـ تلك التكنولوجيا المبالغ فيها تصيبني بالملل!

ابتسمت: لم تتغير! ربما تبدَّل الخارج، لكن الداخل يستحيل تبديله. من الجيد رؤيتك سليمًا معافىٰ يا زين.

زفر بمرارة: كل ما حدث وتظنينني معافىٰ! ـ إستدرك ـ سأكون بالقرب من الخيمة البيضاء وسط الميدان، أنا بفترة راحة لربع ساعة أخرىٰ، وبعدها سأبدِّل مكاني مع صديق في الصفوف الأمامية للمواجهات.

همَّ بالذهاب فنادته، عاود الالتفات متسائلًا، فحلت قفل القلادة الملتفة حول عنقها أسفل الشال: كنت أحتفظ بها منذ ان! أعني يوم أن..

قاطعها بإشفاق: يوم أن ركضت هاربًا كالجبناء وتركتك ـ تناول القلادة مطرقًا ـ لم أسامح نفسي يومًا علىٰ ما فعلت، لكن...

أغلقت أصابعه علىٰ القلادة محتضنة كفه: نمرّ جميعنا بلحظات كتلك، انتبه لنفسك.

حدق لوهلة بالقلادة التي تدلىٰ منها اسم نوار ثم رفعها مرتديًا إياها، فقالت بتسلية: أوليس؟ الذهب محرَّم علىٰ الرجال يا أخي؟!

بسط كفه فوق القلادة التي أخفاها أسفل قميصه: "إنها ذهب صيني همَّت بتذكيره أن الاسم المحفور من الذهب، لكنه أشاح بوجهه مبتعدًا، فتمتمت خلفه بشرود: "وداعًا يا زين" تكره لحظات الوداع، تحمل بجعبة الذكريات منها الكثير، ولكل لحظة طعم خاص من الوجع.

* * *

هل ستكون عادة؟ ساءَل عدنان نفسه وهو ينحني ليجلس إلىٰ جانبها علىٰ أرض الشُرفة، فرفت عيناها الشاردتان المتعلقتان بالهضبة الجرداء، ورفعت كفيها تفركان المسبحة ببطءٍ، يكاد يفقد اللغة! تمر أيامًا طويلة لا يحصل منها علىٰ جملة مفيدة! جذب قابس السماعة عن الهاتف: "بم تهمس روزا؟". انساب الصوت الحالم بنغمٍ شجي...

أنا كل ما بشوفك كأني بشوفك لأول مرة حبيبي.. أنا كل ما تودعنا وكأنا تودعنا لآخر مرة حبيبي..

- ألم تأكلي؟ - نفيها المقتضب افقده الصواب فنهرها بضيق - ألا تصرخ معدتك طلبًا للطعام؟!

تغاضت عن المغصة التي عصفت بمعدتها: لا يهم! - مدَّ يده بلوح الـ twix فقطبت - تحرص على المجيء بواحدة يوميًّا!

- لَم تأكلي عداها من ثلاجة الفندق! - اتكات برأسها على قضبان الشرفة فتابع بإحباط - بالكاد تتناولين لقيمات تحت ضغطي، وبغيابي لا تهتمين - كانت شاردة وحبات المسبحة ترزح تحت سحقها - ستنهار أجهزة جسدك!

- وأنت لا تريد لهذا الحدوث؟ - التفتت إليه - مازال أمامي دَيْنٌ كبير لم أسدد منه سوى القليل!

شهران مضيا على ليلة العزاء، لم تتغير ولم يتغير. كمن وقع بفخٍّ محكم كلما حاول التملص يعاود الاستسلام! حتى الليلة التي عاد من جولاته المعتادة بسيارته في الشوارع والمقاهي، عاقدًا العزم وقد أعياه التشرد أن الوقت حان لفَصمِ عُرَى رباطهما؛ فتح الباب ورآها في الفراش متهيئة له كعروسٍ لم يرحل عنها الخجل، زائغة النظرات، جفلت حين لمحت خياله بطرف عينها فتصنعت التماسك مطرقة لوهلة، ثم رفعت رأسها، تبادلا النظرات لجزءٍ من الثانية كانت خلالها أفكاره تتبخر في الهواء، همَّ بخلع معطفه والاقتراب فهتفت: "الضوء" سارع مغلقًا إياه وخلع معطفه ملقيًا إياه على الأرض، تلاه ببقية ملابسه وكل هواجس الهروب وسخافات المنطق! تمنحه حق النظرة الأولى ثم تغرقه بالظلام، وحين يعترض تقول: "لا يهم! أنت رجل لا ينظر مرتين"، ورغم هذا مازال هاجس الابتعاد يطوف بخياله كل حين! تمتم: "تعلمين أنه ليس مقصدي"، فأجبرت جانبي فمها على الارتفاع: "لا ترهق ضميرك، لا يهم بحث فيها عن السلوى والهروب من واقعٍ يخنقه، فسحبته لدوامة ضياعها الخاص!

رفع كفه محتضنًا كفها ليوقفها عن فركِ الحبات: انظري كم أصبحت عظامك بارزة! - مسَّد ظاهر كفها بوجنته - حتىٰ بشرتك باتت كالفاكهة المجففة لقلة السوائل - استطرد بتعجب - إمممم، كنتِ تسبحين!

جذبت يدها من بين أصابعه: كنت أدعو لنوار - أشاحت برأسها - أتوسل إليه أن يدخلها الجنة ويعوضها عمَّا عانته - عاودت النظر إليه - أخبرني أيها الطبيب، لم لا يسمح أمثالكم لأمثالنا بثقبٍ صغيرٍ للتنفس؛ بوصة بجانبكم نمارس فيها آدميتنا؟!

أطرق يعض علىٰ أسنانه: وما دخل المسبحة بالدعاء!

- مع كل تمريرة حَبَّة أتوسله، أنا شقيقتها الصالحة التي ستدعو لها - التفتت لتسأله متشككة - ألا يقال (ولد صالح أو شقيقة صالحة)؟ - أطرقت - وإن كانت غير صالحة؟!

- سيتقبل الدعاء وإن ظننت بنفسك السوء! هو القادر علىٰ العِلم بالحقائق والخفايا، فاهدئي بالًا - ابتسم - هذه الرائحة؟ - عاود الإمساك بكفها مشتمًا عبيرها بعمقٍ - تشبه رائحة الليمون وعلكة المستكة - اشتمها ثانية بتلذذ - لاحظتها كلما رأيتك تتمتمين بالتسبيح تفوح بقوة!

عاودت جذب يدها بنزق: إنها حبَّات الكهرب! - تابعت بزهوٍ - رائحتها لا تظهر سوىٰ بفركها والدوام علىٰ استخدامها - رفع حاجبيه دهشة، فاستدارت متربعة بجلستها ورفعت المسبحة - انظر، كل حبة من مادة الكهرب الأصلية (الكهرمان)، أفرزتها إحدىٰ جذوع الأشجار، يمكنك رؤية الحشرة المتحجرة بتلك الحبَّة.

اقترب محدقًا: يبدو أنها سقطت بالمادة قبل تحجُّرها!

بالظبط..الكهرب مادة كلما فركتها اكتسبت حرارة تبخرها فتفوح رائحتها، وكلما داومت علىٰ استخدامها، تصبح الرائحة أكثر وضوحًا - أخفت المسبحة بين كفيها تفركه بشرودٍ - لم أكن أستخدمها من قبل فلم يكن لها رائحة!

لمح بعينها وميضًا لحزنٍ يوشك على الظهور فأسرع قائلًا: غريب أمرها! من أين حصلتِ عليها؟

- من جدتي لأمي، قِسمت التي سُمِيت باسمها.

- ومن أين حصلت عليها جدتك؟ يبدو ثمينًا!

- ترتاب بشأن حصولي عليه رغم قيمته الثمينه! معك حق أيها الطبيب. حكايته غريبة ومثيرة!

سألها باسمًا: أمازلتِ مصرة على مناداتي برسمية؟! حسنًا يا أسما، اِحكي قصة المسبحة، أتحرَّق شوقًا!

أرخت كتفيها باستسلام: حسنًا أيها الطبيب، هو إرثٌ عائلي يعود لمائة عام، كانت والدة جدتي إحدي وصيفات الملكة نازلي.

حاول عبثًا حَلّ ربطة عنقه فتشابكت عقدتها بشدة، رفعت يدها بعفوية وساعدته، فاعتدل متربعًا أمامها مشيرًا أن تكمل: وما الذي أوصلها للملكة؟

داعب شفتيها شبح ابتسامة: أسئلتك لا تنتهي!

مطَّ شفتيه: صدقيني هو أمْر جديد عليَّ! تتغير الكثير من الأشياء رغم أنوفنا! هيًّا أكملي.

- أرسلت إلى الملكة بعد زواجها من الملك فؤاد، دعوة من السلطان محمد وحيد الدين (محمد السادس) آخر سلاطين الدولة العثمانية، والذي اعتلى بعد وفاة شقيقه (محمد الخامس) وانتحار وليّ العهد، كانت والدة جدتي حينها مسؤولة الجناح الخاص بها في الأيام القليلة التي أمضتها الملكة هناك، وسرعان ما انسجمتا فطالبت الملكة السلطان اصطحابها معها لمصر، قرَّبتها منها حتى أصبحت الوصيفة الثانية، وفي إحدى المرات رأتها بعد انتهائها من صلاتها جالسة تُسَبِّحُ على عقلات أصابعها فسألتها (ألا تملكين مسبحة؟)، فأجابتها (لا يهم! ستضيء أصابعي يوم لقياه).

رفع حاجبيه: يبدو أن (لا يهم) إرث عائلي!

مطّت شفتيها ببرودٍ: يبدو هذا - ربت على ركبتها يحثها لتكمل فرفعت

رأسها بعجرفة ـ لا ـ وعدها بعدم التعليق ثانية بسخافة فقالت ـ لا يهم! ـ رفعت المسباح لتشتمه وتعاود نظراتها الشرود ـ صممت الملكة على إهدائها المسبحة، لكنها أصرت على استخدام أصابعها لآخر لحظة بحياتها، لذا احتفظت المسبحة برائحتها.

ودت لو تخبره أنه الأول الذي تحكيها له، وأن أحدًا لم يهتم بسؤالها عن بقية الحكاية، لكنها شعرت أن الأمر لا يهم! ما هو يقين برأسه سيظل يقينًا مهما فعلت.

قال بغتة: أتعلمين ما نحن حقًّا حاجة إليه؟!

* * *

(١٤)

منذ حَطت طائرتهما بمطار دبي الدولي ونظراتها لا تستقر بمكان! الأناقة والتحضر عنوان هذه البقعة من الأرض؛ قاطنوها وحكامها استطاعوا استغلال مواردها وثرواتها بكل براعة، محولين الصحراء قديمًا إلىٰ واحدة من أرقىٰ وأجمل المناطق في العالم. أخبرها عدنان علىٰ متن الطائرة أنها قطعة باريسية بل وربما فاقتها جمالًا! تلفتت فيما حولها مطالعة البنايات التي يعج بها المجمع السكني الفخم بشارع الجميرا بجبل علي؛ اشهر الشوارع السياحية بالإمارة. قرأت فيما مضىٰ أن الخليج مشهور بزراعة النخيل، لكن ما رأته أن الأرض زُرِعَت أبراجًا! (نحتاج للسفر) اقتراحًا تقدَّم به عدنان، ومن فوره قام باتصالاته لاستخراج جواز سفرها، والحصول علىٰ تأشيرة تجهل للآن كيف تَحصَّل عليها، مدركة المبلغ الطائل الذي توجَّب عليه دفعه! ابتسم عدنان للرجل الباكستاني حارس العقار ودارَ الحديث بينهما بالإنجليزية؛ اللغة الأم هنا لكل المعاملات بين ذوي الجنسيات المختلفة. كانت تحبس أنفاسها خوفًا من مطالبة الحارس لما يثبت زواجهما؛ فأدهشها مرور المعاملات بسلاسة! وبعد ساعة اصطحبها لفندق beach jumeira

ليحضر أولى وقائع أحد المؤتمرات الطبية، وهناك افترقا ليحجز غرفة صغيرة لنصف يوم لئلا يضطر للبقاء على حمَّام السباحة حتى موعد الفعالية الثانية قُرب المغيب، قرر بعدها تناول بعض القهوة في مقهى الفندق تاركًا لها بعض المتنفس. أتاه صوتٌ رقيق من خلفه وعيناه تبحثان عن طاولة خالية، جمده بوقفته، لم يخطئ النبرة! أمعقول! التفت هاتفًا بدهشة: "روفي!" إلتماع السعادة على صفحة وجهها أعاد له ومضات ذكرى قريبة بعيدة، وكأن السنين لم تمر!

ـ ظننتك ستحتاج وقتًا لتتذكرني! كيف حالك؟

لم تَخفَ عليه لهفتها! تفحَّص وجهها المميز؛ لوحة تشكيلية مليئة بالخطوط والألوان اللامفهومة لمن لا تسمح له بقراءتها. انتظام دقات قلبه أنبأه بالإجابة قبل أن يُسائِل نفسه: "بخير على ما أظن" طالبته بدعوة على فنجان قهوة، فقادها نحو طاولة أنيقة ملاصقة لشرفة المقهى؛ ذو إطلالة على الخليج، لم يشعرا بحرارة الطقس بسبب الزجاج العازل للصوت والحرارة، وقد امتدت المياه بلونٍ فيروزي لا منتهي، تخترق شواطئها بنايات على أحدث الطُرُز، أروعها شكل نخلة افترشت سعفاتها سطح الماء! وضع النادل فنجانيّ القهوة الصفراء إلى جانب طبقٍ من التمر الباهظ الذي لا يقدم سوى بأرقى الأماكن. ارتشفت من قهوتها وأعقبتها بقضمة تمر: "المكان يوحي بالسكينة! ـ أومأ عدنان فتابعت مازحة ـ أكاد أصاب بالحموضة من شرب القهوة" أطلق ضحكة قصيرة: "يتناولونها بشراهة!" تعلقت عيناها بوجهه تتأمله بنظرات ملئها التوق؛ سبع سنوات حفرت خطوطًا قاسية حول فمه وإلى جانبيّ عينيه لم تزده سوى وسامة ورجولة! حتى شعيرات الشيب التي تذكرها أصبحت أكثر كثافة. الغريب أن أبسط الأشياء بشأنه مازالت تمسك قلبها بقبضة من حديد، تزلزله بين ضلوعها، لقاؤه صدمة كهرباء لقلب ميت! مازال يملك التأثير الذي يحولها بلحظة من طبيبة مخضرمة يرتجف أمامها تلامذتها، إلى مجرد طفلة تتعلق بأذيال أستاذها! الوحيد الذي أرسل أنَّات نشيجها ليلًا، والوحيد الذي امتلك مفتاح سعادتها ورفض استخدامه!

فضَّلت الحديث لئلا تختنق بأفكارها فسألته قاضمة حبة تمر تواري ارتعاشة شفتيها: ماذا فعلَتْ بك السنوات؟ هل أنجبت أنت وعلياء؟

أمال رأسه بدهشة: مازلتِ تذكرين اسمها!

مطَّت شفتيها: وهل ينسىٰ المقتول اسم قاتله؟!ـ وضعت الفنجان والتمرة وقد غادرتها شهيتها ـ قَتلَتنِي دون أن تعلم، انتزعت منِّي الوطن الذي عثرت عليه بغربتي، أوليس قتل الروح أشد بشاعة من قتل الجسد! علىٰ الأقل هذا ما نقوله لمرضانا كي يكافحوا ويتشبثوا بالبقاء!

أطرق بصمتٍ. قرار واحد خاطئ أمكنه قلب حياتهما رأسًا علىٰ عقب، ربما لم يكن ليلتقي بقسمت! عاودت سؤالها بإلحاح: "هل لديك أولاد؟" قال: "ليس بعد". سألته بلهفة: "لِمَ؟". حدق بها البرهة فأجلت حلقها بارتباك. كانت وقاحة مني!

سألها محوِّلا دفة الحديث: هل أتيتِ بصحبة زوجك؟

زفرت بسخرية معيدة الإمساك بالفنجان الصغير مبتلعة السائل مع حسرة جديدة، كانت تترصد أخباره بعكسه: تطلقنا بعد عامٍ من زواجنا ـ تمتم باعتذار باردٍ لم تعثر به علىٰ ما تمنَّت ـ لم أكن سعيدة، لَم أستطع!

قال بلطفٍ: لست متفاجئًا، لأنه أنتِ! ـ أطلقت ضحكة جوفاء متسائلة، فرفع كتفه باستخفاف ـ أنتِ روفي؛ روح حرة لا تصنعها المقادير، لوحة لبيكاسو تفرض واقعها الخاص ولا تلتفت لنظم الكون الثابتة، امرأة قررت تجربة الصدمة الكهربية لتستكشف شعورها! شغف يمشي علىٰ قدمين.

قالت باسمة بشرودٍ: لحظة جنون! تسببت لي بتوبيخ ولوم أساتذتي بعد إفاقتي من إغماءة الصدمة، وحرمتني دخول إحدىٰ المحاضرات الهامة ـ التفتت إليه ـ ناهيك عن خصامك القاسي، ربما شغفي هو لعنة حياتي! ـ مازال يذكر والغريب أن لتوها أيضًا تذكرت! هزت رأسها ببطء وعيناها تحدجانه ـ ربما تكون محقًا فيما قلت، لكنك مخطئ بشيء واحدٍ؛ كنتَ شغفي، موطني ـ أشارت برأسها صوب مركب شراعي زُرِع بفضاء صفحة

الخليج ـ شعرتني كهذا القارب، وحدي بمساحة شاسعة من الفراغ دون بر أرسو عليه، لم ينجح زوجي بإنهاء رحلة التيه التي أعانيها منذ الأمد!

وكأنها تتحدث عنه وعلياء! ابتسم: مازالت شجاعتك تخطف أنفاسي! لا تلتقين بالكثيرات ممن لديهن جرأة اتخاذ قرار كهذا، بالأخص في غربة نبحث بها عن بعضنا البعض لنوطد جذورنا ونقوىٰ!

هتفت بحدة: خطأ! لا قوة بلا سعادة، ولا سعادة بلا شغف حقيقي.

مطَّ شفتيه ممسكًا بفنجان قهوته الذي أوشك علىٰ الصراخ لفتًا لانتباهه: ربما معكِ حق، تِبعًا لقوانينك الخاصة!

بل قوانين البشرية كلها، ثمة من يتجاهلها متعمدًا، طلبًا للجانب الآمن! هي قوانينك أيضًا وإن أنكرت؛ مازالت عيناك تبحثان عن وطنٍ! ـ أبدىٰ دهشةً ـ كلانا يعلم حقيقة زواجك بعلياء، لا نختلف كثيرًا عن بعضنا البعض، والسؤال. هل لديك الرغبة في العثور علىٰ وطنٍ حقيقي مثلي أم استسلمت؟!

جذب أنظاره شخص يسير فوق اللسان المرصوف بالأحجار الملونة الممتد لعُمقِ الخليج؛ لم يخطئها! ما الذي أتىٰ بها لتلك البقعة؟ قطب وعيناه تتابعانها حتىٰ استقرت علىٰ نهاية اللسان مدلية قدميها بالمياه. انعكاس اشعة الشمس مكَّنه من رؤية طرف مسبحتها الفضي متدليًا من جيب سترتها الصيفية البيضاء عالية الكُمّين، لا تسمح لأحدٍ برؤيتها تُسَبِّح، كما لم تتوقف للحظة عن ترديد الدعاء لأجل نوار! يعلم أنها الآن تعتصر الحبَّات بين أصابعها المخفية بجيب السترة، يكاد يشتم عبيرها الليموني من هنا! لكن الشمس حارقة وهي ضعيفة البنية؛ لن تحتمل بشرتها! تخيَّل ملامحها الحزينة رغم المسافات وسمع تنهيداتها. تمنىٰ لو تصرف معها بشهامة وأعتقها بعد المرة الأولىٰ أو ربما الثانية والثالثة؛ مصارعًا براءتها التي أبَتْ الذبح مرة بعد مرة! لكنه ترياقها؛ أسَرَته بروحه فور ما احتوته للمرة الأولىٰ، منعشًا فيه حياة ظنَّ لوهلة أنه فقدها، فحوَّلته لمهووس لا يطيق الابتعاد، ملعون هو! مازال يسعىٰ

لتخليص نفسه من الذنب بإلقائه عليها! أنعشته كصدمة كهربية تشبه ما تلقتها روفي، أعادته للحياة فأجهز عليها! انتزعه نداء روفي: شرودك مؤلم أكثر من صمتك!

سحب نفسًا عميقًا من الهواء لصدره: معذرة، أمور كثيرة تشغلني.

ارتفع جانب فمها الرقيق بمرارة: إذن ماتزال عيناك تبحثان عن وطنٍ!

قال وعيناه تتابعان قِسمت عند اللسان: "ربما" امتدت يدها المترددة محتضنة أصابعه عبر الطاولة، فالتفت نحوها: أتمنى من كل قلبي أن تعثر عليه، ستكون لحظة بالعمر كله!

سألها باسمًا: ماذا بشأنك يا أرزة لبنان؟

رفعت رأسها بزهوٍ: لن يعييني البحث أبدًا! ـ زفرت بمرح مصطنع ـ أوقن أن ثمة وطن بانتظاري.

نهضت ممسكة بحقيبتها مستئذنة فسألها: "بهذه السرعة!" قالت: "لا داعي لبقائي نهض مادًا يده لمصافحتها فنظرت ليده الممتدة وأسبلت جفنيها لوهلة، ثم التفت حول الطاولة وشبَّت على أطراف أصابعها، طابعة قُبلة كنسمة هادئة فوق وجنته دون أن تهتم للأعين الفضولية من حولهما: انتبه لنفسك، وإن عثرت على وطنك لا توليه ظهرك مجددًا.

سارت مؤرجحة حقيبتها كالأطفال ونغمات فرنسية تنساب من بين شفتيها بصفير خافت؛ أغنية للارا فابيان مايزال رنينها مألوفًا لأذنيه، لطالما همست بها كلما جمعتهما سيارتها...

أحبك كمجنون.. كعشق الملوك..كحب نجمات السينما.. هكذا أحبك..

ماتزال تغني للحياة رغم قسوة معاركها، ويوقن أنها لن تتوقف يومًا! التفت نحو قسمت المفترشة أرض المارينا. خَطَر! نزعة الحماية خطر، الشعور بحد ذاته اشد خطرًا! ما بينهما يصعب تحديد ملامحه؛ اتفاق، عقد، نقطة التقاء عابرة! ربما، لكنها باتت في فترة قصيرة حدثًا جللًا هزَّ كيانه!

مدركًا أن زيف الابتسام ليس سوى وسيلة لجهادها الدائم ضد الانهيار، فأكبر روحها المقاتلة!

* * *

خلية نحل؛ عُمَّال يسعون من بكور الشمس حتى مغربها، بنايات تسابق بعضها البعض في الصعود مخترقة ستر السماء الشاهقة، حافلات تسير جيئة وذهاب تنهب الطرقات مكتظة بالبشر ألوانًا وأشكالًا، بوتقة كبيره تصب بها البلدان أعراقها وأجناسها المختلفة! طالعت قِسمت الأجساد العارية لنساء مستلقيات على الشاطئ قُرب المارينا وحول حمَّام السباحة، يتغذين بشمس تكاد تفتك بكتفيها. وأمواجهم الكسولة تضن بزبدها على الشاطئ! حتى شمسهم التي ترسل شراراتها اللاهبة بحماس طوال النهار استطاعوا التملص منها خلف أبواب مغلقة وزجاج معتم! وخزتها الشمس فرفعت كفها لا شعوريًا ممسِّده كتفيها فزاد ألمها.

"التقينا قبلًا!" انتزعها السؤال من شرودها، لتلتفت بعينين ضيقهما ضوء الشمس نحو الوجه المرتاب، لوهلة لم تسعفها الذاكره ثم سرعان ما تذكرت! أشار نحوها بدهشة: "أسماء ذو الفقار!" ارتفع جانب فمها: "بل قِسمت ذو الفقار يا دكتور..؟" تصنعت النسيان فعاجلها بمرح: "كريم ذو الفقار؛ نحمل اللقب نفسه! ما فرصة لقاء كهذا؟"، جلس بجانبها بلا استئذان! وما الحاجة وهي الخادمة؛ لا تملك حقوقًا أو خصوصية! حظه أنه ابن عمها وإلا تصرفت بطريقة ندمته على الاقتراب! "ماذا تفعلين بدبي؟" فكرت قليلًا بسؤاله، محدقة بالمياه المداعبة لقدميها ثم رفعت رأسها بابتسامة ضيقة: "عقد عمل حصلت عليه بأعجوبة" دسَّت المسبحة بجيبها، فيما خمن أنها تعمل بطاقم الضيافة! أومأت بلامبالاة وسألته بدورها، فرفع كتفه باستخفاف: "مؤتمر طبي وما سيكون سوى هذا؟! لوهلة أرادت إعلامه أن ابنة عمه الصغرى قتلوها وألقوا بجثتها في ثلاجة باردة لأنها لم تملك ثمن تدفئتها وإكرامها! وأنه واحدٌ ممن يتمرغون بإرثها المسلوب

تاركًا لحمه ودمه على قارعة الطريق! لكنها وأدت رغبتها مطبقة شفتيها، فما أدراه بالتاريخ!

- هل حصلتِ على شهادة جامعية؟

لتهدأ وتحاول التخلص من هذه المحادثة؛ رفعت رأسها بعجرفة: بكالوريوس إعلام بدرجة إمتياز، وأجيد اللغة الإنجليزية والبرمجة والكومبيوتر.

فغر فمه: وتعملين هنا! لماذا لم تُدَرِّسي بالجامعة؟

مطَّت شفتيها بتهكم: لأن ابن الدكتور سيصاب بالصرع إن لم يتعين! والدكتور يخاف كثيرًا على صحة ابنه.

أومأ بأسفٍ: خسارتهم بعدم تعيين الكفاءات! أعطني رقمك وسأرى ما يمكنني فعله، بإمكاننا توفير وظيفة محترمة لكِ، تتلائم وطبيعة درجاتك العلمية.

تجاهلت كلمة (محترمة) وأعطته رقم هاتفها. وجلسا لعدة دقائق يتحدثان حريصة ألا يتطرقا لأي أمور شخصية. رنَّ هاتفها بغتة فأجابت بنبرة هادئة؛ كان عدنان يستدعيها سرًا لغرفة الفندق التي حجزها لهما. عضَّت على شفتها السفلى لبرهة، ثم التفتت نحو كريم ونهضت معتذرة لأن فترة استراحتها انتهت، فودعها بثقة: سنلتقي ثانية.

ظنت أنها أفلتت من منطقة الخطر عدا أن وجهًا مألوفًا ظهرَ أمام عينيها؛ رفع شمس حاجبيه بدهشة: كم الدنيا صغيرة! - ابتسم بتسلية - ذات الغمازتين والابتسامة الخاطفة! كنت أبحث عن ولدي لأعثر عليك بدلًا منه؛ مصادفة عجيبة!

موقف لا يطاق؛ تتخلص من الابن لأجل الأب! أشارت نحو المارينا: "تجده هناك" فكر الرجل بتركيز: أسماء؟ سمية؟ ذو الفقار، أليس كذلك؟ لا يمكنني نسيان حملك لقب عائلتنا.

قاطعته بنفاذ صبر: أسما يا سيدي، أسما.

لوح معتذرًا: السن لم يعد يسعف الذاكرة.

ـ في الواقع ليس اللقب فحسب! اسمي قِسمت علي الدين ذو الفقار ـ تشدقت باسم والدها بسخطٍ شديدٍ ازداد معه احمرار وجنتيها ـ علي الدين ذو الفقار.

وأشاحت برأسها مستئذنة بسخطٍ. لا تدرىٰ ماذا دهاها لتقدم علىٰ ذلك؛ الغيظ والغضب أم المهانة؟! استقلت المصعد البانورامي فرأت وجهه المكفهر وقد استولت علىٰ تقاسيمه العجوزه الصدمة! أنّبت نفسها مئات المرات علىٰ فعلتها غير محسوبة العواقب. لكنها ساخطة لعثورها عليه بعد انتهاء كل شيء. الآن فقط تقرر القسمة إلقاءه بطريقها! أعادت رأسها للوراء مطلقة ضحكة خشنة: آه يا عمي العزيز! تاخرت كثيرًا، ليتك استمعت إليَّ يا عدنان تلك الليلة! انهارت بضحك هستيرىٰ مختلط بالبكاء، ودموع تقاطرت علىٰ جانبي شفتيها المنفرجتين. انفتح باب المصعد لتقابلها أزواج العيون الفضولية، فكفكفت دموعها هاتفة بسخرية: c'est la vie.

* * *

ـ ما الداعي لهذه الحركات البوليسية؟!

قادها بصمتٍ صوب الغرفة وفتح الباب هاتفًا بنفاذ صبر: ثمة واحدة رفضت عقد جواز شرعي وأصرت علىٰ مدني غير موثّق! ـ استدرك بسخرية ـ بالمناسبة، أليس من المفترض بالعشيقة ألا تكون مصدر إزعاج أو توتر؟!

أطرقت محدقة بالأرض كالأطفال تعض علىٰ شفتها آسفة: تعلم أني...

قاطعها بتهكم: لا أستطيع! ـ مطَّ شفتيه متصنعًا التفكير ـ تذكرينني بتحيه كاريوكا؛ طفقت تردد (ما اقدرش، ما اقدرش)، وفريد يرد بإحباط (ليه دايمًا ما اعرفشي! بتقولي ما اقدرشي). أتعرفين الفيلم؟ ـ لوَّح يده بسخرية ـ يالحماقتي! بالطبع. نسيتُ أنك موسوعة! ـ تذمرت فرفع حاجبيه ـ ماذا عكَّر مزاجك السلطاني؟ رغم الجلسة الشاعرية!

رفعت كتفيها باستخفاف حين شعرت بحكَّة فوق كتفها فهرشتها، لتصرخ مستنكرة، نظرت لموضع الحكة فرأت خطًّا أحمر؛ بشرتها ملتهبة! زفر بنفاذ صبر: توقعت أن تملكي بعض العقل لتضعي واقي الشمس.

ارتفع جانب فمها بملل: لا يهم.

تحدوني أحيانًا رغبة قوية كلما أطلقتِ اللا يهم خاصتك؛ بإمساك رأسك وضربه بالحائط حتىٰ تسقط الكلمة منها أمامي علىٰ الأرض!

رفعت رأسها بعجرفة: لا يهم.

تنهد واضعًا كفه فوق جبهتها: أرجو ألا تكوني مصابة بضربة شمس.

قالت بتجهم: أشعر ببعض الدوار!

دفعها نحو المقعد: ابقي هنا، أريدكِ.

يفصل بينهما وعمها للمرة الثانية عدة خطوات، لكنها وللمرة الثانية أيضًا لن تقترب! لن تعرِّي نفسها أمام شخصٍ آخر، يكفي ما تعرىٰ! سيبقىٰ طيفًا في الظِل لا يملك أدنىٰ أهمية. "لمَ أظلمتِ الغرفة؟" أتاها صوته حانقًا فأجابته ببساطة: قلت أنك تريدني.. وقد حجزت غرفة!

ألقىٰ المرهم الطبي فوق الفراش: ألهذا ظننتِني قمت بحجزها؟ ـ أردف بضيقٍ شديدٍ ـ أريدك لشيء هام! شيء هام يا أسما وليس لذاك الأمر.

سألته ببرودٍ: وماذا يمكن أن يكون بيننا عدا ذاك الأمر أيها الطبيب؟!

اقترب في ظلال الغرفة المعتمة ليجلس قبالتها علىٰ الفراش: تختزلين علاقتنا في هذا الأمر! ولسنا بحيوانات! فلا تحاولي إشعارنا بذلك.

الطبيب الرقيق المتفهم والمراعي لمشاعر الآخرين! انظروا من يتحدث هنا! أنا لا أعرفك! لا أعرف سوىٰ الرجل الذي طالما أذلني وعاملني كالقمامة، لم أطالبك بالشفقة من قبل ولن أطلبها الآن، وأجل! سأختزل ما بيننا في ذاك الشيء الذي تجلس عليه، فلن يكون بيننا سواه.

ـ ماذا بشأن التواصل الإنساني؟! ـ مدَّ يده بكوبٍ من العصير ـ اشربي هذا ليعوِّض الجفاف.

تناولت الكوب، بينما وضع بعضا من المرهم الطبي على كتفيها ممسِّدا برفق، فقالت بشرودٍ: أشعر بالغيرة كلما قارنت حالهم بحالنا؛ مدينة متناهية الصغر باتت نقطة جذب مغناطيسي للعالم كله خلال سنوات؛ لا شيء بعمر مصر الطويل! أهو المال؟ ألأننا فقراء!

مطَّ شفتيه: الفقر ليس مشكلة، على الأقل ليس المشكلة الأساسية.

التفتت إليه بحدة: كل ما عليهم هو الحفر لاستخراج المال أيها الطبيب! كلمة السر.

تنهَّد مغلقًا عبوة المرهم: بإمكاننا الحفر وإخراج الثروات! المشكلة في النفوس المدمنة للخنوع، والفساد المستشري، والقوانين هزيلة التطبيق! مشكلاتنا أعمق بكثير من الفقر يا أسما، الفقر نتيجة وليس سببًا ـ زفرت بإحباط ـ مع من كنت تجلسين؟

ارتفع جانب فمها: وما شأنك؟

ـ يمكننا تبادل الأحاديث كما نتبادل.. الأشياء الأخرى!

محاولاتها العبثية بتصوير علاقتهما الحميمة دومًا من طرف واحد، وتحويل نفسها للمتلقي محض هراء! كلاهما يعلم أنه رجل حنون ومتفهم، وليست لوحًا من الثلج؛ وهو ما تفشل بادعائه كل مرة وبجدارة! يناطحها بكلمات تفقدها ثباتها ودرع الحماية بسهولة. أبعدت يده عن كتفيها بخشونة: "كفى!" سألها بحزم عن الشاب، فقالت: لست مضطرة للإجابة لكن سأخبرك لأن الأمر لايهمّ! إنه كريم ابن الدكتور شمس الدين ـ سألها فيم تحدثا، ممسِّدا طول ذراعها. فأدركت أنه علم هويته من هدوء تلقيه الإجابة ـ انتبه وإلا ظننتك تغار أيها الطبيب! لستُ ممن يستحقون غيرتك، لا تنس؛ أنا second hand! ـ زفرت بسخرية ـ ولا تقلق، لم أخبره بشأن زواجنا، اكتفيت بأحاديث عامة.

ـ لستُ خائفًا من معرفته بزواجنا ـ حلَّ أزرار قميصه ـ إن كنت أخشى

مغبة زواجنا ما أقدمت عليه ـ اتجه نحو الستائر معاوِدا إسدالها ـ أظنني بدلت رأيي! لنتبادل الشيء الوحيد الذي توافقين على تبادله معي، لنكن حيوانات، إن كان هذا سيسعدك! ـ اقترب وأجبرها على الوقوف ملامسًا كتفيها ـ لنرَ لأي مدى تشعرين بالتحسن!

سألته بصوتٍ أجش: ظننتنا سنخرج لتناول الطعام. ألست جائعًا؟

أتاها صوته متكسرًا كأمواج الشاطئ: كالوحوش ـ انحنى طابعًا قُبلة صغيرة فوق كتفها ـ وبشرتك جائعة مثلي؛ امتصت المرهم الطبي! ـ حرر ذيل حصانها ـ سنأكل، وعلينا البدء بالـ...فاكهة!

انحنى سارقًا ابتسامتها، لتستمتع رغم أنفها بتنفس الحرية للحظات بعيدًا عن أسر الحزن، مخادعًا إياه دون أن يغلبه! سألته ألا يريدها أن تستعد كما ينبغي بعشيقة؟ فقاطعها مغمغمًا: لا يهم!

* * *

كانا يسيران بأروقة المول التجاري اللصيق بالفندق، يحملان حقائب بلاستيكية حملت الكثير مما تحتاجه، والأكثر مما لم تفكر يومًا باقتنائه؛ كل ما لفت انتباهها أو نظرت له مرتين أتى به، رافضًا بحزم محاولاتها إثنائه!

قالت متلذذة بملعقة من أشهى آيس كريم تذوقته بحياتها: ما سر هوس الفانيلا؟

التفت باسمًا إليها: وما سر هوس الكراميل أو التليسكوب، والقراءة؟ ـ قطبت باعتراض فمطَّ شفتيه ـ تصرين على إجابة! مممم، أجد نفسي معها! لذيذة وناعمة، براءة الطفولة البعيدة ـ أردف بفضول ـ وأنتِ.. لِمَ الكراميل؟

لانت ملامحها: أمي كانت تصنعه منزليًا؛ ألذ كراميل يمكنك تذوقه بحياتك! من الصعب رؤيتها ومن السهل تذوق ذكراها!

ابتسمت عيناه: شهية! ـ رفع كوبه بمكرٍ ـ الفانيلا.

يومًا ما سيخبرها حقيقة ما كان بينهما، يومًا ما سيعترف بما اقترفه وما لم

يحجم نفسه عنه، وكلاهما ذنب! توقفت رافعة رأسها تتشمم باهتمام: "ما هذه الرائحة؟" جعل يتشمم بدوره فسارت ببطءٍ خلف الرائحة؛ باتت أقوىٰ كلما اقتربا من حانوت فخم معلق علىٰ بابه مبخرة نحاسية، تصاعد منها دخان حمل المزيد. ابتسمت: رائحته رائعة! يذكرني برائحة خلطة البخور التي كان يحرص والدي علىٰ إحضارها فيعبق بها البيت لآخر الليل ـ جذب يدها ودلفا معًا فهتفت بذعرٍ حقيقي ـ يبدو باهظ الأثمان!

كان كل شيء منمق ولامع، والروائح المذهلة تفوح من كل ركنٍ، كم يكون الجمال مخيفًا أحيانًا، وقدرة الروح علىٰ تحمُّله أصعب ما يكون! تسمَّرت، فجرها بقوة نحو الرجل الواقف خلف طاولة كريستالية، أجاب تحيته بترحاب وسأله عن العود بالمبخر. أشار الرجل لإحدىٰ القناني: "عود هندي من أجمل الأنواع وأطيبها" وضع الرجل قطعة منه علىٰ مبخرة صغيرة تحوىٰ جمرات مشتعلة فتصاعدت رائحته. سأله عن الثمن. "الجرام الواحد بعشرين دولار"! شهقت بذهول: "كثير جدًا" أخرج بطاقة نقود: "نريد عشرة جرامات من فضلك" تعلقت بذراعه ذاهلة: "عدنان!" ابتسم هامسًا: "المرة الثانية التي تنادينني باسمي، اجعلها عشرين جرامًا"

قالت بتسلية وهما يتجهان لشراء سكاكر ملونة لها: تصيبني المدينة بالازدحام، أشعرني مليئة بصخبٍ يطن بلا هوادة!

ابتسم: أتيت مرات قليلة وكان يصيبني ما أصابك. رغم هدوء ودعة أهلها إلا أنها مدينة جنونية؛ هدوء قاتل حينًا وحينًا صخب، تعج بالخدام والعمال كما تعج بالآمرين والمُلَّاك، بها فرص النجاح وهوات الفشل، مليئة بالأضداد!

تحسرت: عدا الفقر! لم أرَ مظهرًا واحدًا من مظاهر الفقر هنا.

قال ممسكًا بشال حريري ذي نقوش هندية: ربما، لكن ماذا بشأن الكادحين ليل نهار؟ مغتربون يمارسون حُلم الثراء، وبعضهم علىٰ حافة التعاسة بين لحظة وأخرىٰ، العيش فيها بلا أساس متين، مقامرة كبيرة، ولا

رحمة بإظهار وجهها الصارم عند أول وآخر زلة! ـ وضع الشال فوق كتفيها ـ جميل!

* *

انتبهت من خوضها عباب الماضي على نداء عدنان، احتاجت لاستنشاق الهواء بعيدًا عن الخيمة، فأشارت لكونها ستحرِّك قدميها قليلًا، حاول إثنائها فطمأنته أنها لن تبتعد. سارت عدة أمتار صوب قلب الميدان، فرأت مجموعة من الشباب ملتفين حول الرجل الذي أتى منذ قليل لتضميد جرحه. "دكتور عماد، ابقَ هنا من فضلك لبعض الوقت، يكفي أنك ترفض البقاء داخل خيمة تقيك البرد" عماد النوبي! الكاتب والروائي الشهير الحاصل على جائزة الدولة التقديرية في الرواية المصرية الحديثة. اقتربت على استحياء، كان يجلس متربعًا على الأرض ويستند بإحدى كتفيه على عامود الإنارة. "أنتِ التي ـ.."، قاطعته مومئة: لم تسعفني ذاكرتي حينها للتأكد من شخصيتك لكن الشباب أنعشوها بندائهم ـ مدت يدها مردفة بابتسامة وارت خجلها ـ سعيدة جدًا بلقائك، قرأت معظم رواياتك.

وككل أبناء جنسه نجحت في إلقاء تعويذة الـ mojo، فابتسم ومدَّ يده مصافحًا وقال بصوتٍ مبحوح: هي ليست بالكثير

اتسعت ابتسامتها مضيئة غمازتيها: لكنها تخبر الكثير، أدهشتني.

أطلق ضحكة قصيرة: أرجو أن تكون بقدر ما أدهشتني هذه الابتسامة ـ أشار إلى جانبه على الأرض ـ تفضَّلي ـ جلست متربعة بتسلية ـ والآن أخبريني سبب دهشتك خاصة وأني مطرود من الصفوف الأمامية ـ ضحكت فأشار صوب مجموعة الشباب الذين غادروه ـ لم أستطع خداعهم أكثر بقدرتي على مجاراة حماستهم! لا أملك للأسف سوى حنجرة وقد بدأت بالانهيار.

ـ شعرتك عرَّافًا؛ وصفت كل ما يجري الآن قبل حدوثه بسنوات، بنفس

التفاصيل والأحداث، وبكل دقة وكأنك هنا قبل الزمن بزمن! هل اطلعت على الغيب؟!

هتف بمرح: حاشا لله، لستُ بحاجة لتهمة جديدة! تكفيني ألقاب الزنديق والمهرطق ـ أشار حولهما ـ انظري حولك جيدًا للوجوه والانفعالات، للمشاعر والأحلام والرغبات، للأمنيات! لم تتغير منذ بدء الخليقة ولن تتغير، رغم ارتدائها أثوابًا اختلفت ألوانها وقصَّاتها لاختلاف الزمن، لكن الأصل واحد! إنه التاريخ يا عزيزتي، ودائرة الحياة الدائمة، كوني تلميذة نجيبة للتاريخ يصادقك ويخبرك بكل أسراره.. بما كان، وما هو كائن، وما سيكون.

هبَّت ريحًا مثلجة حاملة قطرات غيث فهتفت بدهشة: "ستمطر" ابتسم قائلًا: إذن اكتملت حلقتنا؛ الماء والخضرة والوجه الحسن.

أخرج كيسًا بلاستيكيًا وأعطاها طرفه فأمسكته معه فوق رأسيهما: سأكون مغرورة كفاية لأعتبر نفسي الوجه الحسن! وها هو الماء يتساقط، أين الخضرة؟

أشار صوب دائرة عشبية صغيرة أسفل العامود: كوني مبتكرة يا..

ـ أسما. كنتَ تعني أن المعادلة مستمرة بنفس المعطيات والنتائج!

تنهد بعمق وجال بناظريه من حوله لبرهة: مستحيل! كانت لتسير بنفس الخطوات والمعطيات والنتائج في أي مكان عدا هنا ـ سألته عن الفارق بين هنا وأي مكانٍ في العالم، فابتسم ـ هنا يكمن اللغز وحله، سر أسرار الخليقة!

قالت بإحباط: قرأت هذا كثيرًا وتوقعت منك إجابة مختلفة!

هزَّ رأسه بإصرار: لن تجدي سواها؛ شق النيل الأرض من جنوبها لشمالها معانقًا المتوسط، ولم تقم حضارة على ضفافه سوى هنا، لم ينتبه إليه ويقدسه سوانا، نحن العامل المساعد في المعادلة؛ يغيِّر كل شيء دون أن يتغير، محرقًا شعلته لتضيء الدنيا ـ التفت نحوها بنظرات محارب يلقي على جنوده سطور يقينه ـ يقف التاريخ هنا مترقبًا بتمهُّل، رافعًا القبعة عند كل مشهدٍ، مهما تأخر الوقت!

ـ كلمات قوية ورنانة لكن تظل كلمات! أين نحن من التقدم الحضاري الذي يسابق سرعة الضوء؟ أين نحن من الحياة كلها؟!

ارتفع جانب فمه: مائة عام بعمر مصر لا شيء! كبواتها عديدة لكنها كالفرس الأصيل تنهض دومًا مرفوعة الرأس ـ زفر بتهكم ـ خدعونا حين قالوا إن بلاد عجائب أليس لدىٰ الفرنجة! من يود زيارة بلاد العجائب بحق فليأتي هنا ـ ضرب الأرض بكفه ـ هنا تُصنَع العجائب!

تنهدت: ربما معك حق أو ربما هي رؤيتك الأدبية الحالمة! لن نختلف ولكن ـ تابعت بشرودٍ ـ خائفة! الكثير من الأشياء أصبحت مخيفة، وجوهٌ جديدة ونصال غدر تلتمع بالأعين، الماء ليس برائقٍ!

قال باسمًا: المستيقظ من غيبوبة متخبّطٌ إلىٰ أن يعي ويدرك. الكثير من الدروس علينا تعلمها بالطريق الوعر، كما أن الخوف غريزة إنسانية مباحة، لكن لا تسمحي لها بتحطيم إيمانك.

ـ سألتني فتاة قبل أن تفارق الحياة (هل نحن علىٰ صواب؟) ترددت طويلًا قبل الإجابة.

لا داعي للتردد؛ نحن علىٰ صواب مهما اشتدت الريح لنزع أشرعتنا. يغفل الكثيرون عمن لا يغفل ولا ينام، هو غائب عن كل اعتباراتهم، وحظنا الجيد أنه أول إعتباراتنا!

أتاهما صوته نافذ الصبر: لماذا لست مندهشًا؟!

طالعت عدنان بارتباك: معذرة لم أنتبه للوقت ـ حوَّلت نظرها بينهما ـ أقدم لك دكتور عماد النوبي الروائي الشهير.

أومأ عماد بلطفٍ: لم تخبريني ماذا تعملين يا آنسة أسما؟

قالت بعدما ألقت علىٰ عدنان نظرة حائرة: أنا! أنا مساعدة الطبيب.

رفع الأخير حاجبيه: أنا بحاجتك يا آنسة أسما.

نهضت مسرعة واستدركت ملتفتة نحو عماد: سأنتظر رواية جديدة عن الثورة، أريد رؤيتها بعينيك.

ـ بعد عشر سنوات! الكثير مما لا نعرفه ولن نعرفه قبل أوانه، لكل شيء أوان ـ التفت لعدنان الذي رسم ابتسامة صفراء على شفتيه ـ أراهن أنها تسبِّب المشاكل لمرضاك بهذه الابتسامة!

ـ أضعها أمام المريض لدقيقتين فينهض متقافزًا كالقرود!

اضطرت للصراخ بصوت عالٍ بعدما ابتعدا حتى يسمعها وسط الصخب قرب أطراف الميدان: كنتَ سخيفًا وسمجًا أيها الطبيب!

قال بعصبية: كلما التفتُّ وجدتك بصحبة أحدهم يا آنسة أسما!

لوحت بعصبية: كنا نتحدث عن الثورة وأعماله األادبية.

التفت إليها بغتة فتوقفت عن السير: يغيظني عدم حصولي على ربع هذا الاهتمام منك يا زوجتي الآنسة! حريصة دومًا على منحي البقايا؛ بقايا الابتسام، بقايا الاهتمام. أريد الحصول عليه مرة واحدة بوعيك يا سيدة أسما الجبالي ـ تشدق بالكلمتين الأخرَيَيْن ـ مازلت أملك الكثير من الحبات، وأشك بحصولك على بقيتها يومًا!

ـ استحققتها منذ زمن أيها الطبيب.

سألها عمَّا تعنيه فزفرت بسخرية: "لا يهم!" همَّت بالذهاب فأمسك ذراعها مكررًا سؤاله، هتفت بارتباك: "من فضلك! الناس تطالعنا" لعن الناس بغضبٍ فهمَّت بالاعتراض لولا صراخ مجموعة من الشباب يحملون جسدًا ويركضون نحوهما: "نحتاج للطبيب بسرعة" أشار صوب الخيمة وقبل أن يغادرها فتح كفها واضعًا حَبَّة جديدة: تستحقينها يا آنسة أسما! منحتِ عماد ابتسامة رائعة!

أوشك على الذهاب فأمسكت بذراعه: تذكرتَ كيس الحبات رغم قلقك على لينا!

نزع ذراعه من يدها متحججًا بالحالة الحرجة. ففتحت يدها مطالعة الحبة المستكينة براحتها (الصبور)؛ ترى أيهما استنفذ صبره على الآخر؟! أمرهم عدنان بالابتعاد عن المصاب، فصرخت قسمت بلوعة: "علي!"

هتف أحدهم بغضب: طلقة رصاص بالرأس لم نستطع رؤية مصدرها.

انحنى عدنان قُرب الطفل المسجى فوق كيس بلاستيكي. وفتح عينيه مسلطًا مصباح السقف: لا فائدة! لقد توفى.

نهض ووقف إلى جانبه بصمتٍ وكأن على رؤس الجميع الطير. شهقت قِسمت بذهولٍ: قتلوه!

زفر احدهم بمرارة: وقتلوا مصطفى ومينا وروماني، لن يكون الاخير!

انفجرت قِسمت في البكاء بهستيرية مشيحة بوجهها، فسارع عدنان محتضنًا إياها لتغرق دموعها الساخنة قميصه، حانت منها التفاتة صوب جسد علي فرأت خالد يقترب بخطى متثاقلة نحوه: مستحيل! لقـ.. لقد أخطت جرحة منذ برهة!

قرَّب خالد وجنته من أنفاس الصبي المقطوعة، ثم رفع رأسه ببطء مزدردًا ريقه، ودسَّ يده خلف ظهره النحيل، مخرجًا الزجاجة البلاستيكية التي احتوت آخر رشفة ماء! فتحها وبلل منديلًا ورقيا ببقايا مائها، وجعل يبلل بها شفتي علي ويمسح على وجهه، ثم أغمض عينيه وعيني الطفل مطرقًا بصمتٍ معتصرًا الزجاجة، ونهض مغادرًا الخيمة.

تأملها عدنان تلوذ بذراعيه موارية حزنها عن أعين الجميع. تدرجت عاطفته نحوها من الأسود للرمادي وصولًا للأبيض! حتى تحوَّل قلبه لقطعة كريستال عكست صوبها كل أطياف المشاعر؛ هو شقيقها الغائب، ووالدها الراحل، هو زوج تنكره، وحبيب تستنكره! منحها قلبًا أسود حتى اقترب منها فمال بين بين، صبت فوقه حزن لوعتها، فرق جداره شفقة ممزوجة بتأنيب الضمير، وكثيرًا ما يبدأ الحب بخيطٍ طرفه الشفقة، ومنتهاه الغيرة!

جلس بسيارته محدقًا بالشارع الهادئ إلا من صوت مذياع حسنين المنبعث من غرفة الحديقة، تنهَّد بعمقٍ مسترخيًا بجلسته، وأبعد يديه عن

المقود، أيعيد النبت الشيطاني لأرضه؟! ربما هي فرصة ذهبية لإنهاء كل شيء وعلى أفضل وجه؛ هي من قررت الرحيل! جعل ينقر بإصبعه فوق عصا القيادة، خطوات تفصله عن الحرية! ليهبط من السيارة ويمر عبر بوابة الفيلا ويغلقها خلفه! ضرب المقود بقبضته مديرًا المحرك: "وآخرتها يا قسمت!"

ـ لمَ غادرتِ المنزل؟!

كانت جالسة بموضعها المعتاد بمنتصف السطح حين أجفلها صوته، رفعت رأسها المستند فوق ركبتيها المثنيتين ملقية عليه نظرة خاطفة، لم يبدِّل ملابس الصباح! حثها لتجيبه ممسِّدا جبهته بإرهاق فهزت رأسها بحيرة: مرتعبة، ومرتبكة، عاجزة عن الاستمرار بعكس ما ظننت.

تمنت ألا يسأل المزيد من الأسئلة، هي نفسها لا تدري ما دهاها حين نظرت نحو الساعة لتحصي المتبقي من الوقت على عودته، لم يخبرها يومًا موعد عودته! استنكرت حالة الانتظار واضطراب نبضاتها حين يطل طيفه وهمًا من فتحة الباب بابتسامة تُزيِّل طرفي عينيه. الانتظار ممنوع والترقب من المحرمات؛ قواعد اللعبة! عاود سؤاله بإلحاح، مغرقًا أصابعه بغابات شعره الكثيفة جاذبًا إياه للوراء: أنا متعب يا أسما، وبالتأكيد لم أتوقع هذا الليلة ـ اقترب وجلس إلى جانبها ـ يغيظني تلوُّنك كل حين!

كذبه على نفسه مفضوح؛ يغيظه الخذلان الرهيب الذي انتابه فور رحيلها، وهو من أتى متَلهِّفًا مشاركتها حلمه الذي عثر عليه بعد طول بحث. "أعتِقني أيها الطبيب" نبرة الانكسار بصوتها آلمته، تسللت كفه خلف رقبتها محتضنة عنقها لتجبرها على النظر إليه: بحثت اليوم عن مكانٍ يصلح لمستشفى صغير؛ به مساحة كافية لجزءٍ خيري، أنتِ من أوحى لي بالفكرة يوم أن..

حاول البحث عن جملة لا تستحضر الألم فزادت حيرته! ما الذي يجلسه على أرض باردة وأثاثه الوثير بانتظاره؟! تابع. يوم قلتِ إن من يملك أدنى قدرٍ من الإنسانية سيترك فسحة بجانبه لغيره تسمح له بالتنفس.

طارت مشاعره المستنكرة حين أمالت رأسها قليلًا، كأنها تهرب من كفه المحتضنة عنقها ورغم هذا تتلمس المزيد! قالت: لم أعد أملك ما أمنحه.

قال بعناد: مازلتُ اريدك.

أشاحت: دمية لتسليتك؟ حتىٰ هذا لم أعد قادرة عليه.

سارت نحو المكتبة التي انزوت بركن السطح؛ يعتليها التراب وتسكنها الرطوبة حتىٰ بهت الكثير من أغلفتها: انظر! كتب والدي قبعت بالشمس لأسابيع، لم أنتبه أني لم أحمها من عوامل الطقس، ربما تغيرت الأغلفة ـ مرَّرَتْ أصابعها فوق الكتب المتراصة ـ لكن فحواها ثابت بحقيقة واحدة؛ فقدتُ شرفي! والآن فقدت قدرتي علىٰ الاستمرار.

وقف بجانبها هادرًا: لم يكن هذا اتفاقنا، لن تتركيني، ليس بعد! ـ أمسك ذراعها بقسوة ـ مازال اتفاقنا قائمًا وبنود العقد تمنعك الرحيل!

جذبت ذراعها وسارت متعثرة بخطواتها بلا وعىٰ نحو سور السطح، فشهقت بصوت مكتوم وتسمرت قدميها بالارض حين وقع نظرها علىٰ إرتفاع البناية الشاهق، جاهدت لتحرك قدميها ولو بخطوة للوراء ففشلت، إستشعرت ذراعيه تحيطان خصرها وأنفاسه الدافئة تسرىٰ مع هبات الهواء: "لا بأس، انا هنا" تشبثت بذراعيه كطوق نجاة حتىٰ إنغرزت أظافرها بزنديه. لا تتركني أرجوك، أرجوك!

استنشق رائحتها ودسَّ أنفه بين خصلات شعرها المتأرجحة: أنتِ تركتني! ـ أحكمت ذراعيه احتضانها حين هتفت باسمه رعبًا ـ سأكون أكثر شهامة منك، هيًا، خطوة للوراء تلو الأخرىٰ.

استسلمت إليه حتىٰ نجح بإبعادها عن السور وإدخالها الغرفة الصغيرة؛ خنقته الرطوبة والأتربة علىٰ سطح الفراش، فسارع نافضًا الملاءة بجريدة قديمة وساعدها علىٰ الجلوس: بإمكانك استعادة الشقة من السيدة صفية؛ تغيرت الأمور برحيل نوار! ـ رمقته بتوسُّل متعللة بالعقد المبرم بينها والعَمَّة ـ لن أرحل بدونك ـ دفع بكوب ماء نحو شفتيها ـ أخبرتني دومًا أني مخطئ

بشأنك! عودي معي وأكملي مدة زواجنا؛ اثبتي أنكِ لم تخدعيني للحصول على نقودي.

- لماذا تصر على عودتي؟!

قال بعد لحظة صمت: مازالت شهيتي مفتوحة لك، كما أني بحاجة لشخص من خارج عالمي القديم، يصاحبني خطواتي القادمة كي أتخطى هذه المرحلة من حياتي.

سألته بإستنكار: ماذا بشأني؟ ماذا عن احتياجاتي؟!

- لا يهم! لم يذكر العقد احتياجك لغير النقود، وقد أوفيتُ بها!

وكان هذا كافيًا جدًا لإعادة الأمور إلى نصابها! تجرعت رشفات الماء المتبقية بالكوب، وجعلت تتنفس لبضع دقائق بعمق حتى هدأت: سأجمع الكتب أولًا لحفظها بالشقة.

قفزت صوب المكتبة متشاغلة بالنظر إلى كتبها المتراصة. فقال: تملكين مجموعة ضخمة!

قالت ساخرة: شيء غريب بالنسبة لشخصٍ مثلي، أليس كذلك؟! - احتضنت أحد الكتب - ثلاثة أرباعها يخص والدي، بعضها طبعات أولى وبعضها عتيق مهترئ اشتراه من سور الأزبكية وعالج غلافه بنفسه، لا أملك سوى الربع؛ بضع روايات رومانسية ومترجَمَة وبعضها تاريخي.

اقترب من السور يعبّ هواء الليل النيلي: يبدو شخصية مميزة!

قالت جاذبة كتابًا آخر ووضعته فوق الطاولة: شخصية مدهشة! صنع لنا تكعيبة من العنب مرفقًا بها مكتبه صغيرة بضلفة خشبية، وحين سألناه سبب امتلاكه لتلك الكتب الكثيرة، أجاب (الكتب صانعة الأحلام، ويجب أن نملك من الأحلام الكثير) - ابتسمت - جلب مذياعًا صغيرًا أيضًا، أداره كلما صعدنا هنا في الأمسيات الصيفية، قائلًا (للمذياع ميزة فريدة بتشغيل الخيال) - أغمضت عينيها - أكاد أشتم رائحة سندويتشات الطعمية بالطماطم والجبن الأبيض - فتحت عينيها - سندويتشات والدي المفضلة مع البطيخ البارد!

تسللت ابتسامة حانية لعينيه: سأساعدك ـ أمسك بأحد الكتب ورفعه نحو أنفه ليشتمه ـ تذكرني دومًا برائحة الفانيلا!

قلبت عينيها بتسلية: هوس الفانيلا ثانية! ـ جذبت الكتاب واشتمته ـ السر في الـ lignin أيها الطبيب، انتبهت للأمر مثلك فبحثت عن السبب، وعلمت أنه مادة تتكون بين خلايا الخشب ليزداد صلابة، وهو مركّب مشابه للفانيلا! وحين يمر الوقت تفوح رائحته من الأوراق، لذا عُشّاق القراءة يعشقون معها رائحة الكتب القديمة.

تبادلا النظرات لبرهة كان يرمقها خلالها بإعجاب جلي فأطرقت متشاغلة برصّ الكتب. انهمكا لساعتين بتجميعها فوق بعضها البعض، وتحدثا! والغريب أنه عثر على أرضية مشتركة! فكلاهما عاشق للكتاب، مغرمان بسطورٍ تحوي عصارة الحياة وتاريخ الدنيا. قابلته بأول كتاب لامس أصابعها، وقدَّمته لأول رواية حب اضطرب لها خافقها، وأول سطر درامي رغرغ عينيها بدموع العاطفة العذراء، عرفته على رواية (جريتا)؛ الفتاة التي باعت نفسها للحب فباعها الحب! كانت ترشده كيف ينظف الأغلفة بقطعة القماش الجافة، ناثرًا بين أوراقه بودرة التلك لتمتص رطوبتها كما علمها والدها! تحدجه بين الفينة والأخرى بحثًا عن ومضة سأم أو زفرة ضجر؛ فلم يقابلها سوى ابتسامة لعينيه تطمئنها أنه تلميذ نجيب! تمطت بإعياء: انتهينا أخيرًا ـ استدركت ـ أحتاج لحمل الزرع معي كي أعتني به.

أومأ موافقًا وانحدرت نظراته نحو أصابعها التي تداعب المسبحة: لماذا تصرين على إبقاء الشقة للإيجار؟ ـ تلفتت حولها بإرتباك ـ إن كنتِ بحاجة للمال بإمكانك طلبه، أنتِ زوجتي وعليَّ أن أهتـ...

قاطعته بحدة: لستُ زوجتك أيها الطبيب، أنا مجرد عشيقة، وما بيننا سينتهي خلال أشهر قليلة وسأسترجع بعدها حياتي، وحينها سأحتاج لبعض المال ـ همَّ بالحديث فقاطعته بحزم ـ دون مساعدتك التي لن أقبل بها بأي حالٍ من الأحوال.

أطرق بصمتٍ متجهما فتأوهت ممسِّدة كتفها، اقترب زافرًا بإحباط: عضلاتك متشنجة من حمل الكتب كما أنكِ متوترة ـ استطرد هامسًا ـ بإمكاننا الحصول على بعض الراحة بالداخل! تنصلت منه وانحنت تلتقط مجموعة من الكتب فسقطت متبعثرة أسفل قدميها، همَّت بالابتعاد فعاود جذبها ـ كلانا متعب، لنرتاح قليلًا، وأعدك بإغلاق الأبواب والنوافذ!

هتفت متوسلة: أرجوك.. أنا؟! ـ حثَّها لتكمل فتابعت ـ.. لا يهم!

وكعادته كان وفيًا بوعده!

* *

خرجت من حمَّام الفيلا ببيجاما وقورة كالمعتاد جعلته يبتسم: ابتلَّ كتفاك! أمكنك الخروج بمعطف الاستحمام وتجفيف شعرك كما ينبغي.

غمغمت بنزق: "لا يهم . مطَّ شفته: "بالطبع لا يهم! هيًّا لتأكلي اقتربت للجلوس حيث أشار فناولها ساندويتشا، أخذته وفتحته بصدمة: "طعمية!"

أومأ بفخرٍ: وقِطع طماطم طازجة مع جبن أبيض قديم ـ أشار لطبق جانبي ـ وقطع بطيخ أيضًا، ما رأيك؟ تشبهها!

وضعته جانبًا بحنقٍ: توقف! ـ قطب بحيرة ـ توقف عمَّا تفعله، عن كل شيء، توقف فحسب.

فاجأته ثورتها: ظننت أني سأُسعدك بشيء تحبينه!

صرخت بعصبية: إذن توقف عن الظن.

تنهد بإحباط محدقًا بكرات الطعمية المتصاعد منها البخار: اهدئي، وسأعيدها إن شئتِ، في الحقيقة طعمه رائع تمامًا كما وصفتِ.

عضت شفتها السفلى بقوة كادت تدميها، وسارعت ملتقطة سمَّاعتها مشيحة برأسها؛ فصل قابس السماعة فتعالى تغريد روزا...

لا إنتَ حبيبي ولا ربينا سوا.. قصتنا الغريبة جلعها الهوى.. صرت عنك غريبه.. إنساني يا حبيبي..

ناولها ساندويتش: "لابد أنكِ جائعة!" حدجته لوهلة ثم أخذته معيدة شعرها للوراء بارتباك، فتطايرت قطرات الماء من شعرها على وجهه. داعبت ابتسامة صغيرة عينيه، فقضمت الساندوتش متأسفة بخجل، رفع حاجبيه: علام تعتذرين؟ قطرات الماء أم ما تمنعينه عني من حقوق كزوج؛ أبسطها الابتسام ـ همَّت بالحديث فعاجلها ـ ولا أعني بهذا ابتساماتك الزائفة!

التفتت بحدة: زواج المتعة بيننا ليس بزواج حقيقي.

أعاد رأسه للوراء مطلقًا ضحكة خشنة: "متعة!" تمتمت: "لا أسـ...

قاطعها بنفاذ صبر لا تستطيعين! أحفظها عن ظهر قلب، بل وأوافق على الظلام الدامس وقائمة الممنوعات! لكن ثمة أمور بسيطة يمكنك التنازل عنها كما أوافق على التنازل! أبسطها ابتسامة حقيقية بين الحين والآخر، حين أقوم بشيءٍ لطيف ومن يدري حينها ربـ...

هتفت ببؤس: افهمني أيها الطبيب أرجوك!

زفر بتهكم: حتى اسمي ترفضين مناداتي به! أتعلمين ما أنا يا أسما؟! أنا كأطراف سنابل القمح بشعرك، تتوق للمس كتفيك، فلا تقابَل سوى بالمراوغة والحرمان! ليس عدلًا؛ فبيننا اتفاق!

ـ لستَ بزوجي لتتغزل فيَّ وتحرص على إسعادي، ولستُ بزوجتك لأتاثر!

ـ تعلمين إذن أنها محاولة لإسعادك!

وضعت الساندويتش بعصبية وجلست فوق الفراش مديرة التلفاز، فاتكأ بمرفقيه على ركبتيه يراقبها لبعض الوقت، ثم نهض مغادرًا الغرفة. انهمك لدقائق بمتابعة جرم سماوي حين سمع ضحكًا آتٍ من الداخل، نظر عبر الزجاج لغرفة النوم، فرآها متربعة تحتضن وسادة، منهارة بنوبة ضحك هستيري، مرددة أغنية الفيلم باستمتاع... (يا ام ملاية لف.. اسم الله.. تقتل مية وألف..حد الله!) الوحيدة التي نجحت بتحسين مزاجها الليلة (شويكار)! ومن يجرؤ على الوقوف بوجه غنجها، متقافزة على الأحرف

برشاقة طائر فوق سطح الماء! عاودت قِسمت التمايل في جلستها متمتمة (اسم الله)، فانفجر بالضحك حريصًا ألا يعلو صوته فيفسد لحظة هنائها. للحظة شعر بالغيرة! مخلوق آخر قادر علىٰ رسم ابتسامة فوق شفتيها المعذبتين إياه بتجهم دائم. أربكه الشعور وهي محطة بحياته، (ترانزيت)! لها خط نهاية سيصل إليه عاجلًا أم آجلا، فما يدور بينهما فاصل من الوهم سيكون عليهما الإفاقة منه! انتبهت إليه يحدجها عبر الزجاج، فتوقفت عن الضحك مطرقة بخجل تقضم شطيرتها. ولم يمضِ سوىٰ ثوانٍ حتىٰ شعر بها تدلف إلىٰ الشرفة مديرة إحدىٰ أغنيات فريد. اختلس نظرة جانبية فرآها متلحفة بالشال: "أهلا سيما، تعالي ردت بدهشة: (سيما!)

- أجل، أنت كالسيما، متلونة مثلها! حينًا درامية وأخرىٰ كوميدية ساخرة - اقترب بمكرٍ - وحينًا أخر رومانسية؛ أحيانًا نادرة.

تبرُّمه رسم ابتسامة كبيرة فوق شفتيها أثلجت روحه: حصلتُ علىٰ اسم تدليل جديد إذن!

قال برقة: لن يناديكِ به سواي.

- لم اعهدك محبًا للتملك!

ارتفع جانب فمه: لم أعهد بنفسي الكثير من الأشياء - أضاف بتسلية - يبدو أن الأستاذ وزوجته هما القادران علىٰ انتزاع تلك الضحكات الرائقة.

ترحَّمَت عليه فرفع حاجبيه دهشة، فسألته: ألا يستحق شخصًا رسم ابتسامات بلا حصر علىٰ شفتيَّ ربع سطر من الدعاء؟!

- تُرىٰ هل ستقومين بالدعاء لأجلي ذات يوم أم سيطويني النسيان؟!

قطبت: لاقدَّر الله - أطرقت هامسة - أريد أن أشكرك علىٰ كل شيء، رغم نزق طباعي إلا أني ممتنة للكثير من الأمور - أردفت مازحة - كالطعمية! - تحولت ملامحها للجدية - لولاك يعلم الله أين كنت لأصبح الآن!

اتسعت ابتسامته: لاعليكِ، إحدىٰ هواياتي زواج المتعة بين الحين والآخر.

حرك حاجبيه بتسلية لتنفرج شفتاها عن إحدى أجمل ابتساماتها، سحب نفسًا عميقًا مشيرًا للتلسكوب، لتنظر وتخبره ما تراه. نظرت عبر الثقب: أتعني النقطة البعيدة الأكثر توهُّجًا بين مجموعة النقاط؟

ـ هي اكتشافي، نجمة لم تذكرها الكتب الفلكية بين هذه المجموعة، سأطلق عليها سيما.

التفتت بارتباك: أغرب الهدايا التي تلقيتها في حياتي! ـ اقترب متعللًا بتعديل الشال، وتبادلا النظرات لوهلة ثم أشاحت معاودة النظر عبر التلسكوب ـ أتمنى رؤية مذنَّب عن قُرب؛ ذي الذيل المضيء، له شكل جميل!

ـ أتعلمين أن تلك المذنبات ذات الذيل المشتعل هي مخلفات النظام الشمسي؟ ـ داعب أذنها بطرف إبهامه ـ ليس كل مضيء مبهر في حقيقته! ستدهشين إن رأيته عن قرب؛ كتل مختلفة الأحجام والأقطار من غازات وأتربة، مختلطة بكميات كبيرة من الجليد، كسحابة ضخمة! والبعيدة جدًا عن الشمس تسمى orth.

ازدردت ريقها تربكها أنفاسه اللافحة: وكيف يضيء orth وهو معتم؟!

دس وجهه بخصلات شعرها يمسِّدها بأنفه: تظل تلك الكتل هائمة، تائهة في الفضاء حتى تعثر على طريقها صوب الشمس فتقترب، وباقترابها تحترق! فيتبخر جليدها، يذوب كما تفعلين بي!

كارثة ما تحقنه همساته العلمية العجيبة بوريدها؛ مبخِّرة ثباتها كما تبخر الشمس جليد المذنبات! استوضحت بخفوت، فابتسم بمكرٍ: تدفعه رياح الشمس بعيدًا عن نواة المذنَّب، فيجر أذيال خيبته وبقايا إحباطه المشتعلة خلفه في الفضاء ـ قرَّب يدها من أنفه ـ تنعشني رائحة الليمون والمستكة بين أصابعك؛ لخلجك ألذ رائحة!

احتضن كفها بين أصابعه وانحنى يهمّ بتقبيلها فأشاحت وجهها، لتقع القُبلة فوق مفرق شعرها، مخفية وجهها بتجويف عنقه، فغمرها بين ذراعيها لتتهادى خطواتهما ببطءٍ على غناء فريد...

قسمة.. قسمة مكتوبة.. قسمة محسوبة.. قسمتي جنبك.. قسمتي حب..

ـ كعادتك مستسلمة وهاربة! تملكين كل الأضداد في آنٍ واحد ـ ضحك بتسلية وكفه تسافر عبر طول ظهرها ممسدة رعشة خجل ـ نسيت أنك سيما!

ـ ابتعد عنها قليلًا ـ انظري إليَّ ـ حاول إجبارها فأوشكت على الابتعاد، فسمح لها بمعاودة إخفاء وجهها بعنقه ـ تدعين أن زواجنا للمتعة! أين المتعة دون رؤية عينيك يا سيما؟! ـ تنهَّد بإحباطٍ ومدَّ يده صوب زر الضوء ـ أطفأت ضوء الشرفة لكني عاجز عن إطفاء القمر، أغمضي عينيك إن شئتِ أما أنا، فلن أجرؤ!

*

تردد نقر خطوات حذائها العالي فوق بلاط مستشفى السجن؛ اعتلى جدرانها العتيقة خيوط عنكبوت، وزينتها نقوش من الأتربة العالقة بطلائها المتهالك الكالح، تنساب رائحة عطن ولزوجة رطبة. أبرزت إذْن الزيارة للعسكري الواقف خارج الباب، مختفية خلف زجاج نظارتها الشمسية رغم قتامة الأجواء! ألقى المجند نظرة لا مبالية على الورق! توشك السجينة بالداخل أن تصبح جثة هامدة؛ من سيهتم لمحاولة إخراجها، والزائر امرأة تبدو بنحولها غير قادرة على حمل حقيبتها الضخمة! رفعت النظارة الشمسية فوق رأسها، وسارت بخطوات مترددة نحو الفراش الحديدي الصدئ. "ماما" هتفت بترقب خائف، تكره هذه الزيارة أكثر مما كرهت زيارات السجن! جسدها ملقى بلا حراك فوق مرتبة إسفنجية رفيعة، والملاءات الصفراء تسود الدنيا أمام ناظريها. حدثتها برجاء، فتحركت رأس فريدة وفتحت عينيها، تحدق إليها بنظرة فارغة، أخبرها الطبيب أنها ترى وتدرك ما حولها لكنها تصمت بإرادتها! ولا تتفوه سوى بكلمة واحدة (نوار)! حاملة ألف معنى؛ مرة تقولها كسؤالٍ متشكك غير مصدق، ومرة تنطقها بلوعة كمن يشق ثيابه حزنًا، وأخرى ترددها بلوم كأنها تعابها، وبكل مرة تغرزه نصل سكين بارد بصدرها! انحنت مقبِّلة رأسها فأغمضت فريدة عينيها مرتعشة

الشفتين؛ تعاقبها على إخفاء مرض نوار؛ حماية لهامن ألم كان ليدمرها إن علمته في حينه! ربما أخطأت؛ لم تمهدها للفاجعة، لكنّها لم تطلع على الغيب.

ـ أعلم أن كل يوم هو حداد جديد، لكن لكِ ابنة أخرى بحاجتك، أنا يا أمي، لا تنسيني بغمرة أحزانك ـ انسلت لتنام إلى جانبها واضعة رأسها فوق كتفها واحتضنتها ـ لم يعد لدي ما أمنحه، وأخشى إن فعلت تقتلك النقود كما قتلت نوار! نقود الطبيب قاتلة يا أمي ـ رفعت رأسها محدجة وجهها المختلج القسمات ـ اغفري عجزي؛ عجزت عن حماية نوار وتحريرك من قضبان السجن، لم أكن قدر المسؤلية، سامحيني ـ لم تعد قادرة على البكاء، شددت ذراعها حول خصر والدتها بتشبُّث ـ كنتُ ضعيفة وكانوا قساة! كنتُ عاجزة وكانوا جبابرة!

كل مرة يدور ذات الحوار، وبكل مرة تجرجر أديال الخيبة وتغادر! كم تتوق لسماع كلمة عدا (نوار)، تتوق لسماع اسمها من بين شفتيها. جفلت حين ارتفعت ذراع والدتها لتلتف حولها بضعف، وسرعان ما انحسر ألمها حين هتفت: "نوار" تهز رأسها بصوت كالعويل. أغمضت قِسمت عينيها بألم ونهضت مبتعدة عن محيط ذراعها الواهن. حين انفتح الباب لتطل الممرضة ببرودٍ: "حقنة الفيتامين، هل أحضرتها؟". فتحت حقيبتها مخرجة عبوة الدواء وناولتها للمرضة، وخمسون جنيها، فهللت أساريرها للمرة الأولى: "ليتكِ أحضرت المزيد! والدتك نادرًا ما تأكل" ارتفع جانب فمها وفتحت حقيبتها وناولتها علبتين: "أرجو ألا تضيعيهما مثل سابقاتهم". مدت الممرضة يدها مختطفة العبوتين: "البركة فيك يا مدام" تعلم أن الحقيرة تبيع العبوات بضعف السعر! كل أسبوع تعطيها ثلاثة فتبيع اثنتين وتعاود شكوى اختفاء العبوات! ولا تملك سوى الإذعان للاتفاق الضمني بإحضار المزيد وإلا الإهمال والمعاملة السيئة قصاصًا لوالدتها! أشارت نحو الفراش مهددة: "لا أريد رؤية هذه الملاءات مرة أخرى وإلا أُغلِقَت الصيدلية" نظرت الممرضة بجزل للورقة المالية الجديدة التي أخرجتها قِسمت من

حقيبتها: "تحت أمرك يا مدام" طلبت منها قِسمت تنظيف الغرفة بمادة مطهرة أحضرتها مع الملاءات الجديدة، فأذعنت بسهولة حين أخرجت ورقة مالية أخرى.

ستنهي أمها فترة عقوبتها بالمستشفى؛ وفى راغب بالوعد! كانت الوسيلة الوحيدة لمساعدتها لاسيما وقد عجز عن إخراجها. إبقاؤها بالمستشفى بعيدًا عن قضبان السجن أرحم! لكنه لا يدرك أن فريدة التي لم تسجنها يومًا قضبان زنزانتها المظلمة سجنتها أحزانها! وماتزال ممتنة لصنيعه. رنَّ هاتفها النقال فسارعت مجيبة ليأتيها صوت عدنان معاتبًا تأخُّرها، تنفست الصعداء وسألته عمَّ يجبره على التحمل، فأجابها بتسلية: إسمتي، وهل يستطيع المرء الهروب من القسمة؟

قالت بحزنٍ: غيِّرها وأرحنا!

ـ تعجبني كما هي.

أنهى عدنان المكالمة ملتفتًا لعمرو الذي راقبه بتجهم قائلًا: لقد مرَّ أربعة أشهر!

ـ أربعة أشهر وعشرة أيام، أنا أيضا لم أتوقع بقائي معها كل تلك المدة ـ سأله عمرو عن السبب فتنهد بحيرة ـ لا أدري! ربما لم أمَل منها بعد ـ بدَّل دفة الحديث ـ هل تعاقدت مع شركة النوافذ؟ ـ طمأنه فأومأ باستحسان ـ يجب أن تكون مستشفانا الصغير على أعلى مستوى، وتكون خطوات شراكتنا هذه المرة أكثر ثباتًا.

* * *

نقرت فوق جلد مقعدها بتوتر، أتخبره؟ مستحيل، منحت ما كان ذو قيمة ولم تعد تملك المزيد! الغريب أنه دائم البقاء برفقتها ليلًا! كيف تسمح علياء بهذا؟ تعالى رنين هاتفها برقم غريب، وأتاها صوت رجولي أجش على الطرف الآخر؛ كان شمس الدين ذو الفقار: "آلو، آلو، أمازلتِ معي؟!". رفَّت عينيها بارتباك: "معذرة، الصوت متقطع" تنهَّد بارتياح طالبًا

رؤيتها الليلة. سألته: "لماذا؟"، فقال: "تعلمين لماذا، هذا إن كنتِ صادقة!" استفزها وأوشكت على إغلاق الخط لولا رؤيتها عدنان يهبط الدرجتين الأخيرتين لسلم المبنى، فسارعت بالموافقة، دلَّها على مقهى بالمعادي يدعى (برازيليانا)، وسارعت بإنهاء المكالمة باسمة حين جلس إلى جانبها تضيق عيناه ريبة، همَّ بسؤالها فسارعت مقاطعة: ستكون مستشفى رائعة!

التفت مشيرا للأعلى: الثلاثة طوابق الأخيرة. تمنيت أن تضم حديقة للنزلاء، لكن خطوة خطوة، ربما يومًا ما أحصل على مكانٍ أكبر!

قالت بصدق: أنا سعيدة جدًا بهذه الخطوة، ربما يكون مستشفاك رحمة وخلاصًا لكثير من المعذبين.

- ربما عليك اختيار اسمها بنفسك!

سارعت قائلة: لا أجمل من (مستشفى عدنان)، أليس عدنان هو المستقر وواحة التقاط الأنفاس؟!

- لم تنسي إذن!

أشاحت متمتمة بخفوت: لا أظنني سأفعل يومًا!

كان مدركًا المغزى؛ تعني ظروف معرفتها بالمعنى! هتف بحماس يود الاحتفال، فوضعت كفها فوق يده: ألن تحتاج لمحاسبين؟ - استفهم مضيقًا عينيه فازدردت ريقها - ذلك الشاب عامل التوصيل؛ سامح! الظالم صاحب الهايبر يود التخلص من بعض العمالة توفيرًا للنفقات، والشاب حامل بكالوريوس محاسبة وقد تدرَّب لعامين بإحـــــ..

- أسما! يكفي - توسلته فقاطعها - أولًا حسنين وكريمة، ومنذ أسبوعين فتاة التنظيف عينتِها بمستشفى والـــد - تلعثم - وليد صديقي! والآن سامح!

- اعتبره عمل خير تبدأ به المستشفى!

أرخى كتفيه باستسلام مصرًا على الاحتفال، سألته عن السبب فأجابها: أولا لقيادتك أخيرا السيارة، ثانيًا لقُرب افتتاح المستشفى، والأهم بتعيين سامح! ألا يستحق تعيين سامح الاحتفال؟!

عقدت ذراعيها فوق صدرها: وكيف سنحتفل؟

ـ ستكونين احتفالي الخاص يا سيما!

*

تصنع النوم كعادته كلما انتهى لقاؤهما الحميمي، متجنبًا رؤيتها تهرب مبتعدة لآخر الفراش، متكورة كقطة صغيرة! للآن لم ينجح بفك طلاسم تلك اللحظة الملعونة التي تحولها كل مرة من حالٍ إلى حالٍ؛ تبدأ باردة ثم تستسلم! وحالة من الشغف سرعان ما تتلاشى بالنهاية مخلفة ذلك الحال الغريب، كأنها نادمة على استجابتها! كأنها مغتاظة! ضبطها إحدى المرات تعض على أسنانها غيظًا، وبأخرى ضبطها تبكي! هذه المرأة تفقده صبره. جلست على الأرض متلحفة بملاءة الفراش قُرب ستار الغرفة المُسدَل، تختلس نظرة سريعة من خلفه وتبتعد كمن وخزه دبوس! لتلتقط أنفاسها مرة تلو الأخرى بينما تفرك حبَّات المسبحة بتوتر، لتعاود الكرة! وبكل مرة يقع طرف الملاءة فتعيده بحنق. عاد لتصنع النوم حين لمحها تختلس نظرة إليه، فأعادت الستار ضاربة رأسها بالحائط: "غبية.. جبانة" جفلت لصوته الذي شقَّ صمت الغرفة، فسارعت معدلة طرف الملاءة فوق كتفيها مستفسرة.

ـ خسارة! أدفع هذا المبلغ الطائل وتعجزين عن رؤية الإطلالة الرائعة، بالمناسبة! رؤيتك غارقة بشبر ماء متلحفة بملاءة لهو منظر أكثر روعة!

أطلق ضحكة متسلية ونهض يلف وسطه بملاءة، فسارعت مشيحة تلف المسباح حول رسغها. "انهضي" مدَّ يده نحوها فرمقته بريبة. "هيَّا" ساعدها على الوقوف وأدارها لتوليه ظهرها. "والآن أغمضي عينيكِ، وثقي بي" أغمضت عينيها على مضض، فشعرته يبتعد لثانية وبعض الضوء يتسلل خلف جفنيها المطبقين، وقف خلفها يحتضنها بذراعيه: "افتحي عينيك وتنفسي بعمق" هزت رأسها بإصرار: "دعني أرجوك، لا أستطيع" حثها بحزم: "بل تستطيعين، هيَّا"

قالت من بين أسنانها: توقف عن هذه اللعبة السخيفة، لماذا تتعمد تعذيبي؟!

تصنع الضجر: ألم تملي بعد! لا أستطيع! لا أستطيع! ـ طبع قُبلة أسفل أذنها ـ ها أنا ذا أمنحك فرصة لتستطيعي وتكسري حاجز الخوف وتنتصري على الرهاب السخيف الذي لا يليق بك، أنت أقوى امرأة رأيتها في حياتي!

توسلته: "سيرانا الناس!" قال بتسلية: "الزجاج عاكس كالمرايا ـ عضت على شفتها بقوة فطبع قُبلة فوق جبهتها بحنانٍ ـ لا تخشي شيئًا وأنتِ معي همست وقد بدأت أوصالها ترتعد: "دعني" هتف مشجعًا: "هيًا يا أسما، الدور الثالث ليس بالمرتفِع" أحكم احتضانها، يرتعش جسدها بين ذراعيه وقد أطبقت يديها على ذراعيه بقوة، فجرحته بأظافرها، لكنها لم تستطع سوى التشبث: "آذيتكَ" غمغم: "لا يهم!" ابتسمت رغمًا عنها: "أصبحتَ سيد اللايهم!" قال بمرح: "وأنت سيدة اللايهم". فتحت عينيها ببطء محدقة بالمشهد من خلف الزجاج؛ بعيد والطابق عالٍ، فتسارعت أنفاسها، حتى همساته قرب أذنها لم تنجح في تهدئتها فأسرعت مشيحة مخفية وجهها بين ذراعيه.

تنهَّد بإحباط: يفوتك الكثير ـ فاجأته بالالتفات قليلًا نحو الزجاج لاختلاس نظرة فعاجلها ـ حدثيني.. ماذا قرأتِ عن الأهرامات؟!

ازدردت ريقها مختلسة نظرة أخرى: كان... كانت قمتها مطلية بطبقة من الذهب ـ أبدى دهشته، فعاودت إخفاء وجهها بصدره لثانيتين ثم اختلست النظر متنفسة بقوة ـ أرادوا أن تكون قمته كالفنار حين تعكس أشعة الشمس فترشد السيارة بالصحراء نهارًا.

سألها جاذبًا إياها نحو الأسفل ليهبطا كريشتين: ماذا بشأن أبو الهول؟

أجلسها بين أحضانه متيحًا لها الاحتماء بصدره متى شاءت فقالت: كان مطليًا بالألوان وغارقًا بكتابات ونقوشٍ تحكي الكثير من قصص البطولات ـ التفتت إليه مغمغمة بتسلية ـ كانت شمش حضارتهم مشرقة.

رفع حاجبيه: "شمش!" أومأت تدس وجهها بصدره مختلسة نظرة جديدة: أجل أيها الطبيب، شمشهم! لم يكن جهلًا من شادية حين قالت

(سمس) بفيلم (نحن لا نزرع الشوك)؛ كانت تتحدث الفرعونية، اللغة التي توارثتها عن أجدادها، وقد تحولت شمشا إلى سمسا ثم سمس، ومازال البعض ينطقها شمش! - التفتت محدقة بالسماء متجنبة النظر للأسفل - كانت أكثر إشراقًا ودفئًا، كانت أجمل!

تأملها بحيرة! تلك التي يجلس برفقتها أغرب جلسة حب، تداعب فكره، تغزل من حوله ثوبًا من أطياف التاريخ فيشتمه عبر كلماتها ويراه عبر همساتها الخجلة؛ مَن تكون؟! وكيف أوقعتهما الشباك معًا؟! رفع راحتها يشتمها باستمتاع طابعًا قُبلة بباطنها، متأمِّلًا الأرض الخضراء الممتدة أمامهما بين الفندق والأهرام أسفل شمس المغيب التي نثرت رقائق تبرها عند السفح: والحب؟ - رفعت رأسها إليه مستغربة - ألا تعرفين أنهم كانوا أعظم عُشَّاق عرفتهم الحضارة الإنسانية؟! كانوا يتغزلون بمكرٍ.. بشغفٍ!

أدهشها انتظام تنفُّسها، لينفلت السؤال من بين شفتيها: تؤمن بالحب إذن!

سارعت بالإشاحة فور إدراكها فداحة السؤال، فقال باسمًا: لم أحظَ بمقابلته وجهًا لوجه، مسَّني طيفه ولم يغمرني، لم أغرق! - تساءلت عمَّا يعني فداعب شعرها بأنفه هامسًا بصوتٍ أجش وطرف سبابته يرسم خطًا ناعما على طول ذراعها - لم أشعر مثلًا بحاجتي للهمس بأذنيها، بما نقشه أحد العشاق على جدار فرعوني لمحبوبته قائلًا (يا ذات العنق الجميل والصدر المتألق.. أصابعك ككؤوس اللوتس.. أنت الفريدة المحبوبة التي لا نظير لها.. أطالعك كنجمة.. لمشيتك اتسام النبل حيـ...)

- حين تخطو قدمك على الأرض! - رفعت رأسها بزهوٍ - قرأت الكتاب.

- أتؤمنين بالحب يا أسما؟!

- عملة غير صالحة للتداول بأيامنا التعسة!

- أي إجابة مراوغة هذه؟!

تنهدت: ربما هي أكثر إجاباتي صِدقًا!

أطرق لبرهة: وجهتا نظرنا كالمشرق والمغرب!

من أين أتت صورة علياء مهاجمة أفكاره؟ كانا هنا العديد من المرات والآن فقط أدرك ما كانت تستميت ليدركه، لكنه كان يفعل! عليه الاعتراف بشجاعة على الأقل بينه وبين نفسه أنه كان يعلم مكمن الثقب الذي أغرق السفينة، وأكبر خطاياه تجاهل إصلاحه؛ هو أيضًا مارس اللايهم على طريقته، مكللا خطاياه بانعدام الرحمة، حاكمها على خطيئة لم تكتمل. مسكينة علياء! تواجدت بحياته في الوقت الخاطئ.

ـ ماذا يمنعنا من المضي قدمًا إن أعجبنا الأمر؟!

وكأنه أوصلها بسلكٍ مكهرب، جمدت وتلاشت لحظة السحر: ثمة دين أسدده، وزوجة وبيت بانتظارك، ولي حياتي ـ أطرقت محدقة ليديها المتشبثتين بذراعه ـ أخبرتك من قبل، لست متوفرة للأبد، ولا أحب اللعب في مناطق ملغومة ـ أردفت محذرة ـ أعليَّ القلق من الألغام؟!

زفر بسخرية: اطمئني لموضع قدميكِ ـ غيَّر دفة الحديث على نحو باغتها ـ وظيفة متاحة إن تذكرتِ سطرًا من مقطع الاشتياق!

أشعل بعرضه الثمين حماسها، فأطرقت معتصرة ذاكرتها، ولوهلة ظن أنه بمأمنٍ من عناء البحث عن وظيفة لمجهولٍ، عدا أنها رفعت رأسها مطالعة عينيه بابتسامة جذلة: (سأكون بانتظارك كعيدان قمح؛ تتزين بسنابلها الذهبية، لتستقبل طيور السمَّان، وتخفيه عن العيون).

أومأ برزانة يلتمع بعينيه بريق الإعجاب: هكذا كان اشتياقهم!

حرر عنها الملاءة، ومدَّ يده جاذبًا الستار الثقيل، فشهقت بفزع: "ماذا تفعل؟" قال قبل أن يحملها لمرتفعات لا يؤلم رهابها: سأكون كالسمان، وأختفي بين سنابلك الذهبية.

وفي لحظة، بات مزارعًا؛ يغرس قبلاته بألف موضعٍ، مالئًا صحاريها القاحلة بحبَّات شغفه، ممنيًا نفسه بموسمِ مطر كريم، ينبت بموضع قبلاته ألف برعم أخضر بلون عينيها!

* * *

(١٥)

لم تعد تميز الوجوه أو الأصوات؛ الصخب والشروق والغروب والبرد القارص ثوابت المكان، عدا شمس زائرة أحيانًا على استحياء. أصبح الميدان كتلة ملتحمة لأحلام صغيرة كوَّنَت حُلمًا واحدًا كبيرًا! ارتشفت شقوق الأرض الدماء فخضعت أخيرًا لخطواتهم، وحفر الإصرار فوق الملامح سافرًا مستفزًا. لم يعد ثمة مكان للخوف أو الغضب، اليقين فحسب بات يحرِّك كل شيء؛ يقين بعدل الله، وقُرب الوصول لمحطة انتظرتها كل الأرواح بلهفة موجعة؛ ربما هو الألم.. الشعور السلبي الوحيد الذي لا يبارح الصدور! ربتت لينا على كتف خالد وناولته كوبًا بلاستيكيًا صغيرًا من شوربة العدس تصاعد من فوهته البخار، وحثته على العودة للمنزل؛ الميدان لن يطير! كان جالسًا يمسك بجريدة أسفل منصة الإذاعة الميدانية التي حملت لوجو قناة (الجزيرة)، قائلًا بصوتٍ متحشرج: إن قرر كل واحدٍ منا المغادرة لالتقاط الانفاس؛ سيطير ـ مطَّ شفتيه ـ رائع! كانت جدتك تصنعه صباح الجمعة في الشتاء بالسمن البلدي، أيام!

سألته قِسمت بسخرية: ألا تخاف أن يكون مسمومًا! ربما السيدة التي وزعته عميلة.

رفع الكوب كالنخب: لا يمكن أن يحوي العدس الأصفر سُمًّا أبدًا.

ارتشفه متلذذًا باستمتاع شديدٍ ثم وضع الكوب الفارغ إلىٰ جانبه، تلوح علىٰ وجهه سكينة غريبة كمن أزاح ثقلًا من فوق عاتقه فأصبح خالي البال! قال متطلعًا صوب الشاشة التي تعرض أغنية وطنية لأم كلثوم مطلعها (أنا الشعب): من الغريب أن تكون الجزيرة القناة الوحيدة المستميتة في الدفاع عن الميدان! أشم رائحة النفط في الأجواء.

هزت قِسمت رأسها بريبة، محدقة بالشاشة البيضاء التي تنقل كل تفصيلة بدقة، كمصلٍ يجري بعروق الميدان متلمسًا خباياه: كل ما أعرفه حاليًا أن الأمر بمصلحّتنا.

قلب صفحة أخرىٰ من الجريدة: السياسة لا تعرف سوىٰ المصالح!

رفعت كتفها بلامبالاة: ربما مصلحتنا الآن واحدة - استطردت بتهكم - نحن بمحرقة كبيرة ستظهر الذهب الأصيل من المعادن الخسيسة، وتذيب أقنعة أنيقة عن وجوهٍ وارت قُبحَها.

تبادلا النظرات لبرهة ثم قال: لم أفعل شيئًا يا أسما، ربما جريمتي الوحيدة أني لم أفعل شيئًا! - التفتت إليه بحدة فأردف بعد وهلة صمت رمقته خلالها بسهامٍ مسمومة - فعلتُ ما طَلَبتِه ومنحتك المهلة؛ لم أخل بالاتفاق!

قالت بمرارة: رفضوا رغبتي بالاطلاع علىٰ الأوراق وطالبوا بالمستحقات ضاربين بتوسلاتي عرض الحائط! - أردفت بحقدٍ - منع الأدوية السبب، أليس كذلك؟! قل الحقيقة ولا تخف؛ لا أملك أدلة تدينكم!

قال بإصرارٍ: لم أمنع عنها الدواء؛ القرارات لا تصدر عنّي وحدي، ولا أعلم أي تفاصيل؛ أوراق كثيرة لا تمر علىٰ مكتبي، فللمشفىٰ دولة عميقة لا نجرؤ علىٰ الاقتراب منها - أطرق بحزنٍ - حسبت حساباتي بشكل خاطئ، ظانا أن أموالي التي جمعتها بكفاحي أغلىٰ من مبادئي! ربما غضضت

الطرف لكني أبدا لم ألوِّث يدي بالدماء!

- وإن لم تلوث يدك بدمائها فقد تلوثت روحك بالذنب.

ظهر عمرو بغتة متأبطًا ذراع شيخ ذي عمة؛ خطيب الميدان. انفرجت شفتا الشيخ بابتسامة هادئة: والله لن أهرب! بإمكانك الآن أن تفلتني.

لوح عمرو بمرح: ليس قبل أن تعقد قراني على عروسي، أين أنت يا لينا؟

نهضت تنفض ملابسها: ما هذا الصخب الذي تصنعه يا عبسي؟!

اتسعت ابتسامته هاتفًا بلهفة: "سنتزوج!" فغرت فمها وهمَّت بالحديث وعوضًا التفتت نحو خالد بتساؤل مرتبك، فقلب يديه في الهواء بحماس: تعلمين أني موافق منذ الأزل!

اغرورقت عيناها بالدموع مخفية ارتعاشة شفتيها بكفها ليغرق المكان بالصمت، تنهد عمرو بارتياح موجهًا حديثه للشيخ الذي تابع ما يدور بابتسامة رزينة: اتكل على الله يا شيخنا.

وفي هدوء شمس المغيب التي زارت المكان للمرة الأولى منذ الصباح؛ تلألأت أنوارها داخل عيني العروس الخجولة، وومضت ذهبيتها على وجه العريس المتلهِّف ذي العين الواحدة؛ القرصان مؤخرًا! ألقى وكيلها السؤال، ورغم وهلة التردد طفرت سعادة لا مثيل لها فوق هواجس الماضي؛ منحته شفتاها ثلاثة احرف كانوا أجمل ما سمع في حياته (أجل). شهد عدنان على العقد، وباركهم رفقاء الميدان.

- ستحزن أمي وعلياء ولولا كثيرًا لأنهن لسن هنا - احتضن عمرو كتفيّ لينا - لكن لا بأس، سأحرص على إقامة احتفال صغير فور عودتنا الليلة.

قطبت لينا: لا عودة قبل تحقيق مطالبنا.

قلب عينه بإحباط: ضريبه الزواج من ثائرة! - انحنى هامسًا - سأنتظر بشوق لتتحقق مطالبنا!

اقتربت قِسمت محتضنة العروس، والتفتت نحو عمرو مهنئة، فشكرها مصافحًا يدها الممدودة بحرارة أدهشتها. وفيما انشغلت لينا بتلقي التهانيء،

سأله خالد باهتمام عن أسرة علي التي كلفه بأمرها، فأجابه: فعلت ما طلبته بحذافيره، وأوصلت آخر مجموعة من الملاءات والبطاطين التي ستحتاجها ـ سأله عن الأوراق الخاصة بقيد شقيقتيه بالمدارس، فربت عمرو على كتفه مطمئنًا ـ سيتم كل شيء كما تريد وأفضل ـ أومأ خالد بارتياح ـ لماذا تصر على إخفاء الأمر؟

ـ لا أقوم به ليعرفوا!

* * *

جلس عدنان إلى جانبها على الأرض: سعيد أنهما استطاعا أخيرًا العثور على بعضهما البعض ـ وافقته فسألها بغتة ـ ماذا يرضيك يا أسما لتقبلي السعادة؟!

ـ العدل.

ـ مطلب صعب! مطلب العالم كله.

ـ إذن فالسعادة بعيدة المنال!

ـ كثيرًا ما رضختِ للقسمة؛ لِم تضعين هذه المرة أمامها سدًّا من عنادٍ؟!

أجابته بتهكم: لأني أملك الخيار هذه المرة.

ـ أبطلت كل بنود العقد التي وقفت حائلًا بيننا؛ لم يكن زواجنا سريًّا من اللحظة الأولى، أخللنا بمدة العقد، أحبك ولم أعاملك يومًا كعشيقة! ما الذي بقي لترحمي ثلاثتنا؟! أرشديني عن طريق العدل وأعدك أن أفعل المستحيل.

هزت رأسها بمرارة: نحن لا نملك عقدًا بالمرة! ـ تنهدت ـ ولا أعرف للعدل طريقًا، هل نسيت الشهود السكارى! أيمكنك إصلاح ذلك أيضًا؟ لا أيها الطبيب، ثمة أشياء يستحيل إصلاحها!

مازلت تعاقبينني على أمرٍ لم يكن بيدي، على الأقل لم أتعمده! ـ أطرق مفكرًا لبرهة وحين رفع رأسه كانت نظراته تحمل مزيجًا من الظفر

والمكر ـ وإن استطعت تعديل شروط العقد ومحو نقاطه السوداء تعدينني بالاستسلام؟ ـ سألته بتوجس عمَّا سيفعل ـ لا شأن لكِ، فقط عديني!

ازدردت ريقها محدقة بخطي الابتسامة اللذين عادا لتزين طرفي عينيه. فأمسك بمرفقها معتصرًا حبات المسبحة المدلاة من سلسلته البلاتينية: "عديني انغرزت الحبات بجلدها تحت وطأة أصابعه، ولأنها تدرك ألَّا شيئًا في العالم يمكنه تغيير الحقيقة أذعنت: "أعدك!" طلب منها انتظاره وتركها خائفة رغم الأمان في كل شبر، تعيسة ويائسة رغم براعم الأمل المزروعة في الأعين وعلىٰ صفحات الوجوه. تزوجت لينا! ستكوِّن أسرة صغيرة عما قريب، أما هي، وأيًّا كانت النتيجة، سقط النظام أو صمد؛ واقعها باقٍ! سفينة لم تعثر يومًا علىٰ بَر، وطائر مهاجر برحلة طويلة لا تنتهي!

ـ يا مصريين، استمعوا إليَّ من فضلكم ـ انتشلها صوته جاذبًا إياها صوب بقعة الضوء فوق المنصة؛ يقف حاملًا الميكروفون، هازمًا الأغاني الوطنية بجهوريته ـ يا مصريين، أتيت لأعلن رغبتي بالزواج ممن أحبها، وأرغب أن تكون مصر كلها شاهدة علىٰ زواجنا، أتقبلون أن تكونوا شهودًا علينا بعد الله؟ ـ تعالىٰ الهتاف والتصفيق والصفير في كل مكان فتابع بحماسٍ ـ إذن انتم موافقون!

شجعته الجموع الغفيرة (اتكل علىٰ الله.. تحيا مصر.. تحيا مصر.. الله أكبر.. يباركم المسيح). جف ريقها ودبَّ الذعر بأوصالها، وشرعت بالارتجاف، يبدو أنها بحاجه لبعض للراحة؛ بدأت تهذي! هو البرد والإرهاق بلا شك. دست السماعة بأذنها مغمضة عينيها، ووضعت رأسها بين كفيها تتنفس بانتظام لطرد الأوهام، متقوقعة علىٰ نفسها وقد استحالت الأصوات من حولها لضجيج غير مفهوم. "حدثيني يا روزا، تكلمي!"

حبيبي ندهلىٰ قاللىٰ الشتىٰ راح.. رجعت اليمامة زهر التفاح.. أنا علىٰ بابي الندىٰ والصباح.. وبعيونك ربيعي نوَّر وحِلي!..

ـ قسمت ذو الفقار، قِسمت عليّ الدين ذو الفقار.

صوته الآمر هذه المرة أجبرها أن تفيق وتصدق. أشار وسط الضباب بوجه متهلل فشعرت بقدميها ثقيلتين، تجمدت! فرأت نوار تطل بين الوجوه؛ ماتزال ممسكة بالعَلَم وعود الريحان، مشيرة لتقترب بنفاذ صبر رغم ابتسامتها التي ملأت وجهها. وجدت نفسها تنهض لتسير نحوها، وكلما اقتربت خطوة ابتعدت نوار خطوتين! وجهها كان منارة فوق شاطئ بحر هادر، فتّت الخوف، محىٰ التردد. امتدت يده نحوها جاذبًا إياها إلىٰ جانبه فوق المنصة، وأغنية لوردة الجزائرية تغمر الأجواء...

حلوة بلادي السمرة.. بلادي الحرة بلادي السمرا بلادي...

يردد الجميع معها.. تعيشي يا مصر.. تعيشي يا مصر؛ أجمل أغنيه حب سمعتها بحياتها! تزلزل طبولها ضلوعها وترجها رجا. همسَ بقلق: "ترتجفين!". طمأنته فخلع معطفه ووضعه فوق كتفيها هاتفًا وسط الصخب: "لأجلك ولأجل نوار الصغيرة" أومأت بصمتٍ مغرورقة العينين، وللمرة الأولىٰ كان لدموعها طعمًا عذبًا بلا مِلح التعاسة! تأمل ارتباكها ووجنتيها الحمراوين، تحولت بلحظة لعذراء خجلة، وهل غاب عنها يومًا خجلها العذري؟! ربما كانت مراوغتها وأكاذيبها الصغيرة سببًا رئيسيًا للمشاكل، وربما أثّرت ظروف لقائهما الأول علىٰ انفعالاته وتصريحاته في الكثير من الأحيان!

* * *

وكأنما كُشف عن روحه فتحرر من قيود الرزانة والتعقل؛ مذعنًا لرغبته بالبقاء قربها رغم إعلانه كذبًا مبيته لدىٰ علياء! حين أوشك علىٰ الدوران نحو الجراج، رآها تستقل السيارة الحمراء. لا يدري ما دهاه ليتتبعها! ربما غيظًا لتبديل رأيها دون الرجوع إليه وقد أخبرته بنيتها عدم الخروج! حاولت إخفاء توتُّرها ببعض ألوان الزينة القاتمة لمنحها طلة واثقة لا مبالية! لماذا تأخر لقاؤهما الثاني؟! أجابت نفسها بمرارة: لأنه لا مفر من القسمة! ترجّلت بعدما تأكدت من مظهرها للمرة الأخيرة بمرآة السيارة، واتجهت نحو باب

المقهىٰ باحثة عنه، فأشار إليها. كان عدنان يقبع بسيارته في ركنٍ مظلم منحه القدرة علىٰ الرؤية عبر زجاج المقهىٰ؛ جاءت لمقابلة شمس الدين! لا! ليست خيانة أخرىٰ! تهتم بنفسها وتنظر في المرآة آلاف المرات قبل الذهاب لرؤيته؛ أمر لم يرها تقوم به لأجله! ولكن كيف وهي لم تكن مِلكًا لسواه؟! قتله عجزه عن سماعهما لكنه ظل يتابع كل لفتة ولمسة ندت عنهما.

نزعت السماعة تستقبلها ابتسامة هادئة وقورة اعتلت شاربًا فضيًّا كثًّا، وصافحتها يدٌ باردة حملت من التوتر الكثير، ردت التحية باقتضاب وجلست فوق الأريكة الصغيرة المقابِلة للطاولة. أتىٰ النادل حاملًا قائمة للمقهىٰ، طلبت كوبًا من الكابوتشينو فغادر النادل تاركًا إياهما وحدهما في صمتٍ لم يطل كثيرًا.

لا أحد يعلم بمجيئي هنا حتىٰ أبنائي، هو ملجأي حين ترمىٰ الحياة بثقلها فوق أنفاسي وأحتاج لبعض الهدوء والوحدة، يعرفني النادل ويعرف طلبي؛ قهوة محوِّجة مضبوطة، أتحبين القهوة؟ ـ ودت إخباره أنها لم تستسغ مذاقها المُر قبلًا وعدنان أحبها فيها! لكنها هزت رأسها نفيًا ـ أحببتها من رائحتها التي عبق بها دوارنا صباحًا بعد الإفطار ومساءً قبل العشاء؛ حين يذهب والدي لعمله ويعود منه ـ سألته بحدة رغمًا عنها عن سبب المقابلة، فارتفعت زاوية فمه ـ لم يروني هنا بصحبة مخلوق فما بالك برؤيتي برفقة فتاة جميلة! ماذا يجبرني علىٰ تصديقك يا قِسمت؟!

زفرت تمط شفتيها: فهمت! ـ أطرقت واضعة كفيها فوق المائدة مداعبة حبَّات المسبحة لوهلة، ثم رفعت رأسها محدقة بعينيه المتجهمتين ـ ضبطك والدي مرة بالجرن الصغير ممسكًا ببطة وقد شققتها من العنق حتىٰ المؤخرة، مثبِّتًا إياها فوق لوح خشبي، تحاول تشريحها كما فعلت المدرسة بالضفدعة بحصة العلوم! فرأتكما والدتكما ـ ازدرد ريقه فتابعت ببرودٍ ـ جدتي؛ نوار! حاولت معاقبتك وضربك علىٰ مؤخرتك بعصىٰ الغلّاية الخشبية، فحال بينكما، شريطة تعهُّدك بعدم التعرض لأيٍّ من بطاتها ـ زفرت بسخرية ـ خاصة وأن البطة كانت مسمنة، لتذبحها بعاشوراء.

أطرق بحزنٍ: تنبأ لي يومها أني سأصبح طبيبًا عظيمًا، ووعدني بإحضار..

ـ بإحضار سماعة طبية لتتمكن من سماع قلوب من تشاء! ـ أحنىٰ رأسه متكئًا علىٰ كفه فأكملت متحدية ـ كان جدي يقول لجدتي دومًا إنها من يجب أن تشرب قهوتها مضبوطة ويشربها سادة؛ فالسادة للسادة! وكانت تتحداه أن يطيق مرارتها فيجيبها (السادة لايحتاجون...)

ـ للسادة.. لا أصدق! أنتِ ابنة عليّ الدين! بعد سنوات انقطعت أخباره حتىٰ ماتت والدتي بحسرته!

قالت بغضبٍ: لم يعبأ أحدكم بالبحث عنه، طردتموه شر طردة كالحيوان الأجرب، وإن ماتت جدتي بحسرته فقد مات بحسرتكم جميعًا!

اغرورقت عيناه بالدموع: مات! ـ نهرته بحقدٍ لئلا يدعي الحزن عليه، فهتف بحسرة ـ لا تلوميني، أنا أصغر أشقائه، لم أملك القدرة علىٰ مجابهتهم.

ابتسمت بسخرية: علىٰ البكر دومًا تجرُّع المرارة إن قُسِمَت لعائلته! ـ استطردت بحدة ـ وإن كان لثأر الدم قداسة الأركان الخمس لديكم؛ ليس مبررًا لقسوتكم! حتىٰ حين حاول العودة طالبًا المغفرة! ـ أردفت بألمٍ ـ كانت جريمته حمله قلبًا وروحًا محبة للحياة!

قطبَ بألمٍ ممسِّدا ذراعه: صدقتِ، لا مبرر أبدًا لما عاناه عليّ الدين.

تأملت وجهه الذي تهدجت ملامحه انكسارا؛ شقيق والدها المفضل، عدَّه ابنًا له رغم السنوات العشر التي فصلت بينهما. يالها من حياة صعبة تلك التي عاشها والدها! شجرة مقطوعة الجذور وجروح القطع ملتهبة متقرحة للحظاته الأخيرة، معاناة في القُرب ومثلها في البعد، والاختيار بين نارين أبشع الأمور! كانت تملك الكثير والكثير من الحكايا؛ أقوىٰ من مستندات الأنساب، وهو يعلم! لم تكن المرافعة في قضيتها صعبة، وربحت دون فوزٍ حقيقي! سألها أتحتاج لعمل فأجابته بتهكم: "ربما بعد عدة أشهر؛ فلدي عمل عليَّ الانتهاء منه أولا" أخبرته بكل شيء دون أن تخبره شيئا في الحقيقة؛ شقيقة متوفاة تدعىٰ نوار، وشقيق مسافر وأم غائبة، لم تفسِّر

سبب الغياب وتركته كما تركت غيره يظن بموتها، لكنها رفعت رأسها في النهاية بكبرياء: "وأنا زوجة ثانية لعدنان الجبالي" صدمة تصريحها؛ خرسه المفاجئ ومحاولته الحديث عبثًا، وحين تفوه قال أغرب الكلمات: تحبينه! ـ أجابته بما يود سماعه، فتنهَّد بحسرة محولًا عينيه عنها للحظات ثم التفت إليها ـ لن أتصنع دور العم المهتم بابنة شقيقه، لأنك لن تصدقيني، غلطتنا من البـ...

أمالت رأسها مقاطعة: أتساءل كم أصبح مقدار ثرواتكم؟ ـ زفرت ـ خاصة مع ثروة والدي!

قال مرتشفًا قهوته: لم يحصل عليها سوى نور الدين، ترتيبه الثاني بعد والدك؛ كان عليه الأخذ بالثأر فاستحق كل أمواله وأرضه، وقد مات. رزقه الله بثلاث فتيات ولم يُرزَق الذكور، فكان لنا وشقيقي عز الدين نصيب من ثروته.

قالت بعجرفة: تعلم أن لقاءنا كان محض صدفة، وبالتالي تفكيرى بأموال والدي لم يمر على مخيلتي يومًا! هي بالنسبة لي كما يقولون بلغة التجارة (ديون معدومة).

كانت تكذب! تلك الأموال لم تغب يومًا عن أفكارها الحانقة، لكن ماذا تفعل ولم يبقَ لها من كل شيء سوى بعضٍ من كبرياء!

ـ هو حقك يا أسما! وسؤالك أمر بديهي.

ـ لا أريد شيئًا منه ـ قالتها رغم انتفاضة قلبها؛ أمعقول تتحقق الأحلام؟! أصرَّ أنه حقها شرعًا وقانونًا، فارتفع جانب فمها ـ ألستَ خائفًا أن أكون نصابة، ألا تريد أوراق إثبات؟

مدَّ يده عبر الطاوله ممسكا كفها: ذكريات عائلتي لديك هي كل ما أحتاج من أوراق!

أرخت أنظارها محدقة بيده المحتضنة كفها. كيف لها أن تشعر بما يجب أن تشعره؟ كيف تقبله عمًّا من لحمها ودمها وتستسلم للمسة العطف تلك؟!

ـ أيمكنني تصديقك؟ هل ستعيد لي حقًّا أموال والدي؟!

ـ ما أملكه منها فحسب، ميراث بنات عمك مستحيل حتى وإن صدقنني ووافقن؛ أزواجهن سيرفضون الفكرة حتمًا، خاصة وأن الأوراق كلها رسمية ـ أطلق ضحكة قصيرة متوترة ـ أمرٌ غريب ما يدور بيننا! لكني صادق فيما أقول وأول الحواجز التي سأهدمها هو عدم الارتياح، أنا عمك يا ابنة عليّ، ناديني عمي ـ مدَّ يده الأخرى ممسكا بكفها ـ ابدئي معي الخطوة الأولى لكسر الحواجز يا قِسمت عليّ الدين ـ أغمضت عينيها بقوة واعدة بالمحاولة، فأومأ بارتياح ـ امنحيني بضعة أيام وسأرتب كل الأمور، بل وسآتي لزيارتك أنا وعائلتي إن لم يكن لديك مانع، وربما بعدها تأتين لزيارتنا ببلدة والدك!

طالعته لبعض الوقت بريبة ثم ألقت نظرة على ساعتها مستئذنة، نهض ممسكًا بيدها: سعيد برؤيتك، صدقيني ـ أومأت. لا تملك سوى تصديقه. اقترب بتردد ـ أتسمح لي ابنة شقيقي بتقبيلها؟ ـ سألته مازحة عن الناس من حولهما فزفر بمرارة ـ أقبِّل فيك الذكريات الغالية، وقد تأخرتُ كثيرًا!

رفت بارتباك وهو ينحني طابعًا قُبلة صغيرة فوق وجنتها. تغضنت ملامحه ممسكًا بكتفه، فسألته مقطبة: "هل أنت بخير؟" ابتسم قائلًا: "قلبي الضعيف لم يعد يحتمل المفاجآت!" قادها عبر الطاولات، وذراعه ملتفة حولها بحماية استغربتها واستسلمت لها!

* * *

صفعة جديدة على وجهه! لمسات العشاق أصابت معدته بالغثيان. لا ينوى الرحمة، ليس هذه المرة! قاد السيارة عبر طرقات لم يفكر بالسير فيها قبلًا، لا يلوى على شيء سوى محاولة عابثة لتهدئة ثورته، وحين دلف للفيلا عثر عليها جالسة على الأريكة بالبهو ممسكة كتابًا، ساهمة خلف نظارتها. اقترب ليجلس قبالتها على أحد المقاعد واضعًا لوح الـtwix أمامه على طاولة الصالون. فقالت: توقعت تمضية الليلة وحدي!

سألها ببرودٍ: ألم تخرجي؟ ـ حدقت بكتابها في صمت لبرهه ثم نفت

فنهض بغتة هاتفًا ـ تكذبين ـ قطبت بحيرة وهمّت بالحديث فقاطعها ـ رأيتكِ برفقة دكتور شمس في المقهى، لا داعي للإنكار.

تأملته لوهلة ثم نهضت ساخرة: تراقبني أيها الطبيب! من الليلة الأولى أم مؤخرًا؟

زفر بتهكم: لا تغيبين عن عينيّ لحظة.

ـ مسكين! أرهقتك ورائي مرارًا لضبطي بالجرم المشهود!

تأمل ملامحها الغاضبة، لن ينساق للعبتها فتحوِّله لدور المدافع، دوره أن يسأل وعليها أن تجيب: "لماذا كنتِ برفقته ولماذا أخفيتِ؟" حدقت بملامحه الثائرة ونظرة عينيه المظلمة، كانت على وشك البوح بما يثقل صدرها من مخاوف، ليطمئنها، لكن فات الأوان! ذكَّرها الليلة من تكون وخيرًا فعل!

ـ ولماذا أخبرك وعملي لا شأن لك به؟ ـ سألها بنفاذ صبر عما تعنيه فأعادت رأسها للوراء ضاحكة ـ هل نسيت مَن أنا أيها الطبيب؟، فتاة ماهي وفيلا السكارى! ـ أعاد عليها سؤاله من بين أسنانه فعقدت ذراعيها فوق صدرها ـ أحاول تأمين مستقبلي! العقد سينتهي وسأكون بحاجة لعقدٍ جديد؛ عملي! ـ استنكر طريقتها في التفكير فاقتربت منه بابتسامة واسعة لاحت لها غمازتاها ـ خذ الأمر ببساطة.

لفت ذراعيها حول عنقه بغنج فصرخ بها: "توقفي!" أخافها صراخه لجزءٍ من الثانية ثم هزت رأسها بغير تصديق: تدهشني أيها الطبيب! ثائر بلا مبرر! بأي طريقة تريدني أن أفكر؟! ـ ابتعدت مردفة بازدراء ـ نسيت لعبة العذرية الزائفة! عقد المحامي المحدد بتاريخ صلاحية! شروط زواج المتعة ومبلغ المال المدفوع بالبطاقة الذهبية ـ أشارت لنفسها بمرارة ـ أنا قِسمت ذو الفقار عشيقتك، لا تنسَ هذا أبدًا ـ استطردت بحدة ـ ولا تجرؤ على محاسبتي!

ـ لِم ترفضين إخباري الحقيقة؟!

صرخت بغضبٍ: لأن ما أخبرك به هو الحقيقة الوحيدة التي أملكها وعداها لا يهم، لا يهم! - تبادلا النظرات المتحدية لوهلة وحين همَّ بالحديث اقتربت متلمسة وجنته - لا تكن كبيغماليون؛ عشق تمثاله المنحوت "غالاتيا" فدبت فيه الحياة وظن أنه ملكها للأبد! أنت لن تملكني للأبد. كان هذا اتفاقنا.

قال بصوت أجش: هربت غلاتيا من بيغماليون مع شاب يضاهيها جمالًا وشبابًا، لا مع رجل عجوز بعمر والدها! - استطرد بنبرة مختنقة - عاد بعدها النحَّات لتقديم القرابين كي تعود تمثالًا فكان له ما أراد.

- وحطم تمثالها بيديه! ولا أنوي أن أكون مثلها، بقائي معك سيحطمني في النهاية.

- لستُ بيغماليون ولستِ غالاتيا، لم أصنعك لأحطمك يا أسما!

قالت هازئة: لكنك حملت الكره قبلًا مثلما فعل؛ رأيتني مخلوقًا ناقصًا، مصدرًا للقذارة وانعدام الأخلاق، لا ترهق نفسك بنوازع لا فائدة منها أيها الطبيب - ابتسمت بدلال ملوحة له بغمازتيها - لنصعد لغرفتنا؛ ربما تتذكر من أنا!

أبعد كفها عن ذراعه بعنف: إياكِ والابتسام في وجهي وأنتِ لا تعنينه، إياكِ! لن أقبل بالبقايا - أمسكها يهزها بقسوة - إما أن تكوني امرأة، تبتسم لي بحق، تنفعل معي بحق، وإما لا! - قرَّب وجهه من وجهها - قبلت بالزيف مرة ولن أقبل به ثانية!

- اهدأ أيها الطبيب ولا تتخذ منحدرًا خطرًا، صدقني كله زيف، وكله لا يهم!

املكي تفسيرًا يا أسما، تفسيرًا واحدًا! أي عذرٍ! سأرضى بأى عذر، ليكن حقيقي فحسب، لن أحتمل، ليس هذه المرة! همت بالابتعاد مشيحة وجهها فشدد قبضته حول ذراعها صارخًا: لم أكمل حديثي بعد.

حاولت جذب ذراعها: انتهى الحديث، لا أملك تفسيرًا سوى ما سمعته.

كانت تتلوى محاولة عبثًا جذب ذراعها من بين أصابعه وكان مصرًّا على عدم إفلاتها: لن أتركك حتى تخبريني الحقيقة يا أسماء، أخبريني الحقيقة!

صرخت بقوة: دعني، قلت لك دعني!

صاح بقسوة معتصرًا ذراعها: انطقي يا أسماء، لماذا قابلته؟

نجحت أخيرًا بإفلات ذراعها من قبضته، فانفلت عقد المسبحة الفضي وانقطع لتنساب حبات الكهرب كشلالٍ ثائر، صانعة نقرات ضوضائية فوق الرخام كزخات مطر بليلة عاصفة! انفلتت شهقة حسرة من حنجرتها، تتابع عيناها انفراط الحبات هنا وهناك، ارتعشت شفتاها متمتمة بخفوتٍ: ماذا فعلت يا عدنان؟!

ازدرد ريقه محدقًا بوجهها المتألم، مسبحة الكهرب أغلى ماتملك! أدرك كم تعني لها تلك الحبات دون أن تعني علاقتهما شيئًا مقارنة بها! كيف تعشق حبَّات من جماد ولا تعيره انتباهًا؟! كانت شاخصة البصر نحو الأرض بنظرة مذهولة، فجذبها من ذراعها بقوة يجرجرها خلفه صاعدًا الدرجات نحو غرفتهما: منحتك مرة خمسين جنيهًا لدقيقتين، وأعدك أن أمنحك خمسمائة جنيهًا عن كل ليلة من الآن فصاعدًا، أيكفيك هذا لتأمين مستقبلك؟! - دفعها بقسوة نحو الداخل صائحًا - تنفعلين فقط لأجل المسبحة وأحترق أنا! إذن لنحترق معًا.

أغلق الباب خلفهما بدويٍّ عنيف رددت أصداءه الجدران، مجهزًا عليها بضربة أخيرة! لكنها لم تعد تهتم، ليفعل ما يشاء، قطع المسبحة مضيعًا حبات الكهرب الغالية، ولا شيء بعد هذا يهم! لا تدري كم مرَّ من الوقت؛ قررت عند لحظة ما تغييب عقلها، ونجحت. حين انتبهت اخيرا لصوته البائس: لماذا تفعلين هذا بنا؟ بإمكاننا أن نكـ.. - صمت زافرا بمرارة - تنجحين بإطلاق وحوشي كنجاحك بإخراج ملائكيتي! كلاهما دومًا رهن إشارتك.

"كم الساعة الآن؟" اختلجت ملامحه لسؤالها وانقبض قلبه، كانت تحدق بجمود لسقف الغرفة وقد تبعثر شعرها بفوضوية حول الوسادة،

أجابها: لا يهم! ـ استلقىٰ بجانبها محدقًا بدوره بالسقف ـ ألا نستطيع العيش في مسافة آمنة بين وحشيتي وملائكيتي؟!

التفتت إليه بحيرة: هل تأخر الوقت كثيرًا؟!

تأملها لبرهة في صمتٍ ثم نهض ودثرها بغطاء الفراش: أرجو ألا يكون قد تأخر!

دس سماعتها بأذنها فاغمضت عينيها لتنساب دمعة صغيرة عند طرف جفنها متمتمة مع روزا" *بناديلك يا حبيبي.. مابتسمعلىٰ ندا.. ولا التـــ.*"

قال مغلقًا الضوء: أنا ذاهب يا أسما، كلانا بحاجة لبعض المتنفس لنستطيع اتخاذ قرار مناسب.

فاستمرت بالترداد: *كأنك ما حدىٰ.. ضايع بهالمدىٰ.. حبيبـ. مالي غيـ..*

* * *

كل يوم يمر يُذبِل زهرة الأمل التي شقت صخر يأسها في لحظة معجزة؛ هدوء الأيام الثلاثة الأولىٰ لسفره كما أخبرها، لكن ماذا بشأن اليوم الذي تلاه والذي تلاه؟! ما حجة عمها؟ أين اتصاله الموعود؟ لا تريد أن تفقد يقينها بصواب حُكمها علىٰ الأمور، هي التي لم تكن يوما حمقاء كفاية لتهين ذكاءها متوسمة الصدق في أي مخلوق! عيناه اللتان حملتا صدقًا آمنت به قال سيعوِّضها؛ هكذا وعدَ، أيخل بالاتفاق؟! وكأن ما دارَ بينهما زوبعة بفنجان انتظر مرورها ليعاود ممارسة حياته، ناسيًا ذكريات تضر أكثر مما تنفع! كان أملها في التحرر لتعود أسما التي تعرفها، وتبتعد عن العالم الذي أُجبِرَت علىٰ دخوله عنوة. يجتاحها شعور غريب باليتم! وفاة والدها وسجن والدتها لم يكسراها كما يوشك أن يكسرها خداع هذا الرجل. وأنت أيها الطبيب؟ لم يكن هذا اتفاقنا! ستة أيام علىٰ غيابه هو الآخر منذ تلك الليلة، وهل يستغرق اتخاذ القرار كل هذا؟! مؤرَّقة التفكير ومعذَّبة ندمًا وحيرة؛ لا تعرف ما تريد ولأول مرة في حياتها! رفعت شاشة هاتفها محدقة بالأسماء وأرقامها، كم تشتاق ليارا والعَمَّة! قرار مقاطعتهما موجع، لكن

لا ذنب لهما في تعقيد حياتها أو سُمعتها التي أصبحت على المحك، وإن كانت عاجزة عن الحصول على احترام نفسها، فلن تحصل عليه منهما. لا تملك أحدًا تستطيع التواصل معه، بحاجة لشخص ما تتحدث إليه، تشاكسه، تبكي وتصرخ معه، تحتاج إنسانًا! تحتاج..؟ تحتاج إليه! يا إلهي! ربما هو الاعتياد؛ الفيلا صامتة والألوان دونه باهتة، هي الوحده ولا شك! سارت بضجرٍ نحو النافذة، فرأت حسنين يجمع بعض الأعشاب الجافة من حوض عباد الشمس، وكريمة تحمل صينية الشاي. اعتدل الرجل بجلسته وافترشت امرأته الأرض إلى جانبه، تتعالى ضحكاتهما الهادئة أسفل المغيب الدافئ، تمتلئ الأجواء برائحة الريحان والنعناع البلدي. استنشقت العبير بقوة متأملة وجهيهما، أهو الرابط القوي بينهما ما ساعد على التئام الجروح أم تراه الرضا بالقسمة والإيمان بالمكتوب؟! تدفع نصف عمرها لتحظى بلحظة خالية البال مثلهما. يالبؤسها! تحسد العجوزين المعجونين حزنًا وشقاءً على لحظة هناء، ستتبخر بحلول المساء حين تعاود الذكريات الطفو فوق سطح حياتهما الرتيبة!

وقعت أنظارها على بطاقة بوابة الرحاب! نسيها الطبيب ونادرًا ما ينسى شيئًا يخصه! قلبت البطاقة متوثبة النظرات. لا، مجنونة! زفرت بضيقٍ، لكنها بحاجة لشيء يبدد تلك الوحشة، تعترف هذه المرة أنها حقًا بحاجة إليه ولرؤيته! هبطت الدرج نحو الجراج حريصة على الخروج من الباب الخلفي كاللصوص، ثم وقفت وأوشكت على النداء (كريمة أمسكي بي)! استقلت السيارة الحمراء والتحمت بنهر الطريق، شعرت بكل شيء يتضخم حولها موشكًا على ابتلاعها؛ الأشجار بضخامة الأبراج، البنايات كالصروح المشيدة، حتى الطريق كان كأخدودٍ عميقٍ أوقف أصغر الشعيرات بجسدها قشعريرة! لا تدري لِمَ أصبح الإدرينالين بتلك النسبة المرتفعة في شرايينها؛ حالة غريبة من الحماسة المشوبة بالرعب، كلصٍّ على وشَك خوض أكبر عمليات السطو المسلح في حياته! سألت الكثير ممن قابلوها عن الطريق؛ بعضهم نظر لها بإشفاقٍ، تأخذه الحِمية بالاستفاضة في

الوصف حتى تفقد القدرة على متابعته، وآخرون ألقوا إليها بنظرات ضيق ولامبالاة مع فتات إجابات. كان الطريق أطول مما توقعت، أزاد شعور الوحدة والوحشة اللذين كانا رفيقا دربها، وأخيرًا وبعد ساعة من الدوران حول نفسها مرارًا وتكرارًا، عبرت منتصف البوابة المزينة بلافتة عريضة مشعة (مدينة الرحاب). اكتشفت ولدهشتها ارتفاعها عن سطح الأرض أكثر من ارتفاع جبل المقطم! وقد استقبلتها تيارات الهواء العنيفة ضاربة جوانب السيارة من كل اتجاه، المكان شديد البرودة، ولم تملك سوى الشال حول كتفيها. أوقفها الحارس بنظرة قشعرتها من رأسها لأخمص قدميها، مدت يدًا جاهدت لإبقائها ثابتة، فتناول الحارس البطاقة ولانت ملامحه: "فيلا الجبالي! نبلغهم بوصول حضرتك؟" سحبت نفسًا عميقًا من الهواء ومنحته ابتسامة غمازية قضت عليه: "وتفسد المفاجأة!" سارع الحارس نافيًا: "أمسية سعيدة" أومأت برزانة فرفع طرف الحاجز المعدني لتمر البطة الحمراء، متنفسة الصعداء، جاذبة إحدى المحارم الورقية لتجفف قطرات العرق! طالعت أرقام الفيلات، متسللة بين الطرقات بالبطة الحمراء، ملتزمة جانب الطريق المعتم، عثرت عليها بعد نصف ساعة أمضتها بالدوران حول نفسها، كاد خلالها اليأس يعيدها من حيث أتت. كيف كانت لتفسر الأمر لحارس البوابة! دارت بالسيارة حول السور، وسرعان ما تسلل إليها الإحباط حين عثرت على شرفتين بالخلف! أيهما غرفته؟ انتحبت بيأسٍ، لن تضيع مجهودها هباءً وتعود منكسة الراس! ستبقى حتى تراه مهما طالَ الوقت، أو على الأقل حتى يصبح بقاؤها مستحيلًا حين توشك الشمس على العودة!

تأكدت أن ظِل الشجرة التي توارت نصف بطتها الحمراء خلفها تمويها كافيًا، وغاصت للأسفل مديرة روزا...

كنا نبعتله مكتوب يبعت مكتوبين.. شو قالولك يا محبوب مغير من شهرين.. عالقليلي عاتبنا..

حدجت مشغل الأسطوانات بغيظٍ مشيحة رأسها نحو النافذتين؛ واحدة بانورامية بزجاج عسلي، وأخرى مزينة بمشربية على الطراز الإسلامي!

تساءلت أيهما وأناملها تبحث عن حبات الكهرب فوق رسغها، حين اكتشفت غيابها! لم تعِ الوقت الذي تسمرت خلاله عيناها على الطابق الأول، وللحظة مدت يدها نحو محرك السيارة، لولا ضوء انبعث بغتة من النافذة البانورامية وظِلٌّ مضى يتحرك داخل الغرفة. قفز قلبها بين ضلوعها، لا يمكن أن تخطئ ظِله، عدنان! يسير بالغرفة يمينا ويسارًا؛ يبدِّل ملابسه! تأكدت شكوكها حين اقترب من الزجاج محدقًا بالسماء، لم تستطع عتمة الليل منحها صورة واضحة لملامحه، لكنها اكتفت بما حصلت عليه. وجوده يمنحها الأمان؛ شعرته حين تعلقت أنظارها بظِله المعتم! تنفست بارتياح وعاودت الاتكاء على ظهر مقعدها، سعيدة بأغصان الصفصاف التي وارت مقدمة السيارة، قطبت حين رأته يغيب خلف الجدار وعاودتها ابتسامتها حين رأته يفتح نافذة المشربية؛ غرفة واحدة!

طالع القمر الذي توسط العتمة بضوءٍ باهتٍ كحبَّات مسبحتها، في ليلة كتلك قبل أسابيع كانت تدس خجلها بتجويف عنقه هاربة من قُبلته. أسما.. أسما.. أسما. تمتم اسمها بتنهيدة محبطة، ترى ماذا تفعل الآن؟! مطَّ شفتيه متكئًا على سور النافذة العريضة مغتاظًا، هو المتعقل الرزين صنعت منه هاربًا مثلها، عاجزًا عن المواجهة. ولا يدري أهربًا من نفسه أم منها! تشغله أكثر مما يريد ويحتمل، ويعجبه الأمر، وهي أكبر الكوارث! أحضرت ليلى فنجان قهوته: منذ عودتك وأنت صامت، حتى الطعام ترفض تناوله معنا، وقد منحتك وقتًا كافيًا، لِم فعلت هذا يا عدنان؟! فتاة سيئة السمـ..

قاطعها بحزم: كانت عذراء.

رفعت ليلى حاجبيها دهشة: وصدقت خدعتها بتلك البساطة أيها الطبيب ذو الخبرة والمراس؟! تعي جيدًا حقيقة العمليات التي يصلحن بها أخطائهن.

قال من بين أسنانه: كان لعذريتها وضع خاص، لم تكن! ـ سحب نفسا من الهواء وزفره ببطء ـ أسما لم تفقد عذريتها من المرة الأولى، مرات عدة حتى استطعت أن.. أن... سألته بتوجس. ماذا بشأن سمعتها؟

ـ كانت المرة الأولى التي تتواجد فيها بالمكان، لتدفع مصاريف علاج شقيقتها، فدفعت لاستخراج جثتها ـ زفر بمرارة ـ دفعت ثمنها غاليًا جدا! تعلمين إدارة مستشفانا، التعامل فقط بلغة النقود.

قالت ليلى بشرودٍ: إذن لو لم تملك المسكينة عذرية كتلك لظلت موسومة بالعار طوال عمرها! ـ استدركت باهتمام ـ أتشفق عليها؟ أهذا ما يدفعك للمضي بعلاقتكما؟!

طالعته قِسمت بارتياح، كانت تخشى رحيله! تخشى ألا تشتم عبير قهوته المضبوطة ثانية، أو ترى ابتسامة تذيل طرفيّ عينيه ثانية. لكنه لم يرحل! تجمعهما أرض واحدة وإن اختلفت الأماكن. هل صنعت له تلك المرأة قهوته كما يحبها؟ هل حرصت على إبقاء وجه القهوة ثقيلًا كما يحب أم أفسدتها كما تفعل هي دائمًا؟ ابتسمت مسترجعة تقطيبته الرزينة حين يطلب منها فنجان قهوة بعد الانتهاء من كل شجار وكأنها علامة السلام! وفي كل مرة تفسدها وفي كل مرة يشربها!

ـ لا أدري يا أمي، أعترف أني حائر.

ـ كنت دومًا مدركًا لما تريد!

قال هازئًا: وهذا ما تفعله بي، تبدلني من حالٍ إلى حالٍ، تطلق وحوشي بلحظة، وبأخرى تحولني لحمل وديع، هل يمكن للشفقة قلب كيان المرء لهذه الدرجة؟!

ـ أتخشى الاعتراف بحبها؟

ـ ربما لا أحبها! نوع من الفضول، التعلق، أو ربما الإحساس بالذنب!

احتضنت ليلى كفه فوق السور: أنا معك بكل ما تقرر وحتى النهاية.

ابتسم بحنان: تغلبك دومًا نظرتك الرومانسية للأمور يا لولا

ـ بل تغلبني إنسانيتي يا نانو، على الأقل ما أحاول الاحتفاظ به منها.

انحنى طابعًا قُبلة فوق جبهتها، ففاجأتهما لينا معترضة: "وأنا!" التفت نحو شقيقته مبتسمًا، ولفّ ذراعه حول كتفيها مقبِّلًا جبهتها. فازدردت

قِسمت ريقها مقطبة، غير قادرة على تبيُّن الملامح والشخوص بدقة عن بعد، لم تكن لتهتم لولا تلك التي يحتضنها. علياء! مَن غيرها؟ زفرت متمتمة: "نسيتِها وأنت من تذكرينه بها طوال الوقت!" تمتمت مع روزا بشرودٍ..

بلمح شباكه من بعيد عالوادي مفتوح.. وتزيد الغصة وتزيد بها القلب المجروح..

أغلقت الأسطوانة بحنقٍ ليغرق الكون في الصمت. يحتضن المرأتين وهي وحدها بالأسفل على وشك الصراخ غيظًا (أنا أيضا هنا، لا تتجاهلني)! لمحت سيارة حراس المدينة تقترب فسارعت منحنية، لينطلق بوق السيارة حين اصطدم كفها به دون قصد، ورغم صغر السياره كان بوقها أكبر منها! تابع الحراس طريقهم لتبقى مشكلة صغيرة؛ انتبه الطبيب مضيقًا عينيه ريبة، محدقًا بالسيارة المتخفية بالظلمة. رأت شفتيه تتمتمان بكلمات لم تتبينها، كانت كافية لقرار سريع بالهروب، حين باتت كل ثانية تمر أغلى من كنوز الدنيا! أدارت المحرك محافظة على انخفاض رأسها، مطلقة عجلاتها للريح، لولا صوت روزا الذي حطم السكون...

(*كتبنا وما كتبنا ويا خســـارة ما كتبنا كتبنـــ...*) أغلقته لاعنة حماقتها؛ فاصطدم مرفقها بزر الصوت! تناهى لسمعها نداؤه الذاهل باسمها الذي سرعان ما ابتلعه صوت المحرك. شاكرة ربها على الإضاءات الخافتة بين الفيلات!. نادته ليلى بدهشة حين ركض مسرعًا دون أن يلتفت وراءه، يقسم أنه سمع روزا لجزء من الثانية تنبعث من السيارة بعد تحركها. استقل سيارة لينا الرياضية منطلقا خلف السيارة بأقصى سرعة، استنفذ بعض الدقائق في ارتداء الروب المنزلي فوق البيجاما لكنه أكثر مهارة منها في القيادة؛ إن كان محقًا بظنه ولم يمسه الجنون!

حدقت بمرآة السيارة للتأكد من ابتعادها كفاية للإفلات من قبضته، وسرعان ما أصابها الذعر حين لمحت وجهه خلف صفوف السيارات. المسافة بينهما طويلة ومن المستحيل أن يطير، لكنها لم تطمئن وقد تحولت لمطاردة بوليسية! كلما لمحت طريقًا جانبيًا أدارت المقود صوبه أملا في

الاختفاء، دون الاهتمام إن كانت تسير بالطريق الصحيح أم لا، فكادت تصدم بدراجة بخارية! لن يستسلم! ضربت المقود بغيظ (فيروز)! ثغرة عليها التفكير مليًا للهروب منها. حين يعلم بوقوفها لساعتين أسفل نافذته أملا برؤيته كالعاشقة المعتوهة؛ تخيلت ابتسامة جذلة تعتلي شفتيه وعينيه بكل صفاقة، بل وربما يتهمها باطلًا بمطاردته كالمختلين! قطعت نذرًا إن مرَّ الأمر بسلام ستتبرع لدار أيتام.

* * *

قابلت كريمة أثناء صعودها فأنّبتها بنفاذ صبر على عدم إجابة ندائها وإحضار (الكابوتشينو). غمغمت كريمة بحيرة: ظننتك خرجتِ!

أشارت بحزم: كنت بالحديقة، خلف شجرة التوت أرقب الطريق ـ أردفت بتحذير ـ أنتِ فقط لم تنتبهي لوجودي.

رمقتها كريمة بريبة منادية زوجها فأتى مسرعًا، سألته إن كانت قِسمت قد طلبت منه شيئًا، فظل الرجل يعتصر ذاكرته مجيلًا عينيه بينهما: "حُكم السن يا ست أسما!" أشفقت عليهما للعبتها السخيفة، لكنها كالغريق المتعلق بقشة! أسرعت نحو غرفتها حين سمعت سيارته، بدلت ملابسها ووضعت رأسها أسفل الماء وارتدت روب استحمامها، ثم جلست بمقعد طاولة الزينة. انفتح باب الغرفة ودخل عدنان راكضًا، ثم توقف بغتة مضيقًا عينيه حين طالعته بالمنشفة فوق رأسها، كان يلهث وقد احمرت أوداجه فحيَّته برزانة ورشَّت بعضًا من نقاط العطر خلف أذنيها، جعلا يتبادلان النظرات لبرهة عبر انعكاس صورتيهما في المرآة. ثم دلفت كريمة بصينيه القهوة فقال متهكمًا: لم أكمل فنجان قهوتي بالفيلا.

ألقت الاخيرة بقنبلتها، معاودة الاعتذار لعدم انتباهها لطلب قِسمت (الكابوتشينو)، فقاطعتها الأخيرة بنفاذ صبر: "لا بأس بينما زفر عدنان مرتشفًا قهوته، ثم اقترب بحذر مشتمًا شعرها، وجعل يسير جيئة وذهابًا ليباغتها بانحناءة سريعة: "سين؟" جفلت بحنق فأشار بسبابته: "لماذا لا

أشم رائحة الشامبو؟" ازدردت ريقها: "أهو تحقيق؟!" ضيَّق عينه ريبة وجعل يفرك ذقنه بتفكير: "مطلقًا! لكن ثمة أمر غريب" رفعت حاجبيها كاتمة أنفاسها، وتلك الابتسامة السافره ترتسم عند طرفي عينيه تحثها على الصراخ (اعتقني لوجه الله).

ـ معجزة! كاد محرك البطة الحمراء يحرق يدي، هناك من أدارها، ألديك فكرة عمن يكون؟

رفت عينيها مشيحة وجهها وأمسكت بأول غرض بطريقها، واضعة الماسكرا بعصبية: الجراج بالناحية القبلية والشمس مسلطة عليه.

نفخ خصلة مدلاة فوق جبينها فأزاحتها بعصبية: تصحيح بسيط، هي مشتعلة! لدي بعض الأفكار ـ التفتت ترمقه بصمتٍ ونبض عنقها يتلوى أسفل نظراته ـ ألن تسأليني فيما أفكر؟ ـ أمرها برزانة ـ هيًا..اسأليني! ـ ازدردت ريقها وسألته فلوح ببساطة كمن يحدِّث طفلة ـ عم حسنين بالطبع! طالبته بتشغيلها كل يومين لتليين المحرك ـ همَّ بالذهاب ـ سأسأله لأطمئن ـ سارعت بلهفة تثنيه، فهتف بظفر ـ لقد أتيتِ الليلة بالبطة الحمراء أسفل نافذتي يا سيما. ربما اشتقت إليَّ.. قليلًا!

رفعت رأسها بعجرفة: هراء! لا أعرف الطريق! ثم أنا قِسمت وأنت الطبيب! من أين يأتي الاشتياق بثغرة يعبر منها؟

ـ كان أنتِ وروزا ـ هتفت نافية باستنكار ـ بل كان أنتِ!

"لا"، تقولها بإصرارٍ أعتىٰ في كل مرة؛ يدفع تحقيقه المتابع بموجات من التحدي بعروقها! أخيرًا رفع إبهامه نحو وجهها مداعبًا موضع غمازتها المختلج: "لم يكن أنتِ!" نفت بصوت مبحوح فانتقلت الابتسامة من عينيه لشفتيه يهم بتقبيلها، سارعت مطرقة فزفر بإحباطٍ: لا يهم! كلانا يعلم الحقيقة وهذا يكفي.

هي لحظة أشبه بما بعد الحروب، بعد آخر دوي لصليل السيوف؛ الحرب التي استعرت بينهما قبل قليل كأنها لم تكن! محوِّلا إياها للعبة طريفة أمتعته

لبضع دقائق! ابتسم لنفسه بمرآة الحمَّام، لأي مدىٰ كان لديها الاستعداد في المضي بالإنكار؟! طاردها كالمجرم الهارب لساعة كاملة! ولولا الإشارة المزدحمة التي علق بها وسابقت الريح فيها منسلة من ضوئها الأحمر، لضبطها بالجرم المشهود! أعاد رأسه للوراء منفجرًا بالضحك؛ لقد أعادته! وهو من ظنها ارتاحت برحيله. ما سر السعادة التي تنتابه سوىٰ أن ما يحدوه نحوها لا يمت للشفقة بصلة؟! خرج متلحفًا بروبه القطني وسرعان ما خلعه مندسًا أسفل الأغطية: أعتذر عما فعلته آخر مرة، كنـ..

- لا أريد الحديث في الأمر!

- سأجن من الاشتياق.

أغرق الغرفة بالظلام، ثم ابتعد مقطبًا حين عاودت إشعال الضوء. كانت تعض علىٰ شفتها السفلىٰ، تبدو علىٰ قسماتها الجدية، عاود سؤالها بقلق، فألقت بتصريح مقتضب كحجر صغير بهدوء بُحيرة: كان عمي - ازدردت ريقها ملتفتة إليه - دكتور شمس الدين ذو الفقار شقيق والدي - أربكته الموجات التي صنعها الحجر بأفكاره الهادئة - كنت أنوي إخبارك لولا تتبعك لي؛ غضبت!

قال بهدوء: حدثيني عن الحكاية، كل الحكاية!

أسرت له بحماسة. ثم تابعت بلهفة: سيكون مبلغًا كبيرًا؛ سأملك ما يكفي لسداد دَيني لك.

- ومن أخبرك أني بانتظار شيء منك؟!

رفعت رأسها بعناد: أريد أن أكون حرة.

- لم يكن هذا اتفاقنا، أنتِ زوجتي شرعًا وقانونًا، العقد بيننا يثبت ذلك!

- لا داعي لمناقشة أمر يصل بنا دومًا لحائط سد - رفت بحيرة - المشكلة غيابه!

أخشىٰ أن يكون قد بدَّل رأيه!

ضبط نفسه يدعو أن تكون محقة! تفزعه معرفته الوثيقة بالرجل؛ كان

أستاذه، يثق به كما يثق بوالده، وأخلاقه لا غبار عليها! ليت في الأمر خدعة! أصابه الغثيان من أفكاره المريضة، لكن ماذا يفعل وشمس الدين هو مفتاح القفص، يقتله غيظًا إنكارها أن ما بينهما يتعدى ورقًا ملونًا بأرقام لا معنى لها!

ـ ثمة شيء آخر تخفينه عنِّي؟!

صمتت لبعض الوقت؛ تصارع رغبتها بإلقاء كل ما بجعبتها لترتاح، لكن راغب عاود يسري بين خلايا مخها (احتفظي بأسرارك).

ـ فقط ياسر! وقد أخبرتك بشأنه ـ ابتسمت بحنوٍّ ـ أتعلم أنه الوحيد الذي يملك غمازتين مثلي؟ كان يغيظ بهما نوار والغريب أنه الأكثر شبهًا بها!

رفض بشدة تسليم جفنيه لغزو النوم المُلِح، والاستسلام لغياهب الفراق المؤقت المفروض على طبيعة البشر كل ليلة، بالرغم من أنها معظم الأحيان لم تكن تسمح لهذا الفراق الإجباري بالاستمرار، قاطعة إياه بإحدى عروضها السومانية! ابتسم بتسلية، هي بضع لحظات ويبدأ عرض الليلة، وكل ليلة! عقد يديه خلف رأسه متكئًا على ظهر الفراش، الظلام يعم الغرفة إلا من بضعة خيوط ضوء عنيدة قهرت ثقل الستار. انسلت يدها أخيرًا ملتفة حول جذعه بيسترخاء، ناداها فلم تجب لتتسع ابتسامته.

"أنا آحبـــ.. لا تتركـ.. لا تتر ـ لف ذراعه حولها مستفهمًا فهمهمت بخفوت ـ لا تتركني يا عدنان ـ رددت بعصبية وبعينين مجعدتي الأجفان ـ لا تتركني.. تأخرت.. تأخرت.. كثيرًا يا ياسر.. تأخرت يا عدنان.. وحدي.. كنت وحدي! اشتقت إليك ـ مسدت وجهها بصدره دون وعي ـ لا تذهب، اشتقت إليك ـ همَّ بالحديث لولا اشتداد ذراعها ـ أيها.. طبيــ.. اشتقت.. عدنان.. اشتقت إليك" كررتها مرة بعد مرة مؤكدة حدسه، أسما تخفي أكثر مما تبدي، بعكس قِسمت زائرة الليل! أبعدها برفقٍ لترف عيناها، بعدما لامست وجنتها برودة الوسادة: هل نمت؟! ـ التفت نحوها ليومئ بصمتٍ، مزيحًا غطاء الفراش مما جعلها تشيح وجهها ـ أحتاج لعبوة أقراص منع الحمل، تكاد تنفذ!

دلف للحمَّام وأمسك العلبة الصغيرة مخرجًا أحد أكياس الأقراص المطاطية محدقًا به بتقطيبة عميقة، أكثر قرارت حياته جنونًا وأنانية؛ مقابل مفتاح حريتها الذي تبحث عنه سيخلق رابطًا أبديًا بينهما! سيفقد جزءًا من مبادئه، هدرت حنجرته بصوتٍ حانق محدقًا بصورته في المرآة، يهز رأسه بغيظ، ثم أطرق هربًا من نظراته اللائمة، أمسك بدبوس وجعل يثقب الكيس عدة ثقوب متباعده، وحين انتهىٰ سارع ملقيا به في الجارور البلاستيكي، متكئًا علىٰ طرفي الحوض يزمجر بغيظ؛ مازال ضميره يتحكم بزمام الأمور! رفع رأسه معاودًا التحديق بصورته، فلتذهب المبادئ للجحيم! أخرج بقية الأكياس من العلبة ومضىٰ يفعل بها ما فعله بالأول، وابتسامة مزيجًا من الندم والارتياح تتلاعب بشفتيه، مقاومًا عبثًا طنينًا مزعجًا لضمير يوقن أنه سيكون جلَّاده من الآن! لكنه مضىٰ غارزًا قدميه بمستنقع قرارت.. بلا قرار!

* *

جلست علىٰ أحد المقاعد الخيزرانية بالحديقة، كان الطقس لطيفًا لاسيما والشمس لم تسدد أشعتها الحارقة بعد نحو ركنها الظليل. قالت كريمة باهتمام مناولة إياها طبقًا من العنب: كل يوم وآخر تغادرين المنزل وتجرجرينه خلفك لإعادتك، والشهادة لله لم أرَه يومًا ضايقك بكلمة!

تنهدت بحزن: لا تعلمين شيئًا يا كريمة، لا تشغلي بالك.

ـ أنت (شعنونة) يا ست أسما! ـ ضحكت الأخيرة ـ تعقلي قليلًا وإلا حامت حوله إحداهن وسرقته منكِ، ألف من تتمنىٰ التراب الذي يسير عليه ـ ابتسمت بودٍّ ـ أحمل دَينًا كبيرًا برقبتي لكليكما ومحبة أكبر، لذا توجب عليَّ تنبيهك، حافظي علىٰ زوجك وإلا ستندمين!

أطرقت متمتمة: "حاضر، سأحاول ألا أكون شعنونة" صفيرٌ حادٌ جعلها تنظر للشرفة؛ عدنان! قطبت بتساؤل فألقىٰ لها إحدىٰ حبات المسبحة: "تستحقينها" التقطتها رامقة إياها باستنكار ثم نظرت إليها لتتأكد أنها حقًا إحدىٰ الحبات. احتفظ بها! للحظة سخيفة ظنت أنه تخلص منها عقابًا لها،

تأملت الكلمة المحفورة فوق الحبة بسعادة (الرؤوف)! أخرج مجموعة الكهرب من جيبه ووضعها بكيس مخملي، مرددًا بصوتٍ عالٍ مع الأغنية التي ملأت موسيقاها الأجواء...

مش عارف ليه.. متونس بيكي وكأنك من دمي.. على راحتي معاكي وأننك أمي.. مش عارف ليه

قرر إعلان الحب عليها! أوليس الحب كالحرب؛ كلاهما بحاجة لخطط هجومية وأخرى دفاعية وأسلحة ثقيلة؟! سيمارس الحب شعورًا وقولًا وفعلًا وعليها تقبُّل الأمر، حتى وإن اضطر للمراوغة واللعب على طريقتها. تظنهم سبعة أشهر وينتهي الأمر ولا تدرك أنه العمر كله! سيحرقها بتلك النار اللذيذة رغم أنفها! وسينتصر، غارزًا أعلام نصره بقلبها عاجلًا! أخذ أقراص منع الحمل ووضع بدلًا منها أخرى مرددًا بصوت نشاز. (فرحة كبيرة وصوت مزيكا فقلبي.. وكأننا حبيبن اتقابلوا.. بعد فراق...)

قالت مازحة: مزاجك في أعلى حالاته اليوم، ترى لماذا؟!

التفت نحوها صائحا: (مش عارف ليه.. متونس بيكي وكأنك من دمي...)

رفعت حاجبيها: المزاج أعلى مما توقعت!

أومأ مؤكِّدًا بسعادة، وجذبها بين ذراعيه وانحنى معها برقصة سامبا: (حاسس إني لأول مرة بشوفك.. وإني بشوفك من أول لحظة فعمري.. مش عارف ليه؟)

أطلقت ضحكة مندهشة: هل أنت محموم؟!

اعتدل متصنعًا الازدراء: حطمتِ سحر اللحظة!

- أين بقية الحبات؟

مطَّ شفتيه: سنعقد اتفاقًا، سأمنحك المسبحة حبة حبة، وسآخذ مقابل كل حبة ابتسامة، بشرط أن تكون حقيقية كالتي رأيتها قبل قليل بالحديقة - استنكرت سخافة الاتفاق - عليكِ أن تستحقيها لتحصلي عليها، تدريبًا

سيخلصك من زيف الابتسامات ويرضيني! ـ سألته وإن رفضتِ، فرفع الكيس المخملي مؤرجحًا إياه ـ إذن فلتنسي الحبات إلى الأبد ـ انقضَّت عليه تريد أخذه بالقوة فمنعها بلف إحدى ذراعيه حول خصرها ـ أخطأتِ! وعقابًا لك الحبة القادمة مقابلها ابتسامتان.

اعتدلت بوقفتها لاهثة وقالت من بين أسنانها: لدي شرط ـ أومأ يحثها ـ عندما أحصل على كل الحبات ستكون نهاية العقد، أيًّا كان الوقت!

حدق بها لوهلة لترتفع زاوية فمه: اتفقنا يا سيما ـ انحنى بسرعة طابعًا قُبلة قوية فوق شفتيها ـ لا أملّ أبدًا من السرقة! ـ ابتعد ملتقطًا مفاتيحه تتابعه بعينين ساخطتين حين توقف بغتة ـ أحضرت نوعًا جديدًا من أقراص منع الحمل، أكثر أمانًا وأقل أعراضًا جانبية. هل ستهربين الليلة؟!

هزت رأسها باسمة: سيأتي مهندس الديكور لأختار بين نماذج الـ cheminée.

ابتسم بشرودٍ: "المدافئ الحجرية!" تذكر حلم روفي بيوم مثلج عاصف يحتبسان فيه بكوخ جبلي، لتشعل cheminée وتصنع له أجمل كوب حليب بالفانيلا ليرتشفاه معًا، يومها سألها (وإن طالت الأيام ونفد الحطب وأغلقت الطرقات)؟ همست بغنج (ستكون مدفأتي!). سألته قِسمت عما يضحكه، فقال: كنت أعرف امرأة تعشق المدافئ الحجرية وترسم بها أحلامًا خاصة جدا، هي من أخبرتني معنى cheminée! ـ أمالت رأسها مضيقة عينيها ـ ألن تسأليني من تكون؟! هيًا.. اسأليني؟

عقدت ذراعيها فوق صدرها: لا يهم أبدًا! الأحمر أم البني لرخام المدفأة.

ـ ولم لا تأتين بواحدة جدارية؟!

ارتفعت زاوية فمها: رضينا بالزيف مرة ولن نرضى به ثانية!

ابتسم ولوح بيده مودعًا وهو يغني.. (إيدك خليها فإيدي.. أنا طفل كبير).

قابل كريمة التي استمعت لغنائه متمتمة ببلاهة: اختلف الأطباء كثيرًا عما مضى!

وفور استقراره بمقعد سيارته، أطرق مفكرًا لبرهة ثم أخرج هاتفه النقال وجالت عيناه بين الأرقام حتى عثر على ضالته؛ دكتور شمس الدين ذو الفقار!

*

مع الأيام أصبحت قِسمت أكثر تقوقعا، وخفت بريق الحياة بعينيها شيئًا فشيئًا، كزهرة حبيسة صندوق مظلم، وقد ثقلت وطأة الأسر على جوانحها، خاصة مع رفضه التام لعملها؛ شعر أنه طريق بلا عودة سيسرقها منه، لكن عذره ذلك العشق الأعمى الذي سيطر على كل قراراته! وحان الوقت ليعطيها جزءًا ولو ضئيلًا من حقوقها لديه، وهي تملك الكثير! سأله الشيخ: "أتقبل بقسمت علي الدين زوجة لك" فأجابه: "نعم.. نعم.. نعم قال الشيخ مداعبًا: "إذن هي نعم بالثلاثة!" ليتعالى الصفير والتصفيق والهتاف (تحيا مصر الله أكبر). التفت الشيخ نحوها: "وأنتِ يا آنسة قِسمت، أتقبلين به زوجًا لك؟" رمقته بحيرة؛ أيصبح العقد باطلًا إن كذبا بهذا الشأن؟! تمتم بخفوت: "لأجل نوار الصغيرة، أحبك" كانت كلماته جوابًا شافيًا لحيرتها، فأتى جوابها خافتًا مثقلًا بالارتباك، ولم يثقل الشيخ عليها حين شعر بمدى ما ترزح تحت وطأته، أعلنهما زوجًا وزوجه مرددًا: "بارك الله لكما.. وبارك عليكما.. وجمع بينكما في خير فردد الميدان خلفه الدعاء ممتزجًا بهتافات (تحيا مصر الشعب يريد إسقاط النظام) أمسك بيدها واضعًا حبة من حبات المسباح معيدًا إغلاقها بقوة، ثم انحنى طابعًا قُبلة فوق جبينها: "أجمل ابتساماتك يا سيما، تستحقينها". لمحت من بعيد عماد النوبي يلوح لهما مهنئا، فابتسمت بسعادة. وسرعان ما انهمك الميدان ثانية بصخب الهتاف (مش هنمشي.. هو يمشي.. تحيا مصر.. الله أكبر). غادرا المنصة، سائرة بين محيط ذراعيه لحمايتها من الزحام الشديد، حتى وصلا لتجمع عائلته.

- لماذا لم تخبرني؟! كنت سأتصرف بما يليق بصديق هذه المرة، وأشهد على العقد!

ـ لا بأس يا عبسي، مصر كلها الليلة شاهد علينا ـ التفت نحوها ـ أظنني وفيت بالوعد يا أسما ـ طالعته بابتسامة حفرت غمازتيها بقوة فأومأ ـ الحمد لله.

قال خالد بنبرة صادقة: تهانئي يا قسمت. خيرًا فعلت يا عدنان، الطفل يستحق أن يكون كل شيء في وضعه الصحيح ـ رفع عدنان حاجبيه دهشة ـ أرجو أن تمنحك الحياة بعض السعادة يا عدنان وتمنحنا السلام، نحن بأمسِّ الحاجة إليهما! علينا الإعلان بعد بضعة أشهر عن ضعف حالة أسما الصحية، وأن الحمل غير مستقر؛ يجب أن نمهد لوصول حفيدي قبل موعد ولادته بشهرين!

ضحك عدنان: وبدأت التخطيط للأمر يا دكتور!

* * *

ـ نذلة! متى عدتِ من السفر؟ ولماذا انقطعت عنا أخبارك، لو لم نركِ أنا وحازم فوق المنصة ما التقينا!

التفتت قِسمت هاتفة: "يارا!" صاحتا تحتضنان بعضهما بسعادة، وتتقافزان كالأطفال، سألتها الأخيرة: ظننتك تزوجتِ قبل سفرك! ـ تعللت باضطرارهما لتأجيله ـ الفكرة رائعة ـ غمزت مشيرة برأسها ـ لاحظنا الغزل فوق المنصة ـ أطرقت قِسمت بخجل فاتسعت عيناها ـ من النادر رؤية الخجل بعينيكِ يا أسوم! الحب يفعل الأعاجيب!

ـ دعينا مني الآن، ما الذي أتى بكما إلى هنا؟

ـ ما أتى بالجميع! من سيأتي إن لم نأتِ نحن؟! أعطني رقم هاتفك، لا نريد أن نضيع بعضنا البعض من جديد!

هبَّ هوا رد فوضعت يديها بجيبي سترتها، حين اصطدمت أصابعها بحبة كهرمان جـ ـدة، أخرجتها وحدقت بالاسم المحفور عليها (الستَّار)! واتسعت ابتسامته أجل، لن أسمح بأن نضيع بعضنا مرة أخرى.

منحتها رقم هاتفها وحانت منها التفاتة صوب عدنان، فابتسم مشيرًا أنه

سيمنحها حبة جديدة لأجل تلك الابتسامة! لمسة فوق كتفها جعلتها تلتفت للوراء. لتهتف بدهشة: "كريم!" حيَّاها مشيرًا صوب المنصة: رأيناكما منذ قليل ـ أردف بتردد ـ ظننتكما متزوجـ...

قاطعته بارتباك فيما استأذنت يارا بالانصراف، فعاودت النظر إليه رافعة رأسها: زواجنا كان عرفيًا، على يد محامي.

ارتبك قائلًا: حسنًا، أمر غير متوقع!

قالت ببرودٍ: تمامًا كما لم يكن متوقعا اختفاء والدك!

ـ والدي كان مريضا! بعد عودته من مقابلتك أصيب بوكعة صحية، جلطة طرحته الفراش بالعناية المركزة، وقد أخبرت عدنان بنفسي حين اتصل بي.

تذكرت شعوره العابر بالألم حين جلس معها ذاك اليوم، وملامح وجهه التي كانت تتغضن بين الحين والآخر أثناء حديثه: ولماذا اتصل عدنان؟!

ـ ليخبرنا أنكِ لا تريدين التحدث مع والدي أو رؤيته ثانية، حتى ميراثك لستِ بحاجة إليه! وقررت نسيان كل شيء بشأننا.

عدنان خدعها، أجبرها على البقاء معه ذليلة الحاجة، مدينة له وهي تملك التخلص من دَينها والتحرر! سألته بحدة: واستسلمتم ببساطة؟! جميعكم باع القضية بداية من زوجي حتى أنتم!

كان زوجك غاية في الصرامة، وقد نقلت حديثه بكل أمانه لوالدي الذي اتصل به ثانية، وأصرَّ على إعطائه المال بعدها بيومين!

سألته بحقد: عدنان استلم ميراثي!!

ـ كاملًا! خمسمائة ألف جنيه وأتممها أبي لسبعمائة بعدها بأسبوع ـ أردف بارتباك ـ لا أعلم شيئًا عن إخفائه الأمر، لكن أؤكد لكِ أنها الحقيقة، كنت معهما أثناء تسلّمه المال، يمكنك التأكد من والدي ـ أشار بيده صوب طرف الميدان ـ هو بالمستشفى الميداني، وقد أرسلني لإقناعك بالتحدث إليه.

- عمّا ستسفر تسريبات الجيش اليوم برأيك؟ أيستسلم الأسد العجوز هكذا ببساطة؟! وهو من أرسل المقربين متشدقين طوال ثمانية عشر يومًا، أنه أعند مما نتصور، وأن فكرة التنحي بعيدة تمامًا عن قراراته؟!

قال عدنان ملوحًا لأحد الشباب الذي أشار له بالتهنئة: الماء يفلق الصخر يا دكتور خالد، أشعر بالتفاؤل! - سأله خالد عمّا بعد فقطب عدنان يمط شفتيه - المتوقع! ننظر للأمام ونبدأ خطوات جدية للإصلاح، وانتخابات جديدة نزيهة.

ليس بالأمر السهل يا دكتور! كثير من الخيوط والمصالح متشابكة، ومازال الشباب هش العظام. لا تخطيء فهمي لكني تمنيت فقط لأجل الصالح العام، الانتظار للستة أشهر المتبقية.

- لم يكن ليتركها! ستصبح فرصة جيدة لملمة الأوراق والتخطيط لمعركة جديدة. ثمة شباب رفضوا البقاء بالمشفى ليلة الموقعة خوفًا من الاعتقال! فما بالك حين يصبح الميدان خاويًا وينفض الجمع؟!

- ما أعرفه أن العالم لا يخضع بسهولة لمطالب الثورات، انظر للتاريخ!

هتف عدنان بلهفة: عادت أسما - استدرك معتذرًا - نكمل حديثنا فيما بعد.

تابعه خالد سائرًا كمن يوشك على الطيران؛ عاشق! ولم يكن تصريحه منذ قليل بالحب وافيًا! توقفت عن السير حين ظهر أمامها بغتة لينتزعها من شرودها: "أين كنتِ؟" ظلت مطرقة تحدق ببعض الحصى الصغير ساحقة إياه بطرف حذائها، عاود نداءه فرفعت رأسها تطالعه، وتخبره بمقابلتها عمها شمس الدين وأولاده وزوجته، لاح الارتباك على قسماته وعبثًا حاول الابتسام متعجبًا من كيفية التقائهم. فزفرت بتهكم مشيرة صوب الشاشة والمنصة، فمسد جبهته بتوتر. يالغبائي!

صاحت بازدراء: أنت بالفعل غبي! وأغبى مما يمكنك التصور! - جمدت ملامحه متمتمًا بصوتٍ أجش، فقاطعته بحقد - ظننت أنه يمكنك

إخفاء فعلتك للأبد، غبي! ظننت أنه بمنعي الرحيل امتلكتني للأبد؟ غبي! كيف جرؤت؟ كيف؟!

ازدرد ريقه وهمَّ بالحديث: "لأني أحب..، لوحت يدها مقاطعة: لا تضف بشاعة للصورة التي أراك بها الآن، أنت لا تدري بما تسببت حين سرقت مني النقود!

سألها بذهولٍ: سرقت!! وهل أحتاج لنقودك؟! - اختلجت ملامحها فتابع بمرارة - كنت أعلم نواياك! لم تفهمي يومًا أن ما بيننا لم يكن شروطًا بعقد تافه، أو نقودًا هي مفتاح لسجنك، لأنه لم يكن سجنًا من البداية - زفرت بسخرية فاستطرد بحزنٍ - منعتها عنك لئلا تذبحي كلينا بتصرف غبي كما تتهمينني الآن.

- أنت لا تدري من أبقيته بالسجن أيها الطبيب بمنعك عني النقود!

هتف بغضب: مازلت تطلقين على ما بيننا سجنًا يا قسمت!!

لا أيها الطبيب، لا أتحدث عن علاقتنا، بل أتحدث عن أمي - قطب بحيرة فأعادت رأسها للوراء، مطلقة ضحكة خشنة بهستيرية جذبت بضعة أزواج من الأعين إليهما، ثم قطعت ضحكها بغتة قائلة بنبرة امتلأت حقدًا - والدتي لم تمت أيها الطبيب، والدتي سجينة خلف القضبان! - اتسعت عيناه ذهولًا فعاودت الانفجار بالضحك الهستيري هاتفة - أملك نقودًا تكفي لإخراجها منذ عام ولم أفعل! لا أصدق! - أمسكت رأسها بين كفيها وقد تهدجت ملامحها مردفة بنحيب - سرقت نقودي وسرقت عامًا من عمر والدتي!

أمسك بكتفيها يهزها بعنفٍ: لم أخفيت الأمر عنِّي؟!

أبعدت يديه بقرف: لأنكم بلا رحمة، لأنكم وحوش، مهما تمرغتم ببساتين العشق لن تفلتوا سياط الجلد والمحاكمات؛ هكذا علمني أستاذي راغب الساعي - أردفت بنبرة متهدجة - امرأة أشرف منكم جميعًا ومن مشفاكم وحياتكم القذرة الموبوءة!

كان دوره هذه المرة لينفجر بضحكة مريرة: لا أصدق! - أمسك شعره جاذبًا إياه للوراء بقسوة - بعد كل هذا الوقت وكل ما مر بيننا لم تدركي شيئًا! لم تسمعي شيئًا وتتهمينني أنا بالغباء! أنتِ الغبية يا قسمت، أنتِ التي تركتِ والدتك خلف قضبانها بإخفائك الأمر عنِّي - أخرج حافظة نقوده ومدَّ يده بورقة مطوية بيضاء بازدراء - لا تخافي، ليست بقنبلة! لن تنفجر بوجهك كما فعلت بي! إشعار من البنك بوضع المبلغ باسمكِ منذ اللحظة التي استلمته فيها.

فتحت الورقة ليدور رأسها، وتميد الأرض تحت قدميها: كلانا غبي أيها الطبيب!

جعلت تردد الكلمات مرارا مغالبة دموعًا غشيت عينيها ومنعتها رؤية ملامحه الجريحة، فهتف بدوره من بين ضحكاته الخشنة: أجل يا أسما كلانا غبي! نحن أغبياء! أغبياء!

ساد الصمت بغتة، فانتبها للشاشة المضيئة؛ ظهر نائب الرئيس عمر سليمان بملامح جامدة شابتها الحسرة، ليقرأ خطابًا طال انتظاره.

(قرر الرئيس محمد حسني مبارك تخلِّيه عن منصبه رئيسًا للجمهورية، وكلف القوات المسلحة بتولي شؤون البلاد، والله الموفق والمستعان)

وفور انتهاء الخطاب تفجَّر الميدان ببركان من الأضواء والألوان والألعاب النارية، وتعالى الهتاف (الشعب خلاص أسقط النظام) فردت النسور الذهبية بالأعلام أجنحتها محتضنة الثوار، وسجد الآلاف مقبّلين الأرض الطيبة، عبقرية التحمل والصبر. اختفت المصاحف والأناجيل، ذابت الشيوعة والماركسية والليبرالية. الناس بيوم الحشر، عدا أنهم لم يتفرقوا أو ينسى أحد صاحبته وبنيه! صار الكل أبناء الكل، والكل أصحاب الكل، يحتضنون بعضهم بعضا، تغرق دموعهم الكنزات الصوفية والبلاطي الأنيقة وجلابيب القطن الثقيلة، يصرخون معًا فتمزج أصواتهم؛ أجمل سمفونية عشقٍ لم يؤَلَّف مثلها من قبل! ورغم ثقل الحزن والمرارة ابتسما

رغمًا عنهما حين صرخ خالد بهستيرية: سقط النظام يا علي، سقط يا بائع الذرة، أسقطته يا ولد، أسقطته يا ولد!

سارعت لينا واضعة دثارًا صوفيًا فوق كتفيه بذعر، حين بدأ صوته يتحشرج ويتعالى سعاله: يكفي يا بابا. هوِّن عليك!

وفي لحظة تجاذبت الأعين، وحدق كلاهما بالآخر مطولًا، مقتربان لا يفصلهما سوى إنشين، هتفت ودموعٌ تغرق وجهها: لم أثق بك كفاية لأصارحك.

ابتسم بمرارة: لم أثق بك كفاية لأمنحك الاختيار!

أشارت نحو الجموع: بداية جديدة هي ما أحتاج إليه ـ كفكفت دموعها بظاهر كفها ـ طلقني! طلقني وإلا تخلصت من الطفل.

ـ أنتِ طالق.

انفرجت شفتاها عن ابتسامة واسعة: شكرًا أيها الطبيب.

دست الورقة بجيب سترتها معدلة الشال حول كتفيها، والسماعة بأذنها لتمضي مبتعدة صوب الجموع يشيعهما صوت روزا...

شو بيبقى من الشوارع.. شو بيبقى من السهر.. شو بيبقى من الليل من الحب من الحكي.. من الضحك من البكي.. شو بيبقى يا حبيبي.. بيبقى قصص صغيرة عم بتشردها الريح!

*

(١٦)

اغرورقت عينا ليلىٰ بالدموع وأشاحت وجهها محولة أنظارها ببهو الفيلا: كل شيء رأيته جميلًا أصبح باردًا وميتا! عادل ووالدك لن يتحملا مشقة السجن أكثر من هذا؛ مرت تسعة أشهر علىٰ مسارات القضية! وعمرو مايزال بحاجة لعمليتين دقيقتين في عينه، وأنا! وأنا! وشقيقتك، نحن لا نـــــ..

قطعت استرسال كلماتها لتنهار في البكاء؛ كل مرة يكون ذاهبًا لموعد لقائه بابنته، تكون والدته بأكثر حالاتها حزنًا وحساسية، لا تحتمل كلمة من مخلوقٍ، وأتت قضية فساد المشفىٰ والعمليات المشبوهة لتقسم ظهورهم جميعًا، لولا انفصاله عنهم لكان معهم الآن بالسجن! انهيار كل شيء من حولهم لم يفعل بوالدته مثلما فعلته قِسمت برفضها القاطع أن يكون لابنته أي صِلة بعائلته، وقد وعدها؛ مدين لها بالكثير الذي تعرفه، والذي يرجو الله ألا تعرفه أبدًا!

ـ لم أتوقع قسوتها! مازالت رائحة الصغيرة بأنفي، حين حملتها للمرة الأولىٰ والأخيرة بين ذراعي بعد ولادتها مباشرة، وأسما ماتزال تحت تأثير المخدر، ولولا هذا ما رأيتها قَط!

أجهشت ثانية بالبكاء فسارع عدنان غامرًا إياها بين ذراعيه، اللعنة يا أسما! قطعت وعدًا لم أعد قادرًا على الإيفاء به: يكفي يا لولا، لا أحد يستحق دموعك الغالية وإن كانت ابنتي! جميعنا أخطا وأنت من يدفع الثمن - عاود احتضانها يهدهدها كطفلة صغيرة - كفى، سأحدِّث أسما ثانية ربما توافق.

رفعت عينيها بلهفة: حقًا! وستلتقط للصغيرة صورة جديدة اليوم لأراها؟ تكبر سريعًا، أليس كذلك؟! - أومأ عدنان فأردفت بسعادة - صنعت لها بعضًا من التفاح المهروس بالعسل.

انحنى طابعا قُبلة فوق كفها الممسك بالبرطمان، فسمعا جرس الباب.

دلف عمرو بجسدٍ نحيل ووجهٍ شاحبٍ مرهقٍ ولحية مهملة. "عمرو!" نادته ليلى بلهفة فأسرع مرتميًا بين ذراعيها، ترتسم على شفتيه ابتسامة ارتياح: لم أشأ إخباركم رغم علمي منذ ثلاثة أيام، لئلا أصيبكم بالإحباط إن فشلت مساعي المحامي - طبع قُبلة فوق جبينها - أخلت النيابة سبيلي بعدما تأكدت من عدم وجود أدلة تدينني؛ عمي كان حريصًا على جعل نفسه حائط صد لحمايتنا! - احتضنه عدنان بسعادة - ذهبت لرؤية أمي أولًا

سارعت ليلى منادية لينا: "لقد عاد عمرو، عاد زوجك يا قلبي ظهرت لينا بسرعة البرق أعلى الدرج، فطالعها عمرو بلهفة مسافر عثر على واحته بقلب صحراء جرداء: "لينا!" أرخت أنظارها نحو بطنها البارز لتربت فوقها، هابطة الدرجات دون أن تفارق عيناها عينيه: "عبسي!" تقابلا بمنتصف الدرج وأسرع عمرو بغمرها بين ذراعيه: يا قلب عبسي وروح عبسي، كم اشتقتك يا فراشة!

احتضنت وجهه بين كفيها: أنت هنا!

أرخى عينيه بخجل: تمنيت الخروج مرفوع الرأس، لكنهم أطلقوا سراحي لحالتي الصحية الدقيقة وعدم كفاية الأدلة! لم أعد لك بطلًا

هزت رأسها بلهفة: لا تقل هذا، تكاد تصيبني سعادة رؤياك بالجنون - أمسكت بكفه ووضعتها فوق بطنها - انظر، طفلنا يرحب بك! - اغرورقت

عيناه بالدموع حين شعر بحركته ـ وكأنه يعرف موعد عودتك، يرقص فرحًا بداخلي!

صعدا معًا، يلف ذراعه حولها، متكئة برأسها على صدره فالتفتت ليلى إلى ابنها: وأنت يا عدنان! إلى متى؟! الجميع يحاول تخطي الحواجز المعرقلة عداك! أنت فقط من يقف مستمتعًا بتعذيب نفسه، مكتفيًا بسويعات قرب ابنتك، أهذا يكفيك؟!

زفر بسخرية مريرة: "إسمتي!" هزت ليلى رأسها برزانة: نحن من نصنع قراراتنا المصيرية، إن كنت مدركًا استحالة إعادتها فأنظر للأمام وابدأ حياة جديدة، انظر حولنا كيف تحولت حياتنا رأسًا على عقب! العمر يمضي دون أن ينظر وراءه ومن لا يلحق بركبه خسر ـ زفرت بدهشة ـ حتى علياء! ظننا أنها لن ترفع رأسها ثانية وها هي مع زوجها في شهر عسلهما الثاني. أريد المزيد من الأحفاد!

أعاد شعره للوراء بنفاذ صبر: أعلم يا أمي، لكن ماذا أفعل؟! أنا مشلول عند اللحظة التي افترقنا فيها بالميدان، مازلت هناك لم أغادر! ـ زفر بمرارة ـ أنا من أقنعت علياء أن تمضي قدمًا أرتدي حذاءها متجمدًا بمكاني! وافقتُ على شروطها واستسلمت لعنادها ظانا أن الأيام ستعيدها لرشدها، لكنها عنيدة ولازالت رغم عامين مضيا! تهديداتها دائمة بالسفر للخارج وأخذ نوار!

أومأت بتفهم: رزين ومتعقل طوال عمرك! لكنك بحاجة هذه المرة لمواجهة عنادها بعناد أقوى، وتصميمها بطيش مجنون! وإن كانت تحبك كما توقن، ستستعيدها!

ـ صبرًا بالله يا نونا!

تلوت الصغيرة الملتفة بالمنشفة الوردية بين ذراعي كريمة بنفاذ صبر، فورما لمحت والدها بانتظارها، أنزلت الطفلة على الأرض بحرص وهي ماتزال ملتفة بروب استحمامها، مبتسمة بسعادة وهي تقف وحدها دون

مساعدة: "بـــ.. بـــ.. بـــ.ـــ توقعا أن تزحف كعادتها، ففاجأتهما بأولى خطواتها، لتتسع أعينهم ذهولًا وإعجابًا.

حبيبة بابا تسير وحدها! ـ قالها بسعادة وقلبه يتراقص بين أضلعه ـ حماكِ الله يا روحي ـ همَّت كريمة بمساعدتها فأوقفها بإشارة ـ أريد أن أعرف مدى قدرتها.

مدت الطفلة يدها الوردية الصغيرة، تفتحها وتغلقها في دعوة صريحة لطلب المساعدة، تلتف سلسلة بلاتينية صغيرة حول معصمها بحبة كهرب حملت اسم (الحفيظ)، ناداها مشجعًا: "هيًّا إلى بابا يا حبة قلب بابا، هيًّا يا نوارة الروحِ" خطت الطفلة خطوتين أُخرَيَيْن، تجر خلفها رداءها الواسع الذي انحلّ رباطه من فوق خصرها النحيل، وجعل ينسل شيئًا فشيئًا من فوق جسدها الغض، حتي وصلت إليه عارية تمامًا، غمرها بين ذراعيه بزهوٍ: "بطلتي المغوارة الشجاعة" جعل يلبسها كل قطعة بعناية شديدة، بعد أن نثر فوق جسدها رشات عطر الأطفال ولفَّ حفاظتها بكل احترافية حول وسطها: ما أجملك! أجل، أنتِ جميلة، أجمل بنية في الدنيا، حبيبة بابا رائحتها ألذ من الفانيلا! سآكلك هم هم ـ أردف مزهوًا مخاطبًا كريمة التي راقبتهما بتسلية ـ كم نوار قوية وذكية! غافلتنا ومشيت وحدها! ـ ابتسمت كريمة تحذِّره من حسدها فرفعها للأعلى ـ سأحسدك يا نوارتي! أعطني قبلة كقبلات السينما.

طبع قُبلة قوية فوق شفتيها يدغدغها، لتنفجر الطفلة ضاحكة بهستيرية. فجذب أسماعه صوت الأغنية المنبعثة من التلفاز...

حبيبتي من ضفايرها طل القمر.. وبين شفايفها ندى الورد بات.. ضحكتها بتهز الشجر والحجر.. وحنانها بيصحي الحياة في النبات..

حانت فقرة قِسمت! يدهشه ما حققته من نجاحٍ بفترة قصيرة؛ تقدِّم فقرة خاصة بها ببرنامج talk show مسائي. زمن الفقرة لا يتعدى الثلث ساعة، لكنها استطاعت اجتذاب عدد كبير من المشاهدين لجرأتها الشديدة في الطرح، وربما طبيعة القناة التي فتحت أبوابها مباشرة بعد التنحي، أتت بروح ثورية جامحة وأكثر جرأة من عهد الإعلام السابق! "انظري كم ماما

جميلة!". داعب غرتها السوداء، طابعًا قُبلة فوق وجنتها الوردية.
ـ تلك الليلة التي صرخنا بها معًا (الشعب أسقط النظام) كانت وهمًا! مازال الواقع مؤلمًا لأقصى حد، لسنا على الطريق الصحيح! ثمة ثغرة أغفلناها، فتسرب ماء الغرق لسفينة الوطن المتعبة، ناهيك عن الدسائس والمؤامرات التي تلاحقنا من كل حدب وصوب. صرنا شيعًا وفرقًا، وأضعنا بعضنا البعض ثانية بعد لحظات التماسك! مرحبًا بكم سيداتي وسادتي في الفقرة اليومية (وتبقى الثورة)، نلقي من خلالها كل ليلة ضوءًا على بؤرة مظلمة.

قال عدنان مخاطبًا الصغيرة بتسلية: ماما تُفقِد صواب كل من يتحدث إليها وتسعى للمشاكل ـ التفت لنوار التي استمعت إليه بانتباه ـ ترى من ضحيتها؟ أخبريني يا حلوة من المسكين الذي دعت عليه والدته؟! ـ منحته الصغيرة ابتسامة واسعة تومض بغمازتين، متمتمة بلعثمة فرفعها للأعلى يهزها بسعادة ـ أنتِ حياتي ـ كانت ترمقه باستمتاع، متابعة حركات وجهه المضحكة ـ دقيقتان فقط وستجعل "مامي" ضيفها ينفث نارًا من أنفه كالتنين!

أطلق ضحكة عالية حين حاولت الطفلة الإمساك بأنفه وعضه، وجعل يهدهدها لبعض الوقت حتى نامت فوق كتفه. فدس أنفه بشعرها مشتمًا عبيره بعمقٍ، وابتسامة رضا تتسلل لشفتيه، كانت ممسكة بشحمة أذنه كعادتها حين تنام بين ذراعيه، فأمسك بيدها المتعلقة بأذنه طابعًا قُبلة براحتها، لتتسلل نفحات من عرقها الدافئ بين شفتيه: لو تعلمين كم أعشق تلك الابتسامة! نسخة مصغرة من ابتسامة ماما الشقية التي أوقعتني بهواها في غفلة مكابرتي، ماما البعيدة بُعد النجوم بالأفق، بعدما كانت قريبة قُرب الأنفاس! أم تراها لم تكن قريبة يومًا؟!

انتزعه صوت الرجل المنفعل: حتى اسم برنامجك يا سيدتي يدعو للتخريب! علينا أن نهدأ، نهدأ، نهدأ ليسير حال البلد، الناس لا يجدون قوتهم.

سألته قِسمت ببرودٍ: وهل رأيتنا نجذب شعرنا كالمجانين يا شيخ

محمود! من فضلك أجبني، من السبب في كل هذا الخراب؟ الثورة!!

كفانا ثورة، نحن بحاجة لنهدأ ونلتفت لأعمالنا، والبرلمان على الأبواب.

قال عماد النوبي الذي كان أحد الضيوف: الثورة التي تصفها بالتخريب هي من أتت بك إلى هنا، كيف تطلب الهدوء من شعب نفذ لديه مخزون الصبر؟! ستكونون سبب تمرده بإقصائكم أحلامه!

قالت قِسمت برزانة: أرجو أن تهدأ وتجيبني، ما رأيك بقرض صندوق النقد؟!

رفع الشيخ حاجبيه: طوق نجاة ـ سأله النوبي ألا يرى أنه ربًا، فأجابه ببرودٍ ـ سيادة الرئيس المؤمن اعتبر فوائده مصروفات إدارية، والمضطر يركب الصعب!

عاود عماد سؤاله قاطعًا الطريق على قِسمت: إذن لماذا حرَّمه شيوخكم تحريمًا قاطعًا على المساكين قبلًا؟!

صمت الرجل لجزءٍ من الثانية ثم صرخ بعصبية: أنا لا أسمح! شيوخنا أجلَّاء ومحترمون، مرجعهم كتاب الله والسنة، لا يعرفون سوى الحلال بعكس علمانيتكم.

ابتسم النوبي بسخرية: أين إجابة السؤال؟!

عاجلته قِسمت: يقول البعض إنكم كحزب إسلامي تعقدون صفقات في الخفاء، لذا تتجنبون حدوث توتر بالبلاد، أو ربما تصنعون البلبلة كيفما وأنى شئتم! خاصة باستماتتكم بالاستحواذ على مقاليد الأمور والسيطرة على مفاصل الدولة.

لوَّح الرجل يده بعصبية: هذا اتهام باطل لا أسمح به! جئت ظانًا أن الحوار سيكون بنَّاءً، لا إلقاء جزافي للتهم على الأبرياء! لن أكمل سوى برحيل ضيفك.

اتسعت ابتسامة النوبي: لا تتعب نفسك، أنا باقٍ مهما حاولت إزاحتي من طريقك.

لا أدري سبب عصبيتك يا شيخ! نحن بحاجة للمصارحة والشفافية، بحاجة أن نسمع بعضنا البعض، أنسيتم بأن الميدان جمعنا يومًا؟!

ـ الشفافية شيء وتخريب عقول الناس بإشاعات باطلة شيء آخر.

طالعت المشاهدين بابتسامة مشرقة: نحن بانتظار اتصالاتكم الهاتفية وآرائكم. الشيخ محمود أحد رؤوساء الحزب الإسلامي البارزين، ومحامي مطلع على الكثير من القضايا الحالية في المحاكم، كقضايا الفساد المالي التي أوقعت الكثيرين ـ استدركت باهتمام ـ ومعنا اتصال، تفضل.

ـ أنا.. أنا أحد المسجونين بإحدى قضايا الفساد!

جالت عيناها بوجوه من حولها، فرفع لها المخرج كتفيه باستسلام، هامسًا عبر السماعة: "اتصال كأي اتصال، تفاعلي" حثت المتصل بثبات: أنا أسمعك ـ همَّ الرجل بالحديث فعاجلته ـ هل لي بسؤالك كيف استطعت الاتصال؟!

أطلق الرجل ضحكة مريرة: لن نضحك على أنفسنا، السجن عالم قائم بذاته! ـ صمت لجزء من الثانية ـ في الحقيقة لا أدري من أين أبدأ ولكن! ـ تابع بحزن ـ امرأة آذيتها يومًا دون قصد؛ كنتي! أريد الاعتذار لها على الملأ.

ازدردت ريقها قائلة بجمود: ماذا اقترفت بحقها؟!

ـ أنا طبيب خان قسم الأطباء بتصنُّع الجهل، بالاستسلام، بالحرص على مصلحتي، فكنتُ أداة لقتل شخص بريء يخصها!

ارتعشت شفتاها المطبقتين رافعة رأسها بكبرياء: أتظن أنه من الهين أن تسامحك؟!

صوت المخرج بأذنيها يصمها: "أنهِي الاتصال، يكفي!" تجاهلته، فيما لاحت أمارات ضجر على وجه الضيف، بينما كان عماد النوبي يتابع ما يدور باهتمام.

ـ ها أنا اعترف أني كنت غبيًا، ظننت أن أمان أسرتي وتوفير لقمة العيش كافيان لإخراس ضميري، أتمنى أن ترحم قلوب أحبابي، وأرجوها أن تسامحني وتسمح لزوجتي التي يتفطر قلبها ألمًا برؤية حفيدتها، لا ذنب لها يا أستاذة.

كانت واجمة لولا صراخ المخرج الهستيري بأذنها: "أنهي المكالمة، لقد قطعت الصوت، نحن على الهواء" انتبهت أخيرًا بارتباك: يبدو أن الخط قد انقطع! على أي حال ـ عاودت الصمت ثم أردفت بابتسامة واسعة ـ الله وحده يملك الصفح والغفران، وعلينا كبشر مجاهدة أنفسنا لنقترب من رحمته؛ هكذا علمتني جدتي! ـ التفتت ببرودٍ نحو الشيخ ـ مشاركة لا مغالبة؛ ماذا حدث لتنقلب الجملة 180 درجة برأيك يا سيدي؟! لم نقض الوعود؟!

أجابها الرجل بحنقٍ: ماتزال أسئلتك استفزازية لأقصى درجة يا أستاذة! الانتخابات نزيهة والشعب اختار! لم نفرض أنفسنا عليكم.

قال عماد النوبي بتسلية: وأخيرًا أجبت على سؤال!

كان عدنان يتابع بذهولٍ. هل يهذي؟! لا يمكن أن يكون المتصل والده! مستحيل! انتزعته رنة هاتفه الملحة، فأغمض عينيه مجيبًا: "لولا!" أتاه صوتها المتلهف عبر الهاتف: عدنان! عدنان! اتصل والدك، هل سمعته؟ بالتأكيد سمعته، غامر بالكثير ليتحدث إليها، طلب غفرانها! ماذا تريد بعد؟ اسالها ماذا تريد وأقسم أن أستميت في القيام به، اسألها يا نانو، اسألها!

اتسعت فتحتا أنفه متنفسًا شعر الطفلة الملقاة على كتفه، لا تدرك والدته أنه أثقل الدَين على عاتقهم بفعلته، انتقامها وعقابها ليس بسبب نوار فحسب! أتاه نداؤها اليائس مجبرًا إياه على الحديث: سأتحدث إليها، لكن لن أجبرها على شيء أبدًا.

قتل أملها الوليد للمرة الألف في مهده. عضَّ على أسنانه بحنق، من تظن نفسها؟! يأتيها والده على ركبتيه أمام العالم، وتظل جامدة كالحجر! تعذب والدته لأن حظها العثر أوقعها بطريقها جدة لابنتها! قطع والده شوطًا كبيرًا؛ على الأقل هكذا يجب أن تنظر للأمر، فطلب الصفح محاولة ليست بالهينة على رجلٍ مثله!

❊ ❊ ❊

- stop

ـ لا تشدي السلخ علينا كثيرًا يا أستاذة، كوني رقيقة كابتسامتك، لكي لا تندمي!

أصابتها ابتسامة الشيخ اللزجة بالغثيان، لكنها أجبرت نفسها على مبادلته إياها: الليلة كانت ألطف حالاتي يا شيخ! شرفت بك.

قابلت عماد النوبي في طريقها فصافحها بإعجاب: خافي على نفسك يا أسما، فهؤلاء لن تردعهم ابتسامتك الحلوة!

يوشك الصراع اليومي على إصابتها بالجنون! برنامج كدرب من الشوك؛ توخزها كلرخطوة، وتعجز عن التقهقر، تلك الحرب بكل الجبهات باتت جزءًا من واقعها الذي تفشل فيه بالعثور على بعض من السعادة وهناءة البال، رغم النجاح. والليلة بالذات حين يتحقق جزء من أحلامها على حين غرة منها لا تعرف له طعمًا! أتاها ذليلًا من خلف قضبانه يطلب الصفح ويعترف بذنبه، لكنها لم تشعر بجذل الانتصار! ثمة شيء ناقص ليس مرتبطًا بكم الغضب والحقد الذي حملته من الماضي؛ هو شيء جديد يزيد من وحشتها، حتى ابتسامة ابنتها لم تنجح بمحوها. التقطت أسماعها نداءً حمل رنينًا مألوفا: "أستاذة أسما" التفتت ولدهشتها كان آخر وجه توقعت رؤيته، بابتسامته الهادئة ونظرة لم يغب عنها وميض الحنين: "زين!" مدت كفها نحوه فاحتضنها بين كفيه يهزها بحرارة، فعاتبته: عن أي أستاذة تتحدث! ـ كان مايزال محتضنًا كفها بقوة ـ كيف حالك؟ ـ ألقت نظرة ذات مغزى صوب الضيف ـ هل يسير عملك بشكل جيد؟

شاركها النظر نحو الرجل: بخير يا أسما، بل أظننا بألف خير، نحن في أوج مجدنا، وأظن أن خطانا تسير بشكل جيد.

ـ لا أظنك مصيبًا يا زين! ـ سحبت كفها وأوشكت على الحديث لولا نداء نافذ الصبر من الشيخ يحثه على الإسراع، فطالبه زين بسعة الصدر ريثما ينهي حديثهما ـ حين التقيتُكَ المرة الماضية شغلني الأمر كثيرًا، فقررت قراءة تاريخهم، الأمر غير مطمئن بالمرة!

قال بملامح اعتلاها جمود نادرًا ما رأته: أعلم أن هناك بعض نقاط الضعف و..

بعض نقاط الضعف! الأساس فاسد يا زين، فاسد وهش ودموي، والبناية آيلة للسقوط عاجلًا أو آجلًا؛ لا أريدك أن ترتكن عليها فتنهار فوقك، أنا قلقة عليك.

لانت ملامحه معيدة إليها زين الذي تعرفه: لا تقلقي يا أسما، هذه المرة أعي أين تخطو قدماي، لا رمال متحركة!

مطَّت شفتيها: أشك! لكن انتبه لنفسك وافتح عينيك جيدًا، فالمؤشرات مخيفة!

عاود الإمساك بكفها مانحًا إياها دفئًا أخويًا ولحظة إنسانية اشتاقت لها: أنتِ أيضا انتبهي لنفسك، وأخفضي درجة الاشتعال قليلًا.

ابتسمت لدعابته، ولم تستطع وضعه بخانة الخِصم، ربما لتاريخهما المشترك، أو ربما للمحات التردد التي رأتها بعينيه منذ اللقاء الماضي.

"مصافحة الأجنبيات حرام" أعلنها الشيخ بامتعاض، فقال الأخير: "تربينا معًا وهي كشقيــ... ـ قاطعه بنظرة صارمة فاستدرك باقتضاب ـ هي شقيقتي في الرضاعة!" قالها موقنًا بعدم اهتمام الشيخ لحقيقة التبرير قدر اهتمامه بإعلان الرفض!

* *

رنَّ هاتفها؛المتصل والدتها. قلقة لأنها لم تعرج عليها الطفلة اليوم؛ ناسية زيارة عدنان. كلتاهما تركبان موجة عناد، لا هي ترضخ لإصرار والدتها البقاء في الشقة القديمة ولا الأخيرة توافق على الانتقال لشقتها الفاخرة، والنتيجة: قسمة روح جديدة.

ـ باتت والدتك امرأة خرفة يا أسما!

أغمضت عينيها بألم: أمي، أنتِ بألف خير! أعدك بزيارتك غدًا، نمضي الفترة الصباحية كلها معكِ حتى يحين موعد طائرتي، ومازلت أتوسلكِ كي توافقي على المجيء معي، ستكون فرصة رائـــ... ـ قاطعتها بعدم استطاعتها، فزفرت بإحباط ـ لديكِ فرصة لإعادة التفكير حتى الغد، التذاكر محجوزة باسمك والأوراق جاهزة.

تحلم باليوم الذي ينتهي فيه العمال من تغيير الديكورات الخاصة ببرنامجها؛ شهران على اضطرارها للعمل خارج الأستوديوهات الداخلية، والبحث في كل مرة عنlocation، حلقة الليلة صوِّرَت بالفندق الذي ما يلبث أن يقفز أمامها كل حين مصيبًا إياها بصداع الذكرى! تشبه الليلة ليلة الفرح الشهير والأجواء الدافئة قبيل موجة الخريف، يتغير البشر، وتمر السنوات، وتنتهي الأعمار بأوقاتها المقدَّرة، ويبقى تتابُع الفصول شاهدًا على الذكريات، حاملًا عبقها ونسائمها كألبوم الصور، مع كل تحوُّل فيه تستحضر رائحة ذكرى قديمة توخز الروح! ارتأتها فرصة جيدة للتمشي قرب النيل، تفتقده كثيرًا هذه الأيام بعد أن كانت كالـ(دينامو)! أهو التوق لتنفس نسائمه أم ذريعة لاستحضار المزيد؟! سارت بمحاذاة السور، محدقة للأفق البعيد صوب أنوار الشاطئين ومراسي العوامات والفنادق العائمة، حتى وصلت للحديقة الفاصلة بين الجراج والفندق، لتفاجأ بسيارة للشرطة ومجموعة من الأمناء يلتفون حول فتاتين وقفتا بالبقعة المعهودة.

- لن نعطيكما شيئًا، كل ليلة تأتيان كالخفافيش تمصان دماءنا وتمضيان، مرة بالنقود وأخرى بغيرها! الحال سيء كما تريان.

أمسك الأمين ذراعها يجرُّها بقسوة نحو السيارة: طالما تصرين على عدم الدفع، فالسجن بانتظارك والقضية جاهزة!

صرخت الأخرى بحنقٍ: ياأولاد الـ...، يا ظلمة يا مفتريين، من أين نأتي لكم بالنقود؟ الليلة بأولها.

صرخ آخر بغضبٍ: "لا يخصنا" جرَّ أمينا الشرطة الفتاتين نحو العربة وسط صراخهما المعترض، وسيل الشتائم والسباب الذي جعل كلا الطرفين يكيلها للآخر حتى أغلقوا خلفهما الأبواب. أفزعها صراخ أحدهم مقتربًا نحوها بغتة: ماذا أتى بكِ هنا في هذه الساعة؟!

كتمت أنفاسها رعبًا محدقة بوجهه المكفهر: أنا فقط أردت! أردت استنشاق الهواء.

قال بنزق: هناك سائس مسؤول عن جلب سيارتك حتى البوابة، لا تقومي

بالسير هنا وحدك ثانية، ليست كل الطرقات صالحة للسير! ـ التفت دون أن يمنحها الفرصة للحديث هاتفًا بصرامة ـ هيًّا.

أنىٰ لها بروح التسامح وممارسة إنسانيتها وقد أوشكوا علىٰ جعلها كإحداهن! أنىٰ لها بالقدرة علىٰ مغالبة غضبها وقد أرسلوها بالفعل لبداية الطريق، لولا العناية الإلهية! لولا عدنان! تعلم بحرصه كل ليلة أحد وأربعاء علىٰ متابعة البرنامج. حتىٰ عدنان، وعشق عدنان؛ لا يكفي لأن تغفر! أشاحت بوجهها هاربة من دنس المكان، وعفن الذكرىٰ. جالت أنظارها حتىٰ وقعت عيناها علىٰ البطة الحمراء، فصدمتها رؤيته مرتكن عليها في شرود، انتبه لصوتها، مرَّ وقتٌ طويل علىٰ آخر لقاء لهما؛ ظنت مكروهٌ أصاب الطفلة فطمأن لهفتها واستهجانها، زافرًا بتهكم: يسعدني دومًا لقاؤك يا سيما، أرحب بنفسي بدلًا منكِ!

اقتربت مخرجة مفتاح السيارة: لا أملك القدرة علىٰ الجدال أيها الطبيب.

ـ أيها الطبيب!! ـ أومأ عدة مرات ببطء وارتفعت زاوية فمه ـ مشكلتنا الأزلية! المتراس الذي ترفعينه بوجهي كلما حاولت االإقتراب، ضوء الإنذار الأحمر الذي يدفعني للوراء خطوتين ـ اقترب نحوها حتىٰ بات يفصلهما خطوة ـ وتنسين دومًا أنهما خطوتان فقط ما تقدرين عليه، خطوتان لا أكثر! أسمح لكِ بإرادتي وأتغافل مثلك بإرادتي.

رفعت رأسها بتحدٍّ: ماذا يدعوك للتغافل؟! ماذا يجبرك؟!ـ أطرق بصمتٍ يعض علىٰ أسنانه فتابعت بريبة ـ تساءلتُ دومًا عن سر انصياعك لرغباتي وشروطي؛ وافقتَ علىٰ إبعاد نوار عن عائلتك، ساعدتني في الحصول علىٰ الوظيفة، وأصررت علىٰ احتفاظي بالفيلا رغم شرائي شقة جديدة. الشهامة! ـ هزت رأسها ـ لا أظنها كافية لكل هذا الإذعان! ما السر؟

الزمن، أمله الأخير في تفتيت بقايا الحزن العالق برفوف ذاكرتها، ينتظره بتمهُّل، لينجح بتعرية مشاعرها فلا يبقىٰ سوىٰ الحب. سيظل صندوقًا أسود حتىٰ وفاته.

ـ هل أسمع نبرة عتاب يا سيما؟! ـ ابتسم بمرارة لارتباكها ـ تعاتبيني

لأني لم أحاربك كفاية لتستمر علاقتنا؟! ـ ضمت شفتيها تعض على أسنانها فاتسعت ابتسامته ـ ومازالت القُبلة المحرمة في لحظات غضبك لها سحرها الخاص!

قالت بحدة: لا تتوهم! فراقنا لا يغضبني، بل الغموض الذي يحيط بإذعانك، كان لديك الفرصة بعدما احتفظت بنوار ولم أتخلص منها كما هددتك بالبداية.

تتخلص منها! كانت لتطفىء بلحظة غضب قبس النور الوحيد، ارتعدت أوصالها للفكرة، قطبت مشيحة رأسها بعيدًا فشعرته يمحو الخطوة الفاصلة بينهما ومدَّ يده ممسكًا كفها هامسًا بنبرة قطرت حنانًا وتوقًا: أمازالت رائحتك تحمل عبق الليمون؟ ـ قرب راحتها من أنفه ليشتمها مغمضا عينيه ـ الرائحة ضعيفة!

ازدردت ريقها محدقة بوجهه الذي اعتلته تعبيرات الشوق الفاضح، مدغدغة ثبات مشاعرها الموؤدة: ربما لقلة الحبات بمسباحي!

رفع رأسه محدقًا بعينيها ونبض رسغها يضرب بجنون راحة كفه: أتاكِ متوسِّلا وقد بدأ بالفعل دفع فاتورة أخطائه! ـ أمسكت مقبض سيارتها مُنكرة بعصبية، فسارع ممسكًا ذراعها ـ تدركين أننا نحطم بطريقنا قلوبًا لا تستحق هذه القسوة!

حدقت لوهلة بوجهه: ماذا تريد مني؟!

ـ أن تعبري فوق الأزمة مرة واحدة وللأبد، كفى! علينا مجاهدة أنفسنا وعنادنا لنلحق بركب ذكريات نوار؛ زادها بمستقبلها! لئلا تحوي الصراع بيننا والمكابرة التي تقصيكِ عنّي رغم يقيني بحاجتك إليَّ مثلما أنا بحاجتك ـ لامس كفه وجنتها ـ لِمَ يا حبيبتي؟!

همست بمرارة: أنا عاجزة! حتى نفسي عاجزة عن الصُّفح عنها، لا أسامحها على ما أوشكت أن تكون، كلما حاولت أو فكرت! ـ تهدجت نبراتها ـ آلاف الأشياء تقصينا، لا يكفي التمني لتحقيق رغباتنا.

ـ خُلقنا خطَّائين، والندم وطلب المغفرة بل والمقدرة على الصفح خُلق

معنا، بتكويننا! فقط امنحي نفسك الفرصة، تلك أمور أتفه من أن نسمح لها بعرقلتنا.

أدرك أن التعبير خانه حين احتدت نبراتها: ليست بتافهة! أُجبرت على الخطأ، ومن أجبرني يطلب الآن الصفح؛ أمر ليس بالتافه! لستُ بحاجة إليك، لست بحاجة لأي مخلوق على وجه الأرض، أستطيع المضي قدمًا أنا ونوار، وبدونك!

ـ كلانا يتعذب ببعدنا ونوار تتمزق فيما بيننا ـ ازدرد ريقه متوسلًا ـ أسما أنا أحبك، أكدتها أفعالي وأقوالي مرارًا، حتى أخطائي كانت دليلًا على هذا الحب!

ـ من البداية لم تكن الرحمة بديلًا بيننا فلا تطلبها منِّي الآن!

لم يعد يملك دفاعًا! لقد زرعوا الشوك وبحماقتهم ينتظرون الثمار! محقة في غضبها، كانت وماتزال، تمامًا كما يزال الزمن فاشلًا بمداواة جروحها! فتح سيارتها، فدلفت معتصرة المقود، مدَّ يده مخرجًا كيسًا مخمليًا لم تخطئه! واقترب، كم تخشى هذا االإقتراب وتحسب له ألف حساب؛ مسامها التي تشبعت به تنضح عشقًا كلما اقترب! فكرت بضعف مرددة دعاء يائسًا أن يبتعد، فقط ليبتعد.

خذى الحبات فلم أعد بحاجتها، ظننتها ذريعة لاستعادتك، كنت واهمًا! لم أعد أستطيع الحصول على ابتسامة حقيقية منك، ولا عدتِ قادرة على الابتسام، أدركتُ الحقيقة متأخرًا فسامحي حماقتي! يلتمسون العذر دومًا للعشاق، وأنا عاشق رغم أنفك!

لم تمد يدها لأخذ الكيس فأطلقه من بين أصابعه ليسقط بحجرها، ازدردت ريقها قائلة بصوت أجش: أنا مسافرة غدًا وسآخذ نوار، سنغيب لثلاثة أشهر ولا أدري إن كنت سأعود بعدها أم سأقرر الانضمام لمكتب القناة هناك، عرضوا عليَّ عقدًا جديدًا لبرنامج يبث من لندن ومازلت أفكر!

أمسك بحافة النافذة قائلًا من بين أسنانه: لن أسمح لك بأخذ ابنتي بعيدًا!

رفعت رأسها بتحدٍّ: لا أنوي إبعادها عنك رغم أن بُعدَها عن عائلتك

أفضل ما يمكن أن يحدث لها! تعالىٰ لرؤيتها متىٰ شئت، وأوقفني أيضًا إن شئت!

رؤية أناملها تبيض من شدة اعتصارها للمقود جعله للمرة الألف ينحني أمام رياحها القاسية! أغمض عينيه بألم، مازالوا يسيرون مجرجرين أذيال الماضي خلفهم، تثقل خطاهم: إلىٰ اللقاء إذن، وكما قلتِ، ابنتي متىٰ أردت رؤيتها سأراها، وإن شئتُ سأوقف ما تنوين فعله! فقط تذكري أنك أنت من يصر علىٰ إتعاس ثلاثتنا؛ الأمر لم يعد يقتصر علينا نحن الاثنين ـ همَّ بالابتعاد ثم عاد إليها ـ كدت أنسىٰ! ـ أخرج من جيبه لوحًا من التوكيس ليلقيه بحجرها ونزع يدها عن المقود طابعًا قبلة براحتها ـ سأفتقدك كثيرا يا حبيبتي ـ اعتدل بوقفته ـ احتفظي برائحة المستكة والليمون قوية؛ لا تتوقفي عن الدعاء لثلاثتنا علَّ الله يجمع شملنا يومًا!

لوح بيده مبتسمًا بحنان وتستدار مبتعدًا نحو سيارته دون أن ينظر للوراء! أتراها قطعت الخيط الأخير؟! حدقت بقطعة الـtwix؛ كان ومازال حريصًا علىٰ تلك العادة، ممثلة فكرة واحدة، لا ينساها مهما كان زخم يومه! فتحتها وقضمت قطعة صغيرة مضغتها بآلية دون أن تشعر لها طعمًا، لتنفجر في بكاءٍ خارت معه قواها، حتىٰ باتت عاجزة عن الإمساك بمفاتيحها لإدارة المحرك!

* * *

أخفت قِسمت خلف نظارتها هالات سوداء أحاطت بعينيها تكبِّل أجفانها؛ سُهد ليلة قِسمت روحها كقطع الأحجية المعقدة! سارت بثقة وسرعة، تجر خلفها حقيبة سفرٍ صغيرة، حاملة بيدها الأخرىٰ ابنتها التي تشاغلت بتحريك شخليلة وردية مبتسمة باستمتاع، وكريمة إلىٰ جانبها تدفع عربة الحقائب: ما الداعي لهذه العجلة؟!

قالت دون أن تبطئ خطواتها: أحتاج لسرعة الهروب، أنا بأضعف حالاتي!

هزت كريمة رأسها بغيظٍ: تعذبين نفسك بكثرة السفر والترحال كمن

يركض من حيوان مسعور! والمسكينة مشتتة معك، تضعينها بحقيبة سفرك كالمتاع، ارحميها!

توقفت بغتة ملتفتة إليها ونوار، مجيلة عينيها فوق صفحة وجه الأخيرة الناعمة ونظراتها ذات البريق الشقي، ورغمًا عنها بادلتها ابتسامتها الحماسية لصوت الشخليلة. صدقت كريمة بكل ما قالت عدا شيء واحد؛ لا تصحب نوار معها محبة فحسب، وهي التي تعدها نبضها الذي تحيا به؛ بل لأنها قطعة منه، تحمل قطعة منه معها تعينها على الرحيل، تقويها وتشغل لوعة غيابه بالبحث عنه في ملامحها. نوار عزاؤها في الحياة وعزاؤها في الحب!

ـ أتظنينني أمًّا سيئة يا كريمة؟

ألقت السؤال بنبرة مختنقة متوجسة، فأجابتها كريمة بنبرة واثقة وحازمة:
لم أرَ بحياتي من يحب ابنته مثلما تحبينها، لدرجة شكي أن حمايتك وإهتمامك يصلان حد المرض، لكنك تمنحينها ما لا تحتاج وتحرمينها مما هي في أشد الاحتياج إليه! خذي مني حكمة بعُمر شعيراتي البيضاء فوق رأسي! مهما منحتها لن تسعد حقًا سوى بينكما، أنت ووالدها المسكين الذي يدور حول نفسه كالمجنون كلما حانت لحظة فراقها، السر بينكما لا يعلمه سواكما، لكن ألا تستحق المسكينة لحظة تتخلين فيها عن عنادك؟!

أطرقت ملصقة شفتيها بجبهة نوار صامتة، وحين رفعت رأسها كان وجهها هادئًا بلا انفعال: "لا يهم!" تنهدت كريمة بنفاذ صبر، فأشارت نحو صف المقاعد الحديدية، واضعة نوار فوق ركبتيها، ناولت كريمة قطعة توكيس بعد أن احتفظت بواحدة لنفسها، فتحتها وجعلت تعطي منها قطعًا صغيرة لنوار التي التقمتها بلهفة وحماسة شديدين. "كدت أنسى! هاك نصيب عم حسنين، لا تتركيه يأكله مرة واحدة كي لا يرتفع السكر تناولتها كريمة منها، متابعة إياها تداعب نوار باسترخاء قلما تراه على محياها، ثم قالت أخيرًا بنبرة ممتنة: لن أنسى صنيعك معنا ما حييت، لولاكِ لكنا الآن! لا يعلم سوى الله حالنا لقـ...

قاطعتها قِسمت بحدة: توقفي يا كريمة! لمَ لا تدركين أن ما فعلته هو

حقك؟ بل أقل حقوقكما أنتِ وزوجك إن صح القول! ـ زفرت مردفة بنبرة رقيقة ـ لا أحب أن تفكري أنه جميل منّي أو من عدنان، تحصلان على أجر مقابل العمل، ما المشكلة إذن؟! كان يجب أن يكون هناك قانون يحمي أمثالنا من العوز والاحتياج! ـ سألتها كريمة بحيرة إن كانت تقصدهما بالقانون فزفرت بتهكم مرير ـ لا يهم ابدًا!

سمعت ابنتها تتمتم بلهفة وتهز شخليلتها بحماس: "بَا.. بـــ.. بــّ" فالتفتت نحوها بلوم: "وماما! نسيتها؟". رفعت رأسها محدقة بالنقطة البعيدة التي استحوذت على اهتمام ابنتها، لتفاجأ بالطبيب يمشي نحو بوابة استقبال المسافرين! باءت محاولات نوار لجذب انتباهها كي تمنحها المزيد من الشوكولا بالفشل وقد أربكها ظهوره! هل يحاول إعادتها بالمجيء للمطار بنفسه! لكن كيف علم بموعد الطائرة؟! قطع تساؤلها شخصٌ بدد كل الشكوك؛ علياء تدفع أمامها عربة حقائب، يبدو أن طائرتها هبطت للتو. لم تكن لتعرفها لولا أنها رفعت نظارتها السوداء فوق رأسها باحثة عنه! لوح عدنان إليها فوقفت للحظة بدت عليها المفاجأة، وبدأت ملامحها تتغضن: "عدنان! ماذا حدث؟! لا أصدق ما سمعته؟! هل.. هل.. هل صحيح أنهم بالسـ.. بالسجن؟! ـ أغمض عينيه بألم مُرحِّبًا بها فقاطعته بصوت متهدج ـ ولكن! ولكن كيف؟! لم يفعلوا شيئًا!

انهارت في بكاءٍ شديدٍ اضطره لاحتضانها: كفى يا علياء، العيون تحدق بنا ونحن بغِنى عن المزيد من الأضواء!

صرخت الطفلة بغيظٍ احتجاجًا على إهمال رغبتها بالمزيد من الشوكولا، لكنها لم تجذب قِسمت فحسب، جذبت والدها الذي التفت نحوها وعلياء ماتزال بين ذراعيه، رأى ابنته تلوح له بشخليلتها وقد ظهرت آثار شوكولا على جانبي فمها، تتمتم بحرف الباء السحري بتأتأتها المعهودة. لوح لها مبتسمًا وحانت منه نظرة لقسمت حملت الكثير، بادلته إياها بملامح جامدة. فعاود النظر لابنته وأرسل لها قُبلة في الهواء، معاودًا التلويح بابتسامة مطمئنة. نهضت قِسمت مسرعة حاملة الطفلة: "سأذهب الآن لإنهاء المعاملات،

انتبها لنفسيكما" أومأت كريمة وسارعت مقبِّلة نوار، دون أن تحول الأخيرة ناظريها عن والدها الذي ظل يطالعها بلهفة مجنونة، وأرسل لها قُبلة أخرى قبل أن تغيب عن ناظريه، ولدهشته قامت الطفلة بضم شفتيها معًا في محاولة لتقليده، ورغم استحالة سماعه زقزقة قُبلتها الخافتة، إلا أن رؤيتها تقوم بها كانت كافية لخطف أنفاسه! ابتعدت قِسمت بالطفلة التي أدارت رأسها لتبقى على رؤيته. قُبلتها الأولى! كان يجب أن يكون إلى جانبها، يصوِّرها ويسجل لحظتها التاريخية التي لن تتكرر؛ كل شيء في حياتها له مرة أولى واحدة فقط! وهو عاجز عن التواجد. لن يسمح للحرمان ثانية باعتصاره، فلتذهب قِسمت وذكرياتها المُرة للجحيم، لم يعد يحتمل، كفى!

ستتقمص شخصية الطبيب بالثواني المعدودة التي تفصلهما عن الفراق، ولن تنظر للوراء؛ ذاك التصرف الذي لطالما استفزها! ستعود الأمور لنصابها؛ رؤيتهما معًا وخزتها وخزة إدراك جديدة، علياء تنتمي إليه ولعالمه، يملكان ما سيساعدهما على المضي! أما هي وإن حملت منه خلاياه وحمضه النووي ودماءه فلن يغيِّر من الأمر شيئًا، ملايين الإشارات تخبرها ألا مكان لها بعالمه. لا يهم؛ طوق النجاة الذي طالما ساعدها على اجتياز الأهوال، ستظل (لا يهم) أروع بل ألذ ما تفوهت به!

* *

ألقت بنفسها فوق المقعد كما تلقى الأمواج بحطام السفن فوق شاطئ مهجور! بكل مرة ترحل بثبات للحظة الأخيرة، حتى تحين العودة؛ تطفو هشاشتها على السطح وتتداعى روحها فورما تختلي بنفسها، وتتوالى الأسئلة الشرسة: إلى متى؟ كيف تمضي؟ إلى أين؟ لا تدري إن كانت نوار ستبقى متماسكة للنهاية في خضم الترحال والهروب المتواصل؛ تخرج للحياة بنفس متزنة أو ستصنع بروحها خللًا لا يُغتفَر! تضب حقيبتها ولا تنسى فراشي أسنانها وملابسها ونوار! هوسها بالبحث الدائم عمَّا يبعدها عنه وهو مستسلم يثير حنقها! حتى الأرض التي تجمعهما لم تعد تسعها برحابتها، تخشى لقياه بإشارة، تخشى استنشاق نسمة هواء سبقته رئتاه إليها! تخشاه

وتخشىٰ الهوىٰ الذي تملكها وهي مفتوحة العينين مدركة رغم إنكارها.

مقابلة غير متوقعه براغب في لندن كان لها الوقع الأكثر كارثية! لا يهم كونها التقته وقبلت دعوة العشاء؛ لم يزعجها ضميرها، أصبحت منذ زمن امرأة تملك قراراتها. المهم أنها كانت مرآة واجهتها بنفسها وحقيقتها التي تراوغها؛ حتىٰ راغب كان شارد الذهن مثلها غارق في بحر أفكاره الخاص!

اتصلت بأحد مساعديها بالبرنامج في مكالمة لم تستغرق ثوانٍ معدودة، تبلغه بعودتها وانتظارها مستندات التحقيقات الخاصة بقضية مستشفىٰ الخالدين؛ يحاول الإعلام عبثًا سبر غموضها الذي تصر عليه جهات التحقيق! أخبرها أنه سيرسلها بالغد صباحًا علىٰ عنوان الفاكس، وسرعان ما أنهت المكالمة التي ألقت بها مرة أخرىٰ للوحشة. تتعجب كثيرًا من نفسها حين تتلبسها حالة القسوة الشديدة عند التحدث إلىٰ عدنان، أنىٰ لنا بالقدرة علىٰ الإيلام وثمة عشق متعلق بأرواحنا متشعب بين جنباتها؟! ربما هي جروح لا تندمل وغضب مايزال مؤجج بين الضلوع! فتحت عينيها المغمضتين علىٰ صوت خطوات بالشرفة؛ لم تنتبه لبابيها المشرعين! وقع أقدام آخر نبه أعصابها فنهضت محولة أنظارها فيما حولها بحذرٍ: "من هناك؟ ـ اختنق صوتها بالرعب حين عاودت النداء ـ عم حسنين! أهذا أنت؟" ظهر جسد أمامها لم تتبين ملامحه بسبب الظلام وانعكاس ضوء عامود الإنارة الذي ضرب عينيها من الخارج. ليتها أشعلت الضوء قبل دخولها! لوهلة ظنته لصًا، وكانت وهلة كافية لتجمد الدم بعروقها، لولا صوتٌ مألوفٌ داعب أذنيها: "لا تخافي يا حبيبتي، إنه أنا" كتمت أنفاسها بغير تصديق وتفصد العرق فوق جبينها. تعلم كم يكون لقاء العشاق بعد غياب مثير للمشاعر كافة! لكن ما لم تختبره قبلًا لقاء الأحبة العائدين. لم تستطع نطق اسمه وقد اعترتها رعشة قوية، كأن يدًا باردة تربت فوق ظهرها! شهقت عدة شهقات متتالية حين عاجلها أخيرًا بالاقتراب جاذبًا إياها بين ذراعيه: "قِسمت، قِسمت يا حبيبتي وبين ذراعيه المحتويتين المملؤتين حنانًا سكنت ارتعاشتها وهدأت روحها عدا بعض النحيب: ياسر، ياسر! آه

لو تعلم! تأخرت كثيرًا، تأخرت يا ياسر.

هدهدها بين ذراعيه كطفلة صغيرة، طابعًا مئات القبلات فوق شعرها، تنفلت من بين شفتيه شهقات البكاء مجاهدًا وأدها: أعلم يا أسما، أعلم كل شيء! شششش.

تلك الكلمة السحرية التي افتقدتها حد الوجع عادت لتداعب أذنيها، يحملها صوته، ياسر، عاد ياسر! عاد بعد انقشاع العاصفة، عاد مع النوراس بعد هدأة الموج وعودة الحياة لوتيرتها، مكتسحة كل من يقاوم، مجبرة إياه على المضي! "أين كنت؟!" حمل سؤالها لومًا جليًا فجاوبها بحزنٍ: لا يهم أين كنت..أتيت بعد فوات الأوان، لم يعد لعودتي أهمية، لم يعد للعتاب أهمية، حمدًا لله أن بقيتكم بخير وإلا فقدت عقلي! ذهبت لرؤية أمي وظننتكما هناك، لكن! ـ صمت بعينين اجتاحتهما الدموع فأطرق مغمضًا عينيه لتتساقط دمعاته الساخنة فوق قميصه ـ علمت أن، أن نوار!

أجل يا ياسر، ماتت نوار! الذكرى السنوية الثالثة لها وأنت غائب! قتلني الغياب يا ياسر! قتلني غيابكم جميعًا، حتى أمي لم ترحمني غيابها، غابت وهي إلى جانبي، لم يرحمني أحد يا أخي، لم يرحمني أحد!

هبَّت نسمة هواء قوية حملت معها رائحة اصص النعناع والريحان فاستنشقها بقوة: لا أظن أنه كان للرحمة مكان بحياتنا خلال الأعوام الثلاث، أنا أيضًا أحرقني الغياب، وجلدني الخوف كل لحظة عليكم وعلى طفلي الذي لم أرَه.

ـ قطعة منك! رأيتك بعينيه، سيتم العامين والنصف، هو ونوار الصغيرة أصدقاء.

قال باسمًا: رأيت نوار، أغرقتها بقبلاتي ونامت بين ذراعي، لها غمازتاكِ يا سمسم. عدتُ الليلة بعد مغادرتك، فأعطتني أمي مفتاح الشقة كي أنتظرك.

تنهدت بعمق: لم أسمع هذا النداء منذ الأمد، لعنتنا كانت حبنا لبعضنا.

أخبرتني أمي أنكِ دفعت النقود للتاجر فورما استطعت جمعها، ومساعدتك الدائمة لهبة وعليّ الدين ـ أطرق بأسى ـ قفزنا جميعًا من السفينة

وتركناك تواجهين العاصفة وحدك يا حبيبتي! لماذا انفصلتِ عن زوجك؟ تقول أمي إنه رجل رائع وأنكِ تحبينه!

لم تخبره فريدة بكل شيء! فضلت إخفاء سجنها عنه للمرة الثانية، ترئ لأي مدئ أفصحت عن حقيقة زواجها؟! على أي حال، هي أيضًا لم تفصح لوالدتها بالكثير.

جذبته من ذراعه نحو الأريكة: اجلس معي ودِعني أنظر إليك.

حدقت بوجهه المتعب أسفل ضوء المصباح، وملامحه التي اعتلاها أثر زمن لا يرحم؛ تجاعيد شتَّىٰ حول عينيه حفرت طريقها بقسوة، وأخرىٰ حول فمه معلنة رحيل الابتسام عنه منذ الأمد، حتىٰ الهالات السوداء المشابهة للون قميصة المنحول الجعد، أضفت المزيد من قتامة الحزن.

- أخبرني ماذا فعل بك الغياب. أين كنت طوال هذه المدة وقد استمتُّ في البحث عنك؟! - استطردت بمرارة - كنت غاضبة منك بالبداية، لكن مع مرور الأيام ذاب غضبي وحل بدلًا منه شوق رهيب لرؤيتك يا إيسو!

لف ذراعه حول كتفها يحتضنها بحب: كلما سمعت صراخ المساجين بالسجن الليبي، أدعو الله متضرعًا أن يمنحنئ الوقت كي أعود لأموت بينكم، أعلم ظروف زواجك يا أسما، أخبرتني أمي بكل شيء!

سألته بمرارة: أخبرتك أني تزوجته إيفاءًا لدَين جثة نوار، أخبرتك أني بعت نفسي؟

طبع قبلة عند مفرق شعرها متنهدًا: كانوا يلقون بي للكلاب المسعورة تنهش لحمي، وينهشون لحمئ وعرضي هنا! كأننا خلقنا فرائس وطرائد، قسمة خُطت فوق جباهنا! ملعون ضعفنا وقلة حيلتنا، ملعون ألف مرة.

- كنت بانتظارك كمن يملك عاهة تكبله، أضعت شرفك!

فاجأها بضحكة خشنة أنهكت أنفاسه وعاودت إغراق عينيه بالدموع: ياه يا أسما! كنت بانتظاري كل هذا الوقت لأذبحك وأغسل عاري مثلما يفعل أبطال أفلامك؟!

أجابته مختنقة: نعم، هذا ما اكتشفته الآن! كنت بانتظارك لأنك الوحيد من يملك الحق في ذلك. كنت بانتظارك لتصرخ بوجهي لماذا بركت كالجمال

سريعًا يا ابنة علي الدين؟! عجزت عن مسامحة نفسي أو المضي قدمًا رغم تصنعي القدرة.

زفر بسخرية: ابحثي عمن يغسل عاركم مني ثم طالبيني بنصب محاكمتك!

قالت بشرود: أتراني في النهاية مرآة لأبي؛ برك هو الآخر!

توقفي يا أسما ـ قالها بصرامة رغم تهدج أنفاسه ـ توقفي عن جلد ذاتك، أجسادنا لم تعد تحتمل المزيد من ضرب السياط! أنت أشرف منا جميعًا، والمجتمع الذي سيطالبني بمحاسبتك عليه أولًا دفع الفاتورة التي أثقلت ظهورنا فكسرتها، ظلم هنا وظلم هناك! بل الظلم هناك أكثر شراسة ووقاحة، بوجه يختال بالجبروت ـ اتكأ برأسه على ظهر الأريكة مغمضًا عينيه ـ ظننت في لحظة أن الحال غير الحال، فتحامقت في جلسة بين جمع من الناس، ولم أدرك أن بين الشقوق ثعابين لا تقدر عليها الرفاعية! ثعابين ناعمة وهادئة؛ هناك يسلطون الأبناء على آبائهم والأخوة على بعضهم! كنتُ سببًا في استحضار وحوش آلية دهست منزل الرجل المسكين وابنته الرضيعة، تركتها زوجته في لحظة غفلة حين خرجت مهرولة تستطلع الأصوات، وكان السجن الترانزيت الذي لاقيت فيه ما لا يخطر على قلب بشر ـ زفر بمرارة ـ العذاب هناك فن له مبدعوه ومبتكروه!

ـ ماذا فعلوا بك يا حبيبي؟!

مسَّد ذراعها المحتضنة خصره: أمرونا حين فتحوا لنا السجون بنهاية المطاف بالركض، نطلق سيقاننا للريح ولا ننظر للوراء! حذرونا من رصاصهم الذي سيصيب من يتخاذل منا أو يتعثر، كنا نجري كالمجانين، تساقط منا البعض كالذباب، والبعض ركض حتى أصيب بأزمات قلبية فسقط. وأريدك أن تفعلي المثل! ـ رفعت رأسها تطالعه بحيرة فربت فوق وجنتها بحنان ـ أريدك أن تركضي بأقصى سرعتك وبكل ما تملكين من قوة، لا تسمحي لرصاصات الماضي بأن تطالك وتصرعك، لم يبقَ الكثير! لملمي بقية أحلامك واحتضنيها بكل قوتك، أرويها كما كانت تفعل نوار

بزرعاتها الصغيرة، لا تنتظري ثانية أخرىٰ، صدقيني، لم يعد هناك وقت.

قالت بحزن: حاولت كثيرًا وفشلت!

قال بإشفاق: ننسىٰ دومًا أن معطيات الحياة قسمتنا، لكن توليفها والتحكم بها خيارنا! اختاري ولا ترددي كيف ستشكلي وتطوعي قسمتك.

ـ لن تتصور لأي مدىٰ كنت بحاجة إليك!

ـ وأنا أمرضني الشوق إليكم.

ارتياح غمرها ولفَّها كمن تطير في علياء السماء؛ ياسر هنا! عاد ياسر! حصلت علىٰ هدأة الروح وسكينتها، تلمس همهماته الحانية جرحها فيخبو التهابه، سكنت قطعة الأحجية الأخيرة موضعها! انفتح باب الشقة بغتة، ودلف ظِل قاتم تبينت ملامحه حين اقترب. عدنان! ظل لبرهة محدقًا فيهما بصمت، ثم رفع يده وكبس زر الضوء. تبادلت أزواج الأعين النظرات لوهلة، فوضع يديه بجيبي سرواله متأملًا تعابير وجهيهما المسترخية، عدا بعض الترقب الذي لاح بعيني أسما، وذراعها الملتفة حول خصر ياسر هادئة مستكينة، ارتفع جانب فمها شيئًا فشيئًا بجذل مهنئة نفسها علىٰ توقعها! فلانت قسماته وابتسم: حمدًا لله علىٰ سلامتك يا ياسر. متىٰ عدت؟

زفرت بسخرية حين نهض شقيقها مصافحًا بحماسٍ: مرحبًا أيها الطبيب.

رفع عدنان حاجبيه: لا داعي لـ(أيها الطبيب) تصيبني بالأرتيكارية حين يخاطبني بها أي فرد من عائلتكم.

أطلق ياسر ضحكة متسلية: كما تشاء يا أبو نسب، حدثتني أمي عنك كثيرًا.

اتسعت ابتسامة عدنان والتفت نحوها وقد ضمت شفتيها بحنقٍ: توقعت هذا، فلست بموضوع حديث مفضل لدىٰ زوجتي العزيزة ـ استدرك هازئًا ـ المعذرة، طليقتي العزيزة.

ارتبك ياسر وانتوىٰ المغادرة ومعاودة زيارتها غدًا. فتعلقت نظراتها بعدنان: لن تغادر يا حبيبي ـ التفتت لياسر ـ هذه شقتك ـ همَّ بالاعتراض فقاطعته مخرجة هاتفها ـ عم حسنين، أحتاجك، تعرف عنوان السيدة هبة

زوجة أخي، أريدك أن تحضرها لشقتي - اعترض ياسر فابتسمت بحنان - تحتاج لبعض الاستقرار يا حبيبي، وأنا أملك فيلا ولست بحاجة إلي الشقة، اعتبرها جزءًا من إرثك المتأخر.

هتف بدهشة: إرثي!

- حكاية طويلة!

سألها بحزنٍ: إلىٰ متىٰ ستظل الأدوار معكوسة بيننا يا ابنة عليّ الدين؟!

- لا يهم من يعطي، المهم أننا إلىٰ جانب بعضنا البعض.

* * *

أخبرت هبة بالهاتف أنها متعبة وتحتاج بقاءها معها الليلة، تخشىٰ علىٰ قلب المسكينة من المفاجأة! صمتت وعدنان طوال الطريق حتىٰ وصلا لسيارتها يتبادلان النظرات، عرض عليها توصيلها للفيلا ففاجأته بقبولها، رفع حاجبيه دهشة بينما أطرقت بارتباك ودلفت إلىٰ السيارة معاودة الاتصال بمساعدها، معدلة رقم الفاكس بالرقم الخاص بفيلا المقطم، حريصة علىٰ إبقاء الحديث مبهمًا. ضغط زِر الأسطوانات فصدح صوت فريد بأغنيته المميزة.. إياك من حبي.. إياك.. وابعد قلبي.. إياك.. زفر بسخرية: تساءلت دومًا من كان يحذره ليلتها، أنا أم أنت؟

أجابته بشرود: نحن الاثنان!

ظلا لبعض الوقت يستمعان لشدوه حين قطع عدنان الصمت: يبدو أنه عانىٰ كثيرًا بغربته.

- كلانا عانىٰ بغربته!

- ألا تتعبين كبقية البشر؟! تحاولين إراحة الجميع، ماذا بشأنك؟!

أغمضت عينيها واستمعت في صمت للأغنية حتىٰ ظنها فقدت النطق: متعبة كثيرًا - فتحت عينيها ملتفتة إليه - هل اختبرت ألم الروح أيها الطبيب؟!

- كثيرا! لدرجة التساؤل إن كنت سأفتقده إن رحل، صرنا أصحاب!

مطَّت شفتيها بمرارة: إذن لدينا صديق مشترك!

- ستعودين إليَّ، لن أسمح لكِ بالرحيل ثانية - مدَّ يده ممسكًا بكفها

المرتاحة إلىٰ جانبها يداعب حبات المسبحة - ألا يتعبك فراقنا؟! كم حنقت علىٰ ياسر وأنت ترتمين بين ذراعيه هكذا عن طيب خاطر! مازلتِ توزعين ابتساماتك وحنانك علىٰ الجميع عداي! أنىٰ لكِ بهذه القسوة يا سيما؟!

- أقسو علىٰ نفسي قبل الجميع!

- أحاول تذكر مرة واحدة أخطأتِ بها وناديتني حبيبي ولو أثناء نومك! مرة واحدة! - تابع يهز رأسه بإحباط - فرغت منِّي الكلمات والكرة بملعبك! والدتك حالتها مستقرة، وياسر عاد لزوجته وابنه، لم يبقَ سوىٰ نوار - التفتت إليه بحدة مطلقة سهام التحذير فرفع يدها لاثمًا - نوار ابنتنا يا سيما، ابنتنا التي علىٰ قيد الحياة، أعلم أن بإمكانها العيش بين والدين منفصلين، لكن لم نجبرها علىٰ التمزع؟

أشاحت وجهها صوب النافذة لوهلة فظن أنه نجح بثقب جدار عنادها، غير أنها قالت: ظننتي بصحبة رجل آخر حين دخلت الشقة، شككت بي كعادتك!

أوقف السيارة بغتة فأصدرت عجلاتها صريرًا عنيفًا، وباتت كحجرٍ بمنتصف نهر ثائر، تعالت صيحات التذمر والاعتراض بعد أن سمعا صوت ارتطام عنيف خلفهم. صاح بها: حبًّا بالله كفىٰ! - ورغم الأبواق وصرخات السباب الغاضب التي أحاطت بهم إلا أن صوته كان الأكثر غضبًا وعصبية - إلىٰ متىٰ هذا الجنون؟! - همَّت بالحديث محذرة من مغبة الوقوف هكذا، لولا نظرة صارمة من عينيه جمدتها - أجل تفاجأت! زوجتي بين أحضان رجل غريب بمنتصف الليل علىٰ الأريكة في العتمة! - ضرب المقود بعنف شديد - للحظات أصابني الجنون وشعرت بالغليان، كدت أنقض عليكما لأحطم أسنانه وأخنقك بيديَّ هاتين، لست لوحًا من الثلج! ولكن ليس بسبب تلك الصراصير التي تسعىٰ برأسك ليل نهار.

تمتمت بخفوت: المرور!!

اقترب هامسا بصوت مبحوح: ليس لأنكِ قِسمت سيئة السمعة كما تصوَّر لكِ خيالاتك الغبية، بل لأنكِ زوجتي التي أحبها، ملعون أنا بغيرتي لكنها

الحقيقة! ـ ضرب المقود ثانية بعنف كاد يحطمه مطلقًا الرعب بشرايينها ـ ولولا غمازة عائلتك التي لاحت على وجه شقيقك واستحضار بعضٍ من وصفك القديم لملامحه، يعلم الله ما كنت لأفعله!

لم تره يومًا بهذا التوحش لدرجة تفصدت معها حبات العرق عن جبينه! كان يشهق ويزفر بخارًا مائيًا كثيفًا أمام وجهه، مذكرًا إياها بالدبة القطبية التي رأتها بإحدى برامج الطبيعة! اكتفت برفع حاجبيها ذهولًا، فأمسك المقود بكلتا يديه مطلقًا ضحكة خشنه متهكمة: أنتِ قضية خاسرة يا قِسمت ذو الفقار، لا أمل ـ أردف بهستيرية ـ صدقيني يا عزيزتي أنتِ hopeless case ـ لوح بيده عدة مرات يوشك على قول شيء ما ليعدل عنه ويحاول أخرى فيفشل، وأخيرًا أخذ نفسًا عميقا ـ لا يهم! لا بأس! hard luck حقًا هذه المرة وبكل أمانة أعلنها، أستسلم ـ فغرت فمها كالبلهاء لثانية ثم حاولت الحديث فقاطعها بإشارة حازمة ـ لا داعي، ستزيدين الطين بلة ـ مطَّ شفتيه وأطرق مفكرًا للحظات ثم رفع رأسه ـ لا يهم!

أدار محرك السيارة وأنطلق تصحبه لعنات السائقين، حتى ألقى أحدهم على زجاج سيارته الخلفي كوبًا من الآيس كريم أغرق سائله الزجاج. لقد أيقظَتْ دبًّا من بياته الشتوي؛ تكفيه إشارة صغيرة للانقضاض، كادت أن ترى نابيه! لكن لأنها ماتزال تملك بعضًا من التعقل فالتزمت الصمت، فاجأها رافعًا صوت الأسطوانة ليعلو صوت فريد بأغنية جديدة...

أنا وانت انا وانت.. انا وانت العين والنيني.. انا منك وانت مني...

صفر معها بلامبالاة قائلًا: أكره هذه الأغنية.

وصلا أخيرا أمام بوابة الفيلا فأمرها بالنزول، وبكل أدب ورزانة ترجلت من السيارة حاملة اللاب وحقيبة يدها، همَّت بالذهاب، ثم تلكأت: هل.. هل تحتاج لشيء؟

التفت إليها ماطًا شفتيه بابتسامة صفراء وعينين حمراوين: مع السلامة يا مدام ـ ازدردت ريقها فكرر من بين أسنانه ـ مع السلامة.

أطبقت شفتيها فأشار بسبابته لتبتعد من وجهه. لملمت طرفي معطفها

الجلدي ورفعت رأسها بكبرياء لتسير مكافحة هبات الهواء المثلجة التي تلفح وجهها، وحين أوشكت على إغلاق باب الفيلا سمعته يصرخ بغضب: اذهبي يا قسمت، مارسي الوحدة كما شئت، اغلقي سمعك وبصرك عن الحقيقة، تمسكي بكبريائك اللعين وهواجسك الغبية وابتعدي، فاض بي الكيل! ـ ضرب رأسه براحته ـ فاض بي الكيل يا قسمت! أتسمعين؟

كانت تطالعه ذاهلة داعيًا بلطجية الحي ولصوصه في زيارة لها، لم يكن ليحتاج أكثر من هذا! التزمت التعقل مومئة له من بعيد وملوحة بابتسامة مرتبكة، ثم دخلت وأغلقت الباب خلفها برزانة. زأرت السيارة بهدير خلف سحابة من التراب والحصى المتطاير، خادشًا وجهها مثيرًا زوبعة سعال بصدرها.

* * *

ارتقى درج الفيلا يجرجر أذيال خيبته في نفسه، محني الكتفين ومطأطئ الرأس كمحارب خسر الحرب لتوه! حذرته يومًا أنه بقربها سيكفِّر عن سيئاته، ويتساءل: هل كفَّر عنها جميعها أم مازال في الأفق جولات أخرى للتكفير؟! ها هو عائد ولم يستغرقه القرار سوى دقائق كانت كافية ليصل بسيارته حتى نهاية الشارع فيعود أدراجه! هزمته ابنة ذو الفقار هزيمة نكراء! دفع الباب بقدمه فصدم الجدار بدوي عنيف، وداعبت أنفه رائحة العود المحترق؛ تحرقه بالأسفل وتحرق الطيب بالأعلى! لم يشأ مقابلة عينيها فور دخوله فأشاح محذرًا: أعرف ما ينتظرني لكني ببساطة لا أهتم! اطرديني إن جرؤت أو احمليني وألقي بي من النافذة إن استطعت، لكن خروج من هنا، لن أفعل!

لثانيتين انتظر صفارة بدء الشجار فبقيت الريح تصفر بأذنيه! الفراش فارغ! جذبته النار المشتعلة بالمدفأة الحجرية، لقد أشعلتها! داعب أذنيه صوت روزا...

أنا لحبيبي وحبيبي إلى.. يا عصفوره بيضا لا بقا تسالي.. لا يعتب حدا ولا يزعل حدا.. أنا لحبيبي وحبيبي إلى...

كانت جالسة على الأرض فوق وسادة مخملية، مرتدية ثوبًا فيروزيًا قاتمًا من الحرير، تضم ركبتيها لصدرها، تداعب أناملها حبات مسبحة الكهرب مسبحَّة! طالعته بنظرات جُن لتفسيرها بشوقٍ بالغ! مقررًا رفع قضية غدًا مطالبًا بإلغاء أهليته!

ـ عود ومدفأة وثوب نوم جديد! كيف تضعين رأسك على الوسادة كل ليلة بضمير مرتاح وجرائمك لا تعد ولا تحصى؟!

تمتمت بحيرة: "جرائمي!" قطب فاغرا فمه بدهشة؛ النبرة التي ألقت بها كلمتها، مبحوحة، خافتة، لم يسمعها يومًا تنفلت من حنجرتها! أثبِت. جعل يسير أمامها جيئة وذهابًا: تجبرينني على الظلام فأحترق شوقًا لرؤيتك؛ جريمة رقم واحد! ترفضين مسامحة زلاتي، إثنين!، تشككين بحبي؛ أكبر جرائمك، وتسبِّحين! أتساءل إن كنت تستحقين حسنة واحدة وهناك من يتعذب بسببك!

اختلجت شفتاها: أخبرتك يومًا أني استحققت الحبات كلها منذ زمنٍ طويل.

قال بعصبية اتسعت لها ابتسامتها: وسألتك ماذا تعنين وكالعادة راوغتني!
ـ رفع سبابته باتهام ـ حصلت عليها دون وجه حق؛ اتفاق آخر أخللت به.
ـ بل استحققتها كلها يا عدنان.

همَّ بالإعتراض لولا اسمه منفلتًا من بين شفتيها مشنفًا أذنيه؛ حالته مستعصية! مازال يتخيل بحة غنج بصوتها، ازدرد ريقه حين غمرته رائحة فانيلا، الهذيان من جديد! لكن باقترابها باتت الرائحة أقوى، اجتاحت كل حواسه التي توثبت كنمور الغابات.

ـ استحققتها لآخر حبة ـ قالتها بمكرٍ ولم يفصل بينهما سوى سنتيمترات
ـ أتعلم متى استحققتها؟ ـ ظل متمسكًا بجموده منتظرًا نهاية العرض فقطبت متصنعة الجدية ـ هيًا، اسألني متى استحققتِها يا سيما؟! ـ عقد ذراعيه فوق صدره سائلًا بصوت أجش، فاقتربت وحلت عقدة ذراعيه ممسكة بكل ذراع على حدة تلفها حول خصرها ـ هكذا يجب أن تحتضن حبيبتك أيها الطبيب

- وقفت على أطراف اصابعها تستنشق عطره هامسة - بكل مرة ضبطت نفسي أفكر بك فأبتسم! بكل مرة أتذكر بها حركة فعلتها أو كلمة قلتها فتعتلي شفتيَّ ابتسامة حقيقية، تنبعث معها خلاياي الميتة على وجنتيَّ حية تتغنى بك، وما أكثرها من مرات! - ابتعدت ترمقه بحنانٍ - أتعلم ما الأجمل بين كل الأشياء؟
- أصرَّ على الصمت فأردفت - هيًا، اسألني ما الأجمل بين كل الأشياء يا سيما؟! - سألها بريبة فأجابته باسمة - أنك تملك كل مفاتيح أبوابي، ورائي بكل خطوة، تقتحم شقتي، وحدتي، وعنادي - أردفت بغنج - لا فرار منك أبدًا أيها الطبيب!

لانت نظراته مزينة طرفي عينيه بابتسامة: إذن استحققتها كلها! - أومأت فخرج صوته أجشًا - رائحتك كالفانيلا!

دست أصابعها بغابات شعره المظلمة: ألا تعشق كل شيء مغموس بها؟!

- أرى بعينيك شيئًا أرتعب لتصديقه، أراهما تتعلقان بالقادم والحاضر، وأخشى رؤية الماضي خلف عتباتك وأسفل خطواتك.

- دعوت الله منذ قليل مسبِّحة، أعده لي ياربي! أعِده لي الآن! واستجاب لي كما فعلَ معي دومًا، كان كريمًا معي حين أتى بك للحفل لتنقذني من مصيرٍ مجهول، وحين أتى بك للميدان لينقذني اتصالك من رصاصة يعتليها موتي! أمسكت حبة (الكريم) بقوة وتمنيت أن يغدقني بالمزيد من كرمه ويعيدك إليَّ، فأعادك! لم أعد أخشى الماضي، الماضي لايهم يا عدنان!

- أملا تعلقت به منذ أعدتك لعصمتي قبل انقضاء العدة فلم أسمع منك اعتراضاً! ظننت أن المأذون نسي إخطارك لكن هاجسًا بداخلي أخبرني أنك مشبعة بي كما أنا مشبع بك.

التهمت نظراتها تقاسيمه المرهقة توقًا: علمت ولم أجرؤ على الاعتراض، هاجسٍ منعني وشلَّ إرادتي، جعلني أدرك أني غير صالحة كأنثى لسواك!

لفَّ ذراعيه حول خصرها وحملها حتى تلاقت عيناهما - آه من الخلايا الميتة على وجنتيك يا سيما، قتلتني!

وكعصفورٍ عائدٍ بوجع الجناح من هجرة طالت بحثًا عن بلاد الدفء، ركن

إليها، واحتوته بشوق سنوات، فتفتت كل شيء عداهما، مستحيلًا لذرات من وريقات الزهر. ولجا بُعدًا كونيًا عثرا على بوابته الزمنية معًا. تشبعت بالحياة واستمتعت بكل شهقة وزفرة هواء، تعلمت التنفس من جديد!

* * *

حدجته بسعادة متململة بين الأغطية بأريحية، فطبع قُبلة فوق جبينها: صباح الأنوار، أحسنتِ يا مدام جبالي، ليلة كاملة بلا مطاردات، لا تجوال بالغرفة، أو وقوف على مناضد الشرفات!

ـ المرة الأولى التي أنام فيها بعمقٍ يا دكتور جبالي ـ تابعت بغنجٍ ـ بين ذراعيك الأمر مختلف ـ داعبت شعره ـ زاد اجتياحها كثيرًا؛ قُبلات القمر!

ـ كل قُبلة قمرية ومضة شوق إليك، أحصي إن استطعتِ كم الاشتياق!

ـ مدَّ يده بجيب سترته الملقاة على الأرض مخرجًا لوحًا كبيرًا من الـtwix ـ الإفطار! فانيلا على العشاء وهاك كراميل، متعادلان! ـ أخذت اللوح بسعادة فأجلى حلقه ـ هناك من يريد التحدث إليك.

طالعته بفضول فوضع شاشة هاتفه أمام عينيها مشغلًا أحد الفيديوهات فشهقت بسعادة: "عم سيد!" ابتسامة الأخير أتاحت للشمس إلقاء أشعتها فوق سنه الذهبي (كيف حالك يا بتي؟ اشتقتك كثيرا! نحن هنا بانتظارك أنا وخالتك عزيزة). ظهرت في الصورة امرأة تجاوز الخمسين من عمرها تلوح لها بسعادة، فأشار الرجل خلفه نحو أرض خضراء احتلت المشهد، مفروشة بحقول القمح الذهبية على مدِّ البصر (انظري يا قِسمت ماذا فعلنا! سيعجبك المكان كثيرًا) لكزته عزيزة فاستدرك باهتمام، رافعًا خُفًّا جلديًا مطرزًا بنقوشٍ ذهبية (أوصانا الطبيب بإحضار واحدٍ من بلدتنا لأجلك، لا تتأخري).

غالبت دموعًا أغرقت عينيها عاجزة عن التفوه. فتنهد عدنان بإحباط: كلما هممت برسم ابتسامة فوق شفتيك تبوء خططي بالفشل!

لا تقل هذا! هو أجمل ما رأيت بحياتي، مازلت تذكر كل التفاصيل الصغيرة بشأني؛ عشقي للأراض الخضراء رغم أني لم أزرها يومًا سوى بحكايات أبي، ارتباطي بشخصٍ رغم عدم لقائي به سوى مرة واحدة، خُفٌّ

كان وسيلة لهروبي منك، آلآف الأمور الصغيرة التي لا ينتبه لها سواك!

احتضنها فاتكأت برأسها فوق صدره: أحب تفاصيلك بقدر حبي لك، السومانو الرائع، الابتسامة المذهلة، والروح الفريدة التي تتعذب لعذاب الآخرين، فتتحول لمحاربة للدفاع عنهم فورما تسنح الفرصة! سمّاعتك وصوت روزا، كل هذا أعشقه وعلى استعداد للمزيد.

ـ أخشى لحظات السعادة كثيرًا يا عدنان ـ قالتها مطرقة ثم رفعت عينيها صوبه ـ دومًا هي نذيرة لعاصفة تقتـ...

ـ وربما هي هدوء ما بعد العواصف، وقد نالنا منها حظًا وافرًا! ـ سألته عن مكان الأرض، فقال طابعًا قُبلة بمفرق شعرها ـ قريبة من المشروع الذي نعكف حاليًا على تنفيذه أنا وعمك، طلبت منه إخفاء الأمر لأجعلها مفاجأة!

ـ أخيًا رأى المشروع النور بعد تبخُّر الطرف الثالث!

زفر بحزنٍ: الطرف الثالث باقٍ؛ بدل جلده كالثعابين، كان فيما مضى بحلة أنيقة، والآن لحية ومسبحة، ظنَّ نفسه (شاطر) وكنا أشطر منه! أبلغنا النائب العام.

ـ تستقل المحاكم هذه الأيام ظهور السلاحف!

ـ لن يطول الأمر، يلقون كل لحظة وأخرى بذرة من بذور الكراهية في القلوب، وسرعان ما ستطرح البذور سلاسل غضب تلتف حول أعناقهم وتخنقهم ـ استدرك بإتمام وقد عاودت الابتسامة الرائقة احتلال شفتيه ـ زرعتها بالقمح خصيصًا لأجلك، أردت أن أحيل صفار الصحراء لخير ذهبي، أتعلمين لماذا اخترت القمح؟ ـ ابتسم مداعبًا وجنتها ـ هيًا اسأليني لماذا اخترت القمح؟ ـ سألته بسعادة ـ لأستحضرك كلما اشتقتك، لأشتم رائحة الأرض الندية، لأطالع عيدان القمح التي تشابه ذهبية خصلاتك، مستحضرًا إياك وقتما شئت!

هتفت معترضة: تستحضرني برائحة الطين!

أدرك دعابتها حين جعدت أنفها فهدر بمزح وانقضّ يغرقها بقبلاته الشرسة: مراوغة! سنذهب بالغد، نحتاج فسحة لالتقاط الأنفاس، ستكون فرصة جيدة لو الدتينا أنـ... ـ استدرك بريبة ـ لا تمانعين أليس كذلك؟

تنهدت: أتمنى فقط لو تقبل أمي بالاقتراح.

هتف بحماس: ستفعل عندما تعلم أن ياسر وأسرته سيأتون، وأنه سيبقى هناك! لديه ماجستير بالهندسة الزراعية؟ لن أعثر على شخصٍ أئتمنه على الأرض سواه.

ـ عدنان! لا أدري هل أهذي أم أن السعادة تغترف من جعبتها وتغرقني.

انحنى وقبَّلها بلهفة: بل تغرقنا معًا ـ قفز بغتة من الفراش ـ عليَّ الذهاب، إن ظللت أنظر إليك سأضرب جذوري بالفراش، وسنحتاج "بلدوزر لنزعي، عملية مهمة! ـ طالعته كقطة تصبو لإناء الطعام فرفع إصبعه محذِّرًا ـ الحالة خطيرة!

زفرت بإحباط: ماذا تتوقع من أرضٍ طال بها الجفاف؟! تتوق لريها حتى تضلع!

ابتسم بحنان بالغ: لن أتأخر.

* * *

أتى عمرو برقعة سوداء فوق عينه: تهانئي أيها العبقري، قمت بمعجزة!

كان قد انتهى لتوِّه من إحدى أصعب العمليات الدقيقة لإزالة ورم عصبي، يتلوى كثعبان حول العمود الفقري للرجل المسكين. تجلت ابتسامة فوق شفتيه ولوح يده بوقار مازحًا: أقل إمكانياتي يا دكتور! ـ هَدَف مداعبة عمرو لولا الكلمة الأخيرة التي مسَّت وترا حساسًا فاضطربت ملامح الأخير لجزءٍ من الثانية ـ متى ستسافر لإجراء العملية الأخيرة؟

ـ لن تضيف الكثير، سأقوم بها على أي حالٍ ـ زفر بسخرية ـ عليَّ التأقلم مع وضعي الجديد يا عدنان، لا أحب نسج أثواب وهمية من التمني، فأرتديها وأصبح مصدر سخرية من حولي.

ـ بمهنتنا كل شيء وارد، والأمل وسيلتنا الدائمة للعبور.

ـ وبمهنتنا الحقائق ومعايشة الواقع واجب لا ينبغي الهروب منه ـ رفع الملف بتسلية ـ كما أن عدَّ النقود عملٌ لا بأس به وإدارة المشفى ليس بالأمر الهين.

- لكن موهبتك الجراحية تستحق منك بعض الصبر والمحاولة.

- المهم - وضع أمامه ملفًا وردي اللون، فقطب بدهشة - بعض الإمضاءات لقبول اعتماد الطبيبة الجديدة؛ توصية قوية من الدكتور سعيد الكاشف.

مطَّ شفتيه بازدراء: تنبعث منه رائحة عطر أنثوي! ما هذه المخلوقة؟! لن أوافق سوىٰ بعد مقابلاتها، لن أسمح للوساطة بالتقليل من جودة الأطباء!

- نحتاج بشدة لجراح قلب، لدينا أكثر من حالة علىٰ قائمة الانتظار، لا تحجر رأسك، درجاتها العلمية جيدة، كما أنها موهوبة، ثم ماذا يدعوها للعمل هنا؟! تريد أن تثبت قدراتها بعيدًا عن المحاباة، كما أني - غمز بمرح - سمعت أنها صاروخ!

قلب عدنان يديه في الهواء: لمن يا عزيزي؟ كلانا متزوج!

قطب عمرو بدهشة: حسنًا، أنا متزوج، لولا ذلك لاستغللت عصابة القرصان تلك أسوأ استغلال؛ اكتشفت مؤخرًا تأثيرها المدمِّر علىٰ أعصاب النساء! لكن كيف تسمي أنتَ تلك الحالة الميؤس منها زواج؟!

قال عدنان باسمًا: ليلة كالحُلم! دككت قلاعها كلها، مستحيلة لغبار من الأتربة بين يديَّ، لم تملك أدنىٰ مقاومة! لقد استعدتها يا عمرو.

سأله بتوجس: هل يتحدث كلانا عن نفس الشخص؛ أسما! - اومأ عدنان، فمطَّ عمرو شفتيه - سعيد لأجلك بلا شك، ولكن هل أنت واثق هذه المرة أنها لن تقوم بإحدىٰ حركاتها الجنونية وتختفي دون سابق إنذار؟!

- ألا يمكنك الفرح لأجلي مرة وأسما طرفًا بالمعادلة؟!

- أحاول أن أكون مرآتك لأن خاصتك أعماها الحب! هل تعرف أسما كل شيء؟!

- تعلم ما تحتاج أن تعلمه.

- ماذا إن علمت شيئًا مما لا تحتاج أن تعلمه؟! علم لينا المسبق بأكثر مما يجب أن تعلمه أخلىٰ الطريق من الفخاخ. ألا تخشىٰ القضية؟ مازال الحظ إلىٰ جانبنا مع التعتيم المتعمد، لكن ماذا بَعد؟!

قال بشرودٍ: لولا الأسماء الثقيلة الواردة بالأوراق التي حصلوا عليها

من علّام مسعود، لأصبحت فضيحة! باستماتتهم لحماية أنفسهم ستنتهي القضية للاشيء، وربما لا يحتاج والدانا لإنهاك نفسيهما بإثبات عدم تورطهما بجرائم المشفى ـ تنهد ـ مستنقع طالت أوحاله ثيابنا جميعا!

ـ على الأقل ثمة أمل بتطهير أنفسنا، أما من من اغترف من المستنقع وأكل، لا أظن عفن جوفه قابل للنظافة ـ استدرك بصدقٍ ـ ربما سنستطيع التنفس أخيرًا بعيدًا عن عوادم الفساد! ـ لوح بالملف قبل مغادرته ـ كن رحيمًا بالصاروخ.

* *

ستكون ليلة مميزة، ستحرص على أن يكون العمر كله كذلك! لم يعد ثمة ما يؤرق أو يوجع؛ عادت روحها إليها كاملة بلا قسمة! تابعت بابتسامة هانئة الفيديو المصوَّر لعم سيد للمرة العاشرة، وهي تمشِّط شعرها المبتل، حين تناهى لسمعها صفارة الفاكس.. نسيت المستندات! لبرهة حدقت في المرآة بتردد ثم حسمت أمرها وسارعت هابطة الدرج ركضًا نحو المكتب، تسلمت عشرين ورقة، حريصة على عدم اختلاس النظر لمحتواهم، تنغرز أسنانها بشفتها السفلى مقطبة؛ الصراع داخلها محتدم! كانت تنوي شن حرب شعواء والانفراد بسبقٍ إعلامي عن القضية التي تطاردها منذ شهور؛ بدأت بتلميحات عن فساد إداري وأخلاقي بالمستشفى، وانتهت بتعتيم مفاجئ! كل ما عليها قلب الأوراق والمرور فوق السطور! أغمضت بقوة مطبقة فكيها تطحن أسنانها طحنًا. إنه عملها! كما يملك عملًا يخلص له بكل كيانه، تملك هي الأخرى عملًا تنوي أن تصنع فيه لنفسها طريقًا معبدًا، يحقق أحلامها ويكسبها مصداقية وثقلًا، تراوغ! الآن ألف قضية مفتوحة البطن على الساحة، مترامية الدواخل سعيًا لمن يهتم، لِمَ هذه بالذات؟! لم تقطف الشوك والثمار في متناولها؟! ملايين الأمور تغيرت بين الأمس واليوم! هي نفسها تحولت بينهما مائة وثمانين درجة. مطَّت شفيها معتصرة جانبي الأوراق تهزها بحنق. ماذا أفعل بكِ؟! تبادلت والوريقات نظرات ترقُّب، فغلبها أخيرًا حدسها الصحفي، قلبت الوريقات بحذرٍ وجعلت تمرر عينيها

علىٰ السطور مرورا بدأ بطيئًا حذرًا، تحول لوثب طويل المدىٰ جعلها تلهث عند الكلمة الأخيرة مقطوعة الأنفاس، لتلقي بنفسها فوق مقعد المكتب تعتلي وجهها نظرة ذاهلة. ألقت نظرة أخرىٰ علىٰ الأوراق حابسة أنفاسها فكاد الاختناق يفتك بها، مجبرًا رئتيها علىٰ نهل الهواء، ارتمىٰ ذراعها إلىٰ جانبها وانسلت الأوراق من بين أصابعها علىٰ الأرضية الخشبية، وقد تحول كل شيء من حولها لمشهد بالتصوير البطيء!

يسرقون الكلىٰ والأعضاء البشرية خِلسة في ظلام الردهات وصمت أروقتها إلا من صراخ المسروقين الثكلىٰ! لذا تجنبوها بعد وفاة نوار! هل سرقوا كليتها السليمة دون أن يهتموا باحتمالية انهيار الأخرىٰ؟! ألهذا اختصت الأشعة بالكلية السليمة؟! وماذا سرقوا منها عدا كليتها؟! ربما سرقوا قرنية عينيها، ربما هتكوا ستر صدرها ونزعوا قلبها أو حصدوا كبدها! هكذا يطلقون علىٰ أخذ الأعضاء من الأجساد الميتة؛ عملية الحصاد! لكنها كانت حية للحظة الأخيرة، للحظة أن قرروا قتلها، كحاصد الأرواح بالعباءة السوداء والمنجل ذي النصل اللامع، حصدوا نوار! كذب عليها ثانية كما كذب من قبل بشأن إرثها! هزت رأسها بذهول، لا يمكن أن يكون علىٰ عِلم بتلك الأمور، ويظل قادرًا علىٰ الابتسام بوجهها ممارسًا العشق بكل ذاك الشغف وكأن الكون كله لا يهم! عشق تأصلت جذوره بروحيهما فربطتهما معًا بخيطٍ من نور، ليس من العدل أن تكتشف اليوم أن الرابط بينهما كان ظلامًا دامسًا! لوهلة تجسدت نوار أمام عينيها حاملة نظرات مشفقة وابتسامة حزينة، علىٰ من تحزنين الآن يا نوار؟ علىٰ نفسك أم عليَّ! شقيقتك سمحت لقاتليك استباحة رحمها وزرع بذورهم الشيطانية، فارجة شفتيها علىٰ وسعهما بسذاجة! لا! نوار الصغيرة ليست بذورًا شيطانية؛ بذرة نور، بذرة حب، روحاهما معا هي والطبيب. لم يكن يعمل بالمشفىٰ وقتما مرضت، تركها بلا رجعة، فتح مشفاه مناصفة للحالات المجانية؟! لكن.. ماذا بشأن ما سبق؟! أتراه آثر العمىٰ؟! آثر السير بجانب الحائط كما يقولون! لشهور طويلة ظلت تسأل لماذا تموت؟ أي عسن مسموم هذا الذي أفضىٰ بكِ للموت يا نوار؟! فيروس تمكَّن من جسدها بغفلة حياء منها؛ أجبرها العالم

على الصمت والانزواء على نفسها كاتمة صرخة الاستغاثة، فكان سبيلًا لهلاكها، لتستل الأيادي القذرة نصل السكاكين ممزعين جسدها بلا رحمة!

وضعت يدها فوق بطنها تتسع عيناها رعبًا، أتكون حاملًا منه الآن؟! مسَّدت جبهتها بوهن، لقد ملت الغضب، ملت اليأس والصدمات والعجز، ألا يمكن أن تمر سفينتها ولو لمرة بلا عواصف؟! نهضت بتثاقل والتقطت الأوراق فعثرت بينها على ورقة أغفلتها، إنها ورقة (تمرد)! الورقة التي وعدها المساعد بإحضار أول نموذج منها. عادت للغرفة ملقية إياها على الفراش. واحتضنت المسبحة بين راحتيها، وفتحت النافذة صوب الجبل، حتى المكان هنا تغيَّر؛ لم يعد يحتفظ بعذرية وقسوة دروبه، بدأت آلات البناء اجتياحها. آمنت بالقدرة على تبديل قسمتها وتطويعها، واهمة! أسكرتها أحلامها ومحطات النجاح القليلة فغيبتها عن الواقع! حدقت للسماء بتوسُّل متمتمة: "يا ودود.. يا ودود" أمسكت بالقلم لتوقع ورقة (تمرد) بأصابع مرتعشة لتشهق ببكاءٍ عنيفٍ، صبغ الورقة بدموعها، تتعلق أنظارها بالهاتف الذي تعالى رنينه، معلنًا تلقيها اتصال من معد البرنامج، تركته حتى انقطع من تلقاء نفسه، فواجهتها صورة عم سيد على الشاشة، ابتسامة أمل وأرض خضراء مدَّ البصر، ليعاود الهاتف الرنين، عدنان المتصل، استسلم الهاتف ثانية للصمت. خفضت انظارها محدجة بطنها بريبة، بمن تعاود الاتصال؟! عاودت الالتفات نحو السماء متمتمة: بمن؟!

* *

تلاشت ابتسامته شيئًا فشيئًا، واضعًا الهاتف بضجرٍ: لم لا تجيبين يا سيما؟!

ودَّ مشاركتها انتصاره الصغير اليوم! دلفت امرأة ببدايات العقد الرابع متهللة الأسارير: أيها الطبيب! أيها الطبيب! لقد تحدث إليَّ زوجي، خرج سالمًا والفضل لك بعد الله - انسابت الدموع من عينيها فجففتها بطرف خمارها الأسود المهترئ الأطراف - لا أدري كيف أشكرك! - استطردت بامتنان - لكني أملك ما هو أغلى وأثمن من كل الهدايا والنقود؛ دعوة مظلوم

أنصفته يا بيه، سأدعو لك بكل جوارحي كل ليلة حتى آخر ليلة في حياتي، أن يكافئك الله على معروفك، ويمنحك الصحة والعافيه لك ولأحبابك، ولا يفطر قلبك يومًا بفقد عزيز أو غالٍ.

نهض ومدَّ يده ممسكا بكفها المرتعش باسمًا، سعادته بتلقي الشكر والامتنان أجمل لحظات اليوم كله! ظلت المسكينة جالسة على الأرض بردهة المشفى، رافضة كل محاولات إقناعها بالجلوس على أحد المقاعد أو الانتظار بغرفة الاستقبال المريحة؛ كان جلوسها على الأرض تذلُّلًا لله عله يستجيب دعواتها. (هو أب لثلاثة بنات، ولا مصدر للرزق سوى عمله بالنظافة). أخبرته بهذا حين أتت متضرعة، ليوافق على تلقي الحالة وقد سدت بوجهها السبل، ورفض التأمين الصحي علاجه بدعوى أنها حالة ميؤس منها! قال بنبرة مختنقة: سأدعو الله بإجابة دعواتك ليكرمني بها، ويغفر زلاتي.

- سيغفرها لك ولي ولكل عباده، هو الكريم يا بيه، هو الكريم.

ابتسم بحماسٍ: هناك وظيفة بانتظاره هنا بالمشفى فور انتهاء نقاهته، وبثلاثة أضعاف المرتب السابق - شهقت المرأة وانحنت تهم بتقبيل يديه فسارع مبعدًا يده - إياكِ وفعل هذا أبدًا! لا أقوم سوى بواجبي.

أغرورقت عينيها بدموع السعادة: أعزك الله أيها الطبيب ونصرك على الحزن كما نصرتني.

- تعنين نصرني على أعدائي!

- بل الحزن يا بيه، حين تنتصر على الأعداء ليس شرطًا أن تسعد، ولكن بانتصارك على الحزن ستكون سعيدًا! وأنا أتمنى لك من قلبي كل السعادة، كما أسعدتني وأسرتي التي نسيها العالم كله عدا من لا يغفل ولا ينام.

اقشعرَّ بدنه وهي تقبِّل ظاهر وباطن يديها حمدًا وتضرعًا لله، غادرته مودعه وتمتمات الشكر والامتنان وهمهمات الحمد ماتزال تشجي أذنيه، في كل مرة يفعل خيرًا يشعر أن حجرًا مما يحمله خلف ظهره بمخلاة الماضي يسقط عن كاهله، وكم يتمنى اللحظة التي يرتاح ظهره وضميره من ثِقل الحمل! نظر لساعته مقطبًا وقرر إخبار السكرتيره بالاعتذار للطبيبة الجديدة

إن جاءت بعد رحيله، وقد تأخرت، ها هو الجواب بائن من عنوانه؛ مدللة أخرىٰ بالعائلة الطبية الكبيرة! حمل الملف لقراءته الليلة بعد العشاء، وربما يتصل بليلىٰ ـ رغم رغبته بمفاجأتها بالزيارة ـ ليطلب منها أصناف مميزة لعشاء الليلة، همَّ بالخروج فاصطدم بشخصٍ كان يوشك علىٰ الدخول، أتاه الصوت المعتذر مبحوحًا بنبرة أنثوية ناعمة، وسرعان ما تأوهت حين اصطدم اللاب بقدمها بعد سقوطه مع أوراقها التي حملتها، فانحنت مسرعة نحو الأسفل.

كان الباب مفتوحًا وكنت سأطرقه، فسبقتني بخروجك! أنا سهيلة الكاشف، الطبيبة الجديدة.

نهضت تاركة إياه بالأسفل وقد انحنىٰ بحركة عفوية يعاونها علىٰ لملمة أشيائها. رفع عينيه عن الأشياء أسفل قدميه، فقابلته سيقانها الرشيقة داخل جوارب شبكية من الشيفون الأسود، يطل إصبعا قدميها من فتحة الحذاء والجوارب الأمامية بلونٍ أحمر لامع، يفوق علو كعبيها ناطحات السحاب، رفع حاجبيه دهشة: ألا ترين أنكِ تستبقين الأمور؟ لم أقرر بعد إن كنتِ الطبيبة الجديدة!

رفعت رأسها بعجرفة ورفعت معها نظارتها الطبية فوق رأسها، فعاودت غرتها البندقية الانسلال فوق عينيها اللتين حملتها لمعانًا من الذكاء لم يستطع إغفاله: ستوافق يا دكتور، أنا فلتة، وستخسر الكثير بموالاتي ظهرك.

ازداد حاجباه إرتفاعًا حتىٰ كادا يلتصقان بشعره، ونهض مناولًا إياها بعضًا من أشيائها: لم أقرأ ملفك بعَد! خاصة وقد تأخرتِ عن موعدك المحدد.

قالت برزانة: أعتذر، الطريق مزدحم، الكل يحاول العودة إلىٰ منزله مبكرًا اليوم! ـ أردفت باهتمام ـ تهانئي، يتحدث الجميع عن العملية التي قمت بها، تمنيت التواجد معك لمتابعتها!

زفر ساخرًا: بهذا الحذاء الشاهق! ـ أشار لقدميها ـ لا أظن! كطبيبة يجب أن تكون ملابسك أكثر راحة وبساطة! كما أنه ليس بتخصصك.

ـ الطب لا يتعارض مع كوني امرأة تعشق الموضة؛ نقطة ضعفي التي لم

تكن لتنتبه لها لولا دقة ملاحظتك! ـ سارت بخيلاء صوب مكتبه وجلست بأريحية على أحد المقعدين المتقابلين، واضعة ساق فوق الأخرى فانحسر ثوبها مبرزًا ركبتين صغيرتين ـ شغفي بالعمليات لا يقف عند جراحات القلب، ها قد عرفت نقطة ضعفي الثانية؛ مباضع الجراحة وغرف العمليات. لا أدري ما ستعرفه بعد إن ظللت معك بضعة دقائق أخرى!

عاود حاجباه الارتفاع حتى أوشك هذه المرة على إنزالهما بنفسه: لنرَ إذن الملف طالما أتيتِ، خاصة وأني متعجل ولدي موعدٌ هامٌ.

ـ لن تستغرق مقابلتنا واتخاذك القرار وقتًا طويلًا.

زفر بسخرية: لونه غريب ورائحته أغرب!

قالت بلا مواربة: أحب أن أكون مميزة، وأترك بصمة بكل مكان تطأه قدماي.

تجاهل كلماتها المبطنة وجعل يقرأ بصمت لثوانٍ حين هتف بدهشة حقيقية: كنتِ أحد المتدربين مع الدكتور مجدى يعقوب!

كنت أفضلهم، وبإمكانك الاتصال به للتأكد ـ سألها عن مغادرتها المستشفى بأسوان فزفرت بإحباط ـ والدي! قادرة أنا على كل شيء بإمكانك تخيله، إلا أوامر والدي لا نقاش فيها، قرر عدم ابتعادي عن المنزل والإقامة بأسوان وحدي أكثر من هذا، فعقدت معه صفقة، حصلت منها على أقصى المكتسبات الممكنة.

سألها باسمًا: بوسعي القول أن أهم مكتسباتها رفضك العمل معه بمشفاه.

أومأت: وكنت باحتياج شديد للعمل في أجواء مشابهة لمشفى أسوان، فبحثت عن مكان يقدم خدمة مجانية حقيقية بإمكانيات قوية، وعثرت على مشفاك. فذاكرتك جيدًا ـ همَّ بسؤالها فعاجلته ـ لا أعمل في مكان أو أخوض تجربة سوى بعد دراستها، ومعرفة كل صغيرة وكبيرة عمن سأتعاون معهم، خاصة قائد الركب!

صدق عمرو؛ صاروخ عابر للقارات، من وصفها لم يقصد جاذبيتها وملامحها الجميلة فحسب، كذلك شخصيتها المقتحمة وطبيعتها القوية التي قلما قابلها بطبيبات مجالها! نظر بدهشة للشيء بين يديه من بقايا

أشيائها: "ما هذا؟!" جذبت الشيء الورقي من بين أصابعه بحركة رشيقة، وبتعديلات أصابعها حوَّلته لنظارة، فغر فمه ببلاهة: منظار لمتابعة الكسوف! لماذا؟

قلبت عينيها بضجر: ما بالكم يا أهل الكهف! ألا يعلم أحدكم أن اليوم وفي تمام الثالثة عصرًا سيحدث أقوىٰ كسوف للشمس مرَّ علىٰ مصر منذ سنين؟! سطح المشفىٰ مرتفع كفاية لأتمكن من متابعته قبل رحيلي، لا أريد أن يفوتني ـ لوحت بالنظارة البنية ـ إحدىٰ هواياتي، لي هوايات كثيرة! أنا عازفة بيانو لا بأس بي، وشغوفة بعالم الحيوان، أملك قردين صغيرين بالفيلا يحاول أبي جاهدًا التخلص منهما، كما أملك مجموعة من السلاحف الرائعة والببغاوات النادرة.

قال بتهكم: إذن لست فلته بعزف البيانو!

ـ إن شئت لأصبحت؛ أنجح بكل شيء أقرر النجاح فيه ـ أردفت بلامبالاة ـ لكني قررت أن أصبح فلتة في جراحة القلب والأوعية الدموية، وها أنا أمام أكبر جرَّاحي العمود الفقري بمصر، فلتة مثلي!

أعاد راسه للوراء مقهقهًا: لستِ بالسهلة يا دكتوره سهيلة، أتساءل إن كان التعامل سيكون مثمرًا بيننا؟!

قالت هاتفة: سيكون، أعدك وأعد نفسي بهذا، ومن البداية ـ ارتفعت زاوية فمها ـ أعشق البدايات، لها دومًا نكهة حماسية حارة، وvolt التوقعات والتمنيات بها عالٍ. ألا تعشقها مثلي؟!

أومأ مبادلًا إياها نظراتها المتوثبة ذكاء وعنفوان، حين رن هاتفه، ألقىٰ نظرة علىٰ اسم المتصل باسمًا. فقالت ملوِّحة بالنظارة الفلكية: أملك أخرىٰ أحضرتها تحسُّبًا للظروف، أتحب الذهاب معي لنتابع الكسوف؟ سيكون رائعًا! ـ أردفت بضجرٍ ـ ربما المتصل بابا، يود الاطمئنان منك علىٰ نتيجة المقابلة!

طالعها لوهلة متعجبًا فقابلته بابتسامة لا يدري لِمَ شعر فيها ببعض المكر! فأشاح بوجهه دون أن تفارق الابتسامة شفتيه: آلو...

قسمة الروح

لم يكن د. عدنان في خضم عالمه المغلق على عملياته وهوسه بالفلك؛ مهتمًا بالسياسة، رغم تهديد أصحابها لسلامة عائلته، واتخاذهم مشفاه ستارًا لتمرير صفقاتهم المشبوهة. حتى كان لقاؤه بقسمت ذو الفقار الأشبه بالاعيب القسمة. المرأة ذات الألف وجه، التي مثلت في نظره أسوأ طبائع النساء. بينهما تاريخ طويل من سوء الظنّ والأسرار: عقد لزواج المتعة زجّ به في حياتها الكارثية وتعطشها للثأر ملاحقًا جولاتها الليلية. فيما واجهته مراتها الضخمة بنفسه وأفراد عائلته، ليصبح في لحظة كيانين: كيان مراقب ومتوجّع في صمت، وكيان يتحرك كالدمى، متورطًا بسببها في ثورة لم يبدأها، ولم يتبنها..

أهي حالة حداد أم ولادة متعسرة ؟!

مايا عباس الطرابيلي..

كاتبة مصرية من مواليد بورسعيد عام ١٩٧٨، تخرجت من كلية التجارة قسم المحاسبة عام ١٩٩٩.. وتعدّ "قسمة الروح" أولى رواياتها المطبوعة..